التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة حصريا للناشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨ / ١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٧٢٦١٦١٦ - ٢ - ٠٠٩٦٢)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٨م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الثالث

دار الكتاب الثقافي
الأردن- إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَنْعَامِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ حَرْفٍ وَأَرْبَعمِائَةٍ وَاثْنَان وَعُشْرُون حَرْفاً؛ وَثلاثَةُ آلاَفٍ وَاثْنَان وَخَمْسُون كَلِمَةً؛ وَمِائَةٌ وَخَمْسٌ وَسِتُّونَ آيَةً. كُلُّهَا احْتِجَاجٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَكُلُّهَا مَكِّيَّةٌ غَيْرَ سِتِّ آيَاتٍ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَدَنِيَّاتٌ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] إِلَى آخِرِ ثَلاَثِ آيَاتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ وَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ قَائِدُهُمْ جِبْرِيلُ عليه السلام قَدْ سَدُّوا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ؛ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكُتَّابَ فَكَتَبُوهَا فِي لَيْلَتِهِمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَرَأَهَا مِنْ أُمَّتِكَ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً صَلَّى عَلَيْهِ السَّبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ الَّذِينَ شَيَّعُوهَا إِلَيْكَ، يَعُودُ كُلُّ آيَةٍ مِنْهَا يَوْماً وَلَيْلَةً، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِداً شُكْراً للهِ تَعَالَى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ قال كعبُ الأحبار: وأوَّل مفتاحِ التوراة (الحمدُ لله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ)، وخاتِمتُها خاتِمة سورة هُود (وَللهِ غَيْبُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ). قال مقاتلُ: (قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: [الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ] فَكَذبُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى حَامِداً نَفْسَهُ دَالاًّ عَلَى تَوْحِيْدِهِ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) أي خلقَ السَّموات بما فيها من الشَّمسِ والقمر والنجومِ، والأرضَ بما فيها من البَرِّ والبحرِ؛

---

(١) الآية / ٦٧.

(٢) الآيات / ١٥١-١٥٣.

والسَّهلِ والجبل؛ والنَّباتِ والشجَر، خلقَ السموات وما فيها في يومين؛ يومِ الأحدِ ويوم الاثنين؛ وخلقَ الأرضَ وما فيها في يومين؛ يومِ الثلاثاء ويوم الأربعاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ ﴾ ؛ قال السديُّ: (ظُلْمَةَ اللَّيْلِ وَنُورَ النَّهَارِ). وقال الواقديُّ: (كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور فَهُوَ الْكُفْرُ وَالإِيْمَانُ؛ إلاَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَإِنَّهُ يُرِيْدُ بِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ). قال قتادةُ: (يَعْنِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ)(١). وقال الحسنُ: (يَعْنِي الْكُفْرَ وَالإِيْمَانَ)(٢).

وقيل: خلقَ الليلَ والنهار لمصالحِ العباد؛ يستريحون باللَّيل ويبصرون معايشَهم بالنهار. وإنَّما جَمَعَ (الظُّلُمَاتِ) ووحَّدَ (النُّورَ) لأن النورَ يتعدَّى، والظلمةَ لا تتعدَّى.

وقال أهلُ المعانِي: (جَعَلَ) ها هنا صلةٌ؛ والعربُ تزيد (جَعَلَ) في الكلامِ كقول الشاعر:

وَقَدْ جَعَلْتُ أرَى الاثْنَيْنَ أرْبَعَةً ... وَالْوَاحِدَ اثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبَرُ

وتقديرُ الآية: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) والظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. وقيل: معناهُ: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)؛ لأنه خَلَقَ الظلمةَ والنورَ قبلَ السمواتِ والأرض. وقال قتادةُ: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ قَبْلَ الأَرْضِ، وَالظُّلْمَةَ قَبْلَ النُّور، وَالْجَنَّةَ قَبْلَ النَّار).

وقال وهبُ: (أوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ مَكَاناً مُظْلِماً، ثُمَّ خَلَقَ جَوْهَرَةً فَأَضَاءَتْ ذلِكَ الْمَكَانَ، ثُمَّ نَظَرَ إلَى الْجَوْهَرَةِ نَظَرَ الْهَيْبَةِ، فَصَارَتْ مَاءً وَارْتَفَعَ بُخَارُهَا وَنَبَذ زَبَدَهَا، فَخَلَقَ مِنَ الْبُخَارِ السَّمَوَاتِ؛ وَمِنَ الزَّبَدِ الأَرْضِيْنَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بَعْدَ هذا البيان (بربهِمْ يَعْدِلُونَ) الأوثان؛ أي يُشْرِكُونَ. وقيل: معناهُ: (يَعْدِلُونَ) أي يجعلون لله عَدِيْلاً ويعبدون الحجارة والأموات؛ وهم يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ، فالأصنامُ لاَ تَعْقِلُ شيئاً من ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠١٥٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٤٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ ؛ معناهُ: خلقكم من آدمَ عليه السلام، فأخرجَ الخطابَ له؛ لأنَّهم ولَدُهُ، قال السُّديُّ: (لَمَّا أرَادَ اللهُ خَلْقَ آدَمَ، بَعَثَ جِبْرِيْلَ إلَى الأَرْضِ لِيَأْتِيَهُ بطَائِفَةٍ مِنْهَا، فَاسْتَعَاذتِ الأَرْضُ باللهِ أنْ يَنْقُصَ مِنِّي، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ. فَبَعَثَ مِيكَائِيْلَ؛ فَاسْتَعَاذتْ، فَبَعَثَ مَلَكَ الْمَوْتِ؛ فَاسْتَعَاذتْ بِاللهِ مِنْهُ؛ فَقَالَ: وَأنَا أعُوذُ باللهِ أنْ أخَالِفَ أمْرَهُ، فَأخَذ مِنْ وَجْهِ الأَرْضِ، فَخَلَطَ السَّوْدَاءَ وَالْبَيْضَاءَ وَالْحَمْرَاءَ؛ فَلِذلِكَ اخْتَلَفَتِ الأَلْوَانُ؛ أَلْوَانُ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ عَجَنَهَا بِالْمَاءِ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ وَالْمِسْكِ؛ فَلِذلِكَ اخْتَلَفَتْ أخْلاَقُهُمْ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلَكِ الْمَوْتِ: رَحِمَ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ الأَرْضَ وَلَمْ تَرْحَمْهَا؛ لاَ جَرَمَ أنْ أجْعَلَ أرْوَاحَ مَنْ أخْلُقُ مِنْ هَذا الطِّيْنِ بِيَدِكَ)[١].

وروى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَجَعَلَهُ طِيْناً، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى كَانَ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمَّ خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إذا كَانَ صَلْصَالاً كَالْفَخَّارِ؛ مَرَّ بِهِ إبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، فَقَالَ: خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيْمٍ. ثُمَّ نَفَخَ اللهُ فِيْهِ الرُّوحَ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ قَضَى أجلاً) أي خَلَقَكُم مِن آدمَ عليه السلام (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) أي جعلَ لِحياتكُم وفاةً تحيونَ فيه وهو مُدَّةُ كلِّ واحدٍ منَّا مِن يوم يولَدُ إلى يوم يَموت. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ ؛ أي مدَّة انقضاء الدُّنيا إلى أنْ تقومَ الساعةَ؛ ولا يعلمُ وقتَ قيامِها إلاَّ اللهُ. وقال مجاهدُ وابن جبير: (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) يَعْنِي أجَلَ الدُّنْيَا (وَأجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) وُهُوَ الآخِرَةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ أي ثُمَّ أنتُم بعدَ هذا البيانِ تَشُكُّونَ في موضعٍ ليس هو موضعُ الشَّكِّ. وَالْمِرْيَةُ هي الشَّكُّ الْمُجْلِبُ بالشُّبهة؛ أصلُها مِن: مَرَيْتُ النَّاقَةَ إذا مَسَحْتَ ضَرْعَهَا لِيَنُزَّ لَبَنُهَا، وَيَجْلِبَهُ لِلْحَلْبِ[٣].

---

(١) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص١٥.

(٢) في كنز العمال: الحديث (١٥٢٢٨).

(٣) ينظر: لسان العرب: ج ١٣ ص٩٠: مادة (مرا)؛ قال ابن منظور: (فمِن مَرَيْتُ النَّاقَةَ إذَا مَسَحتُ ضَرْعَهَا لِتَدِرَّ) وقال: (وَالْمِرْيَةُ وَالْمُرْيَةُ: الشكُّ والجدَلُ، بالكسرِ والضم).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾؛ معناه: هو اللهُ المعبود المنفردُ بالتدبيرِ في السَّموات والأرض، العالِمُ بما يُصلحهما وبما يعملُ فيهما. يعلمُ جهرَكم وسرَّ أعمالِكم وعلانيةَ أموركم، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي ما تعملونَ مِن خيرٍ وشرٍّ. وعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأَ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الأَنْعَام ثَلاَثَ آيَاتٍ إلَى قَوْلِهِ: (وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) وَكَّلَ اللهُ بِهِ أرْبَعِينَ مَلَكاً يَكْتُبُونَ لَهُ مِثْلَ عِبَادَتِهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ مَعَهُ مَرْزَبَةٌ مِنْ حَدِيْدٍ، فَإذا أرَادَ الشَّيْطَانُ أنْ يُوَسْوسَ لَهُ؛ ضَرَبَهُ بهَا ضَرْبَةً كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سَبْعُونَ حِجَاباً، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: امْشِ فِي ظِلِّي؛ وَكُلْ مِنْ ثِمَار جَنَّتِي؛ وَاشْرَبْ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ؛ وَاغْتَسِلْ مِنْ مَاءِ السَّلْسَبِيْلِ؛ وَأنْتَ عَبْدِي وَأنَا رَبُّكَ][(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي ما تأتِي كفَّارَ مكةَ من دلائلِ التوحيد والنبوَّة؛ مثلَ كسوف الشمسِ والاستسقاء، وكسوفِ القمرِ والدُّخان؛ إلا كانوا عن هذهِ الآيات والعلامات معرضينَ مكذِّبين تاركين لَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي فقد كذبَ أهلُ مكة بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن؛ وبما رَأوْهُ من انفلاق القمَر بمكةَ، كما رويَ عن ابنِ مسعود (أنَّ الْقَمَرَ انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ حَتَّى رَأوا اجْرَابَي فِلْقتَي الْقَمَرِ، ثُمَّ ذهَبَتْ فِلْقَةٌ وَبَقِيَتْ فِلْقَةٌ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أنْبَاءُ مَا كَانُوا بهِ يَسْتَهْزِئُون) هذا وعيدٌ لَهم؛ أي سيعلمون ما يَؤُولُ إليه عاقبةُ استهزائِهم بالرُّسُلِ والكتُب والآيات التي كانت تأتيهم، فَقَتَلَهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ بالسَّيف، ويأتيهم خبرُ استهزائهم حين يرون العذابَ معاينةً. والنبأُ عبارةٌ عن خَبَرِ الَّذي لهُ عِظَمٌ وشَأنٌ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٤٥-٢٤٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه السلفي بسند واه عن ابن عباس)). ونقله أهل التفسير عن جابر ﷺ؛ ينظر: اللباب: ج ٨ ص٥٤٠.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ ؛ أي ألَمْ يعلم أهلُ مكَّة كم أهلَكنا من قبلهم من قرنٍ بكفرهم، مثلَ قومِ نُوح وعَاد وثمود، ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ ؛ وأمهلناهم في العُمْرِ والولد ورفعِ الموانع ما لَمْ نُمهلْ لكم، ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ ؛ أي فأنزلنا عليهم المطرَ دَارّاً دائماً يتبعُ بعضُه بعضاً، ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ ؛ ((أي مِنْ تَحْتِ))(١) أشجارهم وبساتينهم، فلم يشكرُوا وعصَوا ربَّهم وكذبوا رسلَهم، ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ بكفرهم وتكذيبهم، ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن بعدِ هلاكِهم، ﴿ قَرْنًا ﴾ ؛ قَوْماً، ﴿ آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ فسكنُوا ديارَهم، ثم بُعِثَتْ إليهم الرُّسلُ، فمن لم يأخُذْ بِملَّةِ الرُّسُل ومنهاجهم أهلكَهم الله.

والقَرْنُ - في قول أكثر المفسِّرين-: أهلُ عَصْرٍ واحِد، سُمُّوا قَرْناً؛ لاقترانِهم في قَرْنٍ واحد. ويقالُ: أهلُ كلِّ عصرٍ فيهم نبيٌّ أو عالِمٌ، لاقترانِهم بالنبوَّة والعلم، كما قالَ ﷺ: [خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ](٢). وأرادَ بالقرن الأوَّل: الصَّحابةَ، وبالثاني: التابعين، وبالثالِث: تابعِي التابعين. واختلفُوا في مدَّة القرن؛ قال بعضُهم: ثَمانُونَ سنةً، وقيل: مِائةُ سنةٍ، وبين القرنين ثَمَانِي عشرةَ سنةً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبي أمَيَّةَ الْمَخْزُومِيِّ؛ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَعَهُ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأنَّكَ رَسُولُهُ). وقال مقاتلُ والكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَعَبْدِاللهِ ابْنِ أبي أمَيَّةَ، وَنَوْفَلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ؛ قَالُوا لِلنَّبيِّ ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَعَهُ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأنَّكَ رَسُولُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

---

(١) ((أي من تحت)) ليست في المخطوطة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (١١٤٤) عن النعمان بن بشير: ج ٢ ص٧٤، والحديث (٥٤٧١) عن أبي هريرة ﷺ: ج ٦ ص٢٢٣. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٩؛ قال الهيثمي: ((فيه عاصم بن بهدلة، وهو حسن الحديث، وبقية رجال الإمام أحمد رجال الصحيح)).

(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٩٣.

ومعناها: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي) صَحِيفَةٍ وعلَّقناهُ بين السَّماءِ والأرضِ ينظرون إليه ويعاينونه ويلمسونه بأيديهم، ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ؛ كفَّارُ مكَّة بعد معاينةِ ذلكَ: ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ ؛ مَا هَذا؛ ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي كما قالوا في انشقاقِ القَمَرِ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(١). وفي الآيةِ بيانُ أنَّهم كانوا مُعاينين مصرِّين على التكذيب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي قالوا: لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نشاهدُه ونعاينُه يخبرنا بأنه نبيٌّ، يقولُ تعالى: (وَلَوْ أنزَلْنَا مَلَكًا) كما سألوهُ فكذبوا لعذبناهُم بعذاب الاستئصال (ثُمَّ لا يُنظَرُونَ) أي لا يؤجَّلون ولا يُمْهَلُونَ بعدَ نزول الآية المقترحة، نحوَ ما ذكرَ اللهُ تعالى في قصَّة قومِ صالحٍ وغيرِهم. قال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: لَوْ أتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَتِهِ لَمَاتُوا)(٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي لو أرسَلنا إليهم رسُولاً من الملائكةِ لأرسلناهُ في صورةِ الإنسان؛ لأنَّهم لا يستطيعون النظرَ إلى الملائكةِ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى هلاكِهم؛ وليكونَ الشكلُ إلى الشكلِ أميلَ، وبه الذهن(٣) إلى الفهمِ عنه أقربَ، وإلى القَبول منه أسرع، ولو نظرنا إلى الْمَلَكِ على هيبتِهِ لصُعِقْنَا.

وقد كانتِ الملائكةُ تأتِي الأنبياءَ فِي صورة الإنسان؛ من ذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام كان يأتِي النبيَّ ﷺ في صورةِ دحيةَ الْكَلْبِيِّ، وجاءتِ الملائكةُ إلى إبراهيمَ عليه السلام في صورةِ الضَّيفين، وجاءتِ الملائكةُ إلى داودَ عليه السلام في صورة رَجُلَيْنِ يختصمان إليه، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً) أي لو أنزلنا إليهم مَلَكاً لجعلنا ذلكَ في صورةِ الرَّجُلِ أيضاً.

---

(١) القمر / ٢.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٩٣؛ نقله القرطبي عن ابن عباس والحسن وقتادة، بلفظ: (لو رأوا الملَك).

(٣) في المخطوط: (وبه السن والى الفهم عنه أقرب) وهو غير مستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) أي اختَلَطْنَا وشَبَّهْنَا عليهم ما يَخْلُطُون على أنفسِهم حتى شكُّوا؛ فلا يدرونَ أمَلَكٌ هو أم رجُلٌ؟ وهذا لأنَّهم أنكرُوا نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بعدَما عرفُوه بالصدق والأمانة، ثم لَبَسُوا على أنفسهم وعلى ضَعَفَتِهِمْ؛ فقالوا: إنَّما هو بَشَرٌ، فلو نزلَ المَلَك على صورةِ رجلٍ لَلَبَسُوا على أنفسهم أيضاً فلم يقبلُوا منه وقالوا: إنهُ في مِثْلِ صورَتنا!

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي اسْتَهْزَأتِ الأُمَمُ الماضية بأنبيائِهم كما اسْتَهْزَأ بكَ يا مُحَمَّدُ قومُكَ، ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي نَزَلَ بهم وحَلَّ بالمستهزئين من الكفَّار عقوبةُ استهزائهم بالكتاب والرسُول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وقال الضَّحاك:(كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِساً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ: بلاَلَ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَغَيْرِهِمْ، فَمَرَّ بهمْ أبُو جَهْلٍ فِي مَلإٍ مِنْ قُرَيْشٍ؛ فَقَالَ: تَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أنَّ هَؤُلاَءِ مُلُوكُ الْجَنَّةِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ لِيُثَبِّتَ فُؤَادَهُ وَيَصْبرَ عَلَى أذى الْمُشْرِكِينَ). أي إن سَخِرَ أهلُ مكَّة من أصحابكَ، فقد فَعَلَ ذلك الجهلةُ برسلِهم قبلكَ.

وَالْحَيْقُ فِي اللُّغة: مَا اشْتَمَلَ عَلَى الإنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهِ فِعْلِهِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأهْلِهِ﴾(١). وأما الاستهزاءُ فهو إيْهَامُ التَّفْخِيمِ بمَعْنَى التَّحْقِيْر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ سافِروا في الأرض، ثم انظرُوا بأبصاركم وتأمَّلوا بقلوبكم كيفَ صارَ إجرامُ المكذِّبين بالرُّسلِ والكتب مِثْلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ، الذينَ عذبَهم اللهُ تعالى بعذاب الاستئصال، وكانت آثارُ ديارهم باقيةً قريبةً من مكَّة. وقال الحسنُ: (مَعْنَى (سِيرُوا فِي الأَرْضِ) أي اقْرَأوا الْقُرْآنَ وَتَفَكَّرُوا فِيْهِ، فَإنَّ مَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ وَتَفكَّرَ فِيْهِ فَكَأنَّهُ سَارَ فِي الأَرْضِ).

---

(١) فاطر / ٤٣.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لكفار مكَّة: لِمَنْ مُلْكُ ما في السَّموات والأرض، فإنْ أجابوكَ وقالوا: للهُ، وإلا فَقُلْ لَـهم ((لله))(١) إذ هُـم يعلمـونَ ويُقِـرُّونَ أن الأصنـامَ لا تَملك خَلْقَ شيء، وإنَّما اللهُ يَمْلِكُ ذلك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي أوْجَبَ على نفسـهِ الرَّحمـةَ فضـلاً وكَرَماً. أو قيل: معناهُ: أوجبَ على نفسهِ الثوابَ لِمن أطاعَـهُ؛ وقيـل: أوجـبَ علـى نفسهِ الرحمةَ بإمهال مَن عصاهُ؛ ليسـتدركَ ذلـك بالتوبـةِ ولم يُعَاجِلْـهُ بالعقوبـةِ، وهـذا استعطافٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ للمُتَوَلِّيْنَ عنه إلى الإقبال، وإخبـارٌ بأنـه رَحِيْـمٌ بعبـادهِ لا يُعَجِّلُ عليهم بالعقوبةِ، ويقبلُ منهم الإنابةَ والتوبةَ.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّا خَلَـقَ اللهُ تَعَـالَى الْخَلْـقَ؛ كَتَبَ فَوْقَ الْعَرْشِ: إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبي](٢). وقال عمرُ ﷺ لكعب الأحبار: (مَا أوَّلُ شَيْءٍ ابْتَدَأ اللهُ بهِ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: كَتَبَ اللهُ كِتَاباً لَـمْ يَكْتُبْـهُ بقَلَـمٍ وَلاَ مِـدَادٍ؛ كِتَابَـهُ الزُّبَرْجَدُ وَاللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ: إنِّي أنَا اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبي)(٣).

وفي الخبَر: أنَّ للهِ تعالى مائة رحمةٍ كلُّـها مِلْـءُ السَّموات والأرض، فـأهبطَ اللهُ تعالى منها رحمةً واحدة لأهلِ الدُّنيا، فهم بها يتراحَمون؛ وبها يتعاطَفون؛ وبها يـتراحمُ الإنس والجنُّ وطيرُ السَّماء وحيتانُ الماء؛ ومـا بـين الهـواءِ ودواب الأرض وهوامِّـها، وأخَّرَ تِسْعاً وتسعين رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ بدلٌ من الرحمةِ وتفسيرٌ لَها، فكأنَّهُ قالَ: لَيَجْمَعَنَّ بين المؤمنينَ والكفار، بين المؤمنِ والكـافر في الـرِّزق والنِّعمةِ والدَّولةِ إلى يومِ القيامة، لا شَكَّ فيه عند المؤمنينَ أنهُ حـقٌّ كـائنٌ، ثـم تكـونُ العاقبةُ بَدَلَ البعثِ للمؤمنين.

---

(١) ((لله)) سقطت من المخطوط.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣١٩٤). ومسلم في الصحيح: كتـاب التوبة: باب في سعة رحمة الله: الحديث (١٤/ ٢٧٥١) واللفظ له.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ ابتدأ كلامَهُ؛ وجوابُهُ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ لأنَّ (الَّذِيْنَ) في موضعِ شرطٍ؛ وتقديرُ الآية: الذين غَبَنُوا[1] أنفسَهم وأهليهم ومنازلَهم وخدَمَهَمْ في الجنَّة في سابقِ عِلْمِ الله لا يؤمنون؛ أي لا يُصَدِّقُونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قولَه تعالى: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) كلامٌ مبتدأ على وجهِ القَسَمِ، و(الَّذِيْنَ) بدلٌ من الكافِ والميم في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ)، كأنهُ قال: لَيَجْمَعَنَّ هؤلاءِ المشركين (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) إلى هذا اليومِ الذي يجحدونه ويكفرونه. ويحتملُ أن يكونَ قولهُ: (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) راجعاً إلى المكذِّبين، كأنهُ قال: عاقبةُ المكذبين (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا تَدْعُونَا إلَيْهِ إلاَّ الْحَاجَةَ، فَنَحْنُ نَجْعَلُ لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أغْنَانَا رَجُلاً، وَتَرْجِعُ عَمَّا أنْتَ عَلَيْهِ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[2].

ومعناهُ: ولله مُلْكُ ما استقرَّ (فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار) من الخلائقِ كلِّهم، وهذا اللفظُ يشتمل على جميعِ المخلوقات؛ لأنَّ من الحيوانات ما يَتَصَرَّفُ بالنهار ويسكنُ بالليل، ومنها ما يتصرفُ بالليل ويسكنُ بالنَّهار. وقال محمدُ بن جُرير: (كُلُّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ فَهُوَ مِنْ سَاكِنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار، وَالْمُرَادُ: جَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى إلاَّ وَهُوَ سَاكِنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار)[3].

وقال أهلُ المعاني: في الآية إضمارٌ تقديرهُ: ولهُ ما سَكَنَ وتَحَرَّكَ في الليلِ والنهار. فإن قيلَ: فَلِمَ قالَ: (وَلَهُ مَا سَكَنَ) ولَمْ يَقُلْ: ولهُ ما تَحَرَّكَ؟ قيلَ: لأنَّ

(١) في المخطوط: (عبوا) وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه؛ لأن أصل الخسار الغبن، يقال: خسر الرجل في البيع: إذا غبن.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: قريش وتفسير سورة الكهف: ج ١ ص٣١٦، شطر من حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: جامع البيان: تفسير الآية: مج ٥ ج ٧ ص٢١٠.

الساكنَ في الأشياءِ أعمُّ؛ لأنهُ ما من مُتحَرِّكٍ إلا وسَكَنَ؛ وفي الأشياءِ الساكنة ما لا يتحركُ البَتَّةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) معناهُ: السميعُ لِمَقَالَةِ الكفَّار، الْعَلِيمُ بهم وبعقوبَتِهم. ويقالُ: هو السميعُ للأصواتِ والأقوال، العليمُ بالأشياءِ والأرزاق.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أسِوَى اللهِ أعْبُدُ رَبّاً وأتَّخِذُ ناصراً، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي خالِقُهما ومُبدِعُهما، قال ابنُ عبَّاس: (مَا كُنْتُ أدْرِي مَا (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) حَتَّى أتَانِي أعْرَابيَّان يَخْتَصِمَان فِي بئْرٍ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبهِ: أنَا فَطَرْتُهَا، أي ابْتَدَأتُها، يَعْنِي ابْتَدَأتُ حَفْرَهَا)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ ؛ أي يرزقُ ولا يُرزق ولا يُعاوَن على الرِّزق. وقرأ الأعمشُ: (وَلاَ يَطْعَمُ) بفتحِ الياء؛ أي يرزقُ ولا يأكلُ؛ أي لا يجوزُ عليه الحاجةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ) انخفضَ لأنه نعتٌ لا اسمٌ لله تعالى، ويجوزُ نَصْبُهُ على معنى: أعْنِي فاطرَ السموات، ويجوزُ رفعه على إضمار (هُوَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: إنِّي أمِرتُ أنْ أكونَ أوَّلَ من أخلصَ لله بالتوحيدِ والعبادة من أهلِ هذا الزَّمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ لا يجوزُ أن يكون عطفاً على قولهِ: (قُلْ إنِّي أمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ أسْلَمَ) لأنه غيرُ مأمور بأن يقولَ: (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وإنَّما هو نَهْيٌ معطوف على أمر من حيثُ المعنى دون اللَّفظ؛ لأنَّ معنى الآيةِ: قِيْلَ لِي كذا: أوَّل من أسلمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ أي قُلْ يا مُحَمَّد: إنِّي أعْلَمُ أنِّي إنْ عَصَيْتُ رَبي وعبدتُ غيرَه، أن يُنْزِلَ بي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ شأنهُ وهو يومُ القيامةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٢١٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ ؛ أي مَنْ يُصْرفُ اللهُ عنه العذابَ العظيمَ يوم القيامةِ فقد رَحِمَهُ، ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي النجاةُ الوافرة الظَّاهرة. قرأ أهلُ الكوفة إلا حَفْصاً: (مَنْ يَصْرِفْ) بفتحِ التَّاء وكسرِ الراء؛ وتفسيرهُ ما ذكرناه. وقرأ الباقون (يُصْرَفْ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ؛ أي من يُصرف عنهُ العذابَ بأمرِ الله؛ فقد سبقت رحمةُ اللهِ له بإيجاب الثَّواب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ إنْ يُصِبْكَ اللهُ بفقرٍ أو مَرَضٍ أو بلاء، فلا يقدرُ أحدٌ من الأصنام وغيرِها على كَشْفِ ذلك الضُّرِّ إلا اللهُ، وإنَّما أطلقَ هذا اللفظ وإن كان يُتَصوَّرُ أن يكشفَ الإنسانُ عن صاحبه كُرْبَةً من الْكُرَب؛ لأن كاشفَ الضُّرِّ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، إمَّا أن يكشفه بفضلهِ أو نسبةً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ أي بفضْلٍ وسَعَةٍ في الرزق وصحَّة في الجسمِ، فلا مُزيْلَ لَها إلا هُوَ. إلا أنهُ لَمْ يَقُلْ: فلا مزيلَ لَها إلا هوَ؛ لأنه لَمَّا أكَّدَ هذا في الضُّرِّ دلَّ على هذا في الخيرِ فاستغنَى عن إعادتهِ. وإنَّما قال (يَمْسَسْكَ) مع أن كون الْمَسِّ المعيَّن من صفةِ الأجسامِ؛ لأنَّ المعنى يَمْسَسْكَ اللهُ تعالى الضَّرَرَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يقدرُ أحدٌ أن يَمْنَعَهُ عن فعلِ ما أرادَ فِعْلَهُ من كَشْفِ ضُرٍّ أو غيرِه.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: (أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَاءَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى بَغْلَةٍ، فَلَمَّا سَارَ بي مَلِيّاً الْتَفَتَ إلَيَّ وَقَالَ لِي: [يَا غُلاَمُ]. قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَقَدْ مَضَى الْقَلَمُ بمَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ جَهِدَ الْخَلاَئِقُ أنْ يَنْفَعُوكَ بمَا لَمْ يَقْضِ اللهُ لَكَ؛ مَا قَدِرُوا عَلَى ذلِكَ، وَلَوْ جَهِدُوا أنْ يَضُرُّوكَ بمَا لَمْ يَكْتُبِ اللهُ عَلَيْكَ؛ لَمَا قَدِرُوا عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ: أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأنَّ مَعَ الْكَرْبِ الْفَرَجَ،

وَأنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً][(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي هو الغالبُ على أمرِ عباده. والقَهْرُ: هُوَ الاسْتِعْلاَء بالاقْتِدَار عَلَى الْغَلَبَةِ. وأراد بقولهِ: (فَوْقَ) أنَّهم تحتَ التسخيرِ والتذليل عمَّا علاهم من الاقتدار عليهم، لا ينهاكَ أحدٌ منهم. قولُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي المُحكِمُ لصنعهِ؛ الخبيرُ بأعمال الخلق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أتوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ أمَا وَجَدَ اللهُ رَسُولاً يُرْسِلُهُ غَيْرُكَ؟! مَا نَرَى أحَداً يُصَدِّقُكَ بمَا تَقُولُ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ فَزَعَمُوا أنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَهُمْ ذِكْرٌ وَلاَ صِفَةٌ وَلاَ نَعْتٌ، فَأرنَا مَنْ شَهِدَ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ كَمَا تَزْعُمُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(٢)].

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أيُّ أحدٍ أعظمُ وأعدلُ برهاناً وحجَّةً؟ فإن أجابوكَ وقالوا: اللهُ، وإلاَّ فَقُلْ: اللهُ أكْبَرُ شَهَادَةً مِن خَلْقِهِ، وهو شَهيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، بأنِّي رسولُ اللهِ، وأنَّ هذا القرآنَ كلامهُ. والشاهدُ هو الْمُبَيِّنُ للدعوَى، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى دعوَى رسولهِ بالبراهين والمعجزات والآيات الدالَّةِ على توحيدِ الله ونبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ؛ معناهُ: أنْزلَ إلَيَّ هَذا الْقُرْآنُ لأُخَوِّفَكُمْ به بما فيه من الدلائل؛ وأخبار الأُمَم السَّالفةِ؛ والإنباءِ بما يكونُ؛ والتأليفِ الذي عَجزَ عنه العربُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ بَلَغَ) أي وَأنْذِرَ مَن بَلَغَهُ القرآنُ سواكم من العَجَمِ، وغيرِهم من الجنِّ والإنس إلى أن تقومَ الساعةَ؛ لأنه ليس من بَعْدِ القرآنِ كتابٌ، ولا من بعدِ مُحَمَّدٍ رسولٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج٦ ص٣٩٨؛ قال القرطبي: ((أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب (الفصل والوصل) وهو حديث صحيح، وقد خرجه الترمذي)). وأخرجه الترمذي في الجامع: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: الحديث (٢٥١٦)؛ وقال: حسن صحيح. والحاكم في المستدرك:كتاب معرفة الصحابة: باب تعليم النبيِّ ﷺ ابنَ عباس: الحديث (٦٣٥٧ و٦٣٥٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣١٥. وينظر: الروض الأنف: ج٢ ص٤٥-٤٦: عتبة بن ربيعة يذهب الى رسول الله ﷺ: طبعة دار الكتب العلمية الأولى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي إنْ كنتم تشهدونَ بإثباتِ شريكٍ لله؛ فأنا لا أشهدُ بما تشهدونَ به. وإنَّما قالَ: (أُخْرَى) ولَمْ يَقُلْ أُخَرُ(١)؛ لأن الجمعَ تُذكَّرُ بلفظ وحْدَانِ التأنيث(٢)، كما قالَ تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ﴾(٣) ومثلهُ كثيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ؛ لا شريكَ لـه ولا ولَـدَ، ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بهِ من الأصنام والأوثان.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ ؛ أي الذين أعطيناهُم التوراةَ والإنجيلَ يعرفون مُحَمَّداً ﷺ بما يجدونه مكتوباً عندهم من صِفَتِهِ ونعْتِهِ، كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ إذا رأوهم بين الغِلْمَان. كما روي في الخبر: (أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ لِعَبْدِاللهِ بْن سَلاَم: يَا أبَا حَمْزَةَ؛ أتَعْرِفُ مُحَمَّداً ﷺ كَمَا تَعْرِفُ ابْنَكَ؟ قَالَ: يَا عُمَرُ؛ إنَّ مَعْرِفَتِي بِهِ أشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بابْنِي؛ لأنَّ أمِينَ السَّمَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيْلَ قَدْ جَاءَ بنَعْتِهِ إلَى أمِيْنِ الأَرْضِ وَهُوَ مُوسَى ﷺ. فَقَالَ عُمَرُ: وَكَيْفَ ذلِكَ؟ قَالَ: أشْهَدُ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابنَا فَعَرَفْتُهُ، وَأمَّا ابْنِي فَلاَ أدْرِي مَا أحْدَثَ النِّسَاءُ بَعْدِي. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : وَفَّقَكَ اللهُ يَا ابْنَ سَلاَم)(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلام معناهُ: وَالَّذِيْنَ غَبَنُوا أنفسَهم بذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، وهم المعاندونَ الذين يعرفون ويَجْحَدُونَ مِن رؤساءِ اليهود والنصارَى، فهم لا يُقِرُّونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن.

---

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٣٢٩؛ قال الفراء: (وقوله:﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ ولم يقل: (أُخَرُ)؛ لأن الآلهة جمعٌ، والجمعُ يقع عليه التأنيث؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال الله تبارك وتعالى:﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ ولم يقل: الأُوَلُ والأولين، وكل ذلك صواب).

(٢) أما قولهُ: (بلفظ وحدان التأنيث) قال ابن عادل: (و﴿أخرَى﴾ صفة لـ ﴿آلهة﴾؛ لأن ما لا يَعقل يعامل جمعه معاملة الواحدة المؤنثة، كقوله تعالى: ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه / ١٨] و﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف / ١٨٠]. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٦٧: تفسير الآية (١٩) من سورة الأنعام.

(٣) الحجرات / ١٤.

(٤) في جامع البيان: الأثر (١٠٢٣٠)؛ قال الطبري: ((عن ابن جريج قال: زعم أهل المدينة... وذكره من غير ذكر الأسماء)).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ أحدٍ أظْلَمُ في فاحشةٍ أتاهَا مِمَّنِ اختلقَ على الله كَذِباً بإضافتهِ إلى الله ما لَمْ يُضِفْهُ إلى نفسهِ من صفة أو أمرٍ وقَوْل، وهم الذين إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أمَرَنَا بهَا؛ قُلْ: إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ كَذبَ بآيَاتِهِ) أي بدَلاَئِلِهِ؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُؤْمَنُ من عذاب الله ولا يَصِلُ إلى مُراده؛ وبُغْيَتِهِ القومُ الكافرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي وَاذْكُرُوا يومَ نَبْعَثُ الكفَّارَ وآلِهَتَهُمْ جميعاً للحساب والجزاء. وقال بعضُهم: الواوُ عاطفةٌ على قوله: (لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) كأنَّهُ قال: لاَ يُفْلِحُونَ في الدُّنيا وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ. والْحَشْرُ: جَمْعُ النَّاسِ إلَى مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾ ؛ معناهُ: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِيْنَ أشْرَكُوا باللهِ غَيْرَهُ: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ ؛ آلِهَتُكُمْ؛ ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ ﴾ ؛ التي كُنْتُمْ تعبدونَ مِن دون اللهِ؛ و؛ ﴿ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، أنَّهم شركاءُ اللهِ وشفعاؤكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ثُمَّ لم تكن معذرتُهم يومَ القيامة إلا مقالتَهم: (وَاللهِ رَبنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) في دار الدُّنيا. وإنَّما سميت المعذرةُ فتنةً؛ لأنَّها عينُ الفتنةِ.

ومَن قرأ (فِتْنَتَهُمْ) بالنصب فعلى خبر (لَمْ تَكُنْ) واسمها (أنْ قَالُوا). ومن قرأ (رَبَّنَا) بالنصب فمعناه النداءُ. وقراءة حفصٍ على البدل، ويجوزُ الرفع على إضمار (هو). وقيل: المرادُ بالفتنة محبَّتُهم للأوثان التي كانوا مُفْتَتَنِيْنَ بها في الدُّنيا، فأعلمَ اللهُ تعالى أنه لم يكن افتتانُهم بشركهم وإقامتِهم عليه، إلا أن تَبَرَّأوا منه وانتهوا عنه، فحلفوا أنَّهم ما كانوا مشركينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي انظر يا مُحَمَّدُ كيف صارَ وَبَالُ الكذب عليهم؟ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ؛ أي عَزَبَ عنهم افتراؤُهم بما لَحِقَهُمْ من الذُّهول والدَّهَشِ، قال الضحَّاك:(وَذلِكَ حِيْنَ نَطَقَتِ الْجَوَارِحُ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بَعْدَ حَلْفِهِمْ (وَاللهِ رَبنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) يقولُ الله تعالى: (انظُرْ كَيْفَ كَذبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ) ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ وَالْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةِ وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالنَّضِيرَ بْنَ الْحَارِثِ وَأبَيَّ بْنَ خَلَفٍ وَجَمَاعَةً مِنْ أهْلِ مَكَّةَ؛ كَانُواْ يَسْمَعُونَ إلَى حَدِيْثِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُواْ لِلنَّضِرِ: مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ: لاَ أدْرِي مَا يَقُولُ؟ إلاَّ أنِّي أرَاهُ مُحَرِّكاً شَفَتَيْهِ وَيَتَكَلَّمُ بشَيْءٍ وَلاَ يَقُولُ إلاَّ أسَاطِيْرَ الأَوَّلِيْنَ مِثْلَ مَا كُنْتُ أحَدِّثُكُمْ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. وَكَانَ النَّضِرُ كَثِيْرَ الْحَدِيْثِ عَنِ الْقُرُونِ الأَوَّلِيْنَ وَأخْبَارِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ومعناهَا: ومِن أهلِ مكة من يستمعُ إلى حديثكَ وقراءتك، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهِمْ أغْطِيَةً كراهةَ أنْ يَفْقَهُوهُ؛ وَفِي آذانِهِمْ ثُقْلاً وصَمَماً، فلا يسمعونَ الْهُدَى. وموضعُ (أنْ يَفْقَهُوهُ) نُصِبَ على أنه مفعولٌ له؛ أي جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهمْ أكِنَّةً لِكَرَاهَةِ أنْ يَفْقَهُوهُ. والوَقْرُ بفتح الواو: الثِّقَلُ فِي الأُذُنِ، والوِقْرُ بكسر الواو: مَا يُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ ؛ أي وإن يروا كُلَّ حُجَّةٍ ودلالةٍ لا يُقِرُّوا ولا يصدِّقوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ ؛ أي يُخَاصِمُونَكَ بالبَاطِل؛ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ النَّضِرُ بنُ الحارثِ وأصحابُه: مَا هَذا إلا أحاديثُ الأوَّلين وأباطيلُهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي أبي طَالِبٍ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَمِ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشُ إلَى أبي طَالِبٍ يُرِيْدُونَ سُوءاً بالنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أبُو طَالِبٍ:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُواْ إلَيْكَ بجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَاب دَفِيْنَا

---

(١) ينظر: الروض الأنف: بين النبي ﷺ وبين قريش: ج ٢ ص٤٧ مطولاً. والسيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣١٥-٣١٦.

فَـاصْدَعْ بِـأَمْرِكَ مَـا عَلَيْـكَ غَضَاضَـةٌ وَأَبْشِـرْ بِـذَاكَ وَقَـرَّ مِنْـكَ عُيُونَـا
وَدَعَوْتَنِـي وَزَعَمْـتَ أَنَّـكَ نَـاصِحِي فَلَقَـدْ صَدَقْـتَ وَكُنْـتَ ثَـمَّ أَمِيْنَـا
وَعَرَضْـتَ دِيْنـاً لاَ مَحَالَـةَ أَنَّـهُ مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ الْبَرِيَّـةِ دِيْنَـا
لَـوْلاَ الْمَلاَمَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَسَـبَّةٍ لَوَجَدْتَنِـي سَـمْحاً بِـذَاكَ يَقِيْنَـا[١]

فأنزلَ اللهُ تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْـهُ) ويَنْـهَوْنَ النـاسَ عـن أذى رسـول الله ﷺ (وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أي يَتَبَاعَدُونَ عمَّا جاءَ به من الْهُدَى، فَلاَ يُصَدِّقُونَهُ.

وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك: (نَزَلَتْ الآيَةُ فِي جَمِيْعِ كُفَّارِ مَكَّةَ) يعني وَهُـمْ يَنْـهَوْنَ الناسَ عن اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ والإيمـان؛ ويُبْعِـدُونَ أنفسَـهم عَنْـهُ. ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ ؛ بذلكَ؛ ﴿ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وما يعلمون أنَّهم يهلكون أنفُسَهم.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ ؛ أي وَلَوْ ترَى يا مُحَمَّدُ كفارَ قريشٍ إذْ حُبسوا عَلَى النَّار؛ إذ عايَنُوهـا ودخلُوها وعرفوا عذابَها؛ فقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبنَا؛ تَمنَّوا الرجعـةَ إلى الدُّنيا.

وقرأ ابن السميقع: (وَقَفُوا) فبفتحِ الواو والقاف من الوُقُوفِ. والقـراءةُ الأُولى من الوَقْفِ، وجوابُ (لا) محذوفٌ وتقديرُهُ: ولو تَرَاهُمْ في تلكَ الحالةِ لرأيـتَ عَجَبـاً، وقيلَ: لَعَلِمْتَ ماذا يَنْزِلُ بهم من الْخِزْيِ والندامةِ، ورأيتَ حسرةً يا لَها من حَسْرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبنَا) ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قـرأ حمزةُ ويعقـوب وحفـص: (وَلا نُكَـذِّبَ) (وَنَكُـونَ) بـالنصب علـى جـواب التَّمَنِّي، والعربُ تنصب جوابَ التمني بالواو كما تنصبهُ بالفاء، كما قالوا: يا ليتَكَ تصيرُ إلينـا ونُكرِمَك، أو فنُكرِمَكَ فكلاهما بالنصب.

وقرأ ابنُ عامر (وَلا نُكَذِّبُ) بالرفع (وَنَكُونَ) بالنصب؛ لأَنَّهم تَمَنَّـوا الـردَّ وأن يكونوا مؤمنين وأخبروا أنَّهم لا يكذبون بآياتِ ربهم وإنْ رُدُّوا إلى الدنيا. ومعنـاه: يـا

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص١٤٤ عن ابـن عبـاس مـع اختـلاف في بعـض الألفـاظ، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٠٦.

ليتنَا نُرَدُّ، ويا ليتنا لا نُكَذِبُ، كأنَّهم تَمنَّوا الردَّ والتوفيقَ بالتصديق. ويجوز أن يكون ذلكَ رفعاً على معنى: ونحنُ لا نُكَذِّبُ بآيات ربنا، رُدِدْنا أو لَمْ نُرَدَّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي بل ظَهَرَ للذين يتَّبعون الغُوَاةَ ما كان الغُوَاةُ يُخفون عنه من أمرِ البعث والنُّشور، وما كان رؤساؤهم يُخْفُونَ من سَفَلَتِهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ ؛ أي لو رُدُّوا إلى الدنيا كما سَألُوا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه من الكفرِ والشِّرك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني وإنَّهم لكاذبون في قولِهم: (وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لأنَّهم لا يؤمنون لسابقِ عِلْمِ الله تعالى فيهم أنَّهم خُلِقُوا للنار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي قالَ كُفَّارُ مكَّةَ: ما حياتُنا إلا كحياةِ الدُّنيا، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ بعد الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي لو ترى يا مُحَمَّدُ إذ حُبِسُوا عند ربهم للسؤال والحساب. ويقال: عَرَفُوا ما وَعَدَهم ربُّهم من البعثِ والقيامة والجنَّة والنار. ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يقولُ الله تعالى لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ ؛ البعثُ والعذاب، ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالصِّدق، ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ ؛ إنهُ لَحَقٌّ؛ أي لَصِدقٌ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يقولُ الله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ في الدُّنيا.

وإنَّما ذكر الذوقَ بمعنى الْخُلُودِ؛ لِيُبَيِّنَ أن حالَهم في كلِّ وقت كَحَالِ مَن يُعَذبُ بالعذاب المبتدأ. ومعنى (وُقِفُوا عَلَى رَبِهِمْ) أي على حُكْمِ ربهم وقضائهِ، فتقولُ لهم الملائكةُ بأمرِ الله تعالى: أَلَيْسَ هَذا العَذابُ بالْحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا إنه حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قد غُبنَ الذين كذبُوا بالبعثِ بعد الموت، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ ؛ أي فَجْأةً ندمُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الندامةُ. وسُميَت القيامةُ ساعةً؛ لِتَوَهُّمِ قيامِها في كلِّ ساعةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ ؛ أي على ما قصَّرْنا وضيَّعْنَا في الدُّنيا من عملِ الآخرة، ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: والكفَّارُ يحملون أثقالَ آثامِهم فوق ظهورهم بذنبوهم، والذنبُ من أثقلِ ما يحملُ. وقيل: معناهُ (عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) أي في الصفقةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) قال السُّدِّيُّ: (لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَمُوتُ فَيَدْخُلُ قَبْرَهُ إلاَّ أتَاهُ رَجُلٌ قَبيحُ الْوَجْهِ؛ أسْوَدُ اللَّوْنِ؛ مُنْتَنُ الرَّائِحَةِ؛ عَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنِسَةٌ، فَإذا رَآهُ الظَّالِمُ قَالَ لَهُ: مَا أقْبَحَكَ ! فَيَقُولُ: أنَا عَمَلُكَ فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإذا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ: طَالَمَا كُنْتُ أحْمِلُكَ عَلَى اللَّذةِ وَالشَّهَوَاتِ، فَأنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي. فَيَرْكَبُهُ وَفِي يَدِهِ مَقْمَعَةٌ فَيَضْرِبُ بها رَأسَهُ؛ فَيَفْضَحُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ: (يَحْمِلُونَ أوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ الشيءُ الذي يحملون من الآثامِ. ويقالُ: بئْسَ الشيء شيئاً يَزرُونهُ؛ أي يَحْمِلُونَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ؛ معناه: ما زينةُ الدُّنيا وزهرتُها إلا استمتاعٌ؛ يعني مِن قريبٍ، ثُمَّ يعقبهُ حسرةٌ وندامة. وسُمِّي ذلك لَعِباً تَشبُّهاً بلعب الصِّبيان، يبنونَ بناءً ثم يهدمونه، يلعبون بشيء فيلهُونَ به، كذلكَ أهلُ الدُّنيا يجمعون ما لا يأكلون؛ ويَبْنُونَ ما لا يسكُنونَ؛ ويأملون ما لا يُدركون.

وهذا مَثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لكفَّار مكَّة، يفعلون ما لا يَرْجُونَ به الثوابَ، ولا يخشون منه العقابَ، ولا يَتفكَّرُونَ في العاقبةِ كالصبيان والبهائِم. واللَّعِبُ شَغْلُ النَّفسِ عمَّا لاَ حَقِيْقَةَ لَهُ وَلاَ قَصْدَ. واللَّهْوُ: طَلَبُ الْمَزحِ بمثْلِ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ أفضلُ للذين يتَّقون الشركَ والكبائر والفواحشَ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أن الآخرة الباقيةَ خيرٌ من الدنيا الفانيةِ. قرأ ابنُ عامر: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ) بلامٍ واحدة على الإضافة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٧١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ ؛ معناه: قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ما يقولُ كفارُ مكَّة من تكذيبهم إيَّاك في العلانيةِ وجُحودِهم باللهِ، ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ؛ في السرِّ ولا بقلوبهم؛ أي هم يعلمُونَ أنك صادقٌ وكنتَ تُسمَّى فيهم (الأمينُ) قبل الرسالة، فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُهم إيَّاك فيما يعلمون صدقَكَ فيه، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ المشركين، ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ بألسنتهم ما تَشْهَدُ به قلوبُهم بكذبهم فيه.

وقال السُّدِّيُّ: (الْتَقَى الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْق وَأَبُو جَهْلٍ؛ فَقَالَ الأَخْنَسُ لأَبي جَهْلٍ: يَا أَبَا الْحَكَمِ؛ أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ؛ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَا هُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلاَمَنَا؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ؛ وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إذا ذَهَبَ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنُّبُوَّةِ؛ فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(١). وقال: (مَعْنَى: (لاَ يُكَذِّبُونَكَ) لاَ يَقْدِرُونَ أنْ يَقُولُوا لَكَ فِيْمَا أنْبَأْتَ بِهِ مِمَّا فِي كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ: كَذَبْتَ!.

وقرأ نافع والكسائيُّ: (يَكْذِبُونَكَ) بالتخفيفِ. ومعناهُ: لا يجدونَكَ كاذباً، يقال: كَذبتَ فُلاناً بالتشديد إذا قُلْتَ له: كَذبْتَ، وأكْذبْتَ فُلاناً؛ إذا رأيتَ ما أتى به كَذِباً. وقرأ نافعُ (لَيُحْزِنُكَ) بضمِّ الياء، والمعنى واحدٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؛ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ليصبرَ على أذى الكفار، ومعناهُ: أنَّ الرسُلَ قبلَكَ كذبَهُم قومُهم كما كذبَكَ هؤلاء، وآذوْهُمْ كما آذوْكَ؛ فَصَبَرَ الرُّسلُ على تكذيبهم وإيذائهم (حَتَّى أتَاهُمْ نَصْرُنَا) أي أتاهم نَصْرُنا بإهلاكِ قومِهم، فاصْبِرْ أنتَ أيضاً على تكذيب قومك إيَّاكَ وإيذائهم لكَ حتى يأتيكَ نصرُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا مُغَيِّرَ لِمَا وَعَدَكَ اللهُ من النصر والظَّفَر بقولهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾(٢)، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي مِنْ خَبَرِ المرسلين قبلكَ ما يكونُ لكَ فيه سُلْوَةٌ، فاعْتَبِرْ بأخبارهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٧٥).　　(٢) غافر / ٥١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ ؛ أي إنْ كان عَظُمَ وثَقُلَ عليكَ يا مُحَمَّدُ إعراضُهم عن القبول منكَ وقولُهم: لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ، وسؤالُهم كلَّ معجزةٍ شاءُوا، ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ ؛ فإن استَطَعْتَ أنْ تطلبَ مَسْلَكاً نافذاً فِي الأرْضِ؛ كنفقِ الْيَرْبُوعِ، فتدخلَه هارباً متوارياً؛ أوْ تطلبَ شيئاً يُسْلِمُكَ إلى السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بالآية التي سألُوكها، فَافْعَلْ، وليس فِي الْقُرْآنِ فَافْعَلْ؛ لأنه قد يُحْذَفُ ما يكونُ في الكلام دَلِيلاً عليه مثل قولِ الرجُل: إن رأيتَ أن تَمضي معي إلى فلانٍ، ولا يذكرُ فافعل.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ: إنَّ ما تأتِي من الآياتِ بما أحبُّ، وإنَّ رسولَ الله ﷺ بَشَرٌ لا يقدرُ على الإتيان إلا بما شاءَ اللهُ، وكان قد عَلِمَ أنه لو أنْزَلَ عليهم الْمَلَكَ وكلَّ آية سألُوها لَم يُؤْمِنُوا، فلم يُنْزِلْ إلا ما تَثْبُتُ به الحجَّة عليهم، فَتُؤْجَرُ بالصبرِ والثَّبات على الإيْمان بالآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي لو شاءَ اللهُ لاضْطَرَّهُمْ إلى الإيْمان كما قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1]. وقيلَ: معناهُ: ولو شاءَ اللهُ لأَطْبَقَهُمْ على الْهُدَى. وقيل: لَوَفَّقَهُمْ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لاَ تكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ بتركِ الصَّبر وإظْهَار الْجَزَعِ؛ واستشعار الغَمِّ لإعراضِهم عنك، فإن هذا من فِعَالِ الجاهلين. ويقال: معناهُ: لاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ بِمَقْدُوري عليهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ؛ معناه: إنَّما يُجيبُ الذين يَقْبَلُونَ الحقَّ، وأمَّا الذي لا يقبلُ الحقَّ فكأنه أصَمٌّ أو مَيِّتٌ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أرادَ به كفارَ مكة؛ سَمَّاهُمْ موتى لأنَّهم لَم يَتَدَبَّرُوا ولَم يَتَأَمَّلُوا، ولَم ينتفعوا بحياتِهم، فكانوا بِمَنْزلة الموتَى وإن كانوا في صُورَةِ أحياءٍ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ فيجازيهم بأعمالِهم.

---

(١) الشعراء / ٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ ؛ أي قال كفَّارُ قريش: لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ علامةٌ لنبوَّته من ربه؛ يعنونَ الآياتَ التي كانوا يقترحونها، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ ؛ على ما تقترحونها أنتم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ ما عليهم من الْمَضَرَّةِ في إنزال هذه الآية، إذِ الحكمةُ تقتضي التعذيبَ بعذاب الاستئصال لِمَنْ كفرَ بعد إنزالِ الآيةِ المقترحَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ ﴾ ؛ أي ما مِن دابَّة تدبُّ وتتحرَّك على وجهِ الأرض، وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ في الْهَوَاءِ، إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ، في الفقرِ والفَاقَةِ والحاجة إلى مُدَبرٍ يدبرهم في أغذِيَتهم وأكنَّتهم وهدايتهم إلى مراشِدهم ومصالِحهم.

وقيل: معناهُ: إلا أممٌ أمثالُكم في الْخَلْقِ والرزقِ والموت والبعثِ؛ لأنهُ قال: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ) فيكونُ معناه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ) في أنَّ الله يُمِيتُهَا وَيَبْعَثُهَا للجزاء. وقيلَ: معناهُ: (إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ) يَفْقَهُ بعضُه عن بعضٍ، كما يفقهُ بعضكم عن بعضٍ.

وذِكْرُ الجناحين في الآية على جهةِ التَّأكيد؛ لأنه يقالُ: طَارَ فلانٌ في الأمرِ؛ أي أسْرَعَ، وفلانٌ طَيْرٌ من الطُّيور؛ لسرعتهِ في الأمور. وقيل: ذِكْرُ الجناحين في الآيةِ لبيان أنَّ المرادَ به الطيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ﴾ ؛ معناهُ: ما تركنا في اللَّوح المحفوظِ شيئاً إلا كَتَبْنَاهُ فيه. ويقالُ: ما تركنا بيانَ شيءٍ فِي الْقُرْآنِ فيما يَحتاجون إليه من أحكامِ الدِّين والدُّنيا، بل قد بَيَّنَّا في الكتاب كلَّ شيء إما مُفَصَّلاً أو مُجْمَلاً، أما الْمُفَصَّلُ كقولهِ تعالى: ﴿النَّفْسَ بالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بالْعَيْنِ﴾[1] وأما الْمُجْمَلُ كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[2].

---

(١) المائدة / ٤٦.

(٢) الحشر / ٧.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الطيورَ والدوابَّ يجمعون مع سائِرِ الْخَلْقِ يومَ القيامةِ للحساب والجزاء، كما روي في الخبر عن رَسُول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْشُرُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّوَابَّ وَالطَّيْرَ وَكُلَّ شَيْءٍ؛ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَئِذٍ أنْ يَأخُذ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، فَإذا مُيِّزَ بَيْنَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّار؛ قَالَ لِلْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَالطُّيُور: كُونُوا تُرَاباً تَسْتَوِي بكُمُ الأَرْضُ، فَتَكُونُ تُرَاباً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا][(١)].

والمرادُ بهذا الإفناءِ للبهائمِ بعد أنْ أحياهَا أنهُ إفناءٌ لا يكون فيه ألَمٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ؛ معناه: الذين جَحَدُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآن صُمٌّ عن الخيرِ لا يسمعونَ الْهُدَى، خُرْسٌ لا يتكلمون بخيرٍ؛ أي يكون حالُهم كحال الأصَمِّ الأبْكَمِ. وحُذِفَ التشبيهُ مِن قوله: (صُمٌّ وبُكْمٌ) على جِهَةِ المبالغة في الوَصْفِ، كما يقالُ في وصفِ القوم بالْبَلاَدَةِ: هَؤُلاَءِ حُمُرٌ.

قولهُ: (فِي الظُّلُمَاتِ) أي في ضَلاَلاَتِ الكفر في ظُلْمَةِ السَّمع والبصرِ والقلب، ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ ؛ أي من شاءَ الله يَتْرُكْهُ في ضلالةِ الكفر، فلا يُخْرِجُهُ منه، ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ ومَن يشأ يُرْشِدْهُ ويُوَفِّقْهُ للإسلامِ فَيُثَبِّتْهُ على ذلك حتَّى يَموت عليه، ويقال: معناهُ: من يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّة إلى طريقِ النَّار، ومن يشأ يجعلْهُ على طريق الجنَّة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لأهلِ مكَّة: أرَأيْتُمْ، والكافُ زائدةٌ في بيان الخطاب للتأكيد كما في (ذلِكَ) و(أُولَئِكَ). والمعنى: قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أتَاكُمْ عذابُ اللهِ، كما أتَى الأممَ الماضينَ قبلَكم المكذبين لرسُلِهم، أوْ أتَتْكُمْ القيامةُ بأهوالِها وشدائدِها. ويقال: أرادَ بـ (السَّاعَةُ) الوقتَ الذي يُصْعَقُ فيه العبادُ، فيموتُون كلُّهم.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٢١؛ قال القرطبي: ((قول أبي هريرة فيما روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عنه)) وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٩٨) موقوفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ ؛ أي أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ في كشفِ ذلك العذاب وَدَفْعِ تلكَ الأهوال عنكُم، أم تَدْعُونَ اللهَ تعالى. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي في مقالتِكم أنَّ الأصنامَ شركاءٌ لله؛ فَهَلاَّ تدعون الأصنامَ عند الشدائدِ. وهو احتجاجٌ مِن الله عليهم بما لا يَدْعُونَهُ؛ لأنَّهم كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دَعَوا اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ ؛ أي بَلْ تدعونَ اللهَ في كَشْفِ العذاب والأهوال، و(بَلْ) للاستدراك بعدَ النَّفي، (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ) أي يكشفُ عنكم الضُّرَّ الذي مِن أجله دعوتُموه فكشفَهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنْ شَاءَ) إنَّما قُرِنَ بالمشيئةِ؛ لأنَّ كشفَ العذاب فضلٌ من الله تعالى، وفضلُ الله يعطيهِ مَن يشاءُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي وتتركون دعوةَ آلِهتكم عند الشِّدة إذا أشرفتُم على الْهَلاَكِ؛ وَاضْطَرَبَتْ بكم الأمواجُ في لُجَجِ البحار؛ وفي غير ذلك من السِّجن والأوجاع التي لا صَبْرَ عليها، وقد يُذْكَرُ النِّسيان بمعنى التَّرْكِ كما في قولهِ: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(١) أي تَرَكُوا ذِكْرَ اللهِ، فَتَرَكَهُمُ اللهُ في العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا رسُلاً إلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، كما أرسلناكَ إلى قومِكَ فلم يؤمنُوا، فَأَخَذْنَاهُمْ بالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ. والضَّرَّاءُ هِيَ الشِّدَّةُ النَّازلَةُ؛ وَالْبَأْسَاءُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْبَأْسِ، وقيل: مِن الْبُؤْسِ؛ وهو الفقرُ. والضرَّاءُ هي الأمراضُ والأوجاعُ؛ وهي مأخوذةٌ من الضَّرَر. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي لكي تَخْشَعَ القلوبُ، وتَتَضَرَّعَ النفوسُ عند الشِّدة؛ فيرجعون إلى اللهِ فيؤمنون به؛ فيكشفُ عنهم؛ فلم يفعلُوا.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ ؛ أي فَهلاَّ حين جَاءَهُم بَأْسُنا؛ أي عذابُنا؛ دَعَوا اللهَ وآمنُوا به، ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي

---

(١) التوبة / ٦٧.

يَبِسَتْ وجَفَّتْ قلوبُهم؛ فأقاموا على كُفرِهم؛ إذ لم يكن في قلوبهم رقةٌ، ولا خوفٌ من اللهِ تعالى، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي حَسَّنَ لَهم، ﴿ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ في كفرهم؛ بأن أغْوَاهُمْ ودعاهم إلى اللَّذةِ والراحةِ دون التَّفكُّرِ والتدبُّر ببيانِ الْحَقِّ من الباطِلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي فلمَّا تَرَكُوا ما وُعِظُوا به وأمروا به (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) مِمَّا كان مُغْلَقاً عليهم من الخيرِ والرِّزق والخصب والمطر. وأخْصَبَتْ بلادُهم وكَثُرَ خيرُهم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ ﴾ ؛ أعْجِبُوا؛ ﴿ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ ؛ أي بما أعطوا مِنَ النِّعَمِ وَالسَّعَةِ وَالصِّحَّةِ؛ ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي فَجْأةً بالعذاب بعد أن ابتليناهُم في النعمةِ والشدَّة؛ فلم يزدادوا إلا كُفراً، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي فإذا هم عندَ نزول العذاب بهم آيسُونَ من كلِّ خيرٍ؛ متحسِّرون غايةَ الحسرَةِ. وَالْمُبْلِسُ: الْبَائِسُ الْحَزِيْنُ الشَّدِيْدُ الْحَسْرَةِ، ويقالُ: هو المنقطعُ عن الحجَّةِ.

فإن قيل: لِمَ أنعمَ اللهُ عليهم حين نَسَوا ما ذُكِّرُوا به؛ وهذا موضعُ العقوبة دون الإنعامِ؟ قيل فيه قولان: أحدُهما: أنه أنعمَ عليهم بالدعاءِ لَهم إلى الطاعة، فإن الدعاءَ إلى الطاعة تارةً يكونُ بالعنف والتشديد، وتارةً باللِّين والإنعامِ.

والثانِي: أنه إنَّما فعلَ ذلك بهم؛ لأنَّ من يُنْقَلُ من النعمةِ والراحة إلى العذاب يُجْمَعُ عليه العذابُ والحسرةُ على ما فَاتَهُ؛ فيكون ذلك أشدَّ عليه ممن ينقلُ من الشدَّة إلى العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ؛ أي اسْتُؤْصِلَ بالهلاكِ آخرُ من بقيَ من القوم الكافرين. ودَابرُ الْقَوْمِ: آخِرُهُمْ مِنْ نَسْلِهِمْ وغيرِهم، بحيثُ لا يبقى لَهم بعد ذلك باقيةٌ، ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون حمداً مِن الله تعالى لنفسهِ على إهلاكهِ القومَ الكافرين والمعاندين بعد أن أعْذرَهُمْ وَأنْذرَهُمْ. ويجوزُ أن يكون قوله: (وَالْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ) تعليماً من اللهِ ''للنَّاس'' يحمدونَهُ على إهلاك الظالمينَ.

وقد قطعَ اللهُ دابرَ المعاندين من أهل مكَّة يـوم بَـدْرٍ كمـا قطـعَ دابـر المكذبـين قبلَهم. وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا رَأَيْتَ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي عَبْداً فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّ ذلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) الآيَةُ][1].

قَوْلُهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحمَّد لكفَّار مكة: إنْ سـلبَ اللهُ سـمْعَكُمْ وَأبْصَارَكُمْ التي هي أشرفُ ما قِبلَكم من الأعضاءِ، وخَتَمَ عَلَـى قُلُوبكُـمْ؛ فـإن سَـلَبَ عقولكم حتى لا تفهمُوا بها فعاقبَكم بذلك على تكذيبكُم الرسلَ؛ هل مِنْ إلَهٍ غَيْرُ اللهِ يردُّ عليكم ما سَلَبَهُ الله تعالى؟ وهل يقدرُ على ذلك غيرهُ؟ ﴿ انظُرْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّد؛ ﴿ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ ؛ نُبيِّنُ لهم؛ ﴿ الْأَيَاتِ ﴾ ؛ فِي الْقُـرْآنِ؛ ونُخَوِّفُـهُمْ بـها؛ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يُعْرِضُـونَ عمـا وَضَـحَ لَـهم مكذّبـين بـه، لا تتحركُ أفئدتُهم. والتصريفُ توجيه المعنىَ في الجهات تُظْهِرُهُ أتَمَّ الإظهار.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ ؛ أي أرأيْتُمْ إنْ أتاكُمْ وهذا حالُكم في الإصرار على الكفر عَـذابُ اللهِ فجأةً وعلانيـةً؛ نَـهاراً جِـهاراً، ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ إلا أنتـم ومـا أشبهَكُم؛ لأنكم كفرتُم معاندينَ، فقد عَلِمْتُمْ أنكم ظالمون. وإنَّما قابلَ البغتـةَ بالجـهرةِ وإن كان ضدُّ الجهرةِ الخفيةَ؛ لأن ما يأتِي فجأةً فإنَّما يأتي خِفْيَةً.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ أي ليسَ على الرسُل أن يأتوا الناسَ بمَا يقترحون عليهم من الآياتِ، إنَّما نرسـلُهم بالتبشـير بالجنَّـة للمطيعين؛ والتحذيـر بالنـار للكـافرين، ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ؛ بالرسُـلِ والكُتُـب؛ ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ؛ العملَ فيما بينهُ وبينَ ربه؛ فأقام علـى إيْمانـه وتوبتـهِ؛ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ حين يخافُ أهل النار، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ إذا حزنُوا.

---

(١) عن عقبة بن عامر؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣١٥) بإسنادين. والطبراني في الأوسـط: الحديـث (٩٢٦٨). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٢٣؛ قـال الهيثمـي: ((رواه أحمـد والطبراني)) وسكت عنه. والبيهقي في شعب الإيمان: باب في تعديد نعم الله: الحديث (٤٥٤٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾ أي يصيبُهم العذابُ بفِسْقِهِمْ وجحودِهم بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرْآن.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ جواباً عن قول الكفار للنبيِّ ﷺ: يا مُحَمَّدُ؛ لولاَ أُنْزِلَ عليكَ كَنْزٌ فتستغني به؛ فإنك فقيرٌ محتاج! وعن قولِهم: لولا أُنْزِلَ عليهِ مَلَكٌ، وقولِهم: لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ.

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: (لاَ أقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ) أي لا أدَّعي أن مفاتيحَ الرزقِ بيدي؛ فأقبضُ وأبْسُطُ، وليس خزائنُ الله مثلَ خزائنِ العباد، إنَّما خزائنُ الله مقدوراتُه التي لا تُوجَدُ إلا بتكوينهِ إيَّاها، (وَلا أعْلَمُ الْغَيْبَ) أي لا أدَّعي عِلْمَ الغيب فيما مضَى وما سيكون، (وَلا أقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ) مِن السَّماء شاهدتُ ما لم تشاهدِ البشرُ، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ؛ أي لا أعْلَمُ ولا أقولُ إلا بما نَزَّلَهُ اللهُ على لسانِ بعضِ الملائكة، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ؛ أي الكافرُ والمؤمن، ويقال: الجاهلُ والعالِمُ، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ ؛ في آياتِ الله ومَوَاعِظِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي أنْذِرْ بالقُرْآن وخوِّف به (الَّذِينَ يَخَافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلَى ربهِمْ) وخوِّف به الذين يعلمون أنَّ حَشْرَهُمْ إلى ربهم؛ أي إلى موضعٍ لا يَمْلِكُ فيه أحدٌ نفعَهم ولا ضُرَّهم إلا اللهَ تعالى. قالوا: والذينَ يخافونَ البعثَ أحدُ رجلين؛ إما مسلمٌ فَيُنْذرُ ليؤدِّي حقَّ الله في إسلامِهِ، وإما رجلٌ من أهلِ الكتاب فهو مقرونٌ بأن الله تعالى خَلَقَهم وأنَّهم مبعوثون محاسَبون. ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ؛ قال عبدُالله بن مسعودٍ: (مَرَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ برَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ صُهَيْبُ وَخَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ وَبلاَلُ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ؛ فَأَرَادُوا الْحِيْلَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَطْرُدُوا أصْحَابَهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفَلَةَ وَالْعَبِيْدَ عَنْكَ أتَاكَ أشْرَافُ قَوْمِكَ وَرُؤَسَاؤُهُمْ يَسْتَمِعُونَ مَقَالَتَكَ

وَيُصَدِّقُونكَ، وَذكَرُوا ذلِكَ أيْضاً لِعُمَرَ ﷺ، فَذكَرَ ذلِكَ لِرَسُول اللهِ ﷺ حِرْصاً عَلَى إسْلاَمِ أشْرَافِ قَوْمِهِ، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَفْعَلَ بَعْضَ الَّذِي طَلَبُوهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. يعلّمه أنه لا يجبُ أن يفضّل غنياً ولا شريفاً على فقيرٍ وضعيف؛ لأن طريقهُ فيما أُرْسِلَ به الدِّيْنُ دون أحوالِ الدُّنيا.

فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) أي يعبدون ربَّهم بالصلاةِ المفروضة غُدُوّاً وعَشِيّاً وهم ضَعَفَةُ الصحابةِ وَصَفَهُمُ اللهُ بالمواظبة على عبادتهِ في طرفَي النَّهار؛ ثُم شَهِدَ لَهم أنَّهم مخلصون في الإيْمان بقولِهِ: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أي يريدون وجهَ اللهِ تعالى بذلك؛ ويطلبون رضَاهُ. وذكرَ الوجهَ على سبيلِ التفخيم كقولهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[2]. معناهُ: إلاَّ هُو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي ما عليكَ مِن حساب عملِهم وباطنِ أمرهم من شيء، ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي مَا عليهم من باطنِ أمركَ شيءٌ ولا يُسْألُونَ عن عملِكَ ولا تسألُ أنتَ عن عملِهم.

وقيل: معناهُ: ما عليكَ من رزقِهم من شيءٍ، وما مِن رزقِكَ عليهم من شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ ؛ جوابُ (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَ ﴾ ؛ جوابُ (وَلا تَطْرُدِ). ﴿ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، ومعناهُ: فتكون من الضارِّين لنفسكَ أن لو طردتَهم.

وتقديرُ الآيةِ: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ. وقال سلمانُ وخبَّاب: (فِيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فَجَاءَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابسٍ التَّمِيْمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيّ وَأصْحَابُهُمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ، فَوَجَدُوا النَّبِيَّ ﷺ قَاعِداً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٢٦) عن ابن مسعود، والنص (١٠٣٢٨) بمعناه عن خباب ﷺ.

(٢) القصص / ٨٨.

مَعَ بلاَلٍ وَصُهَيْبَ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ فِي نَاسٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَهُ حَقَّرُوهُمْ؛ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ لَوْ جَلَسْتَ فِي صَدْرِ الْمَسْجِدِ، وَنَفَيْتَ عَنَّا هَؤُلاَءِ وَرَائِحَةَ جِبَابِهِمْ لَجَالَسْنَاكَ وَحَادَثْنَاكَ وَأخَذْنَا عَنْكَ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ جِبَابٌ مِنْ صُوفٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهَا.

فَقَالَ ﷺ: [مَا أنَا بِطَارِدِ الْمُسْلِمِيْنَ] فَقَالُوا: إنَّا نُحِبُّ أنْ تَجْعَلَ لَنَا مَجْلِساً تَعْرِفُ الْعَرَبُ بِهِ فَضْلَنَا، فَإنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيْكَ؛ فَنَسْتَحِي أنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَؤُلاَءِ الأَعْبُدِ، فَإذا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأقِمْهُمْ عَنَّا، فَإذا نَحْنُ قُمْنَا فَأقْعِدْهُمْ مَعَكَ إنْ شِئْتَ. فَأجَابَهُمْ إلَى ذلِكَ، فَقَالُوا: اُكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ بذلِكَ كِتَاباً. فَدَعَا بصَحِيْفَةٍ وَدَعَا عَلِيّاً رضي الله عنه لِيَكْتُبَ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ؛ إذْ نَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام بِهَذِهِ الآيَةِ: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) الآيَةُ. فَألْقَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحِيْفَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ دَعَانَا فَأتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: [سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ] فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَهُ، فَإذا أرَادَ أنْ يَقُومَ وَيَتْرُكَنَا، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[(١)].

قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ فَنَدْنُو مِنْهُ حَتَّى تَكَادُ رُكَبُنَا أنْ تَمَسَّ رُكْبَتَهُ، فَإذا بَلَغَ السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ، وَقَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أمَرَنِي أنْ أصْبِرَ نَفْسِي مَعَ قَوْمٍ مِنْ أمَّتِي، مَعَكُمُ الْمَحْيَا وَمَعَكُمُ الْمَمَاتُ][(٢)].

وقال مجاهدُ: (قَالَتْ قُرَيْشُ: لَوْلاَ بلاَلٌ وَابْنُ أمِّ عَبْدٍ لَتَابَعْنَا مُحَمَّداً. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(٣)]. وقال عكرمةُ: (جَاءَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ وَمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَنَوْفَلُ ابْنُ الْحَارِثِ وَعُمَرُ بْنُ نَوْفَلٍ إلَى أبي طَالِبٍ؛ قَالُوا لَهُ: لَوْ أنَّ ابْنَ أخِيْكَ مُحَمَّداً

(١) الكهف / ٢٨.

(٢) تقدم، وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٢٨) بإسنادين.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٣٣١).

يَطْرُدُ عَنْهُ مَوَالِيَنَا؛ فَإنَّمَا هُمْ عَبِيْدُنَا وَعُتَقَاؤُنَا، كَانَ أعْظَمَ فِي صُدُورِنَا وَأطْوَعَ للهِ عِنْدَنَا، وَأدْنَى لاتِّبَاعِنَا إيَّاهُ وَتَصْدِيْقِنَا. فَأتَى أبُو طَالِبٍ إلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَحَدَّثَهُ بالَّذِي كَلَّمُوهُ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ﷺ: لَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي يُرِيْدُونَ؛ وَإلَى مَا يُضْمِرُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)(١). قال ابنُ عبَّاس: (يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بالصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ (بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) يَعْنِي صَلاَةَ الصُّبْحِ وَصَلاَةَ الْعَصْرِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: معناه: (وَكَذلِكَ ابْتَلَيْنَا (بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ): الْعَرَبيَّ بالْمَوَالِي؛ وَالْغَنِيَّ بالْفَقِيْرِ؛ وَالشَّرِيْفَ بالْوَضِيْعِ؛ لِيَقُولَ الأَغْنِيَاءُ وَالأَشْرَافُ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ الَّذِي دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفْلَةَ، وَمِثْلُ أصْحَابهِ؛ كَانُوا يَقُولُونَ: هَؤُلاَءِ — يَعْنُونَ سَلْمَانَ وَأصْحَابَهُ - مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْمَغْفِرَةِ وَالإسْلاَمِ مِنْ بَيْنِنَا)(٣). وقال الكلبيُّ: (هُوَ أنَّ الشَّرِيْفَ إذا نَظَرَ إلَى الْوَضِيْعِ قَدْ أسْلَمَ قَبْلَهُ اسْتَنْكَفَ أنْ يُسْلِمَ، وَقَالَ: قَدْ سَبَقَنِي هَذا بالإسْلاَمِ؛ فَلاَ يُسْلِمُ).

ومعنى (اللام) في قوله: (لِيَقُولُوا) لامُ العاقبة؛ ومعناهُ: ليكونَ عاقبةُ أمرهِما؛ قال الأغنياءُ والأشراف: أهؤلاءِ المستضعفونَ فضَّلهم اللهُ علينا. ونظيرُ هذه اللاَّم في هذهِ الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٤)، ومعلومٌ أنَّهم لم يلتقطوهُ لأجلِ أن يكون لَهم عدوّاً وحَزَناً، ولكن عاقبةُ التقاطِهم إياه أنْ صارَ لَهم عدوّاً وحَزَناً.

وقال بعضُهم: اللامُ في قوله: (لِيَقُولُوا) معناها الاستفهامُ؛ أي ليقولَ بعضُهم لبعضٍ استفهاماً لا إنْكاراً: أهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بالإيْمانِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٣٥)، والأثر (١٠٣٤٢) عن قتادة، والأثر (١٠٣٤٣) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٤٩).

(٤) القصص / ٨.

والفائدةُ في ذلك أن الأغنياءَ كانوا شاكِّين في أن سَبْقَ الفقراءِ إلى الإيْمان وصبرهم على طريقةِ الدِّين؛ هل يوجبُ أن تكونَ نعمةً من الله عظيمة عليهم، فأمرَهُم اللهُ تعالى أن يَسْتَفْهِمُوا من الرسولِ ﷺ ما لأجلهِ يقومُ الفقراء بحضرةِ الرسُول ﷺ واستحقُّوا الإعظامَ، فيظهرُ عند الاستفهامِ جوابُ النبيِّ ﷺ، ويكون في سَماعهم لذلكَ مصلحةٌ عظيمة توجبُ رضاهُم بتقديمِ النبيِّ ﷺ أهلَ الدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ استفهامٌ بمعنى التحقيقِ على معنى أنَّ اللهَ أعلمُ بمن هو من أهلِ التوحيد والثَّواب.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ اختلفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ؛ فقال عكرمةُ: (نَزَلَتْ فِي الَّذِيْنَ نَهَى اللهُ نَبيَّهُ ﷺ عَنْ طَرْدِهِمْ، وَكَانَ ﷺ إذا رَآهُمْ بَدَأهُمْ بالسَّلاَمِ وَقَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أمَرَنِي أنْ أبْدَأهُمْ بالسَّلاَمِ])[1].

وقال ابنُ عبَّاس والكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآيَةُ، جَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه مُعْتَذِراً مِنْ مَقَالَتِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَإذا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا) الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالقُرْآن (فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ) أيْ قَبلَ اللهُ مَعْذِرَتَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ). ومعنى السَّلاَمِ: السلامةُ من جميعِ الآفاتِ.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٣٥. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٨٦١) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: [مَنْ أمَرَنِي بِالصَّبْرِ مَعَهُمْ]. وأبو داود في السنن: كتاب العلم: باب في القصص: الحديث (٣٦٦٦): بلفظ: عن أبي سعيد الخدري قال: جَلَسْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَإنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرِي، وَقَارِئٌ يَقْرَأ عَلَيْنَا، إذْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: [مَا كُنْتُمْ تُصْنَعُونَ؟] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأ عَلَيْنَا، فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إلَى كِتَابِ اللهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أمَّتِي مَنْ أمِرْتُ أنْ أصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ] قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَتَحَلَّقُوا، وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ، قَالَ: فَمَا رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أحَداً غَيْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَذَاكَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ].

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى أمرَ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُسَلِّمَ على المستضعفين إذا جاءُوا إليه، وإنَّما أمرَهُ بأن يبدأهم بالسَّلام مع أن العادةَ أن يُسَلِّمَ على القاعدِ حتى يَنْبَسِطَ إليهم بالسَّلامِ عليهم؛ لِئَلاَّ يحتشمُوا من الانبساطِ إليه. قال عطاءُ: (نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأبي عُبَيْدَةَ وَبلاَلٍ وَسَالِمٍ وَمُصْعَب بْنِ عُمَيْرٍ وَحَمْزَةَ وَجَعْفَرَ وَعُثْمَانَ ابْنِ مَضْعُونٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ)(١).

وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: (أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رجَالٌ فَقَالُوا: إنَّا أصَبْنَا ذُنُوباً عَظِيمَةً كَبيْرَةً، فَسَكَتَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَإذا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢).

واختلفُوا في قوله: (سُوءًا بجَهَالَةٍ) قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَعْرِفُ حَلاَلاً مِنْ حَرَامٍ، فَمِنْ جَهَالَتِهِ رَكِبَ الأَمْرَ). وقيل: جاهلٌ بما يُورثُهُ ذلك الذنبُ. وقيل: جَهِلَ حين آثرَ المعصيةَ على الطاعةِ، واللذةَ اليسيرةَ الفانيةَ علىالكثيرةِ الباقية الدائمةِ، فعلى هذا يسمَّى مرتكبُ المعصيةِ جاهلاً.

واختلفَ القُرَّاءُ في قولهِ تعالى: (أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بجَهَالَةٍ) وقولهِ: (فَأنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فكسرَهما جميعاً ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيُّ وخلف والأعمشُ على الاستئناف. ونصَبَهما الحسنُ وابن عامر وعاصمُ ويعقوب بدلاً من الرحمةِ. وفتحَ نافعُ الأولَ على معنى: وَكَتَبَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ، وكسرَ الثاني على الاستئنافِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ؛ أي نُبيِّنُ بياناً الأمرَ والنهي فِي الْقُرْآن من قبلُ، وكذا نُبيِّنُ وَنُنَزِّلُ الآياتِ متفرقةً شيئاً بعد شيء. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ معطوفٌ على مُضْمَرٍ تقديرهُ: لِيَظْهَرَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَلِتَسْتَبِينَ طريقُ الْمُجْرِمِينَ.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص١٧٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٥٦) عن ماهان بأسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وعبد بن حميد ومسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان... وذكره)).

وإنَّما لم يقل: سبيلُ المؤمنين؛ لأن في الكلامِ ما يدلُّ عليه؛ لأن معناهُ وَلِتَسْتَبِيْنَ سبيلَ المجرمين من سبيلِ المؤمنين. ويقرأ (وَلِيَسْتَبِيْنَ) بالياء؛ لأن السبيلَ يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، فَتَمِيمٌ تُذكِّرُهُ؛ وأهلُ الحجاز تُؤَنِّثُهُ.

ودليلُ التذكيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾[1] ولم يقل بها، ودليل التأنيث قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾[2] ولم يقل هذا سبيلِي. وقرأ أهلُ المدينة: (سَبِيْلَ) بالنصب على خطاب النبيِّ ﷺ؛ معناهُ: وَلِتَعْرِفَ يا مُحَمَّدُ سبيلَ المجرمين؛ فالخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به عامَّة المسلمين؛ كأنه ولِتَسْتَبِيْنُوا وتزدادوا معرفةً بطريق المجرمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِعُيَيْنَةَ وأصحابه: إنِّي نُهيتُ عن عبادةِ الذي تعبدون من الأصنام مِنْ دُون اللهِ، ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ ؛ فإنَّكم قد عَبَدْتُمُوهُ وسألتموهُ طردَ سلمان وبلالَ وأصحابَهما عن طريق الهدَى، لا على طريق البيِّنة والبرهان، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ ؛ أي قد ضَلَلْتُ إنْ عبدتُها؛ معناهُ إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيلَ الحق، وسلكتُ غيرَ سبيل الهدى.

وقرأ يحيى بن وثَّاب وأبو رجاء: (قَدْ ضَلِلْتُ) بكسر اللام؛ وهما لُغتان؛ إلا أنَّ الفتحَ أفصحُ؛ لأنَّها لغةُ أهلِ الحجاز. وقولهُ: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ ؛ عطفٌ على (ضَلَلْتُ)؛ أي إنْ أتَّبعْ أهواءَكم فما أنا من الذين سلكُوا طريقَ الهدى.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: إنِّي على بَصِيْرَةٍ وبيانٍ مِن أمرِ ربي؛ لاَ مُتَّبعٌ للهوى، (وَكَذبْتُمْ بِهِ) أي بالبيان، وإنَّما ذكَرَ الكنايةَ لأن البيِّنةَ والبيانَ بمعنى واحدٍ. ويجوزُ أن يكون معناهُ: وكذبتُم بما آتيتُكم به؛ وهو القُرآنُ. ومعنى البيِّنةِ: الدلالةُ بينَ الحقِّ والباطلِ.

---

(١) الأعراف / ٨٦.

(٢) يوسف / ١٠٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) رُوي: أنَّ رؤساءَ قريشٍ كانوا يستعجلونَ العذابَ، حتى قامَ النضرُ بن الحارثِ في الْحَطِيْمِ وقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ ما يقولُ مُحَمَّدٌ حقّاً فَأْتِنَا بالْعَذاب، فَنَزلت هذه الآيَةُ.

وقيل: معناه: (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من الآياتِ التي تقترحونَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ؛ أي ما القضاءُ وتنْزيل الآياتِ إلاَّ للهِ، ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ أي يَحْكُمُ بالعدلِ ويقضي القضاءَ الحقَّ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي أعدلُ الْفَاصِلِيْنَ.

ومن قرأ (يُقِضُ الْحَقَّ) بالضادِ المشدَّدة؛ فمعناهُ: يُبَيِّنُ ويَأْمُرُ بهِ، ومن قرأ (يَقْضِي) أي يَحْكُمُ. وقرأ ابن عبَّاس: (يَقْضِي بالْحَقِّ). وأما سقوطُ الياءِ في قراءة من قرأ (يَقْضِ) فإنَّها سقطت في الخطِّ لالتقاءِ السَّاكنَين، كما في قولهِ تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي﴾[2]. وفي جميعِ المصاحف: (يَقْضِ) بغيرِ ياءٍ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: (لَوْ أنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من العذابِ، ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي لأهلكتُكم؛ وانقطعَ ما بيني وبينكم من مطالبَتي إياكم بالإخلاص في طاعة الله وعبادتهِ، وامتناعِكم من ذلكَ، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي بعقوبتِكم ووقتِ عذابكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قرأ ابن السُّمَيقِع: (مَفَاتِيحُ الْغَيْب) بالياء. واختلفُوا في معنى (مَفَاتِحُ الْغَيْب) فروى عبدُالله بن

---

(١) العلق / ١٨.

(٢) القمر / ٦.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٣٩؛ قال القرطبي: (قال مكي: وقراءة الصاد أحبُّ إلي؛ لاتفاق الحرمين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الياء فيه كما أتت في قراءة ابن مسعود. قال النحاس: ومثل هذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الياء تحذف كثيراً). وقراءة ابن مسعود: (إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ يَقْضِي بالْحَقِّ).

عمرَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [مَفَاتِحُ الْغَيْب خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ: عِلْمُ السَّاعَةِ، وَنُزُولُ الْغَيْثِ، وَعِلْمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْري نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ][1]. وقال السُّدِّيُّ: (مَفَاتِحُ الْغَيْب: خَزَائِنُ الْغَيْب)[2] وَهِيَ الْمَقْدُورَاتُ الَّتِي يُفْتَحُ بهَا مَا فِي الْغَيْب، وَسُمِّيَتِ الْخزَانَةُ مِفْتَاحاً؛ لأَنَّهُ يَنْفَتِحُ مِنْهُ الأَمْرُ).

وقيل: (مَفَاتِحُ الْغَيْب) ما ينفتحُ به علمُ ما في الغيب من وقتِ نزول العذاب الذي كانوا يستعجلُون به وغيرُ ذلك. وقيل: معناهُ: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْب) أي نزولُ العذاب لا يَعلمُ متى ينْزل ما غابَ عنكم من الثواب والعقاب، وما يصيرُ إليه من أمري وأمركم إلا هوَ. وقيل: معناهُ: (مَفَاتِحُ الْغَيْب) الآجَالُ وأحوالُ العباد من السَّعادة والشَّقاوةِ، وعواقب الأمور، وخواتِم الأعمال. وقال ابنُ مسعود ﷺ: (أُوتِيَ نَبيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ مَفَاتِحَ الْغَيْب)[3]. وَالْمَفَاتِحُ جَمْعُ مِفْتَحٍ، وَالْمَفَاتِيْحُ جَمْعُ مِفْتَاحٍ؛ وهو معرفةُ المغيَّب.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي يَعْلَمُ ما في البرِّ من النباتِ والْخَلْقِ؛ وَما في الْبَحْرِ من الدواب والعجائب. وقيل: يعلمُ رزقَ كلِّ مَن في البرِّ والبحرِ، يسوقُ إلى كلِّ ذي روحٍ رزقَهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَا مِنْ شَجَرَةٍ فِي الْبَرِّ إلاَّ وَبهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ يَعْلَمُ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا، وَمَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهَا، وَيَعْلَمُ عَدَدَ مَا بَقِيَ عَلَى الشَّجَرَةِ مِنَ الْوَرَق وَمَا يَسْقُطُ مِنْهُ). وقيل: معنى الآيةِ: (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ) من أوراق الشَّجر، (إلاَّ يَعْلَمُهَا) اللهُ ثابتةً وساقطةً، ويعلمُ متى سقوطُها وموضعُ سقوطها.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والبخاري وابن محشيش وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٣٦٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٦٧). في مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٦٣؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي كـلُّ حبَّـة تكـون في الأرضِ حتى الحبَّةُ التي تكون تحتَ الصخرة الـتي هـي أسـفلُ الأرضـين يعلمُـها الله، وقيل: أرادَ كلَّ حبَّة تكون في شُقوق الأرضِ مِمَّا يخرجُ منها النبـات. ومـن قـرأ (وَلاَ حَبَّةٌ) بالرفعِ فعلى الابتداء؛ وخبرهُ (إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالرَّطْب الماءَ والخضر، وباليابسِ الحجرَ والمدرَ، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللـوحِ المحفـوظ؛ أثبتَ اللهُ تعالى فيه كلَّ ما يخلقُ قبلَ أن يخلقَهُ، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِـنْ مُصِيبَـةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[١].

وَاعْلَمْ: أنهُ قد أثبتَ ما خَلَقَ قبل خلقِهِ. والرطـبُ واليـابس عبـارةٌ عـن جميـع الأشياءِ التي تكون في السَّموات والأرضِ؛ لأنَّها تخلق من أحدِ هاتين الصِّفتين. وعـن النبيِّ ﷺ أنهُ قال: [مَا زَرْعٌ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ ثِمَارٌ عَلَى الأَشْجَارِ؛ إلاَّ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، رِزْقُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ][٢].

فإن قيلَ: ما الفائدةُ في كونِ ذلك مكتوبـاً في اللَّـوح مـع أنَّ اللهَ لا يخفـى عليـه شيءٌ؛ وأنه كان عالِمـاً بذلـك قبـلَ أن يخلقَـه وقبـل أن يكتبَـه؛ ولم يكتُبـها ليحفظَـها ويدريها. قيل: فائدتهُ أن الحـوادثَ إذا حدثـت موافقـةً للمكتـوب، ازدادَتِ الملائكـةُ بذلك علماً ويقيناً بعِظَمِ صفاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ[٣].

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ ؛ معنـاه: هـو الـذي يقبضُكم عن التصرُّفِ بالنوم وما تصيرونَ في منـامكم بـالليلِ في قبضتـهِ لا تملكـون لأنفسِكُم تصريفاً في أمورِكم.

---

(١) الحديد / ٢٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه الخطيـب في تاريخـه بسـند ضعيـف... وذكره)). وأخرجه الخطيـب في تـاريخ بغـداد: ج ٤ ص٣٥٣: ترجمـة أحمـد بـن الخليـل: الرقـم (٢١٢٣). وذكره الشوكاني في الفوائد: ص٣١٧.

(٣) كتب في هامش المخطوط: ((والجواب الشافي في ذلـك: هـو أن الله لا يُسأل عمـا يفعـل، وإلا فعلم الملائكة ليس بأمر مهم ولازم، والله أعلم)).

والتَّوَفِّي في اللغة: هُوَ الْقَبْضُ؛ إلاَّ أن روحَ النـائمِ لا تصيرُ مقبوضـةً في حـال نومه على جهةِ الحقيقة؛ لأن النائمَ يستمدُّ من الهـواءِ علـى حسـب مـا يفعلـهُ المنتبهُ، ولكنَّ الله يحدثُ في حال النوم من بدنِ النائم ضرباً من الاسترخاءِ في إغماءٍ منه، إمَّـا بسلب عقله، أو بإحداثِ فعلٍ في البدن يكونُ ذلك الفعل سبباً لراحةِ البدن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾(١) فلمـا صـارَ النـائمُ كـالميتِ في أنـه لا يعقـلُ وفي أن تصرفَه لا يقع على تمييز؛ شُبهَ بالميتِ من حيث التوفِّي على هذا الوجه، كما وردَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [النَّوْمُ أخو الْمَوْتِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَنَامُونَ](٢). وعلى هذا الوجهِ يتأوَّل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَـمْ تَمُـتْ فِي مَنَامِهَا﴾(٣) إلى آخر الآية.

وذهبَ بعضُهم إلى أن الروحَ تخرجُ من البدن في المنامِ، ولكن لا تنقطـعُ حركـة النائمِ؛ لأن نظرَ الروحِ لم ينقطع عن البدن؛ إذ هو على العَـوْدِ في كـلِّ وقـتٍ وفي كـل ساعةٍ؛ وقال: لا يخرجُ منه الروحُ، وإنَّما يخرج منه الذهن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ؛ أي كسـبتُم مـن الخـيرِ والشـرِّ بالنهار، يقـالُ: جَـرَحَ وَاجْـتَرَحَ؛ بمعنـى كَسَـبَ وَاكْتَسَـبَ، وأصـلُ الاجْـتِرَاحِ: عَمَـلُ الْجَـوَارحِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ؛ أي يُنَبـهُكُمْ مـن نومِكــم في النهارِ على علمٍ منه بما اجترحتُم من قبـلُ ومـا تجـترحون مـن بعـدُ، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لتبلغُوا الوقتَ المقدور الـذي قـدَّرهُ الله بحَيَوِيَّتِكُـمْ؛ فتنقطـعُ أرزاقكُـم وأعمالُكم التي تعملونَ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ.

---

(١) النبأ / ٩.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٥٠٢: الحديث (٩٢٣) وج ٩ ص٣٧٦-٣٧٧: الحديث (٨٨١١). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٤١٥: باب أهل الجنـة لا ينـامون؛ قـال الهيثمـي: ((رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح)).

(٣) الزمر / ٤٢: ﴿.. فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِـي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي ثم إلى اللهِ مصيرُكم ومتقلَّبُكم بعدَ الموتِ، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي ثم يُخبرُكُمْ في الآخرةِ بما كنتم تعملون في الدُّنيا؛ فيجازي كلَّ عاملٍ ما عَمِلَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي هو الْغَالِبُ لعبادهِ الْمُسْتَعْلِي عليهم بالقدرَةِ، وليس معنى (فَوْقَ) معنى المكان؛ لاستحالةِ إضافَةِ الأماكنِ إلى الله، وإنَّما معناهُ الْغَلَبَةُ والقدرةُ، ونظيرُهُ: فلانٌ فَوْقَ فلانٍ في العلمِ؛ أي أعْلَمُ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ ؛ معناه: وَالْمُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حفظَةً، فاكتفَى بالفعلِ عن الاسم. وَالْحَفَظَةُ: هُمُ الْمَلاَئِكَةُ يحفظونَ على العبادِ أعمالَهم على ما تقدَّم.

وقد وردَ في الخبرِ: أن على كلِّ واحدٍ منَّا ملَكين بالليلِ؛ وملَكين بالنهار، يكتبُ أحدُهما الحسناتِ؛ والآخرُ السيِّئاتِ، وصاحبُ اليمينِ أميرٌ على صاحب الشِّمال، فإذا عَمِلَ العبدُ حسنةً؛ كتبَ له بعَشْرِ أمثالِها؛ وإذا عَمِلَ سيِّئةً فأرادَ صاحبُ الشِّمال أن يكتبَ؛ قال له صاحبُ اليمين: أمْسِكْ، فيمسِكُ عنه ستَّ ساعاتٍ أو سبع ساعات، فإنْ هو استغفرَ اللهَ تعالى؛ لم يكتُبْ عليه، وإن لم يستغفرْ يكتب عليه سيِّئةً واحدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ معناه: حتَّى إذا حضرَ أحَدَكُمْ الْمَوْتُ؛ قبضَ روحَهُ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه، وَهُمْ لا يقصِّرون ولا يؤخِّرونه طرفةَ عينٍ، فإن قيلَ: كيفَ هنا (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) وقال في آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[1]؟ قيلَ: إنَّ مَلَكَ الموتِ هو الذي يقبضُ الأرواحَ كلَّها وهو القائمُ بذلك؛ إلا أنَّ له أعواناً؛ فتارةً أضافَ قبضَ الروحِ إلى مَلَكِ الموتِ؛ لأنه هو المختصُّ بذلكَ، وتارةً أضافَهُ إليه وإلى غيرِه؛ لأنَّهم يَصْدُرُونَ في ذلك عن أمرِهِ.

---

(١) السجدة / ١١.

وقال مجاهدُ: (جُعِلَتِ الأَرْضُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ كَالطَّشْتِ يَتَنَاوَلُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ، وَلَهُ أعْوَانٌ يَتَوَفَّوْنَ الأَنْفسَ، ثُمَّ يَقْبضُهَا مِنْهُمْ)(١). ويقالُ: إنَّ أعوانَ مَلَكِ الموت يستخرجون الروحَ من الأعضاءِ عُضْواً عُضْواً، حتى إذا جَمَعُوهُ في صدرهِ وجعل يُغَرْغِرُ به؛ قبضَهُ حينئذٍ مَلَكُ الموتِ.

وقد رويَ عن رسول الله ﷺ: أنَّهُ دَخَلَ عَلَى مَرِيْضٍ يَعُودُهُ، فَرَأى مَلَكَ الْمَوْتِ عِنْدَ رَأسِهِ؛ فَقَالَ: [يَا مَلَكَ الْمَوْتِ؛ ارْفُقْ بِهِ، فَإنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا مُحَمَّدُ؛ أبْشِرْ وَطِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً؛ فَإنِّي بكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيْقٌ، إنِّي لأَقْبضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ فَيَصْعَقُ أهْلُهُ فَأعْتَزِلُ فِي جَانِب الدَّار، فَأقُولُ: مَا لِي مِنْ ذنْب، وَإنِّي لَمَأمُورٌ، وَإنَّ لِي لَعَوْدَةٌ فَالْحَذرَ الْحَذرَ، وَمَا مِنْ أهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فِي بَحْرٍ أوْ بَرٍّ، إلاَّ وَأنَا أتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، حَتَّى أنِّي لأَعْلَمُ بصَغِيْرِهِمْ وَكَبيْرِهِمْ مِنْهُمْ بأنْفُسِهِمْ، وَاللهِ لَوْ أرَدْتُ أنْ أقْبضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ لَمَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأمُرَنِي اللهُ تَعَالَى بقَبْضِهَا](٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ثم رَدَّهُمُ الملائكةُ إلى الموضعِ الذي لا يَمْلِكُ أحدٌ الحكمَ فيه إلا اللهُ تعالى، وقولُه: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) أي مَوْلاَهُمُ من كلِّ جهةٍ، فإنهُ يَمْلِكُ خلقَهم وإنشاءَهم وتربيتَهم وإماتتَهم وإحياءَهم وضُرَّهم ونفعَهم، وهو الذي دَبَّرَ في الابتداء أمرَهم حيث أنشأهم. ومعنى قولهِ تعالى: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) أي الذي عِبَادَتُهُ حقٌّ، ويعطي الثوابَ الحقَّ، ويتولَّى العقابَ بالحقِّ، وقيل: إنَّ هذه أرجَى آيةٍ في كتاب اللهِ تعالى؛ لأنه لا مَردَّ للعبدِ أحسنُ من مَردِّهِ إلى مَوْلاَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ ؛ كلمة بَيِّنَةٌ؛ أي اعلمُوا أنَّ بَيِّنَةَ القضاءِ بين العباد يومَ القيامة يحكمُ فيهم ما شاءَ وكيف شاءَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص٢٢٠: الحديث (٤١٨٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣٢٥؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمرو بن شمر الجعفي والحارث بن الخزرج ولم أجد من ترجمهما، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ إذا حاسَبَ فحسابهُ يسيرٌ سريعٌ؛ لأنه لا يحاسبُ بحقد ولا يتكلَّمُ بآلةٍ، ولا يَحْجُزُهُ الكلامُ مع بعضِهم عن الكلامِ مع غيرهم، بل يحاسِبُ الجميعَ في دُفعة واحدةٍ. ومعنى الْمُحَاسَبَةِ: تَعْرِيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ؛ حَتَّى رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: أنَّهُ يَكُونُ حِسَابُهُ فِي مِقْدَار حَلْب شَاةٍ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ شدائد الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وأهوالِهما. تقولُ العرب لليومِ الذي فيه شدَّة: يَوْمٌ مُظْلِمٌ؛ حتى أنَّهم يقولون: يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ؛ إذا اشتدَّت ظلمتهُ حتى صارَ كالليل. ويقال: أرادَ بالظلمات ظلمةَ الليل، وظلمةَ الغيمِ، وظلمة الأمواجِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) أي تَدْعُونَهُ علانيةً وسرّاً، والتَّضَرُّعُ: إظْهَارُ الضَّرَاعَةِ؛ وَهِيَ شِدَّةُ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ إلَى الشَّيْءِ. وقرأ أبو بكر: (وَخِفْيَةً) بكسرِ الخاء، وقرأ الأعمشُ: (وَخِيْفَةً) من الخوفِ كما في آخر الأعراف[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ في موضعِ الحال؛ معناهُ: قائلين: لَئِنْ أنجيتنا مِنْ هَذِهِ الشدائد لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤمنينَ الموحِّدين المطيعين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ ؛ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ من شدائدِ البرِّ والبحر ومن كلِّ غمٍّ، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ بهِ الأصنامَ في الرَّخاءِ بعد النجاةِ، وبعد قيامِ الحجَّة عليكُم.

وقَوْلُهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ ؛ راجعٌ إلى مشركي مكَّة؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: (هُوَ الْقَادِرُ عَلَى انْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) كما بعثَ على قوم نوحٍ ولُوطٍ من الطوفان والحجارة، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ ؛ أي هو القادرُ على أن يَخْسِفَ بكم، كما فعلَ بقارُونَ وقومِه. ويقالُ: أراد بقوله: (عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) الظلمةَ، (اوْ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكُمْ) أو يُغَلِّبَ عليكم سفهاءَكم.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: الأعراف / ٢٠٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ ؛ معناه: أو يَخْلِطَكُمْ فِرقاً مختلفِي الأهواء، بأن يضربَ بعضَكم ببعضٍ بما يلقيهِ بينكم من العداوةِ. وقيل: معنى:(يَلْبسَكُمْ شِيَعًا) يَكِلُكُمْ إلى أنفسِكم ويُخْلِيْكُمْ من الطاعةِ بذنوبكم؛ فتختلفُوا حتى يذوقَ بعضُكم شدَّة بعضٍ بالحرب والقتال. وقالَ: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ؛ يعني بالسُّيوف يَقْتُلُ بعضُكم بعضاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّد كيف نُبَيِّنُ لَهم الآيةَ على إثْرِ آيةٍ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي لكي يَفْقَهُوا أوامرَ الله، ثم هم لا يفقهون.

قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ شُقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: [يَا جِبْرِيْلُ، مَا بَقَاءُ أُمَّتِي عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ الأَرْبَعِ؟!] فَقَالَ: إنَّمَا أنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ، فَادْعُ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ لأُمَّتِكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَتَوَضَّأَ وَأحْسَنَ الْوُضُوءَ؛ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى وَأحْسَنَ الصَّلاَةَ؛ ثُمَّ سَأَلَ اللهَ أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أُمَّتِهِ عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ، وَلاَ يُلْبسَهُمْ شِيعاً، وَلاَ يُذِيْقَ بَعْضَهُمْ بَأسَ بَعْضٍ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ مَقَالَتَكَ، وَإنَّهُ قَدْ أجَارَهُمْ مِنْ خِصْلَتَيْنِ: أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ، وَلَمْ يُخرِجْهُمْ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ)(١).

وقال ﷺ: [سَأَلْتُ رَبي أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أُمَّتِي عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ؛ فَأَعْطَانِي ذلِكَ. وَسَأَلْتُهُ أنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ؛ فَمَنَعَنِي ذلِكَ، وَأَخْبَرَنِي جِبْرِيْلُ أنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بالسَّيْفِ](٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي كذب بالْقُرْآن قومُك وهو الصدقُ، ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي بحفيظٍ أحفظُ أعمالَكم

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٨٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤١٩) عن الحسن.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٨٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والبزار وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه...)) وذكره وهو حديث طويل.

وأجازيكم عليها، وقيل: معناهُ: لستُ أقدِرُ أن أحُولَ بينكم وبين الكفرِ الذي يضرُّكم، كما يدفعُ الوكيلُ الضررَ عن موكِّله. وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: لَسْتُ بمُوكَّلٍ عَلَيْكُمْ؛ أخبرُكُمْ عَنِ الإيْمَان، قَالَ: ثُمَّ نُسِخَ هَذا بآيَةِ السَّيْفِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ ؛ معناهُ: لِكُلِّ وَعْدٍ وَوَعِيْدٍ وقتٌ، وأجلُ غايةٍ؛ منهُ ما يكون في الدُّنيا، ومنه ما يكون في الآخرةِ، ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة ذلكَ إذا نَزَلَ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا رأيتَ المشركين الذين يكذِّبون ويستهزئون بكَ وبالْقُرْآن (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) أي اتْرُكْهُمْ ولا تجالِسْهم على وجهِ الإنكار عليهم، إلا أنْ يتركُوا استهزاءَهم ويَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْقُرْآن. وذلكَ أن المشركينَ كانوا إذا جالسُوا المؤمنين؛ وَقَعُوا في رسولِ الله ﷺ فسبُّوه واستهزؤا بهِ، فنهَى اللهُ المؤمنينَ عن مُجالَستِهمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وَإمَّا يوقعنَّك الشَّيْطَانُ في النِّسْيَان بَعْدَ النهي فتجلسَ معهم، فلا شيءَ عليك في تلك الحال التي تكون فيها ناسياً، فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ قَوْمٍ إذا ذكرتَ، ودَعْ مجالسةَ المشركينَ فتأثم. قرأ ابنُ عبَّاس وابن عامرٍ: (يُنَسِيَنَّكَ) بالتشديدِ.

فلما نزلت هذه الآيةُ قال المسلمون: يا رسولَ اللهِ، لَئِنْ كُنَّا كلما استهزأ المشركون بالْقُرْآن قُمْنَا وتركناهم، لا نستطيعُ أن نجلسَ في المسجدِ الحرام، ولا أن نطوفَ بالبيتِ؟ فنَزل قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ، أي ما على الذين يَتَّقُونَ الشركَ والمعاصي والخوضَ في آثامِهم، ومخالفتِهم أمرَ الله من شيء من العقاب، ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ ؛ أي ولكن ذكِّروهم بالْقُرْآن ذِكْرَى إذا فعلُوا وَعِظُوهُم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ الشركَ والاستهزاءَ والخوضَ. فموضع (ذِكْرَى) نَصْبٌ على المصدر، ويجوزُ أن يكون في موضعِ رفعٍ؛ أي هُوَ ذِكْرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ذر الْكُفَّارَ الذين اختارُوا في أنفسهم اللَّعِبَ والباطلَ والاستهزاء. ويقال: معناهُ: الذين اتَّخذوا دينَهم بهوى أنفسهم، ومن اتَّخذ دينَهُ بهوى نفسهِ فهو لاعبٌ. وقال الفرَّاء في معنى الآية: (لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ إلاَّ وَلَهُمْ عِيْدٌ يَلْهُونَ فِيْهِ، إلاَّ أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإنَّ أعْيَادَهُمْ صَلاَةٌ وَتَكبيْرٌ وَبرٌّ وَخَيْرٌ)[1]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) معناه: وشَغَلَتْهُمُ الحياة الدُّنيا بما فيها من زهرتِها وزينتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ أي ذكِّرْ بالْقُرْآنِ وعِظْ بهِ كراهةَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ. ويقال: قَبْلَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ. ويقال: لئلا تُبْسَلَ نَفْسٌ؛ أي لئلا تَهلِكَ نفسٌ. وقال الحسنُ ومجاهد وعكرمة والسدي: (تُبْسَلَ: أيْ تُسَلَّمَ لِلْهَلَكَةِ)[2].

وقال ابنُ زيد: (معناه: وَذكِّرْ بِهِ أنْ تُبْسَلَ؛ أيْ لِئَلاَّ تَبْسَلَ؛ أيْ لِئَلاَّ تُؤْخَذ)[3]. وعن ابنِ عبَّاس: (أنْ تُفْضَحَ)[4]. وقال الأخفشُ: (أنْ تُبْسَلَ: أنْ تُجَازَى)[5]. وقال الفرَّاء: (تُرْتَهنَ)، وقال عطيةُ العوفي: (مِنْ قَبْلِ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ؛ أيْ مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَلَّمَ إلَى خَزَنَةِ جَهَنَّمَ). والْمُتَبَسِّلُ: الْمُسْتَسْلِمُ[6].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ؛ أي ليس لتلك النفس مِنْ دُون اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ؛ أي قريبٌ يَمنعُ العذابَ عنها ولا شفيعٌ يشفعُ لَها في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ ؛ أي لو جاءَت مكانَها بكلِّ ما كان في الأرضِ جميعاً افتداءً عن نفسها لا يُقْبَلُ منها.

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦: نقله القرطبي عن الكلبي أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٥) عن الحسن، والأثر (١٠٤٤٦) عن مجاهد، والأثر (١٠٤٤٤) عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٩).

(٥) في جامع البيان: الأثر (١٠٤٥٠) نقله الطبري عن الكلبي.

(٦) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦؛ قال القرطبي: (والإبسالُ: تسليم المرء للهلاك، هذا هو المعروف في اللغة. أبْسَلْتُ وَلَدي أرْهَنْتُهُ)، وقال: (أي تُرْتَهَنُ وتُسَلَّمُ للهَلَكَةِ).

وسُمي الفداءُ عدلاً؛ لأنه مِثْلٌ للشيء، ويقالُ لأحد جَانبي الحجل: عِدْلٌ بالكسر؛ لأن كلَّ واحدٍ من العِدلين مِثْلٌ لصاحبهِ، فمعنى الآيةِ: وإن تَفْتَـدِي بكـلِّ فـداءٍ لا يُؤْخَـذْ منها.

وقولـه تعـالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ ﴾ ؛ أي وجيعٌ؛ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي بما كانوا يَجْحَدُونَ في الدُّنيا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرْآن.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لكفَّار مكَّة الذين يدعونكم إلى دينِ آبائهم: أنعْبُدُ سِوَى اللهِ من الأصنام مَا لا يَنفَعُنَا إن عبدناهُ في رزق ولا معاش، وَلا يَضُرُّنا إن تركنـاهُ في رزق ولا معـاش، ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ عطفٌ على الاستفهامِ؛ أي كيف نرجـعُ إلى الكفر بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللهُ لدينه، وأكْرَمَنَا بمعرفتهِ، فيكونُ مَثَلُنَا؛ كَـ؛ مَثَلِ؛ ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ ؛ فأذهبَهُ؛ ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ ﴾ ؛ ضَالاً، لا يقـالُ: كـالذي زَيَّنَتْ له الشياطينُ هـواهُ؛ فـهو يعمـلُ في الأرضِ بالمعـاصي. وقيـل: معنـاهُ: كـالذي اسْتَفْرَسَتْهُ الغِيْلاَنُ في الْمَهَامَةِ فأضَلُّوهُ؛ فهو حَائِرٌ. و(حَيْرَانَ) نُصِبَ على الحال.

قرأ الأعمش وحمزة: (كَالَّذِي اسْتَهْوَاهُ) بالألفِ والإمالة، وقرأ طلحـةُ بـالألف، وقرأ الحسنُ: (اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ). وفي مصحفِ عبدِالله: (اسْتَهْوَاهُ الشَّـيْطَانُ). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ ﴾ ؛ أي له أصحـابٌ يدعونـه إلى الطريقِ المستقيم: أنِ ائْتِنَا وَاتَّبعْنَا؛ فإنَّا على الطريقِ، فأبَى أن يأتِهم ويطيعَهم.

وقيل: إن الآيةَ نزلت في عبدِالرحمن بن أبي بكرٍ حـين دعـا أبـاهُ إلى الكفـر[1]، فأنزلَ اللهُ تعالى: (قُلْ أنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُنَـا وَلا يَضُرُّنَـا). وقولـهُ: (كَـالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) هو عبدُالرَّحمن بن أبي بكرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُ أصْحَـابٌ يَدْعُونَـهُ

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨؛ قـال القرطـبي: ((وقـال – أي ابـن عبـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا في رواية أبي صالح-: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، كان يدعو أباه إلى الكفـر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام)).

إلَى الْهُدَى) قيل: كان أمُّهُ وأبوهُ يدعوانِه إلى الإسلام، وكان الشياطينُ والكفَّار يُزيِّنُونَ له الكفرَ إلى أن مَنَّ الله عليه بعد ذلك بقبُول الإسلام. وقوْلُهُ تَعالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم: إنَّ دينَ الله هو الإسلامُ؛ وأمَرَنا لِنُخْلِصَ العبادةَ؛ : ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ عطف على قوله: (لِنُسْلِمَ) أي أمِرْنا لِنُسْلِمَ؛ فقيل لنا: أسْلِمُوا وأقيمُوا الصلاةَ بركوعها وسجودها، (واتَّقُوهُ) أي اتَّقُوا سَخَطَهُ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي تُجمعون يوم القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لإقامةِ أمر الحقِّ؛ وهو الثوابُ والعقاب في الآخرةِ، ولم يَخلُقْها باطلاً لغير شيء، وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي وخَلَقَ الخلائق يوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: معناهُ: واتَّقُوهُ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: وَاذْكُرُوا يَوْمَ يَقُولُ ليوم القيامةِ: كُنْ فَيَكُونُ مكوَّناً بإذنِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ ؛ أي الآخرة[١] في أمر يوم القيامة حقٌّ كائنٌ لا محالة، وَلَهُ الْمُلْكُ يومئذ. وتخصيصُ ذلك اليوم بالْمُلْكِ؛ لأنَّ اليومَ الذي لا يظهرُ فيه مِن أحدٍ سوى اللهِ نفعٌ ولا ضَرٌّ كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾[٢]. والصُّورُ: قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيهِ إسْرَافِيْلُ نفختين؛ فتُغشَى الخلائقُ كلُّهم بالنفخةِ الأولى؛ ويَحْيَوْنَ بالنفخة الثانيةِ، فتكون النفخةُ الأولى لانتهاءِ الدُّنيا؛ والثانيةُ لابتداءِ الآخرة[٣]. قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي وعالِمُ ما غابَ عن العبادِ وما علموهُ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ؛ في أمرهِ، ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ بأعمال عباده.

---

(١) في المخطوط: (أي حرة) ويبدو أنه تصحيف، كما سيوضحه المصنف رحمه الله.

(٢) الانفطار / ١٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٦٧) عن ابن عباس بمعناه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ ؛ أي اذْكُرْ يا مُحَمَّد إذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأبيهِ آزَرَ، من قرأ (آزَرَ) بالنصب فموضعُه خفض بدل من (أبيْهِ) إلا أنه لا ينصرفُ؛ لأنه اسم أعجميٌّ، ومَن رَفَعَهُ فعلى النداءِ؛ أي يَا آزرُ[1]. وكان آزرُ مَسْكَنُهُ (كُوثَى) قريةٌ من سوادِ الكوفة.

قال السُّدِّيُّ والحسنُ: (آزَرُ اسْمٌ لأَبي إبْرَاهِيْمَ)[2]. وقال الفرَّاء: (هُوَ صِفَةُ عَيْبٍ وَسَبٍّ؛ وَمَعْنَاهُ فِي كَلاَمِهِمْ: الْمِعْوَجُّ)[3]. وقيل: معناهُ: الشيخُ لَهم. وقيل: قَالَ إبْرَاهِيمُ لأبيهِ الْمُخْطِئ، أو قال لأبيه: يَا مُخْطِئُ. وكان علَى هذا القولِ اسمٌ أندتارخ بن ياجوراء. وقال سعيدُ بن المسيب ومجاهدُ: (آزَرُ اسْمُ صَنَمٍ)[4] وهو على هذا التأويلِ في موضع نصبٍ، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير؛ تقديرهُ: اتَّخَذَ آزرَ أصْنَامًا آلِهَةً مِن دون اللهِ.

وقيل: كان إبراهيمُ قالَ لأبيه: لا تَتَّخِذُوا آزَرَ إلَهاً، اتَّخِذْ أصْنَامًا آلِهَةً، ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ ﴾ ؛ عن الحق؛ ﴿ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي ظاهرَ الضَّلالةِ في ذهابٍ عن الحقِّ بيِّن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي كما أرينا إبراهيم النصرةَ في دينهِ والحقَّ في مخالفة قومهِ؛ نُرِيَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؛ أي مُلْكَهَا ونريه القدرةَ التي يقوِّي بها دلالتَهُ على توحيدِ الله تعالى، وهو ما رأى من السماءِ والأرض والكواكب والقمرِ والشمس.

وقال مجاهدُ وسعيدُ بن جبيرٍ: (مَعْنَى: (وَكَذلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أيْ آيَاتِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ؛ وَذلِكَ أنَّهُ أُقِيْمَ عَلَى صَخْرَةٍ وَكُشِفَ لَهُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْعَرْشَ وَأَسْفَلَ الأَرْضِيْنَ، وَنَظَرَ إلَى مَكَانِهِ

---

(١) نقله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٣٤٠، وقال: (هو وجه حسن).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٦٨) عن السدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٢؛ نقله القرطبي عن الحسن.

(٣) في معاني القرآن: ج ١ ص٢٤٠؛ قال الفراء: (وقد بلغني أنَّ (آزر) في كلامهم: معوجٌّ، كأنه عابه بزيغه وبعوجه عن الحق).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧١) عن مجاهد، والأثر (١٠٤٧٢) عن السدي.

فِي الْجَنَّةِ؛ وَذلِـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَآتَيْنَـاهُ أجْـرَهُ فِـي الدُّنْيَـا﴾[1] يَعْنِـي أرَيْنَـاهُ مَكَانَـهُ فِي الْجَنَّةِ)[2].

وقيل: معنى الآية: كما أرينا إبراهيمَ قُبْحَ ما كان عليه أبوهُ وقومه من المذهب؛ كذلك نُريَهُ ملكوتَ السموات والأرض. والْمَلَكُوتُ: عِبَارَةٌ عَنْ أعْظَمِ الْمُلْكِ؛ زيدتِ الواوُ والتـاء للمبالغـةِ؛ كمـا يقـال: رَهَبُـوتٌ خَـيْرٌ مِـنْ رَحَمُـوت، هـذا مثـلٌ يقولـه العربُ؛ معناه: لئن تُرهب خيرٌ من أن تُرحم. فملكوتُ السموات: الشـمسُ والقمـر والنجـوم؛ وملكـوتُ الأرض: الجبـال والشـجرُ. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ ؛ أي نُرِيَهُ الملكوتَ ليستدلَّ بذلـك علـى توحيـدِ الله ويَثْبُـتَ على اليقين.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَبًا قَالَ هَذا رَبي) قال المفسرون: إنَّ إبراهيم وُلِدَ في زمانِ النَّمْرُودِ بْن كَنْعَانَ، وكـان النمـرودُ أولَ مـن دعـا النـاسَ إلى عبادتهِ، وكان له كهَّان ومنجِّمون، فقالوا له: إنهُ يولد في هذه السـنةِ غـلامٌ يغـيِّرُ ديـنَ أهلِ الأرض، ويكونُ هلاكُكَ وزوالُ مُلْكِكَ على يديهِ.

قال السديُّ: (رَأى النَّمْرُودُ فِي مَنَامِهِ كَأنَّ كَوْكَباً طَلَعَ فَذهَـبَ بضَـوْءِ الشَّـمْس وَالْقَمَرِ حَتَّى لَمْ يُبْقِ لَهُمَا ضَوءاً، فَفَزِعَ مِنْ ذلِكَ وَدَعَا السَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ؛ وَسَألَهُمْ عَـنْ ذلِكَ فَقَالُوا: هُوَ مَوْلُودٌ يُولَدُ فِي نَاحِيَتِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ؛ يَكُـونُ هَلاَكُـكَ عَلَـى يَدَيْـهِ. فَأمَرَ بذبْحِ كُلِّ غُلاَمٍ يُولَدُ فِي نَاحِيَتِهِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، وَأمَـرَ الرِّجَـالَ بـاعْتِزَالِ النِّسَـاءِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الْحُرَّاسَ، فَمَكَثَ كَذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ).

قال السديُّ: (خَرَجَ النَّمْرُودُ بالرِّجَالِ إلَى الْعَسْكَرِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ النِّسَـاءِ مَخَافَـةً مِنْ ذلِكَ الْمَوْلُودِ، فَبَدَتْ لَهُ حَاجَةٌ إلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمْ يَأْتَمِنْ عَلَيْهَا أحَداً مِـنْ قَوْمِـهِ إلاَّ

(١) العنكبوت / ٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧٧) عـن مجـاهد بأسـانيد. وفي الـدر المنثـور: ج ٣ ص١٠٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه آدم بن ابي إياس وابن المنـذر وابـن أبـي حـاتم وأبـو الشـيخ والبيهقي في الأسماء عن مجاهد))؛ وقال: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبـي حـاتم عن السدي)) وعنه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧٩).

آزَرَ، فَدَعَاهُ وَأمَرَهُ لِحَاجَتِهِ إلَى الْمَدِينَةِ، وَقَالَ لَهُ: إنَّكَ ثِقَتِي؛ فَأقْسَمْتُ إلَيْكَ أنْ لاَ تَدْنُو مِن امْرَأتِكَ وَلاَ تُوَاقِعْهَا، ثُمَّ أوْصَاهُ بحَاجَتِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَقَضَى حَاجَتَهُ، قَالَ: لَوْ دَخَلْتُ عَلَى أهْلِي فَرَأيْتُ كَيفَ حَالُهُمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى امْرَأتِهِ لَمْ يَتَمَالَكْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ قَدْ طَهُرَتْ مِنَ الْحَيْضِ، فَحَمَلَتْ بإبْرَاهِيْمَ عليه السلام، فَلَمَّا حَمَلَتْ بهِ؛ قَالَتِ الْكَهَنَةُ لِلنَّمْرُودِ: إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي أخْبَرْنَاكَ بهِ قَدْ حَمَلَتْ بهِ أمُّهُ اللَّيْلَةَ، فَأمَرَ النَّمْرُودُ بذَبْحِ كُلِّ وَلَدٍ مِنَ الْغِلْمَانِ.

فَلَمَّا دَنَتْ وِلاَدَةُ أمِّ إبْرَاهِيْمَ وَأخَذَهَا الْمَخَاضُ، خَرَجَتْ هَاربَةً مَخَافَةَ أنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهَا فَيُقْتَلُ وَلَدُهَا، فَوَضَعَتْهُ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ لَفَّتْهُ فِي خِرْقَةٍ وَجَعَلَتْهُ فِي الْحَلْفَاءِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلَى زَوْجِهَا فَأعْلَمَتْهُ، فَانْطَلَقَ أبُوهُ إلَيْهِ وَحَفَرَ لَهُ سَرَباً فِي ذلِكَ الْمَكَانِ وَجَعَلَهُ فِيْهِ، وَسَدَّ عَلَيْهِ بصَخْرَةٍ مَخَافَةَ أنْ تَأْكُلَهُ السِّبَاعُ، وَكَانَتْ أمُّهُ تَخْتَلِفُ إلَيْهِ سِرّاً فَتُرْضِعُهُ، وَكَانَ إذا بَكَى عَلَى أمِّهِ أتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام فَوَضَعَ إصْبَعَهُ فِي فَمِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا اللَّبَنُ، فَكَانَ يَمُصُّ سَبَّابَةَ نَفْسِهِ)[1].

وقال أبو روق: (كَانَتْ أمُّ إبْرَاهِيْمَ كُلَّمَا جَاءَتْهُ لِتَنْظُرَ إلَيْهِ وَجَدَتْهُ يَمُصُّ أصَابعَهُ، وَقَالَتْ: ذاتَ يَوْمٍ نَظَرْتُ إلَى أصَابعِهِ، فَوَجَدْتُهُ يَمُصُّ مِنْ إصْبَعٍ مَاءً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ لَبَناً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ عَسَلاً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ سَمْناً).

وقال بعضُهم: لَمَّا وضعَتْ أمُّ إبراهيمَ حَمْلَهَا، ذهبت به وحفرَتْ له حُفْرَةً وألقتْهُ فيها وسدَّتْها عليه بصخرةٍ، ورجعَتْ فسألَها أبوهُ آزَرُ: ما فعلَ حَمْلُكِ؟ قالت: وضعتُ غلاماً فماتَ، فصدَّقَها وسكتَ عنها. وكان إبراهيمُ يَشِبُّ في اليومِ مثلَ ما يشِبُّ غيرُه في الشهرِ، ويشبُّ في الشهرِ ما يشبُّ غيرُه في السنةِ، فلم يَمكث إبراهيمُ في المغارة إلا خمسةَ عشر يوماً، ثم أخبرَتْ أمُّهُ أزرَ بخَبَرِهِ وما صَنَعَتْ به، فلمَّا شبَّ إبراهيمُ في المغارة وعقَلَ وتكلَّم، أتَتْهُ أمُّهُ ذاتَ يومٍ فقال لَهَا: مَنْ ربي؟ قالت: أنَا! قال: وَمَنْ رَبُّكِ؟ قالت: أبوكَ! قال: ومَن ربُّ أبي؟ قالت: النمرودُ! قال: ومَن ربُّ النمرودِ؟ قالت: اسكت! فسكتَ)[2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٠٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي وذكره)).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٤؛ قال القرطبي: ((والقصص في هذا تامٌّ في (قصص=

ثم رجعت إلى أبيه وأخبرتْهُ بذلك، فأتاهُ آزرُ؛ قال له: يا أبتاهُ مَن ربي؟ قال: أمُّكَ؛ قال: ومَن ربُّ أمِّي؟ قال: أنا! قال: ومَن ربُّكَ؟ قال: النمرودُ! قال: ومَن ربُّ النمرودِ؟ فلَطَمَهُ؛ وقال: اسكُتْ؛ فسكتَ.

ثم أنه خرجَ بعد ذلك من السرب حين غربتِ الشمسُ، فنظرَ إبراهيمُ إلى الإبلِ والخيلِ والغنمِ فقال: لا بُدَّ أن يكون لهذه ربٌّ وخالقٌ، ثم تفكَّر في خلقِ السموات والأرضِ، وقال: إنَّ الذي خلَقَني ورزقَني وأطعمني وسقانِي هو ربي، ما لِي إلهٌ غيره. (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) أي غشيَهُ الليلُ؛ رأى الزهرةَ؛ (قَالَ هَذا رَبي). (فَلَمَّا أفَلَ) ذلك النجمُ؛ قال: لا أحبُّ رباً ليس بدائم. ثم نظرَ؛ فرأى القمرَ طالعاً في آخرِ الليل؛ (قَالَ هَذا رَبي)، فلما رآهُ يَسْري ويَنْتَقِلُ من مكانٍ إلى مكان، عَلِمَ أنه مُحْدَثٌ لا يصلحُ أن يكون رباً؛ فـ (قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبي لاكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ) طالعةً قد ملأتْ كلَّ شيء، (قَالَ هَذا رَبي هَذا أكْبَرُ) مما قبله. (فَلَمَّا أفَلَتْ) جاءَ إلى قومِهِ فرآهُم يعبدونَ الأصنامَ، فـ (قَالَ يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ ؛ وأظلمَ أي غطَّاه، والتظلُّم، يقال: يُجَنُّ جُنَّةَ الليلِ؛ وأجَنَّهُ وجَنَّ عليهِ؛ إذا أظْلَمَ، وجُنْتُ الْمَيِّتَ وأجَنْتُهُ إذا دفنتَهُ(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ؛ في هذا القولِ ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنه قال هذا ربي في ظَنِّي؛ لأنه كان في حالِ فكرةٍ واستدلال، وكان في ذلك الوقت مهلةٌ له للتروِّي والنظرِ، فلما رأى الكوكبَ في عُلُوِّهِ وضيائه، قَرَّرَ في نفسه على ما ينقسم حكمهُ من كونه رباً خالقاً أو مَخْلُوقاً مَرْبُوباً، فلما رآهُ طالعاً آفِلاً ومتحرِّكاً زائلاً، قضى بأنه مُحْدَثٌ بمقارنته، أما ذات الحدث وأنه ليس بربٍّ، وأنَّ الْمُحْدَثَ غيرُ قادرٍ على إحْدَاثِ الأجسام، وأن ذلك يستحيلُ منه، كما استحالَ ذلك من نفسِهِ إذا كان مُحْدَثاً، فحَكَمَ بمساواته له من جهة الحدوثِ وامتناع كونه خَالِقاً.

=الكسائي) وهو كتاب مما يُقتدى به)).

(١) في المخطوط: (إذا رفته) وهو تصحيف. وفي اللغة: وجَنَّ الْمَيِّتَ جَنّاً وَأجَنَّهُ: سَتَرَهُ. لسان العرب: (جنن).

ثم لَمَّا طلعَ القمرُ فوجد صفتهُ في الْعِظَمِ والإشراق وانبساطِ النور أكبر، قرَّرَ في نفسه أيضاً على ما ينقسمُ حكمه فقال: هذا ربـي، فلمـا رآهُ وتأمَّلـه وجـدَهُ في معنـى الكوكب في الطُّلوعِ والأفُول، فحكمَ عليه بحكمهِ، وإن كان أكثرَ منه ضوءاً.

ثم لَمَّا رأى الشمسَ في عِظَمِهَا وإشراقِها وتكاملِ ضيائها، قال: هذا ربي؛ لأنَّها كانت تخالفُ الكواكـبَ والقمـر في هـذه الأوصـافِ، فلمـا رآهَـا أفَلَـتْ، حَكَـمَ لَـهَا بالْحُدُوثِ وأنَّها في حُكمِ الكوكب والقمرِ منتقلةٌ؛ لوجودِ دلالـة الْحَـدَثِ في الجميـعِ. قالوا: والذي يُؤَيِّدُ هذا التَـأويلَ الـذي ذكرنـاه: أن قـولَ إبراهيـم علـى وجـهِ النَّظَـرِ والتَّفكُّرِ، ما ذكرهُ الله عنه أنه عَلَيْهِ السَّلاَمُ قال: (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبي لاكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

والثانِي؛ وهو الأقربُ إلى الصحة: أن إبراهيمَ إنَّما قال هــذا في حـالِ الطُّفولـة قبل كَمَالِ عقلهِ حين حركةِ الخواطرِ للفكرة، والنظرِ في دلائل توحيدِ الله تعالَى.

فإن قيلَ: كيفَ يُحْمَلُ أن هذا القولُ من إبراهيمَ كان على ابتـداء النظـرِ، وقـد تقدَّمَ إنكارهُ على أبيه وقومهِ عبادةَ الأصنام لقوله:(أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَـةً)؟ قيـل: تقـدُّمُ الآيةِ في التلاوةِ لا يوجبُ أنَّها مقدَّمةٌ في الحال، ولا يَمْتَنِعُ أن إبراهيمَ عليه السلام أنكرَ علـى أبيه وقومه بعدَ هذا النَّظَرِ الذي ذكرناهُ.

والثالث: أنَّ قولَه: (هَذَا رَبِي) كان على وجهِ الإنكار الـذي يكـونُ مـع إلغـاء الاستفهام، وكان قصدهُ من هذا القولِ استدراجُ قومهِ لإقامة الحجَّة عليـهم وتقربُـهم إلى الْهُدَى، فإنَّهم كانوا يعبدونَ الأصنامَ والشمس والقمرَ والكواكب، كأنه قال لَـهم: هذا ربي في زعمِكم، كما قالَ تعالَى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1].

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ ؛ الكوكبُ وتبيَّن ((أنه))[2] مُسَـخَّرٌ مُذَلَّـلٌ؛ ﴿ قَـالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي لا أعَظِّمُهُ تَعْظِيْمَ الرَّب عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبي لأَكُونَنَّ) معناهُ على هذا القول: لئن لَم يُثَبِّتْنِي ربـي علـى الهـدى؛ لأنَّ

---

(١) الأنعام / ٢٢.

(٢) ((أنه)) سقطت من المخطوط.

الله تعالى أثنى على إبراهيمَ عليه السلام في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] والسليمُ: الَّذي لاَ شَكَّ فِيْهِ وَفِي سَلاَمَتِهِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ ؛ معناه: فلمَّا رأى القمرَ طالعاً؛ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ؛ يقال: بَزَغَ القمرُ إذا ابتدأ الطُّلوعَ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي فلما غابَ، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ؛ أي لئن لم يُرشدني ربي ويُثَبِّتْنِي على الطريقِ المستقيم، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾ عن الهدي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي فلمَّا رأى الشمسَ طالعةً؛ قال: هذا الطالعُ ربي وهذا النورُ ربي، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ ؛ أي غابتِ الشمسُ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾ باللهِ من الأصنامِ والأوثان والشَّمس والقمرِ والكواكب.

قالوا: فمَنْ تعبدُ أنتَ يا إبراهيمُ؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أي إنِّي أخلصتُ دِيْنِي وعبادتِي وجعلتُ قصدي للَّذي ابتدأ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض، ﴿حَنِيفًا﴾ ؛ أي مَائلاً من الأديان الباطلة إلى دينِ الحقِّ مَيْلاً لا رجوعَ فيه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ ؛ أي لستُ على دينِكم أيها المشركونَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ؛ وذلك أنَّ قومَ إبراهيم خاصَمُوه في مخالفتِهِ إيَّاهم في دينِهم وخوَّفوه بآلِهتِهم، وقالوا: أمَا تخافُ آلِهتَنَا وأنتَ تشتِمُها أن تُخبلَكَ وتُفسِدَكَ؟! وقالوا له: إنَّ موضعَ أهلِ كذا قد تركُوا عبادةَ الأصنام فأُمْحِنُوا وقُحِطُوا، وأهلُ موضعِ كذا أحسنُوا عبادةَ الأصنامِ فرُزِقُوا السَّعةَ والخصبَ. فأجابَهم إبراهيمُ عليه السلام: (أتُحَاجُونِي فِي اللهِ) أي أتُخاصمونِي في توحيدِ الله ودينه، وقد نصرنِي اللهُ وعرَّفَنِي دينَهُ وتوحيده بما نَصَبَ لِي من الدلائلِ.

---

(١) الصافات / ٨٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي لا أخافُ من هذهِ الأشياءِ التي تعبدُونها وهي مِمَّا لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا ينفعُ ولا يضرُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيۡـًٔاۗ ﴾ ؛ استثناءٌ منقطع؛ أي ولكن أخافُ مشيئةَ ربي أن يعذِّبَني ببعضِ ذنوبي أو يَبْلُوَني بشيءٍ من مِحَنِ الدُّنيا. وموضع (أَنْ يَشَاءَ) نَصْبٌ على تقديرِ: لا أخافُ إلا مشيئةَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًاۗ ﴾ ؛ أي أحَاطَ علمُ ربي بكلِّ شيء، ومَلأَ كلَّ شيءٍ علماً، وهو يعلمُ أنّكم على غيرِ الحقِّ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ تنبيهٌ على التَّفكُّرِ فيمَا كان بقولهِ لَهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ ؛ وكيفَ أخافُ الأصنامَ التي أشركتُموها مع اللهِ، وهي لا تَمْلِكُ الضَّرَّ والنفعَ، بل لا تعرفُ مَن عَبدَها ومَن تركَ عبادتَها، ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ ﴾ ؛ الذي يَمْلِكُ النفعَ والضرَّ ويعلمُ مَن عبدَهُ ومَن لم يعبدْهُ، ﴿ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًاۚ ﴾ ؛ أي عُذْراً وحجَّةً لكم؛ ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ ﴾ ؛ أي الموحِّدون أم المشركون، ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ، ذلكَ.

فلم يجيبُوا، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ ؛ أي الذين أقرُّوا بتوحيدِ الله ولم يَخلِطُوا إيْمَانَهُمْ بشِرْكٍ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ ﴾ ؛ من العذاب؛ ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ إلى الحجَّة، وقيل: إلى الجنَّة. وقيل: إنَّ قولَه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبسُوا إيْمَانَهُمْ بظُلْمٍ) قولُ إبراهيمَ عليه السلام.

وعن ابن مسعُودٍ رضي الله عنه أنه قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ شَقَّ ذلِكَ عَلَى أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: وَأيُّنَا لَمْ يُلْبسْ إيْمَانَهُ بظُلْمٍ؟ فَقَالَ ﷺ: [إنَّهُ لَيْسَ كَذلِكَ، ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ؟][2].

---

(١) لقمان / ١٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٠٤) بأسانيد. والبخاري في الصحيح: كتاب الإيمان وأحاديث الأنبياء. ومسلم والترمذي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي تلك المقالةُ التي حاجَّ بها إبراهيمُ حجَّتُنا أعطيناها ولَقَّنَّاها إبراهيمَ؛ لِيَحْتَجَّ بها على قومِهِ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ؛ في الدُّنيا بالحجَّة والنُّصرةِ، وفي الآخرةِ بالثواب والفضيلة. ومن قرأ (دَرَجَاتٍ) بالتنوين لا على الإضافةِ فمعناهُ: نرفعُ مَن نشاءُ درجاتٍ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في تفضيلِ بعضِ الناس على بعضٍ، وتخصيصِ بعضهم بالنُّبوَّة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ ؛ أي وَهَبْنَا لإبراهيمَ إسْحَقَ نَبيّاً لصلبهِ ويعقوبَ نافلةً، (كُلاًّ) يعني أنَّ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوب هَدَيْنَاهم للنبُوة والإسلام﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾[1] من قَبْلِ إبراهيمَ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ؛ أي ومِن ذريَّة نوحٍ، وهذا قولُ بعضِهم؛ جعلوا الهاءَ راجعةً إلى نوحٍ؛ لأنَّها أقربُ إلى اسْمِه؛ ولأنه ذُكِرَ في جملة المعطوفينَ على داودَ وسليمانَ مِمَّن ليس مِن ذريَّة إبراهيمَ وهو من ذريَّة نوحٍ كيونُسَ ﷺ وكلُوطٍ ﷺ الذي كان ابنَ أخِ إبراهيم ولم يكن مِن ولدِهِ.

وقال بعضُهم: هي راجعةٌ إلى إبراهيم؛ لأنه هو المقصودُ بالذِّكر فيما تقدَّم من الآيةِ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي كما تفضَّلنا على هؤلاء الأنبياءِ بالنبوَّة وما يتصِلُ بها من العزِّ والكرامةِ، كذلك نتفضَّلُ على الْمُحسنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ معناه: ومِن ذريَّة إبراهيمَ (زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ) المرسلينَ. قال الضَّحاك: (كَانَ إلْيَاسُ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبْرَاهِيمَ). وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: وَهدينا (زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإلْيَاسَ). وفي الآيةِ حُجَّةٌ على مَن أنكرَ في الحسنِ والحسين أنَّهما أبناءُ رسولِ الله ﷺ؛ لأنه تعالى جعلَ عيسى - ولا أبَ له - مِن ذريَّة إبراهيمَ[2].

---

(١) سقطت من المخطوط وأثبتت لاقتضاء المعنى وضرورة السياق.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١١؛ قال السيوطي: ((وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقي عن عبدالملك بن عمير قال: دَخَلَ يَحْيَى بْنُ يَعْمُرَ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَذَكَرَ الْحُسَيْنَ فَقَالَ الْحَجَّاجُ: لَمْ=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ ﴾ ؛ معناه: وَهدينا إسْمَاعِيلَ وَالْيَسعَ؛ وهو تلميذُ إلياسَ وخليفتُه من بعده. وقال محمدُ بن إسحق: (هو ابن أخي موسى ﷺ) . و(الْيَسَعَ) فيه قراءَتان: بالتشديدِ والتخفيف(١)، ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي وكلَّ هؤلاء الأنبياءِ فضَّلناهُم بالنبوَّة والإسلام على عالَمي زمانِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ ﴾ ؛ أي هدينا بعضَ آبائهم من قبلِهم مثلَ آدمَ وشيت وإدريسَ، وبعضَ ذرياتِهم مِن بعدهم؛ وهم أولادُ يعقوب. ومن جملة ذرياتِهم نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ. وقوله تعالى: (وَإِخْوَانِهِمْ) هم أخوةُ يوسفَ في عصرهم، ويحتملُ أن يكون المراد بهم كلُّ من آمنَ معهُم، فإنَّهم كلُّهم داخلون في هدايةِ الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي اصطفينا هؤلاءِ الأنبياءَ بالنبوَّة والإخلاص، وجَمَعْنَا فيهم خصالَ الاجتباء؛ مأخوذٌ من قولِهم: جَبَيْتُ الماءَ في الحوض واجْتَبَيْتُهُ؛ إذا جَمَعْتُهُ. وقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي أثْبَتْنَاهُمْ على طريقِ الحقِّ وهو دينُ الإسلامِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ ﴾ ؛ أي إنَّ ذلك الطريقُ المستقيم دينُ الله يُوَفِّقُ له من يشاءُ مِمَّن كان أهْلاً لذلك، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ ؛ أي لو أشْرَكَ هؤلاء الأنبياءُ طُرْفَةَ عين مع اصطفاءِ الله تعالى إيَّاهم، ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا ﴾ ؛ أي لَبَطَلَتْ أعمالُهم التي؛ ﴿ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ من الطاعة، فكيفَ أنتم يا أهلَ مكَّة؟!

=يَكُنْ مِنْ ذُرِّيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ يَحْيَى: كَذَبْتَ! فَقَالَ: لَتَأْتِيني عَلَى مَا قُلْتَ بِبَيِّنَةٍ، فَتَلا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿وَعِيسَى وَإلْيَاسَ﴾ فَأخْبَرَ تَعَالَى أنَّ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ بِأُمِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ)).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢؛ قال القرطبي: (وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم: (واليَسَعَ) بلام مخففة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً: (واللَّيْسَعَ) وكذا قرأ الكسائي) وفي القراءة آراء كثيرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾ ؛ أي أولئك الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أعطيناهُم الكتابَ المنزَّل، والحُكْمَ بين الناس، وأكرمناهُم بالنبوَّة والرسَالة، ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا ﴾ أي بملَّة هؤلاءِ الأنبياء، ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ يعني قُريشاً، ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا ﴾ ؛ أي فقد قام بها، ﴿ قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾ وهم أهلُ المدينةِ وأتباعُ النبيِّ ﷺ.

وقيل: هم الملائكةُ، وإنَّما قال: (فَقَدْ وَكَّلْنَا بهَا) ولم يقل: فقد قامَ بها، تشريفاً للملائكةِ بالإضافة إلى نفسِه على معنى: أكرَمْنا ووفَّقْنا إلى الإيْمان بها. يقال: معناهُ: فقد أكرمنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بهَا بكَافِرينَ؛ فقامُوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ ؛ أي أولئكَ الأنبياءُ الذين ذكرناهم مِن قَبْلُ هم الذين أكرمَهُم الله بالطريقةِ الحسَنة؛ فَاقْتَدِ بسيرتِهم؛ واصْبِرْ كما صَبَروا حتى تستحقَّ من الثواب ما استحقُّوا. وأما الهاء في (اقْتَدِهِ) فإذا أثبَتَّ الهاء في الوقفِ تتبين بها كسرة[1] الدال[2]، فإن وَصَلْتَ قُلْتَ: (اقْتَدِ قُلْ لا أسْأَلُكُمْ)[3].

قَوْلُهُ: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾ ؛ معناهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لاَ أسْألُكُمْ على الإيْمان والقُرآن جُعلاً، ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، ﴿ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ ﴾ ؛ إلا عِظَةً بليغةً للجنِّ والإنسِ. وفي الآية دليلٌ على أن شرائعَ الأنبياءِ تَلْزَمُنَا ما لم نَعْلَمْ نسخَه؛ لأن اسمَ الهدى يقعُ على التوحيدِ والشَّرائع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ ؛ قال ابن عبَّاس وسعيدُ بن جُبير في معنى هذه الآية: (جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَال لَهُ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، وَكَانَ رَأسَ الْيَهُودِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) في المخطوط: (كثرة) بدل (كسرة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٦؛ قال القرطبي: (لأن الهاء لبيان الحركة في الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء). نقله عن ا لنحاس.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٦؛ قال القرطبي: (لأنه إن وصل بالهاء لحن، وإن حذفها خالف السواد) وعليه أوجب الوقف، وفي القراءة أفهام.

[أَنْشِدُكَ اللهَ يَا مَالِكُ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام؛ أَتَجِدُ فِيْهَا أَنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْحَبْرَ السَّمِيْنَ؟] قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: [فَأَنْتَ الْحَبْرُ السَّمِيْنُ، وَقَدْ سَمَّنَتْكَ مَأْكَلَتُكَ الَّتِي تُطْعِمُكَ الْيَهُودُ، وَلَسْتَ تَصُومُ- أيْ وَلَسْتَ تُمْسِكُ-] فَضَحِكَ بِهِ بَعْضُ الْقَوْمِ، فَغَضِبَ مَالِكٌ، وَكَانَ حَبْراً سَمِيْناً، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

وقال السُّدِّيُّ: (نَزَلَتْ فِي فِنْحَاصَ بْنِ زَوْرَاءَ؛ وَهُوَ قَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ). وقال محمد بن كعبٍ: (جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ وَهُوَ مُحْتَبٍ(٢)، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلاَ تَأْتِيْنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾(٣). فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ، وَلاَ عَلَى مُوسَى، وَلاَ عَلَى عِيْسَى، وَلاَ عَلَى أحَدٍ شَيْئاً. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٤).

ومعناها: ما عَظَّمُوا اللهَ حقَّ عظَمَتِهِ ، ولا عَرَفُوهُ حقَّ معرفتِه إذ جَحَدُوا فقالُوا: مَا أنزلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ؛ أي من كتابٍ ولا وَحْيٍ، ﴿قُلْ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ ؛ يعني التوراةَ؛ ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ؛ أي ضياءً للناسِ وبياناً لَهم من الضَّلالة، ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ ؛ يكتبونه صحائفَ، ﴿تُبْدُونَهَا﴾ ؛ يظهرونَ ما فيها مما ليسَ فيه صفةُ النبيِّ ﷺ وزمانُه ومبعثُه ونبوَّتُه، ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ؛ أي يسترون ما فيه صفةُ النبيِّ ﷺ وبعثُهُ وآيةُ الرَّجمِ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون خطاباً للمسلمين، أي عُلِّمْتُمْ أنتم أيُّها المؤمنون من الأحكامِ والحدُودِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ. والأظهرُ: أنه خطابٌ لليهودِ؛ لأنه مَسُوقٌ على ما سبقَ، معناهُ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٤٤).

(٢) الْحِبْوَةُ والْحُبْوَةُ — بالضم- لغتان: ضمُّ الساقِ إلى البطنِ بثوب.

(٣) النساء / ١٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٤٧).

عَلِمْتُمْ بالقُرْآنِ ما كنتم أخْفَيْتُمُوهُ قبلَ نزولِ القُرْآنِ؛ لأنَّهم قد ضَيَّعُوا شيئاً كثيراً من القُرْآنِ والأحكامِ، وكانوا يُعَانِدُونَ ولا يعملونَ حتى صاروا كأنَّهم لم يعلمُوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ ؛ معناه: إنْ هم أجابُوكَ وقالوا: أعْلَمَنَا اللهُ، وإلا فَقُلْ: اللهُ عَلَّمَكُمْ. ويقال معناهُ: قُلِ اللهُ أنزلَ الكتابَ على موسى، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ ؛ أي دَعْهُمْ واتركهم في باطلِهم يَلْهُونَ، ويقال لكلِّ من عَمِلَ ما لا ينفعهُ: إنَّما أنْتَ لاَعِبٌ.

قال ابن عبَّاس: (فَلَمَّا رَجَعَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَى قَوْمِهِ، قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ! مَا هَذا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْكَ، زَعَمْتَ أنَّهُ مَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ! أرَأيْتَ كِتَابَنَا مَنْ جَاءَ بِهِ إلَى مُوسَى وَهُوَ بَشَرٌ؟! قَالَ: إنَّهُ قَدْ أغْضَبَنِي، فَلِذلِكَ قُلْتُ مَا قُلْتُ. قَالُوا: إذا غَضِبْتَ قُلْتَ غَيْرَ الْحَقِّ، وَاللهِ لاَ تَلِي لَنَا شَيْئاً، فَنَزَعُوهُ عَمَّا كَانَ يَلِي لَهُمْ، وَوَلَّوا مَكَانَهُ كَعْبَ بْنَ الأشْرَفِ)[1]. قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو بالياء فيها على الإخبار، وقرأ الباقون بالتَّاء على الخطاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ الذي كذب به أهلُ الكتاب ومشركو قريشٍ؛ هو (كِتَابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) أي فيه بَرَكَةٌ ومغفرةٌ للذنوب لِمَنْ آمنَ به، والبركةُ: ثبوتُ الخيرِ على النَّماءِ والزيادةِ. وقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ؛ هو موافقٌ للتوراة والإنجيلِ وسائر كتب اللهِ في أصلِ الدِّين، ويقال: المرادُ بـ (الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) النشأةُ الثانيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ؛ أي أنزلناهُ للبركةِ، ولِتُخَوِّفَ به أهلَ أمِّ القُرَى، وسُميت مكةُ أمَّ القرى لأنَّها أصلُ القرى دُحِيَتِ الأرضُ من تحتِها، ويقال: لأنَّها أعظمُ القرى شأناً، وقيل: لأنَّها قِبْلَةٌ تَأُمُّهَا الناسُ بالصلوات إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ؛ أي الذين يُقِرُّونَ ويصدِّقون بالبعثِ يؤمنون بالقُرْآنِ، وفي هذا بيانٌ أنَّ الإيمانَ بالحساب والجزاءِ يقتضي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد)).

الإيْمانَ بالقرآن، ولا ينفعُ بدون الإيمان به وبمُحمَّدٍ ﷺ. وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي يُداومُـونَ علـى الصلـوات الخمـسِ بركوعـها وسجودها ومواقيتِها.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابن عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَمُسَيْلَمَةَ الْكَذاب الَّذِي كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، وَفِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَرْحِ الْقُرَشِيِّ، كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدٍ يَتَكَلَّمُ بالإسْلاَمِ، وَكَانَ يَكْتُـبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْقُـرْآنَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، وَكَانَ إذا أمْلَى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ، كَتَبَ مِنْ قَلْبِهِ: أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ، وَقَالَ: هَذا وَذاكَ سَوَاءٌ.

فَلَمَّا نَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ قَدْ أفْلَحَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِـنْ طِينٍ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾[1]، ثُمَّ أمْلاَهَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّـا أمْلَى عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ أنشأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عَجِبَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَـعْدٍ مِـنْ تَفْصِيْـلِ خَلْـقِ الإنْسَانِ، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ: فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخَـالِقِينَ، فَقَـالَ ﷺ: اكْتُـبْ، هَكَـذا أنْزِلَ عَلَيَّ. فَشَكَّ عَبْدُاللهِ حِيْنَئِذٍ، وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقاً فَقَـدْ أوْحِـيَ إلَـيَّ كَمَـا أوْحِيَ إلَيْهِ، وَلإنْ كَانَ كَاذِباً فَلَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

ومعناها: أيُّ أحدٍ أكفرُ وأشدُّ غبناً في كفره ممن اختلق على الله كذباً، بأن جعل له شريكاً وولداً كما قال المشركون ومالكُ بن الصيف: (وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أنزَلَ اللهُ)، والمرادُ بالذي (قَالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُـوحَ إلَيْـهِ شَـيْءٌ) مسيلمةَ الكـذاب وكـان يَسْجَعُ ويَتَكَهَّنُ ويدَّعي النبوَّةَ ويزعمُ أنَّ الله أوحَى إليه. وأما عبدُالله بن سرح فارتدَّ

---

(١) المؤمنون / ١٢-١٤: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِـنْ طِـينٍ. ثُـمَّ جَعَلْنَـاهُ نُطْفَـةً فِـي قَـرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَـامَ لَحْمًـا ثُمَّ أنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠؛ قال القرطبي: ((رواه الكلبي عـن ابـن عبـاس)). وفي جامع البيان أخرجه الطبري عن عكرمة في الأثر (١٠٥٦٢)، وعن السدي في الأثر (١٠٥٦٣).

ولَحِقَ بالمشركين وقال: أنا أعلمُكم بمُحَمَّدٍ، فلقد كان يُملي عليَّ فأغيرَه وأكتبُ كما شئت[١].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ ؛ أي لو رأيتَ الظالمين (فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) لرأيتَ لَهم عذاباً عظيماً. والظالمون هُم الكافرون، وقيلَ: المنافقون رَآهُمْ رسولُ الله ﷺ يومَ بدر في صفوفِ المشركين، وقد نرَى مسلمين بمكَّة فأخرجَهم أهلُ مكة معهم كَرْهاً، فلما رأوا قِلَّةَ المؤمنين رَجعُوا إلى الشِّرك، فقالوا: غرَّ هؤلاء دينُهم، عَنَوا به المؤمنينَ، وقاتلُوا مع المشركين فقُتِلُوا جميعاً عامَّتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) أي في سَكَرَاتِهِ ونزعاتِه وشدائده، وقوله تعالى: (وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ) معناه: أنَّ مَلَكَ الموتِ وأعوانه من ملائكةِ العذاب يَبْسُطُونَ أيديَهم عليهم بالعذاب ويقولون لَهم: (أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ) أي خلِّصوا أنفسَكم، ولستُم تقدرون على خلاص. وقيل: معناه فَارِقُوا أرواحكم الخبيثة، كما يقولُ: لأحْرِقَنَّكَ بالْعَذاب، لأخْرِجَنَّ نَفْسَكَ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ ؛ أي يقال لَهم يومَ قبضِ الرُّوح، وقيل: يومَ القيامةِ حين معاينَة العذاب: اليوم تُجْزَوْنَ العذابَ الشَّديد الذي تُهَانُونَ فيه، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾ ، بكَذِبِكُم، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ، وبما كنتم تتعظَّمُونَ عن الإيمان بمُحَمَّد ﷺ والقُرآن.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم)).

(٢) في المخطوط: (فارقوا أزواجكم الخبيثة؛ كما يقول: ولا لأحرقن الذي يعذبه) وهو تصحيفٌ من الناسخ، ولا يستقيمُ المعنى المراد؛ إذ المعنى: أخرجُوا أرواحكم من أجسادكم؛ وهم عاجزون، فالخطابُ بمنزلة قول القائل: ((لمن يعذِّبهُ: لأذيقَنَّكَ العذابَ ولأخرجَنَّ نفسَكَ)) وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم، بل يقبضُها ملك الموت وأعوانه. فهي عبارة عن العنفِ والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال كما يفعل الغريمُ الملازم الملحُّ؛ ويقول: أخرجْ لي ما عليكَ الساعةَ، ولا أبرحُ من مكاني حتى أنزعَهُ من أحداقِكَ. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٢. واللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٢٩٠.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي جئتمونا بلا مَالٍ ولا وَلَدٍ كما خلقناكُم في الابتداءِ، والمعنـى: أنـهُ يقـال لـهم: (وَلَقَـدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى). وفي الخبر: أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (وَاسَوْأَتَاهُ ! الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كَذلِكَ) فَقَـالَ ﷺ: [لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْـهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، لاَ يَنْظُرُ الرِّجَالُ إلَى النِّسَاءِ، وَلاَ النِّسَاءُ إلَى الرِّجَالِ، شُغِلَ بَعْضُـهُمْ عَنْ بَعْضٍ][1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ ؛ أي وخلَّفتُـم مـا أعطيناكم من الأموال لغيـركم أي خَلَّـفَ عليـها غـيرَكم في دار الدُّنيـا، ولم تقدِّموهـا لأنفسكم، ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ﴾ ، آلِهَتَكم، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ، الـتي، ﴿ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ ، يشفعون لكم ويقرِّبونكم إلـيَّ، ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي وَصْلُكُم[2].

ومن قرأ (بَيْنَكُمْ) بالنصب فمعناه: تقطعَ ما بينَكم؛ أي ما كنتم فيه من الشِّركة، ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أنَّـها شـفعاؤُكم عنـدَ الله حـين لم يقدرُوا عن دفعِ شيء من العذاب عنكُم.

وقال الحســنُ: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ: (وَلَقَـدْ جِئْتُمُونَـا فُـرَادَى) أيْ كُـلُّ وَاحِـدٍ عَلَـى حِدَةٍ)[3]. وقال ابنُ كيسان: (مُفْرَدِيْنَ مِنَ الْمَعْبُودِيْنَ). وقيل: (فُرَادَى) أي وحْدانـاً لا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(١٠٥٣٦). وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب رحال المتقين: الحديث (٨٧٣٢)؛ وقال: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) وقال الذهبي: منقطع. والحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتب الرقاق: باب الحشر: الحديث (٦٥٢٧) من طريق آخر. ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة: باب فناء الدنيا وبيان الحشر: الحديث (٥٦/ ٢٨٥٩).

(٢) على معنى: لقد تَقطَّعَ وَصْلُكُمْ بينَكم. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٣؛ قال القرطبي: (وفي حرف ابن مسعود ما يدلُّ على النصب فيه (لَقَدْ تقَطَّعَ مَا بينَكم) وهذا لا يجوز فيه إلا النصب؛ لأنك ذكرتَ المتقطِّع وهو — ما -).

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن الحسن... وذكره)).

مالَ لكم ولا زوجَ ولا ولدَ ولا خدم. فُرَادَى: جمع فَرْدٍ، مثلُ سَكْرَانِ وَسُكَارَى، كَسْلاَن وكُسَالَى. ويقال أيضاً: فُرَادَى بجزمِ الرَّاء وكسرها وفتحها، وجمعه أفْرَادٌ. وقرأ الأعرجُ: (فُرْدَى) بغيرِ ألِفٍ مثل سُكْرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ) أي حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، (وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُوركُمْ) أي ما أعطيناكم وملَّكناكم من الأموال والأولاد والخدَم وراءَ ظهوركم في الدنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) قرأ أهلُ الحجاز والحسن ومجاهد والكسائيُّ وحفص بالنصب؛ وهي قراءة أبي موسَى الأشعري، وقرأ الباقون بالرفع.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ؛ أي خالقُ الْحَب وَالنَّوَى، كقولهِ تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١) أي خالقُهما. وقال الحسنُ وقتادة: (فَالِقُ الْحَب) أيْ شَاقُّ الْحَبَّةِ عَنِ السُّنْبُلَةِ، وَالنَّوَاةِ عَنِ النَّخْلَةِ. والْحَبُّ: جمع حَبَّةٍ، والنَّوَى: جمع نَوَاةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ؛ أي يخرجُ الإنسانَ من النُّطفةِ، والنطفةَ من الإنسان. وسُميت النطفةُ ميتاً؛ لأنَّها من جملة المواتِ. وقيل: معناهُ: يخرج النباتَ الغَضَّ الطرِيَّ من الحب اليابسِ، ويخرجُ الحبَّ اليابس من النباتِ.

وكلُّ ما يكون نامياً عند أهلِ اللغة بمَنْزلة الحيِّ، وما لا يكون نامياً فهو بمنْزلة الميت. ويقال: معناهُ: يخرج المؤمنَ من الكافر، ويخرج الكافرَ من المؤمنِ، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ذلكم اللهُ الذي يفعلُ هذا الفعلَ؛ هو اللهُ، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي فمن أينَ تُصْرَفُونَ عن الحقِّ. والإفكُ في اللُّغة: هُوَ قَلْبُ الشَّيْءِ وَصَرْفُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ؛ أي شاقُّ عَمُودِ الصُّبح عن سوادِ الليل، وقال ابن عبَّاس: (مَعْنَاهُ: خَالِقُ الإصْبَاحِ). قال الزجَّاج: (الإصْبَاحُ وَالصُّبْحُ وَاحِدٌ،

---

(١) الأنعام / ١٤.

وَالأَصْبَاحُ جَمْعُ الصُّبْحِ). ويقالُ: الإصباحُ بكسر الألف المصدرُ؛ ومعناهُ الدخـولُ في ضوءِ النَّهار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا ﴾ ؛ لتسكنُوا فيه من ظُلمتهِ في أوطـانكم. وقرأ الحسنُ: (فَالِقُ الأَصْبَاحِ) بالفتح جمعُ صُبْحٍ، (وَجَاعِلُ اللَّيْـلِ سَكَنًا) يسكنُ فيـه خَلْقُه. وقرأ النخعيُّ: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) على الفعلِ في معناه: نَـوَّرَ النـهارَ بـالنور؛ لتبتغُوا من فضلهِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ﴾ ؛ نصبُ الشَّمسِ على معنى: (وَجَعَلَ)؛ لأنَّ في (جَاعِلُ) معنى جَعَـلَ؛ أي جعـلَ منـازلَ الشـمسِ والقمـرِ بحُسْـبَان معلومٍ لا يختلفُ، إذا انتهَى إلى أقصى منازلهِ رجعَ، فإن الشَّمسَ تدورُ على الفَلَكِ كلِّه في ثلاثِمائة وخمسةٍ وستِّين يوماً وربُع يوم، والقمـرَ يـدورُ علـى الفَلَـكِ كلِّـه في ثمـان وعشرين ليلةً، ويكون مستُوراً في ليلتين، ثم يعودُ إلى ما كان، فيعـرفُ النـاسُ بذلـكَ آجالَ عقودِهم، وأوقاتَ معاملاتِهم وعباداتِهم، وسنينَ أعمارهم.

والْحُسْبَانُ: مصدرٌ، يقال: فُلانٌ حُسْبَانُهُ على اللهِ؛ أي حِسَابُهُ على اللهِ. ويقـال: إنَّ الْحُسْبَانَ جمعُ حِسَابٍ، كما يقـال: شِـهَابٌ وَشُـهْبَانٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي وَصَـفَ تدبـيرَ العزيـزِ المنيـع في سُـلطانهِ، الغالب الذي لا يُغلبُ، العالِمِ بمصالح مَملكتهِ.

وقولُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ ﴾ ؛ أي هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ التي تختلفُ مواضِعها من جهـة الشَّـمال والجنوب والدبور والصبا، لتعرفوا بـها الطُّـرُقَ مـن بلـدٍ إلى بلـد (فِـي ظُلُمَـاتِ الْـبَرِّ وَالْبَحْرِ) أي في الْمَفَاوز ولُجَجِ البحار في الليلَة المظلمة في السُّفُنِ. فإنَّ مِن النُّجومِ مـا يجعلهُ السائرَ تلقاءَ وجههِ، ومنها ما يجعلهُ خلفَه، ومنها ما يجعله على يَمينه، ومنها مـا يَجعله على شِماله؛ لتظهرَ له الطريقُ التي تؤدِّيه إلى بُغْيَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ ؛ أي بَيَّنا العلاماتِ مفصَّلَةً، ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ ؛ أي أنشأ خلقكُم من نفسِ آدمَ عليه السلام وحدِها؛ فإنه خَلَقَنا جميعاً منهُ، وخلقَ أمَّنا حَوَّاءَ من ضِلع مـن أضـلاعِ

آدم عليه السلام، وإنَّما مَنَّ علينا بهذا؛ لأنَّ الناسَ إذا رجعوا إلى أصلٍ واحد كانوا أقربَ إلى أن يألَفَ بعضُهم بعضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فَمُسْتَقِرٌّ) بكسر القاف على معنى فَمنكم مُستَقِرٌّ، وقرأ الباقون بفتحها على معنى: ذلك مُسْتَقَرٌّ. قال ابن عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) أيْ مُسْتَقَرٌّ فِي أرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي أصْلاَبِ الآبَاءِ)(١). وقال بعضُهم على الضدِّ من هذا، إلا أنَّ لفظ الـ (مُسْتَقَرُّ) فيمَن خَلَّفَ، كلفظِ المستودَع فيمَن لَمْ يُخَلِّفْ أقربُ.

وقال ابنُ مسعُودٍ: (مَعْنَاهُ: فَمُسْتَقَرٌّ فِي الرَّحِمِ إلَى أنْ يُولَدَ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الْقَبْرِ إلَى أنْ يُبْعَثَ)(٢). وقال الحسنُ: (مُسْتَقَرٌّ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الْقَبْرِ). وقال مجاهدُ: (فَمُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ عِنْدَ اللهِ فِي الآخِرَةِ)(٣). وقال أبو العاليَة: (مُسْتَقَرُّهَا أيَّامُ حَيَاتِهَا، وَمُسْتَوْدَعُهَا حِيْنَ تَمُوتُ وَحِيْنَ تُبْعَثُ). وقال بعضُهم: مُسْتَقَرٌّ في الرَّحم، ومستقرٌّ فوقَ الأرض، ومستقرٌّ تحت الأرض، اقرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٤) و﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(٥). وقيل: المستقرُّ في القبر، والمستودعُ في الدنيا. قال الحسنُ: (يا ابْنَ آدَمَ، أنْتَ وَدِيْعَةٌ فِي أهْلِكَ، وَيُوشِكُ أنْ تَلْحَقَ بصَاحِبِكَ)(٦)، وَأنْشَدَ قَوْلَ لَبيْدٍ:

وَمَا الْمَالُ وَالأَهْلُونَ إلاَّ وَدِيْعَةٌ ... وَلاَ بُدَّ يَوْماً أنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وقال آخرُ:

فُجِعَ الأَحِبَّةُ بالأَحِبَّةِ قَبْلَنَا ... وَالنَّاسُ مَفْجُوعٌ بِهِ وَمُفَجَّعُ

مُسْتَقِرٌّ أوْ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ خَلاَ ... وَالْمُسْتَقِرُّ يَزُورُهُ الْمُسْتَوْدَعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦١٤) بأسانيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦٢٠).

(٤) الحج / ٥.

(٥) البقرة / ٣٦.

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٣٤، ولم يذكر الشعر.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ ﴾ ؛ أي بيَّنا العلاماتِ الدالأت على توحيدِ الله مفصَّلةً، ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي لقوم يستدلُّون بمعاني الآيات.

والفِقْهُ في اللُّغة: هو الْفَهْمُ لِمَعْنَى الْكَلاَمِ، إلا أنه قد جُعِلَ في العُرْفِ عبارةً عن عِلْمِ الغيب، على معنى أنهُ استدراكُ معنى الكلامِ بالاستنباطِ عن الأُصُول، ولِهذا لاَ يَجُوزُ أن يوصفَ الله تعالى بأنه فَقِيْهٌ؛ لأنه يوصَفُ بالعلمِ؛ والعلمُ حجَّةُ الاستنباطِ، ولكنه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على وجهٍ واحد.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي أنزلَ من السَّماء المطرَ، فإن الله تعالى مُنَزِّلُ المطرِ من السماء إلى السَّحاب، ويُنَزِّلُ من السحاب إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾[1] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَخْرَجْنَا بهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) أي فأخرجنا بالمطرِ نَبَاتَ كلِّ صِنْفٍ من أصنافِ الحبُوب معاشاً لَهم.

فإن قيل: كيفَ قال الله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) فجعلَ المطر سَبَباً للنباتِ، والفاعلُ بالسبب يكون مستعيناً بفعلِ السبب، والله تعالى مُسْتَغْنٍ عن الأسباب؟

قيل: إنَّما قال اللهُ تعالى: (فَأَخْرَجْنَا بهِ)؛ لأن المطرَ سببٌ يؤدِّي إلى النَّبات، وليس بمولودٍ لهُ، واللهُ تعالى قادرٌ على إنبات النباتِ بدون المطر، وإنَّما يكون الفاعلُ بالسبب مستعيناً بذلك السبب إذا لم يُمكنه فعلُ ذلك الشَّيء إلا بذلك السبب، كما أنَّ الإنسانَ إذا لم يُمكنه أن يصعدَ السطحَ إلا بالسُّلَّم، كان السُّلَّمُ آلةَ الصُّعود، والطائرُ إذا صعدَ السطح بالسُّلَّمِ، لم يكن السُّلَّمُ آلةً لهُ؛ لأنه يُمكنه أن يصعدَ السطحَ بدون السُّلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ ؛ أي أخرجنَا من المطر نباتاً أخضرَ؛ وهو ساقُ السُّنبلةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ ؛ أي نُخرجَ من ساق السُّنبلة ما قد رَكِبَ بعضُه بعضاً؛ يعني سنابلَ البُرِّ والشعيرِ والأَرُزِّ والذرَّة وسائرَ الحبوب، يَرْكَبُ بعضُه بعضاً.

---

(١) ق / ٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ؛ أي عُروقٌ قريبةُ المتناول ينالُها القاعدُ. والقِنْوَانُ: جَمْعُ الْقِنْوِ؛ مثل صِنْوٍ وَصِنْوَانٍ. والقِنْوُ: عَذقُ النَّخلةِ والعَذقُ؛ بفتح العين: النَّخْلَةُ. قال الزجَّاج: (فِي الآيَةِ مَحْذُوفٌ؛ أيْ دَانِيَةٌ وَغَيْرُ دَانِيَةٍ؛ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعِيْدَةَ الْمُتَنَاوَلِ).

وقرأ الأعرجُ: (قُنْوَانٌ) بضمِّ القاف؛ وهي لغةُ قيس. وقال مجاهدُ: [مَعْنَى قَوْلِهِ: (دَانِيَةٌ) أيْ مُتَدَلِّيَةٌ]. وقال الضَّحاك: (مُلْزَقَةٌ بالأَرْضِ)(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ ؛ عطفٌ على قوله تعالى: (خَضِراً) أي وأخرجنا جَنَّاتٍ؛ أي بساتينَ وأشجار مُلْتَفَّةٍ، وكل نَباتٍ مُتَكَاثِفٍ يَسْتُرُ بعضُه بعضاً فهو جَنَّةٌ، من جنَّ إذا اسْتَتَرَ. وقرأ الأعمشُ ويحيى بن يعمر وعاصم: (وَجَنَّاتٌ) بالرفعِ عطفاً على (قِنْوَانٌ) لفظاً، وإن لم تكن في المعنى من جِنْسِهَا، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرُ مُتَشَابِهٍ) بالرفعِ أيضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ ؛ أي وأخرجنا من شجرِ الزَّيتونِ وشجر الرُّمَّان، (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) أي منها ما يُشْبهُ غيرَه في الصُّورةِ واللَّون، ومنها ما لا يشبهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: متشابهاً في المنظرِ واللَّون، وغيرَ متشابهٍ في الطَّعمِ مثلَ الرُّمَّان الحامضِ والْحُلْوِ. والفائدةُ في الجمعِ بين شَجَرِ الزيتون وشَجَرِ الرُّمان في هذه الآيَةِ: بأنَّهما شجرَتان يشتملُ ورقُهما على الغُصْنِ من أوَّلهِ إلى آخره مشتبهةً بأوراقِهما، ومختلفةٌ ثِمارهما(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ ؛ أي انظرُوا إلى خُرُوجِ الثمرِ نَظَرَ الاعتبار إذا عُقِدَ وهو غَضٌّ، وَيَنْعِهِ إذا نَضَجَ وأخذ اللونَ من بين أصفرِ وأبيض وأحمرِ، فمعناهُ: (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وَيَنْعِهِ) أي ونُضْجِهِ وإدْراكِهِ. وقرأ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٦٤٣).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٩؛ قال القرطبي: (أي متشابهاً في الأوراق، أي ورق الزيتون يشبه ورق الرمان في اشتماله على جميع الغصن وفي حجم الورق، وغير متشابه في الذَّواق؛ عن قتادة وغيره). وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٣٢٩؛ قال ابن عادل: (وقال قتادة: مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها).

أبو رَجَاء: (وَيَانِعِهِ) بالألفِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (انظُرُوا إِلَى ثُمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) قرأ أهلُ الكوفةِ غيرُ عاصمٍ: (ثُمُرِهِ) بضمِّ الثاء والميمِ على جمعِ الثِّمار، فيكون جمعُ الجمعِ؛ لأن الثُّمُرَ جمعُ الثمار.

ومعنى الآية: أنظرُوا إلى الثَّمَرِ في ابتداءِ طلُوعهِ، وانظروا إليه في انتهاءِ حاله وقتَ إدراكهِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في خلقِ هذه الأشياء، وتصريفِها ونقلِها من حالٍ إلى حال لعلاماتٍ دالَّةٍ على البعثِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللهِ. وهذه الآيةُ دالةٌ للمؤمنين وغيرِهم، إلا أنه خَصَّ المؤمنينَ بالذكرِ؛ لأنَّهم هم الذين يَنْتَفِعُونَ بالاستدلال بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الزَّنَادِقَةِ؛ قَالُوا: إنَّ اللهَ تَعَالَى وَإبْلِيسَ أخوان؛ فَاللهُ تَعَالَى خَالِقُ النَّاس وَالدَّوَاب وَالأَنْعَامِ وَكُلِّ خَيْرٍ، وَإبْلِيسُ خَالِقُ السِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارب وَكُلِّ شَرٍّ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1])[2]. وقال مقاتلُ: (نَزَلَتِ الآيَةُ فِي جُهَيْنَةَ وَخُزَاعَةَ، قَالُوا: إنَّ صِنْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ: بَنَاتُ اللهِ)[3] تعالى عمَّا يقولُونَ عُلُوّاً كبيراً.

وانتصبَ (الْجِنَّ) لكونهِ بدلاً من (شُرَكَاءَ) أو لأنهُ مفعولٌ ثانٍ على تقدير: وجعلُوا الجنَّ شركاءَ للهِ؛ كقولهِ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون الهاءُ والميم عائدةً إلى أهلِ الشِّركِ، ويجوز أن تكونَ عائدةً على الجنِّ، على أن المعنى: أنَّ اللهَ خالِقُ الجنِّ؛ فكيفَ يكونوا شركاءَ لهُ؟!

(١) الصافات / ١٥٨.

(٢) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٣٣٣؛ قال: (قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والكلبي).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص٣٦٣؛ قال: (وذلك أن جهينة، وبني سلمة، وخزاعة وغيرهم قالوا: إن حيّاً من الملائكة يقال لهم: الجن بنات الرحمن...).

(٤) الزخرف / ١٩.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي وكذبُوا بنسبةِ البنين والبنات إلى اللهِ تعالى، فإنَّ مشركي العرب قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ بنُ اللهِ، واليهود قالوا: عزيرٌ بنُ الله. وكَذبُوا كلُّهم لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، يقالُ: خَرَقَ؛ وَاخْتَرَقَ؛ وَاخْتَلَقَ؛ وَافْتَرَى: إذا كَذبَ.

وقرأ أهلُ المدينة: (وَخَرَّقُوا) بالتشديدِ على التكثير. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي بجهلهم بلا حُجَّة؛ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ كلمة تَنْزِيْهٍ وتبعيدٍ لله تعالى عن كلِّ سوءٍ؛ أي سَبحُوهُ أيُّها المؤمنونَ عمَّا يقولُ عليه الجاهلون. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (تَعَالَى) عُلُوّاً من العُلُوِّ؛ أي اسْتَعْلَى عمَّا وصفوهُ به. ويجوزُ في صفاتِ الله تعالى: (عَلاَ) ولا يجوز: ارْتَفَعَ؛ لأن العُلُوَّ قد يكون بالاقتدار؛ والارتفاعُ يقتضي الجهةَ والمكانَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مُبْتَدِعُ السَّموَاتِ وَالأرْضِ ومُنْشِؤُهما ابتداءً على غير مثال سبقَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ ؛ أي مِن أينَ يكونُ له ولدٌ؛ وكيفَ يكون له ولدٌ ولم تكن له زوجةٌ، ولا يكون الولدُ إلا من زوجةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ نفيٌ للزوجةِ والولد؛ أي كيفَ يكون له ولدٌ وصاحبة وقد خَلَقَ الأشياءَ كلَّها، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ من خَلْقِ العبادِ ومصالِحهم؛ وجَهْلِ الكفَّار وعنادِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذي خَلَقَ الأشياءَ كلَّها وعملَها وأشركتم به هو اللهُ تعالى رَبُّكُمْ لاَ إلَهَ غيرهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ من الْخَلْق فأطيعوهُ ووحِّدوهُ ولا تشركوا بينَهُ وبينَ غيرهِ في العبادةِ؛ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي حافظٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ؛ أي لا تدركُ الأبصار كُنْهَهُ؛ ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ ؛ أي يعلمُ كُنْهَهَا وماهيَّتَها؛ فإنهُ لا أحدَ يَعْلَمُ أنَّ الإنسانَ لِمَ صارَ يُبْصِرُ من عينَيهِ ولا يبصرُ بغيرهما؛ وما الشيءُ الذي يصيرُ به الإنسانُ مُبْصِراً؛

وكيفَ حقيقةُ البصرِ، فأعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ خَلْقاً من خَلْقِهِ لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ ولا يحيطونَ بعلمهِ؛ فكيفَ يحيطونَ باللهِ؟!

فمَنْ حَمَلَ الآيةَ على هذا التأويلِ؛ لم يكن فيهِ ما يَنْفِي الرؤيةَ في الآخرةِ؛ لأن معنى الرؤيةِ غيرُ معنى الإحاطةِ بحقيقة الشيء. وقال بعضُ المفسِّرين: (إنَّ الإدْرَاكَ إذا قُرن بالْبصَرِ؛ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الرُّؤْيَةُ، فإنَّهُ يُقَالُ: أدْركْتُ ببَصَرِي؛ وَرَأيْتُ ببَصَرِي، بمَعْنًى وَاحِدٍ، كَمَا يُقَالُ: أدْركْتُ بأُذُنِي؛ وَسَمِعْتُ بأُذُنِي، بمَعْنًى وَاحِدٍ)[1].

قالوا: وأصلُ الإدْرَاكِ: اللُّحُوقُ؛ نحوُ قولِكَ: أدركتُ زمانَ فلانٍ؛ وأدركَ فلانٌ أبا حَنِيْفَةَ؛ وأدركَ الزرعَ والثمرةَ؛ وأدركَ الغلامُ إذا لَحِقَ حَالَ الرِّجَالِ. وإدراكُ البصرِ الشيءَ ولُحوقُهُ بهِ برُؤْيَتِهِ إيَّاهُ، إلا أنهُ لا يَمْتَنِعُ أن تكونَ هذه الآيةُ عامَّةً من جهةِ اللفظ والمرادُ منها الخصُوصُ تَوْفِيْقاً بين هذه الآيةِ وبين قولهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي اللَّطِيْفُ بعبادهِ في التَّدبيرِ، الْخَبِيْرُ بمصالِحهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي جاءَكُم الْقُرْآنُ الذي فيه الْبَيَانُ. والبَصَائِرُ: جَمْعُ الْبَصِيْرَةِ؛ وهي الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ، فَمَنْ أبْصَرَ فَلِنفْسِهِ نفعهُ، ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ ؛ عن الْحَقِّ والقُرآنِ؛ ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ ؛ فعَلَى نفسهِ ضَرَرُ ذلكَ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي برَقِيْبٍ أحْفَظُ أعمالَكم وأجازيكم عليها، فإنَّ اللهَ يجازيكُم على أعمالِكم.

وَقِيْلَ: معناهُ: لستُ عليكم بحَفِيْظٍ فأحُولَ بينَكم وبينَ إضْرَارِكُمْ بأنفسكم، وإنَّما أنا رسولٌ أبَلِّغُكُمْ رسَالاَتِ رَبكُمْ وهو الحفيظُ عليكم، لا يخفَى عليهِ شيءٌ من أعمالكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما صَرَّفْنَا الآيَاتِ وبيَّناها فيما تُلِيَ عليكَ؛ نُصرِّفُ الآياتِ ونُبيِّنُها في المستقبلِ لِئَلاَّ يقولُوا:

---

(١) نقله الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٥ ج٧ ص٣٩٣ و٣٩٤.

(٢) القيامة / ٢٢-٢٣.

تَخْتَلِقُهُ من تِلْقَاءِ نَفْسِكَ، وَلئلاً يَقُولُوا دَرَسْتَ؛ أي قَرَأتَ كُتُبَ أهلِ الكتاب. ومن قرأ (دَارَسْتَ) فمعناهُ: ذاكَرْتَ أهلَ الكتاب. وكان أهلُ مكَّة يقولون: إنَّما يَتَعَلَّمُهُ مِن جَبْرٍ ويَسَارٍ؛ وكَانَا غُلامَين عَبْرَانِيَّيْنِ بمَكَّةَ[(١)].

ومعنى (دُرِسْتَ) أدْرِسْتَ هذه الأخبارَ التي تَتْلُوهَا علينا، ومعنى (دَارَسْتَ) أي قَارَأتَ أهلَ الكتاب: تَعَلَّمْتَ منهُم وقرأتَ عليهم وقرأوا عليكَ.

وقرأ قتادةُ:(دُرِّسْتَ) أي قُرِّيْتَ وَتُلِيتَ، وقرأ الحسنُ وابن عامر ويعقوب: (دَرَسَتْ) بفتح الدال والرَّاء والسين وجزْمِ التاء؛ يعني: تَقَادَمَتْ وَانْمَحَتْ وَانْمَضَتْ، وذكر الأخفشُ:(دَرُسْتَ) بضمِّ الراء؛ ومعناها: دَرَسْتَ؛ إلا أن ضَمَّ الراءِ أشدُّ مبالغةً. وقرأ ابنُ مسعودٍ والأعمشُ: (دَرَسَ) بفتح السِّين من غيرِ تاء؛ يعنونَ النَّبيَّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي وَلِنُبَيِّنَ الْقُرْآنَ والتصريفَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ ؛ أي اعْمَلْ يا مُحَمَّدُ بما أنزل إليكَ من الْقُرْآنِ من حَلالِهِ وحَرامِهِ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ ؛ أنْزَلَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي اتْرُكْهُمْ في ضَلالَتِهِمْ. وهذا منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ. وَقِيْلَ: معناهُ: أعرِضْ عنهم اسْتِجْهَالاً لَهم.

---

(١) اختلفَ في اسم الشَّخص الذي قالوا إنَّما يُعَلِّمُهُ، فقيلَ: هو غلامُ الفَاكِهِ بن المغيرةِ واسمهُ جَبْرٌ، كان نصرانياً فأسْلَمَ، قال القرطبيُّ: وذكرَ النقَّاشُ أن مولَى جَبْرٍ كان يضربهُ ويقول لهُ: أنتَ تُعَلِّمُ مُحَمَّداً، فيقولُ: لاَ واللهِ بل هو يُعلِّمني ويهديني. وقيلَ اسْمهُ يَعيشُ عبدٌ لِبَنِي الحضرميِّ كان رسولُ الله ﷺ يُلَقِّنُهُ القُرْآنَ. وقيل نصرانياً بِمكَّة اسْمهُ بَلْعَام، وكان غُلاماً يقرأ القُرْآنَ. أو رجُلاً كان بِمكَّة يقالُ له أبو مَيْسَرَةَ وهو نصرانِيٌّ يتكلَّم بالروميَّة. وقيل عَدَّاسُ غلامُ عتبةَ بنِ ربيعةَ. وقيل عَابِسُ غلامُ حُويطِبَ بنِ عبدِ العزَّى ويسارُ أبو فُكَيهَةَ مولَى ابنِ الحضرميِّ، وكَانَا قد أسْلَمَا،وهكذا.

وكلُّ هؤلاءِ كان رسولُ الله ﷺ يجالِسهم ويعلِّمهم الإسلامَ، قال النَّحَّاسُ، وهذه الأقوالُ ليست بمتناقضةٍ - أيْ أنَّ هؤلاءِ بزعمِ العرب أنَّهم يعلمونَ الرسولَ ﷺ القُرْآنَ - لأنه يجوزُ أن يكونوا أوْمَأوْا إلى هؤلاءِ جميعاً، وزعمُوا أنَّهم يعلِّمونهُ. وَالْعُجْمَةُ: الإخْفَاءُ وهي خلافُ الإبَانَةِ، والأعْجَمُ مَنْ فِي لِسَانِهِ ضَعْفُ إبَانَةٍ وهو الذي لا يُفْصِحُ سواءً كان من العربِ أم من العَجَمِ. وكذلك الأعْجَمُ أو الأعجميُّ المنسوبُ إلى العَجَمِ وإن كانَ فصيحاً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ ﴾ ؛ أي لـو شـاءَ اللهُ لَوَفَّقَـهُمْ إلى الإيْمان، ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ ﴾ ؛ أي يَمْنَعُـهُمْ عمـا يضرُّهـم، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ أي وما أمَرْنا أن تُلْزِمَهُمْ الإيْمانَ شاءُوا أم أبَوا، فإنَّكَ لا يُمكنكَ أنْ تفعلَ ذلك بهم، وإنَّما هو الذي يَقْدِرُ على فِعْلِ هـذا، ولكنَّـهُ لم يفعـلْ حتى لا يزولَ التكليفُ.

وإنَّما جَمَعَ بين حَفِيْظٍ و وَكِيْلٍ لاختلافِ معناهمـا، فـإن الْحَـافِظَ للشـيءِ هـو الذي يَصُونُهُ عما يَضُرُّهُ، والْوَكِيْلُ بالشيءِ هو الذي يَجْلِبُ الخيرَ إليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ ﴾ ؛ وذلك حينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُـلٌّ فِيـهَا خَـالِدُونَ﴾[1] قـال المشركونَ: لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا مُحَمَّدُ عن سَبِّ آلِـهَتنا وعَيْبِـها لَنَسُبَّنَّ إلَـهكَ الـذي تعبـدهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. أي لا تَسُبُّوا معبودَهم الذي يعبدونَه مـن دون اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً وظُلْماً.

ونُصبَ (عَدْوًا) على المصـدر؛ أي يَعْـدُونَ عَـدْواً. ويقـال: نُصِـبَ علـى إرادة اللام؛ أي يَسُبُّونَ بالعَدْو. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي بجَهْلِهِمْ يحملهم الغَيْظُ على أن يَسُبُّوا معبودَكم.

وفي هذا دليلٌ علـى أن الإنسـانَ إذا أراد أن يَـأْمُرَ غـيرَه بـالمعروفِ، ويَعْلَـمُ أنَّ المأمورَ يقعُ بذلك فيما هو أشدُّ مِمَّا هو فيه من شَتْمٍ أو ضربٍ أو قَتْلٍ، كـان الأَولى أن لا يَأْمُرُهُ ويتركه على ما هو فيهِ. وقرأ بعضُهم: (عَدُوًّا بغَـيْرِ عِلْـمٍ) أي أعْـدَاءً؛ نُصبَ على الحالِ. وقال قتادةُ: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أصْنَامَ الْكُفَّار، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ لِئَلاَّ يَسُبُّوا اللهَ، فَإنَّهُمْ قَوْمٌ جَهَلَةٌ)[2].

---

(١) الأنبياء / ٩٨-٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٦٩٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ ؛ أي كما زيَّنا لـك دِينَـكَ وعملَكَ؛ زَيَّنَّا لَهم دينَهم وعملَهم، (كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهُمْ) الذي يعملونه بمَيْلِ الطَّبائِعِ إليـهِ مُجَازَاةً لَـهم على فِعْلِهِمْ، كما قـالَ تعـالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بكُفْرِهِمْ ﴾[(١)]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ ؛ أي مصيرُهم ومُنقلبَهم إلى اللهِ تعالى، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ ؛ فيجزيهم؛ ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ؛ أي حَلَفُوا باللهِ واجْتَهَدُوا في المبالغةِ في اليمين (لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَـةٌ) أي علامـةٌ لِنُبُوَّتِـكَ ليصدِّقن بها. وعَنَوا بالآيةِ الآياتِ الـتي كـانوا يقترحونـها عليـه، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَـهم يـا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ؛ إنَّ مَجِيْءَ الآياتِ مِن عنـد اللهِ؛ إن شَـاءَ أنزلَـها وإن شاء لم يُنْزِلْهَا، وإنما يُنْزِلُ على حَسَبِ المصلحةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ ؛ خطـابٌ للمؤمنـين؛ ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي وما يدريكم أيُّها المؤمنونَ؛ أنَّهَا إذا جـاءَتْـهم لاَ يُؤْمِنُـونَ لِمَـا سبقَ لَهم في عِلْمِ اللهِ تعالى من الشَّقَاوَةِ.

وقرأ مجاهدُ وقتادة وأبو عمرٍو وابنُ كثير: (إنَّهَا) بالكسر على الابتداءِ؛ وخـبرُهُ: (لاَ يُؤْمِنُونَ). وقرأ الباقون بالفتحِ؛ ومعناهُ عند الخليل وسِيْبَوَيْهِ: لَعَلَّـهَا إذا جـاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ: (لاَ تُؤْمِنُـونَ) بالتـاء علـى مُخَاطَبَـةِ الكفَّـار؛ أي وَمَـا يُشْعِرُكُمْ يا أهلَ مكَّةَ أنَّهَا إذا جَاءَتْ لاَ تُؤْمِنُونَ. وقرأ الباقون بالياء. وقـرأ الأعمـشُ: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أنَّهَا إذا جَاءَتْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي نَتْرُكُ أفْئِدَتَهُمْ وأبصارَهم مُنْقَلِبَةً كما هي في الحيرةِ التي بهم؛ والغفلةِ التي فيهم؛ فلا نُوَفِّقُهُمْ مجازاةً لَهم فلاَ يؤمنون (كَمَـا لَـمْ يُؤْمِنُـوا بِـهِ أوَّلَ مَـرَّةٍ) أي أوَّلَ مـا رَأوا مـن الآياتِ.

---

(١) النساء / ١٥٥.

وَقِيْلَ: معناه: وَنُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارَهم على جَمْرِ جهنَّم ونارها؛ جزاءً على تَرْكِ الإيْمان وعقوبةً عليه، ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي نَتْرُكُهُمْ في ضَلالَتِهِمْ يتحيَّرون ويتردَّدون.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في رَهْطٍ من أهلِ مكَّةَ من المستهزئينَ، وهم: الوليدُ بنُ المغيرةِ؛ والعاصُ بنُ وائلٍ؛ والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوث؛ وغيرُهم. قالوا: يا مُحَمَّدُ؛ ابْعَثْ لنا بعضَ موتَانا حتى نسألَهم عنكَ: أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ؟ فنؤمِنُ بكَ، وأرِنَا الملائكةَ يشهدون أنَّكَ رسولُ اللهِ، وائْتِنَا باللهِ والملائكة قَبْيْلاً — أي كَفِيْلاً - على ما تقولُ إنه الحقُّ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ.

ومعناها: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ) معاينةً للشهادةِ على نبوَّتكَ كما سألوكَ، (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى) بأنكَ رسولُ اللهِ، وأنَّ القُرْآنَ كلامهُ، وجَمعنا عندَهُم كلَّ شيء من الطَّيرِ والوحوشِ والسِّباعِ وسائر الدواب كَفِيْلاً يكفلُون بصحَّةِ ما تقولُ يا مُحَمَّدُ، ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بكَ إلا أن يُوَفِّقَهُمُ اللهُ للإيمانِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك.

ويجوزُ أن يكون معنى(قُبُلاً)(١) أي قَبِيْلاً يقابلُهم ويواجههم مِن الْمُقَابَلَةِ، ويقالُ: جماعةً على معنى أن القُبُلَ جمعُ القبيلِ، والقَبِيْلُ جمعُ القبيلةِ؛ كسفينةٍ وسُفُنٍ. قرأ أهلُ المدينةِ والشام: (قِبَلاً) بكسرِ القاف وفتحِ الباء؛ أي مُعَايَنَةً؛ والمعنى: لو نَاطَقَتْهُمُ الأرضُ والسَّماءُ والطير والوحوشُ أن مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، وأن ما أتَاكُم به حقٌّ، قالوا لَهم ذلك معاينةً ومُشَافَهَةً؛ ما كانوا ليؤمنُوا إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ أي كما جعلنَا لكَ ولأُمَّتِكَ أعداءً مثلَ أبي جهلٍ وأصحابه،كذلك جعلنا لِمَنْ تقدَّمَكَ من الأنبياءِ وأمَمِهِمْ عَدُوّاً. و(شَيَاطِيْنَ) نصبَ على البدلِ من (عَدُوّاً) ومفسِّراً له، ويجوزُ أن يكون مَفْعُولاً ثانياً.

---

(١) (قبُلاً) سقطت من المخطوط.

قال ابنُ عبَّاس في معنى هذه الآيةِ: (إنَّ إبْلِيسَ قَسَّمَ جُنْدَهُ فَرِيقَيْن، فَبَعَثَ فَرِيقاً مِنْهُمْ إلَى الإنْسِ؛ وَفَرِيْقاً إلَى الْجِنِّ. فَشَيَاطِيْنُ الإنْسِ وَشَيَاطِيْنُ الْجِنِّ يَلْتَقِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أضْلَلْتُ صَاحِبي بكَذا وكَذا، أتَيْتُهُ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذاتِ، وَمِنْ قِبَلِ الْمَرَاكِبِ وَالْمَلاَبسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَاب، فَإنْ أعْيَانِي مِنْ وَجْهٍ أتَيْتُهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَأَضْلِلْ صَاحِبَكَ بِمِثْلِهِ).

فَذلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي يُلْقِي بعضُهم إلى بعضٍ ويُمْلِي بعضُهم إلى بعضٍ؛ ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ؛ أي الْمُمَوَّهُ الذي يكونُ فيه تَزْيِيْنُ الأعمال القبيحة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (غُرُورًا) نُصبَ على المصدر؛ كأنه قال: يُغْرُونَ بهِ غُرُوراً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين: (إلَى أنَّ الشَّيَاطِيْنَ اسْمٌ لِكُلِّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ؛ مِنَ الْجِنِّ وَمِنَ الإنْسِ شَيَاطِيْنُ). كما رُوِيَ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَمَرَنِي أنْ أصَلِّي رَكْعَتَيْنِ؛ فَصَلَّيْتُ وَجَلَسْتُ إلَيْهِ؛ فَقَالَ لِي: [يَا أبَا ذرٍّ؛ تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإنْسِ وَالْجِنِّ]. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أوَمِنَ الإنْسِ شَيَاطِيْنُ؟! فَقَالَ: [أوَمَا تَقْرَأُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾؟][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ؛ أي لو شاءَ ربُّكَ أن يَمْنَعَ الشياطين من الْوَسْوَسَةِ مَا فَعَلُوهُ، ولكن يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بما يعلمُ أنه أبلغُ في الحكمةِ وأجزلُ في الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي اتْرُكْهُمْ وَافْتِرَائِهِمِ وكَذِبهِمْ على استجهالاتِهم، فإنِّي القادرُ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ عطفٌ على (غُروراً)؛ أي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ الغُرُور، وَلِتَمِيْلَ إليه أفئدةُ الذين لا يُقِرُّونَ بالبعثِ، ولكن يَرْضُوا القولَ الزخرف ويَكْتَسِبُونَ من الإثمِ؛ وهو ما قُضِيَ عليهم في اللَّوحِ الْمَحْفُوظِ، يقالُ: اقْتَرَفَ فُلاَنٌ ذنباً؛ إذا عَمِلَهُ. وَقِيْلَ:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٧١٧ و١٠٧١٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٧٨.

معنى (لِيَقْتَرِفُوا) أي لِيَخْتَلِقُوا وَيَكْذِبُوا. وقرأ النخعيُّ: (وَلِتُصْغِيَ) بضمِّ التاءِ وكسرِ الغين؛ أي تَمِيْلُ، والإصْغَاءُ: الإمَالَةُ؛ ومنهُ الحديث: [إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصْغِي الإنَاءَ لِلْهِرَّةِ][(١)].

والأَفْئِدَةُ: جمعُ فُؤَادٍ؛ مثلُ أغْرِبَةٍ وَغُرَابٍ. ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ أي فَلْيَكْتَسِبُوا ما هم مُكْتَسِبُونَ. وقال ابنُ زيدٍ: (وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ). يقال: اقْتَرَفَ فُلاَنٌ مَالاً؛ أي اكْتَسَبَهُ، وقَارَفْتُ الأَمْرَ: أي وَاقَعْتُهُ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾[(٢)]. ومَن قرأ: (وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا) بجزمِ اللام على لفظِ الأمرِ؛ فمعناهُ: التهديدُ؛ أي اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ ؛ وذلك أن نفراً من أهلِ مكَّةَ قالوا: يا مُحَمَّدُ؛ اجْعَلْ بيننا وبينكَ حَكَماً من اليهودِ والنَّصارى، فإنَّهم قرأوا الكُتُبَ قبلكَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ.

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أفغَيْرَ اللهِ أطلبُ رَبّاً ومعبوداً يُسَاوي حُكْمُهُ حُكْمَ اللهِ؛ فأجعلهُ حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أنزَلَ إلَيْكُمْ القرآن مُفَصَّلاً مبيَّناً أمرَهُ ونَهْيَهُ بلغةٍ تعرفونَها. ويقالُ: مُتَفَرِّقاً سورةً سورةً؛ وآية آيَةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي التَّوْرَاةَ؛ هم عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وأصحابُه؛ ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ ﴾ ؛ أي الْقُرْآنُ؛ ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ بما تقدَّم لَهم من البشَارَةِ في كُتُبِهِمْ بأنَّ الله يبعثُ في آخرِ الزمان نَبيّاً من ولْدِ إسماعيلَ، ويُنَزِّلُ عليه الْقُرْآنَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بما أقام لَهم من البراهينِ على ذلك.

---

(١) الحديث عن كبشة بنت كعب بن مالك: أنَّ أبَا قَتَادَةَ ﷺ دَخَلَ فَسَكَبْتُ لَهُ وُضُوءاً، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَآنِي أنْظُرُ إلَيْهِ، فَقَالَ: أتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أخِي؟! فَقُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [إنَّهَا لَيْسَتْ نَجِسَةً...] الحديث. رواه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: الحديث (٧٥). والترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: الحديث (٩٢)، وقال: حسن صحيح.

(٢) الشورى / ٢٣.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي لا تَكُونَنَّ يا مُحَمَّدُ من الشَّاكِّيْنَ في أنَّهم يعلمونَ ذلك. ويقالُ: هذا خطابٌ لِلنَّبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرُه، كأنه قال: لا تَكُونَنَّ أيها الجاهلُ بأمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ من الشَّاكِّيْنَ في أمرِهِ. وقرأ الحسنُ والأعمش وابنُ عامرٍ وحفصُ: (مُنَزَّلٌ) بالتشديدِ من التَّنْزِيْلِ؛ لأنه أنْزلَ نُجُوماً مرَّةً بعد مرَّةٍ، وقرأ الباقونَ بالتخفيفِ من الإنْزَالِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفة ويعقوبُ: (كَلِمَةُ) على التوحيدِ، وقرأ الباقون: (كَلِمَاتُ) على الجمعِ. ومعنى الآية: وَتَمَّ إلزام الحجَّة على وَجْهِ الحكمة، لاَ ينقصان في ذلك[١]. قولُهُ (صِدْقاً) أي مُخْبَرُهُ على ما أخْبَرَ به فيما وَعَدَ وأوْعَدَ، و(عَدْلاً) أي أحْكَامُهُ كلُّها عدلٌ، و(لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) أي لا مُغَيِّرَ لِحُكْمِهِ ودِيْنِهِ، فإن اليهودَ والنصارى - وإنْ غيَّروا التوراةَ والإنجيلَ - لن يُمْكِنَهُمْ أن يأتُوا بحُكْمٍ حتى يقومَ مقامَ حُكْمِهِ.

وَقِيْلَ: معناه: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبكَ) أي وَجَبَ قولُ ربكَ بأنه ناصرٌ مُحَمَّداً ﷺ وأنَّ عاقبةَ الأمر له صِدْقًا وَعَدْلاً؛ لا مُغَيِّرَ لقولهِ: ﴿إنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كانوا يستحلُّون أكلَ الميتةِ، ويَدعُونَ المسلمين إلى أكلِها، وكانوا يقولون: إنَّما ذلك ذبحُ اللهِ؛ فهو أحلُّ مِمَّا ذبحتُم أنتم بسكاكينكُم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. ومعناها: إن تُطِعْ- يا مُحَمَّد- أكثرَ مَن في الأرض يصرفونكَ عن دِيْنِ الله، وإنَّما قال: (أكْثرَ مَنْ فِي الأرْضِ) لأنَّ أكثرَهم كفَّار ضُلاَّلٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٧١: ((قال قتادة: الكلمات هي القرآن، لا مبدل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون)).

(٢) غافر / ٥١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ معناه: إن أكثرُهم يتَّبعونَ أكَابرَهُمْ بالشَّكِّ؛ يتبعونهم فيما يعملون ((ويظنون))(١) أنَّهم علـى الحـق، وإنَّمـا يعذبـون علـى هذا الظنِّ؛ لأنَّهم اقْتَصَرُوا على الظَّنِّ والجـهلِ واتَّبَعُـوا أهـواءَهـم، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي ما هم إلا يَكْذِبُونَ في قولِهم: ما قَتَـلَ اللهُ أحـقُّ أن تـأكلوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ بسكاكينِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي عـن دِيْـنِ الإسـلامِ وشـرائعهِ؛ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ بمُحَمَّـدٍ والإسلامِ، وإنَّما قال: (أعْلَمُ) لأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ الشيءَ من كلِّ جهاتهِ، وغيرُه يعلـمُ الشيءَ من بَعْضِ جهاتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ عُطِفَ على مـا دلَّ عليـه الكلامُ الذي قبلَه، كأنه قال: كُونُوا على الْهُدَى فكُلُوا مِمَّـا ذُكِـرَ اسْـمُ اللهِ عَلَيْـهِ مـن الذبائحِ، ﴿ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ هـذا للـترغيب في اعتقـاد صحَّـة إباحتهِ وفي أكلهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ يعـني من الذبائحِ، وموضــع (أنْ) نصـب لأنَّ (في) سـقطت، ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي وقد بَينَ لكم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ من الْمَيْتَةِ والدَّمِ والخنْزيرِ على ما تقدَّم في سورةِ المائدة.

قرأ الحسنُ وقتادة وأهلُ المدينة وحفصُ: (وَقَدْ فَصَّـلَ لَكُـمْ مَـا حَـرَّمَ عَلَيْكُـمْ) بالفتحِ فيهما على معنى: فصَّل اللهُ. وقرأ ابنُ عامر وابنُ كثـير وأبـو عمـرو بضمِّـهما جميعاً. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلا حفصـاً: (فَصَّـلَ) بـالفتح (وحُـرِّمَ) بـالضَّمِّ. وقـرأ عطيـةُ العوفِيُّ: (فَصَلَ) بالتخفيف مفتوحاً؛ يعني قَطَعَ الحكمَ فيما حرَّمَ عليكم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي إلا ما دَعتْكُـمُ الضـرورةُ إلى أكلهِ، فقد رَخَّصَ لكم حينئذٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ ؛ يعـني الكفـارَ يـأكلونَ

---

(١) في المخطوط: (يتبعونهم فيما يعلمون أنهم على الحق) ويبدو أنه تصحيف، وتستقيم العبارة كما أثبتناه، والله أعلم.

الْمَيْتَةَ والذبائحَ التي لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليها عَمْداً، والتي يذبحونَها لآلِهتهم بلا عِلْمٍ عندهم ولا بَصِيْرَةٍ، يتَّبعون الهوَى والشَّهوات في ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ وأهلُ الكوفة بضمِّ الياء لقوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾(١) . وقرأ الباقونَ بفتحِها لقولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾. فمعنى مَن قرأ بضمِّ الياء: أنَّهم يَصْرِفُونَ الناسَ عن الْهُدَى بالدُّعاءِ إلى أكلِ الْمَيْتَةِ على وجهِ الْجِدَالِ والْخِدَاعِ، وقولُهُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي أعْلَمُ بعقوبةِ المتجاوزين من الحلالِ إلى الحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ؛ أي لا تَقْرَبُوا ما حَرَّمَ اللهُ عليكم جهراً ولا سِرّاً، ويقالُ: أرادَ بظاهر الإثْم: الزِّنَا الظاهرَ، وبباطنِهِ: الزِّنا السِّر. فالعربُ كانوا يَرَوْنَ الزِّنا ظاهراً معصيةً، ولا يَرَوْنَهُ في الْخِفْيَةِ معصيةً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين يعملون المعصيةَ ظاهراً وباطناً سَيُعَاقَبُونَ في الآخرةِ بما كانوا يَكْسِبُونَ في الدُّنيا من المعاصِي والفواحشِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ يعني الذبائح. رويَ عن عبدِالله بن عمرَ: (أنَّهُ أتَى حُرّاً ذبحَ شَاةً نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا، فَأَمَرَ ابْنُ عُمَرَ غُلاَمَهُ أنْ يَقُومَ عِنْدَهُ، فَإذا جَاءَ إنْسَانٌ يَشْتَرِي مِنْهُ قَالَ: إنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: إنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ عَلَيْهَا اسْمَ اللهِ، فَلاَ تَشْتَرِي).

وقال ابنُ سيرينَ: (إذا تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً؛ لَمْ تُؤْكَلْ)(٢) . إلاَّ أن أكثرَ أهل العلمِ على أن نسيانَها لاَ يوجبُ التحريْمَ. هكذا رُويَ عن عَلِيٍّ وابن عبَّاس ومجاهدٍ وعطاء وابن المسيِّب؛ قالوا: (إنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً لاَ بَأْسَ بأَكْلِهَا؛ لأَنَّ خِطَابَ الآيَةِ يَتَنَاوَلُ الْعَامِدَ، إذِ النَّاسِي فِي حَالِ نِسْيَانِهِ لاَ يَكُونُ مُكَلَّفاً).

---

(١) الأنعام / ١١٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد)).

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ ؛ أي إنَّ أكلَـهُ لفسـقٌ. وَقِيْـلَ: إنْ تـركَ التسميةَ، وَقِيلَ: المذبوحَ بغيرِ تسميةِ الله فِسْقٌ فيه حـينَ ذُبحَ علـى غـيرِ وجـه الحـقِّ؛ كقولهِ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ ؛ أي إنَّ الشياطين لِيُوَسْوِسُونَ لأوليائِهم من الإِنْس؛ وهم: أبو الأَحْوَصِ الْخَثْعَمِيُّ وَبَدِيْـنُ ابْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ وغيرُهما من أهلِ مكَّة؛ كانوا يُخَاصِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ في أكلِ الْمَيْتَـةِ وَاسْتِحْلاَلِهَا. والوَحْيُ: إلْقَاءُ الْمَعْنَى إلَى النَّفْسِ فِـي الْخِفْيَـةِ. ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ في أكلِ الْمَيْتَةِ واستحلالِها من غيرِ اضطرارٍ، ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ مِثْلُهُمْ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ مَن اسْتَحَلَّ شيئاً مِمَّا حَرَّمَ اللهُ، أو حَرَّمَ شـيئاً مما أحَـلَّ اللهُ؛ فهو مُشْرِكٌ. وإنَّما سُمي مُشْرِكاً؛ لأنه اتَّبعَ غيرَ اللهِ فأشركَ باللهِ غيرَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ ﴾ ، قال ابنُ عبَّـاسٍ: (نَزَلَـتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَأبي جَهْلٍ). ويقالُ: إنَّ المرادَ بالآية النبيُّ ﷺ وأبو جَهْلٍ. ومعنـى الآيةِ على القول الأوَّل: أوَمَنْ كَانَ كافراً، فهديناهُ إلى المغفـرةِ والإسـلام، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ ؛ وهو نورُ القُـرْآنِ والإيْمَـانِ والحكمـةِ؛ ﴿ يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ يضيءُ بذلك النور فيما بين النَّاسِ؛ ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ؛ أي كَمَثَلِ مَـن هو في الضَّلالة وظُلُمَاتِ الكفرِ، ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ؛ أبداً.

بيَّنَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ أبا جَـهْلٍ لَيـسَ بخارجٍ مـن الضَّلالـة أبـداً. وقـال بعضُهم: الْمِثْلُ زائدٌ؛ تقديره: كَمَنْ في الظُّلُمَاتِ.

وعن ابن عبَّاس أيضاً: (أنَّ مَعْنَاهُ: (أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) يُرِيْدُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بخَارجٍ مِنْهَا) أبَا جَـهْلٍ؛ رَمَـى رَسُـولَ اللهِ ﷺ وَحَمْزَةُ كَافِرٌ، فَأُخْبِرَ حَمْزَةُ بمَا فَعَلَ أبُو جَهْلٍ وَهُوَ رَاجِعٌ مِنْ قَنْصِهِ يَفُوتُ وَبيَدِهِ قَوْسٌ، فَأَقْبَلَ وَهُوَ غَضْبَانٌ حَتَّى عَلاَ أبَا جَهْلٍ بالْقَوْسِ وَهُوَ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَكِيْنُ وَيَقُولُ: أمَا تَرَى مَا جَاءَ بهِ مُحَمَّداً، قَدْ سَفَّهَ عُقُولَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا وَخَالَفَ آبَاءَنَا. فَقَالَ حَمْزَةُ: وَمَنْ أسْفَهُ

(١) الأنعام / ١٤٥.

مِنْكُمْ؟! تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ مِنْ دُون اللهِ، أنَا أشْهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ؛ وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾؛ أي كما زُيِّنَ لأبي جَهْلٍ عملهُ الذي كان يعملُ؛ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ أعمالُهم مجازاةً لَهم على كُفْرِهم. وقال الحسنُ: (مَا زَيَّنَهَا لَهُمْ إلاَّ الشَّيْطَانُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾؛ أي جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ذا نُور يَمشي به في الناس، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ رؤساءَها وكبراءَ وعظماءَ أهلِها مُجْرِمِيهَا. وَقِيْلَ: معناهُ: جعلنا في أهلِ مكَّة عظماؤُهم مُجْرِمِيهَا، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيَمْكُرُوا فِيهَا) أي لِيَصِيْرَ أمرُهم إلى أن يَمكروا بالتَّكبُّر وتكذيب الرسُل، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾، أنَّ كلَّ وَبَالَ أمرِهم يرجعُ إليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي إذا جاءَتِ الأكابرَ المذكورين، وَقِيْلَ: أهلَ مكَّة؛ إذا جَاءَتْهُمْ دلالةٌ واضحة على نُبُوَّةِ رسولِ الله ﷺ؛ قالوا: لاَ نُصَدِّقُ حتى نُعطى من الآياتِ مثلَ ما أعْطِيَ رسلُ اللهِ المعجزاتِ والدَّلائل.

وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ قال: وَاللهِ لو كانتِ النُّبُوَّةُ حقّاً لكنتُ أوْلَى بها منكَ؛ لأنِّي أكبرُ منكَ سِنّاً[٢] وأكثرُ منكَ مالاً. وقال مقاتلُ: (قَالَ أبُو جَهْلٍ: زَاحَمَنَا بَنُوا عَبْدِ الْمُطَّلِب فِي الشَّرَفِ؛ حَتَّى إذا كُنَّا كَفَرَسَي رهَان؛ قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إلَيْهِ، وَاللهِ لاَ نُؤْمِنُ بهِ وَلاَ نَتَّبعُهُ أبَداً؛ إلاَّ أنْ يَأْتِيَنَا وَحْيٌ كَمَا يَأْتِيْهِ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[٣].

---

(١) أسباب النزول: ص١٥٠؛ علقه الواقدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ذكره القرطبي مختصراً.

(٢) في المخطوط: (نسباً)، والصحيح: (سِنّاً) فأثبتناه.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٦٨.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ مَن يُرْسِلُ ومن يَخْتَصُّ بالرسالةِ ومَن هو أهْلٌ لَها. وهذا جوابٌ يَمنعهم أن يكونوا رُسُلاً حين أنِفُوا أن يكونوا أتْبَاعاً للرُّسلِ بعد قيام حُجَّةِ النبيِّ ﷺ.

بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه إنَّما يجعلُ الرسالةَ عند مَن يقومُ بأدائِها، ولا يجعلُها عند مَن يضيِّعُ ولا يصبرُ على الْمَكَارِهِ. وَقِيْلَ: إنَّما لم يجعلِ اللهُ الرسلَ في الرؤساءِ والأغنياء؛ لأنَّ الناسَ يتبعونَهم وإن لم يأتوا بالْحُجَجِ، فيقولُ مَن بعدُهم: إنَّما اتَّبعوهم لأنَّهم كانوا رؤساءَ وأكابرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي سيصيبُ الذين اكتسَبُوا الْجُرْمَ مَذلَّةٌ وهَوَانٌ ثابتٌ لَهم عندَ الله؛ ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ أي بكفرِهم وتكذيبهم الرسلَ.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (ثُمَّ رَجَعَ إلَى ذِكْرِ عَمَّارٍ وَأبي جَهْلٍ) فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ؛ أي فمن يُردِ اللهُ أن يُوَفِّقَهُ للإسلامِ يُوسعْ قَلْبَهُ وَيُلَيِّنْهُ لِقَبُول الإسلام، ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ ؛ أي أن يَخْذِلَهُ ويجعلهُ في ضلالةِ الكفر، ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا ﴾ .

﴿ حَرَجًا ﴾ [١]؛ قِيْلَ: الْحَرَجُ: مَوْضِعُ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ[٢]؛ يعني أنَّ قلبَ الكافرِ لا تصلُ إليه الحكمةُ كما لا تصلُ الراعيَةُ إلى الموضعِ الذي الْتَفَّ فيه الشجرُ.

---

(١) في هامش المخطوط: أشار بعلامة ولم يكتب (صح)، ولعلها نقولات من القراء لما وجدوه في التفاسير: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ) يعني من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ) أي يوسع قلبه ويلِّنه لقبول الإسلام، ويدخل فيه نورَ الإسلام وحلاوتَهُ، قال القتبيُّ: (يَشْرَحْ صَدْرَهُ) أي يفتحه.

عن عبدالله بن مسعود ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ ذلِكَ؟ قَالَ: [إذا دَخَلَ النُّورُ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ الصَّدْرُ] قَالُوا: وَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بهَا؟ قَالَ: [نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالإنَابَةُ إلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ]. (وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ) عن الإسلام فلا يقبله ويتركه بغير نور (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا) يعني غير موسع (حَرَجًا).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٨١؛ نقله القرطبي من قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقال أهلُ اللغة: الْحَرَجُ: أضْيَقُ الضِّيْق. وقال مجاهدُ: (الْحَرَجُ: الشَّكُّ)[١] وقال قتادةُ: (حَرَجاً مُلْتَبساً)[٢]. وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ: (قَلِقاً)، وقال الكلبيُّ: (لَيْسَ لِلْخَيْرِ فِيْهِ مَنْفَذٌ). قرأ ابنُ كثير: (ضَيْقاً) بالتخفيفِ، وشَدَّدهُ الباقون؛ وهما لُغتان مثل هَيِّن ولَيِّن. وقولهُ تعالى: (حَرِجاً) قرأ أهلُ المدينةِ وأبو بكرٍ بكسرِ الرَّاء، وفتحَها الباقون؛ وهُما لُغتان مثل دَنَفٍ ودَنِفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ يعني: يَشُقُّ عليه الإيْمانُ ويَمْتَنِعُ ويعجزُ عنه، كما يَشُقُّ عليه صعودُ السَّماء. واختلفَ القُرَّاءُ في قوله تعالى: (يَصَّعَّدُ) فقرأ أهلُ المدينة والبصرةِ والكوفة إلا أبَا بكر: (يَصَّعَّدُ) بتشديد الصَّاد والعين من غير ألفٍ، وقرأ طلحةُ والنخعيُّ وأبو بكر: (يَصَّاعَدُ) بتشديدِ الصَّاد وبألفٍ بعدها، بمعنى يَتَصَاعَدُ. وقرأ الأعرجُ وأبو رجاءٍ وابنُ كثير: (يَصْعَدُ) مخفَّفاً؛ أي لا يَجِدُ مَخْرَجاً يَميناً ولا شِمالاً، فكأنهُ من الضِّيْقِ يصعدُ إلى السَّماء ولا يستطيعهُ. وقرأ عبدُالله (كَأنَّمَا يَتَصَعَّدُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما قصَصْنا عليكَ يجعلُ الله اللعنةَ في الدنيا والعذابَ في الآخرة؛ ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يَرْغَبُونَ ولا يُصَدِّقُونَ بالتوحيدِ.

روي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلاَمِ؟ قَالَ: [إذا دَخَلَ النُّورُ فِي الْقَلْب انْشَرَحَ وَاسْتَوْسَعَ] قَالُوا: وَمَا عَلاَمَةُ ذلِكَ؟ قَالَ: [التَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور؛ وَالإنَابَةُ إلَى دَار الْخُلُودِ؛ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ][٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٧٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٧٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٧٨٥-١٠٧٨٧) بأسانيد ضعيفة.

وقال بعضُ المفسِّرين في معنى الآية: (فَمَـنْ يُـردِ اللهُ أنْ يَهدِيَـهُ) في الآخـرةِ إلى الثَّواب ونَيْلِ الكرامةِ (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلام) في الدُّنيا بالدَّلالاتِ. ومن يُردْ أنْ يُقِيْلَهُ عن ثوابهِ ونَيْلِ كرامتهِ في الآخرة (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) في الدُّنيا عقوبةً له على كُفْرِه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ ؛ (هذا) إشارةٌ إلى الإسلامِ، وَقِيْلَ: إلى بَيَان الْقُرْآن، سُمي ذلك مُسْتَقِيماً؛ لأنه يَسْتَقِيْمُ بمن يَسْلُكُهُ؛ فلا يَعْرِجُ فيه حتَّـى يُوردَهُ إلى الجنَّةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ ؛ أي أتَيْنَا بآيةٍ علـى إثْـر آيـة مُفَصَّلَةً مُبيَّنَةً؛ ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي يَتَّعِظُونَ بآياتِ الله، ويَتَفكَّـرُونَ في دَلالاَتِ الْقُرْآنِ، فلم يَبْقَ لأحدٍ عذرٌ في التَّخلُّفِ عن الإيْمان بعد هذا البَيَان.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (اللهُ السلاَمُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ)[١]. كأنه قِيْلَ لـهم: جَنَّـةُ اللهِ. وقـال الفـرَّاء: (مَعْنَـاهُ: لَـهُمْ دَارُ السَّلاَمِ الدَّائِمَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَبَلِيَّةٍ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (عِنْدَ رَبـهِمْ) أي في الآخـرةِ. وَقِيْـلَ: معناهُ: مُقِيْمُونَ عند ربهم؛ ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ ؛ أي يتولَّى أمرَهم بنصرِهم في الدُّنيـا وإكرامِهم في الآخرة، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ مِن الطاعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ معناه: يَوْمَ نَحْشُرُ الخلائقَ كلَّهم إلى الجزاءِ، يقول: يَا مَعْشَرَ الْجِـنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِـنَ الإنس مِمَّـنْ أضلَلْتُمُوهُـمْ؛ أي أضلَلْتـم كثيراً مـن الإنـس وكثـيرٌ مُتَّبعُوكُـمْ منـهُم، ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم ﴾ ؛ أي قُرَنَـاءُ الجـنِّ؛ ﴿ مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ .

أما استِمْتَاعُ الإنسِ بالجن فما روى الحسنُ: (أنَّ الْعَرَبَ كَانُواْ إذا سَافَرُواْ فَنَزَلُواْ وَادِياً؛ خَافُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ فَقَالُواْ: نَعُوذُ بسَيِّدِ هَذا الْوَادِي مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ؛ فَيَبيْتُونَ فِي جِوَارِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ ذلِكَ اسْتِجَارَةً بالْجِنِّ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٨٠٦) عن السدي.

وأما استمتاعُ الجنِّ بالإنسِ؛ فكان عُظَمَاءُ الجنِّ يقولون: قد سُدْنَا الإنسَ مع الجنِّ؛ حتى أن الإنسَ يعوذُون بنَا، فيزدادون بذلك شرَفاً في قومِهم وَعظَماً في أنفسهم. وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ ﴾ ؛ أي أدركْنا وقْتَنا الذي وُقِّتَ لنا. قِيْلَ: إنَّ المرادَ به وقتُ البعثِ، وَقِيْلَ: إن المراد وقتُ الموتِ. وفي هذا دليلٌ على أنه لا يكون للمقتول أجلاَنِ بخلافِ ما يقولُ بعض القومِ: إنَّ المقتولَ لو لم يُقتل لكان يبقى حَيّاً لا محالةَ. لأنه قد كان في هؤلاءِ مقتولون وقد أخبرُوا كلُّهم أنَّهم قد بلغُوا أجلهم الذي أجَّلَهُ الله لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي قَالَ اللهُ تَعَالَى: النَّارُ مقرُّكم ومَنْزِلُكمْ؛ فإنكم قد أقْرَرْتُمْ على أنفسكم باستحقاق العذاب ولزُومِ الحقِّ عليكم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَكَانَ مَا شَاءَ اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾(٢)).

وَقِيْلَ: معناه: (إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ) ما بَيْنَ البعثِ من القبرِ إلى وقت الفَرَاغ من الحساب؛ فإنه لا يكون لَهم عذابٌ في ذلك الوقت. وَقِيْلَ: معناه: (إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ) أن يعذِّبَهم من صُنُوفِ العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في عِقَابهِ؛ ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ بقدْر ما يستحقُّون من العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ أي مِثْلَ ما قصَصْنا عليكَ من تسليطِ الجنِّ على الإنس؛ كذلك نُسَلِّطُ بعضَ الْمُجْرِمِيْنَ على بعضٍ، ثم يُنْتَقَمُ منهما جميعاً في الآخرةِ بالنَّار. وقال بعضُهم: معناهُ:

---

(١) الجن / ٦.

(٢) النساء / ٤٨.

يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً في النار من الْمُوَالاَةِ. وقال بعضُهم: يُسَلِّطُ بعضَـهم علـى بعـضٍ، يدلُّ عليه قوله ﷺ: [مَنْ أعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ][1].

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ أي يقول لَهم يومَ القيامةِ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنس؛ لِمَاذا فعلتم ما فعلتم أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُـمْ يَقْـرَأُونَ عليكـم القُـرْآنَ، ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ ؛ أي وَيُخوِّفُونَكُمْ؛ ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ؛ وهو يومُ القيامةِ.

قال ابن عبَّاس: (كَانَتِ الرُّسُلُ تُبْعَثُ إلَى الإنْسِ؛ وَبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ إلَى الْجِنِّ وَالإنْسِ). قال: (وَهَذا كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2] يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْـحِ مِنْهُمَا، وَكَذلِكَ الرُّسُلُ مِنَ الإنْسِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ ؛ يعني أنَّهم لا يَجِدُونَ جَوَابـاً إلاَّ الاعترافَ بذنوبهم؛ ويقولون: أقْرَرْنَا على أنفسِنا، أنَّهم بَلَّغُوا الرسـالةَ، وكَفَرْنـا بـهم. يقولُ اللهُ تعـالَى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي بزهرتِـها ونعيمِـهَا، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ في الآخـرةِ؛ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيــا؛ أي أقرُّوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (ذلِكَ) أي ذلكَ الأمرُ. وَقِيْلَ: أرادَ الإشارةِ إلى إرسَالِ الرُّسُلِ. وقَوْلُهُ تَعـالَى: (أنْ لَـمْ يَكُنْ رَبُّكَ) أي معناهُ: لأَجْلِ أنهُ لم يَكُنْ رَبُّكَ مُعَذِّبَ أهلِ القُرى (بظُلْمٍ) أي بشـركِهم وذنوبهم (وَأهْلُهَا غَافِلُونَ) عـن الأمـرِ والنَّـهْيِ وتبليـغِ الرُّسُـلِ؛ أي لم يكـن يُهْلِكُـهُمْ بذنوبهم قَبْلَ أن يأتيَهم رسولٌ يُبَيِّنُ لَهم، وينهاهُم عمَّا هم عليهِ من المعصـيةِ، فـإن رجَعُوا وإلا عذبَهم اللهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يهلكهم بظلم منه؛ ولا يعذبهم وهم غافلون لِمَا كُلِّفوا من غيرِ إقامة الحجَّة بما يُقَبِّحُ ويُحَسِّنُ من غيرِ تَنْبِيْهٍ لَهم من الرُّسُلِ.

---

(١) في المقاصد الحسنة: الحديث (١٠٦٣)؛ قال السخاوي: ((رواه ابـن عسـاكر في تاريخـه عـن ابـن مسعود مرفوعاً، وفيه ابن زكريا وهو العدوي متهم بالوضع فهو آفـة، وقـال: وبالجملـة فمعنـاه صحيح)). وينظر كشف الخفا: الحديث (٢٣٧٨).

(٢) الرحمن / ٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴾ ؛ أي لِكُلِّ عاملٍ من الفريقين مراتبُ في عملهِ، لأهل الخيرِ درجاتٌ في الجنَّةِ بعضُها فوقَ بعض، ولأهلِ الشِّرْكِ درجاتٌ في النار بعضُها أشدُّ عذاباً من بعضٍ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢ ﴾ ؛ أي لا يَجري عليه السَّهْوُ عن طاعةِ المطيعين ومعصيةِ العاصِينَ، فيجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ ﴾ ؛ أي هو الغَنِيُّ عن إيْمَان العبادِ وطاعتِهم. والغَنِيُّ: الَّذِي لاَ يَحْتَاجُ إلَى شَيْءٍ؛ فَيَكُونُ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ذُو الرَّحْمَةِ) بيانٌ أنه تَعَالَى مع كِوْنِهِ غَنِيّاً عن شُكْرِ العبادِ وطاعتِهم ذُو إنْعَامٍ عليهم. والمعنى: وربُّكَ الْغَنِيُّ عن خَلْقِهِ ذو الرحمةِ بهم، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ؛ أي إنْ يشاء يُهْلِكُم يا أهلَ مكَّة؛ ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم ﴾ ؛ ويخلف من بعدكم؛ أي مِنْ بَعْدِ إهلاكِكم؛ ﴿ مَّا يَشَآءُ ﴾ ؛ خَلْقاً آخرَ أطوعَ للهِ منكُم؛ ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما ابْتَدأ خَلْقَكم قَرْناً بعد قرنٍ؛ ﴿ مِّن ذُرِّيَّةِ ﴾ ؛ أي من أولادٍ؛ ﴿ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ ﴾ ؛ هالكِين.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۖ ﴾ ؛ أي إنَّ الذي تخافونَ من البَعْثِ والعذاب لكائنٌ لا خَلَفَ فيه، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤ ﴾ ؛ أي فائِتِين لستُم تقدرونَ أن تُعْجِزُوا اللهَ عن إدراكِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: اثْبُتوا على حَالَتِكُمْ وعلى عملكم القَبيْحِ الذي أنتُم عليهِ وعلى منازلكم؛ ﴿ إِنِّي عَامِلٌۖ ﴾ ؛ في أمْري على مَنْزلَتِي، وهذا على سبيلِ الوَعِيْدِ والتَّهْدِيْدِ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ ﴾ ؛ أي (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) أيُّنا يكونُ لَهُ العَاقِبَةُ المحمودةُ في الدُّنيا؛ وفي الآخرة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥ ﴾ ؛ أي لا يَظْفَرُونَ بمُرادهِم. وقرأ السلميُّ وعاصمُ (عَلَى مَكَانَاتِكُمْ) على لفظِ الجماعة. وقرأ مجاهدُ وأهلُ الكوفة إلا عاصِماً: (مَنْ يَكُونُ) بالياء؛ لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ

الْجَاهِلِيَّةِ كَانُواْ إذا حَرَثُوا حَرْثاً؛ جَعَلُوا للهِ خَطّاً؛ وَقَالُوا: مَا دُونَ هَذا الْخَطّ لآلِهَتِنَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا وَعَلَى خُدَّامِ الأَصْنَامِ، وَمَا وَرَاءَ هَذا الْخَطّ للهِ يُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسَّائِلِيْنَ.

وَكَانُوا إذا أَرْسَلُواْ الْمَاءَ فِيْمَا سَمَّوْهُ للهِ تَعَالَى، فَانْفَجَرَ مِنْهُ إِلَى الَّذِي جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ تَرَكُوهُ؛ وَقَالُوا: هَذا أَحْوَجُ وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَإِذا انْفَجَرَ مِنَ الَّذِي جَعَلُوهُ لأَصْنَامِهِمْ؛ رَدُّوهُ وَقَالُوا: لَيْسَ لآلِهَتِنَا بُدٌّ مِنَ النَّفَقَةِ. وَكَانُواْ إذا هَلَكَ الَّذِي لآلِهَتِهِمْ؛ وَكَثُرَ الَّذِي للهِ؛ أَخَذُوا الَّذِي للهِ وَأَنْفَقُوهُ عَلَى الأَصْنَامِ، وَإِذا هَلَكَ الَّذِي للهِ؛ وَكَثُرَ الَّذِي لِلأَصْنَامِ قَالُواْ: لَوْ شَاءَ اللهُ لأَزْكَى الَّذِي لَهُ)(١).

ومعنى الآية: وجعلَ المشركون مِن أهلِ مكَّة لله مِمَّا خَلَقَ من الزَّرْعِ والأنعامِ نَصِيباً، وللأَصْنَامِ نَصِيباً؛ فقالُوا: هذا نصيبُ اللهِ بقولِهم، ولم يأمرْهُم اللهُ تعالى بذلكَ، وهذا النصيبُ الآخر لآلِهتنا. وفي الآيةِ إضمارٌ تقديرُهُ: وَجَعَلُواْ للهِ نَصِيباً ولشركائِهم نَصِيباً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بزَعْمِهِمْ) قرأ السلميُّ والأعمشُ والكسائيُّ بضمِّ الراء، والباقون بفتحِها، وهُما لُغتان.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما كان مِن نصيب آلِهتهم فلا يرجعُ إلى الذي جعلوهُ لله، ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ ؛ أي يرجعُ إلى الذي جَعَلُوهُ لشركائِهم، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ ما يَقْضُونَ؛ يُوَفُّونَ نَصِيبَ الأصنامِ ويُنْقِصُونَ نصيبَ الرَّحْمَنِ، فَبئْسَ الحكمُ حكمُهم في الإشراكِ وبالقسمةِ. وكانوا يفعلونَ بالأنعامِ الثمانيةِ أزواجٍ ونحوِها كذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفِنُونَ بَنَاتِهُمْ أَحْيَاءً كَرَاهِيَةً لِلْبَنَاتِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ لَئِنْ وُلِدَ لَهُ كَذا وَكَذا غُلاماً لَيَنْحَرَ أَحَدَهُمْ كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِب عَلَى ابْنِهِ عَبْدِاللهِ. وَكَانَ لآلِهَتِهِمْ خُدَّامٌ يَقُومُونَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٢٠ و١٠٨٢١).

عَلَيْهِمُ الَّذِيْنَ كَانُوا يُزَيِّنُونَ لِلْمُشْرِكِيْنَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ)[١].

ومعنى الآية: وكما زُيِّنَ تحريمُ الحرثِ والأنعام؛ زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين دفنُ بناتِهم أحياءً كراهيةً لَهُنَّ ومخافةَ الفقر، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (شُرَكَاؤُهُمْ) أي قُرَنَاؤُهُمْ وشَيَاطِيْنُهُمْ، وَقِيْلَ: سَدَنَةُ آلِهتهم؛ يعني خُدَّامَ أصنامِهم.

قرأ بعضُهم: (زُيِّنَ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، ورَفَعَ قولَهُ: (قَتْلُ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) يحملُ على المعنى على الفَاعِلِ؛ كأنهُ قال: مَنْ زُيِّنَ لَهم، ثم قالَ (شُرَكَاؤُهُمْ) على إضمار (زَيَّنَهُ). وقرأ ابنُ عامرٍ بضمِّ الزاي، وَقِيْلَ: بضمِّ اللام (أَوْلاَدَهُمْ) بالنصب و(شُرَكَائِهِمْ) بالكسر. ومعنى ذلكَ: على التقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: زُينَ لكثيرٍ من المشركينَ قتلَ شُرَكَايُهم[٢] أولادِهم، فيكونُ معنى الشركاءِ الكفار القاتلون، المتقدِّمون منهمُ والباقونَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيُرْدُوهُمْ) أي لِيُهْلِكُوهُمْ. يجوزُ أن تكون هذه لامَ العاقبةِ، إن لم يكن غرضُهم بذلكَ الأمرِ إهلاكَهم، ويجوزُ أن تكون لامَ الغرضِ؛ لأنه قد كانَ فيهم معانِدون وغيرُ معاندين؛ فغلبَتْ صفةُ المعاندين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ ؛ أي لِيَخْلِطُوا ويُشَبِّهُوا عليهم دينَهم دينَ إسماعيلَ عليه السلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ؛ أي لو شاءَ اللهُ لَمَنَعَهُمْ من دفنِ البناتِ أحياءً، ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ أي اتْرُكْهُمْ وافتراءَهم على اللهِ أنه أمرَهم بدفنِ بناتِهم أحياءً، فإنَّ اللهَ تعالى مع قدرتهِ عليهم تَرَكَهُمْ؛ فاتركْهُم أنتَ، فإنَّ لَهم موعداً يُحاسبون فيهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٢٦) مختصراً.

(٢) شُرَكَايُهُمْ؛ بياء مضمومة. ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ١ ص٣٥٧-٣٥٨؛ لأن شركاؤهم فاعل، وهي قراءة عامة القراء. والتقدير: (زُيِّنَ لكثيرٍ مِن المشركين قتلَ أولادِهم شركايُهم) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٤٥٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٩٢-٩٣؛ أتى الإمام القرطبي بفوائد.

وقُرِئَ: (قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ) كلاهُما بالكسرِ، فتكون الشركاءُ من نعتِ الأولاد[1]؛ لأن أولادَهم شركاؤهم في أموالِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ ؛ أي قالوا: هذهِ الأنعامُ والحرثُ التي جعلوا بعضَها للهِ وبعضَها للأوثان حِجْرٌ؛ أي حرامٌ لا يأكلُها ولا يذوقُها إلا مَن يُأذنُ له في أكلِها؛ وهم الرجالُ دون النِّساءِ، (بزَعْمِهِمْ) أي بقولِهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ ؛ هي الْبَحِيْرَةُ والسَّائِبَةُ وَالْحَامُ؛ حَرَّمُوا الركوبَ عليها، وأما الْوَصِيْلَةُ فإنَّها كانت من الغَنَمِ خاصَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي وأنعامٌ أُخَرُ كانوا يذبحونَها للأصنامِ تَقرُّباً إليها؛ زَعَمُوا أنَّ اللهَ أمرَهم بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي على اللهِ، نُصِبَ على معنى: (لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا) كَذِباً على اللهِ أنهُ أمرَهم بذلك. وَقِيْلَ: نُصِبَ على المصدرِ؛ أي افْتَرَوا افْـتِرَاءً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ أي سَيُكَافِئُهُمْ بكَذِبِهِمْ وافترائِهم على اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ ؛ أي قالَ أهلُ الجاهليَّةِ: إنَّ الأجِنَّةَ التي في بُطُون هذه الأنعام - التي زَعَمُوا أنَّها لأوثانِهم - إذا انْفَصَلَتْ عن الأُمَّهاتِ؛ فهي حلالٌ لرجالِنا منافعُها وألبانُها، ومُحَرَّمٌ على نسائِنا ما دامَت تلكَ حَيَّةً. وأمَّا تأنيثُ الـ (خَالِصَةٌ)؛ فعلى معنَى: سَألَهُمْ.

قال جماعةٌ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنْعَامِ أو الأنعامِ التي في بُطُون هذهِ الأنعام. وأما تذكيرُ قولِهِ: (وَمُحَرَّمٌ) فلأنهُ مردودٌ على لفظِ (مَا). وقرأ الأعمشُ: (خَالِصٌ لِذُكُورِنَا) بغيرِها، وردَّهُ إلى (مَا). ومَن نَصَبَ (خَالِصَةً) فعلى القَطْعِ؛ تقديرُهُ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنْعَامِ لِذُكُورِنَا خَالِصاً. وقرأ ابنُ عبَّاس: (خَالِصَةٍ) بالإضافةِ إلى الهاء.

---

(١) في المخطوط: (الأولان) وهو تصحيف من الناسخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةً ﴾ ؛ أي قالُوا: وَإنْ تَكُنْ أجنَّةُ هذه الأنعام ميتةً؛ ﴿ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ ﴾ ؛ الرِّجَالُ والنساءُ. قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ: (وَإنْ تَكُنْ) بالتاء (مَيْتَةٌ) بالرفعِ على معنى وإنْ يَقَعْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ كذلكَ إلا أنه بالياء، وقرأ أبو بكرٍ التاء (تَكُنْ مَيْتَةً) بالنصب على معنى: وإن تكن الأجنةُ ميتةً. وقرأ الباقون (يَكُنْ) بالياء والنصب، وردُّوه إلى ما يؤيِّدُ ذلكَ قولُهُ: (فَهُمْ فِيْهِ شُرَكَاءُ) ولم يقل: فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ ﴾ ؛ أي سَيَجْزِيَهِمْ في الآخرةِ بوَصْفِهِمْ الذي وَصَفُوا في هذه الأنعامِ، إلا أنهُ لَمَّا حذفَ الباءَ انتصبَ، ويجوزُ أن يكون معناه: سَيَجْزِيْهِمْ جَزَاءَ وَصْفِهِمْ، إلا أنهُ حذف الجزاءَ، وأجرى إعرابَهُ على (وَصْفَهُمْ)، ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في مجازاتهم؛ ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ بمقدار جزائهم. والمعنى: سيجزيهم على وَصْفِهِمُ الكذبَ على اللهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ ؛ أي الذين قَتَلُوا بناتِهم أحياءً جَهْلاً منهم، (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي بلاَ بَيَانٍ ولا حُجَّةٍ. نزلت في رَبيْعَةَ ومُضَرَ الذين كانوا يدفِنون بناتِهم أحياءً مخافةَ السَّبْيِ والفقرِ، إلا مَن كان مِن بني كِنَانَةَ، فإنَّهم كانوا لا يفعلونَ ذلك[1]. وقرأ الحسنُ والسلميُّ وأهلُ مكة والشَّام: (قَتَّلُوا) بالتشديد على التَّكْثِيْرِ، وخفَّفَ الباقون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي حَرَّمُوا على أنفسِهم ما أعطاهُم اللهُ من الرِّزْقِ ومن الأنعامِ والحرث، يعني: أنَّ هؤلاء الكفَّار لِجَهْلِهِمْ يقتلونَ البناتَ أحياءً مخافةَ الفقرِ والإنفاق، ثم يجعلون طائفةً من أموالِهم للأوثانِ، ويُحَرِّمُونَهَا على إناثِ أولادِهم.

وقولهُ: (افْتِرَاءً عَلَى اللهِ) أي يَفْتَرُونَ ذلك افْتِرَاءً عَلَى اللهِ؛ بأنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشياءَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ ضَلُّواْ ﴾ ؛ أي ضَلُّوا في فِعْلِهِمْ هذا عنِ الهُدَى، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ؛ مِنَ الضَّلاَلَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٦٢) عن عكرمة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ ؛ أولُ هذه الآية راجعٌ إلى ما قبلِها، كأنهُ قالَ: افْتِرَاءً عَلَى اللهِ وَهُوَ الَّذِي أنْشَأَ جَنَّاتٍ؛ أي هو الذي خَلَقَ بساتِينَ مَعْرُوشَاتٍ؛ وهي الكُرُومُ رَفَعَ بَعْضَ أغصانِها على بعضٍ، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) وهي الشَّجَرُ والزَّرْعُ وكلُّ ما لا يرتفعُ بعضُه على بعضٍ، هكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاس والحسنِ.

ويقالُ: معنى (مَعْرُوشَاتٍ) ما لا يرفع له حيطان، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) ما لا يجعلُ له حائطٌ، وَقِيلَ: (مَعْرُوشَاتٍ) ما انْبَسَطَ على الأرضِ وأنبتَ مما يُغْرَسُ مثل الكَرْمِ والقَرْعِ والبطِّيخِ وشِبْهِهَا، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) ما قامَ على سَاقٍ فطالَ مثلَ النَّخْلِ والزَّرْعِ وسائرِ الأشجار. وقال الضَّحاكُ: (مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) الكَرْمُ خَاصَّةً؛ مِنْهَا مَا غُرِسَ؛ وَمِنْهَا مَا لَمْ يُغْرَسْ). ورُوي عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً: (أنَّ الـ (مَعْرُوشَاتِ) مَا نَبَتَهُ النَّاسُ، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) مَا أخِذَ مِنَ الْبَرَارِي وَالْجِبَالِ مِنَ الثِّمَارِ)[1]. يدلُّ عليه قراءة علي ﷺ (مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ) بالغين والسين[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: وأنشأ النخلَ والزرعَ، وهذا تخصيصُ بعضِ ما دخلَ في عمومِ الأوَّلِ؛ لكونِهما أعمُّ نفعاً من جملةِ ما يكونُ في البساتين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ) أي مُخْتَلِفاً جملةً من الألوانِ كلِّها، ومختلفٌ في الطَّعْمِ من الحُلْوِ والحامضِ والمُرِّ؛ والجيِّدِ والرَّديءِ. ونُصِبَ (مُخْتَلِفاً) على الحالِ؛ أي أنشأهُ في حالِ اختلافِ أكْلِهِ. وقد يقالُ: ارتفعَ (أُكُلُهُ) بالابتداءِ (مُخْتَلِفاً) نَعْتُهُ، إلا أنه لَمَّا تقدَّمَ النعتُ على الاسمِ نُصِبَ، كما يقالُ: عندي طَبَّاخاً غُلامٌ، قال الشاعرُ:

الشَّرُّ مُسْتَتِرٌ يَلْقَاكَ عَنْ عُرُضٍ ... وَالصَّالِحَاتُ عَلَيْهَا مُغْلَقاً بَابُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٦٨).

(٢) في المخطوط تصحيف: (يدل عليه قراءته ﷺ (معرشات) بالعين والشين)، والصحيح كما أثبتناه من الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٩٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ ؛ أي وأنشأ شجرَ الزَّيتون والرُّمَّان، ﴿ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ ﴾ ؛ أي منها ما هو متشابهٌ؛ ومنها ما هو غيرُ متشابهٍ. وَقِيْلَ: (مُتَشَابهاً) بالنَّظَرِ (وَغَيْرَ مُتَشابهٍ) في الطَّعمِ؛ نحوُ: كالرُّمَّانَتَيْنِ لونُهما واحدٌ؛ وطعمُهما مختلفٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ ؛ هذا أمرُ إباحةٍ لا أمرُ إيجابٍ، والفائدةُ في قولهِ تعالى: (إذا أثْمَرَ) إباحةُ الأكلِ من قَبْلِ إخراجِ الحقِّ الذي وَجَبَ فيه شائعاً للمساكين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾ ؛ أي أعْطُوا حقَّ اللهِ تعالى يَوْمَ يُحْصَدُ، أرادُوا العُشْرَ فيما سَقَتْهُ السَّماءُ، ونصْفَ الْعُشْرِ فيما سُقِيَ بغرب ودَالِيَةٍ. قال ابنُ عبَّاس والحسنُ وقال ابنُ عمر ﷺ: ((وَآتُوا حَقَّهُ) مَا يَتَطَوَّعُ بِهِ الإنْسَانُ عِنْدَ رَفْعِ الْغُلَّةِ وَالتَّصَدُّقُ بِهِ)[1].

قال مجاهدُ: (إذا حَصَدْتَ فَحَضرَكَ الْمَسَاكِيْنُ، فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ، وَإذا دَرَسْتَهُ وَذرَّيْتَهُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ، فَإذا عَرَفْتَ كَيْلَهُ فَأَخْرِجْ زَكَاتَهُ)[2]. قال إبراهيمُ النَّخعِيُّ: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ)[3]. وفي قولِهِ: (حَصَادِهِ) قراءتان بكسرِ الحاء وفتحِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾ ؛ هذا خطابٌ لِلأئِمَّةِ؛ أي لا تَأْخُذوا فَوْقَ حَقِّكُمْ، وَقِيلَ: خطابٌ لأربابِ الأموال لا يَتَصَدَّقُوا بالجميع؛ فلا تُبْقُوا للعيالِ شيئاً. قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَتَسَرَّعُونَ بِالْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْحَصَادِ، فَيُعْطُونَ الْمَسَاكِيْنَ وَالْفُقَرَاءَ، فَعَمَدَ ثَابتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ مِنْ بَيْنِهِمْ خَاصَّةً، فَصَرَمَ خَمْسَمِائَةِ نَخْلَةٍ وَقَسَّمَهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ لأَهْلِهِ شَيْئاً، فَكَرِهَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٩٨) بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٩٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩١٢ و١٠٩١٤) عن إبراهيم، والأثر (١٠٩٠٩) عن ابن عباس.

اللهُ ذلِكَ وَأنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُسْرِفُوا إنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ). أيْ لا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فتحتاجُوا إلى ما عندَ الناسِ.

وقال الأزهريُّ: (الإسْرَافُ: هُوَ الإنْفَاقُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى). وقال مجاهدُ: (لَوْ كَانَ أبُو قُبَيْسٍ ذهَباً فأنْفَقْتُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ لَمْ تَكُنْ سَرَفاً، وَلَوْ أنْفَقْتُ دِرْهَماً أوْ دُونَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُنْتُ مُسْرِفاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)؛ ظاهرُ المعنى، فقيلَ: معنى(لاَ تُسْرِفُوا) لا تُنْقِصُوا عنِ العُشْرِ أو نصفِ العُشْرِ؛ فتمنعوا الصدقةَ وتأكلوا حقَّ المساكين.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ ﴾ ؛ الْحَمُولَةُ: كِبَارُ الإبلِ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهَا، وَالْفَرْشُ: صِغَارُهَا الَّتِي لاَ يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهَا، سميت فَرْشاً لاستوائِها في الصِّغَرِ والانْحِطَاطِ كما سُوِّيَ ما يُفْرَشُ. وَقِيلَ: سُميت فَرْشاً؛ لِقُرْبِهَا من الإبلِ، وتسمى أيضاً الغَنَمُ: فَرْشاً.

والمعنى: مما نشاء من الأنعامِ حَمُولَةَ وَفَرْشاً. ويقالُ: أرادَ بالفَرْشِ ما يُفْرَشُ من الثِّياب والبُسُطِ التي تُعْمَلُ من الوَبَرِ. إلا أنَّ القولَ الأوَّل أقربُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ في الآيةِ بعدَها: (ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ)؛ أي أنْشَأَ اللهُ في الْحَمُولَةِ والفَرْشِ ثمانية أزواجٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ إذنٌ في الأكلِ من الحرثِ والأنعامِ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ ؛ في تحريمِ الحرثِ والأنعامِ؛ أي ولا تَتَّبعُوا طُرُقَ الشيطان، فإنه لا يدعوكُم إلاَّ إلى المعصيةِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ﴾ ؛ أي ظاهرُ العداوةِ، وقد بَانَت عداوتهُ لأبيكُم آدمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ ﴾ ؛ معناهُ: وَأنْشَأَ لَكُمْ (ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ) أي أصْنَافٍ، (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) ذكرٍ وأنثى، يعني بالذكر زَوْجاً وبالأنثى زَوْجاً، يقالُ لكلِّ مَن له قَرِينٌ: زَوْجٌ، كما قالَ تعالى: ﴿اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١١٠.
(٢) الأعراف / ١٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) أي ذكرٍ وأنثى زوجين اثنين. والضَّأْنُ: ذوَاتُ الإلْيَةِ، وهو جمع ضَائِنٍ، كما يقال: تَاجِرٌ وتُجرٌ، وَقِيْلَ: واحدهُ ضَائِنَةٌ. وَالْمَعْزِ: ذوَاتُ الأذْنَاب الْقِصَار، وفيه قراءتان: تَسْكِيْنُ العينِ؛ وفتحُها.

قوله: ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: مِن أينَ جاء هذا التحريمُ الذي تذكرونه أيُّها الكفارُ في الولدِ السَّابعِ في الغنمِ أنه حرامٌ على النساءِ؛ حرَّمَ اللهُ الذكرَ من الضأنِ؛ والذكرَ من المعزِ؛ فحرَّم ولدَهما لحرمةِ الإناث؟

فإن جاءَ هذا التحريمُ من قِبَلِ ذُكورهما؛ فيجبُ أن تكون كلُّ أنثى حرامٌ عليكم، وإنْ كانَ من قِبَلِ اشتمال أرحامِ الأنْثَيَيْنِ؛ فيجبُ أن يكونَ كلُّ أولادِهما من الذكرِ والأنثى حَراماً عليكم؛ لأنَّ الأرحام تشتملُ عليهما جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾؛ أي قُلْ للكافرين خَبِّرُونِي وفَسِّرُوا لِي ما حُرِّمَ عليكم ببَيَانِ حُجَّةٍ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ في مقالَتِكم: إنَّ اللهَ حَرَّمَ الوَصِيْلَةَ ونحوها. وإنَّما قال: (إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) لأن الصِّدْقَ لا يُمكن إلا بعلمٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾؛ أي وَأنْشأ مِنَ الإبلِ اثْنَيْنِ؛ ذكرٍ وأنثى من جملةِ الثمانيةِ الأزواجِ، ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾؛ ذكرٍ وأنثى، ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾؛ أي قُلْ لهم يا مُحَمَّد: إنَّكم تُحرِّمونَ الولدَ من الجاموس والإبلِ والبقرِ على النِّساء، فمِنْ أينَ جاء هذا التحريمُ؛ مِن قِبَلِ الذكور؛ ﴿ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾؛ أي مِن قِبَلِ الإناث؟ ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾؛ أي مَن الذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرْحَامُ الأُنثيَيْنِ، ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾؛ أي أمْ شاهَدتُم اللهَ تعالى حرَّم هذه الأشياءِ التي تحرِّمونها وأمركم بتحريْمها.

يعني إذا كُنتُمْ لا تُقِرُّونَ بنَبِيٍّ من الأنبياءِ؛ فمِن أينَ عَلِمتُمْ تحريمَ اللهِ؛ أبالْقِيَاسِ؟ لأنَّ الله تعالى أمَرَ نبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن يُنَاظِرَهُمْ، ويُبيِّنَ بالحجَّةِ فسادَ قولِهم وبطلانَ اعتقادِهم، فلمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ على أبي الأَحْوَصِ

الْجُشَمِي ومَالِكِ بْنِ عَوْفٍ[(١)] - وكان هو الَّذي يُحَرِّمُ لَهم، وكانوا يرجعون إليه فيه - فَسَكَتَ مَالِكُ وَتَحَيَّرَ فِي الْجَوَاب. فَقَالَ ﷺ: [مَا لَكَ يَا مَالِكُ لاَ تَتَكَلَّمُ؟] فَقَالَ لَهُ مَالِكُ: بَلْ تَكَلَّمْ أنْتَ؛ أنَا أسْمَعُ[(٢)].

فنزل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ هذا استفهامٌ بمعنى التَّوْبيْخِ وَالتَّعَجُّب؛ معناهُ: أيُّ أحدٍ أعْتَى وأجرأ على اللهِ ممَّن اختلقَ على اللهِ كَذِباً (لِيُضِلَّ النَّاسَ بغَيْرِ عِلْمٍ) أي لِيَصْرِفَ النَّاسَ عن دِينِهِ وحُكْمِهِ بالْجَهْلِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يَهْدِيْهِمْ إلى الْحُجَّةِ فيما افْتَرَواْ على اللهِ، ويقالُ: لا يهديهم إلى حُجَّتِهِ وثوابهِ.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ قال مالكُ بنُ عوفٍ: فِيْمَ هذا التحريمُ الذي حَرَّمَهُ آباؤُنا من السَّائِبَةِ والوَصِيْلَةِ وَالْحَام وَالْبَحِيْرَةِ؟ فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ ؛ فقرأ النبيُّ ﷺ الآيةَ، ثُمَّ قالَ: [يَا مَالِكُ؛ أسْلِمْ] فَقَالَ: إنِّي امْرِؤٌ مِنْ قَوْمِي فَأُخْبِرُهُمْ عَنْكَ. فَأَبَى قَوْمُهُ؛ فَقَالُوا: كَيْفَ رَأيْتَ؟ فَقَالَ: رَأيْتُ رَجُلاً مُعَلِّماً. وَذكَرَ لَهُمْ؛ فَقَالُوا: إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ[(٣)].

ومعنى الآية: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: لاَ أجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إلَيَّ مِن القرآن شيئاً مُحَرَّمًا عَلَى آكِلٍ يَأكُلُهُ إلاَّ أنْ يَكُونَ مَيْتَةً لَمْ يُذكَّ؛ وهي تَموتُ حَتْفَ أنْفِ. فمَنْ قرأ (إلاَّ أنْ يَكُونَ) بالياء فعلى معنى: إلاَّ أن يكونَ المأكولُ ميتةً. ومن قرأ بالتاء؛ فعلى

---

(١) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٥ ص٧٤٤: الرقم (٧٦٨١)؛ قال ابن حجر: (المعروف في والد أبي الأحوص أنه مالك بن نضلة)، وفي الرقم (٧٦٩٨)؛ قال: (مالك بن نضلة الْجُشمي والد أبي الأحوص عوف). وفي ج ٤ ص٧٤٢: الرقم (٦١٠٥): ترجمة عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي. وله فيها قصة.

(٢) ذكر القصة مقاتل في التفسير: ج ١ ص٧٣٤؛ وقال: (كلم النبي ﷺ في ذلك عوف بن مالك الجُشمي، ويكنى أبا الأحوص).

(٣) من وجه آخر أخرج القصة ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٢ ص٢٠٠.

معنى: إلا أن تكونَ تلك الأشياءُ ميتةً. وقرأ عَلِيٌّ ﷺ: (يَطَّعِمُهُ) بتشديدِ الطاء، فأدْغَمَ التاءَ في الطاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) أي دَماً مَصْبُوباً سَائِلاً، فكانُوا إذا ذبَحوا أكلُوا الدمَ كما يأكلون اللَّحْمَ. وفي الآيةِ دليلٌ على أن الدَّمَ إذا لم يكن سَائِلاً مثلُ الدمِ الذي يكونُ في عُرُوقِ اللَّحْمِ الْمُذكَّى؛ فإنهُ لا يكون مُحرَّماً؛ هكذا قالَ عكرمةُ وقتادة، وقال عمرانُ بن حُدَيرٍ: (سَأَلْتُ أبَا مِجْلَزٍ عَمَّا يَتَلَطَّخُ باللَّحْمِ مِنَ الدَّمِ حَتَّى يُرَى فِيْهِ حُمْرَةُ الدَّمِ؛ قَالَ: لاَ بَأْسَ بهِ؛ إنَّمَا نُهِيَ عَنِ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَهُوَ الْمُهْرَاقِ السَّائِلِ، لَكِن يحرم لِعَيْنِهِ)[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ) فيه بيانٌ أنَّ لحمَ الخنْزيرِ لا يحرمُ لكونهِ ميتةً، لكن يحرم لِعَيْنِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) عطفٌ على قوله: (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ). والمرادُ بالفِسْقِ: المذبوحُ للصَّنَمِ؛ وهو الذي يُذْكَرُ على ذبْحِهِ اسمُ غيرِ الله. ومعنى: (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بهِ) أي رُفِعَ به؛ مأخوذٌ من الإهْلاَلِ الذي هو رَفْعُ الصَّوْتِ؛ ومنهُ إهلالُ الْمُحْرِمِ في الحجِّ، ومنهُ قولهُ ﷺ: [إذا اسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ وَرِثَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ][2]. وأما الرِّجْسُ؛ فمعناهُ: الْحَرَامُ، وكلُّ ما استقذرتَهُ فهو رجسٌ، والرِّجْسُ العذابُ في غيرِ هذا الموضعِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ ؛ أي مَن دَعتْهُ الضرورةُ إلى أكلِ شيءٍ مِن هذه الْمُحَرَّمَاتِ؛ غيرَ طالبِ التلذُّذِ بتناولهِ، ولا متجاوزٍ قَدْرَ المباحِ منه؛ ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ؛ إذْ رَخَّصَ لكم تناوُلَ هذه الأشياءِ عند الضَّرورةِ؛ أي أكلُ شيءٍ من هذه الْمُحَرَّمَاتِ.

فإن قِيْلَ: لِمَ قَصَرَ التحريمَ في هذه الآيةِ على الأشياءِ المذكورةِ فيه؛ مع أنه تَعَالَى قد حَرَّمَ أشياءَ غيرَها في أوَّل سورة المائدة؟ قِيْلَ: لأنَّ هذه الآيةَ مكيَّةٌ؛ نزلت في جواب الذين جادَلُوا رسولَ اللهِ ﷺ في تحريمِ البَحِيْرَةِ وَنَحْوِهَا، فكانت هذه الأربعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٥٧) بإسنادين.

(٢) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الفرائض: الحديث (٦٠٣٢) بإسناد صحيح.

الْمُحرَّمَاتُ المذكوراتُ في هذه الآية مُحَرَّمَةٌ يومَ الْمُجَادَلَةِ، ثم نزلت بعدَ هذه الآيةِ تحريمُ غيرِها بقولهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ في سورةِ المائدة(١).

وهذه الآية لا تَمنعُ شيئاً آخرَ لخبرِ الآحاد، والقياسُ على الْمُحَرَّمَاتِ المنصوصةِ لاتِّفاق الفقهَاءِ على تحريمِ أشياءٍ غير مذكورةٍ في هذه الآية كالخمْرِ ولحمِ القِرْدِ والنجاسات. وأما الخبرُ المرويُّ عن رسول الله ﷺ أنهُ: [نَهَى عَنْ أكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ؛ وَكُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ](٢) فهو بمَنْزِلَةِ آيةٍ من كتاب اللهِ تعالى؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٣).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ ؛ في هذه الآية بيانُ ما حَرَّمَ اللهُ على اليهودِ. قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بقَوْلِهِ: (كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) الإبلَ وَالنَّعامَ وَالْبَطَّ وَالإوَزَّ وَمَا أشْبَهَ ذلِكَ مِمَّا لاَ يَكُونُ مُنْفَرِجَ الأَصَابعِ)(٤). وَقِيلَ: أراد به ما يصيدُ بالظُّفُرِ مثلَ النُّسُور والبراري وما يُشَاكِلُ ذلكَ من السِّبَاعِ والكلاب. وقال ابنُ زيدٍ: (هِيَ الإبلُ فَقَطْ)(٥). قرأ الحسنُ: (كُلَّ ذِي ظِفْرٍ) بكسرِ الظَّاء وإسكان الفاء. وقرأ أبو السَّمَّال: (ظِفِرٍ) بكسرِهما جميعاً(٦)؛ وهي لغةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ ؛ من الشَّحْمِ وهو السَّمْنُ، ﴿ أَوِ ﴾ ؛ ما حَمَلَتْ؛ ﴿ ٱلْحَوَايَآ ﴾ ؛ وهي الْمَبَاعِرُ والأمْعَاءُ التي عليها الشَّحْمُ من داخلِها؛ واحدتُها حَاوِيَةٌ وحَاوِيَاءُ

---

(١) الآية / ٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٠٢. والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٩٩٤ و١٢٩٩٥) وإسناده صحيح.

(٣) الحشر / ٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٦٢).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٧٠).

(٦) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٤٨٧؛ قال الحنبلي: ((نسبها الواحدي قراءة لأبي السَّمَّال)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٢٤-١٢٥؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو السَّمال (ظِفْر) بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة. و(ظِفِرٍ) بكسرهما.

وحَوِيَّة؛ سُميت بذلك لأنَّها تَحوي ما في البَطْنِ. وقولُـهُ: ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ﴾ ؛ أرادَ به ما يكونُ من الشَّحْمِ الْمُخَلَّطِ من اللَّحمِ على عَظْمِ الجنب. وأما الإلْيَـةُ؛ فقد كانت داخلةً في التحريم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ ﴾ ؛ أي ذلـك التحريـمُ عاقبنـاهُم بظلمِهم، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ فيما نقولُ إنَّ هذه الأشياءِ كـانت حَلالاً في الأصلِ؛ فحرَّمناها على اليهودِ بمعصيتِهم ومخالفتهم لأنبيائِهم، وكانتِ اليهودُ مع هـذا التحريمِ يجملونَ الشُّـحُومَ فيبيعونَـها؛ فيستحلُّون ثمنَـها؛ كما قـال ﷺ: [لَعَـنَ اللهُ الْيَهُودَ؛ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا وَبَاعُوهَـا وَأكَلُـوا ثَمَنَـهَا؛ إنَّ اللهَ تَعَـالَى إذا حَرَّمَ شَيْئاً حَرَّمَ بَيْعَهُ وَأكْلَ ثَمَنِهِ][(١)].

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ؛ قال ﷺ: [هَذا مَا أوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَيَّ أنَّـهُ مُحَـرَّمٌ مِنْـهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، وَمِنْهُ عَلَى الْيَهُودِ][(٢)]. فقالَ المشركون: إنَّكَ لَـمْ تُصِـبْ فيمـا قُلْـتَ، فقـال الله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ ؛ أي إنْ أنْكَرُوا ولم يقبلُوا قولَكَ؛ فقُلْ: (رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) بالإمهال بـأن لَـنْ يُعَـاجِلَكُمْ بالعقوبةِ؛ ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرَدُّ عذابهُ عن المشركين واليهودِ إذا جاء وقتُ العذاب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ؛ أي آباؤُنا من قبلِنا الذين استَنَنَّا بهم، ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا ﴾ ؛ على أنفسِنا؛ ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ من الحرْثِ والأنعام، ولكنه شَاءَ لنا الشِّرْكَ والتحريمَ.

قَالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ﴾ ؛ أي قـالَ؛ ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي هكذا كَذَّبَ الذين مِن قبلِهم رُسُلَهُمْ كما كَذبَ قومُـك، ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ ﴾ ؛ أي عذابَنا. ومن قرأ (كَذلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ) بالتخفيفِ؛ فمعناهُ: كما كَذَبَ قومُك علـى اللهِ؛ كذلك كَذَبَ مَن قبلَهم من الأُمَمِ الخالية على اللهِ؛ حتى ذاقُوا عذابَنا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص١٥٥: الحديث (١٢٨٨٧) عن ابن عباس. وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في ثمن الخمر: الحديث (٣٤٨٨) وإسناده صحيح.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ج ٤ ص١٤٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: هَلْ عندكم من عِلْمٍ من بَيَانٍ وحُجَّةٍ غيرِ ما في القُرْآنِ؛ فَبَيِّنُوهُ لَنَا، ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ يعني ظَنَّهُمْ في تحريم البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ وَالْوَصِيْلَةِ وَالْحَامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ما أنتم إلاَّ تَكْذِبُونَ على اللهِ.

قال المشركون: لو شاءَ الله ما أشْرَكْنَا، على وجهِ الاستهزاء؛ فكذبَهم اللهُ في ذلك، وإنْ كانت المشيئةُ حقّاً كما في سورة (المنافقون): ﴿إذا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1] فكذبَهم الله في قولِهم: إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ؛ وإن كان ذلك حقّاً؛ لأنَّهم قالوا على وجهِ الاستهزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا آبَاؤُنَا) عطفٌ على الْمُضْمَرِ المتَّصل؛ معناهُ: ما أشْرَكْنَا نَحنُ ولا آباؤنا. ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ بعضَهم قال: إنَّ مشيئةَ المعاصي إذا أُضيفت إلى اللهِ تعالى كان معناها الْخُذْلاَنَ مجازاةً لَهم على سُوءِ أفعالِهم، وإصرارهم على المعصيةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ قد أبلغكم حُجَّتَهُ؛ وهو ما أحَلَّهُ من الثمانيةِ أزواجٍ؛ فلو شاءَ لَوَفَّقَكُمْ لدينهِ وأكرمَكم بمعرفته. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: قَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ وَجَاءَكُمُ الرَّسُولُ؛ فَلَوْ شَاءَ لَوَفَّقَكُمْ وأجْبَرَكُمْ على الإيْمان). و(الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ): التَّامَّةُ الكافيةُ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: هَاتُوا شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشياءِ، ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ ؛ بأنَّ اللهَ حرَّمَها، ﴿ فَلَا تَشْهَدْ ﴾ ، أنتَ يا مُحَمَّدُ، ﴿ مَعَهُمْ ﴾ ؛ لأنَّهم لا يشهدون إلاَّ الباطِلِ.

---

(١) الآية / ١.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٢٨؛ قال القرطبي: ((أي التي تقع عند المحجوج، وتزيل الشك عمن نظر فيها. فحجته البالغة على هذا: تبيينه أنه الواحدُ، وإرساله الرسل والأنبياء، فبيَّن التوحيد في النظر في المخلوقات، وأيَّد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كل مكلف. فأما علمه وإرادته وكلامه فغيبٌ لا يطلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول. ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن ما أمر به لأمكَنَهُ)).

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ ﴾ ؛ أي لا تعْمَلْ بهوى الذين جَحَدُوا بكَ وبـالقُرْآن؛ ولا بـهوى الذيـن لاَ يُصَدِّقُونَ بالبعثِ. وإنَّما فَصَلَ بين الفريقين؛ لأنَّ مِن الكفار مَن يُؤْمِنُ بـالبعثِ كـأهل الكتاب؛ ومنهُم مَـن لا يؤمِـن بذلـكَ كَعَبَـدَةِ الأوثـان. قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ أي يُسَوُّونَ باللهِ تعالى في الطاعةِ.

قَوْلُهُ عزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِمَالِكِ بن عوفِ الْخُشمي ولأصحابـه: هَلُمُّـوا واجْتَمِعُـوا أقْـرأ عليكـم الذي حَرَّمَ ربُّكم عليكُم.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي أوْصِيكُـمْ وآمُرُكُـمْ أنْ لا تُشْرِكُوا. ويقال: أتْلُوا عليكم أنْ لا تُشركوا كما في قولِهِ: ﴿مَا مَنَعَـكَ ألاَّ تَسْـجُدَ﴾[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ أي وَأوْصِيكُـم بـالوالدين؛ أي بالإحسـان إلى الوالدين برّاً بهما وعَطْفاً عليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ ؛ أي لا تَدْفُنُوا بناتِكم أحياءً مَخافةَ الفقرِ.

والإملاقُ في اللغة: نَفَادُ الزَّادِ وَالنَّفَقَةِ، يقال: أمْلَقَ الرجلُ؛ إذا نَفِدَ زَادُهُ ونَفَقَتُهُ، ومنه الْمَلَقُ؛ وهو بَذْلُ الْمَجْهُودِ فِي تَحْصِيْلِ الْمُرَادِ. قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ؛ أي علينا رزْقُكُمْ ورزْقُهُمْ جميعاً.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ؛ أي لا تقربوا الزنا مسرِّين ولا معلنين، ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلاَّ بإحدى ثلاثِ خِلاَلٍ: زناً بعد إحْصَانٍ؛ وكفرٌ بعد إيْمانٍ؛ وقتلُ نفسٍ بغيرِ حقٍّ.

ورُوي أن عثمان ﷺ حين أرادوا قتله أشرف عليهم وقـالَ: (عَـلاَمَ تَقْتُلُونِـي؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بإحْدَى ثَلاَثٍ: رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إحْصَانٍ؛ فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ، وَرَجُلٌ قَتَلَ عَمْداً، أوِ ارْتَدَّ بَعْدَ إسْلاَمِهِ]. فَوَاللهِ مَا زَنَيْـتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إسْلاَمٍ؛ وَلاَ قَتَلْتُ أحَداً فَأفْتَدِي نَفْسِي مِنْهُ؛ وَلاَ ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أسْلَمْتُ؛

---

(١) الأعراف / ١٢.

إنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ﷺ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي هذا الذي ذُكِرَ لكم أمَرَكُمُ اللهُ في كتابهِ لِكَي تَفْعَلُوا ما أمرَكم بهِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ؛ أي لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ الذي لا أبَ لهُ إلا لِحِفْظِهِ وتَمييزه وإصلاحِهِ، (حَتَّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ). قال الشعبيُّ: (هُوَ بُلُوغُ الْحُلُمِ؛ حَيْثُ تُكْتَبُ الْحَسَنَاتُ وَتُكْتَبُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ).

وقال السُّدِّيُّ:(الأَشُدُّ: أنْ يَبْلُغَ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً)[2]. وقال الكلبيُّ: (مَا بَيْنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إلَى ثَلاَثِيْنَ سَنَةً). وجعل أبُو حَنِيْفَةَ غَايَةَ الأَشُدِّ: (خَمْساً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً؛ فَإذا بَلَغَهَا دَفَعَ إلَيْهِ مَالَهُ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْتُوهاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي أتِمُّوا الكَيْلَ والوزنَ بالعدلِ عند البيعِ والشِّراء، ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ؛ أي إلاَّ طاقَتَها وجَهْدَهَا. وهذه الآيةُ أصلٌ في جواز الاجتهاد في الأحكام، وإنَّ كلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيْبٌ؛ فإذا اجتهدَ الإنسانُ في الكيلِ والوزن، ووقَعَتْ فيه زيادةٌ يسيرةٌ أو نقصانٌ يسيرٌ لم يُؤَاخِذْهُ اللهُ به إذا اجتهدَ جهده، وإنه اعتاد الكيل على ذلك فزادَ أو نقص أثبت التراجع إذا كان ذلك القدر من التفاوت مما يقع بين الكيلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ؛ أي إذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا في الْمَقَالَةِ. قِيْلَ: معناه: قولُوا الحقَّ إذا شهدتُم وحكمتُم ولو كان المشهودُ عليه أوْلِي قرابةٍ من الشاهد.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٦١ و٦٥ و٧٠. وأبو داود في السنن: كتاب الديات: باب الإمام يأمر بالعفو: الحديث (٤٥٠٢). والترمذي في الجامع: أبواب الفتن: الحديث (٢١٥٨) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ ؛ أي أتِمُّوا فرائضَ اللهِ التي أمرَكم بها، كما قالَ تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ ﴾[١]. ويقال: أرادَ بالعهدِ في هذه الآية: النَّذْرَ واليمينَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ أي في هذا الذي ذكَرَهُ اللهُ لكم وأمرَكم اللهُ به في الكتاب لكي تتَّعِظُوا فتَمتَنِعُوا عن الْمُحَرَّمَاتِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ ؛ في الجنَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ ؛ أي اعْتَقِدُوا حلالَ هذا الدينِ وحرامَه ومَأْمُورَهُ ومَنْهِيَّهُ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ ؛ أي ولا تَتَّبعُوا اليهوديَّةَ والنصرانيَّة وسائرَ مِلَلِ الكفرِ؛ فإنَّها سَبيلُ الشَّيْطانِ وهي طريقُ النَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي فَيُضِلُّكُمْ ذلك السُّبُلُ الذي تتَّبعونَه بهواكم عن دينِ الله الذي هو الإسلام، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي هذا الذي أمَرَكم اللهُ به في القُرآن، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ أي لِتَتَّقُوا السُّبُلَ المختلفةَ وتَسْتَقِيمُوا على الإِيْمان.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (هَذِهِ الثَّلاَثُ آيَاتٍ مِنَ الْمُحْكَمَاتِ؛ وَهُنَّ إمَامٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيْلِ وَالزَّبُور وَالْفُرْقَان؛ لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ فِي جَمِيْعِ الْكُتُبِ؛ وَهِيَ مُحَرَّمَاتٌ عَلَى بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ؛ وَهُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ؛ مَنْ عَمِلَ بهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وَمَنْ تَرَكَهُنَّ دَخَلَ النَّارَ)[٣]. قال كعبُ الأحبَار: (وَالَّذِي نَفْسُ كَعْبٍ بِيَدِهِ؛ إنَّ هَذِهِ لأَوَّلُ شَيْءٍ فِي التَّوْرَاةِ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ؛ قُلْ تَعَالَوْا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. إلَى آخِرِ الآيَاتِ الثَّلاَثِ)[٤].

---

(١) يس / ٦٠.

(٢) النحل / ٩١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٧) مختصراً، وفي الأثر (١١٠٢٤) عن ابن عباس وقال: ((أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ ؛ معناه: بل آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ. وَقِيْلَ: معنى (ثُمَّ) معنى العطفِ كأنه قال تعالى: أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ثم أتْلُ ما آتاهُ اللهُ موسى من التَّوراةِ. قولهُ: (تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) أي تَماماً للأحْسَنِ على الْمُحْسِنِيْنَ النَّبِيُّ موسَى الطَّيْلا أحدُهم.

ويقالُ: معناه: تَماماً على ما أحْسَنَ موسَى الطَّيْلا. وكان موسَى الطَّيْلا مُحْسِناً في معرفةِ العلمِ وكُتُب المتقدِّمين، فأعطيناهُ التوراةَ زيادةً على ذلك. و(تَمَاماً) نُصِبَ على القطعِ. وَقِيْلَ: على التَّفسيرِ. وقرأ ابنُ عمر: (عَلَى الَّذِي أحْسَنُ) بالرفعِ على معنى: على الذي هُوَ أحْسَنُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ أي تَتْميماً بالإحسانِ إليهم؛ وتَبْييْناً لكلِّ شيءٍ من الحلالِ والحرامِ؛ والهُدى من الضَّلالةِ؛ والنَّجاةَ من العذابِ لِمَنْ آمَنَ به وعَمِلَ بما فيه؛ لَعَلَّهُمْ بالبعثِ الذي فيه جزاءُ الأعمالِ يُقِرُّونَ وَيُصَدِّقُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ ؛ أي وَهَذا القُرْآنُ كتابٌ أنزلناهُ فيه بركةٌ وخير كثيرٌ لِمن آمَنَ به. ومعنى الْبَرَكَةِ: ثُبُوتُ الْخَيْرِ وديمومتهُ، ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ ؛ أي اقْتَدُوا به في أوامرِهِ ونواهيهِ، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ ، مخالفتَه وسُخْطَهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ لتكونوا على رَجاءِ الرَّحمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ ؛ أي كراهةَ أن يقولوا: إنَّما أنزلَ الكتابَ على طائفتين مِن قبلِنا؛ أرادَ به التوراةَ لليهودِ؛ والإنجيلَ للنصارى، ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ ؛ أي وقد كُنَّا عن قراءةِ كُتُبهِمْ التوراةِ والإنجيلِ لَغَافِلِيْنَ عمَّا فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: وما كُنَّا عن قراءةِ كتُبهم التوراةَ والإنجيل إلاَّ غافلين عمَّا فيهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي وكراهةَ أن يقولوا: لَوْ أنَّا أنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ كما أنْزلَ على اليهودِ والنصارى، لكُنَّا أسرعَ إجابةً منهم. وذلك: أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يقولُون: قاتلَ اللهُ اليهودَ؛ كيف كذبوا على أنبيائِهم، واللهِ لو جاءَنا نذيرٌ وكتابٌ لَكُنَّا أهْدَى منهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي القُرآنُ بَياناً ودلالةً من ربكم، ﴿ وَهُدًى ﴾ ؛ مِن الضَّلالة؛ ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ لِمن آمنَ به واتَّبعَهُ، رَحِمَ اللهُ بإنزالِه عبادَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي لا أجدُ أعتَى ولا أجْرأ على اللهِ مِمَّنْ كَذبَ بآيات اللهِ، ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ ؛ أي أعْرَضَ عنها، ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ؛ أي سَنُعَاقِبُ الذين يُعْرِضُونَ عن آياتِنا بأقبحِ العذاب وأشدِّه بإعراضِهم وتكذِيبهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ أي ما يَنْظُرُ أهلُ مكةَ بعد نزولِ الآيات وقيامِ الْحُجَجِ عليهم إلا إتيانَ مَلَكِ الموتِ وأعوانهِ لِقَبْضِ أرواحِهم؛ أي لَمْ يَبْقَ إلاَّ هذا. قولهُ: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ ؛ معناهُ: أو يَأْتِيَ أمرُ ربكَ بإهلاكِهم والانتقامِ منهم؛ إمَّا بعقابٍ عاجل أو بالقيامَةِ. وقولُهُ: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ؛ يعني طلوعَ الشَّمْسِ من مغربها.

قال الحسن: (أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبكَ الْحَاجَّة مِنَ التَّوْبَةِ)، قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [بَادِرُوا بالأَعْمَالِ سِتّاً: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ وَدَابَّةَ الأَرْضِ؛ وَخُرُوجَ الدَّجَّالِ؛ وَالدُّخَانَ؛ وَخُوَيْصَةَ أحَدِكُمْ - يَعْنِي مَوْتَهُ -، وَأمْرَ الْعَامَّةِ - يَعْنِي الْقِيَامَةَ][(١)].

وقال ﷺ: [بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِب مَسِيْرَةَ أرْبَعِيْنَ سَنَةٍ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى ذلِكَ الْبَاب يَدْعُو النَّاسَ إلَى التَّوْبَةِ، فَإذا أرَادَ اللهُ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْربهَا؛ طَلَعَتْ مِنْ ذلِكَ الْبَاب سَوْدَاءَ لاَ نُورَ لَهَا؛ فَتَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَيُغْلَقُ الْبَابُ وَتُرَدُّ التَّوْبَةُ، ثُمَّ تَرْجِعُ إلَى شَرْقِهَا لِتَطْلُعَ بَعْدَ ذلِكَ مِائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، إلاَّ

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٩٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وعبد بن حميد ومسلم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الفتن: الحديث (٨٦٢١)؛ وقال: ((قد احتج مسلم بعبدالله بن رباح، هذا حديث صحيح ولم يخرجاه)) ولقد وهم فيه الحاكم؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الفتن: باب في بقية من أحاديث الدجال: الحديث (١٢٨ و١٢٩/ ٢٩٤١).

أنَّهَا سَوْدَاءُ تَمُرُّ مَرّاً](١).

وعن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ رُفِعَ بِهَا إلَى السَّمَاءِ السَّابعَةِ فِي سُرْعَةِ طَيَرَان الْمَلاَئِكَةِ، وَتُحْبَسُ تَحتَ الْعَرْشِ، فَيُسْتَأْذَنُ مِنْ أيْنَ تَطْلُعُ؛ أمِنْ مَطْلَعِهَا أمْ مِنْ مَغْرِبهَا، وَكَذا الْقَمَرُ، فَلاَ يَزَالاَ كَذلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بالْوَقْتِ الَّذِي وَقَّتَهُ لِتَوْبَةِ عِبَادِهِ.

وَتَكْثُرُ الْمَعَاصِي فِي الأَرْضِ، وَيَذْهَبُ الْمَعْرُوفُ فَلاَ يَأْمُرُ بِهِ أحَدٌ، وَيَكْثُرُ الْمُنْكَرُ فَلاَ يَنْهَى عَنْهُ أحَدٌ، فَإذا فَعَلُوا ذلِكَ حُبِسَتِ الشَّمْسُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإذا مَضَى مِقْدَارُ لَيْلَةٍ سَجَدَتْ، وَاسْتَأْذَنتْ رَبَّهَا مِنْ أيْنَ تَطْلُعُ، فَلَمْ يَجِئْ لَهَا جَوَابٌ حَتَّى يُوَافِقَهَا الْقَمَرُ، فَيَسْجُدُ مَعَهَا؛ فَلاَ يَعْرِفُ مِقْدَارَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي الأَرْضِ؛ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ عِصَابَةٌ قَلِيْلَةٌ فِي هَوَانٍ مِنَ النَّاسِ.

فَيَنَامُ أحَدُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِثْلَ مَا يَنَامُ قَبْلَهَا مِنَ اللَّيَالِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَهَجَّدُ وِرْدَهُ؛ فَلاَ يُصْبحُ؛ فَيُنْكِرُ ذلِكَ، فَيَخْرُجُ وَيَنْظُرُ إلَى السَّمَاءِ؛ فَإذا هِيَ باللَّيْلِ مَكَانَهَا وَالنُّجُومُ مُسْتَدِيْرَةٌ، فَيُنْكِرُ ذلِكَ وَيَظُنُّ فِيْهِ الظُّنُونَ، فَيَقُولُ: خَفَّتْ قِرَاءَتِي؛ أوْ قَصُرَتْ صَلاَتِي؛ أمْ قُمْتُ قَبْلَ حِيْنٍ؟!

ثُمَّ يَقُومُ فَيَعُودُ إلَى مُصَلاَّهُ، فَيُصَلِّي نَحْوَ صَلاَتِهِ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ يَنْظُرُ؛ فَلاَ يَرَى الصُّبْحَ، فَيَخْرُجُ فَإذا هُوَ باللَّيْلِ كَمَا هُوَ، فَيُخَالِطُهُ الْخَوْفُ، ثُمَّ يَعُودُ وَجِلاً خَائِفاً إلَى مُصَلاَّهُ، فَيُصَلِّي مِثْلَ وِرْدِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى الصُّبْحَ؛ فَيَشْتَدُّ بِهِ الْخَوْفُ.

فَيَجْتَمِعُ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي فِي مَسَاجِدِهِمْ، وَيَجْأرُونَ إلَى اللهِ تَعَالَى بالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ. فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ عليه السلام إلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَيَقُولُ لَهُمَا: إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمَا أنْ تَرْجِعَا إلَى مَغَاربكُمَا فَتَطْلُعَا مِنْهُ، فَإنَّهُ لاَ ضَوْءَ لَكُمَا عِنْدَنَا وَلاَ نُورَ، فَيَبْكِيَانِ عِنْدَ ذلِكَ وَجَلاً مِنَ اللهِ بُكَاءً يَسْمَعُهُ أهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَأهْلُ سُرَادِقَاتِ الْعَرْشِ، ثُمَّ يَبْكِي مَنْ فِيْهِمَا مِنَ الْخَلاَئِقِ مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٠٨٥) بلفظ قريب وأسانيد.

فَبَيْنَمَا الْمُتَهَجِّدُونَ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ وَالْغَافِلُونَ فِي غَفَلاَتِهِمْ؛ إذا بالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَدْ طَلَعَتَا مِنَ الْمَغْرِبِ أسْوَدَانِ لاَ ضَوْءَ لِلشَّمْسِ وَلاَ نُورَ لِلْقَمَرِ كَصِفَتِهِمَا فِي كُسُوفِهِمَا، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(١)، فَيَرْتَفِعَانِ كَذلِكَ مِثْلَ الْبَعِيرَيْنِ يُنَازِعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اسْتِبَاقاً، فَيَتَصَارَخُ أهْلُ الدُّنْيَا حِيْنَئِذٍ وَيَبْكُونَ.

فَأَمَّا الصَّالِحُونَ فَيَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ، وَيُكْتَبُ لَهُمْ عِبَادَةً، وَأمَّا الْفَاسِقُونَ فَلاَ يَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَيُكْتَبُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً. فَإذا بَلَغَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ سُرَّةَ السَّمَاءِ وَمُنْتَصَفَهَا، جَاءَ جِبْرِيْلُ فَأَخَذَ بِقُرُونِهِمَا فَرَدَّهُمَا إلَى الْمَغْرِبِ؛ فَيَغْرُبَانِ فِي بَابِ التَّوْبَةِ].

فَقَالَ عُمَرُ: بِأَبِي وَأُمِّي أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا بَابُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: [يَا عُمَرُ؛ خَلَقَ اللهُ بَاباً لِلتَّوْبَةِ خَلْفَ الْمَغْرِبِ؛ لَهُ مِصْرَاعَانِ مِنْ ذهَبٍ؛ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعِ إلَى الْمِصْرَاعِ أرْبَعُونَ سَنَةً لِلرَّاكِبِ، فَذلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ خَلْقَهُ إلَى صَبِيْحَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَغْرِبِهِمَا، فَإذا غَرَبَا فِي ذلِكَ الْبَابِ رُدَّ الْمِصْرَاعَانِ وَالْتَأَمَ مَا بَيْنَهُمَا، فَيَصِيْرُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا صَدْعٌ. فَإذا أُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ لَمْ يُقْبَلْ لِلْعَبْدِ تَوْبَةٌ بَعْدَ ذلِكَ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ حَسَنَةٌ يَعْمَلُهَا إلاَّ مَنْ كَانَ قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِناً، فَإنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا كَانَ يَجْرِي قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ.

فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾، قَالَ السُّدِّيُّ: (لاَ يَنْفَعُ أحَداً فِعْلُ الإيْمَانِ وَلاَ فِعْلُ الْخَيْرِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، فَإنَّمَا يَنْفَعُ فِعْلُ هَذا قَبْلَ تِلْكَ الْحَال)(٢).

وَقِيْلَ: معنى (خَيْراً) إخلاَصاً؛ أي إذا لم تَكُنِ النفسُ مخلصةً قبل مجيءِ الآياتِ؛ لا ينفعُها الإخلاصُ بعدَ مجيءِ الآياتِ، ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ بالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بَعْدَ ذلِكَ؟ وَكَيْفَ بالنَّاسِ

---

(١) القيامة / ٩.

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٠). عن السدي يقول: (كسبت في تصديقها خيراً عملاً صالحاً، فهؤلاء أهل القبلة. وإن كانت مصدقة ولم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد ان رأت الآية لم يقبل منها. وإن عملت قبل الآية خيراً ثم عملت بعد الآية خيراً، قُبل منها).

وَالدُّنْيَا؟ فَقَالَ: [يَا أُبَيُّ؛ إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَكْبِتَان الضَّوْءَ بَعْدَ ذلِكَ، ثُمَّ يَطْلُعَان وَيَغْرُبَان كَمَا كَانَا قَبْلَ ذلِكَ يَطْلُعَان وَيَغْرُبَان. فإنَّ النَّاسَ رأوا ما رأوا في فظاعة تلك الآية، يلحون عَلَى الدُّنْيَا[1] حَتَّى تَجْرِي إلَيْهَا الأَنْهَارُ وَيَغْرِسُوا فِيهَا الأَشْجَارَ، وَيَبْنُوا فِيهَا الْبُنْيَانَ].

فقال حذيفةُ بن أسيدٍ والبراءُ بن عازبٍ: كُنَّا نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ إذْ أشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: [مَا تَتَذَاكَرُونَ؟] قُلْنَا: السَّاعَةَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [إنَّهَا لاَ تَقُومُ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ، وَنُزُولُ عِيسَى، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا][2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبهَا، فَإذا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ، آمَنُوا جَمِيْعاً، فَذلِكَ حِيْنَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ فِي إيْمَانِهَا خَيْرًا][3].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ ﴾؛ قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (فَارَقُوا) بالألفِ؛ أي خَرَجُوا من دينهم وتركوهُ؛ وهي قراءةُ عَلِيٍّ ﷺ[4]. وقرأ الباقونَ (فَرَّقُوا) بالتَّشديدِ بغيرِ ألفٍ؛ وهي قراءةُ ابنِ مسعُودٍ وابنِ عبَّاس وأُبَيِّ بن كعبٍ؛ أي جعلُوا دينَ الله فِرَقاً يتهوَّدُ قوم، ويَتَنَصَّرُ قومٌ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانُوا شِيَعًا) أي فِرَقاً مختلفةً.

وقال مجاهدُ: (أرَادَ بهِمُ الْيَهُودَ)[5] فإنَّهُمْ كَانُوا يُمَالِئُونَ الْمُشْرِكِيْنَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ. وقال قتادةُ: (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ

---

(١) في المخطوط: (وأما الناس على الدنيا) وملاحظ فيه الخلل، إذ فيه سقط. فضبط النص كما في تفسير الثعلبي: الكشف والبيان: ج ٤ ص٢٠٩.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٩٦-٣٩٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس عن النبي ﷺ... وذكره)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٥٦) وأصله في الصحيحين.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٢).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٥)، بأسانيد.

بَعْضاً)[١]. وعن أبي هريرة أنه قال: (هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلاَلَةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ بَعْضاً بِالْجَهَالَةِ)[٢].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾؛ أي فِرَقاً مختلفةً، والشِّيَعُ: جمع الشِّيْعَةِ؛ وهي الفِرْقَةُ التي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً؛ يقال: شَايَعَهُ على الأمرِ؛ إذا اتَّبعَهُ، وَقِيْلَ: أصلُ الشِّيَعِ الظُّهُورُ؛ يقال: شَاعَ الحديثُ يَشِيْعُ؛ إذا ظَهَرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾؛ أي لَسْتَ مِن مذاهبهم الباطلة في شيءٍ؛ أي أنتَ بَرِيْءٌ من جميعِ ذلك، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾؛ أي مصيرُهم ومُنْقَلَبُهُمْ إلى اللهِ، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾؛ ثم يجزيهم في الآخرةِ، ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾؛ أي بما كانوا يعملونَ في الدُّنيا، فَيَنْدَمُ الْمُبْطِلُ، ويَفْرَحُ الْمُحِقُّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾؛ أي مَن جاءَ بخَصْلَةٍ من الطاعاتِ فله عَشْرُ حسناتٍ، ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾؛ أي مَن جاءَ بخصْلَةٍ من المعصيةِ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾؛ بالزيادةِ على مقدار ما يستحقُّون من العقاب، وإنَّما قالَ ذلك لأنَّ الفضلَ بالنِّعَمِ جائزٌ، والابتداءُ بالعقاب لا يجوزُ. وقرأ الحسنُ وسعيدُ بن جبير ويعقوبُ: (فَلَهُ عَشْرٌ) بالتنوينِ (أمْثَالُهَا) بالرَّفعِ على معنى: فَلَهُ حسناتٌ عشرٌ أمثالُها.

وقد تكلَّمَ أهلُ العلمِ بالحسناتِ العَشْرِ التي وَعَدَ اللهُ في هذه الآيةِ؛ فقالَ بعضُهم: المرادُ بها التحديدُ بالعشرةِ. وقال بعضُهم: المرادُ بها التضعيفُ دونَ التَّحديدِ بالعشرةِ؛ كما يقولُ القائلُ: لإنْ أسديتَ إلَيَّ معروفاً لأُكَافِئَنَّكَ بعشرةِ أمثالهِ.

ثُمَّ اختلفُوا؛ فقالَ بعضُهم: هو كُلُّهُ بفضلٍ وثوابٍ غير ذلكَ؛ كأنهُ قال تعالى: مَنْ جَاءَ بالْحَسَنَةِ فلهُ عشرُ حسناتٍ من النِّعَمِ والسُّرورةِ زيادةً على ثواب حَسَنَتِهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٠٩١-١١٠٩٣). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٦٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة)).

قالُوا: ولا يجوزُ أن تُساوَى منْزلةُ التفضيل بمَنْزِلَةَ الثواب؛ لأن الثوابَ لا بُدَّ أن يُقارِنَهُ التعظيمُ والإجلالُ.

وقال بعضُهم: هذه الحسناتُ العَشْرُ تفضُّلٌ من اللهِ تعالى؛ قالوا: ويجوزُ أن يَتَفَضَّلَ على مَن لا يعملُ مِثْلَ ثواب العامل ابتذالاً منه؛ وتفضل في فعله على مَن لا يستحق عليه شيء.

وعن رسول اللهِ ﷺ: أنَّهُ [إذا حَسُنَ إسْلاَمُ أحَدِكُمْ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا يُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا؛ إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ؛ إلَى مَا شَاءَ اللهُ. وَكُلّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا؛ يُكْتَبُ لَهُ مِثْلُهَا إلَى أنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى](١).

وعن خُرَيْم بن فَاتِكٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[الأَعْمَالُ سِتَّةٌ: مُوجِبَتَان؛ وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ؛ وَحَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ؛ وَحَسَنَةٌ بِعَشْرٍ؛ وَحَسَنَةٌ بِسَبْعِمِائَةٍ. فَأمَّا الْمُوجِبَتَان؛ فَهُوَ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِاللهِ دَخَلَ النَّارَ. وَأمَّا مِثْلٌ بِمِثْلٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً؛ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. وَأمَّا حَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ؛ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ حَتَّى يُشْعِرَ بِهَا نَفْسَهُ وَيَعْلَمُهَا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ. وَأمَّا حَسَنَةٌ بِعَشْرٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا. وَأمَّا حَسَنَةٌ بِسَبْعِمِائَةٍ؛ فَالنَّفَقَةُ فِي سَبِيْلِ اللهِ](٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّني وَفَّقَنِي ربي وأرشدَنِي إلى دين الحقِّ الذي أدعُو الْخَلْقَ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ؛ أي دِيْناً هو غايةٌ في الاستقامة.

قرأ أهلُ الكوفةِ والشَّام: (قِيَماً) بكسر القاف وفتح الياء مخفَّفاً؛ فمعناهُ: المصدرُ؛ كالصِّغَرِ والكِبَرِ، ولم يقلْ: قَوْماً؛ لأنه مِن قولك: قَامَ يَقُومُ قِيَاماً وقِيَماً. وقرأ الباقونَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣١٧ من حديث أبي هريرة. ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٢٠٥/ ١٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٣) عن قتادة مرسلاً. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص٢٠٥: الحديث (٤١٥١)-(٤١٥٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: الحديث (٢٤٨٧).

بالتشديد. وتصديقُ التشديدِ: ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(١) ﴿وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٢). والقَيِّمُ: الْمُسْتَقِيْمُ. واختلفَ النُّحَاةُ في نصبهِ؛ فقال الأخفشُ: (هَدَانِي دِيْناً قَيِّماً). وَقِيْلَ: عرَّفَنِي ديناً. وَقِيْلَ: أعْنِي ديناً. وَقِيْلَ: انتصبَ على الإغراءِ؛ أي الْتَزِمُوا ديناً واتَّبعوا ديناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ ﴾؛ أي دينَ إبراهيم؛ وهو بدلٌ من قولـه (دِيْناً). وقولهُ (حَنِيْفاً) أي مَائلاً عن الشِّركِ وجميع الأديان الباطلة مَيْلاً لا رجوعَ فيـه، وهو نَصْبٌ على الحالِ؛ كأنه قال: عرَّفَنِي دينَ إبراهيم في حالِ حَنِيْفِيَّتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾؛ أي مـا كـانَ إبراهيـمُ عليه السلام علـى ديـنِ المشركين. وإنَّما أضافَ هذا الديـنَ إلى إبراهيـم؛ لأن إبراهيـمَ كـان مُعَظَّماً في عيُـونِ العرب، وفي قلوب سائرِ أهلِ الأديَانِ؛ إذ أهلُ كلِّ دينٍ يزعمـون أنَّـهم يُبَجِّلُـونَ ديـنَ إبراهيم عليه السلام.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾؛ أي قُـل لَـهم يـا مُحَمَّـدُ: إنَّ صلاتِـي بعـدَ الصَّلـواتِ الخمـسِ المفروضةِ؛ (وَنُسُكِي) أي طَاعَتِي، وأصلُ النُّسُكِ: كُلُّ مَا يُتَقَـرَّبُ بـهِ إلَـى اللهِ تَعَـالَى، ومنه قولُهم لِلْعَابدِ: نَاسِكٌ. وقال ابنُ جبير: (مَعْنَاهُ: (وَنُسُكِي) فِي الْحَجِّ وَالْعُمْـرَةِ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ). ويقالُ: أراد بالصلاةِ صلاةَ العِيْدِ، وبالنُّسُكِ الأضْحِيَةَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي) أي وَحَيَاتِي ومَوتِي للهِ رب الخلائـقِ كلِّـهم. وإنَّما أضافَ الْمَحْيَا والْمَمَـاتَ إلى الله وإن لم يكـن ذلـكَ مِمَّـا يُتَقـرَّبُ بـه إليـهِ؛ لأن الغرضَ بالآية التَّبَرُّئَ إلى اللهِ تعالى من كلِّ حَوْلٍ وقُوَّةٍ والإقرارَ له بالعبوديَّـة. وَقِيْـلَ: المرادُ بذلك أنَّ الله تعالى هو الْمُخْتَصُّ بأن يُحْيِيهِ ويُميتَهُ؛ لا شريكَ له في ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾؛ أي أمَرَنِي بذلك، ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾؛ أي أوَّلُ مَنِ استقامَ على الإيْمان من أهلِ هذا الزمان. قرأ أهـلُ المدينة: (وَمَحْيَايْ) بسكون الياء. وقـرأ البـاقون بفتحِـها كَيْـلاَ يجتمـعَ سَـاكِنَانِ. وقـرأ السلميُّ: (وَنُسْكِي) بإسكانِ السِّين.

---

(١) التوبة / ٣٦. (٢) البينة / ٥.

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ؛ أنَّهُ قَرَّبَ كَبْشاً أمْلَحَ أقْرَنَ؛ فقَالَ: [لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي للهِ رَب الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ] الآيَةُ، ثُمَّ ذبَحَ فَقَالَ: [شَعْرُهُ وَصُوفُهُ فِدَاءٌ لِشَعْرِي مِنَ النَّار، وَجِلْدُهُ فِدَاءٌ لِجِلْدِي مِنَ النَّار، وَعُرُوقُهُ فِدَاءٌ لِعُرُوقِي مِنَ النَّار] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَنِيئاً مَرِيئاً؛ هَذا لَكَ خَاصَّةً؟ فَقَالَ: [لاَ؛ بَلْ لأُمَّتِي عَامَّةً إلَى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أخْبَرَنِي بذلِكَ جِبْرِيْلُ عليه السلام عَنْ رَبي عَزَّ وَجَلَّ].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: أغَيْرَ اللهِ أطْلُبُ إلَهاً لِي ولكم (وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) أي هو مَالِكِي ومالِكُكم ومالكُ كلِّ شيء؛ فكيف أطلبُ النفعَ من مَرْبُوبٍ مثلي ومثلكُم، وأدَعُ سؤالَ ربي يَملكني ويَملككم؛ فهل يجوزُ هذا؟ وهل يحسنُ هذا؟ لا بُدَّ أن يكون جوابهُ: لاَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي لا تعملُ كلُّ نفسٍ طاعةً ولا معصيةً إلاَّ عَلَيْهَا. قال أهلُ الإشارةِ: ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ من خيرٍ أو شرٍّ إلاَّ عليها، أما الشَّرُّ فهو مأخوذٌ به، وأمَّا الخيرُ فهو مطلوبٌ منه صِحَّةُ قصدهِ وخُلُوِّهِ من الرِّياءِ والعُجْب والافتخار به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ أي ما تحملُ حاملةٌ ثقلَ أخرى، والمعنى: لا يحملُ أحداً ذنبَ غيرهِ، بل كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بجُرْمِهَا وعقوبةِ إثْمِهَا. والوزْرُ في اللغة: هُوَ الثِّقْلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي مصيرُكم ومُنقلَبُكُمْ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ أي فيجزيكم؛ ﴿ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ في دار الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي جعلكم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً في الأرض، والْخَلاَئِفُ: جمعُ الْخَلِيْفَةِ، وكلُّ قَرْنٍ خَلِيْفَةٌ للقرن الذين كانوا قبلَهم في الأرضِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ ؛ أي فضَّلَ بعضَكم في المال والمعاشِ والجاهِ؛ تقديرهُ: إلى دَرَجَاتٍ، ثم حُذفَ (إلى) وانتصبَ (دَرَجَاتٍ). ويقالُ: إنَّ الدرجاتِ مفعولٌ على تقدير: وَرَفَعَكُمْ درجاتٍ، كما يقال: كَسَوْتُ فلاناً ثوباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي لِيَخْتَبرَكُمْ فيما أعطاكُم؛ يختبرُ الغنيَّ بالفقير؛ والفقيرَ بالغنيِّ، فيظهرُ للناس شُكْرُ الشاكرين وصَبْرُ الصابرين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي إذا عَاقَبَ فإنهُ سريعُ العقاب مع أنه مَوْصُوفُ بالْحُلْمِ والإمهال؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. وَقِيْلَ: أراد بقوله: (سَرِيعُ الْعِقَاب) سريعَ الحساب. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ) أي غَفُورٌ لِمن تاب من الذنوب، (رَحِيمٌ) بمن ماتَ على التوبة. وقال عطاءُ: (سَرِيْعُ الْعِقَاب لأَعْدَائِهِ، غَفُورٌ رَحِيْمٌ لأَوْلِيَائِهِ)[١]. واللهُ أعلمُ.

آخر تفسير سورة (الأنعام) والحمد لله رب العالمين

تَمَّ الْجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْ تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ الْعَزِيْزِ[٢]

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٥٥.

(٢) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط: الورقة ص١٨٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ التَّوْفِيْقُ وَالإِعَانَةُ

سُورَةُ الأَعْـرَاف

سُورَةُ الأَعْرَافِ أرْبَعَةَ عَشَرَ ألْفَ حَرْفٍ وَثَلاثُمِائَةِ حَرْفٍ وَعَشْرَةُ أحْرُفٍ؛ وَثَلاثَةُ آلاَفِ كَلِمَةٍ وَثَلاثُمِائَةٍ وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً؛ وَمِائَتَانِ وَسِتُّ آيَاتٍ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: في قوله: (المص): (مَعْنَاهُ: أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأفْصِّلُ)[2]. وَقِيْلَ: اللاَّمُ افتتاح اسْمِهِ: لَطِيْفٌ؛ والميمُ افتتاح اسْمِه: مَجِيْدٌ وَمَالِكٌ؛ والصادُ افتتاح اسْمِه: صَمَدٌ وصَادِقُ الوَعْدِ وصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ.

وَقِيْلَ: هي حرفُ اسمِ الله الأعظم. وَقِيْلَ: هي حروفٌ تحوي معانٍ كثيرة. وموضعهُ رَفْعٌ بالابتداء، و(كِتَابٌ) خبرهُ؛ كأنه قالَ: المص حروفُ كتابٍ أنزلَ إلَيْكَ. وَقِيْلَ: (كِتَابٌ) خبرُ مبتدأ مضمرٍ؛ أي هَذا كتابٌ. وَقِيْلَ: رُفِعَ على التقديم والتأخير؛ يعني: أنزلَ إلَيْكَ كِتَابٌ؛ وهو القُرْآنُ.

قَوْلُهُ: (فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) أي فلا يَقَعْ في نفسِكَ شَكٌّ منه؛ خاطبَ به النبيَّ ﷺ وعنَى به الْخَلْقَ كلَّهم؛ أي لا تَرْتَابُوا وتَشُكُّوا. ويقالُ: الْحَرَجُ: الضِّيقُ؛ أي لا يَضِيْقُ صدرُكَ من تأدِيَةِ ما أرْسِلْتَ به، ولا تَخافَنَّ من إبلاغِ الرِّسالة، فإنكَ في

---

(١) أما أنها مكية؛ في الدر المنثور: ج ٣ ص٤١٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٢٨-١١١٢٩). وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣.

أمَان اللهِ؛ واللهُ يعصِمُكَ من الناسِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِتُنذِرَ) أي أُنْزِلَ إليكَ لِتُخوِّفَ (بِهِ) بالقُرْآنِ أهلَ مكة. (وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) أي وليكونَ عِظَةً لِمن اتَّبَعَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾؛ أي اعملوا بمَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبكُمْ. وحقيقةُ اتِّبَاعِ القُرْآنِ تصرفُ الناسِ تصريفَ القُرْآنِ لَهم وتدبُّرهم بتدبيرِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِيَاءَ) أي لا تَتَّخِذُوا من دونِهِ أوْثاناً، ولا تَتوَلَّوا أحداً إلا لِوَجْهِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾؛ أي قليلاً ما تَتَّعِظُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ ﴾ أي وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أهْلَكْنَا أهلَها بأنواعِ العذاب فَجاءَهَا بَأْسُنَا لَيْلاً. وسَمَّى الليلَ بَيَاتاً؛ لأنه بَيَاتٌ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ هُمْ قَائِلُونَ) أي وقتَ الظَّهيرةِ؛ يعني نهاراً في وقتِ القَائِلَةِ. و(قَائِلُونَ): نائِمُونَ وقتَ الْهَاجِرَةِ.

وإنَّما خصَّ هذين الوقتين بنُزول العذاب؛ لأنهما من أوقاتِ الرَّاحة. وَقِيلَ: من أوقاتِ الغَفْلَةِ. ومجيءُ العذاب في حَالِ الراحة أغلظُ وأشدُّ؛ أهلكَ اللهُ قوم شُعَيْبٍ في نِصْفِ النهار، وفي حَرٍّ شديدٍ وهم قَائِلُونَ. وفائدةُ هذه الآية: التهديدُ والوعيد على معنى: إنْ لَمْ تَتَّعِظُوا أتَاكُمُ العذابُ ليلاً أو نهاراً كما أتَى الأوَّلِين الذين لم يَتَّعِظُوا.

ثم أخبرَ جَلَّ ذِكْرُهُ عن حال مَن أتاهم العذابُ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ ﴾؛ معناهُ: لم يكن قولُهم ودعاؤُهم حين جاءَهم عذابُنا إلا الاعترافَ بالظلم والشِّركِ؛ أي اعْتَبِرُوا بهم؛ فكما لم ينفعهُم تضرُّعهم عند رؤيةِ البَأسِ؛ كذلك لا ينفعُكم إذا جاءكم العذابُ تضرُّعُكم.

قال سِيْبَوَيْهِ: (إنَّ الدَّعْوَى تَصْلُحُ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ، وَيَجُوزُ أنْ يُقَالَ: اللَّهُمَّ أشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دَعْوَى الْمُسْلِمِيْنَ وَدُعَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ)(١). فإن قِيلَ: إنَّ الهلاكَ يكون

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦٣؛ نقله القرطبي عن النحويين. وفي اللباب: ج ٩ ص١٨؛ قال الحنبلي: ((حكاه الخليل)).

بعد البأس؛ فكيفَ قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾[(١)] ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾[(٢)] ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾؟ قِيلَ: إنَّهما يَقعَان معاً كما يقالُ: أعطيتَني فأحسنتَ. ويجوزُ أن يكون التقديرُ: أهْلَكْنَاهَا في حُكْمِنَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ إخبار عن حالهم يوم القيامة. ودخول الفاء أوّلَ في هذه الآية لتقريب ما بين الْهَلاك وسؤال يوم القيامة. والمعنى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أرْسِلَ إلَيْهِمْ: هل بلَّغتكُم الرسلُ الرسالةَ؟ وماذا أجبتُموهم؟ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ: هل بَلَّغْتُمْ قومَكم ما أرسلتُم به؟ وماذا أجابُوكم؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي لَنجْزيَنَّهُمْ بما عملوا بعِلْمٍ منَّا؛ معناهُ: إنَّا لَنسْألُهُمْ لِنَعْلَمَ أنَّ ما نسألُهم لإقامةِ الحجَّة عليهم. قَوْلُهُ: (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) معناهُ: إنَّا كُنَّا عالِمين بكلِّ شيءٍ من تبليغِ الرِّسالةِ وجواب الأُمَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي وَزْنُ الأعمال يومَ القيامة الحقُّ؛ فلا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ؛ ولا يُزَادُ على إساءَةِ مُسِيْءٍ. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَالْقَضَاءُ يَوْمَئِذٍ الْعَدْلُ)[(٣)].

قولُهُ: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ على سيِّئاتهِ فأولئكَ همُ الظَّافِرُونَ بالمرادِ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ على حسناته، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ عَمَوا حَظَّ أنفسِهم، ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي بما كانوا بمُحَمَّدٍ ﷺ يَجْحَدُونَ. فَالْخُسْرَانُ: ذهَابُ رَأسِ الْمَالِ؛ ورأسُ مالِ الإنسان نفسُه؛ فإذا هَلَكَ بسوءِ عمله فقد خَسِرَ نفسَه.

---

(١) الكهف / ٥٩.

(٢) الأنبياء / ٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٤٢ و١١١٤٣).

وقد تكلَّموا في ذِكْرِ الموازين يومَ القيامة؛ قال ابنُ عبَّاس: (تُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فِي مِيزَانٍ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ تُوضَعُ فِيهِ أعْمَالُهُمْ، فَأمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيزَانِ؛ فَتَثْقُلُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ؛ فَيُوضَعُ عَمَلُهُ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ مَنَازِلِهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إلْحَقْ بعَمَلِكَ؛ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَعْرِفُهَا بعَمَلِهِ.

وَأمَّا الْكَافِرُ؛ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ؛ فَيَخِفُّ - وَالْبَاطِلُ خَفِيْفٌ - ثُمَّ يُرْفَعُ فَيُوضَعُ فِي النَّار، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إلْحَقْ بعَمَلِكَ؛ فَيَلْحَقُ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي النَّار)(١).

وَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بالعملِ في هذا الخبرِ أنَّ الله يجعلُ للحسناتِ صورةً حسَنةً؛ وللسيِّئاتِ صورةً قبيحةً، إلاَّ أن عَيْنَ الأعمالِ تُوزَنُ؛ لأنَّ الأعمال أعراضٌ مُنْقَضِيَةٌ لا تُعَادُ. وقال ابنُ عمر: (يُؤْتَى بصُحُفِ الطَّاعَاتِ وَصُحُفِ الْمَعَاصِي، فَتُوزَنُ الصُّحُفُ).

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [يُؤْتَى بالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى الْمِيْزَانِ، ثُمَّ يُؤْتَى بتِسْعَةٍ وَتِسْعِيْنَ سِجِلاًّ؛ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدَّ الْبَصَرِ؛ فِيْهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ؛ فَتُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ، ثُمَّ تُخْرَجُ بطَاقَةٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ بمِقْدَار الأنْمُلَةِ؛ فِيْهَا شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ فَتُوضَعُ فِي الْكِفَّةِ الأُخْرَى. فَيَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَب؛ مَا تَزِنُ هَذِهِ الْبطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ الصَّحَائِفِ؟! فَيَأْمُرُ اللهُ أنْ تُوضَعَ؛ فَإذا وُضِعَتْ فِي الْكِفَّةِ طَاشَتِ الصُّحُفُ وَرَجَحَتِ الْبطَاقَةُ](٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس)). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في حشر الناس: الحديث (٢٨٢)؛ قال: ((ذهب أهل التفسير إلى إثبات الميزان بكفتيه، وجاء في الأخبار ما يدل عليه. وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٤٩). ورواه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٣٠٠) عن عبدالله بن عمر. والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٨٣).

وقال بعضُهم: يُوزَنُ الإنسانُ، كما قال ﷺ: [يُؤْتَى بالرَّجُلِ الأَكُولِ الشَّرُوب الْعَظِيْمِ فَيُوزَنُ؛ فَلاَ يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ إقْرَأوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾](١).

وأما ذِكْرُ الموازين بلفظ الجماعة؛ فلأنَّ الميزانَ يشتملُ على الكفَّتين والخيوطِ والشاهدين(٢). فإن قِيْلَ: ما الحكمةُ في وزن الأعمال، واللهُ قادرٌ عالِمٌ بمقدار كلِّ شيء قبلَ خَلْقِهِ إيَّاهُ وبعدَه؟ قِيْلَ: لإقامةِ الحجَّة عليهم، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) فأخبرَ بنسخِ الأعمال وإثباتِها مع عِلْمِهِ بها لِما ذكرنا. وَقِيْلَ: الحكمةُ فيه تعريفِ الله العبادَ ما لَهم عندهُ من جزاءٍ على الخيرِ والشرِّ. وَقِيْلَ: جعلهُ الله علامةً للسعادة والشقاوةِ. وَقِيْلَ: لامتحان الله عبادَهُ بالإيْمان به في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ ؛ أي مَكَّنَّاكُمْ بالتمليكِ والإقرار ودفع الموانع، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِي الأرضِ مَعَايشَ؛ وهو ما تَعِيْشُونَ به من الرِّزْقِ؛ وهو ما يخرجُ من الأرضِ من الحبُوب والأشجار والثِّمار. وَقِيْلَ: معنى (الْمَعَايشَ): التواصل إلى ما يُعَاشُ به مِن الحراثة والتجارة، وأنواعِ الْحِرَفِ والزراعات. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي شُكْرُكُمْ فيما صُنِعَ إليكم قليلٌ. وَقِيْلَ: معنى قوله: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) أي تَعِيشُونَ بها أيَّامَ حياتِكم من الْمَآكِلِ والمشارب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ؛ أي خَلَقْنَا آدمَ الذي هو أصلُ خِلْقَتِكُمْ، ثم صوَّرناهُ إنساناً، ﴿ ثُمَّ قُلْنَا ﴾ ؛ من بعدِ خَلْقِهِ من الترابِ وتصويرِهِ؛ ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ ؛ الذين كانوا في الأرضِ مع إبليس: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ؛ سجدةَ تَحِيَّةٍ؛ ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ ؛ المأمورونَ؛ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ لآدمَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب (٦): الحديث (٤٨٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: [إنَّهُ لَيَأتِي الرَّجُلُ...]. ومسلم في الصحيح: كتاب صفة القيامة: الحديث (١٨/ ٢٧٨٥).

(٢) في المخطوط: (والساهين).

(٣) الجاثية / ٢٩.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: ولقد خلقناكُم في بطونِ أمَّهاتِكم نُطَفاً؛ ثم علقاً؛ ثم مُضَغاً؛ ثم عِظَاماً؛ ثم لَحماً، ثم صوَّرناكُم: الحسَنَ والذميمَ؛ والطويلَ والقصيرَ، وصوَّرنا لكُم عُضْواً من العينِ والأنفِ والأُذنِ واليَدِ والرِّجْلِ وأشباهِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) قال الأخفشُ: ((ثُمَّ) هَا هُنَا فِي مَعْنَى الْوَاو)[١] أيْ وقُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ الآنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى للملائكةِ: (اسْجُدُوا لآدَمَ) قَبْلَ خَلْقِنَا وَتَصْوِيْرِنَا.

وأنكرَ الخليلُ وسيبويه أن تكونَ (ثُمَّ) بمعنى (الواو)، ولكن تكونُ للتراخِي. ويجوزُ أن يكونَ معنى (ثُمَّ) ها هنا التَّراخِي من حيثُ الإخبارُ دون تَرَادُفِ الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ؛ أي مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ، و(لاَ) زائدةٌ في الكلام كما في قولهِ تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[٢] أي لِيَعْلَمَ أهلُ الكتاب. وَقِيْلَ: معناهُ: ما دَعَاكَ إلى أنْ لا تَسْجُدَ، وقد عَلِمَ اللهُ ما مَنَعَهُ من السجود، ولكن مسألتُهُ إياه تَوْبِيْخٌ لهُ وإظهارٌ أنه مُعَانِدٌ رَكِبَ المعصيةَ. وعن يَحيَى بن ثعلب أنه قال: (كَانَ بَعْضُهُمْ يَكْرَهُ أنْ لاَ وَيَقُولُ: تَقْدِيْرُهُ: مَنْ قَالَ لَكَ لاَ تَسْجُدْ؟).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ ليسَ هذا الجوابُ عمَّا سألَهُ تعالى من جهةِ اللفظ؛ لأن هذا الجوابَ جوابُ: أيُّكما خيْرٌ؟ إلاَّ أن هذا جوابٌ من جهةِ المعنى، فإن معناهُ: إنَّما مَنَعَنِي من السجودِ له إلا أنِّي كنتُ أفضلَ منه.

وكان هذا القولُ من اللَّعِينِ تَجْهِيْلاً منهُ بخَالِقِهِ؛ كأن قالَ: إنَّكَ فضَّلْتَ الظُّلْمَةَ على النُّور وليسَ ذلكَ من الحكمةِ. فأعلَمَ اللهُ تعالى أنهُ صَاغِرٌ بهذا القول، وليس الأمرُ على ما قاله الْمَلْعُونُ؛ لأنهُ رأى أنَّ جوهرَ النار أفضلُ من جوهرِ الطِّين في المنفعةِ، وليس كذلكَ لأن عَامَّةَ الثِّمار والحبوب والفواكه من الطِّين، وكذلكَ الملابسُ كلُّها لا تخرجُ إلا من الطِّين، وعمارةُ الأرضِ من الطين، وهو موضعُ القَرَار عليهِ لا

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٩٤.

(٢) الحديد / ٢٩.

استغناءَ عنهُ في حالٍ من الأحوال. وأما النَّارُ فهي لِلْخَرَاب، وإنْ كان فيها بعضُ المنافعِ.

قال ابنُ عبَّاس: (أوَّلُ مَنْ قَاسَ فَأَخْطَأَ الْقِيَاسَ إبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، فَمَنْ قَاسَ الدِّيْنَ بِتَبعٍ مِنْ رَأيِهِ قَرَنَهُ اللهُ مَعَ إبْلِيسَ)(١). وكان قياسُ إبليسَ أنه قال: النارُ خيرٌ وأفضلُ وأصفى وأنورَ من الطِّين. وقال ابنُ سيرين: (أوَّلُ مَنْ قَاسَ إبْلِيْسُ، وَمَا عُبدتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إلاَّ بالْمَقَاييْس)(٢).

وَقَدْ أخْطَأَ عَدُوُّ اللهِ حِيْنَ فَضَّلَ النَّارَ عَلَى الطِّيْنِ، بَلِ الطِّيْنُ أفْضَلُ مِنَ النَّار مِنْ وُجُوهٍ كَثِيْرَةٍ؛ أحْسَنُهَا(٣): إنَّ جَوْهَرَ الطِّيْنِ السُّكُونُ وَالْوَقَارُ وَالْحَيَاءُ وَالصَّبْرُ وَالْحُلْمُ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لآدَمَ بَعْدَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إلَى التَّوْبَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَأَوْرَثَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالاجْتِبَاءَ وَالْهِدَايَةَ وَالتَّوْبَةَ. وَمِنْ جَوْهَرِ النَّار الْخِفَّةُ والطَّيْشُ وَالْحِدَّةُ وَالارْتِفَاعُ وَالاضْطِرَابُ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لإبْلِيسَ بَعْدَ الشَّقَاوَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إلَى الاسْتِكْبَار وَالإصْرَار، فَأَوْرَثَهُ الْعَذابَ وَالْهَلاَكَ وَاللَّعْنَةَ وَالشَّقَاءَ.

وَالثَّانِي: أنَّ الطِّيْنَ سَبَبٌ لِجَمْعِ الأَشْيَاءِ، وَالنَّارُ سَبَبٌ لِتَفَرُّقِهَا. وَالثَّالِثُ: أنَّ الْخَبَرَ نَاطِقٌ بِأَنَّ تُرَابَ الْجَنَّةِ مِسْكٌ أذفَرُ(٤)، وَلَمْ يَنْطِقِ الْخَبَرُ أنَّ فِي الْجَنَّةِ نَاراً وَفِي النَّار تراباً. وَالرَّابعُ: أنَّ النَّارَ سَبَبُ عذاب اللهِ تَعَالَى لأَعْدَائِهِ، وَلَيْسَ التُّرَابُ لِلْعَذاب. وَالْخَامِسُ: أنَّ التُّرَابَ مُسْتَغْنٍ عَنِ النَّار، وَالنَّارُ تَخْرُجُ إلَى الْمَكَانِ وَمَكَانُهَا التُّرَابُ).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٢٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر ابن محمَّد عن جده: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [أوَّلُ مَنْ قَاسَ أمْرَ الدِّين برَأيِهِ إبْلِيسُ، قَالَ اللهُ لَهُ: اسْجُدْ لآدَمَ، فَقَالَ: ﴿أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾] قال جعفرُ: فمَن قاسَ أمرَ الدين برأيِهِ قرنَهُ اللهُ تعالى يوم القيامة بإبليسَ لأنه اتَّبعَهُ بالقياسِ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٦١).

(٣) في المخطوط: (أخسُّها).

(٤) الذَفَرُ، وَالدَّفَرُ: شدَّة ذكاءِ الريح من طيبٍ أو نتن، وفي صفة الحوض: وطينهُ مسكٌ أذفرُ؛ أي طيِّبُ الريحِ. لسان العرب: (ذفر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ؛ أي من الجنَّةِ. وَقِيْلَ: من السَّماءِ إلى الأرضِ، فإنَّ السَّماءَ ليس بموضعٍ للمتكبرينَ. وَقِيْلَ: معناهُ: فَاهْبِطْ من الأرضِ؛ أي اخْرُجْ منها وَالْحَقْ بجَزَائِرِ البحار، فإنَّما تسلط بهِ في الجزائرِ فلا تدخلُ الأرضَ إلا كهيئةِ السَّارقِ عليه أطمار يروعُ فيها، حتى يخرجَ من الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ ؛ أي ليسَ لكَ أن تتعظَّمَ في الأرضِ على بَنِي آدمَ، ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي مِنَ الأذِلاَّءِ. والصَّغَارُ هُوَ الذُّلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي قال إبليسُ حين خَشِيَ أن يُعَاجِلَهُ اللهُ بالعقوبةِ: أمْهِلْنِي وأخِّرْ جزائي إلى يومِ يُبْعَثُونَ مِن قبورهم؛ وهيَ النفخَةُ الأخيرةُ عندَ قيامِ السَّاعةِ. أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي المؤخَّرينَ المؤجَّلينَ إلى يومِ الوقت المعلومِ؛ وهي النفخةُ الأُولى عند موتِ الْخَلْقِ كلِّهم.

وهذا ليسَ بإجابةٍ إلى ما سَأَلَ؛ لأنه سَأَلَ اللهَ الإمهالَ إلى النفخةِ الثانيةِ، فأبَى اللهُ أن يُعْطِيَهُ ذلكَ، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[1] يعني إلى النفخةِ الأُولى يَموتُ حينئذٍ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، ويَموتُ إبليسُ معهم. وبين النفخةِ الأُولى والثانيةِ أربعينَ سنةً.

واختلفُوا في أنَّ اللهَ تعالى هل يُجِيْبُ دعوةَ الكافرِ أم لا؟ قال بعضُهم: لا يجيبُ؛ لأنَّ إجابةَ الدُّعاءِ تكون تَعْظِيماً للدَّاعِي؛ ولِهذا يرجُو الإنسانُ أنه مُجَابُ الدَّعوةِ، ولا يُحْسَنُ مِن اللهِ تعالى أن يُعْلِمَ أحداً مدَّةَ حياتهِ لِمَا في ذلك من الإغراءِ بالمَعَاصِي. وكيفَ يجوزُ أن يُجِيْبَ اللهُ تعالى إبليسَ إلى مَا سألَ، ولم يكن سُؤَالُهُ على جهةِ التَّضَرُّعِ والْخُشُوعِ والرَّغبةِ إلى اللهِ، وإنَّما سألَ لِيُغْوِي الناسَ ويُضِلَّهُمْ. وقال بعضُهم: يجوزُ إجابةُ دعاءِ الكافر استدراجاً واسْتِضْلالاً لَهُ ولغيرِهِ، ولا تكونُ إجابةُ الكافرِ تعظيماً له بحَالٍ أبداً.

---

(١) الحجر / ٣٧-٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ ؛ أي فبمَا أضْلَلْتَنِي عن الْهُدَى، ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي لأَرْصُدَنَّ على طريقِ بَنِي آدمَ، وأصُدَّهُمْ عن دِيْنِكَ المستقيم. وقال الحسنُ: (مَعْنَى: (أغْوَيْتَنِي) لَعَنْتَنِي). وَقِيْلَ: (أغْوَيْتَنِي) خَيَّبْتَنِي، وقد يكونُ الغوَى بمعنى الْخَيْبَةِ. وَقِيْلَ: (أغْوَيْتَنِي) أي أهْلَكْتَنِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ إبْلِيسَ قَالَ: لآتِيَنَّهُمْ مِنْ قِبَلِ آخِرَتِهِمْ؛ فَلأُخْبِرَنَّهُمْ أنَّهُ لاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ، وَلاَ بَعْثَ وَلاَ حِسَابَ)[1]. ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ؛ أي مِنْ قِبَلِ دُنياهم؛ فَلآمُرَنَّهُمْ بجَمْعِ المالِ مخافةَ الفقرِ وأن لا يؤدوا حقَّهُ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن قِبَلِ دِينهم فَأُبَيِّنَ لَهم ضَلالَتَهُم، وإنْ كانُوا على هُدَى شَبَّهْتُهُ عليهم حتى أخرجَهم منهُ، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن قِبَلِ اللَّذاتِ والشَّهواتِ فأُزَيِّنُهَا لَهم، ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لِنِعْمَتِكَ.

وقال السُّدِّيُّ: (مَعْنَى: (ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ) أرَادَ الدُّنْيَا أغْوِيْهِمْ إلَيْهَا[2]، (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) فمِنَ الآخِرَةِ أشَكِّكُهُمْ فِيهَا وأبعِدُها عَلَيهِم، (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ) قَالَ: الْحَقُّ أشَكِّكُهُمْ فِيْهِ، (وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) قالَ: الْبَاطِلُ أخْفِيْهِ عَلَيْهِمْ وَأرَغِّبُهُمْ فِيْهِ)[3].

وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ) مِن جهةِ الحسنات أغْفَلَهُمْ عنها، (وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) يعني من جهةِ السيِّئات، فإنَّ الحسناتِ تُضاف إلى اليمين، والسيِّئاتِ تُضاف إلى الشمال. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: ثم لأَحْتَالَنَّ في إغوائِهم مِن كلِّ وجهٍ. قال قتادةُ: (أتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، غَيْرَ أنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ رَبكَ، إنَّمَا تَأْتِيْكَ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوْقِكَ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٤ و١١١٧٥) ولفظه قريب للفظ قتادة.

(٢) عند الطبري: (أدعوهم إليها).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٥)، وفيه: (غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع...).

وقال شقيقُ بنُ إبراهيمَ: (مَا مِنْ صَبَاحٍ إلاَّ قَعَدَ لِي الشَّيْطَانُ عَلَى أرْبَعَةِ مَرَاصِدَ: مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِيْنِي، وَعَنْ شِمَالِي. أمَّا مَا بَيْنَ يَدَيَّ؛ فَيَقُولُ لِي: لاَ تَحْزَنْ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيْمٌ، فَأقُولُ: ذلِكَ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى.

وَأمَّا مِنْ خَلْفِي؛ فَيُخَوِّفُنِي الضَّيْعَةَ عَلَى ذُرِّيَّتِي وَمَنْ خَلْفِي، فَأقُولُ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا. وأمَّا مِنْ قِبَلِ يَمِيْنِي؛ فَيَأْتِيْنِي مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ، فَأقُولُ: وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. وأمَّا مِنْ قِبَلِ شِمَالِي؛ فَيَأْتِيْنِي مِنَ اللَّذاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَأقُولُ: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

وإنَّما ذكرَ (مِنْ) في قولِهِ: (مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) وذكرَ (عَنْ) في قولِهِ: (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) لأن القدَّامَ والخلفَ يكونُ لابتداءِ الغاية، والغايةُ تذكرُ بحرفِ (مِنْ). وأمَّا جهةُ اليمينِ والشمال فإنَّها تكونُ للانحرافِ، فذكرَها بـ (عَنْ).

فإن قِيْلَ: مِن أينَ عَلِمَ إبليسُ أنه لا يكونُ أكثرُهم شاكرينَ؛ أي أكْثَرُ الناس شاكرينَ؟ قِيْلَ: إنَّهُ ظَنَّ بهم ظنّاً، فوافقَ ظَنُّهُ مَظْنُونَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[1]. وإنَّما ظَنَّ ذلكَ؛ لأنه لَمَّا تَمكَّنَ من استِزْلاَلِ آدمَ وحوَّاءَ؛ عَلِمَ أنَّ أولادَهما أضعفُ منهما، فيكون تَمكُّنُهُ منهم أكثرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ؛ أي أخْرُجْ من الجنَّةِ. وَقِيْلَ: من السَّماءِ، (مَذْءُومًا) أي مَذؤُماً مَعِيباً، والذامُ والذَّيْمُ: شِدَّةُ الْعَيْب، يقال: ذامَتِ الرَّجُلَ ذوْمَةً وَذامَةً؛ إذا عِبْتَهُ وَذِمْتُهُ. قولُهُ: (مَدْحُورًا) أي مُبعداً من الخيرِ والرحمة. والدَّحْرُ: الدَّفْعُ على وجهِ الْهَوَانِ وَالذُّلِّ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: (مَذْءُومًا) مَمْقُوتاً[2]. وقال مجاهدُ: (مَذْءُومًا) صَاغِراً. وقال أبُو العاليةِ: (مَذْءُومًا) أي مُزْدَراً. وقال عطاءُ: (مَذْءُومًا) أيْ مَلْعُوناً. وقال الكسائيُّ: (الْمَذْمُومُ: الْمَقْبُوحُ).

---

(١) سبأ / ٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٨٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ واللاَّمُ في قولِهِ: (لَمَنْ) لامُ القَسَمِ دخلَتْ على لفظِ الشَّرطِ والجزاء بمعنى التأكيدِ والمبالَغةِ؛ كأنهُ قال تَعَالَى: مَنْ تَبعَكَ لأُبالِغَنَّ في تعذيبِهِ عذاباً شَديداً، كذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (لأَمْلأَنَّ جَهنَّمَ مِنكُمْ اجْمَعِينَ) اي مِنْكَ ومِن ذُرِّيَّتِكَ ومن كفَّار ذُرِّيَّةِ آدمَ عليه السلام.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾؛ اي اسْكُنْ أنتَ وزوجَتُكَ الجنَّةَ؛ لأن الإضافةَ إليه دليلٌ على ذلكَ، وحذفُ التاءِ أحسنُ؛ لِما فيه من الإيجاز من غيرِ إخلالٍ بالمعنى. وأمَّا الجنَّةُ التي أسْكَنَهُمَا اللهُ فيها؛ فهي جَنَّةُ الْخُلْدِ في أكثرِ أقوال أهلِ العلمِ، بخلاف ما يقولهُ بعضُهم: إنَّهَا كَانَتْ بُسْتاناً في السَّماءِ غيرَ جنَّةِ الْخُلْدِ. وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى عَرَّفَ الجنَّةَ بالألفِ واللام على جهةِ التَّشريفِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾؛ اي مِن ايِّ شيءٍ شِئْتُما مُوسِعاً عليكُمـا، ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ يجوزُ أن يكونَ منصوباً؛ لأنَّهُ جوابُ النَّهيِ، ويجوزُ أن يكون مَجْزُوماً عَطْفاً على النَّهيِ، ومعناهُ: فتكونا من الضَّارِّيْنَ أنفسَكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾؛ اي زَيَّنَ لَهم الشيطانُ الأكلَ من الشجرةِ؛ لِيُظْهِرَ لهما ما سُتِرَ من عَوْراتِهما. والْوَسْوَسَةُ: إلْقَاءُ الْمَعْنَى إلَى النَّفْسِ بصَوْتٍ خَفِيٍّ. والفرقُ بينَ وَسْوَسَ لهُ ووَسْوَسَ إليهِ: أنَّ معنى وَسْوَسَ لَهُ: أوْهَمَهُ، ومعنى وَسْوَسَ إليهِ: ألْقَى إلَيْهِ.

وإنَّما سُميت العورةُ سَوْأةً؛ لأنه يَسُوءُ الإنسانَ انكِشافُها. قَوْلُهُ تَعَـالَى: (إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ) قرأ بعضُهم: (مَلِكَيْنِ) بكسر اللاَّمِ، ومعناهُ: إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ تَعْلَمَانِ الخيرَ والشَّرَّ، وإن لم تكونا ملكين تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ لا تموتان[١].

---

(١) أدرج الناسخ عبارة الواحدي في المتن سهواً. لأن الواحدي هو علي بن أحمد الواحدي صاحب التفسير، توفي سنة (٤٦٨ هـ). والعبارة لا تنسجم والصياغة: (وقال في وسيطِ الواحديُّ:=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ؛ أي لا تموتـان فتفْنَيـان أبَداً، فذلك قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـاآدَمُ هَـلْ أَدُلُّـكَ عَلَـى شَـجَرَةِ الْخُلْدِ﴾[١] أي على شَجَرَةٍ مَن أكلَ منها لَمْ يَمُتْ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ أي جديدٌ لا يَفْنَى. وعلى قراءةِ مَن قرأ (مَلِكَيْن) بكسرِ اللاَّمِ[٢] استدلالاً لهُ بقولهِ تعـالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾.

قِيْلَ: كيفَ أوهَمَهُما أنَّهما إذا أكَلاَ مـن تلـكَ الشـجرةِ تغـيَّرت صورتُـهما إلى صورةِ الْمَلَكِ، أو يزدادُ في حياتِهما؟ قِيْلَ: أوْهَمَهُمَا أنَّ مـن حكمـةِ اللهِ أن مَـن أكَـلَ منها صارَ مَلَكاً أو ليزيدَ حياتَهُ. وقِيْلَ: إنَّهُ لم يُطْمِعْهُمَا في أن تصيرَ صورتُهما كصـورةِ الْمَلَكِ، وإنَّما أطْمَعْهُمَا في أن تصيرَ مَنْزِلَتُهُمَا مَنْزلَةَ الْمَلَكِ في العُلُوِّ والرِّفْعَةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي حَلَفَ لَهُما إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فيما أقولُ. وإنَّما قالَ: (وَقَاسَـمَهُمَا) علـى لفـظ الْمُفَاعَلَةِ؛ لأنهُ قَابَلَهُمَا بالحلفِ، وهذا كما يقالُ: عَاقَبْتُ اللِّصَّ؛ ونَاوَلْتُ الرَّجُلَ.

قال قتادةُ: (حَلَفَ لَهُمَا حَتَّى خَدَعَهُمَا، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ باللهِ تَعَـالَى، وَقَـالَ لَهُمَا: إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا، وَأنَا أعْلَمُ مِنْكُمَا، فَاتَّبعَانِي أرْشِدْكُمَا). وكان بعضُ العلمـاءِ يقولُ: (مَنْ خَادَعَنَا باللهِ خَدَعَنَا)[٣]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيـمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَئِيمٌ][٤].

=(مَعْنَاهُ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلا أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ لاَ تَمُوتَانِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا لاَ تَمُوتُ الْمَلاَئِكَةُ).

(١) طه / ١٢٠.

(٢) قراءة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٩٣) عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٩٥).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١٩ ص٧٧: الحديث (١٦٦) وفيه يوسف بن سفر: متهم بالكذب. ومن طريق آخر أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٣ ص١١٠: ترجمة الحجاج بن الغرافصة عن أبي هريرة. وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٤٧٩٠). والترمذي في الجامع: أبواب البر: الحديث (١٩٦٤)؛ وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده حسن مع أن في إسناده بشر بن رافع: ضعيف في الحديث.

وأنشد نفطويه بعضُهم:

إنَّ الْكَرِيْمَ إذا تَشَاءُ خَدَعْتَهُ وَتَرَى اللَّئِيْمَ مُجَرِّباً لاَ يُخْدَعُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ ؛ أي حَدَرَهُمَا من أعلَى إلى أسفلٍ؛ لأنَّ الخيرَ عالٍ والشرَّ سافلٌ. وقال بعضُهم: معناهُ: قرَّبَهُمَا مما أرادَ من التَّوْرِيَةِ؛ وهي التقريبُ مأخوذٌ من أدْلَى الدَّلْوَ، ويقالُ: فلانٌ يُدْلِي فُلاَناً بالغُرُور؛ أي يَخْدَعُهُ بكلامٍ زُخْرُفٍ باطلٍ.

وقال مقاتلُ: (فَدَلاَّهُمَا بغُرُور) أيْ زَيَّنَ لَهُمَا الْبَاطِلَ. فَدَلاَّهُمَا بغُرُور؛ الْغُرُورُ مَا تَقَدَّمَ ذكرهُ بقولهِ لَهُما: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ). وفي بعضِ الرِّواياتِ: أنَّ آدَمَ عليه السلام كَانَ يَقُولُ وَقْتَ تَوْبَتِهِ: مَا ظَنَنْتُ يَا رَب أنَّ أحَداً يَجْرُأ فَيَحْلِفُ باسْمِكَ كَاذِباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ ؛ فيه دليلٌ أنَّهما لَمْ يُبَالِغَا في الأكلِ، ولكن لَمَّا وصلَ إلى جوفِهما تَهافَتَ عنهُما لِبَاسُهُمَا، وظَهرَ لِكُلٍّ منهُما عَوْرَةُ صاحبهِ فاسْتَحيَا، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ أي عَمِدَا فأخذا يُلْزِقَانِ عليهما مِن وَرَقِ التِّينِ.

وَالْخَصْفُ: الإلْزَاقُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، كما يعملُ الْخَصَّافُ الذي يُرَقِّعُ النَّعْلَ. ومعنى (طَفِقَا) أخذا في العملِ، يقالُ: بَاتَ يفعلُ كذا إذا فعلَهُ ليلاً، وظلَّ يفعلُ كذا إذا فَعَلَهُ نَهاراً، وطَفِقَ يفعلُ كَذا إذا فَعَلَ في أيِّ وقتٍ كَانَ.

وعن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ آدَمَ كَانَ رَجُلاً طِوَالاً كَأنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيْرُ شَعْرِ الرَّأسِ، فَلَمَّا وَقَعَ بالْخَطِيئَةِ بَدَتْ سَوْآتُهُ وَكَانَ لاَ يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارباً فِي الْجَنَّةِ، فَعَرَضَتْ لَهُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ فَحَبَسَتْهُ بشَعْرِهِ، قَالَ لَهَا: أرْسِلِيْنِي! فَقَالَتْ: لَسْتُ مُرْسِلَتَكَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ؛ أمِنِّي تَفِرُّ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ اسْتَحْيَيْتُ][١].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٩٧) عن أبي بن كعب، وهو اللفظ في الحديث (١١٢٠١) بإسناد آخر.

وقال ابنُ عبَّاس: (قَالَ اللهُ: يَا آدَمُ، أَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِيمَا أَبحْتُ لَكَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْدُوحَةٌ عَنِ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ وَعِزَّتِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ يَحْلِفُ بكَ كَاذِباً. قَالَ: فَوَعِزَّتِي لأُهْبطَنَّكَ إلَى الأَرْضِ، ثُمَّ لاَ تَنَالُ الْعَيْشَ إلاَّ بكَدٍّ. فَأُهْبطَ إلَى الأَرْضِ هُوَ وَحَوَّاءُ، فَعُلِّمَ صَنْعَةَ الْحَدِيْدِ، وَأُمِرَ بالْحَرْثِ، فَحَرَثَ وَزَرَعَ، وَسَقَى وَحَصَدَ، ثُمَّ دَرَسَ وَذرَى، ثُمَّ طَحَنَ، ثُمَّ عَجَنَ، ثُمَّ خَبَزَ، ثُمَّ أكَلَ. فَلَمْ يَبْلُغْ إلَى الأَكْلِ حَتَّى بَلَغَ مَا شَاءَ اللهُ أنْ بَلَغَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قال مُحمدُ بن قيسٍ: (نَادَاهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ، لِمَ أكَلْتَ مِنْهَا وَقَدْ نَهَيْتُكَ؟ قَالَ: يَا رَب؛ أطْعَمَتْنِي حَوَّاءُ. قَالَ: يَا حَوَّاءُ؛ لِمَ أطْعَمْتِهِ؟ قَالَتْ: أمَرَتْنِي الْحَيَّةُ[1]. فَقِيْلَ لِلْحَيَّةِ: لِمَ أمَرْتِهَا؟ قَالَتْ: أمَرَنِي إبْلِيْسُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أمَّا أنْتِ يَا حَوَّاءُ؛ فَكَمَا أدْمَيْتِ الشَّجَرَةَ تَدْمِيْنَ كُلَّ شَهْرٍ، وَأمَّا أنْتِ يَا حَيَّةُ فَأَقْطَعُ قَوَائِمَكِ، فَتَمْشِيْنَ فِي التُّرَاب عَلَى وَجْهِكِ، وَسَيَشْرَخُ رَأْسَكِ كُلُّ مَنْ لَقِيَكِ، وَأمَّا أنْتَ يَا إبْلِيْسُ فَمَلْعُونٌ مَدْحُورٌ)[2].

قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾؛ أي ضَرَرْنَاهَا بالمعصيةِ، وهذا اعترافٌ بالخطيئةِ على أنفسِهما، ﴿ وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ بالعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ ﴾؛ أي قال اهبطُوا من الجنَّةِ إلى الأرضِ، ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ ﴾، أي في حالِ عداوةٍ، ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ ﴾؛ أي وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومنفعةٌ، ﴿ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي إلى مُنْتَهَى آجالِكُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ ﴾؛ أي في الأرضِ تعيشُونَ، ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾؛ وفي الأرضِ تُقْبَرُونَ، ﴿ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي من قبورِكُم للبعثِ.

---

(١) في المخطوط: (أطعمتني الحية) وهو تحريف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٠٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ ؛ أي أنْزَلَ اللهُ المطرَ مِن السَّماءِ فكانتِ الْكِسْوَةُ منهُ، يعني أنَّ لِبَاسَهُمْ من نبـاتِ الأرض من القُطْنُ والكِتَّان. وهو ماءُ السَّماء، وما يكونُ من الكسـوةِ مـن أصـوافِ الأغنـام، فَقِوَامُ الأنعام أيضاً من نباتِ ماء السَّـماء، كـذا قـال ابـن عبَّـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (وقوله: (يُوَارِي سَوْآتِكُمْ) قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرِيشًا) يَعْنِي مَالاً) هكـذا قـال ابـنُ عبَّـاس ومجاهدُ والضحَّاك والسُّدِّيُّ[1].

ويقالُ: تَرَيَّشَ الرَّجُلُ؛ إذ تَمَوَّل. وقال ابنُ زيـدٍ: (الرِّيـشُ: الْجَمَـالُ)[2]. وقـرأ عثمانُ بنُ عفَّان والحسنُ وقتادة: (وَرِيَاشاً) بالألفِ وهـو جَمْـعُ رِيْـشٍ[3]، مثـلُ ذئـبٍ وذِئابٍ. وقال الأخفشُ: (الرِّيَاشُ: الْخِصْبُ وَالْمَعَـاشُ). وَقِيْـلَ: معنـى الرِّيْـشِ: مـا يُتَأَثَّثُ بهِ في البيتِ من متاعهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ ؛ قـال قتـادةُ والسُّـدِّيُّ: (هُـوَ الْعَمَـلُ الصَّالِحُ)[4]، ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ ؛ لأنَّهُ يَقِي مِن العذاب والعقـاب، كأنَّـهُ قـالَ: لِبَـاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ من الثياب؛ لأنَّ الفاجرَ وإنْ كان حَسَنَ الثياب فـهو بَـادِي العـورةِ. قـال الشاعرُ:

إنِّـــي كَـــأَنِّي أرَى مَـــنْ لاَ حَيَـــاءَ لَـــهُ ... وَلاَ أمَانَـــةَ وَسْـــطَ الْقَـــوْمِ عُرْيَانَـــا

(١) في جـامع البيـان: الأثـر (١١٢٢١) عـن ابـن عبـاس، والأثـر (١١٢٢٢) عـن مجـاهد، والأثـر (١١٢٢٥) عن الضحاك، والأثر (١١٢٢٣) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٢٨).

(٣) نقله الطبري في جامع البيان عن زر بن حبيش والحسن البصري: تفسير الآيـة. وفي الأثـر عـن الحسـن البصـري قـال: رأيـت عثمـان بـن عفـان على منـبر رسـول الله ﷺ... وذكـره: الرقـم (١١٢٣٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨٤؛ قال القرطبي: (وروى قاسـم بـن مـالك عـن عـوف عـن معبـد الجهني...) وذكره.

وقال ابنُ جُرِيجٍ: (لِبَاسُ التَّقْوَى هُوَ الإيْمَانُ)[١]. وقـال مَعْبَدُ الْجُهَنِيُّ: (هُوَ الْحَيَاءُ)[٢]. وَقِيْلَ: هو السَّمْتُ الْحَسَنُ بالوجهِ. وقال وهب: (الإِيْمَانُ عَرْيَانٌ؛ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى؛ وَرِيْشُهُ الْحَيَاءُ؛ وَمَالُهُ الْفِقْهُ؛ وَثَمَرَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ)[٣]. وَقِيْلَ: لباسُ التقوى ما يُلْبَسُ من الثِّياب للتَّضَرُّعِ والتَّخَشُّعِ مثلَ الصُّوفِ والثِّياب الْخَشِنَةِ، وهو خيرٌ من لباسِ الْكِبْرِ.

قرأ أهلُ المدينةِ والشَّام والكسائيُّ: (وَلِبَاسَ) بالنصب عطفاً على قوله: (لِبَاساً). وقرأ الباقون بالرَّفعِ على الابتداءِ؛ وخبرُهُ (خَيْرٌ). وجعلوا (ذلِكَ) صِلَةً في الكلامِ، ولذلك قرأ ابنُ مسعود وأُبَيُّ بنُ كعبٍ: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: إنَّ إنزالَ اللِّباسِ من دلائلِ الله على إثباتِ وحدانيَّته ونعمِهِ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ، أي لكي يَتَّعظُونَ فيعرفُوا أنَّ ذلك كلَّهُ مِن اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ أي لا يَضُرَّنَّكُمْ الشيطانُ بالدعاءِ إلى الغَيِّ والمعصيةِ كما استَزَلَّ أبَوَيْكُمْ آدمَ وحوَّاءَ من الجنَّةِ ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ ، فَتَسَبَّبَ في نَزْعِ لباسهما لِحملِهما على المعصيةِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ ؛ أي لِيُظْهِرَ لَهما عوراتِهما أنَّ ذلك يُغِيظُهُمَا، وإنَّما أضافَ الإخراجَ من الجنَّةِ إلى الشيطان؛ لأن ذلكَ كان بوَسْوَسَتِهِ وإغوائِه.

واختلفُوا في لباسِهما في الجنَّةِ؛ فقال بعضُهم: كان مِن لِبَاسِ الْجَنَّةِ، عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ لِبَاسَهُمَا كَانَ مِنَ الظُّفُرِ؛ أيْ كَانَ يُشْبهُ الظُّفُرَ، فَإِنَّهُ كَانَ مَخْلُوقاً عَلَيْهِمَا خِلْقَةَ الظُّفُرِ)[٤]. وقال وهبٌ: (كَانَ لِبَاسُهُمَا مِنَ النُّورِ)[٥]. ومعنى قولِهِ: (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣٢).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٧ ص١٨٩: الأثر (٣٥٢٢٥).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤١) بأسانيد.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤٢).

الشَّيْطَانُ) أي كونُوا على حَذرٍ من ذلكَ، فإنه عَدُوٌّ لكـم. وهـذا اللفـظُ أبلـغُ مـن أنْ تقولَ: لا تَقْبَلُوا فتنةَ الشيطانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّ الشيطانَ ونَسْلَهُ يَرَوْنَكُمْ وأنتم لا ترونهم، وإنَّما قالَ هكذا؛ لأنَّا إذا لَمْ نَرَاهُمْ لم نعرِفْ قصدَهم بالكيدِ والإغْوَاءِ حتى نكونَ على حَذرٍ في نَجدَةِ نفوسِنا من وَسَاوسِهِ.

وفي هذا بيانٌ أنَّ أحَداً من البَشَرِ لاَ يَرَى الْجِنَّ، بخلافِ ما يقولُ بعضُهم: إنَّ منَّا مَن يراهُم. وإنَّما لا يراهُمُ البشرُ؛ لأنَّهم أجْسَـامٌ رقيقـةٌ تحتـاجُ في رؤيتِـكَ إلى أفضـلِ شُعاعٍ، واللهُ تعالى لم يُعْطِنا من الشُّعاعِ قَدْرَ ما يُمكننا أن نراهم، وأمَّا هم فإنَّهم يَرونَنا؛ لأنَّهم يرى بعضُهم بعضاً مع أنَّهم أجسامٌ رقيقةٌ، فلأنْ يرونا ونحنُ أجسامٌ كثيفة أوْلَى.

وذهب بعضُ الناسِ إلى أنه يجـوزُ أن يراهـم البشـرُ، بـأنْ يكشِـفُوا أجسـامَهم، وقال: وهم مُمَكَّنُونَ من ذلك. وَقِيْلَ: إنَّ هذا لا يصلحُ؛ لأنه لو أمكنَـهم أن يَكْشِـفُوا أجسامَ أنفسِهم أمكنَهم أن يكشِفُوا أجسامَ غيرهم. وقال مالكُ بـن دينـار: (إنَّ عَـدُوّاً يَرَاكَ وَلاَ تَرَاهُ لَشَدِيْدُ الْمُؤْنَةِ إلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ)[1].

وَقِيلَ: هو زيَّن لآدم فسكن له، ويجـري مـن ابـن آدم مَجْـرَى الـدَّمِ، وأنـتَ لا تُقَاوِمُهُ إلا بعونِ اللهِ، والشيطانُ يراكَ وأنتَ لا تراهُ، وهو لا يَنْساكَ وأنتَ تنساهُ. وفيـه يقولُ بعضهم:

وَلاَ أَرَاهُ حَيْثُمَـــا يَرَانِـــي وَعِنْدَمَـــا أَنْسَـــاهُ لاَ يَنْسَـــانِي

فَيُبْـــدِي إنْ لَـــمْ يَكُـــنْ سَـــبَانِي كَمَـــا سَـــبَى آدَمَ مِـــنْ جِنَـــانِ

وقال ذُو النُّونِ: (إنْ هُوَ يَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَاهُ، فَإنَّ اللهَ يَرَاهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَى اللهَ، فَاسْتَعِنْ باللهِ عَلَيْهِ، فَإنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيْفاً).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي جعلناهم قُرَنَاءَ للذينَ لا يؤمنونَ باللهِ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٦٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ كُفَّارَ مكَّة كانوا إذا فعَلُوا معصيةً يَعظُمُ قُبْحُهَا نَحْوَ طوافِهم بالبيتِ عُرَاةً، وتحريْمِهم ما أحلَّ اللهُ تعالى من البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ، قَالُوا: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وأسلافنا، ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ؛أي بهذه الأشياء، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ؛ أي لا يأمرُنا بالمعاصِي، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكار على جهة إلزامِ الْحُجَّةِ؛ لأنَّهم إنْ قالوا: نقولُ على اللهِ ما لَمْ نَعْلَمْ، فَضَحُوا أنفسَهم، وإنْ قالوا: لا نقولُ على الله مَا لا نعلمُ، لَزِمَتْهُمُ الْحُجَّةُ؛ لأنَّهم لم يكن لَهم حُجَّةٌ على ما قالُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ ؛ أي بالعدل والصَّواب، وقال ابنُ عبَّاس: (لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)(١)، وقال الضَّحاكُ: (بالتَّوْحِيْدِ). ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ؛ قال مجاهدُ والسُّدِّيُّ: (أيْ تَوَجَّهُوا إلَى الْقِبْلَةِ فِي الصَّلاَةِ أدَاءً عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: إذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ وَأنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ، فَصَلُّوا فِيْهِ وَلاَ يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: أصَلِّي فِي مَسْجِدِي، وَإذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فَلْيَأْتِ أيَّ مَسْجِدٍ شَاءَ، وَلْيُصَلِّ فِيْهِ).

وهذه الآية تدلُّ على وُجُوب فعلِ الصَّلاةِ المكتوبة في الجماعةِ، وقد رُوِيَ عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قَالَ:[مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلاَ صَلاَةَ لَهُ](٢). وقال ﷺ: [لَقَدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بالنَّاسِ، ثُمَّ أنْظُرُ إلَى قَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجَمَاعَاتِ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ؛ أي مُخْلِصِيْنَ لهُ الطاعةَ والعبادةَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي خَلَقَكُمْ حين خَلَقَكُمْ

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٥٣: الحديث (١٢٢٦٦)، وإسناده ضعيف؛ فيه أبو خباب الكلبي، والحديث (١٢٢٦٥) بإسناد صحيح. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: الحديث (٢٠٦٤).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٩٨٧). وأحمد في المسند: ج ٢ ص٥٣١. والبخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب فضل صلاة العشاء: الحديث (٦٥٧).

مؤمناً وكافراً؛ وشَقِيّاً وسَعيداً، فكما خلقَكم فكذلك تعودون إليه يومَ القيامةِ، ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ ؛ وهم المؤمنونَ، ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ ﴾ ؛ وهم أهلُ الكفرِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاس، كما قالَ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[١] ثم يعيدُهم يومَ القيامةِ كما بدأ خَلْقَهُمْ مؤمناً وكافراً، فَيَبْعَثُ المؤمنَ مؤمناً؛ والكافرَ كافراً[٢].

وقال الحسنُ ومجاهدُ: (مَعْنَاهُ: كَمَا بَدَأكُمْ فَخَلَقَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئاً، كَذلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أحْيَاءً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إنَّ أهْلَ الضَّلالةِ اتَّخذُوا الشياطينَ أولياءَ بطاعتِهم فيما دَعوهُم إليه، ﴿ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٣٠ ﴾ ؛ أي يَظُنُّونَ أنَّهم على الْهُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يطُوفُونَ بالبيتِ عُرَاةً ويقولون: لاَ نطوفُ في الثياب التي أذْنَبْنَا فيها ودَنَّسْنَاهَا بالذنوب، فكانتِ المرأةُ منهم تَطُوفُ بالبيتِ عَرْيَانَةً باللَّيلِ، إلا أنَّها كانت تَتَّخِذُ سُيُوراً مُقَطَّعَةً تُشَدُّ في حِقْوَيْهَا، فكانت السُّيُورُ لا تسترُها سِتْراً تامّاً.

قال المفسِّرون[٤]: كانت بَنُو عامرٍ في الجاهليَّة يفعلونَ ذلك، كان رجالُهم يطوفون عراةً بالنَّهار، ونساؤُهم ليلاً. وحُكِيَ أنَّ امرأةً كانت تطوفُ عريانةً وهي تقولُ[٥]:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

---

(١) التغابن / ٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٦١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٧٠) عن الحسن بإسنادين، والأثر (١١٢٧٣) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤٧) عن مجاهد، والأثر (١١٢٧٦) عن ابن عباس.

(٥) ينسب إلى ضباعة بنت عامر بن صعصعة من بني سلمة بن قشير. السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص١٣٤.

وكانوا إذا قَدِمُوا منهُ طَرَحَ أحدُهم ثيابَه في رجلِهِ، فإن طافَ وهي عليه ضُرِبَ وانْتُزِعَتْ منهُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) يعني الثِّيَابَ[١]. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي: مَا يُوَارِي عَوْرَتُكُمْ وَلَوْ عَبَاءَةً)[٢].

وقال الكلبيُّ: (كَانَتْ بَنُو عَامِرٍ لاَ يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إلاَّ قُوْتاً، وَلاَ يَأْكُلُونَ دَسِماً فِي أيَّامِ حَجِّهِمْ، يُعَظِّمُونَ بذلِكَ حَجَّهُمْ. وَكَانَتْ قُرَيْشُ وَكِنَانَةُ يَفْعَلُونَ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ أحَقُّ أنْ نَفْعَلَ ذلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا). ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ ؛ أي الْبَسُوا ثيابَكم عندَ كلِّ مسجدٍ، وكُلُوا اللَّحْمَ والدَّسِمَ، واشربُوا من ألبانِ السَّوائبِ والبَحَائِرِ، (وَلا تُسْرِفُوا) أي لا تُجَاوزُوا تحريْمَ ما أحلَّ اللهُ لكم.

والإسْرَافُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ؛ فتارةً تكون مجاوزةُ الحلالِ إلى الحرامِ؛ وتارةً تكونُ مجاوزةُ الحدِّ في الإنفاقِ؛ وتارةً تكونُ بأنْ يأكلَ الإنسانُ فوقَ الشِّبَعِ فيؤدِّي به ذلكَ إلى الضَّرر.

ويروى: أنَّ هَارُونَ الرَّشِيْدَ كان لـه طبيبٌ نصرانِيٌّ حاذقٌ، فقال لعليِّ بن الحسين ابن واقدٍ[٣]: ألَيْسَ في كتابكم من علمِ الطب شيءٌ؟ والعلمُ عِلمان: علمُ الأديان وعلمُ الأبدان، فقالَ لهُ: إنَّ اللهَ تعالى قد جَمَعَ الطبَّ كلَّه بنصفِ آيةٍ من كتابنا. قَالَ: ومَا هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا). فقال النصرانِيُّ: هل يُؤْثَرُ عن رسولِكم شيءٌ من الطب؟ قال: نَعَمْ؛ جمعَ رسولُنا ﷺ الطبَّ في ألفاظٍ يسيرة. قال: وما هيَ؟ قال: قَوْلُهُ: [الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحِمْيَةُ رَأسُ كُلِّ دَوَاءٍ، وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ][٤]. فقال النصرانِي: ما تركَ كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوسَ طِبّاً[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عباس: الأثر (١١٢٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٨٠).

(٣) علي بن الحسين بن حيان بن عمار بن واقد؛ أبو الحسن، ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ١١ ص٣٩٤: الرقم (٦٢٧٤)؛ وقال: ثقة.

(٤) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٤٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو محمد الخلال عن عائشة)).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٩٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَهم، ولا يُثْنِي عليهم. فلما نَزلَتْ هذه الآيةُ طَافَ المسلمونَ في ثيابهم، وأكلُوا اللَّحمَ والدسمَ، فعيَّرهُم المشركون بذلكَ، فأنزلَ اللهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن حَرَّمَ الثيابَ التي يَتَزَيَّنُ بها الناسُ، ومَن حَرَّمَ المستلذاتِ من الرِّزْق؟ ويقالُ: أرادَ بالطيِّباتِ: الحلالَ من الرِّزْق، وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أمرٌ للإنسانِ أن يَلْبَسَ أحسنَ ثيابِهِ في الأعيادِ والْجُمَعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ الْمُسْلِمِيْنَ يُشَارِكُونَ الْمُشْرِكِيْنَ فِي الطَّيِّبَاتِ فِي الدُّنْيَا، فَأَكَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ طَعَامِهِمْ؛ وَلَبسُوا مِنْ خِيَار ثِيَابهِمْ؛ وَنَكَحُوا مِنْ صَالِحِ نِسَائِهِمْ، ثُمَّ يُخْلِصُ اللهُ تَعَالَى الطَّيِّبَاتِ فِي الآخِرَةِ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَيْسَ لِلْمُشْرِكِيْنَ فِيْهَا شَيْءٌ)[1].

وتقديرُ الآيةِ: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا مشتركةٌ فِي الدُّنْيَا، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: هي للمؤمنينَ في الدُّنيا غيرُ خالصةٍ من الْهُمُومِ والأحزانِ والمشقَّة.

وقرأ ابنُ عبَّاس وقتادةُ ونافع: (خَالِصَةٌ) بالرفع؛ أي قِيْلَ: خَالِصَةٌ. وقرأ الباقون بالنصب على الحالِ والقطع، لأنَّ الكلامَ قد تَمَّ دونَه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ؛ أي كما فصَّلْنَا لكم الدلائلَ والأوامرَ والنواهي، هكذا تفصيلُها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي يَفقَهُونَ أوامرَ اللهِ تعالى.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى ما حَرَّمَ عليهم فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الله تعالى لَمْ يُحَرِّمِ الثيابَ ولا الطيباتِ من الرِّزْق، وإنَّما حَرَّمَ الذُّنُوبَ.

والْفَوَاحِشُ: هي الكَبَائِرُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) أي ما عُمِلَ علانيةً، (وَمَا بَطَنَ) يعني سِرّاً. (وَالإِثْمَ) يتناولُ كلَّ ذنبٍ وأنْ يكون فيه حَدٌّ. وفائدةُ ذكر الإثمِ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٠٠) بأسانيد.

بيانُ أنَّ التحريمَ غيرُ مقصورٍ على الكبائرِ. (وَالْبَغْيَ) يتناولُ الإقدامَ على الغيرِ (بغَيْرِ الْحَقِّ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: وحَرَّمَ عليكم أنْ تُشركُوا باللهِ، ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ؛ أي عُذْراً ولا حُجَّةً. ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى ما يصيرُ جامعاً للمحرَّمات كلِّها؛ وهو تحريمُ القولِ الذي لا عِلْمَ لقائلهِ به فقالَ: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وَقِيْلَ: يعني بالفواحشِ: الطوافَ عُرَاةً، ويعني بقولهِ: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) طوافُ الرِّجال عُرَاةً بالنَّهار، (وما بَطَنَ) طوافُ النِّساءِ بالليل عُـرَاةً. وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) التعرِّي عن الثياب في الطَّوافِ، (وَمَا بَطَنَ) يعني الزِّنا، ويعني بـ (الإِثْمَ) كلَّ المعاصِي. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْبَغْيَ) طلبُ التَّرأُسِ على الناسِ بالقَهْرِ والاستطالَةِ عليهم بغير حقٍّ.

وقال الحسنُ: (يَعْنِي بـ (الإِثْمَ) الْخَمْرَ)(١). قال بعضُهم:

شَـرِبْتُ الإثْـمَ حَتَّـى ضَـلَّ عَقْلِـي كَـذاكَ الإثْـمُ يَذْهَـبُ بـالْعُقُول

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ تخويفٌ ووعيدٌ من اللهِ تعالى لَهم، معناهُ: ولكلِّ أهلِ دينٍ مُهْلَةٌ؛ ولكلِّ وقتٍ مؤقَّت، فإذا انْقَضَتْ مُهْلَتُهُمْ فلا يستأخِرون من بعدِ الأجلِ ساعةً ولا يستقدمونَ في الأجَلِ. وليسَ ذكرُ السَّاعةِ في الآية على وجه التحديدِ، فإنَّهم لا يستأخرونَ ولا يستقدمون ساعةً ولا أقلَّ من ساعةٍ، ولكن ذُكِرَتِ السَّاعةُ لأنَّها أقلُّ أسْماءِ الأوقات بين الناسِ.

فإن قِيْلَ: لِمَ قال: (يَسْتَأْخِرُونَ) ولم يَقُلْ: يَتَأَخَّرُونَ؟ قِيْلَ: معناهُ: لا يطلبونَ التَّأَخُّرَ عن ذلكَ لأجلِ اليَأْسِ عنهُ. وقرأ ابنُ سيرينَ: (فَإِذَا جَاءَ آجَالُهُمْ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ معناهُ: يا بَنِي آدَمَ إمَّا أن يأتيكم رُسُلٌ من جِنسِكُمْ يقرأونَ عليكم ويَعْرِضُونَ عليكُمْ

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٠٠.

كِتَابي وكَلامِـي، ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ، اللهَ وأطَاعَ الرسولَ، ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ؛ العملَ، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ حين يخافُ أهلُ النار، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ على ما خَلَّفُوا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وَقِيْـلَ: معناهُ: وتكبَّروا عن الإيْمان بمُحَمَّد ﷺ والقُرْآن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ ﴾ ؛ أي حَظُّهُمْ مما قضَى اللهُ عليهم في الكتاب؛ وهو سوادُ الوجوهِ وزُرْقَةُ الأعيُنِ؛كما قال تعالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾(١).

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذاب)(٢). وقال مجاهدُ: (مَا سَبَقَ مِنَ الشَّقَاوَةِ)(٣). وقال الربيعُ: (يَعْنِي يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الأَرْزَاقِ وَالأَعْمَال)(٤). فَإذا فَرَغَتْ وَفَنِيَتْ؛ (جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) أيْ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ؛ يَعْنِي مَلَكَ الْمَوْتِ وَأَعْوَانَهُ)(٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ ؛ يعني إذا جَاءَتْـهم ملائكةُ العذاب يذيقونَهم عذاباً في الآخرةِ كما قالَ تعالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(٦). ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ ؛ أي فتقولُ لهم الملائكةُ — وهم خَزَنَةُ جهنَّم: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ ؛ يعنونَ الأصنامَ. يقولون لَهم ذلك تَوْبِيْخاً وتَنْكِيْراً وحسرةً عليهم، ﴿ قَالُوا۟ ﴾ ؛ فيقولُ الكفَّارُ عندَ ذلك: ﴿ ضَلُّوا۟

(١) الزمر / ٦٠.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣١٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣١٨).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٢).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٤) عن ابن زيد.
(٦) إبراهيم / ١٧.

عَنَّا ﴾ ؛ أي ذهَبَ الأصنامُ عنَّا؛ فلم يَقْدِرُوا لنا على نَفْعٍ ولا دفع ضُرٍّ، ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي أقَرُّوا على أنفسِهم، ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا. قال مقاتلُ: (يَشْهَدُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ بَعْدَمَا شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَوَارِحُ بِمَا كَتَمَتِ الألْسُنُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ معناه: قَالَ اللهُ لَهم: ادْخُلوا النارَ مع أمَمٍ قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنسِ فِي النَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ ؛ في الدِّينِ والْمِلَّةِ. ولم يَقُلْ: أخاهَا؛ لأنه عَنَى بها الأمَمَ والجماعةَ؛ فَلَعَنَتِ المشركونَ المشركين؛ واليهودُ اليهودَ؛ والنصارَى النصارى؛ والْمَجوسُ الْمَجوسَ، ويَلْعَنُ الأتباعُ القادةَ ويقولون: لَعَنَكُمُ اللهُ أنتم غَرَّرْتُمُونا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ ؛ أي تَلاحَقُوا واجتمعوا في النَّار.

قرأ الأعمشُ: (حَتَّى إذا تَدَارَكُوا فِيْهَا). وقرأ النخعيُّ: (حَتَّى إذا ادَّرَكُوا فِيْهَا) بتشديدِ الدَّال من غيرِ ألفٍ. والمعنى: حتَّى إذا اجتمعُوا في النَّار القادةُ والأتباعُ؛ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ ؛ أي قالَتْ أخرَى الأممِ الْمُكَذِّبَةِ لأوَّل الأمَمِ ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الْمُقَدَّمُونَ؛ ﴿ أَضَلُّونَا ﴾ ؛ عن الْهُدَى بإلقاءِ الشُّبهة علَينَا؛ ﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي زِدْهُمْ في عذابهم، واجعل عذابَهم مُضَاعفاً مِمَّا علينَا، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تعالَى: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ ؛ أي لكلٍّ من الأوَّلين والآخرين ضِعْفٌ من العذاب، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أنتم شِدَّةَ ما عليهم.

ومَن قرأ (وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ) بالياء؛ فمعناهُ: لا يعلمُ كلُّ فريقٍ منهم مقدارَ عذاب الفريق الآخر. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: (قَالَتْ أخْرَاهُمْ لأولاهُمْ) أيْ (أخْرَاهُم) دُخُولاً النَّارَ الأَتْبَاعُ (لأوْلاَهُمْ) وَهُمُ الْقَادَةُ)[1]. وقال السُّدِّيُّ: (أخْرَاهُمُ الَّذِيْنَ أتَوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، لأوْلاَهُمْ يَعْنِي الَّذِيْنَ شَرَّعُوا لَهُمْ ذلِكَ الدِّيْن)[2].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص٣٩١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي قالت أوَّلُ الأممِ لآخر الأمَمِ، والمتبوعون للتابعين: لم يكُـنْ لكـم علينا فَضْلٌ في شيءٍ حتى تطلبُوا من اللهِ أن يزيدَ في عذابنا ويُنْقِصَ من عذابكم، وأنتـم كفرتُـم كمـا كفرْنا، ونحنُ وأنتم في الكُفْـر سـواءٌ، وكـذا نكـونُ في العـذاب سـواءٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ؛ يجوزُ أن يكون هذا مـن قَـوْلِ الأَوَّلِينَ للآخرين، ويجوزُ أن يكونَ قال اللهُ لَهم ذلكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ ؛ أي الذين جَحَدُوا بآياتِنا وتَعَظَّمُوا عن الإيْمانِ بـها؛ لا تفتـحُ لأرواحِـهم أبوابُ السَّماءِ إذا مَاتُوا هَوَاناً، وتفتحُ للمؤمنينَ كرامـةً لَـهم. وَقِيْـلَ: معنـاه: لا تفتـحُ لأعمالِهم أبوابُ السَّماءِ؛ لأنَّها خَبِيْثَةٌ، بل يَهْوِي بعملهم إلى الأرضِ السَّابعةِ، وتُرْقَـمُ في الصَّخرةِ التي تحتَ الأرضين كمـا قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ) قـراءةُ الأكـثرينَ بالتَّـاء المشـدَّدة راجعـةٌ إلى جماعـةِ الأَبْوَاب. وقرأ بعضُهم بالياءِ والتخفيفِ؛ لأن تأنيثَ الأبواب ليس بحقيقيٍّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ؛ أي لا يدخلون الْجَنَّةَ أبَداً كما لا يدخلُ البعيرُ في خُرْمِ الإبرةِ. وهذا تَمثيلٌ في الدَّلالَـةِ علـى يَأْسِ الكفَّار من دخولِهم الجنَّة. والعربُ إذا أرادت تأكيدَ النَّفْـيِ عَلَّقَتْـهُ بمـا يسـتحيلُ كونُه، كما قالَ الشاعرُ:

إذا شَـابَ الْغُـرَابُ أتَيْـتُ أهْلِـي ... وَصَـارَ الْقَـارُ كَـاللَّبَنِ الْحَلِيـب

والْخِيَاطُ وَالْمَخِيْطُ بمعنى واحدٍ. وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ (أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَمَـلِ؛ فَقَالَ: هُوَ زَوْجُ النَّاقَةِ؛ كَأَنَّهُ اسْتَجْهَلَ مَنْ سَأَلَهُ وَتَعَجَّبَ مِنْهُ)[2]. وفي قراءة ابن عبَّاس: (حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّلُ) بضمِّ الجيمِ وتشـد يـد الميم، وهـو حَبْـلٌ يسـمى القَلْـسَ. وقـال

---

(١) المطففين / ٦-٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٥٢) بأسانيد.

عكرمةُ: (هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُصْعَدُ بِهِ النَّخْلُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يُجزَون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ ؛ أي لَهم فراشٌ من النار يضطجِعُون ويقعدُونَ وفوقَهم غوَائِلُ؛ أي غَاشِيَةٌ من فوق غَاشِيَةٍ، كما قالَ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾[1]. وقال ﷺ: [يَلْبَسُ الْكَافِرُ لَوْحَيْنِ مِنَ النَّارِ فِي قَبْرِهِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ][2].

و(غَوَاشٍ): وأصلُ غَوَاشٍ: غَوَاشِيُ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ مَعَ الضَّمَّةِ، فحذفَتِ الضَّمَّةُ والياءُ استثقالاً، وأدخلَ الثقل ذهابَ حركتِها ويائِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ يعني الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين آمَنُوا باللهِ ورسُولِه، وعمِلُوا الطاعاتِ بمقدورهم وبوسْعِهِمْ. (لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا) أي طاقَتَها وقدرتَها، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ باقونَ دائمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ ؛ أي نزَعْنَا ما في قلوبهم من غِشٍّ وحَسَدٍ وعَدَاءِ بعضِهم على بعضٍ في الدُّنيا، وألْقَيْنَا في قلوبهم التَّوَادُدَ في الآخرةِ حتى لا يَحْسُدُ بعضُ أهلِ الجنَّة بعضاً أعلى درجةً منه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي مِن تحتِ شجرِهم وغُرَفِهم الأنهارُ في حال نزعنا ما في قلوبهم؛ تكونُ (تجري) في موضعِ الحال.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وسَلْمَانَ وأبي ذرٍّ، يَنْزِعُ اللهُ فِي الآخِرَةِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي الْعَدَاوَةِ وَالثِّقَلِ الَّذِي كَانَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،

---

(١) الزمر / ١٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٥٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الحسن القطان في الطوالات وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء)).

وَالأمْرُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ، فَيَدْخُلُونَ إخْوَاناً مُتَقَابلِيْنَ).

قال: (فَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ تُعْرَضُ لَهُمْ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ أحَدِ الْعَيْنَيْنِ، فَيَذْهَبُ الْهَمُّ مِنْ غِلٍّ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْعَيْنَ الأُخْرَى، فَيَغْتَسِلُونَ فِيْهَا فَتُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ، وَتُصْقَلُ وُجُوهُهُمْ، وَيَلْبَسُونَ بَهَاءَ النُّورِ، وَيُطَيِّبُ اللهُ رِيْحَهُمْ بِهِ)(١).

﴿ وَقَالُوا ﴾ ؛ فعندَ ذلك يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ ؛ أي أرشدَنا إلى ما صِرْنا به ربُّنا واغتسلنا من العَيْنَيْنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عامر: (مَا كُنَّا) بغير واو. وقرأ الباقون بالواو: (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ إلَى هَذَا الذي أكْرَمَنَا اللهُ به لولاَ أنَّ اللهَ هدَانا إليهِ) وقال ﷺ: [كُلُّ أهْلِ النَّارِ يَرَى مَنْزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَوْلاَ هَدَانَا اللهُ، فَتَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً. وَكُلُّ أهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَنْزِلَهُ فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ: لَوْلاَ أنَّ اللهَ هَدَانَا](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ شهادةٌ منهم بإرسالهِ للحقِّ إليهم؛ أي جَاءُوا بالصِّدْقِ؛ فصدَّقناهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ معناه: نادَتْهم الملائكةُ: أنَّ هذه الجنَّةُ التي وُعِدْتُمُوهَا في الدُّنيا بأعمالِكم. وقِيْلَ: معنى (أورِثتُمُوهَا) أنْزِلْتُمُوهَا. وفي الخبر: أنه يقالُ لَهم يومَ القيامةِ: جُوزُوا الصِّرَاطَ بعَفْوِي؛ وادخلوا الجنَّةَ برحمتِي لا بأعمالِكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ ؛ وذلكَ حين يستقرُّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ؛ وأهلُ النَّار في النار؛ ينادي أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النار: أنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا من الثَّواب والكرامة حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ من العذاب حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ، فاعترفُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الاعترافُ. وفي (نَعَمْ) قراءتان؛ قراءةُ الكسائيِّ: (نَعِمْ) بكسرِ العين في القُرْآنِ، وقرأ الباقون بالفتحِ؛ وهما لُغتان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٨٠) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٨٢) عن أبي سعيد.

وإنَّما سألَ أهلُ الجنةِ أهلَ النار؛ لأنَّ الكفارَ كانوا يكذِّبون المؤمنين فيما يَدْعُونَ لأنفسِهم من الثواب ولَهم من العقاب، فَلِذا سألَهم المسلمونَ تَبْكِيْتاً لَهم، ليكونَ ذلك حَسْرَةً للكافرين وسُرُوراً للمؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ رُويَ في الخبر: [أنَّ مُنَادِياً يُنَادِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ يَسْمَعُهُ الْخَلاَئِقُ كُلُّهُمْ: أنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُحْسِنِيْنَ، وَأنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ] أي على الكافِرين. وقرأ بعضُهم: (أنَّ لَعْنَةَ اللهِ) بالتشديدِ ونَصْب اللَّعْنَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي عن الدِّيْنِ الذي هو طريقُ اللهِ إلى جَنَّتِهِ، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾؛ أي يطلبونَ لَها غَيْراً أو زَيْفاً بإلقاءِ الشُّبهة التي يُلْبسُونَ بها على النَّاسِ، ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي هم جَاحِدُونَ بالبعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾؛ أي بين الجنَّةِ والنار سُورٌ يحجبُ بينَ الفريقين، كما قالَ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾؛ أي وعلى أعالِي السُّور بابٌ؛ يقال: أعالِي عُرْفٍ وجَمْعُهُ أعْرَافٌ؛ ومنه عُرْفُ الدِّيكِ؛ وعُرْفُ الأضراس.

والأعْرَافُ: سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ سُمِّي أعرافاً لأن أصحابَهُ، ﴿ يَعْرِفُونَ ﴾؛ النَّاسَ؛ ﴿ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾؛ يعرفونَ أهلَ الجنَّةِ ببياضِ وجوهِهم؛ وأهلَ النَّار بسوادِ الوجوهِ.

قال عبدُالله بنُ عبَّاس: (أصْحَابُ الأعْرَافِ: قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَحَالَتْ حَسَنَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّار، وَحَالَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بهَا الْجَنَّةَ، وَلاَ سَيِّئَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بهَا النَّارَ، فَوَقَفُوا عَلَى السُّور بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار يَعْرِفُونَ الْكُلَّ بسِيْمَاهُمْ. فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ عَرَفُوهُ ببَيَاضِ وَجْهِهِ

---

(١) الحديد / ١٣.

أغرّ مُحَجَّلاً مِنْ أثرِ الْوُضُوءِ؛ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً. وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ عَرَفُوهُ بسَوَادِ وَجْهِهِ وَزُرْقَةِ عَيْنَيْهِ)[١].

وعن أبي مَجْلِزٍ رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ)[٢]. فبلغَ ذلك مجاهدَ فقال: (كَذبَ أبو مجْلزٍ؛ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: (وَعَلَى الأَعْرَافِ رجَالٌ). فبلغَ ذلك أبا مجْلزٍ؛ فقال: (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَالْمَلاَئِكَةُ ذُكُورٌ لَيْسَ بإنَاثٍ؛ صُوَرُهُمْ صُوَرُ الرِّجَالِ).

وَقِيْلَ: قومٌ استوت حسناتُهم وسيِّئاتُهم، فوُقِفُوا هناكَ حتى يقضيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ، ثم يدخلونَ الجنَّةَ بفضلِ رحمتهِ؛ وهم آخرُ مَن يدخلُ الجنة قد عرَفُوا أهلَ الجنَّة وأهلَ النار. فإذا أرادَ الله أن يُعَافِيَهُمْ انطلقَ بهم إلى نهرٍ يقال لَهُ: نَهرُ الْحَيَاةِ؛ كَأفْتَاتِ الذهَبِ؛ مُكَلَّلٌ باللُّؤلؤِ؛ ترابُهُ الْمِسْكُ. فَيُلْقَوا فيه حتى تُصْبحَ ألوانُهم في نحورهم شامةٌ بيضاءَ يُعْرَفُونَ بها، ثم يُؤْتَى بهم فيدخلونَ الجنَّة، يُسَمَّوْنَ مساكينَ أهلِ الجنَّةِ.

وسَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أصْحَابُ الأَعْرَافِ؟ قَالَ: [هُمْ رجَالٌ غَزَوا فِي سَبيْلِ اللهِ عُصَاةٌ لآبَائِهِمْ؛ فَقُتِلُوا فَأُعْتِقُوا مِنَ النَّارِ بقَتْلِهِمْ فِي سَبيْلِ اللهِ، وَحُبسُوا عَنِ الْجَنَّةِ بمَعْصِيَتِهِمْ آبَاءَهُمْ، فَهُمْ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ][٣]. ورويَ عن ابنِ عبَّاس أيضاً أنه قالَ: (هُمْ أوْلاَدُ الزِّنَا). وعن مجاهدٍ: (أنَّهُمْ قَوْمٌ رَضِيَ عَنْهُمْ آبَاؤُهُمْ دُونَ أمَّهَاتِهِمْ، أوْ أمَّهَاتُهُمْ دُونَ آبَائِهِمْ، فَيُحْبَسُونَ فِي الأَعْرَافِ إلَى أنْ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا نَظَرُوا إلى أصحاب الجنَّةِ قالوا لَهم: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، فيردُّ أهلُ الجنَّةِ عليهم السَّلامَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَمْ يَدْخُلُوهَا) أي لا[٤] يدخلُ أصحابُ الأعراف الجنَّةَ وهم يطمعونَ في دخولِها، بأنْ يغفرَ اللهُ لَهم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٠١) مختصراً، والأثر (١١٤٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤١٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٤٠٨) وفيه من لم يُسَمَّ.

(٤) في المخطوط: (دخولها يدخل...) وهو تحريف.

سيِّئاتِهم ويُدخلَهم الجنَّةَ بحسناتِهم. وما جعلَ اللهُ الطمعَ في قلوبهم إلاَّ لكرامةٍ يزيدُهم بها.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا نظـرَ أصحـابُ الأعـرافِ إلى أصحـاب النَّار، دَعَوا اللهَ تعالى واستعاذُوا من النَّار وقالوا: رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ في النَّار؛ أي يَدْعُونَ بذلكَ خَوْفاً مِن اللهِ لأجل معاصِيهم.

قَوْلُـهُ تَعـــالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (إنَّ أصْحَـــابَ الأَعْرَافِ يُنَادُونَ الْكِبَارَ مِنَ الْكُفَّار الَّذِيْنَ كَانُوا عُظَمَاءَ فِي الْكُفْرِ كَالْوَلِيْدِ بْـنِ الْمُغِـيْرَةِ وَأبي جَهْلٍ وَسَائِرِ رُؤَسَائِهِمْ). يَعْرِفُونَهُم بسِيمَاهُمْ يُنَادُونَهُمْ وَهُمْ عَلَى السُّور: يَا وَلِيْدَ ابْنَ الْمُغِيْرَةِ! يَا أبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ! يَا فُلاَنَ ابْنَ فُلاَن؛ مَـا أغْنَـى عَنْكُـمْ جَمْعُكُـمْ فِـي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبرُونَ؛ أي تَتَعَظَّمُونَ عنِ الإيْمان باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم ينظرونَ إلى الجنَّةِ؛ فَيَرَوْنَ فيها الضعفاءَ والمساكين مِمَّنْ كـان يَسْتَهْزِئُ بـهم كفـارُ مكَّـةَ؛ مثـل صُـهَيْبٍ وَخَبَّـاب وَعَمَّـار وسَـلْمَانَ وبـلاَل وأشـباهِهم، فينـادُون: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الضعفاءُ هُم، ﴿ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ ؛ أي حَلَفْتُـمْ أيُّـها المشـركون وأنتم في الدُّنيا، ﴿ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ ؛ يا من أقْسَمْتُمْ لا يدخلهم اللهُ الجنَّةَ. قال ابنُ عبَّاس: (فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَصْحَـاب الأَعْـرَافِ: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾).

فإنْ قِيلَ: كيفَ يصحُّ هذا التأويلُ في الحجاب بينَ الجنَّةِ والنار؛ ومعلومٌ أنَّ الجنةَ في السَّماءِ والنار في الأرض؟ قِيلَ: لَمْ يُبَيِّنِ اللهُ حالَ الحجاب بـالمذكور في الآيـة، ولا قَدْرَ المسافةِ، فلاَ يَمتنعُ أن يكون بينَ الجنَّةِ والنار وإنْ بَعُدَتِ المسافةُ.

وقرأ بعضُهم: (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْثِرُونَ) بالثَّـاءِ؛ أي تجمعـونَ المـالَ الكثـيرَ. وقـال مقاتلُ في تفسير هذه الآية: (إذا قَالَ أصْحَـابُ الأَعْـرَافِ لأَصْحَـاب النَّـار: مَـا أغْنَـى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ. قَالَ لَهُمْ أصْحَابُ النَّار: وَأنْتُمْ مَـا أغْنَـى عَنْكُـمْ جَمْعُكُـمْ، وَأقْسَـمُوا لَتَدْخُلُنَّ النَّارَ مَعَنَا).

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، أوْ تَقولُ الْمَلاَئِكَةُ لأَهْلِ النَّارِ: أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمْ اللهُ برَحْمَةٍ؛ أي لا يصيبُهم برحمتهِ. ثم يقالُ لأصحاب الأعرافِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا سَكَنَ أهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ وَسَكَنَ أهْلُ النَّار النَّارَ؛ وَحُرِمَ أهْلُ النَّار الْمَاءَ وَالثِّمَارَ مَعَ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ ألْوَانِ الْعَذاب، نَادَوا أصْحَابَ الْجَنَّةِ: أن اسْقُونَا شَيْئاً مِنَ الْمَاءِ، أوْ صُبُّوا وَأفْرغُوا عَلَيْنَا، وَأطْعِمُونَا شَيْئاً مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ مِنْ ثِمَار الْجَنَّةِ). فيجيبُهم أهلُ الجنَّةِ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ﴾ ، أي شرابُ الجنَّة وثمارُها. وإنَّما جُعلَ شرابُ الكافرين الحميمَ الذي يُصْهَرُ بهِ ما في بطونِهم والجلود، وطعامُهم الضَّرِيْعَ وَالزَّقُّومَ.

وَقِيْلَ: إنَّ أهلَ النار ينادون أهلَ الجنَّةِ بعد أن يستغيثُوا فَيُغَاثُوا بماءٍ كَالْمُهْلِ، ثم يستغيثُوا بالطعامِ فيغاثوا بالزَّقُّومِ والضَّرِيْعِ، فيُقْبِلُونَ على الصَّبْرِ فلا يُغني عنهم، فيقولون: سَوَاءٌ علينا أجَزِعْنَا أمْ صَبَرْنَا، ثم ينادون حينئذٍ أهلَ الجنة: يا أهلَ الجنَّةِ! يا أهلَ السَّعادةِ! منكُم الآباءُ والأمَّهاتُ؛ والأبناء والأخواتُ؛ والجيرانُ والمعارف والأصدقاءُ، أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ حتى تُطْفِئُوا حَرَّ ما نَجِدُ من العطشِ، أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ من الطعامِ فَنَأْكُلَهُ لعلَّهُ يطفئُ عنَّا الجوعَ. فلا يُؤْذَنُ لأهلِ الجنَّة في الجواب مقدارَ أربعينَ سنةٍ، ثم يُؤْذَنُ لهم في جوابهم؛ فيقولونَ: إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ، يَعْنُونَ الماءَ والطعامَ.

وفي الآية بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يستغني عن الطعامِ والشراب وإن كان في العذاب، قال أبو الجوزائِيّ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: أيُّ الصَّدَقَةِ أفْضَلُ؟ قَالَ: (الْمَاءُ، أرَأيْتَ أهْلَ النَّار لَمَّا اسْتَغَاثُوا بأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ)[1].

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أولُ الآية نَعتٌ للكافرين؛ ومعناهُ: أنَّهم اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْوَ أنفسِهم؛ لاَهِينَ لاَعِبيْنَ. ويقالُ: هم الذين اختَارُوا في دِيْنِهم الباطلَ واللَّعِبَ والفرحَ والْهُزْئَ، (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي غرَّهُمْ ما أصابوهُ من زينةِ الدُّنيا مع ما كانوا فيه من طُولِ الأَمَلِ، وكذلك كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بالمسلمينَ، كما رُوِيَ في الخبر: أنَّ أبا جَهْلٍ بَعَثَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلاً يَسْتَهْزِئُ بهِ: أنْ أطعِمْني من عِنَب جَنَّتِكَ أو شيئاً من الفواكهِ! فَقَالَ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه: (قل إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ ؛ (فَالْيَوْمَ) أي يومَ القيامةِ، معناهُ: اليومَ نترُكهم كما تَرَكُوا العملَ للقاءِ يَوْمِهِمْ هَذا. ويقال: معنى قولِهِ: (نَنسَاهُمْ) نَتْرُكُهُمْ، (كَمَا نَسُوا) أي كما أعْرَضُوا عن العملِ للقاءِ يومِهم هذا اعراضَ الناسي للشيء. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ في موضعِ الجرِّ عَطْفٌ على (مَا نَسُوا)؛ المعنى: وَبِجَحْدِهِمْ بآياتِنا الدالَّةِ على التوحيدِ ((نَنسَاهُمُ الْيَوْمَ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذا))(١).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي لقد أتَيْنَاهُمْ بالقُرْآنِ الذي أتينا به آيةً بعد آيةٍ؛ وسورةً بعد سورةٍ عَلَى عِلْمٍ منَّا بأن ذلكَ أقربُ لِلتَّدَبُّرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ؛ في موضعِ نَصْبٍ على تقديرِ: هَادِياً وذا رَحْمَةٍ، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي يُصدِّقُونَ أنهُ مِن عندِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ معناه: ما ينظرُ أهلُ مكَّة إلا عاقبةَ ما وَعَدَهم اللهُ به في القُرْآن أنه كائنٌ، منه ما يكونُ في الدُّنيا؛ ومنهُ ما يكونُ في الآخرةِ. ويقالُ معناه: هل يَنْظُرُونَ إلى ما يؤُولُ إليه أمرُهم من البعثِ والعذاب ووُرُودِ النَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ) أي يوم يأتِي عاقبةُ ما وُعِدُوا فيه؛ وهو يومُ القيامةِ، يَقُولُ الَّذِينَ كفرُوا وتَركُوا العملَ له في دار الدُّنيا: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبنَا

---

(١) ما بين (( )) ليس في الأصل، وهو ضرورة لإتمام المعنى.

بالصِّدْق في أمر البعثِ بعدَ الموتِ فكذبناهُم، ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾ ؛ أي يقولونَ هذا القولَ حين يَرَوْنَ الشُّفعاءِ يشفعونَ للمؤمنين، فيقال لَهم: ليسَ لكم شَفِيْعٌ، فيقولون: هل نُرَدُّ إلى الدُّنيا فنُصدِّقَ الرسلَ، ونعملَ الأعمالَ الصالحة؟ فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ . وجوابُ الاستفهامِ بالفاءِ يكونُ نَصْباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي غَبَنُوا حَظَّ أنفسِهم من الجنَّةِ، فَوَرَثَهُمْ المؤمنونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي بَطَلَ عنهم فلم يَنْفَعْهُمْ، وذهبَ عنهم آلِهتُهم؛ وهي التي كانوا يَفْتَرُونَ بها على اللهِ تعالى أنَّها شفعاؤُهم. ويقالُ: معناه: وَضَلَّ عَنْهُمْ حينئذٍ افْتِرَاؤُهُمْ على اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ وذلكَ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عيَّرَ المشركينَ بعبادةِ الأصنامِ بقوله: (وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) سَأَلُوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: يا مُحَمَّدُ؛ مَنْ رَبُّكَ الذي تدعُونا إليه؟ فأرادُوا بذلك أن يَجْحَدُوا معنى في أسمائهِ، وفي شيء من أفعاله، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةِ، فتحيَّروا وعجَزُوا عن الجواب.

ومعنى الآيةِ: أنَّ خالِقَكم ورازقَكم هو اللهُ الذي ابتدأ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض لا على مثال سابق؛ فَوَحِّدُوهُ يا أهلَ مكَّةَ واعبدوهُ وأطيعوهُ؛ ودعُوا هذه الأصنامَ؛ فإنَّها لم تَخْلُقْ سَماءً ولا أرضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) قال ابنُ عبَّاس: (أَوَّلُهَا الأَحَدُ وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ). قال الحسنُ: (هِيَ سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا). ويقالُ: في سِتَّةِ ساعاتٍ من ستة أيَّام من أوَّل أيَّامِ الدُّنيا. ولو شاءَ لَخلَقَهَا في أسرعِ من اللَّحظةِ، ولكنه عَلَّمَ عبادَهُ التَّأنِّي والرِّفْقَ والتدبيرَ والتثبُّتَ في الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ اختلفَ المفسِّرون في ذلكَ؛ قال بعضُهم: يطلقُ الاستواءُ كما نَطَقَ به القُرآنُ ولا يكيِّفُ، كما أثْبَتَ اللهُ ولا نُكيِّفُهُ. وهذا القولُ مَحْكِيٌّ عن مالكِ بنِ أنسٍ، فإنه سُئِلَ عن معنى هذه الآيةِ؛ فقال:

(الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ).

وقال بعضُهم: معنى (اسْتَوَى): اسْتَوْلَى، كما يقال: اسْتَوَاء الأميرُ على بلدِ كذا؛ أي اسْتَوْلَى عليهِ واحتوى وأحرزه، ولا يرادُ بذلكَ الجلوسُ. قال الشاعرُ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاق مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَم مِهْرَاق

أراد بذلكَ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانٍ، واستواءَهُ على العراق: لا الْمَلِكَ.

وقال بعضُهم: لفظ الاستواءِ في الآيةِ كنايةٌ عن نَفَاذِ الأمْرِ وعِظَم القُدْرَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ثُمَّ أقبلَ على خَلْقِ العرشِ وعَمَدَ إلى خَلْقِهِ، وكذلكَ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾(١) أي عَمَدَ إلى خَلْقِ السَّماءِ.

فإن قِيْلَ: ما معنى دخول (ثُمَّ) في قولهِ تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، و(ثُمَّ) تكون للحَادِثِ، واستيلاءُ اللهِ تعالى واقتدارهُ ومُلكه للأشياءِ ثابتٌ فيما لَمْ يَزَلْ ولاَ يزالُ؟ قِيْلَ: معناه: ثُمَّ رَفَعَ العرشَ فوقَ السَّمواتِ واستولَى عليهِ(٢). وإنَّما أدخلَ (ثُمَّ) مُتَّصِلةً في اللفظ بالاستواءِ؛ لأن الدلالةَ قد دَلَّتْ من جهةِ العقل علىأنَّ اقتدارَهُ على الأمور ثابتٌ فيما لم يزل. وهذا مثلُ قولهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾(٣) أي حتى يُجَاهِدَ الْمُجَاهِدُونَ منكم ونحنُ عَالِمونَ بهم.

ويقال: معنى (ثُمَّ) هنا بمعنى الواو على طريقِ الجمع والعطف دون التَّراخِي، فإنَّ خَلْقَ العرشِ والاستيلاء عليه كان قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرض. وقد وردَ في الخبر: [أنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ اللَّوْحُ، فَأَمَرَ اللهُ الْقَلَمَ أنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ](٤).

---

(١) فصلت / ١١.

(٢) في المخطوط كرر الناسخ السطر السابق كتابة.

(٣) مُحَمَّد/ ٣١.

(٤) في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: الحديث (٢٩٢٨) علقه ابن حجر وسكت عنه. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٩٠؛ قال الهيثمي: ((عن ابن عباس رواه البزار ورجاله ثقات. وقال:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ ؛ أي يُغْشِي بظلمةِ الليلِ ضوءَ النَّهار، ولم يقل: ويُغْشِي النهارَ الليلَ؛ لأنَّ الكلامَ دليلٌ عليه، وقد بَيَّنَ في آيةٍ أخرى فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهار وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْل﴾[١]. وقرأ (يُغَشِّي) و(يُغْشِي) بالتشديد والتخفيفِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ ؛ أي يَطْلُبُ سوادُ الليلِ ضوءَ النَّهار سريعاً؛ حتى يَغْلِبَ بسوادِهِ بياضَهُ، وكلٌّ واحدٍ منهما في طَلَبِ صاحبِهِ وتسييرِهِ ما بَقِيَتِ الدُّنيا. وَالْحَثُّ: السريعُ في السَّوْقِ من غيرِ فُتُورٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي وخلَقَ منهُ الأشياءَ مُذلَّلاتٍ بالْمَسِيْرِ في ساعاتِ الليلِ والنَّهار، جارياتٍ على مَجَارِيْهِنَّ بمنافعِ بني آدمَ بأمرِ اللهِ وتدبيرِهِ وصُنْعِهِ. ومن قرأ (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ) كلُّها بالرفعِ فعلى الابتداء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ؛ كَلِمَةُ تَنْبِيْهٍ؛ معناهُ: اعْلَمُوا أنَّ خَلْقَ الأشياءِ كلِّها للهِ، وأنَّ الأمرَ - وهو القضاءُ - نافذٌ في خَلْقِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ ؛ أي تعالى اللهُ وهو ثابتٌ لَمْ يَزَلْ ولا يزالُ. ويقالُ: (تَبَارَكَ) تَفَاعَلَ من البركةِ؛ أي البركةُ كلُّها من اللهِ تعالى، واسْمُهُ بَرَكَةٌ لِمن ذكَرَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أي خالِقُ الْخَلْقِ أجمعين. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ عَلَى ((مَا عَمِلَ مِنْ)) عَمَلٍ صَالِحٍ وَحَمَدَ نَفْسَهُ، قَلَّ شُكْرُهُ[٢] وَحَبطَ عَمَلُهُ. وَمَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الأَمْرِ شَيْئاً، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى أنْبِيَائِهِ لِقَوْلِهِ تعالَى: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)][٣]. قال الشاعرُ:

إلَى اللهِ كُلُّ الأَمْرِ فِي خَلْقِهِ مَعَانِي ... وَلَيْسَ إلَى الْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الأَمْرِ

=رواه الطبراني ورجاله ثقات مختصراً)). وذكره مطولاً وقال: ((رواه الطبراني وفيه الضحاك ضعفه جماعة ووثقه ابن حبان وقال: لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله وثقوا)).

(١) الزمر / ٥.

(٢) في المخطوط: (فقد كفر) بدل: (قل شكره) وهو تحريف من الناسخ.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٤٦٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ؛ أي ادْعُوهُ علانيةً وسِراً، فإنَّ التَّضَرُّعَ من الضَّرَاعَةِ وهي إظهارُ شدَّة الحاجةِ. ويقالُ: معنى التَّضَرُّعِ: التَّمَلُّقُ والتَّخَشُّعُ والْمَيْلُ في الجهادِ، يقال: ضَرَعَ يَضْرَعُ ضَرْعاً إذا مالَ بإصبعَيْهِ يَميناً وشِمالاً خَوْفاً وذُلاًّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَخُفْيَةً) أي أدعُوا بالخضوعِ في السِّرِّ دونَ العلانيةِ، فكأنَّ اللهَ تعالى أمرَ في الدعاءِ أن يُجْمَعَ بَيْنَ أن يُخْفِيَهِ وبين أن يَفْعَلَهُ في غايةِ الْخُضُوعِ والانقطاعِ إليه؛ لأنَّ ذلكَ أبعدُ من الرِّياءِ.

وهذا القولُ أصحُّ من الأوَّل لقولهِ ﷺ: [خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ](١). وعن الحسنِ أنه قالَ: (كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ فَلاَ تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً).

وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه قالَ: [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لاَ يَرُدُّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بهمَا وَجْهَهُ](٢). وعن أبي موسَى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأشْرَفُوا عَلَى وَادٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُكَبِرُونَ وَيُهَلِّلُونَ وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ، فَقَالَ: [إنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيْعاً قَرِيْباً؛ وَإنَّهُ مَعَكُمْ](٣). وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في مَدْحِ العبدِ الصَّالحِ ورضيَ دُعَاءَهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يحبُّ المتجاوزين في الدُّعاءِ. وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إيَّاكُمْ وَالاعْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ، فَإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ](٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٢. وابن حبان في الإحسان: كتاب الرقاق: باب الأذكار: الحديث (٨٠٩)؛ وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: باب ما جاء في رفع الأيدي عند الدعاء: الحديث (٣٣٨٦)؛ وقال: صحيح غريب. والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: الحديث (٢٠١٠) وسكت عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر: الحديث (٤٢٠٥)، وكتاب الدعوات: باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله: الحديث (٦٤٠٩).

(٤) مريم / ٣.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٥٤: الحديث (٢٩٤٠١ و٢٩٤٠٢) بلفظ: [إنَّهُ=

واختلفُوا في الاعتداءِ في الدُّعاءِ؛ قال بعضُهم: هو أن يَدْعُـو بـاللَّعْنِ وَالْخِـزْيِ؛ فيقولُ: لَعَنَ اللهُ فُلاَناً؛ أخْزَى الله فلاناً. أو يَدْعُو بما لا يحلُّ فيجاوزُ حدَّ العبوديَّةِ. وقال بعضُهم: هو أن يَسْأَلَ لنفسهِ منازلَ الأنبياء، أو يسألَ اللهَ شيئاً مِن حكمتهِ أنه يفعلهُ في الدُّعاء. وَقِيْلَ: هو أن يقولَ: أسْأَلُكَ بحقِّ جبريلَ وبحقِّ الأنبياءِ أن تُعْطِيَنِي كذا. وَقِيْلَ: هو أن يَدْعُو بالصِّياحِ. وَقِيْلَ: هو أن يعملَ عملَ الفُجَّار ويسألَ مسألةَ الأبرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ ؛ أي لاَ تُفْسِدُوا فيها بالشِّرْكِ والمعصيةِ بعدَ إصلاحِ اللهِ إيَّاها ببعثِ الرُّسُلِ إليها، فأمَرُوا فيها بالحلالِ ونَهَوا عنِ الحرام، فَتَصْلُحُ الأرضُ بالطَّاعَةِ. وَقِيلَ: معناهُ: لا تَعْصُوا في الأرضِ فيُمْسِكَ اللهُ المطرَ عنها، ويهلكَ الحرثَ بمعاصيكُم. وَقِيلَ: معناهُ: لا تَجُورُوا في الأرضِ فتخرِّبوها؛ لأنَّ الأرضَ قامت بالعدل، وقد أصلحَها اللهُ بالنِّعمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي وَاعْبُدُوهُ خائفينَ من عذابهِ؛ طامعينَ في رحمتهِ وثوابه. وقال الربيعُ: (خَوْفًا وَطَمَعًا) أيْ رَغَباً وَرَهَباً. وقال ابنُ جريج: (خَوْفُ الْعَدْلِ وَطَمَعُ الْفَضْلِ). وقال عطيَّةُ: (خَوْفاً مِنَ النِّيْرَانِ وَطَمَعاً فِي الْجِنَانِ). وقال ذُو النون المصريُّ: (خَوْفاً مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعاً فِي التَّلاَقِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ إنْعَامَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. ويقالُ: إنَّ الْمُحْسِنَ مَن أخلصَ حسناتِهِ من الإساءةِ. وإنَّما قال: (قَرِيبٌ) ولم يقل: قريبةٌ؛ لأنَّ الرحمةَ والعَفْوَ والغفرانَ في معنىً واحدٍ، وما لم يكن فيه تأنيثٌ حقيقيٌّ كنتَ بالخيار، إن شئتَ ذكَّرْتَهُ وإن شئتَ أنَّثْتَهُ.

وقال ابنُ جبيرٍ: (الرَّحْمَةُ هُنَا الثَّوَابُ). وقال الأخفشُ: (هِيَ الْمَطَرُ). فيكون القريبُ نعتاً للمعنى دون اللفظِ كقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

=سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ]. وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب الإسراف في الماء: الحديث (٩٦). وابن ماجة في السنن: كتاب الدعاء: الحديث (٣٨٦٤).

وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[١] ولم يقل: مِنْهَا؛ لأنهُ أرادَ بالقسمةِ الميراثَ والمالَ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[٢]، والصَّاعُ مُذكَّرٌ إلاَّ أنه أرادَ به السرقةَ والسِّقايةَ. وقال الكسائيُّ: (أرَادَ إنَّ إتْيَانَ رَحْمَةِ اللهِ قَرِيْبٌ، كقولهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٣]؛ أيْ لَعَلَّ إتْيَانَهَا قَرِيْبٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾؛ قرأ عاصم (بُشْرًا) بالباءِ المضمُومة والشِّين الْمَجْزُومَةِ؛ يعني أنه يَنْشُرُ بالمطرِ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[٤]. وقرأ (بُشُرًا) بضمِّ الباءِ والشِّين على جمعِ (بُشُر)؛ مثل نُذْرٍ ونَذِيْرٍ. وقرأ ابنُ عامرٍ: (نُشْرًا) بالنون المضمُومة وإشكالِ الشِّين. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (نَشْرًا) بالنونِ المفتوحة، وجزمِ الشِّين على التخفيفِ. وقرأ مسروقُ: (نَشَرًا) بفتحتين؛ أراد مَنْشُوراً. وقرأ نافعُ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: (نُشُرًا) بالنون المضمومة وضَمِّ الشِّين.

وقرأ بعضُهم:(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ) بلفظ الوحْدَان. واختارَ أبو عُبيد لفظَ الجماعةِ، وكان يقولُ: (كُلُّ مَا فِي الْقُرْآن مِنَ الرِّيَاحِ ذكَرٌ فَهُوَ لِلرَّحْمَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ الرِّيَاحِ أنْثَى فَهُوَ لِلْعَذَاب). واحتجَّ بِمَا رويَ عن النبيِّ ﷺ أنهُ كان يقولُ إذا هبَّتْ رِيْحٌ: [اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً، وَلاَ تَجْعَلْهَا رِيْحاً][٥].

والنَّشْرُ: جمع النَّشُور؛ وَهِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَتُثِيْرُ السَّحَابَ كَصَبُورٍ وَصَبْرٍ. ومن قرأ (نُشْرًا) بضمَّةٍ واحدةٍ فللتخفيف، كما يقالُ: رُسُلٌ ورُسْلٌ. ومن قرأ (نَشْرًا) بنصب النون على معنى نَنْشُرُ السَّحَابَ نَشْرًا. والنَّشْرُ خِلاَفُ الطَّيِّ كَنَشْرِ الثَّوْب بَعْدَ طَيِّهِ، قال الفرَّاءُ: (النَّشْرُ مِنَ الرِّيَاحِ: الطَّيِّبَةُ اللَّيِّنَةُ الَّتِي تُنْشِئُ السَّحَابَ)[٦]. ومن قرأ (بُشْرًا) بالباءِ والضمِّ؛ فهو جمعُ بَشِيْرٍ.

---

(١) النساء / ٨.
(٢) يوسف / ٧٦.
(٣) الأحزاب / ٦٣.
(٤) الروم / ٤٦.
(٥) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة: ذكر الرياح: الحديث (٧٣/ ٨٧٣).
(٦) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٣٨١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) أي قُدَّامَ الْمَطَرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ ؛ أي سُقْنَا السَّحابَ بأمرِ اللهِ إلى أرضٍ ليس فيها نباتٌ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرْسِلُ اللهُ الرِّيَاحَ فَتَحْمِلُ السَّحَابَ، فَتَمُرُّ بِهِ كَمَا يَمُرُّ الرَّجُلُ النَّاقَةَ وَالشَّاةَ حَتَّى تُدِرَّ ثُمَّ تُمْطِرَ، فَيَخْرُجُ بِالْمَطَرِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) أو لأَحْيَا بلداً مَيِّتاً لا نباتَ فيه. وَقِيْلَ: لا تُمطر السَّماءُ حتى يُرْسِلَ اللهُ أربعةَ أرياحٍ: فَالصَّبَا تُهَيِّجُهُ، والشِّمَالُ تَجْمَعُهُ، والجنوبُ تَدُرُّهُ، والدَّبُورُ تَصْرِفُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ ﴾ ؛ أي بالسَّحاب، وَقِيْلَ: بالبلدِ الميِّتِ الذي لا ماءَ فيه ولا كَلأَ، يَنْزِلُ اللهُ به المطرَ، ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴾ ؛ أي فيخرجُ به أَلْوَانَ؛ ﴿ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ذلكَ الإخراجِ الذي ذكرناهُ في إحياءِ الأرضِ الميِّتة، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى من قُبورِهِمْ يومَ القيامةِ، ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ بما ينالُكم، ﴿ تَذَكَّرُونَ ٥٧ ﴾ ؛ أي تَسْتَدِلُّونَ على توحيدِ الله وأنهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

وقال ابنُ عبَّاس وأبو هُريرةَ[1]: (إذا مَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي النَّفْخَةِ الأُوْلَى، مُطِرَتِ السَّمَاءُ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً قَبْلَ النَّفْخَةِ الأَخِيْرَةِ مِثْلَ مَنِيِّ الرِّجَالِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَطَرِ كَمَا يَنْبُتُونَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَكَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى إذا اسْتُكْمِلَتْ أَجْسَادُهُمْ نُفِخَ فِيهَا الرُّوحُ، ثُمَّ يُلْقِي عَلَيْهِمْ نَوْمَةً فَيَنَامُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ - وَهِيَ نَفْخَةُ الْبُوقِ- جَلَسُوا وَخَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَهُمْ يَجِدُونَ طَعْمَ النَّوْمِ فِي رُؤُوسِهِمْ، كَمَا يَجِدُ النَّائِمُ إذا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا. فَيُنَادِيْهِمْ: هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٧٤) عن أبي هريرة، ولم يسنده أو أن السدي أرسله هكذا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ يعني: أنَّ المكانَ الزَّاكِي من الأرضِ يخرجُ رَيْعُهُ بلا كَدٍّ ولا عناءٍ ولا مَشَقَّةٍ فينتفعُ بهِ، ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ ﴾ ؛ ترابُـهُ؛ وهـي الأرضُ السَّـبْخَةُ، ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾ ؛ رَيْعُـهَا؛ ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ ؛ أي في كَدٍّ وعناءٍ. قال ابنُ عبَّاس: (هَذا مَثَـلٌ ضَرَبَـهُ اللهُ تَعَـالَى لِلْمُؤْمِـنِ وَالْكَافِرِ، فَإنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ فَيَنْتَفِعُ بهَا، وَيَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ كَمَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ الْبَلَدَ الطَّيِّبَ، وَالْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلاً مِنَ الطَّاعَةِ إلاَّ شَيْئاً يَسِيْراً)[١].

والنَّكِدُ في اللُّغةِ: هُوَ الْقَلِيْلُ الَّذِي لاَ يُنْتَفَعُ بـهِ. وَقِيـلَ: معنى قولـهِ تعـالى: (لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا) أي عَسِراً قليلاً بعناءٍ ومشقَّةٍ. وقرأ أبو جعفر: (نَكَدًا) بفتـحِ الكـاف؛ أي بالنَّكَدِ. وَقِيْلَ: هي لغةٌ في نَكِدٍ، ويقرأ (نَكْد) بإسكانِها لغـةٌ أيضـاً. ويقـال: رجـلٌ (نَكْدًا)[٢]؛ إذا كان عَسِراً مُمْتَنِعاً من إعطاءِ الحقِّ على وجه الْبُخْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ ؛ أي كَمَا صَرَّفْنَا لكم آيةً في إثْـرِ آيةٍ؛ هكذا نُبَيِّنُ الآيـاتِ، ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ نِعَـمَ الله تعـالى ويعتـبرون بآياتهِ وأمثالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ وهـو نـوحُ بـن لَمـك بـن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدْرِيْسُ. وكان نوحٌ نَجَّاراً بعثَهُ اللهُ إلى قومهِ وهو ابنُ خمسين سنة[٣]، ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي وَحِّدُوهُ وأطيعوهُ، ولا تعبدُوا معه غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ؛ قرأ أبو جعفـرٍ ويحيـى بـن وثَّـابٍ والأعمشُ والكسائيُّ: (غَيْرِهِ) بالخفضِ نَعْتاً للإلهِ. وقرأ الباقون بالرفع على معنى: مـا لكُمْ إلَهٌ غيرهُ. وَقِيْلَ: على نِيَّةِ التقديم وإن كان مؤخَّراً في اللفظِ؛ تقديرهُ: ما لكم غَـيرُ اللهِ من إلهٍ. وَقَوْلُـهُ تَعَالَـى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٧٦).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٣١؛ قال القرطبي: (نصب على الحال؛ وهو العَسِرُ الممتنع من إعطاء الخير).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٣٣.

معناهُ: إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ إنْ لم تُؤْمِنوا عَذابَ يَوْمِ القيامةِ. وقد يذكرُ الخوفُ ويراد به اليقينُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ من قومهِ: إنَّا لَنَراكَ يا نوحُ فِي ذهابٍ من الحقِّ بيِّنٍ لنا لمخالفتِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾؛ أي ليس بي ذهابٌ عن الحقِّ فيما أدعُوكم إليهِ، ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾؛ أي ولكِنْ أرسلَني ربُّ العالمين الذي يَملُكُ كلَّ شيءٍ. وإنَّما لم يقل: ليست بي ضلالةٌ؛ لأنَّ معنى الضلالةِ الضَّلالُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾؛ أي أؤَدِّي إليكم ما حَمَّلَنِي اللهُ من الرِّسالةِ. وإنَّما قال: (رِسَالاتِ) لأن الرسالةَ تتضمَّنُ أشياءَ كثيرةً من الأمرِ والنَّهي؛ والتَّرغيب والتَّرهيب؛ والوَعْدِ والوعيدِ، فَذَكَرَ تارةً بلفظٍ يدلُّ على الفعل؛ وتارةً بلفظٍ يدلُّ على الوِحْدَانِ.

قرأ أبو عمرو: (وَأبْلِغُكُمْ) بالتخفيف في جميعِ القُرآن كقولهِ تعالى: ﴿أبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي﴾[(١)]، و﴿لِيَعْلَمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رسَالاتِ رَبهِمْ﴾[(٢)]. وقرأ الباقونَ مشدَّداً كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزلَ إلَيْكَ مِنْ رَبكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَهُ﴾[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾؛ أي انْصَحُ لكم فيما أدعُوكم إليه وأحذِّركم منه. والنُّصْحُ: إخْرَاجُ الْغِشِّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، يقالُ: نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ؛ وَشَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي أعلمُ إنْ لم تَتُوبُوا من الشِّركِ أتاكم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ الألِفُ في أوَّل هذه الآية ألِفُ استفهامٍ، دخلَ على واو العطف على جهةِ الإنكار، فَبَقِيَتِ الواوُ مفتوحةً كما كانت. ومعناها: أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبكُمْ على

---

(١) الأعراف / ٧٩. (٢) الجن / ٢٨. (٣) المائدة / ٦٧.

آدمِيٌّ منكم مِثْلكُمْ تعرفون نَسَبَهُ فيكم، ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ؛ أي لِيُعْلِمَكُمْ بموضعِ الْمَخَافَةِ، ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ ؛ الشِّرْكَ والمعاصي، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي ولكي تُطِيْعُوا فتُرحَموا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ ؛ أي فكَذبُوا نوحاً فأنْجَيْنَاهُ من الطُّوفَان والمؤمنينَ الذين كانوا معهُ في السَّفِينةِ، وكانوا نَحْواً من ثمانين إنساناً - كذا قال الكَلبيُّ — أربعينَ رَجُلاً وأربعينَ امرأةً. وَقِيْلَ: سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ وَأزْوَاجُهُمْ، وستَّةُ أناسٍ غيرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ أي بدلائلِنا وآياتنا كمَا؛ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي قَدْ عَمَوْا عن الحقِّ والإيْمَان. وواحدُ الـ (عَمِينَ): عَمٍ؛ وهو الذي قد عَمِيَ عن الحقِّ. وَقِيْلَ: معناه: أنَّهم كانوا قَوْماً جَاهِلِيْنَ لأمرِ الله. وَقِيْلَ: (كُفَّاراً). وَقِيْلَ: عَمِينَ عن نُزُولِ الغَرَقِ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ؛ أي وَأرْسَلْنَا إلى عَادٍ؛ وهم قومٌ من أهل اليَمَن، وكان اسمُ مَلِكِهم عَاداً، فنُسبوا إليه، وهو عَادُ بْنُ عَوَصِ بْنِ إرَم بْنِ سَام بْنِ نُوحٍ[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أخاهُمْ هُودًا) أي أخُوهُمْ في النَّسَب لا في الدِّيْن، وهو هُودُ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ رَبَاحِ بْنِ الْجَارُودِ بْنِ عَوَصِ بْنِ إرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. وَقِيْلَ: هو هودُ بن شالخ بن أرفخشد بن سَام بن نُوحٍ. وإنَّما أرسلَ اللهُ إليهم منهم؛ لأنَّهم لَهُ أفْهَمُ وإليه أسْكَنُ. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ الآيةُ ظاهرةُ المعنى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ ؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين كفَرُوا منهم: إنَّا لَنَرَاكَ فِي جهالَةٍ. والسَّفَاهَةُ في اللغة: خِفَّةُ الْحِلْمِ وَالرَّأي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ يعني إنَّهم كذبُوهُ في دعوَى الرسالةِ ونزول العذاب بهم، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ ؛ أي ليسَ بي جهالَةٌ، ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٠): ((عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح)).

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ إليكم فيما يأمُركم بـه مـن عبادتـهِ وتوحيـده. وفي الآيـةِ موضعُ أدبٍ لِخُلُقٍ وتَعلُّمٍ مِنَ اللهِ حُسْنُ جَوابِ السُّفَهَاءِ؛ لأنَّ هُوداً عليه السلام اقْتَصرَ عَلَى دفْعِ مَا نَسَبُوهُ إلَيْهِ بنَفْيِ مَا قَالُوهُ فَقَطْ، وَلَمْ يُقَابلْهُمْ بشَيْءٍ مِنَ الْكَلاَمِ الْقَبيْحِ، وكذلـكَ فَعَلَهُ نُوحُ عليه السلام؛ فقال: لَيْسَ بي ضَلالَةٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ على التوبةِ. وقولهِ: (نَاصِحٌ) أي أدعوكُم إلى التَّوبةِ، وقد كنتُ فيكم قَبْلَ اليومِ أمِيْنـاً، فكيفَ تَتَّهِمُونَنِي اليومَ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرُه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ؛ أي وَاذكُرُوا هذه النِّعمةَ العظيمـةَ بـأن أوْرَثَكُـمُ الأرضَ بعـدَ هلاكِ قوم نُوحٍ.

والْخُلَفَاءُ: جَمْعُ الْخَلِيْفَةِ على غيرِ لفظ الوحْدَان؛ لأن لَفْظَهُ يقتضـي أن يُجمعَ على خلاَئِفَ كما يقالُ: صَحِيْفَةٌ وَصَحَائِفُ، إلاَّ أنه مثل ظَرِيْفٌ وظُرَفَـاءُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ ؛ أي فضيلةً في الطُّولِ، قال ابنُ عبَّاس: (أطْوَلُـهُمْ مِائَةُ ذِرَاعٍ، وأقْصرُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعاً). وقال وَهَبُ: (كَانَ رَأسُ أحَدِهِمْ كَالْقُبَّةِ الْعَظِيْمَةِ، وَكَـانَ عَيْـنُ أحَدِهِـمْ يُفَـرِّخُ فِيْـهَا السِّبَاعُ وَكَذلِـكَ مَنَـاخِرُهُمْ)[1]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي نِعَـمَ اللهِ عليكـم واعملـوا بمـا تقتضيـهِ نِعَمُـهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لِتَظْفَرُوا بالنَّجاةِ والبقاءِ.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ؛ أي قالوا: يا هُودُ؛ أتأمُرُنا أن نَعْبُدَ ربّاً واحداً، ونَتْرُكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنـا مـن الآلِهَةِ، فقال لَهم: إنْ لم تفعلُوا مـا آمركُم بـه أتـاكمُ العـذابُ، قـالوا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ؛ أي تُخوِّفُنـا مـن العـذاب، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أنَّكَ رسولٌ من عندِ اللهِ.

---

(١) هذا التصور الجامح من خيالات القصَّاص، وخرافات الرهبان وأساطيرهم، ولا أصـل لـه مـن رواية صحيحة، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ ؛ أي قد وَجَبَ عليكم من ربكُمْ عذابٌ وسَخَطٌ. والرِّجْسُ والرِّجْزُ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ أي تُخاصِمُونني في آلِهتكُم وأنتم صنعتُموها بأيديكم، ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ؛ أي في عبادتِها، ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾ ؛ حُصولَ العذاب بكم، ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أنْ يُهْلِكَكُمُ اللهُ بعذابٍ مِن عندهِ.

قولهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ؛ أي خَلَّصْنَاهُ من العذاب والذينَ معه بنِعْمَةٍ منَّا عليهم؛ وأمَرْناهُم بالخروجِ مِن بَيْنِ الكُفَّار قبلَ إنزال العذاب عليهم، ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي اسْتَأْصَلْنَاهُمْ بالرِّيْحِ الْعَقِيْمِ، فما بَقِيَ منهم أحدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي ما أهْلَكَهُمُ اللهُ إلاَّ وكان في عِلْمِهِ أنهُ لو لم يُهْلِكْهُمْ ما كانوا مؤمنينَ.

فصلٌ: وكانت قصة عاد وإهلاكهم على ما ذكره السُّدِّيُّ وغيره من المفسرين: (أنَّ عَاداً كانَ مساكنُهم اليمنَ، وكان مساكنُهم الأَسَافَ؛ وهي رمالٌ يقال لَها: رَمْلُ عَالِجٍ وَدَهْمَانَ وَنَيْرَانَ، ما بين عُمَانَ إلى حَضْرَمَوْتَ، وكانوا قد فَشَوا في الأرضِ، وقَهَرُوا أهلَها بقوَّتِهم التي أعطاهُم اللهُ إيَّاها، وكانوا يعبدونَ الأوثانَ.

فَبَعَثَ اللهُ إليهم هُوداً نبيّاً ﷺ مِن أوسَطِهم في النَّسَبِ، وأفضَلِهم في الْحَسَبِ، فأمَرَهم أن يُوَحِّدُوا اللهَ ولا يعبدُوا غيرَهُ، وأن يَكُفُّوا عن ظُلْمِ الناسِ، فَأَبَوا عليهِ وكَذبُوهُ وقالوا: مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟! وتَجَبَّروا في الأرضِ وبطَشُوا بَطْشَةَ الجبَّارينَ، فلما فَعَلُوا ذلك أمْسَكَ اللهُ عنهمُ الْمَطَرَ ثلاثَ سنين حتى جَهَدَهُمْ ذلك.

وكان الناسُ في ذلكَ الزَّمَان إذا أنْزلَ بهم بَلاَءٌ وَجَهْدٌ مَضَوا إلى البيتِ الحرام بمَكَّةَ مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم وسألُوا اللهَ الْفَرَجَ، وكلُّ الناس مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم مُعَظِّماً لِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ، عَارفاً بحُرْمَتِهَا. وكان أهلُ مكَّةَ يومئذ الْعَمَالِيْقَ، أبوهُم عِمْلِيْقُ بْنُ لاَوِذَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وكان رئيسُ العماليقِ يومئذٍ بمكة رَجُلاً يقال لهُ: مُعَاوِيَةُ بْنُ بَكْرٍ، وكانت أُمُّهُ من عَادٍ.

فلمَّا قُحِطَ المطرُ من عَادٍ وجَهدُوا؛ قالوا: جَهِّزُوا منكم وَفْداً إلى مَكَّةَ يَسْتَسْقِي، فَبَعَثُوا قِيلَ بن عنز، ولُقَيم بن هزال في سبعينَ رَجُلاً، فلما قَدِمُوا مكةَ نزلوا على مُعَاوِيَةَ بنِ بكرٍ وهو في خارج مكَّةَ، فأنزلَهم وأكرمَهم، وكانُوا أخوالَهُ وأصهارَهُ، فأقامُوا عندَهُ شَهْراً يشربونَ الْخَمْرَ وتغنِّيهم الْجَرَادَتَان؛ وهما قَيْنَتان لمعاوية.

فلما رأى طُولَ مقامِهم وقد بعثَهُم قومُهم يَتَغَوَّثُونَ من البَلاَءِ الذي أصابَهم؛ شُقَّ ذلكَ عليهِ فقال: إِخْوَانِي وأَصْهَارِي وهؤلاءِ مقيمونَ عندِي وهم ضَيْفِي، واللهِ لا أدري ما أصنعُ بهم، أَسْتَحِي أن آمُرَهم بالخروجِ إلى حاجتهم، فَيَظُنُّونَ أن ذلك لضيقِ مكانِهم عنده، وقد هَلَكَ قومُهم من ورائِهم جَهْداً وعَطَشاً، فشَكا ذلكَ إلى قَيْنَتَيْهِ الجرادتين؟ فقالتَا: قُلْ شِعْراً لِنُغَنِّيَهِمْ بهِ لا يدرونَ مَن قالَهُ، لعلَّ ذلك يُخرِجُهم. فقالَ معاويةُ:

أَلاَ يَا قِيْلَ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنَمْ ... لَعَلَّ اللهَ يَسْقِيْنَا غَمَامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَاداً ... قَدْ أَمْسَوا لاَ يَبِيْنُونَ الْكَلاَمَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيْدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيْرَ وَلاَ الْغُلاَمَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ أَيَامَى
وَأَنْتُمْ هَا هُنَا فِيْمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلاَ لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلاَمَا

فلمَّا غنَّتْهُم الجرادتان بهذا، قال بعضُهم لبعضٍ: يا قومِ، لقد أبطأتُم على أصحابكم، فقومُوا وادخلُوا الْحَرَمَ واسْتَسْقُوا، فَتَقَدَّمُوا إلى الحرمِ. فقام قِيلُ بن عنز يستسقي في المسجدِ، فقال: اللَّهُمَّ إنِّي لم أجِيءْ لمريضٍ فأداويهِ، ولا لأسيرٍ فأُفادِيهِ، اللَّهُمَّ أسقنا فإنا قد هلكنا، اللَّهُمَّ اسق عَادَ ما كُنْتَ تسقيهم. وقال قومهُ: اللَّهُمَّ أعطِ قِيْلاً ما سألَكَ، واجعلْ سؤَالَنَا مع سُؤْلِهِ. فأنشأ اللهُ سحابةً بيضاءَ؛ وسحابةً حمراءَ؛ وسحابةً سوداءَ، ونُودِيَ: يا قِيْلُ؛ اخْتَرْ لنفسِكَ ولقومك من هذا السَّحاب ما شِئْتَ. فقالَ: اخترتُ السوداءَ لأنَّها أكثرُ السَّحاب ماءً. فنودي: اخْتَرْتَ رَمَاداً رِمْداً لا يُبقي مِن آلِ عادٍ ولداً ولا شيوخاً إلا صارُوا هُمَّداً.

ثم سَاقَ اللهُ السَّحابةَ السوداءَ التي اختارها قيلٌ بما فيها من النِّقْمَـةِ والبـلاءِ إلى عادٍ، حتى خرجت عليهم من وادٍ لَهم يقال لَهم: الْمُغِيْثُ. فلمَّا رأوها فَرِحُوا وقَالُوا: هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[١] أي كلُّ شيء مَرَّتْ به، فسَخَّرَهَا الله عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا؛ أي دَائِبَةً. فكانت الريحُ تحمل الضَّعْنَ ما بين السَّماءِ والأرض وتَدْمِغُهُمْ الحجـارةُ، وكـانوا قـد حَفَـرُوا لأرجُلِهم في الأرض وغَيَّبُوهَا إلى رُكَبِهِمْ، فجعلتِ الريحُ تدخلُ تحتَ أقدامِهم، وترفعُ كلَّ اثنين وتضربُ بأحدِهما على الآخر في الهواء، ثم تلقيهما في الوادِي، والباقونَ ينظـرُونَ حتى رَفَعَتْهُمْ كلَّهم، ثـم رَمَتْ بالتراب عليهم، فكان يُسْمَعُ أنينُهم من تحتِ الـتُّراب. فَاعْتَزَلَ هـودُ ومَـن معـهُ مـن المؤمنين في حَضِيْرَةٍ، فمـا كـان يُصِيْبُـهُمْ مـن الرِّيحِ إلاَّ مـا يُلَيِّـنُ جلودَهـم وتلـذُّ بـه أنفسُهم[٢].

وعن عمرو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ؛ قـالَ: [لَمَّـا أَرَادَ اللهُ إِرْسَـالَ الرِّيْـحِ الْعَقِيْمِ إِلَى عَادٍ، أَوْحَى اللهُ إِلَى الرِّيْحِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى عَادٍ فَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، فَخَرَجَتْ عَلَـى قَدْرِ مِنْخَرِ ثَوْرٍ حَتَّى رَجَفَتِ الأَرْضُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَقَالَتِ الْخُزَّانُ: يَا رَبِّ؛ لَنْ يُطِيْقَهَا وَلَوْ خَرَجَتْ عَلَـى حَالِـهَا لأَهْلَكَـتْ مَـا بَيْـنَ مَشَـارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِـهَا. فَأَوْحَى اللهُ: أَخْرُجِي عَلَى قَـدْرِ خَـرْقِ الْخَـاتَمِ، فَخَرَجَـتْ عَلَـى قَـدْرِ ذَلِـكَ]. قـالَ السُّدِّيُّ: (فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ علَـى عَـادٍ الرِّيْـحَ الْعَقِيْـمَ وَدَنَـتْ مِنْـهُمْ، نَظَـرُوا إلَـى الإبـلِ وَالرِّجَالِ تَطِيْرُ بهِمُ الرِّيْحُ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ، فَتَبَـادَرُوا إِلَـى الْبُيُـوتِ، فَأَخْرَجَتْـهُمُ الرِّيْحُ مِنَ الْبُيُوتِ حَتَّى أَهْلَكَتْهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ)[٣].

وعن عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلاً مِنْ حَضْرَمَوْتَ: (هَلْ رَأَيْتَ كَثِيْباً أَحْمَرَ تُخَالِطُـهُ نُدْرَةٌ حَمْرَاءُ فِيْهِ أَرَاكٌ وَسِدْرٌ كَثِيْرٌ فِي نَاحِيَةِ كَذا مِنْ حَضْرَمَوْتَ؟) قَالَ: نَعَـمْ يَـا أَمِيْرَ

---

(١) الأحقاف / ٢٤-٢٥.

(٢) هذه القصة بطولها أخرجها الطبري في جامع البيـان: النـص(١١٤٩٣). ونقلـها الثعلـبي في الكشـف والبيان:ج٤ ص٢٤٧. وذكرها البغوي في معالم التنزيل:ص٤٧٠-٤٧١: قصة عاد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٥).

الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَاللهِ إنَّكَ نَعَتَّهُ نَعْتَ رَجُلٍ قَدْ رَآهُ! قَالَ: (إنِّي لَمْ أرَهُ؛ وَلَكِنِّي حُدِّثْتُ عَنْهُ). قَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَمَا شَأْنُهُ؟ قَالَ: فِيْهِ قَبْرُ هُودٍ عليه السلام)[١].

وعن عبدِالرَّحمنِ بنِ السَّائِبِ[٢]؛ قال: (بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَزَمْزَمَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِيْنَ نَبِيّاً، وَإنَّ قَبْرَ هُودٍ وَشُعَيْبَ وَصَالِحَ وَإسْمَاعِيْلَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ)[٣]. وفي بعضِ الأخبار: أنهُ كان إذا هَلَكَ قومُ نَبِيٍّ ونَجَا هو ومَن مَعَهُ، أتَى مَكَّةَ بمن معهُ، فيعبدونَ اللهَ فيها حتَّى يَموتُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾؛ أي وأرسلنا إلى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحًا في النَّسَبِ. وثَمُودُ: اسْمٌ لِلْقَبيْلَةِ؛ سُمُّوا بهذا الاسمِ لأنَّهم كانوا على عَيْنٍ قليلةِ الماء، وموضعُهم بالْحِجْرِ بين الشَّامِ والمدينَةِ، والثَّمْدُ: الماءُ القليلُ. وثَمُودُ في كتابِ الله مصروفٌ وغيرُ مصروفٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ألاَ إنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألاَ بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[٤] فصَرَفَ الأوَّل دون الثانِي، فمَن صَرَفَهُ جعلَهُ اسْماً للحَيِّ؛ فيكونُ مُذكَّراً سُمِّيَ به مذكَّرٌ، ومَن لم يَصْرِفْهُ جعله اسْماً للقبيلةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي دلالةٌ فاصِلَةٌ بينَ الحقِّ والباطلِ من ربكم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾؛ إشارةٌ إلى ناقةٍ بعَيْنِها. قال ابنُ عبَّاس: (أتَاهُمْ صَالِحُ عليه السلام بناقةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءَ بمَسْألَتِهِمْ، فتحرَّكَتِ الصَّخْرَةُ بدُعَائِهِ، فَانْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ عَشْرَاءَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا). وفي بعضِ الرِّواياتِ: أخرجَ اللهُ من الصخرةِ ناقةً، خَلْفَهَا سَقْبُهَا[٥] الَّذِي وَلَدَتْهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَكُمْ آيَةً) أي علامةً لِنُبُوَّتِي، فتعتبرُوا وتوحِّدُوا ربَّكم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٢).

(٢) في المخطوط: (عبد الرحمن بن السائط) وهو تحريف، والصحيح عبدالرحمن بن السائب، أخو عبدالله بن السائب، قتل يوم الجمل، ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (١٤٢٥).

(٣) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٤ ص٢٥٠.

(٤) هود / ٦٨.

(٥) السَّقْبُ: ولَدُ الناقة، أو ساعةَ يولَدُ. ينظر: ترتيب القاموس المحيط: (سقب): ج ٢ ص٥٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي دعُوها ترْتَعُ في أرضِ الْحِجْرِ مِن العُشْبِ، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ؛ أي بقتْلٍ أو ضَرْبٍ أو مكروهٍ، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي مُؤْلِم إنْ فعلتُم ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ أي وَاذْكُرُوا إذِ استخلفكم في الأرضِ من بعدِ هلاكِ عَادٍ، ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ ؛ أي وَأنْزلَكُمْ في الأرضِ الْحِجْرَ تَبْنُونَ في سُهولها قصوراً في العَيصِ(١)، ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ ؛ في طُولِ الشِّتاءِ. وَقِيلَ: إنَّهم لِطُولِ أعمارهم كانوا يحتاجون أن يَنْحِتُوا مِن الجبالِ؛ لأن السُّقوفَ والأبنيةَ كانت تَبْلَى قبلَ فَناءِ أعمارهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي احفظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي ولا تَعْمَلُوا في الأرضِ بالمعاصي والدُّعَاءِ إلى غيرِ عبادةِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي قالَ الأشرافُ الرُّؤساءُ منهم الذينَ تعَظَّمُوا عن الإيْمانِ به﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا مِنَ المؤمنين: أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ إليكم مِنْ ربهِ؟

وفي هذا ذمٌّ للكافرينَ من وجهين؛ أحدُهما: الاسْتِكْبَارُ؛ وهو رفعُ النَّفْسِ فوقَ قَدْرِهَا وجُحُودُ الحقِّ. والآخرُ: أنَّهم اسْتَضْعَفُوا مَن كان يَجِبُ أنْ يُعَظِّمُوهُ وَيُبَجِّلُوهُ. وفي؛ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ ؛ أي قَوْلُ قومِ صالحٍ: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ مَدْحٌ لَهم حيث ثَبَتُوا على الحقِّ، وأظهروهُ مع ضَعْفِهِمْ من مقاومةِ الكفَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي قال رؤساؤُهم الذين تعظَّمُوا عن الإيْمان بصالحٍ عليه السلام: إنَّا بالَّذي صَدَّقْتُم بهِ من رسالتهِ جَاحِدُونَ.

---

(١) العوصُ: ضد الإمكان واليسر. وعوَّص الرجلُ إذا لم يستقم في قولٍ ولا فعلٍ. لسان العرب: (عوص).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ؛ معناه: فَعقَرُوا النَّاقَةَ التي جعل الله لَهم آيةً ودلالةً على نُبُوَّةِ نَبيِّهمْ، وقد كان صالحُ عليه السلام قال لَهم: (هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذرُوهَا تَأْكُلْ فِي أرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بسُوءٍ). وإنَّما أضافَها إلى اللهِ على التَّخْصِيْصِ والتَّفْضِيْلِ، كما يقالُ: بَيْتُ اللهِ.

وَقِيْلَ: أضيفت إلى اللهِ بأنَّها كانت بالتَّكْوِيْنِ من غير اجتماعِ ذكَرٍ وأنْثَى ولم تَكُنْ في صُلْبٍ ولا رَحِمٍ، ولم يكن لِلْخَلْقِ فيها سَعْيٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (آيَةً) نُصِبَ على الحال. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبهمْ) أي تَجَاوَزُوا الْحَدَّ في الكفر والفساد. ﴿وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ؛ بِهِ من العذاب على قَتْلِ النَّاقَةِ، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ؛ أي أخذتْهم الزَّلْزَلَةُ ثُمَّ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ عليه السلام كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَاب الْهُون﴾[1]. والصَّاعِقَةُ: هِيَ الاحْتِرَاقُ؛ أي احْتَرَقُوا، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ أي مَيِّتِيْنَ قد هَمَدُوا رَمَاداً جُثُوماً. والْجُثُومُ: الْبُرُوكُ عَلَى الرُّكَب. وَقِيْلَ: معنى الصَّيحةِ والصاعقةِ واحدٌ، فإن الصاعقةَ اسمٌ لما يُصْعَقُونَ بِهِ؛ أي يَموتُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ ؛ معناه: فأعرضَ صالحُ عنهم حين عقَرُوا الناقةَ، وعرفَ أنَّ العذابَ يأتيهم وقال: يا قَوْم لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ في أداءِ الرِّسالةِ إليكم، ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي مَنْ يَنْصَحُ لَكُمْ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَخَرَجَ صَالِحُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَهُمْ مِائَةٌ وَعَشْرَةٌ؛ حَتَّى إذا فَصَلَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَهُوَ يَبْكِي، الْتَفَتَ خَلْفَهُ فَرَأى الدُّخَانَ سَاطِعاً، فَعَرَفَ أنَّ الْقَوْمَ قَدْ هَلَكُوا، وَكَانَ عَدَدُهُمْ ألْفاً وَخَمْسَمِائَةِ. فَلَمَّا هَلَكُوا رَجَعَ صَالِحُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، فَسَكَنُوا دِيَارَهُمْ حَتَّى تَوَالَدُوا وَمَاتُوا فِيْهَا).

---

(١) فصلت / ١٧.

فإن قِيْلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ) عطفٌ على قوله: (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)؛ فكيف تكونُ الصَّيْحَةُ بعد هلاكِهم؟ قِيلَ: إنَّ الفاءَ في قوله: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ) للتَّعْقِيْب والإخبار لا لِتَرَادُفِ الحال، وهذا راجعٌ إلى حال عَقْرِهِمُ الناقةَ، لكنَّ الله ساقَ القِصَّةَ في أمرِهم إلى آخرها، ثم عَطَفَ على ذلكَ ما فعلَهُ صالِحُ للكشفِ عن عُذْرِهِ في مسألةِ إنزال العذاب بهم بعدَ كَثْرَةِ نُصْحِهِ لَهم وإصرارِهم على فعلِهم. وجوابُ إخوانِه لا يَمنعُ أنَّ صالِحاً قالَ هذا القولَ بعد هلاكِ القومِ لِيَعْتَبرَ بذلكَ مَن كانَ معهُ من المؤمنينَ.

فَصْلٌ: وقصَّتُهم ما حكاهُ السُّدِّيُّ وغيرُهُ: (أنَّ عاداً لَمَّا هلكت عَمَّرَتْ ثمودُ بعدَها، واستُخْلِفُوا في الأرضِ، فَنَزَلُوا فيها وكَثُرُوا، وكانوا في سَعَةٍ من عيشِهم، فَعَتَوا على اللهِ، وأفسَدُوا في الأرضِ وعَبَدُوا غيرَ اللهِ، فبعثَ اللهُ إليهم صالِحاً من أوْسَطِهِمْ نَسَباً، فدعاهُم إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حتى شَمَطَ[1] وَكَبِرَ ولا يَتْبَعُهُ منهم إلا قليلٌ مستضعفونَ.

فلما ألَحَّ عليهم في الدُّعاء والتَّخويفِ سألوهُ أنْ يُرِيَهُمْ آيةً تكونُ مِصْدَاقاً لقولِهِ، فقال لَهم: أيَّ آيةٍ تريدون؟ فأشارُوا له إلى صخرةٍ منفردة من ناحية الْحِجْرِ، وقالوا لهُ: أخْرِجْ لنا من هذه الصَّخرةِ ناقةً جَوْفَاءَ عَشْرَاءَ، فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بكَ وصدَّقناكَ.

فأخذ عليهم صالِحُ عليه السلام المواثيقَ، فَفَعَلُوا، فصلَّى ركعتين ودَعَا رَبَّهُ، فَتَمَخَّضَتِ الصخرةُ تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها، ثم تَحَرَّكَتْ وانصدعَتْ عن ناقةٍ عَشْرَاءَ جَوْفَاءَ،كما وَصَفُوا وهم ينظرون، ثم نَتَجَتْ سقياءَ مِثْلَهَا في الْعِظَمِ، فلمَّا خرجت الناقةُ قال لَهم صالِحُ: هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ يَوْمٍ معلومٍ.

فمكثَتِ الناقةُ ومعها سَقْبُها في أرضِ ثمود ترعَى الشَّجَرَ وتشربُ الماءَ، فكانت تَرِدُ الماءَ غِبّاً، فإذا كان يومُها وضعت رأسَها في بئرٍ يقال لها بئرُ النَّاقَةِ، فما ترفعُها حتى قد شَرِبَتْ كلَّ ما فيها، لا تدعُ قطرةً واحدة، ثم ترفعُ رأسَها فَتَنْفَشِجُ كما تُنْفَحِجُ[2]

---

(١) الشمط: بياضُ شعرِ الرَّأسِ يخالطُ سوادَهُ.

(٢) التَّفَحُّجُ والتَّفَشُّجُ: هو ان يفرِّجَ من رجليه إذا جلس.

لَهم، فيحلبونَ ما شاءُوا من لَبَنِهَا، فيشربون ويدَّخِرُون، ويَمْلأُونَ آنِيَتَهُمْ كلَّها، ثم تصدرُ من على الفَجِّ[1] الذي وردت منهُ؛ لأنَّها لا تعد أن تصدرَ من ماءٍ تردُ لضيقه. قال أبو موسَى الأشعريُّ: أتَيْتُ أرْضَ ثَمُودِ فذرعْتُ مَصْدَرَ النَّاقَةِ، فَوَجَدْتُهُ سِتِّيْنَ ذِرَاعاً[2].

وكانوا إذا جاءَ يومُهم وَرَدُوا الماءَ فيشربون ويسقُونَ مواشِيهم، ويدَّخِرون من الماءِ ما يكفيهم اليومَ الثانِي، فكانوا كذلك، وكانتِ الناقةُ إذا رأتْها مواشيهم تَنْفِرُ منها، وكانتِ الناقةُ ترعَى في وَادِي الْحِجْرِ، فَكَبُرَ ذلكَ على أهلِ المواشي منهُم، فاجتمَعُوا وتشاوَرُوا على عَقْرِ الناقةِ.

وكان في ثَمُودَ امرأةٌ يقال لها: صَدُوقُ، وكانت جميلةَ الْخَلْقِ غنيَّةً ذاتَ إبلٍ وبقر وغنم، وكانت مِن أشَدِّ الناسِ عداوةً لصالِحٍ عليه السلام، وكانت تُحِبُّ عقرَ الناقةِ؛ لأنَّها أضَرَّتْ بمواشيها، فطلبَتْ مِن ابْنِ عَمٍّ لَها يقالُ له: مُصْدَعٌ، وجعلت لهُ نَفْسَها إنْ عَقَرَ الناقةَ، وكانت مِن أحْسَنِ الناسِ وأكثرهم مالاً، فأجابَها إلى ذلكَ. ثُمَّ طلبَتْ قدار بن سالف، وكان رجلاً أحمرَ أزرقَ قصيراً يزعمون أنه وَلَدُ زنًى، ولكنَّهُ وُلِدَ على فراش سالف، فقالَتْ لهُ: يا قدار؛ أزَوِّجُكَ أيَّ بناتِي شِئْتَ على أن تَعْقِرَ الناقةَ، وكان مَنِيْعاً في قومهِ، فأجابَها أيضاً.

فانطلقَ قدار ومُصْدَعٌ فاستَغْوَوا غُوَاةَ ثَمُودِ، فأتاهُم تِسْعَةُ رَهْطٍ، فاجتمعوا على عَقْرِ الناقةِ، فأوحَى اللهُ إلى صالِحٍ: أنَّ قومَكَ سَيَعْقِرُونَ النَّاقَةَ. فقال لَهم صالِحُ بذلك، فقالوا: ما كُنَّا لنفعلَ. ثم تَقَاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأهْلَهُ. وقالوا: نَخْرُجُ فيرَى الناسُ أنا قد خَرَجْنَا إلى سَفَرٍ، فنأتِي الغَارَ فنكونُ فيه، حتى إذا كان الليلُ وخرجَ صالِحُ إلى مسجدهِ قَتَلْنَاهُ، ثم رجعنَا إلى الغَار فَكُنَّا فيهِ، فإذا رجعنَا قُلْنَا: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أهْلِهِ وَإنَّا لَصَادِقُونَ؛ أي يعلمونَ أنَّا خرجنَا في سَفَرٍ لنا.

---

(١) الفجُّ: الطريقُ الواسع بين جبَلين، وكلُّ طريقٍ بعُدَ فهو فجٌّ.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٠٧).

وكان صالِحُ ﷺ لاَ ينامُ في القريةِ، وكان له مسجدٌ خـارجَ القريـةِ يقـال لـه: مَسْجِدُ صَالِحٍ يبيتُ فيه، فإذا أصبحَ أتاهم ووَعَظَهُمْ، فـإذا أمسَـى خـرجَ إلى المسـجدِ. فانطلَقُوا ودخلُوا الغَارَ، فلما كان بالليلِ سَقَطَ عليـهم الغَـارُ فقتلَـهم، فلمـا أصبحُـوا رآهم رجلٌ فصاحَ في القريةِ فقال: ما رَضِيَ صالِحُ حتى قتلَهم، فاجتمعَ أهـلُ القريـة على عَقْرِ النَّاقَةِ)[1].

وقال ابنُ إسْحَق: (إنَّمَا اجْتَمَعَ التِّسْعَةُ الَّذِيْنَ عَقَرُوا النَّاقَةَ، فَقَالُوا: هَلُـمَّ لِقَتْـلِ صَالِحٍ، فَإنْ كَانَ صَادِقاً فَأَعْجَلْنَا قَتْلَهُ، وَإنْ كَانَ كَاذِباً أَلْحَقْنَاهُ بنَاقَتِهِ. فَأَتَوهُ لَيْلاً لِيُبَيِّتُـوهُ فِي أَهْلِهِ، فَدَمَغَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ بالْحِجَارَةِ)[2].

وقال بعضُهم: انطلقَ قدار ومُصْدَعُ وأصحابُهما التسعةُ، فرَصَدُوا الناقـةَ حـين صَدَرَتْ على الماءِ، وقد كَمَنَ بها قـدار في أصـلِ صَخْـرَةٍ علـى طريقِـها، وكَمَـنَ لَـها مُصْدَعُ في أصلِ صخرةٍ أخرى، فَمَرَّتْ على مُصْدَعٍ فرمَاهَا بسهمٍ، فـانتظمَ بـه عَضَلَـةَ سَاقِهَا، ثم خرجَ قدار فعقَرَهَا بالسَّيفِ، فَجَرَتْ تَرْغُـو، ثـم طَعَنَـهَا في لُبَّتِـهَا ونَحَرَهَـا، وخرجَ أهلُ البلدِ واقتسموا لَحْمَهَا. فلما رَآها سَقْبُهَا على ذلـكَ، هَـرَبَ يَرْغُـو فَرَغَـا ثلاثاً ودموعهُ تنحدرُ حتى أتَى الصخرةَ التي خُلِقَ منها، فانفتحَتْ له فَدَخَلَهَا.

فبلغَ صَالِحاً ﷺ عَقْرُ النَّاقَةِ، فأقبلَ إليهم، فجعلُـوا يعتـذرون إليـهِ ويقولـون: إنَّما عَقَرَهَا فلانٌ ولا ذنْـبَ لنـا. فقـال صـالِحُ: أنْظُـرُوا؛ هـل تُدْرِكُـونَ سَـقْبَهَا؟ فـإنْ أدركتموهُ فعسى أن يُرْفَعَ عنكم العذابُ. فخرجُوا في طلبهِ فلم يجدوهُ، فقالَ صَالِحُ: يا قومِ؛ لكلِّ دعوةٍ أجَلٌ؛ يا قوم تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أيَّامٍ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ.

وقال ابن إسحق: (عَقَرُوا النَّاقَةَ وَسَقْبَهَا، وَأَلْقَوا لَحْمَهُ وَلَحْمَ امِّـهِ، فَقَـالَ لَـهُمْ صَالِحُ: أبْشِرُوا بعَذاب اللهِ وَنِقْمَتِهِ. فَقَالُوا لَهُ: وَمَا عَلاَمَةُ ذلك؟ قَـالَ: تُصْبحُـونَ غَـداً وُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةً، وَبَعْدَ غَدٍ مُحْمَرَّةً، وَبَعْدَ ذلِكَ مُسْوَدَّةً. وَكَانُوا عَقَرُوهَا يَوْمَ الأَرْبعَاءِ.

---

(١) القصة بكاملها ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص٤٧٣-٤٧٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٧٦.

فَأَصْبَحُوا يَوْمَ الْخَمِيْسِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ طُلِيَتْ بزَعْفَرَان؛ صَغِيْرُهُمْ وَكَبِيْرُهُمْ؛ وَذكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، فَأَيْقَنُوا بِالْعَذَابِ، وَعَلِمُوا أنَّ صَالِحاً قَدْ صَدَقَ، فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ وَاخْتَفَى فِي مَوْضِعٍ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَجَعَلُوا يُعَذِّبُونَ أصْحَابَهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْهُمْ لِيَدُلُّوهُمْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا أصْبَحُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ أصْبَحَتْ وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةً كَأَنَّهَا خُضِّبَتْ بالدِّمَاءِ؛ فَصَاحُوا بأَجْمَعِهِمْ وَضَجُّوا وَبَكَوا، وَعَرَفُوا أنَّ الْعَذابَ قَدْ دَنَا إلَيْهِمْ، وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُخْبِرُ الآخَرَ بمَا يَرَى فِي وَجْهِهِ. ثُمَّ أصْبَحُوا يَوْمَ السَّبْتَ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ كَأنَّمَا طُلِيَتْ بالْقَارِ وَالنِّيْلِ، فَصَاحُوا جَمِيْعاً: ألاَ قَدْ حَضَرَ الْعَذابُ.

فَلَمَّا أصْبَحُوا يَوْمَ الأَحَدِ، خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إلَى صَالِحٍ ﷺ، فَمَضَى بهِمْ إلَى الشَّامِ، فَلَمَّا اشْتَدَّ الضَّحُّ يَوْمَ الأَحَدِ، أتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ عَظِيْمَةٌ، فِيْهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ، فَانْفَطَرَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ وَتَقَطَّعَتْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَبِيْرٌ وَلاَ صَغِيْرٌ إلاَّ هَلَكَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّا أرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[(١)].

وعن جابر بن عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بالْحِجْرِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ - يَعْنِي مَوَاضِعَ ثَمُودٍ- قَالَ لأَصْحَابهِ: [لاَ يَدْخُلَنَّ أحَدٌ مِنْكُمْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ أنْ يُصِيْبَكُمْ مِثْلَ مَا أصَابَهُمْ] ثُمَّ قَالَ: [لاَ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ الآيَاتِ، فَإنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ صَالِحٍ سَأَلُوا رَسُولَهُمْ الآيَةَ، فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِمُ النَّاقَةَ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ؛ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذا الْفَجِّ؛ فَتَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمَ وُرُودِهَا] وَأرَاهُمْ مُرْتَقَى الْفَصِيْلِ حِيْنَ ارْتَقَى، ثُمَّ أسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّيْرَ حَتَّى جَاوَزُوا الْوَادِي[(٢)].

وعن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ ﵁: [أتَدْرِي مَنْ أشْقَى الأَوَّلِيْنَ؟] قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [عَاقِرُ النَّاقَةِ]. ثُمَّ قَالَ: [أتَدْرِي مَنْ أشْقَى الآخِرِيْنَ؟]

---

(١) القمر / ٣١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٥٠٤ و١١٥٠٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٣٠١)؛ وقال: صحيح الإسناد.

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [قَاتِلُكَ!][١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ معناه: وأرْسَلْنَا لُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: أتأْتُونَ السَّـيِّئَةَ؛ وهي إتيانُ الذُّكُور في الأدْبَار. والفَاحِشَةُ: السَّيِّئَةُ الْعَظِيْمَةُ الْقُبْحِ. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (مَا سَبَقَكُمْ بهَا مِنْ أحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) أي لم يفعَلْها أحدٌ قبلَكم.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أوَّلُ مَا عَمِلُوا عَمَلَهُمُ الْخَبِيْـثُ أنْ خَصِبَتْ بلاَدُهُمْ فَانْتَجَعَهَا أهْلُ الْبُلْدَان، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إبْلِيْسُ فِي صُورَةِ شَابٍّ، ثُمَّ دَعَا إلَـى دُبُـرِهِ فَنُكِحَ، فَعَبَثُوا بذلِكَ الْعَمَلِ زَمَاناً، فَلَمَّا كَثُرَ فِيْهِمْ عَجَّتِ الأرْضُ إلَـى رَبـهَا، فَسَـمِعَتِ السَّمَاءُ فَعَجَّتْ إلَى رَبهَا، فَسَمِعَ الْعَرْشُ فَعَجَّ إلَى رَبهِ، فَأَمَرَ اللهُ السَّمَاءَ أنْ تَحْصِبَـهُمْ، وَالأَرْضَ أنْ تَخْسِفَ بهِمْ)[٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ أي إنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ في أدبارهم شَهْوَةً، وتـتركون إتْيَـانَ النِّسَـاءِ الـتي أبَـاحَ اللهُ لكـم، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي مُتَجَاوِزُونَ عن الحلالِ إلى الحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي مَا كَانَ جَوَابُهم إذ قَالُوا لَهم ذلك، إلا أنْ قَالُوا؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ: أخْرِجُـوا لُوطاً ومَن آمَنَ معهُ مِـنْ بلدِكـم، ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي يَتَـنَزَّهُون عن فِعْلِنَا ويُقَذِّرُونَنَا. والعربُ تُسَمِّي المدينةَ قريةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ ؛ أي خَلَّصْنَاهُ وابْنَتَيْهِ زعـوراء وريثياء. وأهلُ الرَّجُلِ: هم الْمُخْتَصُّونَ به اختصاصَ القرابةِ، وقَوْلُهُ: (إلاَّ امْرَأتَـهُ) أي

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٤؛ قال الهيثمي: (عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا...)، وذكـره بلفظ: [أشْقَى النَّاسِ ثَلاَثَةٌ...]، وقال: (وفيه ابن إسحق وهو مدلس)، وفي ص٢٩٩ قـال: (رواه الطبراني وفيه حكيم بن جبير وهو متروك وضعفه الجمهور، وقال أبـو زرعـة: محلـه الصـدق إن شاء الله، وابن إسحق مدلس).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٩٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه إسحق بن بشر وابن عسـاكر عـن ابـن عباس... وذكره بلفظ قريب منه)).

إلاَّ زوجتَهُ كانت على دينهم، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي مِن الباقينَ في الْغَبْرَاءِ؛ غَبرَتْ فِيمَنْ غَبرَ. ومعناهُ: بقيت في العذاب ولم تذهَبْ معهُ، فهلكَتْ مع القومِ فيمَن هلكُوا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أمْطِرَتِ الْحِجَارَةُ عَلَى مُسَـافِرِهِمْ وَعَلَـى الَّذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ بالْمَدِينَةِ حَتَّـى هَلَكُـوا، فَأَمَّـا الْمَدِيْنَـةُ فَقَـدْ جَعَـلَ اللهُ عَالِيَـهَا سَافِلَهَا). ويقالُ: أمْطِرُوا أوَّلاً بالحجارةِ، ثم خُسِفَتْ بهم الأرضُ.

وأما الأَلِفُ في قولهِ: (وَأَمْطَرْنَا)؛ قال بعضُهم: يقالُ لكلِّ شـيءٍ مـن العـذاب: أمْطَرَتْ بالألفِ؛ وللرَّحمةِ: مَطَرَتْ. وقالَ بعضُهم: أمْطَرَتْ وَمَطَرَتْ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعالَى: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) أي فَانْظُرْ مَن معكَ في آخرِ أمـرِ الكـافرين المكذِّبين كيفَ فَعَلْنَا بهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ ؛ معنـاهُ: ولقـد أرسـلنا إلَـى مَدْيَـنَ أخـاهُمْ شُـعَيْبًا. قـال الضَّحاك: (كَانَ شُعَيْبٌ أفْضلَهُمْ نَسباً؛ وَأصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً؛ وَأحْسَنَهُمْ وَجْهاً) يقـال: إنـهُ بَكَى من خِشْيَةِ اللهِ حتى ذهبَ بصرهُ وصار أعمَى. وأما مَدْيَنَ؛ فإنه مَدْيَنُ بنُ إبراهيمَ خليلُ اللهِ، تزوَّجَ رِئْيَاءَ بنتِ لُوطٍ؛ فولدَتْ لهُ وكثُرَ نسلهُ، فصارَت مَدْيَـنَ مدينتُـهم أو قبيلتُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي برهـانٌ ودلالة من ربكم على نُبُوَّتِي، ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ؛ أي أدُّوا حقوقَ الناس بالمكيـال والميزان علـى التَّمـام، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي ولاَ تَنْقُصُوا شيئاً من حُقُوقِهِمْ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ أي لا تَعْلُوا فيها بالمعاصِي بعدَ إصلاحِ اللهِ إيَّاها بالْمَحَاسِنِ.

وَقِيْـلَ: معنـاهُ: لا تَظْلِمُـوا النـاسَ في الأرض بعـدَ أنْ مَـنَّ اللهُ فيـها بـالعَدْلِ، ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي إيفاءُ الحقوقِ وتركُ الفسادِ في الأرضِ خـيرٌ لكـم،

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ باللهِ ورسُولِه. وقد كانَ لشعيبٍ عليه السلام آيةٌ تَدُلُّ على نُبُوَّتِهِ، كما قالَ تعالى: (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبكُمْ) إلا أنَّها لَم تُذْكَرْ في القُرْآنِ كما أنَّ أكثرَ معجزاتِ نبيِّنا ﷺ ((لَيْسَتْ)) مذكورةً في القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي لاَ تَقْعُدُوا على طريقٍ تُخَوِّفُونَ وتَصْرِفُونَ عن دِينِ اللهِ وطاعته مَنْ آمَنَ باللهِ، وذلك أنَّهم كانوا يُخَوِّفُونَ بالْقَتْلِ كلَّ من قصدَ شُعَيْباً بالإيْمان به. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ ؛ أي تطلبون بها غَيْراً وزَيْغاً وعُدُولاً عنِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ ﴾ ؛ أي احفظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم إذْ كُنتُمْ قَلِيلاً في العَدَدِ (فَكَثَّرَكُمْ) فَكَثَّرَ عددكم، ويقال: معنى (فَكَثَّرَكُمْ): جعلكم أغنياءَ ذوي قدرةٍ بعد أن كنتم ضعفاءَ فقراءَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي تَفكَّرُوا كيفَ كان آخرُ أمرِ مَن كان قبلَكم من الكفَّارِ في إهلاكِ الله تعالى لَهم، وإنزالِ العذاب بهم، فَتَحْذَرُوا من سلوكِ مسالِكهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ معناه: وَإِنْ كَانَ جماعة مِنْكُمْ صدَّقوا بالَّذِي أرْسِلْتُ بهِ، وجماعة لَمْ يصدِّقوا، ﴿ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ ﴾ ؛ أي حتَّى يقضيَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرين، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ وهو أعْدَلُ القَاضِيْنَ؛ سيجزي كلَّ واحدٍ من الفريقين ما يَسْتَحِقُّهُ على عملهِ في الدنيا والآخرة. فقضَى اللهُ بهلاكِ قوم شُعيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ ﴾ ؛ أي قالَ الَّذِينَ تَعظَّمُوا عنِ الإيْمان به: لَنُخرجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أوْ لَترجعنَّ إلى دِيننا، ولا ندعُكم في أرضِنا على مُخالفتِنا. ﴿ قَالَ ﴾ ؛ شُعَيْبُ: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ معناه: أتُعِيْدُونَنا في ملَّتِكم وتجبرُوننا على ذلك وإنْ كرهْنا.

فإن قِيْلَ: كيفَ قالُوا لشعيبٍ: (أوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وشعيبُ ﵇ لم يكن في مِلَّتِهِمْ قَطْ؛ لأنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يجوزُ عليهم الكفرُ في حالٍ من الأحوال؟ قِيْلَ: يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الخطاب قومهُ الذين كانوا على ملَّتهم؛ فأدخَلوهُ معهم في الخطاب. ويحتملُ أنَّهم توهَّمُوا أنَّ شُعيباً كان على ملَّتهم؛ لأنَّهم لم يَرَوا منهُ المخالفةَ لَهم إلاَّ في وقتِ ما دعاهُم إلى نُبُوَّتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ ﴾ ؛ أي قَدِ اختلَقْنا عَلَى اللهِ الكَذِبَ فيما دعوناكم إليه إنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ خلَّصَنا اللهُ مِنْهَا بالدلالة على بطلانِها وتبيين الحقِّ لنا وقبولنا لهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ ﴾ ؛ قال بعضُهم: معناهُ: ما نعودُ فيها إلاَّ أن يكون في عِلْمِ اللهِ ومشيئته أن نعودَ فيها.

وقال بعضُهم: معناهُ: إلاَّ أن يشاءَ اللهُ أن نُكْرَهَ عليها بالقتلِ، فَنُظْهرُ كلمةَ الكفرِ مع طمأنينة القلب بالإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ ﴾ ؛ أي أحاطَ رَبُّنَا بكلِّ شيءٍ عِلْمُهُ، فهو يعلمُ ما هو أصلحُ لنا فيتعبَّدُنا به، وهو يعلمُ بأنَّا هل ندخلُ في مِلَّتِكُمْ أو لا ندخلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ ﴾ ؛ أي به وَثِقْنا في الانتصار عليكم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي اقضِ بيننا وبينهم بما يدلُّ على أنَّا على الحقِّ وهم على الباطلِ، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ والفَاتِحُ هنا: الْحَاكِمُ بلُغة أهلِ عُمَان؛ يسمَّى فاتِحاً؛ لأنه يفتحُ المشكلاتِ ويَفْصِلُ الأمورَ. ويجوز أن يكون معنى الفَتْحِ: أظْهِرْ أمْرَنا بإهلاكِ العدُوِّ حتى يَنْفَتِحَ ما بينَنا وبينهم؛ أي يظهرُ ويكشفُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ معناه: قَالَ الأشراف الَّذِينَ كَذبُوا شُعيباً: لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا فيما دعاكُم إليه إنَّكُمْ إذًا بمَنْزِلَةِ مَن ذهَبَ رأسُ مالهِ لإفنائِكم العُمْرَ في تَرْكِ الشَّهوات، فتكونون مَغْبُونِيْنَ جاهلينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي الزَّلْزَلَةُ الشَّديدةُ. وقال ابنُ عبَّاس: (رَجفَتْ بهِمُ الأَرْضُ وَأَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيْدٌ، وَرُفِعَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا يَطْلُبُونَ الرَّوْحَ مِنْهَا، فَلَمَّا كَانُوا تَحْتَهَا سَالَتْ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَاب وَمَعَهُ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ عليه السلام)(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي بقُرب دارهم تحتَ الظُّلَّةِ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَخَذهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (جَاثِمِينَ) أي مَيِّتِيْنَ على وُجُوهِهِم ورُكَبِهِم. ورُوي: أنَّهم احترقُوا تحتَ السَّحابةِ، فصاروا مَيِّتِيْنَ بمنزلةِ الرَّمَادِ الْجَاثِمِ أَجْسَامٍ مُلْقَاةٍ عَلَى الأَرْضِ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ جَهَنَّمَ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ حَرّاً شَدِيْداً، فَأَخَذ بِأَنْفَاسِهِمْ فَدَخَلُوا جَوْفَ الْبُيُوتِ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَاءٌ وَلاَ ظِلٌّ، فَأَنْضَجَهُمُ الْحَرُّ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَةً فِيْهَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ، فَوَجَدُوا بَرْدَ الرِّيْحِ وَطِيْبَهَا وَظِلَّ السَّحَابَةِ، فَتَنَادَوا: عَلَيْكُمْ بِهَا؛ فَخَرَجُوا نَحْوَهَا، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَصِبْيَانُهُمْ؛ أَلْهَبَهَا اللهُ نَاراً عَلَيْهِمْ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ؛ فَأُحْرِقُوا كَمَا يَحْتَرِقُ الْجَرَادُ الْمَقْتُولُ وَصَارُوا رَمَاداً، وَهُوَ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ؛ يقولُ اللهُ تعالى: الَّذِينَ كَذبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَنْزِلُوا فِي دارِهم. ويقالُ معنى (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) كأنْ لَم يقيمُوا فيها مقامَ المستغنِي. ويقالُ: معناهُ: كأن لم يَعِيْشُوا ولم يكونُوا. قال الأصْمَعِيُّ: (الْمَغْنَى: الْمَنْزِلُ؛ وَالْمَغَانِي الْمَنَازِلُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، يُقَالُ: غَنَيْنَا بِمَكَانِ كَذا؛ أيْ نَزَلْنَا فِيْهِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ الْخُسْرَانَ حَلَّ بهم دونَ المؤمنين، وإنَّما أعادَ ذكرَ (الَّذِينَ كَذبُوا شُعَيْبًا) للتَّغليظِ عليهِم.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٠٢: شطر حديث طويل؛ قال السيوطي: ((أخرجه إسحق بن بشر وابن عساكر)).

(٢) الشعراء / ١٨٩.

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٢٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأى العذابَ مُقبلاً عليهم أعْرَضَ عَنْهُمْ بعدَ الإيَاسِ منهُم، وخرَجَ من بين أظْهُرِهِمْ. وقولهُ: (فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) أي كيف يَشْتَدُّ جزَعِي على قَوْم كافرين حَلَّ بهم العذابُ باستحقاقِهم لهُ بعد أن نصحتُهم فلم يقبَلُوا. والأسَىَ: الْحُزْنُ؛ وَالأَسَى: الصَّبْرُ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي وَمَا أرْسَلْنَا فِي مدينةٍ مِنْ رسول فكذبوا إلاَّ عاقَبْنا أهْلَهَا بالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ. فالبَأْسَاءُ: مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الشِّدَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ، والضَّرَّاءُ: مَا نَزَلَ فِيْهِمْ مِنَ الضَّرَر فِي أمْوَالِهِمْ. وَقِيْلَ على عَكْس هذا، وَقِيْلَ: الْبَأْسَاءُ: الْبُؤْسُ وَالشِّدَّةُ وَضِيْقُ الْعَيْشِ، والضَّرَّاءُ: الْفَقْرُ وَالْجُوعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) أي لكي يَتَضَرَّعُوا ويَتُوبُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ ؛ أي ثم حوَّلْنَا مكانَ الشِّدَّةِ والكَرْب العاقبةَ والخِصْبَ والسَّعَةَ حتى كَثُرُوا وكثُرت أموالُهم ومعاشُهم. وإنَّما سُمِّيت الشِّدَّةُ سيئةً؛ لأنَّها تسوءُ الإنسانَ؛ كما الإحسانُ حسنةً؛ لأنه يحسنُ أثرُهُ على الإنسان، وإلاَّ فالسيِّئةُ هي الفِعْلَةُ القبيحةُ، واللهُ تعالى لا يفعلُ القبيحَ.

وقال الحسنُ: (عَفَوا) أي سَمِنُوا؛ وَأَرَادَ بِهِ السِّمَنَ فِي الْمَال لاَ فِي تَعْظِيْمِ الْجِسْمِ). وقال قتادةُ: (حَتَّى عَفَوا) حَتَّى أشِرُوا وَبَطِرُوا وَلَمْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ). وأصلهُ من الكَثْرَةِ؛ قال ﷺ: [احْفُوا الشَّوَاربَ وَأَعْفُوا اللِّحْيَةَ][1]. قال الشاعرُ:

عَفَوا مِنْ بَعْدِ إقْلاَلٍ وَكَانُوا زَمَاناً لَيْسَ عِنْدَهُمْ بَعِيْرٌ

وقال ابنُ عبَّاس: (حَتَّى عَفَوا) أي جَمُّوا[2]. وقال ابنُ زيدٍ: (حَتَّى كَبِرُوا كَمَا يَكْبُرُ النَّبَاتُ وَالرِّيْشُ)[3].

---

(١) تقدم؛ وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: باب إعفاء اللحى: الحديث (٥٨٩٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة: الحديث (٥٢/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٥٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ ؛ أي قالوا: هكذا عادةُ الزَّمانِ؛ أي يسيءُ تارةً ويحسنُ أخرى، وهكذا كانت عادتهُ مع آبائِنا. فَثَبَتُوا على دينِهم ولم يقيلوا عنهُ، فاثبتوا أنتم على دِينكم ولا تُقِيْلُوا عنهُ، يقولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ ؛ أي أخذنَاهم بالعذاب فجْأةً، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي من حيثُ لا يشعرون بالعذاب. والمعنَى: أخذناهُم بالعذاب وهم في أمْنٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بنُزولِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ معناهُ: لَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى الذين أهلكناهُم بتكذيبهم الرسُلَ قالُوا: آمنَّا باللهِ وبالرُّسُلِ وَاتَّقَوْا الشِّرْكَ والمعاصي لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ ناميَةً مِنَ السَّمَاءِ وهي المطرُ؛ وَمِنَ الأَرْضِ وهي النباتُ والثِّمارُ، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ ؛ الرسلَ؛ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ؛ بالعذاب؛ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ من المعاصِي.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الكفايةَ والسَّعَةَ في الرِّزْق من سعادةِ الْمَرْءِ؛ أي إذا كان شَاكِراً. والمرادُ بقولهِ: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ﴾[1] الكثرةُ التي تكون وبالاً على مَن لا يشكرُ اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ معناه: أفَأَمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ يا مُحَمَّدُ أنْ يَنْزِلَ بهم عذابُنا ليلاً وَهُمْ نَائِمُونَ في فُرشِهِمْ ومنازِلِهم، لا يشعرونَ بالعذاب لغفلتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ معناه: أوَأمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ أنْ يَأْتِيَهُمْ عذابُنا نهاراً وَهُمْ مشغولون بلَهْوِهِمْ ولَعِبِهِمْ. والضُّحَى: صَدْرُ النَّهار عِنْدَ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ ؛ معناه: أبَعْدَ هذا كلّه أمِنُوا عذابَ اللهِ لَهم من حيثُ لا يعلمونَ. وإنَّما سُمِّي العذابُ مَكْراً على جهةِ الاتِّساعِ والْمَجَازِ؛

(١) الزخرف / ٣٣.

لأن الْمَكْرَ يَنْزِلُ بالممكور مِن الْمَاكِرِ من حيثُ لا يشعرُ، وأما الْمَكْرُ الذي هو الاحتيالُ للإظهار بخلاف الإضمار؛ فذلك لا يجوزُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

فإن قِيْلَ: أليسَ الأنبياءُ قد أمِنُوا عذابَ اللهِ وليسوا مِن القوم الخاسرينَ؟ قِيْلَ: معنى الآيةِ: لا يَأْمَنُ عذابَ اللهِ من المذنبين. والأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عليهِم لا يَأْمَنُونَ عذابَ الله على المعصيةِ؛ ولِهذا لا يَعْصُونَ بأنفسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾؛ قرأ قتادةُ: (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنُّون على التعظيم، ومعنى الآيةِ: أوَلَمْ يُبَيِّنِ اللهُ لِلَّذِينَ يخلفون في الأرضِ مِنْ بَعْدِ أهْلِهَا الذين أهلَكَهم اللهُ بتكذيبهم الرُّسُلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:(أنْ لَوْ نَشَاءُ أصَبْنَاهُمْ بذُنُوبِهِمْ) أي أوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهم مَشِيْئَتَنَا أصبنَاهُم بعقاب ذنوبهم، كما أخذنا مَن كان قبلَهم بذنوبهم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي نَخْتِمُ عليها عقوبةً لَهم، وليس هو عَطْفاً على (أصَبْنَاهُمْ) لأنه لو عُطِفَ عليهِ لقال: وَلَطَبَعْنَا؛ لأنَّ قولَهُ: (أصَبْنَاهُمْ) على لفظِ الماضي، وكان معنى (وَنَطْبَعُ): وَنَحْنُ نَطْبَعُ. ومعنى الْخَتْمِ على قلوبهم:بأنَّهم لا يُؤْمِنُونَ على جِهَةِ الذمِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ أي لا يَقْبَلُونَ الوعظَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾؛ أي تِلْكَ الْقُرَى التي أهلكْنَا أهلَها بجُحودِهم لآياتِ الله نَقُصُّ عَلَيْكَ يا مُحَمَّد في القُرْآن مِنْ أخبارها كيفَ أهْلِكَتْ؛ لِمَا في ذلك من العِبْرَةِ لِمن تَدَبَّرَ حالَهم. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؛أي بالْحُجَجِ والبراهينِ القاطعةِ التي لو اعْتَبَرُوا بها لاهْتَدَوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾؛ قال مجاهدٌ: (مَعْنَاهُ: فَمَا أهْلَكْنَاهُمْ إلاَّ وَقَدْ كَانَ مَعْلُومُنَا أنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ أبَداً). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لِعُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ فِي الْبَاطِلِ)، ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أي على قلوب الكافرين بك.

ومعنى الآيةِ: (تِلْكَ الْقُرَى) أي هَذِهِ القُرَى التي ذكَرْتُ لكَ يا مُحَمَّدُ أمرَها وأمرَ أهلِها، يعني قُرَى قوم نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ، وقوم لُوطٍ وشُعيبٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) قال أبَيُّ بنُ كَعْبٍ: (مَعْنَاهُ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عِنْدَ مَجِيْءِ الرُّسُلِ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ ؛ أي مَا وَجَدْنَا لأكثر المهلَكين من وَفَاءٍ فيما أُمِرُوا به. تقولُ العربُ: فلانٌ لا عَهْدَ لهُ؛ أي لا وَفَاءَ لهُ بالعهدِ. وهذا العهدُ المذكورُ في الآية يجوز ما أوْدَعَ اللهُ العقولَ من شُكْرِ النِّعمةِ؛ والقيامُ بحقِّ الْمُنْعِمِ؛ ووجوب طاعة الْمُحْسِنِ. ويجوزُ أن يكون ما أخِذ عليهم على ألْسِنَةِ الرُّسُلِ من هذه الأمور.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّا وجَدْنَا أكثرَهم ناقضِينَ للعهدِ؛ تاركينَ لِما أُمِرُوا به مِن الحلالِ والحرام. وأمَّا دخولُ (أنْ) واللام في مثلِ هذا، فعلى وجهِ التَّأكيدِ كما يقالُ: إنْ ظَنَنْتُ زَيْداً لَقَائِماً، وتريدُ بذلك تأكيدَ الظَّنِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ ؛ معناه: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ أولئِكَ الرُّسُلِ الذين سَبَقَ ذكرُهم مُوسَى بدلائلنا وحُجَجِنا من العَصَا واليدِ والطَّمْسِ وغيرِ ذلك إلَى فِرْعَوْنَ وأشرافِ قومه. ويعني بالرُّسُلِ الذين بُعِثَ موسى مِن بعدِهم: نُوحاً؛ وهُوداً؛ وصَالِحاً؛ ولُوطاً؛ وشُعَيباً.

واسم (فِرْعَوْنَ) أعجميٌّ لا ينصرفُ؛ اجتمعَ فيه العِجْمَةُ والتَّعْرِيْفُ، وكانوا يُسَمُّونَ كلَّ مَن مَلَكَ مِصْرَ بهذا الاسمِ؛ واسْمُه: الوليدُ بنُ مصعبٍ، وكان من الْقِبْطِ، وعَمَّرَ أكثرَ من أربعمائةِ سنة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَلَمُوا بهَا) أي جَحَدُوا بالآياتِ. وسَماهُ ظُلْماً لأنَّهم جعلوا بَدَلَ وُجُوب الإيْمان بها الكُفْرَ، وذلك من أبْيَنِ الظُّلْمِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٠٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بن كعب. وذكره بلفظ قريب)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ ؛ أي فانظر كيف صارَ آخرُ أمرِ المفسِدِينَ في العقاب. قال ابـنُ عبَّـاس: (كَـانَ طُـولُ عَصَـا مُوسَى عَشْرَةَ أذرُعٍ عَلَى طُولِهِ، فَكَـانَتْ مِـنْ آسِ الْجَنَّـةِ، وَكَـانَ يَضْـرِبُ بِـهَا الأَرْضَ فَيَخْرُجُ بهَا النَّبَاتُ، وَيُلْقِيْهَا فَإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، وَيَضْرِبُ بهَا الْحَجَرَ فَيَتَفَجَّرُ، وَضَرَبَ بها بَابَ فِرْعَوْنَ فَفَزِعَ مِنْهَا؛ فَشَابَ رَأسُهُ؛ فَاسْتَحْيَا فَخَضَّبَ بالسَّوَادِ، وَأوَّلُ مَنْ خَضَّبَ بالسَّوَادِ فِرْعَوْنُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وذلك أنَّ موسَى دخلَ على فرعونَ ومعهُ أخـوهُ هـارونُ، بعثَـهُما اللهُ إليـه بالرِّسَـالةِ، فقال موسَى: يَا فِرْعَوْنُ ! إنِّي رَسُولٌ مِنْ رَب الْعَالَمِينَ. فقالَ لهُ فرعون: كَذبْتَ! فقال موسَى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ ؛ أي جَدِيْرٌ بأنْ لا أقُـولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ. وقرأ نافع: (عَلَيَّ) بالتشديد؛ أي وَاجِبٌ عَلَيَّ أنْ لاَ أقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ؛ أي برهانٍ وحُجَّةٍ مـن ربكـم، ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي فَـأطْلِقْ بَنِـي إسْـرائيلَ، ولا تَسْتَعْبدْهُمْ لأحْمِلَهُمْ إلى الأرضِ المقدَّسَةِ. وكان فرعـونُ وقومـه الْقِبْـطُ يُكَلِّفُـونَ بَنِـي إسرائيلَ الأعمالَ الشَّاقَّةَ، مثل حَمْلِ الطِّينِ والْمَاءِ وبناءِ الْمَنَازلِ وأشباهِ ذلكَ.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ ﴾ ، معنـاه: قـال فرعـونُ: إنْ كنتَ جئتَ بعلامـةٍ لنبوَّتـك، ﴿ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ؛ في أنَّـكَ رسـولُ اللهِ؛ ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾ ؛ أي ثُعْبَـانٌ بَيِّنٌ لا لَبْسَ فيهِ ولا تشبيهَ على أحَدٍ أنه ثعبانٌ.

فَالثُّعْبَانُ: الْحَيَّةُ الصَّفْرَاءُ الذكَـرُ الأَشْـعَرُ أعظَـمُ الْحَيَّـاتِ؛ لَـهَا عُـرْفٌ كَعُـرْفِ الْفَرَسِ. روي أنَّها: مَلأَتْ دَارَ فرعونَ، ثم فَتَحَتْ فَاهَا وأخذت قُبَّةَ فرعونَ بين فَكَّيْهَا، وتضرَّعَ فرعونُ إلى موسى، وهَرَبَ الناسُ واستغاثُوا بموسَى، فأخذها موسى فإذا هـي عَصًا بيدِهِ كما كانت.

قال ابنُ عبَّاس والسُّدِّيُّ[(١)]: (لَمَّا فَغَرَتْ فَاهَا كَانَ بَيْنَ لِحْيَيْهَا ثَمَانُونَ ذِرَاعاً، وضَعَتْ لِحْيَهَا الأَسْفَلَ فِي الأَرْضِ، وَلِحْيَهَا الأَعْلَى عَلَى سُور القَصْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ، فَوَثَبَ مِنْ سَرِيْرِهِ وَهَرَبَ، وَهَرَبَ النَّاسُ وَانْهَزَمُوا، وَكَانُوا خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفاً.

فَصَاحَ فِرْعَوْنُ: يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُؤْمِنُ بربكَ، وَأَرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ. فَأَخَذَهَا؛ فَعَادَتْ عَصاً كَمَا كَانَتْ. فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: هَلْ مَعَكَ آيَةٌ أُخْرَى؟ قَالَ: نَعَمْ؛ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي فَأدْخَلَ يدَهُ في جيبهِ؛ ثم نَزَعَهَا فَإذا هِيَ بَيْضَاءُ لَهَا شعاعٌ يَغْلِبُ نورَ الشَّمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي قال الأشرافُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إنَّ هَذا لَسَاحِرٌ حَاذِقٌ بالسِّحْرِ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ ؛ أي قال الأشرافُ: يريدُ موسَى أن يَسْتَمِيْلَ قلوبَ بني إسرائيلَ إلى نفسهِ، ويَتَقَوَّى بهم فيقتُلُكم ويخرجُكم من بلادِكم، ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ أي تُشِيْرُونَ في أمرهِ. كأنَّهم خاطبُوا فرعونَ، ويجوزُ أن يكون قولُهُ: (يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ) من مَقَالَةِ فرعونَ لقومهِ، ويعني بقولهِ: (مِنْ أرْضِكُمْ) أرضَ مِصْرَ. وكانَ بين اليَوْمِ الذي دَخَلَ يوسُفَ فيه مِصْرَ وبينَ اليوم الذي دخلَها موسَى فيه رَسُولاً أربعُمائةِ عَامٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ ؛ أي قالُوا لفرعونَ: احْبسْهُ وأخاهُ إلى آخرِ أمرهِما، ولا تعجَلْ بقتلِهما؛ فتكونَ عَجَلَتُكَ حُجَّةً عليكَ، ﴿ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي ابْعَثْ الشُّرَطَ في الْمَدَائِنِ التي حولَكَ يحشُرون السَّحَرَةَ إليكَ[(٢)].

والسِّحْرُ في اللُّغةِ: لُطفُ الْحِيْلَةِ فِي إظْهَارِ الأُعْجُوبَةِ، وأصلُ ذلك مِنْ خَفَاءِ الأَمْرِ، ومن ذلك سُمِّي آخر الليلِ سَحَراً لِخَفَاءِ الشَّخْصِ بفَيْءِ ظُلْمَتِهِ، والسَّحْرُ: الرئةُ؛ سُميت بذلك لِخَفَاءِ أمْرِهَا بانْتِفَاخِهَا تَارَةً وَضُمُورِهَا أُخْرَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٠٤) عن ابن عباس، والأثر (١١٦٠٥) عن السدي.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٨٩) عن ابن عباس، والأثر (١١٥٩٠) عن مجاهد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَانُوا سَبْعِيْنَ سَـاحِراً غَـيْرَ رَئِيْسِـهِمْ، وَكَـانَ اللَّـذان يُعَلِّمَانِـهِمْ مَجُوسِيَّيْن مِـنْ أَهْـلِ نِيْنَوَى)[1]. وقال مُحمد بنُ إسحق: (كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَـاحِرٍ، مَـعَ كُـلِّ وَاحِـدٍ مِنْهُمْ حَبْلٌ وَعَصَا)[2]. وقال كعبُ: (كَانُوا عِشْرِيْنَ أَلْفاً)[3]. وقال ابنُ المنكدر: (كَـانُوا ثَمَانِيْنَ أَلْفاً). وقال مقاتلُ: (كَانَ رَئِيْسُ السَّحَرَةِ شَمْعُونَ).

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ ، فلمـا اجتمَعُـوا، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ ؛ لفرعــونَ: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي جُعْلاً ومَـالاً؛ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ عندي في الْمَنْزِلَةِ. قال الكلبيُّ: (أيْ أَوَّلُ مَـنْ يَدْخُـلُ عَلَيَّ وَآخِرُ مَنْ يَخْرُجُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ أي قالَتِ السَّحَرَةِ: يَا مُوسَى! إمَّا أنْ تُلْقِيَ ما معكَ من العصَا، وإمَّا أنْ نلقيَ نحْـنُ مـا مَعَنَا من العِصِيِّ والحبال قبلَكَ. ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ ؛ ما معكـم مـن الحبـال والعصِـيِّ، ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ ﴾ ؛ ذلـــكَ؛ ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ ؛ أي أخذُوا بها أعْيُنَ النَّاسِ، واستَدْعَوا رَهْبَتَهُمْ حتى رَهِبَــهُمُ النـاسُ، ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ في أعْيُنِ النَّاسِ.

وكانوا قد جعلوا فيها الزِّئْبَقَ بعدَ أن صوَّرُوها بصورةِ الْحَيَّاتِ، فلَمَّـا أوقَفُوهـا في الشَّمْسِ اضطربت باضطراب ما فيها من الزِّئْبَقِ؛ لأنه لا يَسْتَقِرُّ؛ ومتَى يزدادُ مُكْثُـهُ في الشمسِ زادَتْ حركتهُ، وخُيِّلَ إلى موسَى أنَّ حبالَهم وعصيَّهُم حَيَّـاتٌ كمـا كـانت عصَا مُوسى عليه السلام.

فإن قِيْلَ: كيف يجوزُ مِن موسَى عليه السلام أن يأمرَهم بالإلْقَاءِ؛ وكان إلقـاؤُهم إرادةً منهم مُغَالَبَةَ موسى؛ وذلك كُفْرٌ؛ ولا يجوزُ علـى الأنبيـاءِ أن يـأمرُوا بـالكفرِ؟ قِيْـلَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٦).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٨).

معناهُ: ألقوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ على زعمِكم. ويجوزُ أن يكـون أمرَهُـم بالإلقـاءِ لتـأكيدِ مُعْجِزَتِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾؛ مـن يَـدِكَ؛ فألقاها؛ ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾؛ أي تَلْتَقِمُ وتَبْتَلِعُ ما كانوا يكذّبون أنّها حيّاتٌ. والإفْكُ: الكَذِبُ. وقُرِئَ: (تَلْقَفْ) بجزمِ الـلامِ خفيفـة. وقـرأ سـعيدُ بـن جبير: (تَلْقَمُ).

قال ابن عبَّاس: (لَمَّا كَثُرَتْ حَيَّاتُهُمْ جَعَلَتْ عَصَـا مُوسَـى تَـزْدَادُ عِظَمـاً حَتَّـى سَدَّتِ الأُفُقَ، ثُمَّ فَتَحَتْ فَاهَا فَابْتَلَعَتْ جَمِيْعَ مَا أَلْقَوا مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ، ثُمَّ هَوَتْ بِذنبِهَا فَعَلَّقَتْهُ بِرَأسِ قُبَّةِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ فِيْهَا، وَفَتَحَتْ فَاهَا لِتَبْتَلِعَهُ، فَصَرَخَ إلَـى مُوسَـى، فَأَخَذَهَا فَإذا هِيَ عَصَا كَمَا كَانَتْ[(١)]).

ونظَرَ السَّحَرَةُ فإذا حبالُهم وعصيُّهم قد ذهبَتْ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾؛ أي ظَهَرَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملـون مـن السِّحْرِ، وقال النَّضرُ بن شُمَيلٍ: (فَوَقَـعَ الْحَـقُّ) أي صَدَعَـهُمْ وأفْزَعَـهُمْ، ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾؛ أي رجعُوا ذلِيْلِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾؛ قـال الأخفـشُ: (مِـنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ؛ كَأَنَّهُمْ أُلْقُوا، وَقَدْ كَانُوا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ سُعَدَاءَ شُهَدَاءَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾؛ فقـال لَـهم فرعـونُ: إيَّـايَ تعْنُونَ؟ قالُوا: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾؛ فَبُـهِتَ فِرْعَـوْنُ ونَـدِمَ علـى مـا نالَهم، فظهرَ للنَّاسِ إنَّهم آمنُوا باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؛ أي قـال لَـهم فرعون: أصَدَّقْتُم بربِّ مُوسَـى وهـارون قَبْـلَ أنْ آذنَ لَكُـمْ في الأيْمـان، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾؛ أي إنَّ هذا لشيءٌ وَاطَأْتُمُوهُ عليـه حين يدَّعى النُّبُوَّةَ، ثم تظـهرونَ مخالفتـه في ابتـداءِ الأمـرِ، حتـى إذا غَلَبَكُـمْ أظهرتُم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٠٦) عن ابن إسحق.

موافقتَهُ بعدَ ذلكَ. أرادَ فرعونُ بهذا القول أن يُمَوِّهَ على الناس؛ ليصرفَ وجوهَهُم إلى نفسهِ، ثم قال لِلسَّحَرَةِ: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ ماذا يَنْزِلُ بكم من النَّكَال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ ؛ أي لأُقطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ اليمنى وَأَرْجُلَكُمْ اليسرى مِنْ خِلافٍ، ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ على شاطئِ نَهر مِصْرَ على جُذُوعِ النَّخْلِ حتى تَموتُوا من الجوعِ والعطَشِ والألَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فقالَتِ السَّحَرَةُ: إنَّا لا نُبالِي مِن فِعْلِكَ وعقوبتِكَ، فإنَّ مَرْجِعَنَا إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فإن الحياةَ وإن طالَتْ؛ فإنَّها تُخْتَمُ بالمماتِ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ ؛ أي قالَتِ السَّحَرَةُ: ما تعيبُ علينا ولا تنكرُ علينا إلا لأنَّا صَدَّقْنَا بعلاماتِ توحيدِ رَبِّنَا؛ لَمَّا ظَهَرَ لنا أنَّ ذلكَ حقٌّ مِن اللهِ.

ثُم ألْهِمُوا الدُّعاءَ فقالُوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ أي أصْببْ عَلَيْنَا صبْرًا وأنزلْهُ علينا؛ وَوَفِّقنَا على الثَّباتِ على الإيْمان إلى وقتِ الوفَاةِ. قال ابنُ عبَّاس: (فَأَخَذ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ فَقَطَّعَهُمْ، ثُمَّ صَلَبَهُمْ عَلَى شَاطِئِ نِيْـلِ مِصْـرَ، وَخَلَّى سَبيْلَ مُوسَى وَهَارُونَ وَلَمْ يَتَعرَّضْ لَهُمَا)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ مِـن القِبْـطِ: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أتَتْرُكُـهُمْ ليغـيِّرُوا عليـكَ دينَـكَ في أرضِ مِصْـرَ ويدعُـو النـاس إلى مُخـالَفَتِكَ؛ فينتقـضَ بذلـك أمـرُكَ ومِلْكُـكَ؛ ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ؛ أي يَدَعَكَ ولا يعبدَكَ؛ ويدعَ أصنامَكَ التي أمَرْتَ بعبادتِها.

قال الحسنُ: (كَانَ فِرْعَـوْنُ يَسْـتَعْبِدُ النَّـاسَ وَيَعْبُـدُ الأَصْنَـامَ بِنَفْسِـهِ)(٢). وقـالَ السُّدِّيُّ: (كَانَ يَعْبُدُ هُوَ مَا اسْتَحْسَنَ مِنَ الْبَقَرِ، وَمِنْهُ أَخَـذَ السَّـامِرِيُّ عِبَـادَةَ الْبَقَـرِ)(٣).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦١٥) عن السدي وابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٢١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٢٠).

وَقِيْلَ: كان فرعونُ قد صَنَعَ أصناماً صِغَاراً، وأمرَ قومَه بعبادتِها، وقالَ: أنــا رَبُّ هــذهِ الأَصْنَامِ الأعْلَى، وهم أربَابُكم.

وقرأ الحسن: (وَمَا تَنقَمُ) بفتحِ القَافِ لُغتان، قال الضَّحاكُ: (مَعْنَاهُ: وَمَا تَطْغَـى عَلَيْنَا). وقال عطاءُ: (مَا لَنَا عِنْدَكَ مِنْ ذَنْبٍ تُعَذِّبُنَا عَلَيْهِ إلاَّ أنْ آمَنَّا بآيَاتِ رَبنَـا). وقـرأ الحسنُ: (وَيَذرُكَ) بالرَّفعِ عطفاً على (أتَذرُ). وقرأ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والضحَّاك: (وَآلِهَتُكَ) أي عبادَتُك، فلا يعبدُك.

وَقِيْلَ: أرادَ بالآلِهَةِ الشَّمْسُ، وكان فرعونُ وقومُه يعبدونَها. وقال ابــنُ عبَّـاس: (كَانَ لِفِرْعَوْنَ بَقَرَةٌ يَعْبُدُهَا، وَكَانُوا إذا رَأوْا بَقَرَةً حَسْنَاءَ أمَرَهُمْ أنْ يَعْبُدُوهَــا، فَكَذلِكَ أخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عِجْلاً). ورُويَ: أنه قِيْلَ للحسَنِ: هَلْ كَانَ فِرْعَــوْنُ يَعْبُـدُ شَـيْئاً؟ قَالَ: (نَعَمْ؛ كَانَ يَعْبُد تَيْساً).

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي قـال فرعـونُ: سنعودُ إلى قَتْلِ أبنائِهم واستخدام نسائِهم عقوبةً لهُ كما كُنَّا نفعلُ وقتَ ولادةِ مُوسَى. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي مُسْتَعْلُونَ عليهم بالقُوَّةِ.

فَشَـكَتْ بَنُـو إسـرائيلَ إلى موسَــى فَــ، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي استيعنُوا باللهِ على دفعِ بلاء فرعونَ عنكم، واصبرُوا على دِينكم، ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ التي أنتمْ فيها؛ ﴿ لِلَّهِ يُورِثُهَـا ﴾ ؛ أي يُسْـكِنُهَا، ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ فيورثُكــم هــذه الأرضَ بعــد إهــلاكِ فرعـون وقومــهِ، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي آخرُ الأمـر للذيـن يَتَّقُـونَ اللهَ. وَقِيْـلَ: أرادَ بالعاقبةِ الجنةَ في الآخرة. وَقِيْلَ: النصرَ والظَّفَرَ. وَقِيْلَ: السعادة والشهادةَ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ فِرْعَوْنَ عَادَ إلَى قَتْلِ أبْنَائِهِمْ، وَزَادَ فِي إتْعَابِهِمْ فِي الْعَمَـلِ، إذْ كَانَ يَسْتَعْمِلُهُمْ قَبْلَ مَجِيْءِ مُوسَى بضَرْب اللَّبِنِ وَالْبناءِ، فَلَمَّا أتَاهُمْ مُوسَى غَضِـبَ وَكَلَّفَهُمْ أيْضاً أشَدَّ مِنْ ذلِكَ).

قال وهبُ: (جَعَلَهُمْ أصْنَافاً فِي خِدْمَتِهِ: قَوْمٌ يحْمِلُونَ السَّوَاري مِنَ الْجِبَالِ؛ وَقَدْ قُرحَتْ أعْنَاقُهُمْ وَعَوَاتِقُهُمْ وَدَبرَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ ثِقَلِ ذلِكَ، وَقَوْمٌ قَدْ جُرحُوا مِنْ ثِقَلِ الْحِجَارَةِ وَالطِّيْنِ لِلْبنَاءِ، وَقَوْمٌ يَبْنُونَ الطِّيْنَ وَيَطْبخُونَ الآجُرَّ، وَقَوْمٌ نَجَّارُونَ، وَقَوْمٌ حَدَّادُونَ. وَأمَّا الضُّعَفَاءُ الَّذِيْنَ لاَ يُطِيْقُونَ الْعَمَلَ؛ فَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ يُؤَدُّونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، فَمَنْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ غُلَّتْ يَمِيْنُهُ إلَى عُنُقِهِ. وَأمَّا النِّسَاءُ فَيَغْزِلْنَ الْكِتَّانَ وَيَنْسِجْنَهُ).

فلما شَكَوا إلى موسى (قَالُوا: أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومه، ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ويجعلَ لكم سَكَناً في أرضِ مصرَ مِن بعدهم. و(عَسَى) كلمةُ إطماعٍ وما أطمعَ اللهُ فيه فهو واجبٌ؛ لأن الكريمَ إذا أطمعَ وإذا وَعَدَ وفَّى، فيصيرُ كأنهُ أوْجَبَهُ على نفسهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ) ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي فَيَرَى عملَكم كيف تشكرون صُنْعَهُ، كأنهُ قال: وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ؛ لكي تعملوا بطاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ ؛ أي أخذْنا قومَ فرعون وأهلَ دِينه بالجوعِ عاماً بعد عامٍ إلى تسعةِ أعوام. وآلُ الرَّجُلِ: خَاصَّتُهُ الَّذِيْنَ يَؤُولُ أمْرُهُ إلَيْهِمْ؛ وَأمْرُهُمْ إلَيْهِ. والسُّنُونُ في كلام العرب: الْجَدْبُ؛ يقال: مَسَّتْهُمُ السُّنُونُ؛ أي الْجَدْبُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛ أي زيادةٍ في القَحْطِ؛ لأن الثمارَ قوتُ الناس وغذاؤهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لكي يَتَّعِظُوا فيُؤْمِنُوا، فلم يتَّعظوا. وَقِيْلَ: أراد بقولِه: (وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ) الغَلاَءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ ؛ أي إذا جاءَهم الْخِصْبُ والخيرُ قالوا: نحنُ أهلٌ لِهذه الحسنةِ وأحقُّ بها، فمِنْ عادةِ بلادِنا أنَّها تأتِي بالسَّعة والْخِصْب. ولَم يَروا ذلك مَنّاً وتفضُّلاً من الله، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ؛ جُدُوبَةٌ وقحطٌ وبلاء وشدَّةٌ؛ ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ ؛ أي يَتَشَاءَمُوا بموسى

وأصحابهِ؛ فقالوا: أصابنا هذا البلاءُ من شُؤْمِ هؤلاء. والطَّيْرَةُ في اللغة: الشَّآمَةُ كما روي [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ الْفَأْلَ وَيَكْرَهُ الطَّيْرَةَ][1].

والأصلُ في هذا: أن العربَ كانوا يتفاءلون بالطَّيرِ؛ فإن جاءَهم طائرٌ من جهة اليمينِ وهو السَّانحُ[2]؛ تَبرَّكُوا به، وإن جاءهم من جهة الشَّمال وهو البَارحُ يتشاءَموا به، ثُم كثُرَ قولُهم في الطيرِ حتى استعملوهُ في كلِّ ما تشاءموا به. ومعنى الآيةِ: (يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ) أي تَشاءَمُوا بهم وقالوا: ما أصابنا بلاءٌ حتى رأيْنَاكُم.

وقرأ طلحة (تَطَيَّرُوا) بالتاءِ وتخفيف الطَّاء على الفعل الماضي، قال سعيدُ بن جبير: (كَانَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ أرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ، فَعَاشَ ثَلاثَمِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَرَى مَكْرُوهاً، وَلَوْ رَأى فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ جُوعَ يَوْمٍ، أوْ حُمَّى يَوْمٍ، أوْ وَجَعَ سَاعَةٍ لَمَا ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: الذي أصابَهم من الخصب والجدب والخير والشرِّ كلُّ ذلك من عند اللهِ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ أنهُ أصابَهم من عند الله. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: ألاَ إنَّمَا مُصَابُهُمْ عِنْدَ اللهِ). وقال ابنُ جُريجٍ: (الأَمْرُ كُلُّهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: ألاَ إنَّما الشؤمُ الذي يلحقُكم هو الذي وُعدوا به في الآخرةِ لا ما نالَهم من الدُّنيا، فإن القحطَ الذي هم فيه قليلٌ في جنب عقوبةِ الآخرة. وقرأ الحسنُ: (ألاَ إنَّمَا طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللهِ) بغيرِ الألف، والمعنى واحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ ؛ قال الخليلُ: (أصْلُ (مَهْمَا): مَأمَا ، أبْدِلَتِ الأَلِفُ الأُوْلَى هَـآء لِتَخْفِيْفِ اللَّفْظِ). وقال بعضُهم: معنى (مَهْ): اُكْفُفْ، ثُم قال: (مَا تَأْتِنَا بِهِ) بمعنى الشرطِ؛ أي ما تأتنا به من علامةٍ يا موسى (لِتَسْحَرَنَا بهَا) أي لِتُوهِمَنَا أنَّها الحقُّ، ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ أي بمصدِّقين بالرسالةِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٣٢ عن أبي هريرة ﵁.

(٢) في المخطوط: (الصائح).

وكان مُوسَى عليه السلام رجُلاً حديداً، فدعَا عليهم؛ فأرسلَ عليهم الطوفانَ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ ؛ اختلفوا في الطُّوفَان ما هو؟ قال الضَّحَّاك: (الغَرَقُ). وقال عطاءُ ومجاهد: (الْمَوْتُ الْغَالِبُ الشَّائِعُ)[1]. وقال وهبُ: (الطُّوفَان: هُوَ الطَّاعُونُ بلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ). وقال أبو قُلابة: (هُوَ الْجُدَرِيُّ؛ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ عُذِّبوا بِهِ، وَبَقِيَ فِي النَّاسِ إِلَى الآنَ). وقال الأخفشُ: (هُوَ السَّيْلُ الشَّدِيْدُ). وقال مقاتلُ: (هُوَ الْمَاءُ طَغَى فَوْقَ حُرُوثِهِمْ).

وقال بعضُهم: هو كثرةُ المطرِ والريح. والأظهرُ ما قالَهُ ابنُ عبَّاس: (أَنَّهُ الْمَطَرُ الدَّائِمُ، أَرْسَلَ اللهُ الْمَطرَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنَ السَّبْتِ إِلَى السَّبْتِ، حَتَّى خَرِبَتْ أَبْنِيَتُهُمْ، وَكَادَ أَنْ يَصِيْرَ الْمَطَرُ بَحْراً، فَخَافُوا الْغَرَقَ).

قال ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جبير وقَتادةُ[2]: (لَمَّا آمنتِ السَّحَرَةُ واغْتُلِبَ فرعونُ، وأَبَى هو وقومهُ إلا الإقامةَ على الكفرِ والتَّمادي في الشرِّ، أخذهم اللهُ بالسِّنين، ونقصٍ من الثمرات، فلما عالَجهم موسى بالآياتِ الأربع: العَصَا؛ واليدِ؛ والسِّنين؛ ونقصٍ من الثَّمراتِ، دعَا فقالَ: يَا رَب! إنَّ عَبْدَكَ فرعونَ علاَ في الأرضِ وبَغَى وعَتَى، وإن قومَهُ قد نقضوا عهدكَ وأخلفوا وعدكَ، ربي فَخُذْهُمْ بعقوبةٍ تجعلُها لَهم نقمةً ولقومي عِظَةً ولِمن بعدهم من الأمم عبرةً.

فبعثَ اللهُ عليهم الطوفانَ؛ وهو الماءُ أرسله عليهم من السَّماء حتى كادوا يهلَكُون، وبيوتُ بني إسرائيلَ وبيوتُ القِبْطِ مشبكةٌ مختلطة بعضُها ببعضٍ، فامتلأت بيوتُ القِبْطِ ماءً حتى قاموا في الماءِ إلى تراقيهم مَن جَلَسَ منهم غَرِقَ، ولَم يدخلْ بيوتَ بني إسرائيل من الماءِ قطرةٌ واحدة، فأقامَ ذلك عليهم سبعةَ أيَّام.

فقالوا: يا موسَى! اُدْعُ لنا ربَّكَ يكشف عنا المطرَ، فنؤمنَ بك ونُرْسِلَ معك بني إسرائيل. فدعا ربَّهُ فكشفَ عنهم ذلك، وأرسلَ الريح فجفَّفت الأرض، وخرجَ من

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٤٧).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٥٩) عن سعيد، والأثر(١١٦٦٢).

النباتِ شيءٌ لَم يَرَوْا مثله، فقالوا: هذا الذي كُنَّا نَتَمَنَّاهُ، ومَا كان هـذا المـاءُ إلا نعمـةً علينا وخصباً، فلا واللهِ لا نؤمنُ بكَ يا موسى، ولا نرسلُ معكَ بني إسرائيل.

فنَقَضُوا العهدَ، وعَصَوا ربَّهم واقاموا علـى كفرهـم شـهراً، فبعـثَ اللهُ عليـهم الجرادَ، وغَشِيَ مصرَ منه أمرٌ عظيم حالَ بينهم وبين الماءِ وغَطَّى الشمسَ؛ ووقعَ علـى الأرضِ بعضُه على بعضٍ ذراعاً، فأكَلَ جميعَ مـا ينبـتُ في الأرض؛ وأكـلَ الأشـجارَ؛ حتى أكلَ الأبوابَ وسُقُوفَ البيوتِ والخشب والثياب والأمتعة؛ حتى مساميرَ الحديدِ، ولَم يدخل بيوتَ بني إسرائيل منـه شـيءٌ، فعجَّلـوا إلى موسـى و: ﴿قَـالُوا﴾: يـا أيُّـها الساحر! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّـا الرِّجْـزَ لَنُؤْمِنَـنَّ لَـكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وأرادوا بالساحرِ العالِم يُعَظِّمُونَهُ.

فدعَا موسى رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ الجرادَ بعدَ أن أقامَ في أرضِهم سـبعة أيـام فلـم يَبْقَ في الأرضِ جرادةٌ واحدة، ثُم نظروا فإذا في بعضِ المواضع من نواحي مصـر بقيَّـةٌ من كَلأً وزرعٍ، فقالوا: هذا يكفينا بقيَّةَ عامِنا هذا، فلا واللهِ لا نؤمنُ لكَ يا موسى ولا نرسلُ معك بني إسرائيل، فأرسلَ الله عليهم القُمَّلَ؛ وهم صِغَارُ الجرادِ يقال له الدباء. وَقِيْلَ: أرسلَ الله عليهم سُوسَ الحنطةِ، فمكثَ في أرضهم سبعةَ أيام، فلـم يُبْـقِ لَـهم عُوداً خضراً إلا أكلَهُ، ولَحَسَ جميعَ ما بقي في أرضِهم.

وقال سعيدُ بن جبير: (الْقُمَّلُ: هو السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحُبُوب)[1]. يقال: إنَّ موسى عليه السلام أتى إلى كثيبٍ من كثب قُرَى مصرَ، وكان كثيباً أهْيَلَ عظيمـاً، فضَرَبَـهُ بعصاهُ، فانبعثَ قملاً، فأكلَ جميعَ ما على الأرضِ حتـى لَحَسَـهَا، وكـان يدخـلُ بـين ثيابهم وجلودِهم، فينهشُهم ويأكلُ أشعارَهم وحواجبَهم وأشـعارَ عيونِـهم، ومنعَـهُم النومَ والقرارَ، وظهر بهم منه الْجُدَري، وكان أحدُهم لا يأكلُ لقمةً إلا مملـوءة قمـلاً. فصَرَخُوا إلى موسى: أدعُ لنا رَبَّكَ في هذه المرَّة، ونعطيكَ عهودا ومواثيقَ لَنُؤْمِنَـنَّ لَـكَ ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيل.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٤٩) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

فدعا رَبَّهُ فكشفَ عنهم بعد أن أقامَ سبعة أيام، ثُم قالوا: وما عَسَى ربُّكَ أن يفعلَ بنا وقد أهلكَ كلَّ شيءٍ من نبات أرضنا، فعلى أيِّ شيءٍ نؤمنُ بك؟ إذهب فما استطعتَ أن تفعله فافعلْهُ! فدعا عليهم موسى، فأرسلَ الله عليهم الضَّفَادِعَ، خرجت عليهم من البَحْرِ مثل اللَّيْلِ الدامس، فملأتْ بيوتَهم وطُرُقَهُمْ وأطعمتَهم، فلا يكشفُ أحدُهم طعاماً ولا شراباً إلا وَجَدَ فيه الضَّفادعَ.

وكان الرجلُ إذا جلسَ تراكبت عليه الضفادعُ حتى يكون إلى فمهِ، فإذا هَمَّ أن يتكلَّم وَثَبَتِ الضفدعُ إلى فمهِ فانشدخت، وكان أحدُهم إذا اضطجعَ تراكب عليه حتى يكونوا رُكاماً فوق الذراعِ بعضه على بعض، حتى لا يستطيعَ أن ينقلبَ إلى جنبٍ آخر، ولا يقدرُ على القيام، وكان إذا فَتَحَ أحدُهم فَمَهُ ليأكلَ لقمةً وَثَبَتِ الضفدعُ في فمهِ فسبقت اللقمةَ، وكانوا لا يوقدون ناراً إلا امتلأت ضفادعَ، وكان بعضُهم لا يسمعُ كلامَ بعض من كثرةِ صُراخِ الضفادع، وكانوا إذا قَتَلُوا واحداً منها جَافَ ما حولَهُ حتى لا يستطيعون الجلوسَ فيه).

قال عكرمة وابن عباس: (كانت الضفادعُ بَرِّيَّةً، فلما أرسلَها اللهُ على قومِ فرعون سَمعت وأطاعت، فجعلت تقذفُ نفسَها في القِدْرِ وهي تَغْلِي، وفي التَّنانيرِ وهي تفورُ، فأثابَها اللهُ بحسن طاعتها بالماء، فلما ضاقتِ الأرضُ على قوم فرعون، عَجُّوا وشَكَوا إلى موسى وَبَكَوا؛ وقالوا: يا موسى! هذه المرةَ نتوبُ ولا نعودُ، ونحلف لك لئن دفعتَ عنا هذه الضفادعَ لنؤمننَّ لك، فأخذ عهودَهم ومواثيقهم، ثُم دعا ربَّهُ فكشفَها عنهم بريحٍ عظيمة نبذتْها في البحرِ، فقال لَهم موسى: وَيْحَكُمْ ! أي لِمَ تُسْخِطُونَ رَبَّكُمْ، أرسِلُوا معي بني إسرائيلَ.

فأبَوا ونقضوا العهودَ والمواثيق وعادوا لكُفْرهم وتكذيبهم، فدعا عليهم، فأرسلَ اللهُ عليهم الدَّمَ، فَجَرَتْ أنهارُهم وآبارُهم دماً أحمر عبيطاً، وبنو إسرائيلَ في الماءِ العَذْب الطيِّب، وكان الإسرائيليُّ يستسقي ماءً عذباً صافياً، فإذا أخذهُ القبطيُّ تحوَّلَ دماً، وكانت القبطيَّةُ تقولُ للإسرائيليَّة: مُجِّي الماءَ من فمكِ إلى فمي، فكانت تَمُجُّهُ في فمِها فيصيرُ في فمِ القبطيَّة دماً عبيطاً.

وكان فرعونُ يجمع بين الرَّجُلين على الإناءِ الواحد؛ القِبْطِيُّ والإسرائيليُّ، فيكون مما يلِي الإسرائيليَّ ماءً، ومما يلي القبطيَّ دمٌ، وكانا يستقيان من جَرَّةٍ واحدة، فيخرجُ للإسرائيليِّ ماءٌ عذبٌ زُلالٌ صافٍ، ويخرجُ للقبطي دمٌ عَبيطٌ. وكان النيلُ ماؤه طيِّباً، فإذا أخذهُ القبطيُّ عادَ في إنائه وفي فَمِهِ دماً.

فمكثُوا على هذا سبعةَ أيام لا يشربونَ إلا الدَّمَ؛ حتى ماتَ كثيرٌ منهم، ثم إن فرعونَ أجْهَدَهُ العطشُ واشتدَّ به، فيأتون بأوراق الأشجار الرطبة، فيمصُّها فتصيرُ دماً عبيطاً ومِلْحاً أجاجاً، فكانوا لا يأكلونَ إلا الدَّمَ، ولا يشربون إلا الدمَ، فقال فرعونُ: أقْسِمُ بإلَهِكَ يا موسى! لئن كَشَفْتَ عنا الدَّمَ لنؤمنَنَّ لكَ. فدعا موسى رَبَّهُ، فأذهب عنهم الدمَ، وعَذُبَ ماؤُهم، فعادوا لكفرهم إلى أن كان من أمرِ الغَرَقِ ما كانَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ ؛ أي دلالاتٍ واضحاتٍ بعضُها منفصلٌ من بعض، كلُّ آيةٍ من السَّبتِ إلى السبت، وبين كلِّ آيتين شهرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ؛ أي مُقِيْمِيْنَ على كفرِهم، فمكث موسى في آلِ فرعون بعدما غلبَ السحرةَ عشرين سنة يُرِيْهِمُ الآياتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ ؛ معناه: ولَمَّا وقعَ عليْهِمْ العذابُ الذي تقدَّم ذِكْرُهُ من الطُّوفان وغيره. وقال عكرمةُ: (الرِّجْزُ: الدَّمُ؛ لأنَّهُ نَغَّصَ عَيْشَهُمْ). وقال ابنُ جُبير: (هُوَ الطَّاعُونُ).

وَذلِكَ أنَّ مُوسَى أرَى قومَهُ وبني إسرائيل من بعد ما جاءَ قومَ فرعون بالآيات الخمسِ: الطوفانُ وغيره، فلم يؤمِنُوا ولَم يرسلوا معهُ بني إسرائيل، فأرسلَ عليهم الطاعونَ، فهلَكَ منهم سبعون ألفاً، فقال فرعونُ عند ذلك: (يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) أي بما تقدمَ به إليك أنه يجيبُ دعاءَك إذا دعوته كما أجابَ دعاءك في إنزالِ هذه الآيات، ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ ﴾ ؛ أي هذا الطاعونَ. وقرأ سعيد بن جبير ومجاهدُ: (الرُّجْز) وهما لغتان كالعَصْو والعُصْو. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ ؛ أي لنصدِّقنَّك، ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ أي لَنُطْلِقَنَّهُمْ من التسخيرِ والأعمالِ الشاقَّة.

---

(١) أخرج الطبري هذه المأثورات في (١١٦٥٩-١١٦٧٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ ﴾ ؛ أي العـذاب، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ ؛ وهو الوقتُ الـذي عَلِمَ اللهُ مـن حالِـهم أن صـلاحَ غـيرهم مقالهم إلى ذلك الوقت؛ يعني وقتَ الغرق، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ يعني ينكثونَ العهدَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ وذلكَ أن الله تعالَى أمَرَ موسى أن يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ، فاستعارَ نسوةُ بني إسرائيلَ من نساءِ آل فرعون حُلِيَّهُمْ، وقُلْنَ: إن لنا خروجاً إلى عيدٍ. فخرجَ موسَى ببني إسرائيل في أوَّل الليل، وهم ستمائة ألفٍ من رجلٍ وامرأة وصبيٍّ، فبلغَ الخبرُ فرعونَ، فركِبَ ومعه ألفَا ألفٍ ومائتا ألفٍ، فأدركَهم فرعـونُ حـين طلعـتِ الشـمسُ، وانتـهى موسـى إلى البحرِ، فضربَ البحرَ؛ فانفلقَ اثنا عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيلَ اثنـا عشـر سِبْطاً، فعَبَرَ كلُّ سِبْطٍ طريقاً.

فأقبلَ فرعونُ ومَن معهُ، فدخلوا بعدَهم من حيثُ دخلوا، فلما صارُوا جميعاً في البحرِ، أمرَ الله البحرَ فالتطمَ عليهم فغَرِقُـوا، فقـالَ بنـو إسـرائيلَ لِموسـى أنْ يُرِيَـهُمْ فرعونَ، فدعا رَبَّهُ فلفظَهُم البحرُ ولَفَظَ فرعونَ، فنظروا إليه وإلَى مَن معهُ، فـلا يَقبـلُ الماءُ غريقاً بعد ذلك أبداً. ورجعَ موسى ببني إسرائيلَ، فسكنُوا الأرضَ أرضَ مصر.

ومعنى قوله: (فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) أي في البحرِ بلسان العبرانيَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا) أي بتكذيبهم الآياتِ التِّسْعِ التي أتاهم بها موسى: اليدُ؛ والعصـا؛ والسُّنونُ؛ ونقصُ الثمرات؛ والطوفان؛ والجرادُ؛ والقمـل؛ والضفـادع؛ والـدمُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي عاقبنـاهم بتعرُّضِـهم لأسـباب الغفلة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ ﴾ التي كانُوا فيها، ﴿ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ ؛ معناه: أوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيـنَ كَـانُوا يسـتضعفونَهم القِبْطُ؛ وهم بنو إسرائيل مَشَارِقَ الأَرْضِ التي كانوا فيها ومَغَارِبَهَا. وقِيْـلَ: أراد بـهذه الأرضِ الأرضَ المقدسة: الأردنَّ وفلسطينَ، ﴿ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ ؛ بـاركَ الله فيهـا

بكثرةِ المياه والأشجار والثّمار، قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمِيَاهَ كُلَّهَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الصَّخْرَةِ الَّتِي بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي وتَمَّتْ عِدَّةُ ربكَ؛ يعني قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾(١) وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾(٢). قال ابنُ عبَّاس: (فَأَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ). وقولُهُ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي بصبرِهم على دِينهم أن يرجعوا إلى دِين فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾؛ من المكائدِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾؛ أي وما كانوا يَبْنُونَ مِن البيوت والقصور والكروم والشَّجر، ويستخدمون بني إسرائيلَ في بنائِها ورَفْعِهَا. قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكر: (يَعْرُشُونَ) بضمِّ الراء، وهما لُغتان فصيحتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾؛ أي أمرناهم بمجاوزتِهِ ويسَّرناهُ عليهم حين خلفوا البحرَ وراءهم على سلامةٍ، وذلك من أعظمِ نِعَمِ اللهِ تعالى، ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾؛ أي يعبدون ويُواظِبُونَ على عبادةِ أصنام لَهم؛ وهم أهلُ الرّقةِ؛ أناسٌ كفروا بعدَ إبراهيم؛ مَرَّتْ بهم بنو إسرائيل وهم قعودٌ حولَ أصنامِهم، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا﴾؛ نعبدُهُ، ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ يعبدونَها.

وفي هذا بيانُ غايةِ جَهْلِهِمْ وعِنادِهم، فإن اللهَ خَلَّصَهُمْ من عدوِّهم ونَجَّاهم من الغرقِ، وقالوا هذا القولَ حين رأوا هؤلاء القومَ يعبدون الأصنامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ﴾؛ لَهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾؛ صفاتَ اللهِ وما يجوزُ عليه وما لا يجوز؛ أي لا يعرفون أن الذي يُتَّخَذُ إلَهاً هو خالقُ الأجسام. ثُم بَيَّنَ أن هؤلاء سيهلكون ويُهلَكُ ما يعبدونه فقال: قَالَ اللهُ تَعَالَى:

---

(١) القصص / ٥.

(٢) الأعراف / ١٢٩.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي مُهْلَكٌ ما هم فيه؛ ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ ؛ وضَلالٌ؛ ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ، والتَّبَارُ: هو الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ ؛ أي قال لهم: أسِوَى اللهِ أطلبُ لكم ربّاً تعبدونَهُ، ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ، عالَمي زمَانِكم من القِبْطِ وغيرِهم بعدَ ما كُنتم مستعبدِين أذِلاَّء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي يُوَلُّونكُمْ سُوءَ العذاب ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي يَذبحونَهم ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي يَستَبْقُونَهُمْ للاستخدام، ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ والكسائي: (يَعْكِفُونَ) بكسرِ الكاف والباقون بضمِّها وهما لُغتان. وقرأ أهلُ الشَّام (وَإِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ). وقرأ الباقونَ على التكثيرِ (أَنْجَيْنَاكُمْ). وقوله تعالى: (يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ) قرأ نافعُ بالتخفيفِ، وقرأ الباقونَ بالتشديدِ على التَّكثيرِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (كَانَ اللهُ وَعَدَ مُوسَى أنْ يُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ لِثَلاَثِينَ لَيْلَةً؛ يَعْنِي ذا الْقَعْدَةِ وَعَشْراً مِن ذِي الْحِجَّةِ، كَأَنَّهُ قَالَ شَهْراً وَعَشْرَةَ أيَّامٍ)[1].

وقال بعضُهم: أمَرَ اللهُ موسى إلى موضعٍ بَيَّنَهُ له أن يعبدَهُ في ذلك الموضعِ ثلاثين يوماً، يصُومُ النهارَ ويقومُ الليلَ؛ ليَنزل عليه التوراةُ، فلمَّا صامَ ثلاثين أنْكَرَ خُلُوفَ فَمِهِ، فاسْتَاكَ بعُودِ خَرْنُوبٍ، فقالتِ الملائكةُ: كنا نستنشقُ منك رائحةَ الْمِسْكِ فأفسَدْتَهُ بالسِّواك، فأمَرَهُ اللهُ أنْ يصومَ عشراً بعد ذلكَ الْخُلُوفِ، فذلك قولهُ (وَأتْمَمْنَاهَا بعَشْرٍ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ؛ أي تَمَّ الوقتُ الذي أمَرَ اللهُ بالعبادة فيهِ أربعينَ ليلةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ ؛ أي قالَ مُوسَى لهارون قَبْلَ انطلاقهِ إلى الجبلِ الذي أمر بالعبادةِ فيه: قُمْ مَقَامِي فِي قَوْمِي،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٩٦) بأسانيد، والأثر (١١٦٩٨) وفيه قال ابن جريج: قال ابن عباس مثله.

﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ؛ فيما بينهم، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ منهم، ولا ترضَ بعملِهم، وذلك أنَّ موسى كان يشاهدُ كثرةَ خلافِهم حالاً بعد حالٍ، فأوصاهُ في أمرهم. ومن قرأ (هَارُونُ) بالرفعِ فمعناهُ: قال هارونُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ ؛ أي لَمَّا انتهى موسى إلى المكانِ الذي وقَّتْنا له، وأمرناهُ بالسَّيرِ إليه وهو مَدْيَنُ، وقولهُ تعالى: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) أي كَلَّمَهُ من غيرِ تُرجُمان ولا سفيرٍ، كما كَلَّمَ الأنبياءَ على أَلْسِنَةِ الملائكةِ.

فلما نَاجَاهُ رَبُّهُ استحلَى كلامَهُ، واشتاقَ إلى رُؤية ربهِ وطَمِعَ فيها، فـ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي اعطِني أنظرْ إليكَ، ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ؛ ولستَ تطيقُ النظرَ إلَيَّ في الدُّنيا، فمَن نظرَ إلَيَّ ماتَ، فقال: إني سمعتُ كلامَكَ واشتقتُ إلى رُؤيتِك، ولأَنْ أنظُرْ إليك ثم أموتُ أحَبُّ إلَيَّ مِن أنْ أعيشَ ولا أراكَ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ ؛ أي إلى أعظمِ جَبَلٍ لِمَدْيَنَ وهو جبلُ زُبَير، ﴿ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ ؛ أي ظهرَ له من نورهِ ما شاءَ، ويقالُ ألقى عليه نُوراً من الأنوار، ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ ؛ أي كَسَّرَهُ جِبالاً صِغاراً، تقطَّعَ الجبلُ من هيبةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فصارَ ثماني فِرَقٍ، أربعُ قِطَعٍ منه وقعنَ بمكَّة: ثورٌ وثَبِيْرٌ وحِرَاءُ وغَارُ ثَوْرٍ، وأربعُ قِطَعٍ وقعن بالمدينةِ: أُحُدُ وَرَوْقُ وَرَضْوَى وَالْمِهْرَاسُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ ؛ أي سَقَطَ مَغْشِيّاً عليه، ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ مِن غَشْيَتِهِ، ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً لكَ مِن قَولِي ومِن كلِّ سُوءٍ، ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ مِن مسألَتِي للرُّؤية، ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ من أهلِ هذا الزَّمان إنك لا تُرى في الدُّنيا.

وقال الحسنُ: (قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى: اعْرِضْ رُؤْيَتِي عَلَى الْجَبَلِ، فَإنْ لَمْ يَحْمِلْهَا مَعَ عِظَمِهِ وَبَقَائِهِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، فَأَنْتَ أيْضاً لاَ تَحْمِلُهَا)[1]. قال: (مَعْنَى قَوْلِهِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٤٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس... وذكره)).

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) أيْ أوْحَى رَبُّهُ). قَالَ: (وَمَا رَأى مُوسَى رَبَّهُ قَطْ، وَلَكِنْ أوْحَى اللهُ إلَى الْجَبَلِ هَلْ تُطِيقُ رُؤْيَتِي، فَسَاخَ الْجَبَلُ وَمُوسَى يَنْظُرُ)[1].

وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تعالى أبرزَ من العرشِ مقداراً الظُّفُرِ فتَدَكْدَكَ الجبلُ؛ لأن أجسامَ الدُّنيا لا تحتملُ آياتَ القيامة والأجسامَ العُلويَّة، إذ من حُكم الدُّنيا أن تفنَى بآياتِ القيامةِ، فلا تحتَملُها الدُّنيا.

وقرأ بعضُهم (دَكَّاءَ) بالهمزِ والمدِّ؛ أي طَارَ أعلى الجبلِ وبقِيَ أسفلهُ دَكّاً، والدَّكَأُ واحدُ الدَّكَوَاتِ؛ وهي رَوابي الأرضِ التي تكونُ ناشزةً لا تبلغُ أن تكون جَبلاً، ونَاقَةٌ دَكَّاء اذا لم يكن لها سَنَامٌ. ويحتملُ أن يكون معنى الدَّكِّ دَقُّ الجبلِ على الأرضِ، يقالُ دَكْدَكْتُ الشيءَ اذا دَقَقْتُهُ. وقرأ عاصمُ (دَكّاً) هَهُنا بالقصرِ والتنوينِ، والتي في الكهفِ بالمدِّ من غير تنوينٍ، ومدَّهُما حمزةُ والكسائيُّ والباقين مقصورَين مُنَوَّنَين.

وَقِيْلَ: لَمَّا سألَ موسى رَبَّهُ أرسلَ اللهُ الضبابَ والصواعقَ والظُّلمةَ والرعدَ والبرقَ، فأحاطت بالجبلِ الذي عليه موسَى وأمرَ اللهُ ملائكتَه يعرضُوا علىموسَى، فقالَ لَهم: اهبطُوا إلى عبدِي موسى الذي أرادَ أنْ يرَانِي، فهَبَطُوا عليه في يدِ كلِّ مَلَكٍ منهم مثلُ النَّخلةِ الطويلةِ ناراً شديدةَ الضوءِ أشدُّ ضوءاً من الشمسِ، ولبَاسُهم كلَهَب النار، كلُّهم يقولون بشدَّة أصواتِهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْعِزَّةِ أبَداً لاَ يَمُوتُ، وفي رَأسِ كلِّ منهم أربعةُ أوْجُهٍ.

فلما رآهُم موسى فَزِعَ وجعل يُسَبحُ معَهم وهو يبكِي ويقولُ: رب اذكُرنِي ولا تنسَ عبدَكَ، فقال له رئيسُ الملائكةِ: اصْبِرْ لِمَا سألتَ، ثم رفعتِ الملائكةُ أصواتَهم، وارتجَّ الجبلُ واندَكَّ وخرَّ العبدُ موسى صَعِقاً على وجهِهِ، فلما أفاقَ قال: سُبحانَكَ آمنتُ وصدَّقتُ أنه لا يراكَ أحدٌ في الدُّنيا، فإذا كان مَن نظرَ إلى ملائكتِكَ انخلعَ قلبُهُ، فما أعظمَكَ يا رب.

وعن سهلٍ: (أنَّ اللهَ تَعَالَى أظْهَرَ مِنْ سَبْعِينَ ألْفِ حِجَابٍ نُوراً قَدْرَ الدِّرْهَمِ فَجَعَلَ الْجَبَلَ دَكّاً).

---

(١) وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٢١) عن مجاهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) قال ابنُ عبَّاس: (مَغْشِيّاً عَلَيْهِ)[١]، وقال قتادةُ: (مَيّتاً)[٢]، وقولُ ابنِ عبَّاس أظهرُ؛ لأن اللهَ تعالى قال (فَلَمَّا أفَاقَ) ولا يقالُ للمَيْتِ: أفَاقَ من موتهِ، ولكن يقالُ: بُعِثَ من موتهِ، كما قالَ تعالى في حديثِ السَّبعين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾؛ أي قال اللهُ: يا موسَى إنِّي اتخذتُكَ صفوةً برسالَتِي التي أرسلنا إليك وبكلامِي معكَ من غير وحيٍ، ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾؛ أي اعْمَلْ بما علَّمتُكَ من التوراةِ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾؛ لِمَا أعطيتُك وأكرمتُك.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي في تسعةِ ألواحٍ من الزُّبرجَدِ الأخضرِ، وَقِيْلَ: من الياقوتِ الأحمر أعطاها اللهُ موسَى وفيها التوراةُ كنَقْشِ الخاتَم، طولُ كلِّ لوحٍ عشرةُ أذرُعٍ.

وقولهُ تعالى: (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) يعني من أمُور الدِّين، وقولهُ تعالى ﴿مَّوْعِظَةً﴾؛ يعني ما يدعُو إلى الطاعةِ، وزَجْرٍ عن المعصيةِ بالوعد والوعيدِ وأخبار الأُمَم الماضين. وقولهُ تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ معناهُ: لكلِّ أمرٍ من أمور الدِّين من الحلالِ والحرامِ والأمر والنَّهي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي اعْمَلْ بها بجِدٍّ في طاعةِ الله ومواظبةٍ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي أمُرْ قومَك يعملوا بأحسنِ ما بُيِّنَ لهم فيها؛ أي أمِرُوا بالخيرِ ونُهوا عن الشرِّ، وعرَفُوا ما لهم في ذلك، فمُرْهُمْ يأخذُوا بالأحسنِ. ويقالُ: مُرْهُمْ يأخذُوا بالفرائضِ والنوافلِ دون المباحِ الذي لا حَمْدَ فيه ولا ثوابَ. وَقِيْلَ: معناهُ (يَأْخُذُوا) بالناسخِ والمنسوخِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٠٩) عن ابن عباس، والأثر (١١٧١١) عن ابن زيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧١٤).

(٣) البقرة / ٥٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾؛ أي سوفَ أُريكُمْ جهنَّم في الآخرةِ هي دارُ الخارجين عن طاعةِ الله، ويقالُ: أرادَ به ما مَرُّوا عليه في سَفَرِهم من منازلِ عادٍ وثمود والقُرونِ الذين أُهْلِكُوا بالتكذيب.

وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ سَأُدْخِلُكُمُ النَّارَ وَأُرِيكُمْ مَنَازِلَ الْكَافِرِينَ)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ سأُريكُم دارَ فرعون وقومِهِ وهي مصرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾؛ أي سأجعلُ جزاءَ المتكبرين الذين لا يُؤمنون بالمعجزةِ الإضْلاَلَ عن الْهُدَى، وعن معرفةِ ما أودعَ اللهُ في الكتاب يقرؤونَهُ ولا يفهمون ما أرادَ اللهُ به.

وَقِيْلَ: معناهُ: سأصرِفُهم عن الاعتراضِ على آياتِي بالإبطال، وَقِيْلَ: معناه: سأصرفُ عن نَيلِ ما في آياتِي من العزِّ والكرامةِ، ويعني بالذين يتكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ هم الذين يَرَونَ أنَّهم أفضلُ الخلقِ، وأنَّ لهم ما ليسَ لغيرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾؛ معناهُ: وإن يَرَوا كلَّ آيةٍ تدلُّ على وحدانيَّةِ اللهِ ونُبوَّةِ الأنبياءِ لا يصدِّقوا بها، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾؛ أي سبيلَ الإسلامِ، ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾؛ دِيناً لأنفسهم، يعني هؤلاء المتكبرين. وقرأ حمزةُ ومجاهد والأعمش والكسائيُّ بالفتحِ الاستقامة في الدِّين، والرُّشد بضمِّ الراءِ الاصلاحُ. وقرأ أبو عبدِالرحمن: (وَإنْ يَرَوا سَبيلَ الرَّشَادِ) بالألفِ. وقرأ مالكُ بن دينار: (وَإنْ يُرَوا) بضمِّ الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ يحتملُ أن يكون ذلكَ موضعَ الرفعِ على معنى أمرَهم ذلك، ويحتملُ أن يكون نَصباً على معنى فعل اللهُ ذلك بهم بتكذيبهم بآياتنا، قال مقاتلُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ بآيَاتِنَا التِّسع) كأنه ذهبَ إلى أنه هذا كلُّه خطابُ موسَى. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَى (ذلِكَ بأنَّهُمْ كَذبُوا بآيَاتِنَا) بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ)[2] وذهبَ إلى أنَّ قولَهُ: (سَأصْرِفُ) خطابٌ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٤١).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٦٢؛ قال السيوطي: ((أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة قال: (أنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ).))

لنبيِّنا ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ أي عنها لاَهِينَ سَاهِينَ، لا يتفكَّرون فيها ولا يتَّعظُون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ ؛ أي بالبعثِ بعد الموت، ﴿ حَبِطَتْ ﴾ ؛ بَطُلَتْ، ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ؛ التي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مُوسَى كَانَ وَعَدَ قَوْمَهُ بالانْطِلاَقِ إلَى الْجَبَلِ ثَلاَثِينَ يَوْماً، فَلَمَّا تَأخَّرَ رُجُوعُهُ قَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ - وَكَانَ رَجُلاً مُطَاعاً-: إنَّكُمْ اتَّخَذْتُمُ الْحُلِيَّ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَعَاقَبَكُمُ اللهُ بتِلْكَ الْجِنَايَةِ، وَمَنَعَ مُوسَى عَنْكُمْ، فَاجْمَعُوا حَتَّى أحْرِقَهَا؛ لَعَلَّ اللهَ أنْ يَرُدَّ عَلَيْنَا مُوسَى.

فَجَمَعُوا الْحُلِيَّ، وَكَانَ السَّامِرِيُّ صَائِغاً، فَجَعَلَ الْحُلِيَّ فِي النَّارِ وَاتَّخَذَ مِنْهُ عِجْلاً وَنَفَخَ فِيْهِ التُّرَابَ الَّذِي كَانَ أخَذَهُ مِنْ أثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ، وَكَانَ ذلِكَ الْفَرَسُ فَرَسَ الْحَيَاةِ، مَا وَضَعَ حَافِرَهُ فِي مَوْضِعٍ إلاَّ اخْضَرَّ، فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ التُّرَابِ صَارَ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ، فَعَبَدُوهُ وَزَفُّوا حَوْلَهُ)[(١)].

وَقِيْلَ: إن السامريَّ حين صاغَ العجلَ جعل فيه خُروقاً تجري فيها الريحُ، فكان يسمعُ من تلك الخروقِ شِبْهُ الْخُوَار، فأوْهَمَ بني إسرائيلَ أنه حيٌّ يَخُورُ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (جَسَداً لَهُ خُوَارٌ) أيْ جُثَّةً لاَ تَعْقِلُ، لَيْسَ لَهُ رُوحٌ وَلاَ عَقْلٌ وَلاَ كَلاَمٌ إنَّمَا لَهُ خُوَارٌ فَقَطْ). وأما إضافةُ الْخُوَار إلى العجلِ في الآيةِ فهو كما يقالُ: صوتُ الحجرِ، صوتُ الطَّشتِ، وأمَّا الْحُلِيُّ فهو جمعُ الْحِلْيَةِ وهو ما يُتزيَّنُ به من ذهبٍ وفضَّة. وقال عليٌّ ؓ: (لَهُ جُؤَارٌ) بالجيمِ والهمزِ وهو الصوتُ[(٢)].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٨٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣١٦ نقله عن ابن عباس والحسن وقتادة وجماهير أهل التفسير.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ج ٢ ص١٥٤. واللباب في علوم الكتاب: ج٩ ص٣١٦.

وقولهُ تعالى: (حَلْيِهِمْ) قرأ يعقوبُ بفتحِ الحاء وجزمِ اللام، وقرأ حمزةُ والكسائي (حِلِيِّهِمْ) بكسرِ الحاء واللامِ وتشديد الياء أتبعا الحاءَ كسرةَ اللامِ، وقرأ الباقون بضمِّ الحاء وكسرِ اللام وتشديد الياءِ وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ؛ معناهُ: ألَم ينظرُوا إلى العجلِ لا يُكلِّمُهم بما يُجري عليهم نفعاً ويدفعُ عنهم ضُراً، ولا يُرشِدُهم طريقاً إلى خيرٍ ليأتوهُ ولا الى شرٍّ لينتهُوا عنه، ولو كان إلَهاً لهدَاهُم؛ لأنَّ الإلهَ لا يُهمِلُ عبادَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناهُ: لا يُرشِدُهم الطريقَ الذي يتَّخذونَهُ، ويجوزُ أن يكون ابتداءً على معنى: عَبَدُوهُ وكانوا بعبادتِهم إياهُ ظالمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ ؛ أي نَدِمُوا على عبادتِهم العجلَ، ورأوا أنَّهم قد ضَلُّوا عن الحقِّ، ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ؛ عملنا؛ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ بالعقوبةِ. قال الزجاج: (يُقَالُ لِلنَّادِمِ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُتَحَسِّرِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنْهُ: قَدْ سُقِطَ فُلاَنٌ فِي يَدِهِ، وَأسْقِطَ بِمَعْنَى سَقَطَ النَّدَمُ فِي أيْدِيهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ أي رجعَ مُوسَى من الجبلِ إلى قومهِ شديدَ الغضب حَزيناً، ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ؛ فعَلْتُمْ خلْفِي في غَيبَتِي بعبادةِ العجل، ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أسْتَبْطَأْتُمْ وعدَ ربكم الذي وعدَ في أربعين ليلةٍ، ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ ؛ مِن يده التي كانت فيها التوراةُ وألقاها من يدهِ، ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أخَذ رَأسَهُ بيَدِهِ الْيُمْنَى وَلِحْيَتَهُ بيَدِهِ الْيُسْرَى)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ﴾ ؛ أي قَهَرُوني واستذلُّوني وهَمُّوا بقتلِي، وكان هارون أخاهُ لأبيهِ وأمِّهِ ولكنَّهُ قال (يَا ابْنَ أمَّ) لِترَفُّقِهِ عليه، وعلى هذه طريقةُ العرب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٤٨ و١١٧٤٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ ؛ لا تُفرِّحْهُمْ عليَّ ولا تظُنَّ أنِّي رضيتُ بفعلِ القومِ الظالمين، ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ فلا تجعَلني مع عَبَدَةِ العجلِ في الغضب عليَّ، وكان هارونُ أكبرَ من موسى بثلاثِ سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى.

قرأ ابنُ عبَّاس والكوفيُّون إلاَّ حفصاً (يَا ابْنَ أمِّ) بكسرِ الميم هُنا، وفي طه فحَذفُوا ياءَ الإضافةِ؛ لأنَّ مَبْنَى النداءِ علىالحذفِ، وبقيَتِ الكسرةُ على الميمِ دَليلاً على ياءِ الإضافةِ كقولهِ (يَا عِبَادِ، وَيَا قَوْمِ)، وقرأ ابنُ السُّمَيقِع (يَا ابْنَ أمِّي) باثباتِ الياء، وقرأ الباقون بفتحِ الميمِ على معنى يا ابنَ أمَّاهُ[1].

وقولهُ تعالى (اسْتَضْعَفُونِي) بعبادةِ العجلِ، وقولهُ تعالى: (فَلاَ تُشْمِتْ بِي الأَعْدَاءَ)، قرأ مجاهدُ ومالكُ بن دينار: (فَلاَ تَشْمَتْ) بفتحِ التاءِ والميم[2]، ورفعِ (الأَعْدَاءُ)، والشَّماتةُ هي سرورُ العدوِّ.

فإنْ قِيْلَ: لِمَ جازَ لموسى أن يجُرَّ برأسِ هارون ولحيتهِ، والانبياءُ لا يجوز لأحدٍ أن يستخفَّ بهم، وكان هارونُ نبيّاً؟ قِيْلَ: إنَّ هذا كان منهُ على جهةِ العِتَاب لا على جهةِ الْهَوَان. وَقِيْلَ: لأنه أجراهُ مجرَى نفسهِ من حيث أنَّهما كانا في النبوَّةِ والأخوَّةِ كالنفسِ الواحدة، وقد يقبضُ الإنسانُ عند الغَيْظِ على لحيةِ نفسه، ويعُضّ إبْهامَيهِ وشَفَتيه، كما رُوي (أنَّ عُمَرَ ﷺ كَانَ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ فَتَلَ شَارِبَهُ).

إلاَّ أنَّ هارون خافَ أن يتوهَّم جُهَّالُ بني إسرائيل أنَّ موسى غضبانٌ عليه كغَضَبهِ على مَن عَبَدَ العجلَ، فقالَ: (ابْنَ أمَّ إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي...) الآيةَ. وَقِيلَ: إنَّ موسى فَعَلَ هذا بهارون في حالةِ الغضب التي لا يملكُ الإنسانُ فيها نفسَهُ، وكان ذلك صغيرةً منه، كما ألقَى الألواحَ لشدَّة الغضب، وكان الواجبُ عليه أن يُعَظِّمَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ ؛ ما كان منهُ من التقصيرِ في ردِّ القوم عن عبادةِ العجلِ، ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ ؛ أي في جَنَّتِكَ، ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ ؛ أي أرحَمُ بنا مِنَّا، وأرحمُ بنا من أبنائِنا وأمَّهاتنا.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٩٠.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرلآن: ج ٧ ص٢٩١.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين اتَّخذوا العجلَ إلَهاً سيصيبُهم عذابٌ من ربهم في الآخرةِ. والغضبُ من اللهِ: إرادةُ الانتقامِ على ما سَلَفَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ ﴾ ؛ أرادَ به ما أُمِرُوا به من استسلامِهم للفعلِ بقُعودِهم، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ أي كما جَزَينا هؤلاءِ فكذلك نَجزي الكاذبين على اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ بالسَّيئات الشِّركَ وسائرَ المعاصي إذا تابَ صاحبُها عنها، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ ﴾ ؛ أي سَكَنَ عن موسى الغضبُ وزالت قوَّة غضبهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: سَكَتَ موسَى عن الغضب، وهذا من الْمَقْلُوب، كما يقالُ: أدخلتُ قُلُنْسُوَةً في راسِي، يريدُ أدخلتُ راسِي في قُلُنْسُوَةٍ. وقولهُ تعالى: (أخَذ الأَلْوَاحَ) بعدَ ما كان ألقاهَا وبعدَ ما تكسَّرت، وذهَبَ منها ستَّة أسباعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ ؛ قال عطاءُ: (وَفِيمَا بَقِيَ مِنْهَا وَلَمْ يَذْهَبْ)، ويقالُ: معناه: فيما نَسخَهُ موسَى مما تكسَّرَ. وقولهُ تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي بيانٌ من الضَّلالة ونجاةٌ، ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ يخشَون اللهَ ويعملون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ﴾ ؛ ومعناهُ: واختارَ موسى مِن قومهِ سبعين رجُلاً للوقتِ الذي وقَّتنا لهُ يصحَبُهم مع نفسهِ عند الخروجِ إلى الميقاتِ، فيشهَدُوا عند قومِهم على سماعِ كلامِ اللهِ، فإنَّهم كانوا لا يُصدِّقون موسَى في أنَّ اللهَ كَلَّمَهُ، وكانوا اثنَى عشرَ سِبْطاً، فاختارَ مُوسَى من كلِّ سبط ستَّةً، وخلفَ منهم رجُلين، وقال: إنَّما أُمِرتُ بسبعين فليَرجِعْ اثنانِ منكم، ولَهما أجرُ مَن حضَرَ، فرجَعَ يُوشَعُ بن يُونا وكالبُ بن يوقَنَّا، وذهبَ موسى مع السبعين الى الجبلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي الزَّلزَلَةُ الشديدةُ عند الجبلِ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ موسَى: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ ؛ أنْ حملتَهم إلى الميقاتِ، وأهلَكتَني معهم بقتلِ القبطيِّ، وظنَّ موسى أن الرجفةَ إنَّما أخذتْهم بسبب عبادة بني إسرائيل العجلَ، فقال: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ ثم قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ؛ يعني ما عبادةُ العجلِ إلاَّ بَليَّتُكَ إذ صار الروحُ في العجلِ، ﴿ تُضِلُّ بِهَا ﴾ ؛ بالفتنةِ، ﴿ مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ ؛ أي أنتَ ناصِرُنا وحافظُنا ومتولِّي أمورنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا وارحمنا ولا تعذِّبنا، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

وَقِيْلَ: إنَّ موسى عليه السلام لَمَّا هلكَ السَّبعون، جعلَ يبكِي ويقولُ: يا رب ماذا أقولُ لبَني إسرائيلَ إذا رجعتُ إليهم، وقد أهلكتَ خيارَهم؟ فبعَثَهم اللهُ كما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[(١)] وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في البقرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ؛ يعني العلمَ والعبادةَ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي واكتُبْ لنا في الآخرةِ حَسَنَةً وهي الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي أنَبنا ورجَعنا بالتوبةِ، يقالُ: هَادَ يَهُودُ؛ إذا رجعَ، ولَم يُؤخذ اسمُ اليهودِ مِن هذا، وإنما أخِذ من تَهوَّدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ ؛ مِن عبادي مِمَّن هو أهلٌ لذلك، ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ يعني وسِعَتِ البرَّ والفاجرَ. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نزلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَطَاوَلَ لَهَا إبْلِيسُ وَقَالَ: أنَا شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ، فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ بقَوْلِهِ: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾) أي سَأوجِبُها للذين يتَّقونَ الشِّركَ والمعاصي، ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[(٢)].

فَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ نَتَّقِي وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ وَنُؤْمِنُ بآيَاتِ رَبنَا، فَأخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْهَا بقَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ ؛

---

(١) البقرة / ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٠٥).

يعني مُحَمَّداً ﷺ سَمَّاهُ أمِّياً لأنه لم يُحسن الكتابة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾(١)، وقال ﷺ: [إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسِبُ](٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ ؛ يعني نَعْتَهُ وصفتَهُ وخاتمه الذي بين كَتِفَيهِ ونعتَ أمَّته وشريعتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؛ أي بالتوحيدِ وشَرائعِ الإسلامِ؛ ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ؛ أي عن كلِّ ما لا يُعرفُ في شريعةٍ ولا سُنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ؛ أي ما اكتسبوهُ من وجهٍ طيِّبٍ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ؛ ما اكتسبوهُ من وجهٍ خبيثٍ، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني ثِقلَهُمْ، قال قتادةُ: (يَعْنِي التَّشْدِيدَ الَّذِي كَانَ عَلَيهِمْ فِي الدِّينِ وَمَا أمِرُواْ بِهِ مِنْ قِبَلِ أنْفُسِهِمْ فِي التَّوراةِ، وَقَطْعِ الأَعْضَاءِ الْخَاطِئَةِ).

وقال عطاءُ: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وبِخَلْعِ الأَنْدَادِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أيْ عَنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَقَطْعِ الأَرْحَامِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَ يَعْنِي الْحَلاَلَ الَّتِي كَانَتِ الْجُهَّالُ تُحَرِّمُهَا مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ يَعْنِي الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا وَغَيْرَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ كنايةٌ عن الأمور الشَّديدة التي كانت عليهم، كان إذا أصابَ ثوبَ أحدِهم شيءٌ من النجاسةِ وجبَ قطعهُ، وكان عليهم أنْ لا يعمَلُوا في السَّبتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ ؛ أي فالذين صدَّقُوا بهذا النبيِّ وعَظَّمُوهُ وأعانوهُ بالسَّيفِ على الأعداءِ، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ ؛ يعني القرآنَ الذي ضِياؤهُ في القلوب كضياءِ النُّور في العيُون، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ؛ أي الظَّافِرُونَ بالْمُرادِ والبقاءِ.

---

(١) العنكبوت / ٤٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب قول النبي ﷺ لا نكتب: الحديث (١٨١٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (١٥/١٠٨).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ كُلُّ رَسُول يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ، وبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ إلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ). ومعنى الآية: قُل يا مُحَمَّدُ إنِّي رسولُ الله إليكم كافَّة أدعُوكم إلى طاعةِ الله وتوحيدهِ واتِّبَاعِي فيما أدِّيتهُ إليكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ تعريفُ اللهِ الذي أرسلَهُ إليهم، وقولهُ تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أي لاَ شريكَ له في الإلَهيَّة، ولا خالقَ ولا رازقَ غيرهُ، ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي يُحيي الخلقَ من النُّطفة، ويُميتُهم عندَ انقضاءِ آجَالِهم، لا يقدرُ على ذلكَ أحدٌ سِواهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: يُحيي الأمواتَ للبعثِ، ويُميتُ الأحياءَ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾؛ أي صَدِّقُوا باللهِ ورسولهِ النبيِّ الأمِّيِّ الذي لاَ يَكتبُ، فَيُؤْمَنُ من جهتهِ أنْ ((لا))[1] يقرأ الكتُبَ وينقلَ إليهم أخبارَ الماضِينَ، ولكن يَتَّبعُ ما يُوحَى إليه، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ أي باللهِ وكُتُبِه. ومَن قرأ (وَكَلِمَتِهِ) فهو عِيسَى، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ ﴾؛ أي جماعة؛ ﴿ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ يدعون إلى الحق، ﴿ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾؛ وبهِ يَحكمُون وهم مُؤمِنُو أهلِ الكتاب عبدُاللهِ بن سلام وأصحابهُ.

ورُوي عن ابنِ عبَّاس: (أنَّهم قومٌ من بني إسرائيلَ قِبَلَ المشرق، وخَلْفَ الصِّين عند المطلعِ أخِذُوا من بيتِ المقدس، فرُمِيَ بهم هناكَ متمسِّكين بالتوراةِ مُشتَاقِينَ إلى الإسلامِ، يعملون بفرائضِ الله، بيُوتُهم مستويةٌ، والأمانةُ فيهم فاشيةٌ، قبُورهم عند أبوابهم، لا تَبَاغُضَ بينهم ولا تَحاسُدَ ولا حِلْفَ ولا خيانةَ ولا كذبَ ولا غشَّ، يعمَلون بالحقِّ فيما بينهم بلا أمير ولا قاضٍ، مرَّ بهم رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، فعرضَ عليهم الإسلامَ فقبلُوهُ)[2].

---

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٥) عن ابن جريج.

وذكر مقاتلُ: (أنَّ بين الصِّين وبينَهم وادِياً جارياً من رمـلٍ، فيمنـعُ النـاسَ مـن إتْيانِهم واخبارِهم، إلاَّ أنَّا لا نسمعُ أخبارَهم إلاَّ من النبيِّ ﷺ أخْبَرَهُ بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَـلَّ، واخبرهُ به النبيُّ ﷺ ابنَ عبَّاس. وقـال السـديُّ: (هـم قـومٌ بينَكـم وبينـهم نـهْرٌ مـن شَهْدٍ)[1].

قال ابن جُريج: (إنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا قَتَلوا أنبياءَهم وكَفَرُوا، تبرَّأ هؤلاءِ القـومُ منهم وسألوا أنْ يُفرِّقَ اللهُ بينهم وبينهم، ففتحَ الله لهـم نَفَقاً في الأرض، فصَـارُوا فيه سَنَةً ونصفاً حتى خرجُوا من وراءِ الصين، فهم هناكَ مُسلمون يُصَلُّونَ إلى قِبْلَتنا)[2].

وقال الكلبيُّ والربيع: (هم قومٌ خلفَ الصِّين على نَهر يجري على الرَّملِ سُـمِّي نَهر أرْدَاف، يُمطَرون باللَّيلِ، يصبحُون بالنهار ويزرَعون، لا يَصِلُ إليهم منَّا أحـدٌ ولا منهم إلينا، وهم على الحقِّ، ذهبَ جبريلُ بالنبيِّ ﷺ إليهم ليلةَ أسريَ به فكلَّمَهم.

فقال جبريلُ: هل تعرفون هذا الذي تُكلِّمونَهُ؟ قالوا: لاَ، قال: هذا مُحَمَّـدٌ ﷺ رسولُ اللهِ النبيُّ الأُمِّي، فآمَنُوا به وقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ إنَّ موسَى أوصَانا فقـالَ: مَـن أدركَ منكُم مُحَمَّداً ﷺ فَلْيُقرِؤْهُ منِّي السلامَ، فردَّ مُحَمَّـدٌ ﷺ علـى موسَـى وعليـهم السلامَ، ثم أقرَأهم عَشْرَ سُوَرٍ من القرآنِ أُنْزلت بمكَّة، ولم يكُن يومئـذٍ نزلـت فريضـةٌ غـيرَ الصَّـلاة والزكـاةِ، وأمَرَهـم أنْ يُقيمـوا مكانَـهم وأمرَهـم أنْ يُجَمِّعُـوا ويـتركُوا السَّبتَ)[3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ ؛ أي فُرِّقُـوا بـني إسرائيلَ اثنتَي عشرة فرقةً، والسِّبْطُ في ولدِ اسحق كالقبيلةِ في ولـدِ إسمـاعيلَ، وإنَّمـا ذكرَ (اثْنَتَي عَشْرَةَ) على لفظِ التَّأنيثِ وإنْ كان السبطُ مذكَّراً؛ لأن الأسباطَ هي الفِرَقُ والجماعاتُ.

فانْ قِيْلَ: كيف قالَ (أسْبَاطاً) بالجمعِ ولا يجمعُ ما بعدَ العشرةِ على لفظِ الجمعِ، وإنَّما يقالُ: اثنَى عشرَ دِرهماً ولا يقالُ اثنى عشرَ دراهم؟ قِيْلَ: ذكرَ الزجَّاجُ: (أنَّ قَوْلَهُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٤).
(٢) تقدم؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٥).
(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣٤٨.

(أسْبَاطاً) بَدَلٌ لاَ يُمَيِّزُ، كَأَنَّهُ قَالَ: قَطَّعْنَاهُمْ أَسْبَاطاً اثْنَتَي عَشْرَةَ). وقرأ أبان بن تَغلُب ابنِ زيد عن عاصم (وَقَطَعْنَاهُمْ) بالتخفيف[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ ؛ أي أوحَينا إليه في التِّيهِ حين طلبَ قومهُ منه الماءَ، ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ حَجَراً يَحْمِلُونَهُ مَعَهُمْ عَلَى حِمَارٍ) وَلِهَذا عُرِّفَ بالألفِ واللامِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ ؛ الانْبجَاسُ: خروجُ الماءِ قَليلاً، والانفجارُ خروجهُ واسعاً، وإنما قالَ (فَانْبَجَسَتْ)؛ لأن الماءَ كان يخرجُ من الحجرِ في الابتداء قليلاً ثم يتَّسعُ فاجتمعَ فيه صفةُ الانبجاسِ والانفجار، وإنما تفجَّرَ منه اثْنَتَا عشرةَ عَيناً؛ لأنَّهم كانوا اثنتي عشرةَ سِبْطاً، وكان لا يُخالطُ كلُّ سبطٍ السبطَ الآخر، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ، كلُّ سبطٍ موضعَ شربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ ﴾ أي ظَلَّلنا عليهم بالنَّهار في التِّيه ليَقِيَهم حرَّ الشَّمس، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ ؛ فالْمَنُّ الترنجبين، والسَّلْوَى طائرٌ يشبهُ السُّماني. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أي من حَلاَلِ ما رزقناكم من الْمَنِّ والسَّلوَى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ؛ أي وما ضَرُّونا بمخالفتِهم أمْرَنا وإعراضِهم عن شُكر النعمة، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ ؛ ولكن ضَرُّوا أنفسَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ؛ أي قيلَ لهم وقتَ خرُوجِهم من التِّيهِ اسكُنوا القريةَ أريحا ببيتِ المقدس، ﴿ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ؛ من نَعيمِها، ﴿ وَقُولُوا۟ ﴾ ؛ مَسْألَتُنا؛ ﴿ حِطَّةٌ ﴾ ؛ أي احْطُطْ عنَّا ذُنوبَنا، ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ؛ بابَ أريحا خاشِعين للهِ خاضِعين، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾ ؛ ما سَلَفَ من ذُنوبكم باستغفاركم وخضُوعِكم.

---

(١) في أصل المخطوط: أبان بن زيد عن عاصم. والصحيح كما أثبتناه؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٠٣. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣٥١.

وقرأ أهلُ المدينة (تُغفَرْ) بالتاء مضمومةً، وقرأ ابنُ عامر بتاء مضمومةٍ أخرى (خَطِيئَّتُكُمْ). وقولهُ تعالى: ﴿ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ؛ أي الذين لا ذنبَ لهم في الدُّنيا نزيدُهم فضلاً في الآخرةِ ثواباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي غَيَّرَ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم القولَ الذي أمِرُوا به، فقالوا إطة سِمْقَانا؛ أي حنطةٌ حمراء، ويقال قالوا حِطَّة، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي عذاباً أنْزَلْتُ بهم ناراً وأحرقتهم، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ؛ بتبديلِهم ما أمِرُوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ معناهُ: سَلْ يا مُحَمَّدُ يهودَ المدينةِ عن القريةِ التي كانت بقُربِ البحرِ وهي مدينة إيله على ساحلِ البحر بين المدينةِ والشَّام، وهذا سؤالُ توبيخٍ وتقريرٍ وتعريفٍ لهم، لا سؤالَ تعريفٍ من قِبَلِهم، وفي السؤالِ لهم بيانُ أنَّ يهود المدينةِ جَرَوا على عادةِ أسلافِهم في التمرُّدِ في المعصيةِ، فكأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نَبيَّهُ ﷺ أن يسألَهم ما فعلَ اللهُ بأهلِ تلك القريةِ، أليس قد جعلَهُم اللهُ قردةً بمخالَفَتِهم أمرَ اللهِ، فما يُؤمِنُكُمْ في تكذيبِ مُحمَّدٍ ﷺ من عذابِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ ؛ أي حيث يتجاوزونَ الحدَّ بأخذِهم السَّمَكَ في يومِ السَّبتِ، وقد أمِرُوا أنْ لا يصطَادُوا فيه ويتفرَّغُوا للعبادةِ والطاعة. وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (أيْ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ)[1]. وقال الضحَّاكُ: (مُتَتَابعَةً مِثْلَ الْكِبَاشِ الْبيضِ السِّمَانِ يَوْمَئِذٍ أنْ تُصَادَ)[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أي لا يكون يومُ السَّبت، كانت الحيتانُ تغوصُ في الماءِ ولا تأتِيهم شُرَّعاً.

وقرأ أبو نُهيك: (إذْ يُعِدُّونَ فِي السَّبْتِ) بضمِّ الياء وكسرِ العين وتشديدِ الدال؛ يُهَيِّؤُنَ الآلَةَ لأخذِهَا. وقرأ ابنُ السُّمَيقِع (فِي الأسْبَاتِ) على جمعِ السَّبتِ. وقرأ بعضُهم (إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ أسْبَاتِهِمْ شُرَّعاً) فجعلت طائفةٌ من أهلِ هذه المدينة

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٥٤).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٩٦.

يُلقُونَ الشَّبكةَ في الماءِ في يومِ السَّبت، ويقولون حتى يقعُ فيها السَّمكُ، ثم لا يُخرجُونَ الشَّبكةَ من الماءِ إلاَّ يومَ الأحدِ، وقالوا إنَّما نصطادُ في يومِ الأحدِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ أي كذلك نُشَدِّدُ عليهم في التَّكليفِ بعصيانِهم وفِسْقِهم.

ووقفَ بعضُ القُرَّاء على قولهِ: (كَذلِكَ) على معنى لا تأتِيهم في غيرِ يوم السَّبتِ كما تأتِيهم في يومِ السَّبت، ثُم ابتدأ فقالَ (نَبْلُوهُمْ بمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ). فإنْ قِيْلَ: كيف عرَّفَ اللهُ الحيتانَ الفَضْلَ من يومِ السَّبت وغيره من الأيَّام ؟ قِيْلَ: لا يمتنعُ أنَّ اللهَ عرَّفَها ذلك أو قوَّى دَوَاعِيَها؛ أي إلى الشُّروعِ في يوم السَّبتِ معجزةً لنبيٍّ ذلك الوقتِ وابتلاءً لأولئك القومِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ في الآيةِ بيانُ أنه كان في هذه القريةِ فِرْقَةٌ يَعظُونَ الْمُذنِبينَ، والمعنى: إذ قالت عُصبَةٌ من أهلِ تلك القريةِ للواعظين لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكُم في الدُّنيا أو مُعذِّبهم عَذاباً شَديداً في الآخرةِ؟ ولَمْ يقولوا هذا كَرَاهَةً للوعظِ ولا رضًى بالمعصيةِ منهم، ولكن قالوا ذلك لِيَأْسِهم عن قَبولِ الوعظِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قالتِ الفرقةُ الواعظةُ: موعظَتُنا إيَّاهم معذرةٌ إلى اللهِ أن نبتلى بذلك عُذراً عندَ الله. ومن قرأ (مَعْذِرَةً) بالنصب فعلَى معنى يعتذِرُون معذرةً. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ أي ورجاءَ أن يتقوه، فكأن الواعظين لم ييأسوا مِنْ قَبُولِهم الوعظ. وقيل: معناه: لعلهم يتقون صيدَ الحيتانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ أي فلمَّا تركُوا ما وُعِظُوا بهِ، ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ ؛ أي خلَّصْنا الذين يَنْهَوْنَ عن حبسِ السَّمك في الحظيرةِ يومَ السَّبتِ، ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ ؛ أي شديدٍ، يقالُ بَئِسَ وبَئِسَ وبَأسَ إذا اشْتَدَّ، وبَؤُسَ يَبْؤُسُ بُؤْساً إذا افْتَقرَ. وقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي بفِسقِهم.

ولَم يُذكَر في الآيةِ حالُ الفرقةِ الثالثة، وقد رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قال: (كَانَ الْقَوْمُ ثلاَثَ فِرَق، فَكَانَتِ الْفِرْقَةُ الْوُسْطَى تَعْمَلُ بالسُّوءِ، وَالْفِرْقَةُ الْيُمْنَى تَنْهَى وَتُحَذِّرُهُمْ بَأْسَ اللهِ، وَكَانَتِ الأُخْرَى تَكُفُّ أَلْسِنَتَهَا وَتُمْسِكُ أَيْدِيَهَا. فَلَمَّا عَمِلَتِ الْوُسْطَى بذلِكَ زَمَاناً، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَلَمْ يُنْزَلْ بهمْ عُقُوبَةٌ، اسْتَبْشَرُوا وَقَالُوا مَا نَرَى السَّبْتَ إلاَّ قَدْ حَلَّ لَنَا وَذهَبَتْ حُرْمَتُهُ، وَكَانُوا نَحْواً مِنْ سَبْعِينَ أَلْفاً، وَكَانَتِ الْفِرْقَةُ النَّاهِيَةُ نَحْوَ اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً، يَقُولُونَ لَهُمْ: لاَ تَعْدُوا، وَلاَ تَأْمَنُوا مِنْ عَذاب اللهِ، فَلَمْ يَتَّعِظُوا فَأَصْبَحُوا وَقَدْ مَسَخَهُمُ اللهُ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَمَكَثُوا كَذلِكَ ثلاَثَةَ أَيَّام عِبْرَةً لِلنَّاظِرِينَ، ثُمَّ مَاتُوا)[١].

قال ابنُ عبَّاس: ((وَأَنْجيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) وَلَيْتَ شِعْرِي مَا صَنَعَ اللهُ بالَّذِينَ لَمْ يَنْهَوا)[٢]، وقال عكرمةُ: (بَلْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ أَيْضاً وَمَا نَجَّا إلاَّ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَهَلَكَ الْبَاقُونَ بظُلْمِهِمْ بالاسْتِحْلاَل وَتَرْكِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ). فقال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَ وَاللهِ بالْمُدَاهِنِ مَا نَزَلَ بالْمُسْتَحِلِّ).

وقال الحسنُ: (نَجَتْ فِرْقَتَان، وَهَلَكَتْ فِرْقَةٌ) وأنكرَ القولَ الذي ذُكر له عن ابنِ عبَّاس، وقال: (مَا هَلَكَتْ إلاَّ فِرْقَةٌ؛ لأَنَّهُ لَيس شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ وَالْوَعْظِ مِنْ ذِكْرِ الْوَعِيدِ، وَقَدْ ذكَرَتِ الْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ الْوَعِيدَ فَقَالَتْ: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً) وقول الحسنِ أقربُ إلى ظاهرِ الآية[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ؛ أي أبَوا أن يرجِعُوا عن المعصيةِ، والعَاتِي هو شديدُ الدُّخول في الفسادِ الْمُتَمَرِّدُ الذي لا يقبلُ الموعظةَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾ ؛ أي مَطْرُودِينَ مُبعَدِينَ عن كلِّ خيرٍ، مِن قولِهم: خَسَأْتُ الْكَلْبَ إذا قلتُ لـه: اخْسَأْ على الطردِ له. قال ابنُ عبَّاس: (يَا لَهَا مِنْ أَكْلَةٍ مَا أَوْخَمَهَا أَنْ مُسِخُوا قِرَدَةً فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ النَّارُ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦٧) بمعناه، و(١١٨٦٨ و١١٨٦٩)

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦٨-١١٨٧٠).

(٣) وذهب ابن عباس من ثمَّةَ إلى هذا القول، نقله السيوطي في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٦٠ عن عكرمة وقال: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر)).

وعن الضحَّاك قال: (أَلْقَى اللهُ فِي فِكْرِ النَّاهِينَ حَتَّى بَاعُوا الدُّورَ وَالْمَسَاكِنَ، وَخَرَجُوا مِنَ الْقَرْيَةِ، فَضَرَبُوا الْخِيَامَ خَارجاً مِنْهَا، فَأَقْبَلَ الْعَذابُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَبَدَأَ الْمَسْخُ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى صَارَتْ لَهُمْ أَذْنَابٌ كَأَذْنَابِ الْقِرَدَةِ، فَكَانَ النَّاهُونَ لاَ يَرَوْنَ أَحَداً يَخْرُجُ مِنَ الْقَرْيَةِ، قَالُوا: لَعَلَّ الْقَوْمَ قَدْ خُسِفُوا أَوْ رُمُوا بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، فَحَمَلُوا رَجُلاً مِنْهُمْ عَلَى سُلَّمٍ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، فَإِذا هُمْ قِرَدَةٌ لَهُمْ أَذْنَابٌ، فَصَاحَ فَقَالَ: إنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَارُوا قِرَدَةً، فَكَسَرُوا الْبَابَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ مَنَازِلَهُمْ فَإِذا هُمْ يَبْكُونَ وَيَضْرِبُونَ بِالأَذْنَابِ، يُعْرَفُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَلَمْ نَنْهَكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ؟ فَأَشَارُوا بِرُؤُوسِهِمْ: بَلَى؛ وَدُمُوعُهُمْ تَسِيلُ عَلَى خُدُودِهِمْ).

قال أنسُ بن مالكٍ عن رسول الله ﷺ: إِنَّهُ سُئِلَ: هَلْ فِي أُمَّتِكَ خَسْفٌ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قِيلَ: وَمَتَى ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: [إِذا لَبِسُوا الْحَرِيرَ، وَاسْتَبَاحُوا الزِّنَا، وَشَرِبُوا الْخُمُورَ، وَطَفَّفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَاتَّخَذُوا الْقَيْنَاتِ وَالْمَعَازِفَ، وَضَرَبُوا بِالدُّفُوفِ، وَاسْتَحَلُّوا الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ].

وقال عكرمةُ: (جِئْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَبْكِي وَالْمُصْحَفُ فِي حِجْرِهِ، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الْوَرَقَاتُ، فَإِذا هِيَ سُورَةُ الأَعْرَافِ، فَقَالَ: أَتَعْرِفُ إيلَةَ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ بِهَا حَيٌّ مِنَ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ دَاوُدَ، حُرِّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدُ الْحِيتَانِ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ فَابْتُلُوا فِيهِ، وَحُرِّمَ عَلَيهِمْ فِيهِ الصَّيْدُ، وَأُمِرُوا بِتَعْظِيمِهِ إنْ أَطَاعُوا أُجِرُوا، وَإنْ عَصَوا عُذِّبُوا.

وَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعاً بِيضاً سِمَاناً كَأَنَّهَا الْكِبَاشُ تَنْطَحُ، وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ، فَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَقَالَ: إنَّمَا نُهِيتُمْ عَنْ أَخْذِهَا يَوْمَ السَّبْتِ، فَاتَّخَذُوا الْحِيَاضَ وَكَانُوا يَسُوقُونَ إلَيْهَا الْحِيتَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَتَبْقَى فِيهَا وَلاَ يُمْكِنُهَا الْخُرُوجُ مِنْهَا لِقِلَّةِ الْمَاءِ فَيَأْخُذُوهَا يَوْمَ الأَحَدِ، فَلَمَّا رَأَوا الْعَذابَ لاَ يَأْتِيهِمْ أَخَذُوا وَأَكَلُوا وَعَبُّوا وَكَثُرَ مَالُهُمْ، فَلَعَنَهُمْ دَاوُدُ عليه السلام فَأَصْبَحُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ). وقال قتادة: (صَارَ الشَّبَابُ قِرَدَةً، وَالشُّيُوخُ خَنَازِيرَ)[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦١ و١١٨٦٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بعَذابٍ بَئِيسٍ) أي شَدِيدٍ وَجِيعٍ، قرأ أهلُ المدينةِ بكسرِ الباء وجزمِ الياء من غيرِ همزٍ، وقرأ ابنُ عامر كذلكَ إلا أنَّه بهمزة، وقرأ عاصمُ في روايةِ أبي بكر بالفتحِ وجزم الياء وفتح الهمزة على وزن فَيْعَلٍ مثل صَيْقَلٍ؛ وقرأ أهلُ البصرةِ (بَئِيسٍ) بفتحِ الباء وكسر الهمزة على وزن فعيلٍ، وقرأ الحسن (بيسٍ) بكسرِ الباء وفتح السِّين على (بيسَ الْعَذَاب)، وقرأ مجاهدُ (بَايسٍ) على وزن فاعِلٍ، وقرأ أبو إياس بفتحِ الباء والياء من غير همزٍ، وقرأ الباقون (بَئِيسٍ) على وزن فَعِيلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ معناهُ: وإذْ عَلِمَ ربُّك، وقد يأتي تَفَعَّلَ بمعنى افْعَلْ يقالُ: أوْعَدَنِي وتَوَعَّدَنِي ومعناهما واحدٌ، وَقِيْلَ: معنى (تَأذنَ) أقسمَ ربُّكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذاب) أي ليبعثنَّ على مَن يبقَى منهم مِن الذين لا يُؤمنون مِن بعدِهم الجزيةَ والقتلَ فبعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ وأمَّته فوضَعُوا عليهم الجزيةَ إلى يوم القيامة، وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ اليهودَ لا تُرفع لهم رايةُ عزٍّ إلى يومِ القيامة. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون المرادُ به عقوبةَ الآخرةِ وكلُّ آتٍ قريبٌ، ويجوزُ أنْ يكون المرادُ به أنه سريعُ العقاب لِمَن شاءَ أن يُعاقِبَهُ في الدُّنيا. وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لِمَن تابَ عن الكُفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ ؛ معناهُ: وفرَّقنا اليهودَ في البلادِ تَفريقاً شَديداً استثنَى أمرَهم فليس لهم مكانٌ يجتمعون فيه، ولا يُمكِنُهم الْمُقَامُ في موضعٍ إلاَّ على ذُلٍّ بالقتلِ والجزية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أرادَ بالصَّالِحين مُؤمِني أهلِ الكتاب، وَقِيْلَ: أرادَ بهم الذين وراءَ نَهر أرْدَاف، بمعنى الذين وراءَ رملٍ عالِجٍ من قومِ مُوسَى الذين ذكَرْنا أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ أسْرِيَ بهِ مرَّ بهم، وقد ذكرنا في ما تقدَّم. وقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ) أرادَ به الكفارَ منهم كأنَّهُ قال: ومنهمُ الصَّالِحون ومنهم سِوَى الصالحين. وَقِيْلَ: معناهُ: ومنهم دون ذلك هم في رملٍ عالِجٍ يعني الذين هم في هذه البلادِ من اليهود.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ ؛ أي اختبرنـاهم بالْخِصْبِ والجدب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾ ؛ من الكُفرِ إلى الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ؛ أي خَلَفَ مِن بعد هؤلاءِ الذين قطَّعناهم في الأرضِ ذرِّيةُ سُوءٍ، وهم الذين أدرَكَهم النبيُّ ﷺ، قال ابنُ الأعرابي[1]: (الْخَلَفُ بفَتْحِ اللاَّمِ الصَّالِحُ، وبإسكانِ اللام الطَّالِحُ)، قال لَبيدٌ:

ذهَـبَ الَّذِيـنَ يُعَـاشُ فِـي أكْنَافِـهِمْ وَبَقِيْـتُ فِـي خَلْـفٍ كَجِلْـدِ الأَجْـرَبِ

ومنهُ قيلَ لرَدِّ الكلامِ خلْفٌ، ومنه المثلُ السائر (سَكَتَ ألْفاً وَنَطَقَ خَلْفـاً)، قـال النَّضِرُ بنُ شُمَيلٍ: (الْخَلَفُ بفَتْحِ اللاَّمِ وَإسْكَانِهَا فِي الْقَرْنِ السُّوءِ، وَأمَّا الْقَرْنُ الصَّالِحُ فَتَحْرِيكُهَا لاَ غَيْرَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّـا وَجَدْنَـا خَلْفَنَـا بئْـسَ الْخَلْـفِ عَبْداً إذا مَـا نَـاءَ بـالْحِمْلِ خَضَـفْ(٢)

وقال مُحمَّد بن جرير: (أكْثَرُ مَا جَاءَ فِي الْمَدْحِ بفَتْحِ اللاَّمِ، وَفِي الذم بتَسْكِينِهَا، وقد تُحرَّكُ في الذمِّ ويُسكَّنُ في المدحِ. قال حسَّانٌ في المدحِ:

لَنَـا الْقَـدَمُ الأُوْلَـى إلَيْـكَ وَخَلْفُنَـا لأَوَّلِنَـا فِـي طَاعَـةِ اللهِ تَـابعُ

قال: (وَأحْسَبُهُ فِي الذمِّ مَأْخُوذٌ مِنْ خَلْفِ اللَّبَنِ إذا حَمِضَ مِنْ طُول تَرْكِـهِ فِـي السِّقَاءِ حَتَّى يَفْسَدَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: خَلْفُ فَم الصَّائِمِ؛ إذا تَغَيَّرَتْ رِيحُهُ وَفَسَـدَتْ، فَكَأنَّ الرَّجُلَ الْفَاسِدَ مُشَبَّهٌ بهِ)[3]. والحاصلُ أنَّ كُلاً منهما يُستعملان في الشرِّ والخيرِ، إلاَّ أنَّ أكثرَ الاستعمالِ في الخيرِ بالفتح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرِثُوا الْكِتَابَ) أي التَّوراةِ، والميراثُ ما صـارَ للبـاقي مـن جهةِ البَادِي كأنه قال فخَلَفَ من بعدِ الهالِكين منهم خَلْفٌ ورِثـوُا الكتـابَ. وقولـه تعـالى:

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣١٠.

(٢) في لسان العرب: ج ٤ ص١٢٩: (خضف). وخضـف: إذا ضـرط. والخضيـف: الضـروط مـن النساء والرجال.

(٣) قاله الطبري في جامع البيان: مج ٦ ج ٩ ص١٤٢: تفسير الآية (١٦٩) إلا عبارة: (ومنه قولهم: خَلَفُ فم الصائم إذا تغيَّرت ريحهُ وفَسدت)) فإنها غير موجودة في جامع البيان ولها تصـرف مـن سماع الطَبراني أو أنها ساقطة من المطبوع من تفسير الطبري.

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ ؛ يعني به أخْذَ الرَّشوةِ في الْحُكمِ؛ لتغيِّر الحقَّ إلى الباطلِ. وقال بعضُهم: كانوا يحكِمُون بالحقِّ لكن بالرَّشوة، وإنما سُمي متاعُ الدنيا عَرَضاً لقلَّة بقائهِ كأنه يعرضُ فيزول. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾(١) أرادَ بذلك السَّحابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ؛ أي يقولون مع أخذِهم الرَّشوة أنه سيُغفَرُ لنا ذلك، وما عملناهُ بالليل كُفِّرَ عنا بالنهار، وما عملناهُ بالنهار كُفِّرَ عنا بالليلِ، ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ عرضَ لهم ذنبٌ آخر عَمِلُوهُ، وفي هذا بيانُ أنَّهم كانوا يُصِرُّونَ على الذنب وأكلِ الحرام، وكانوا يستَغفِرُونَ مع الإصرار، فكيف يُغفَرُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ معناهُ: ألَم يُؤخذ عليهم الميثاقُ في التَّوراةِ ألاَّ يقولوا على اللهِ إلا الصِّدقَ، وكان في التوراةِ أنَّ مَن ارتكبَ ذنباً عظيماً لَم يُغفر له بالتوبةِ، ﴿ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ ؛ فكانوا يدرسون ما في التَّوراةِ، ويذكرون ما أخذ عليهم من المواثيقِ، يقولون مع إصرارهم على الذُّنوب: سيُغفَرُ لنا.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى الآيَةِ أنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ حُرِّمَ عَلَيهِمْ وَيُمْنَعُونَ كُلَّ حَقٍّ، وَيُنْفِقُونَ فِي كُلِّ سَرَفٍ، وَيَتَمَنَّونَ مَعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ، وَيَقُولُونَ: سَيُغْفَرُ لَنَا، وإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ كَمَا أخَذُوا، ألَمْ يَعْرِفُوا فِي الْكِتَابِ خِلاَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ). وقرأ السلميُّ: (وَادَّارَسُوا فِيْهِ مِثْلَ ادَّارَكُوا)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ أي يتَّقونَ المعاصي والشِّرك وأكلِ الحرامِ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ ما يدرُسون في كتابهم، وَقِيْلَ: أفلا يعقِلُونَ أن الإصرارَ على الذنب ليس من علامةِ المغفور لَهم.

---

(١) الأحقاف / ٢٤ .

(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣٧٢؛ قال: ((وقرأ علي ﷺ وأبو عبدالرحمن السلمي...)) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ معناهُ: والذين يعمَلون بما في كتاب الله، قال مجاهدُ[١]: (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يُمْسِكُونَ بالْكِتَاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، لاَ يُحَرِّفُونَهُ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ، أحَلُّوا حَلاَلَهُ وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ، وَلاَ تَتَّخِذُونَهُ مَأْكَلَةً، نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابِهِ).

وقال عطاءُ: (يَعْنِي أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ) أي عَمِلُوا الصالحاتِ، إلاَّ أنَّهُ خَصَّ الصَّلاةَ بالذِّكر لعِظَمِ شأنِها، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي نُعطِيهِ أجرَهم في القولِ والعمل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذْ قَلَعْنَا الجبلَ من أصلهِ فجعلناهُ كالظُّلَّةِ فوقَ رأسِ بني إسرائيل، وكلُّ شيء اقتلعتَهُ فقد نَتَقْتَهُ، ومنه نَتَقَتِ المرأةُ إذا أكثرَتِ الولدَ؛ أي اقتلَعَتْ ما في رَحِمِهَا من ولدِها، وامرأةٌ مِنْتَاقٌ إذا كانت تكثرُ الولدَ.

وقال مجاهدُ: (نَتَقْنَا الْجَبَلَ؛ أيْ قَطَعْنَا الْجَبَلَ). وقال الفرَّاءُ: (عَلَّقْنَا). وقال بعضُهم: أصلُ النُّتُوق وَالنَّتْق أنْ تقطعَ الشيءَ من موضعهِ فترمِي به، وقال أبانُ بن ثعلبة: (سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب يَقُولُ لِغُلاَمِهِ خُذِ الْجُوَالِقَ[٢] وَانْتُقْهُ؛ أيْ نَكِّسْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ). قال عطاءٌ (كَأنَّهُ سَقِيفَةٌ، وَالظُّلَّةُ كُلُّ مَا أظَلَّكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ؛ أي ظَنُّوا أنه ساقطٌ عليهم لارتفاعهِ فوقَهم، وكان السببُ في رفعهِ فوقَهم أنه لَمَّا شقَّ عليهم ما كان في التوراةِ من المواثيقِ، وخَافُوا أن لا يُمكِنَهم الوفاءُ به امتنَعُوا عن التزامهِ، فرفعَ اللهُ الجبلَ فوقَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي وقُلنا لَهم خذُوا ما آتيناكُم بقوَّة؛ أي اعملُوا به بجدٍّ ومواظبةٍ في طاعةٍ، ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٩٦) مختصراً، وهو تفسير قتادة كما في الأثر (١١٩٠٠) والسدي (١١٩٠٢).

(٢) في اللسان: الْجُوَالِقُ والْجُوَالَقُ بكسر اللام وفتحها: وعاءٌ، والجمع: الْجَوالِقُ بالفتح و(الْجَوالِيقُ).

أيْ ما في الكتاب الذي أعطيناكُم من عِظَةٍ وجزاءٍ لكي تتَّقُوا المعاصيَ، وكان دَكّاً حين أبوا أنْ يَقْبَلُوا أحكامَ التَّوراة ويعمَلُوا بما فيها، وكانت شريعةً ثقيلـةً فرفـعَ اللهُ عليـهم جَبَلاً على مقدار عسكرِهم، وكانوا فَرْسَخاً في فَرْسَخٍ، وَقِيْلَ لـهم: إنْ قَبلْتُـمْ مـا فيـها وإلاَّ لَنُوقِعَنَّهُ عَلَيْكُمْ.

قال الحسنُ: (فَلَمَّا نَظَرُواْ إلَى الْجَبَلِ، خَرَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَاجِداً عَلَـى حَاجِبِـهِ الأَيْسَرِ، وَنَظَرَ بعَيْنِهِ الْيُمْنَى إلَـى الْجَبَـلِ خَوْفـاً أنْ يَسْـقُطَ عَلَيْـهِمْ، فَلِذَلِـكَ لَيْـسَ فِـي الأَرْضِ يَهُودِيٌّ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ عَلَى حَاجِبِهِ الأَيْسَـرِ، وَيَقُولُـونَ: هَـذِهِ السَّـجْدَةُ الَّتِـي رُفِعَتْ بِهَا عَنَّا الْعُقُوبَةُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾؛ قال المفسِّـرون: لَمَّـا خلـقَ اللهُ آدمَ مَسَـحَ ظَـهرَهُ، وأخرجَ منه ذُرِّيَّتَهُ كلَّهم كهيئةِ الذرِّ، واختلفوا في موضعِ الميثاق، فقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ بَطْنُ نُعْمَانَ وَادٍ جَنْبَ عَرَفَةَ)[٢]، وَقِيْلَ: هي أرضُ الهندِ، وقال الكلبيُّ: (هُوَ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ)[٣].

وقال السديُّ:(أخْرَجَ اللهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَمْ يُهْبِطْهُ إلَى الأَرْضِ، فَـأَخْرَجَ مِـنْ ظَهْرِهِ ذُرِّيَّتَهُ وَكُلُّ مَنْ هُوَ خَارِجٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُمْنَى ذُرِّيَّةً صِغَاراً بيْضاً مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، فَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَأخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُسْرَى ذُرِّيَّةً سُوداً، وَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُواْ النَّارَ وَلاَ أُبَالِي).

فذلك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أَصْحَـابُ الْيَمِيـنِ مَـا أَصْحَـابُ الْيَمِـينِ﴾[٤]، ﴿وَأَصْحَـابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَـابُ الْمَشْئَمَةِ﴾[٥]، وركَّـب

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩١٤) عن أبي بكر بن عبدالله.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩١٥) عن ابن عباس عن النـبي ﷺ قـال: [أخَـذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنُعْمَانَ] يعني عرفةَ. وفي الأثر (١١٩١٦) قال ابنُ عبَّـاس: ((بِنُعْمَـانَ هَـذَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ))، وبإسناد آخر عن ابنِ عباس قال: ((بِنُعْمَانَ هَذَا الَّذِي وَرَاءَ عَرَفَةَ)).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣١٦.

(٤) الواقعة / ٢٧ . (٥) الواقعة / ٨-٩.

فيهم جميعَ العقُول حتى سَمِعُوا كلامَ اللهِ وفَهِمُوا خطابَهُ، فقال لَهم: اعلَمُوا أنه لا إلَـهَ غَيري، ولا ربَّ لَكـم سِـوَايَ، فـلا تُشـركُوا بـي شـيئاً، وأنّـي مُرسِـلٌ إليكـم رسُـلاً يذكِّرونكم عَهدِي وميثاقي ومنَزِّلٌ عليكم كِتَاباً فتكَلَّموا ألستُ بربكم ؟ فقـالوا: بلَـى، شهِدْنا أنّك ربُّنا وإلَهُنا لا ربَّ غيرُكَ. فـأقَرُّوا كلُّـهم طـائعين، وأخـذ بذلـك ميثاقَـهُم وكتَبَ آجالَهم وأرزاقَهم ومُصابَهم.

فنظرَ إليهم آدمُ عليه السلام فرأى فيهم الغنِيَّ والفقيرَ، وحسَنَ الصُّـورة وغـير ذلـك، فقال: يا رب لو شِئْتَ سوَّيتَ بينهم، قال: ونظرَ إلى الأنبياءِ بينهم يومئذ مثـل السُّرُجِ، فلما أخذ عليهم الميثاقَ ردَّهم إلى صُلْـب آدمَ، فالنـاسُ محبوسـون في أصـلابِ آبائـهم حتى يخرجَ كلُّ من أخرجَهُ في ذلك الوقتِ، وكلُّ مَن ثبتَ علـى الإسـلامِ فـهو علـى الفطرةِ الأُولى، وكلُّ مَن جَحَدَ وكفَرَ، فإنّما تغيَّرَ عنها، ومنه قولـهُ ﷺ: [كُـلُّ مَوْلُـودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً][1] فَلا تقومُ الساعة حتى يولدَ كلُّ مَن أخذ ميثاقَهُ، لا يزيد فيـهم ولا ينقـصُ منهم.

وتقديرُ الآية: وإذْ أخذ ربُّك من ظهور بني آدم ذرِّياتِهم، ولَمْ يذكُـرْ ظـهرَ آدم، وإنَّما أخرجُوا يومَ الميثاق من ظهرِهِ؛ لأنه أخرجَ ذرِّيةَ آدمَ بعضُهم من ظهرِ بعض على نحو ما يتولَّدُ الأبناءُ من الآباءِ، فاستغنَى عن ذكرِ ظَهْرِ آدمَ بقولهِ: (مِنْ بَنِي آدَمَ)؛ لأنـه قد عُلِمَ أنَّهم كلُّهم بنوهُ، وأخرجُوا من ظهرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون هذا مِن قول الذينَ أخِـذ عليـهم الميثاقُ. ثُم ابتدأ فقال تعـالى: (شَـهِدْنا) ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ ويجوز أنْ يكون تمامُ الكلامِ عنـد قولـه: (بَلَـى) ثـم يقـولُ الله تعالى: شَهدنا عليكم، وأخذْنا الميثاقَ كَيْلاَ يقولُوا يومَ القيامةِ: (إنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ) أي عن هذا الميثاقِ والإقرار.

---

(١) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير: ج ١ ص٢٨٣: الحديث (٨٢٧ و٨٢٨) عـن الأسـود ابن سريع. والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٥٣ عن جابر بـن عبـدالله، واللفظ لـه. في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢١٨؛ قال الهيثمي: ((أخرجه أحمد عـن جـابر بـن عبـدالله، وفيـه أبـو جعفـر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ أي ولِكَيلاَ تقولوا إنما أشركَ آباؤُنا من قبلُ، وكنَّا ذرِّية من بعدِهم فاتَّبعنَاهُم؛ لأنَّا قد جعلنا في عقولِكم ما يمكِّنُكم أنْ تعرفُوا به صحَّةَ ما كان عليه آباؤُكم وفسادَهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾؛ أي آباؤُنا المشركون، يقالُ لَهم: لا نُهلِكُكم بما فَعَلَ آباؤُكم، وإنَّما نُهلِكُكم بما فعلتُم أنتُمْ.

فإن قِيْلَ: كيف يكون الميثاقُ حُجَّةً عليهم - أي على الكفَّار منهم - وهم لا يَذكُرونَ ذلك حين أخرَجَهم من صُلب آدمَ ؟ قِيْلَ: لَمَّا أرسلَ اللهُ الرُّسلَ، فأخبرُوهم بذلك الميثاقِ، وصارَ قولُ الرُّسل حُجَّةً عليهم.

قوله: (ذُرِّيَّاتُهُمْ) قرأ أهلُ مكَّة وأهلُ الكوفة (ذُرِّيَّتَهُمْ) بغيرِ ألف، وقرأ الباقون بالألف على الجمعِ، وقولهُ تعالى: (أنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (أوْ تَقُولُوا إنَّمَا أشْرَكَ) قرأ أبو عمرٍو بالياء، وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾؛ أي هكذا نُبيِّنُ الآياتِ كما بيَّنَّاها في أمرِ الميثاق، و(نفصِّلُ الآياتِ) ذِكْرُ آيةٍ بعدَ آيةٍ من الموعظةِ والمعصيَةِ والوعدِ والوعيدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾؛ أي لِكَي يَرْجِعُوا عن الكفرِ إلى الإيمان، والمعنى: ليعلَمُوها مفصَّلةً ولعلَّهم يرجعون.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعودٍ: (نَزَلَتْ فِي بَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَا)[1]، قال مجاهدُ: (وَيُقَالُ لَهُمْ: بَلْعَمُ بْنُ بَاعِرٍ)[2]، وقال مقاتلُ: (وَيُقَالُ لَهُ أيْضاً: بَلْعَامُ، وكان عابداً من عُبَّاد بني إسرائيلَ، وكان في المدينةِ التي قصدَها موسى عليه السلام، وكان أهلُ تلك المدينةِ كُفَّاراً، وكان عندَهُ اسمُ اللهِ الأعظم، فسألَهُ مِلكُهم أن يدعوَ على مُوسَى بالاسمِ الأعظمِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤١) عن ابن مسعود بأسانيد كثيرة، والأثر (١١٩٤٢) عن ابن عباس. واسم الرجل: بَلعم بن باعوراء، بلعام بن عامر، أو ابن أَبر أو باعر، بألفاظ كثيرة في كتب التفسير.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤٤).

ليدفعَهُ عن تلك المدينةِ، فقال لَهم: دِينهُ ودِيني واحدٌ، وهـذا شـيءٌ لا يكـون، فكيـف ادعُو عليهِ وهو نبيُّ الله، ومعه الملائكةُ والمؤمنون، وأنا أعلمُ مِن الله ما أعلمُ، وإني إنْ فعلتُ ذلك ذهبَتْ دُنياي وآخرَتِي، فلم يزالُوا به يفتنونَـهُ بالمـالِ والهدايـا حتـى فَتَنُـوهُ فَافْتَتَنَ.

فركِبَ أتاناً له متوجِّهاً إلى جبلٍ ليدعُوَ عليه، فمـا سـارَ علـى الأتـان إلاَّ قليـلاً فربَضَتْ فنَزل عنها، فضربَها حتى كـادَ يُهلِكُـها، فقـامَتْ فركِبَـها فربَضَـتْ، فضربَـها فأنطقَها اللهُ تعالى، فقالت: يا بَلْعَمُ ويحَكَ أيـن تذهـبُ؟ ألاَ تـرَى إلى هـؤلاءِ الملائكـة أمَامِي تردُّني عن وجهي؟ فكيف تريدُ أنْ تذهـبَ لتدعـوَ علـى نـبيِّ الله ﷺ وعلـى المؤمنين؟ فخلَّى سبيلَها، وانطلقَ حتى أتى إلى الجبل وحين وصـل إلى الجبـلِ، وجعـل يدعُو فكان لا يدعُو بسُوءٍ إلاَّ صرفَ اللهُ لسانَهُ إلى موسَى، فقال له قومـهُ: يـا بلعـمُ! إنّما أنتَ تدعو علينا وتدعُو لهم ؟ فقالَ: هذا واللهِ الذي أملِكهُ، وأنطقَ اللهُ به لسانِي.

ثم امتدَّ لسانهُ حتى بلغَ صدرَهُ، فقالَ لَهم: قد ذهبَ منِّي الآنَ الدُّنيـا والآخـرةَ فلم يَبْقَ إلا المكرُ والحيلة، فسَأمكُرُ لكم وأحتالُ، حَلُّـوا النسـاءَ وزيِّنُوهُـنَّ وأعطوهـن الطِّيبَ، وأرسلُوهن إلى العسكرِ ومُرُوهُنَّ لا تمنعُ امرأةٌ نفسَها من رجلٍ أرادَها، فإنَّـهم إنْ زَنَى منهم رجلٌ واحد كُفِيتُمُوهُمْ، ففعَلُوا.

فلما دخلَ النساءُ العسكرَ مرَّتِ امرأةٌ منهم برجُلٍ من عُظماءِ بني إسرائيل، فقامَ إليها فأخذها بيدِهِ حين أعجبتْهُ بحُسنِها، ثم أقبلَ بها إلى موسَى وقالَ له: إنـي لأَظُنُّـكَ أنْ تقولَ هذه حرامٌ؟ قالَ: نَعَمْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ لاَ تَقْرَبْهَا، قال: فـواللهِ لا نطيعُـكَ في هذا! ثم دخلَ بها قُبَّتَهُ فوقعَ عليها، فأرسلَ اللهُ على بني إسرائيل الطاعونَ في الوقتِ.

وكان فِنْحَاصُ بن العيزرا صاحبَ أمرِ مُوسَى، وكان رجُلاً له بسطَةٌ في الْخَلْـق وقوَّةٌ في البطشِ، وكان غائباً حين صنعَ ذلك الرجلُ بالمرأةِ ما صنعَ، فجـاء والطـاعونُ يَحُوسُ في بني إسرائيلَ، فأُخبرَ الخبرَ، فأخذ حَرْبَتَهُ وكانت مِن حديدٍ كلِّـها، ثـم دخـلَ عليه القبَّة، فوجدَهما متضاجعَين فدَقَّهُما بحربتهِ حتى انتظمَهما بها جميعاً، فخرجَ بهما يحملُهما بالحربةِ رافعاً بهما إلى السَّماء، والحربـةُ قـد أخذهـا بذراعـهِ واعتمـدَ بمرفقِـهِ وأسندَ الحربةَ إلى لِحيته وجعلَ يقولُ: اللَّهُمَّ هكذا نفعلُ بمَن يعصِيكَ، فرُفِعَ الطـاعونُ

من حينئذٍ عنهم. فحُسِبَ مَن هَلَكَ من بني إسـرائيلَ في ذلـك الطـاعون، فوجدُوهـم سَبعِينَ ألفاً في ساعَةٍ من نهارٍ وهو ما بين أنْ زَنَى ذلك الرجلُ بها إلى أن قُتِلَ(١).

وقال مقاتلُ: دعـا بَلْعَـمُ علـى موسَى وقومـهِ بالاسـمِ الأعظـم أن لا يدخُـلَ المدينةَ(٢)، فاستُجِيبَ له ووقعَ موسى وقومه في التِّيهِ بدعائهِ عليه، فقـال: يـا رب بـأيِّ ذنبٍ وقَعنا في التِّيه؟ قال: بدُعاءِ بَلْعَمَ، قال: يا رب فكما سمعتَ دعاءَهُ فاسمع دُعائي عليه، فدعَا موسى أن انْزَعْ عنه الاسمَ الأعظم والإيمان، فَسَـلَخَهُ اللهُ ممـا كـان عليـه، ونَزعَ عنه المعرفةَ، فخرجت منه كحمامَةٍ بيضاءَ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَانسَـلَخَ مِنْـهَا). إلا أنَّ في هذا ما يمنعُ صحَّته ولا يجوزُ أن يستجابَ دعاؤَهُ.

ورُوي عن عبدِالله بن عمران: أنَّ الآيةَ نزلت في أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلتِ الثقفيِّ(٣)، وهو رجلٌ كان في وقتِ النبيِّ ﷺ، وكان قد أتاهُ الله العلـمَ والحكمـةَ، ولـه أشْـعَارٌ في الموتِ والبعث، وكان قد عَلِمَ أنَّ الله يبعثُ نبيّاً في وقتهِ، وكان يرجُو أن يكـون ذلـكَ النبيَّ، فلما بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ ورأى من أمرهِ ما رأى، عَزَمَ أنْ لا يؤمنَ به حَسَداً لهُ، ومعنى الآيةِ: واقرَأ يا مُحَمَّدُ خَبَرَ الذي آتيناهُ عِلْمَ آياتِنا وفَهْمَ معانيها فصارَ عالِماً بها. والنَّبَأ: الخبرُ عن أمرٍ عظيم، وقولهُ تعالى: (فَانسَلَخَ مِنْهَا) أي خرجَ مـن العلـمِ بـها إلى الجهلِ، ومن الْهُدَى إلى الضلالةِ، كما يقالُ: انسَلَخَتِ الْحَيَّةُ من جِلدِها.

وقولهُ تعـالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي أتْبَعَـهُ بـالتَّزْيينِ لذلـك الضَّـلال، ويقالُ: معنى أتْبَعَهُ: أدْرَكَهُ، يقال: أتْبعْتُ القومَ إذا لحقتُهم، وتَبعْتُهُمْ إذا سِرْتُ إليـهم. وقولهُ تعالى: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ أي كان في عِلْـمِ اللهِ أن يكـون في ذلك الوقتِ من الغَاوينَ، وَقِيْلَ: صارَ مِن الضَّالِّين. والغَيُّ يُذكر بمعنى الهلاكِ، ويُذكر بمعنى الْخَيْبَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ؛ أي بالآياتِ بأنْ نُميتَهُ علـى الْـهُدَى ونَعْصِمَهُ عن الكُفرِ ونَحُولَ بينَهُ وبين المعصيةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لفَضَّلْنَاهُ وشرفناه ورفعناهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٦٣) عن سالم أبي النضر.
(٢) ذكر مقاتل القصة في التفسير: ج ١ ص٤٢٤-٤٢٥.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤٩-١١٩٥٠).

منْزلةً بالآياتِ. قال مجاهدُ وعطاء: (مَعْنَاهُ: وَلَوْ شِئْنَا رَفَعْنَا عَنْهُ الْكُفْرَ بالآيَاتِ وَعَصَمْنَاهُ، ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي رَكَنَ إلى الأرضِ)، وقال مجاهدُ: (سَكَنَ إلَى الأَرْضِ)[١]، وقال مقاتلُ: (رَضِيَ بالدُّنْيَا)[٢]، وَقِيْلَ: مَالَ إلى مسافلِ الأمُور، وتَرَكَ معالِيَها.

وأصلُ الإخلادِ البقاءُ والإقامَةُ واللُّزومُ على الدوامِ، كأنه قال: لَزِمَ الْمَيْلَ إلى الأرضِ؛ ليُعجِلَ الراحةَ واللَّذاتِ، يقال: فلانٌ مُخَلَّدٌ؛ أي بَطِيءُ الشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ؛ أي انْقادَ لهواهُ، فلم يرفعْهُ بالآياتِ، قال عطاءُ: (أرَادَ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ شَيْطَانَهُ)، وقال بعضُهم: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أي امرأتَهُ؛ لأنَّها كانت حَمَلَتْهُ على الخيانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ ؛ اللَّهْثُ: شِدَّةُ النَّفَسِ عند الإعياءِ، وهو في الكلب طَبْعٌ، فإنَّ كلَّ شيءٍ يَلْهَثُ من إعْيَاءٍ وعطشٍ ما خلاَ الكلبَ، فإنَّهُ يَلْهَثُ في الأحوال كلِّها، فإنَّكَ إنْ طَرَدْتَهُ وزجرتَهُ يلهثُ، وإنْ تَرَكْتَهُ يلهثُ، فكذلك الكافرُ إنْ وَعَظْتَهُ وزجرتَهُ لَمْ يتَّعِظْ، وإنْ تركتَهُ لَمْ يَعْقِلْ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أنَّ الْكَافِرَ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ لَمْ يَحْمِلْهَا، وَإنْ تُرِكَ عَنْهَا لَمْ يَهْتَدِ إلَيْهَا، كَالْكَلْب إنْ كَانَ رَابضاً لَهَثَ، وَإنْ طُرِدَ لَهَثَ)[٣].

وَقِيْلَ: هو المنافقُ لا يُنِيبُ إلى الحقِّ دُعِيَ أم لَمْ يُدْعَ، وُعِظ أو لَمْ يُوعَظْ، كالكلب يلهثُ تُرِكَ أو طُرِدَ، وكذلك الكافرُ إنْ وعظتَهُ فهو ضالٌّ، وإنْ تركتَهُ فهو ضالٌّ كالكلب، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أدَعَوْتُمُوهُمْ أمْ أنْتُمْ صَامِتُونَ﴾[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي ذلك صفةُ المكذِّبين بآياتنا، ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ ؛ أي اقْصُصْ عليهم أخبارَ المنافقين؛ ليعتبرُوا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٧٠).
(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ١ ص٤٢٥.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٧٦) بإسنادين.
(٤) الأعراف / ١٩٣.

بهم فلا يَسلِكُوا مسالِكَهم. وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾؛ أي رجاءَ أنْ يتفكَّروا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾؛ أي بئْسَ الوصفُ وصفُ القومِ الذين كذبُوا بآياتِنا، وهذا السُّوء إنما يرجعُ إلى فعلِهم لا إلى نفسِ الْمَثَلِ، كأنهُ قال: ساءَ فعلُهم الذي جلبَ إليهم الوصفَ القبيحَ، فأمَّا المثَلُ من اللهِ فحكمةٌ وصواب، و(مَثَلاً) منصوبٌ على التميِيز، أي ساءَ المثَلُ مَثَلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾؛ أي إنما يَصرفُونَ أنفُسَهم لمعصيتِهم، واللهُ تعالى لا تضرُّه معصيةُ العاصِين، ولا تنفعهُ طاعةُ المطيعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾؛ أي مَن يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ فهو المهتدي مِن الضَّلالة، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾؛ خذلَهُ عَن دِينه، ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾؛ الْمَغْبُونُونَ بعقوبةِ الآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾؛ وقال ابنُ عباس: (مَعْنَاهُ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا لِجَهَنَّمَ أهْلاً)[1]، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾؛ الْخَيْرَ، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾؛ الْهُدَى، ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾؛ الْحَقَّ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾؛ في المأكَلِ والْمَشْرَبِ، والذِّهنِ لا في الصُّوَرِ، ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾؛ لأنَّ الأنعامَ مطيعةٌ لله تعالى، والكافرَ غيرُ مطيعٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾؛ أي عن ما ينفعُهم وعن ما يحِلُّ لهم في الآخرةِ.

وَقِيْلَ: إنَّ اللامَ في قوله: (لِجَهَنَّمَ) لامُ العاقبةِ، يعني أنَّ عاقبَتَهم إلى المصيرِ إلى جهنَّم، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[2] أي كان عاقبَتُهم أن صارَ لهم عدوّاً وإلاّ فهُم التقطوهُ ليكون لهم قُرَّةَ عَيْنٍ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾[3]، ويقال:

---

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٨٤) عن مجاهد.
(٢) القصص/ ٨ . (٣) القصص / ٩ .

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ(١)

قال الشاعرُ:

أمْوَالُنَا لِذوي الْمِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَاب الدَّهْر نَبْنِيهَا

وقال آخرُ:

ألاَ كُلُّ مَوْلُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُولَدُ وَلَسْتُ أرَى حَيّاً لِحَيٍّ يُخَلَّدُ

وقال آخرُ:

ولِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا كَمَا لِخَرَاب الدَّهْر تُبْنَى الْمَسَاكِنُ

وعن رسول الله ﷺ في هذه الآيةِ قال: [إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا ذرَأ لِجَهَنَّمَ مَا ذرَأ، كَانَ وَلَدُ الزِّنَا مِمَّنْ ذرَأ لِجَهَنَّمَ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ ؛ سببُ نزولِ هذه الآية: أن ((رجُلاً)) دعا اللهَ في صلاته، ودعا الرحمن، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: ألَيس يزعمُ مُحَمَّدٌ ﷺ وأصحابهُ أنَّهم يعبدون ربّاً واحداً، فما بالُ هذا يعبدُ ربَّين اثنين؟! فأنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ(٣).

ومعناها: وللهِ الصفاتُ العُلَى؛ وهي: الرحمنُ؛ والرحيمُ؛ والعزيزُ؛ والجبَّارُ؛ والمؤمِنُ؛ والمهيمِنُ؛ والقدُّوس؛ وأشباهُ ذلك من الصفاتِ التي معانيها (فَادْعُوهُ بهَا) أي بالأسماءِ الْحُسنَى، لا ينبغِي أن يقولَ: يا سَخِيُّ؛ يا جَلالُ؛ يا رفيقُ، ولكن لِيَقُلْ: يا جَوَادُ يا سَخِيُّ يا قويُّ يا رحيمُ كما وصفَ بها نَعْتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسْمَائِهِ) أي يُكذِّبون، وقال قتادةُ: (يُشْرِكُونَ)، وقال عطاءُ: (يُضَاهُونَ)، وقال ابنُ عبَّاس: (إلْحَادُهُمْ فِي أسْمَاءِ اللهِ أنَّهُمْ عَدَلُواْ بهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ، فَسَمَّوا بهَا أوْثَانَهُمْ وَزَادُوا فِيهَا وَنَقَصُوا مِنْهَا، وَاشْتَقُّوا

---

(١) قال الشاعر:

لَهُ مَلَكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُواْ لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

(٢) الحديث عن عمرو بن العاص؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١١٩٨٢).

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ١ ص٤٢٦ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢٥.

اللاَّتَ مِنَ اللهِ؛ وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ؛ وَالْمَنَاةَ مِنَ الْمَنَّانِ)[١].

قرأ الأعمشُ وحمزة (يَلْحَدُونَ) بفتح الياء والحاءِ هنا وفي النحلِ[٢] وفي حم[٣]، وقرأ الباقون بضمِّ الياء وكسر الحاء وهما لُغتان فصيحَتان. والإلحادُ: هو الْمَيْلُ عن القَصْدِ، ورُوي عن الكسائيِّ أنه الذي في النحلِ بفتح الياءِ والحاء، والذي في الأعراف وحم بالضمِّ، وكان يفرِّقُ بين الإلحاد فيقولُ: (الإِلْحَادُ: الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ، وَاللُّحُودُ: الرُّكُونُ) ويزعمُ أن الذي في النحلِ بمعنى الرُّكون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾؛ وعيدٌ لَهم على الكُفر والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعَالَى (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ وَبهِ يَعْدِلُونَ) قَالَ أنَاسٌ مِنْ أصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ: ذكَرَ اللهُ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ بالْخَيْرِ الْجَسِيمِ، وَإنْ آمَنُوا بكَ وَصَدَّقُوكَ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ أجْرَانِ، وَلَنَا أجْرٌ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ صَدَّقْنَا بالْكُتُب وَبالرُّسُلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ) يَعْنِي أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، لاَ يَخْلُو الزَّمَانُ مِنْ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ عُلَمَاء أتْقِيَاء يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى الْحَقِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ أي الذين كَذبُوا بدَلائِلنا سنَحُطُّهم إلى العذاب درجةً إلى أن يبلغُوا إلى العذاب، وقال عطاءُ: (سَنُمَكِّنُ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ). وقال الكلبيُّ: (نُزَيِّنُ لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَنُهْلِكُهُمْ). وقال الضحَّاك: (كُلَّمَا جَدَّدُوا لَنَا مَعْصِيَةً جَدَّدْنَا لَهُمْ نِعْمَةً)[٤]. وقال الخليل: (سَنَطْوِي عُمْرَهُمْ فِي اغْتِرَارٍ مِنْهُمْ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٨٩ و١١٩٩٠).

(٢) قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل / ١٠٣].

(٣) قولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [فصلت / ٤٠].

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢٩. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٤٠٤.

وقالَ أهلُ المعانِي: الاستدراجُ: أن تندرجَ إلى الشيءِ في خِفْيَةٍ قَلِيلاً قَلِيلاً، ولاَ يُتابَعُ ولا يُجاهَرُ[١]، يقال: اسْتَدْرجْ فُلاناً حتى نعرفَ ما صنعَ؛ أي لا تُجاهِرْهُ ولا تُكثِرْ عليه السُّؤالَ دُفعةً واحدةً، ولكن كَلِّمْهُ درجةً درجة وقليلاً قليلاً حتى نعرفَ حقيقة ما فَعَلَ. وَقِيْلَ: معنى قوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) سنُذِيقُهم مِن بأسِنا قليلاً قليلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾؛ أي أمهلُهم وأطِيلُ لَهم المدةَ، فإنَّهم لا يفوتُونَنِي ولا يَفُوتُنِي عذابُهم ولا يُعجِزُونَنِي عن تعذيبهم. وقوله: (إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) إنَّ صُنعِي شديدٌ مُحكَم، وأخذِي قويٌّ شديد. والكَيْدُ: هو الإصرارُ بالشَّيء من حيث لا يشعرُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾؛ قال الحسنُ وقتادة: (وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ الصَّفَا ذاتَ لَيْلَةٍ يَدْعُو قُرَيْشاً إلَى عِبَادَةِ اللهِ قَبيلَةً قَبيلَةً وفَخْذاً فَخْذاً: يَا بَنِي فُلاَن، يُحَذِّرُهُمْ بَأسَ اللهِ وَعِقَابَهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ جُنَّ؛ بَاتَ لَيْلَهُ يُصَوِّتُ إلَى الصَّبَاحِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢]. ومعناها: أوَلَمْ يتفكَّرُوا بقُلوبهم ليعلَمُوا ويَستيقِنُوا ما بمُحمَّدٍ ﷺ من جُنُونٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾؛ أي ما هو إلاَّ يعلِمُ لموضعِ الْمَخَافَةِ ليُتَّقى ولموضعِ الأمنِ ليُبتَغى. وقوله تعالى (مُبينٌ) أي بَيِّنٌ أمْرُهُ؛ فهلاَّ جالَسَهُ الكفارُ فيطلبوا حقيقةَ أمرِه، ويتفكَّروا في دلائلِه ومُعجزاتِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ معناهُ: أوَلَمْ ينظُرُوا في السَّموات والأرضِ طالِبينَ لِمَا يدلُّهم على وحدانيَّة اللهِ تعالى، وعلى صدق رسوله في ما دعاهم إليه. والْمَلَكُوتُ: هو الْمُلْكُ العظيمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) معناهُ: وما خلقَهُ اللهُ بعدَ السَّمواتِ والأرض، فإن ذلك يدلُّ على وحدانيَّة اللهِ تعالى مثلَ ما تدلُّ السمواتُ والأرض. (مَا) بمعنى الَّذِي.

---

(١) في المخطوط: (لا يتاعب ولا يهاجر).

(٢) عن قتادة؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: أوَلَـم ينظرُوا في أنْ عسـى أنْ يكـون قـد دَنَـا هلاكُـهم بعـد قيـامِ الحجَّـة عليـهم. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ لم يُؤمنـوا بـهذا القـرآنِ مـع وضُوحِ دَلالَتهِ فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يؤمنون، وليس بعدَهُ كتابٌ منزَّل ولا نبيٌّ مرسلٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ ؛ إليـه، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ؛ أي ونَدَعُـهم في مُجاوزَتِـهم الحـدَّ في كُفرهم يتجرَّأون فلا يرجعون إلى الحقِّ، ومَن قرأ (وَنَذرهُمْ) بالنون وضمِّ الـراء فـهو على الاستئنافِ، وتُقرأ (وَنَذرهُمْ) بالجزمِ عطفاً على موضعِ الفاء، والمعنى: مَن يُضْلِلِ اللهُ يذره في طُغيانِهِ عامِهاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ ؛ قال الحسنُ وقتـادة: (سَأَلَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ الَّتِي تُخَوِّفُنَا بهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[١]، ومعناها: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) أي أوَانِ قِيَامِهَا ومتى مُثْبَتُـهَا، يقـال: رَسَـي الشـيءُ يَرْسُو إذا ثَبتَ، ومنه الجبالُ الرَّاسِيَاتُ؛ أي الثابتاتُ، والْمَرْسَى: مُسْتَقَرُّ الشَّيءِ الثقيل، وقال ابنُ عبَّاس: (سَأَلَتِ الْيَهُودُ مُحَمَّداً ﷺ فَقَالُوا لَهُ: أخْبرْنَا عَنِ السَّاعَةِ إنْ كُنْتَ نَبيّاً فَإنَّا نَعْلَمُ مَتَى هِيَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي عِلْمُ قيامِها عند اللهِ سبحانَهُ، ما لي بها مـن علـم، (لاَ يُجَلِّيـهَا لِوَقْتِـهَا إلاَّ هُـوَ) أي لا يَكشِفُها ويُظهرُها لحينِها إلاَّ اللهُ عزَّ وَجَلَّ، وقـال مجـاهدُ: (أيْ لاَ يَـأْتِي بـهَا إلاَّ هُـوَ)، وقال السديُّ: (لاَ يُرْسِلُهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ)[٣]. ووجهُ الامتنـاعِ عـن الإجابـةِ عـن بيـان وقتِها، أنَّ العبادَ إذا لم يعرفُوا وقتَ قيامِها كانوا على حـذرٍ مِـن ذلـك، فيكـون ذلـك أدعَى إلى الطاعةِ وأزجرُ عن المعصيةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٩) وذكر أسماء السائلين: حَمْلُ بـن أبي قشير، وشمول بن زيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٠٦).

وقولهُ تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (ثَقُلَ وَضْعُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مِنِ انْتِثَارِ النُّجُومِ وَتَكْوِيرِ الشَّمسِ وَتَسْيِيرِ الْجِبَالِ). وقال قتادةُ: (ثَقُلَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تُطِيقُهَا لِعِظَمِهَا). وقال السديُّ: (ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِيقُوا إدْرَاكَهَا وَكُلُّ شَيْءٍ خَفِيَ فَقَدْ ثَقُلَ، وَلاَ يَعْلَمُ قِيَامَهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ ﴾ ؛ أي فُجْأةً لا يعلمون وقتَ قيامِها، فتقومُ والرجلُ يسقِي ماشيتَهُ، والرجلُ يُصلِحُ حوضَهُ، والرجلُ يقيم سلعتَهُ في سُوقِهِ، والرجلُ يخفِضُ ميزانَهُ ويرفعهُ، والرجل يهوِي بلُقمتهِ في فَمِهِ، فما يدركُ أنْ يضعَها في فمِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ ﴾ ؛ قال الضحَّاكُ ومجاهد: (مَعْنَاهُ كَأنَّكَ عَالِمٌ بهَا)[2]، وقال ابنُ عبَّاس: (هَذا عَلَى تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، مَعْنَاهُ: (يَسْأَلُونَكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) أي بَارٌّ لَطِيفٌ بهم من قوله: ﴿إنَّهُ كَانَ بي حَفِيّاً﴾[3])[4]، وَقِيْلَ: معناهُ كأنَّكَ فَرِحٌ بمسألتِهم إيَّاكَ، وَقِيْلَ: معناهُ: كأنَّكَ حاكمٌ بها، يقالُ: تحَافَينا إلى فلانٍ؛ أي تخاصَمْنا إليه، والْحَافِي هو الحاكمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الفائدةُ في إعادتِه ردُّ المعلوماتِ كلِّها إلى اللهِ، فيكون التكرارُ على وجهِ التأكيد، وَقِيْلَ: أرادَ بالأول علمَ وقتِها، وبالثاني علمَ كُنهِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧ ﴾ ؛ أنَّها كائنةٌ وأن عِلمَها عندَ اللهِ، وفي الآيةِ دلالةٌ على بُطلانِ قولِ مَن يدَّعي العلمَ بمدَّةِ الدُّنيا، ويستدلُّ بما رُوي أنَّ الدنيا سبعةُ آلاف سنة؛ لأنَهُ لو كان كذلك كان قيامُ الساعةِ معلوماً، وأما قوله ﷺ: [بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ] وَأشَارَ إلَى السَّبَّابَةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٢١) عن الضحاك، والأثر (١٢٠٢٠) عن مجاهد.

(٣) مريم / ٤٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٥) وأدرجها الطبراني بالمعنى في هذا النص.

وَالْوُسْطَى[١]، فمعناهُ تقريبُ الوقتِ لا تحديدهُ كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[٢] أي بَعْثُ النبيِّ ﷺ من أشراطِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ ألاَ يُخبرُكَ رَبُّكَ بالسِّعْرِ الرَّخِيصِ قَبْلَ أنْ يَغْلُو فَنَشْتَريهِ وَنَرْبَحُ فِيْهِ، وَبالأَرْضِ الَّتِي تُرِيدُ أنْ تُجْدِبَ فَنَرْتَحِلَ عَنْهَا إلَى مَا أخْصَبَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٣]. ومعناها: قُل يا مُحَمَّدُ لا أقدرُ على نفعِ أجُرُّهُ إلى نفسِي، ولا على ضُرٍّ أدفعهُ عن نفسِي إلا ما شاءَ اللهُ أنْ يُملِّكَني بالتمكينِ من ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي لو كنتُ أعلمُ جُدوبَةَ الأرضِ وقحطَ المطرِ لادَّخرتُ من السَّنة المخصبَةِ للسَّنة الْجَدِبَةِ، ﴿ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ ؛ الفقرُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لو كنتُ أعلمُ متى أموتُ لبادرتُ بالأعمالِ الصالحة قبلَ اقترابِ الأجَلِ، فلم أشتغِلْ بغيرِها ولا بي جنونٌ ولا آفةٌ كما يقولون.

وَقِيْلَ: معناهُ: لو كنت أعلمُ متى السَّاعة لبادرتُ بالجواب عن سؤالِكم، فإنَّ المبادرةَ إلى جواب السائل تكون استكثاراً من الخيرِ وما مَسَّنِيَ التكذيبُ منكم. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ؛ أي ما أنا إلا مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ لِيُتَّقى ولموضعِ الأمنِ ليُختَارَ، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ ؛ بالبعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ أي نفسِ آدمَ، ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ؛ أي خَلَقَ حوَّاءَ من ضِلْعٍ من أضلاعهِ، ﴿ لِيَسْكُنَ

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب (٣٩): الحديث (٦٥٠٣) عن سهل بن سعد. ويشير بإصبعيه فيمدهما، والحديث (٦٥٠٤) عن أنس، والحديث (٦٥٠٥) عن أبي هريرة، وفيه: ((يعني إصبعيه)). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن: الحديث (١٣٣ و١٣٤/ ٢٩٥١) عن أنس من طرق عديدة.

(٢) محمد / ١٨.

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٦٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الشيخ وابن أبي حاتم عن ابن عباس.. وذكره بلفظ قريب منه). وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج٩ ص٤١٤.

﴿ إِلَيْهَا ﴾ ؛ أي ليطمئِنَّ إليها ويستأنسَ بها ويأوي إليها لقضاءِ حاجته منـها، ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ ؛ أي جَامَعَـها، ﴿ حَمَلَتْ ﴾ ؛ مـاءَهُ، ﴿ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ ؛ فاستمرَّت بذلكَ الماءِ؛ أي قامت وقعَدَتْ كما كانت تفعلُ قبلُ وهي لا تدري أنه حَبَلٌ أم لا، ولم تَكْتَرِثْ بحملِها، يدلُّ عليه قراءةُ ابنِ عبَّاس: (فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ)[1]. وقال قتـادةُ: (مَعْنَى (فَمَرَّتْ بِهِ) اسْتَبَانَ حَمْلُهَا)[2]، وقرأ يحيى بن يعمُـر: (فَمَـرَتْ بِـهِ) مخفَّفـاً مـن الْمِرْيَةِ؛ أي شَكَّتْ أحمَلتْ أم لا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ ؛ أي لَمَّا كَبرَ الولدُ في بطنِـها وتحرَّكَ وصارت ذاتَ ثُقْلٍ بحملِها وشقَّ عليها القيامُ، أتاهـا إبليسُ في صـورةِ رجُـل، فقال: يا حوَّاء ما هذا في بطنِكِ ؟ قالت: ما أدري، قال: إنِّي أخافُ أن يكـون بَهيمـةً، وذلك أوَّلَ ما حَملت، فقالت ذلك لآدمَ عليه السلام، فلَم يزَالاَ في هَمٍّ من ذلك.

ثُم عادَ إبليسُ إليها فقال: يا حوَّاء أنَا مِن الله بمَنْزلَةٍ! فإن دعوتُ اللهَ ربي إنساناً تُسَمِّيهِ بي؟ قالت: نَعَمْ، قال: فإنِّي أدعُو اللهَ، وكانت هي وآدمُ يدعُـوَان اللهَ، ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ ؛ ولـداً حَسَـنَ الْخَلْـقِ صحيـحَ الجـوارحِ مثلَنـا، ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ؛ لـكَ في هـذه النعمـةِ، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا ﴾ ؛ سَـوِيّاً صحيحاً أتاها إبليسُ فقال لها: عهدي! قالت: ما اسمك ؟ قـالَ: الحرثُ ولـو سَـمَّى نفسَهُ فقال عزرائيلَ لعرفتهُ، ولكنه تسمَّى بغيرِ اسمه فسمته: عبدُ الحرثِ، ورَضِـيَ آدمُ فعاشَ الولدُ أيَّاماً حتى ماتَ[3].

وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ حوَّاء وإنْ لم تكن نَبيَّةً فهي زوجةُ نَبيٍّ، وفي الآيـةِ مـا يـدلُّ على ذلك؛ لأن اللهَ تعالى قـال: ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ ؛ ومثـلُ هـذه

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٤١٧.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٣٢).
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٣٨؛ قال القرطبي: (ونحو هذا مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره. وفي الإسرائيليات كثير وليس لها ثبات، لا يعوَّل عليها من كان له قلبٌ؛ فـإن آدم وحواء وإن غرهما بالله الغرور، فلا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين، على أنه قد سُطِّر وكتـب). وأخرجه الترمذي في الجامع: أبـواب التفسـير: الحديـث (٣٠٧٧)، وقـال: (هـذا حديـث حسـن غريب) وإسناده ضعيف.

القبائحِ لا يصحُّ إضافتُها إلى الأنبياءِ، ولأنَّ الله تعالى قالَ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ؛ ولأن الواحدَ منَّا لو أتاهُ مَن يبعثهُ على أن يُسَمِّي ولدَهُ عبدَ شمسٍ أو عبدَ العُزَّى أو نحوَ هذا، لَم يَقْبَلْ ذلك، ولو أمكنَهُ أن يعاقبَهُ على ذلك فعلَ، فكيف يجوزُ مثل هذا على آدمَ ؟ وقد رفعَ الله قَدْرَهُ بالنبوَّة.

وقال الحسنُ: (معناهُ: إنَّ اللهَ خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ وجَعَلَهَا سَكَناً لَهُ، وَكَذلِكَ حَالُ الْخَلْقِ مَعَ أزْوَاجِهِمْ، كَأنَّهُ قَالَ: وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ زَوْجَهَا، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً﴾[1]).

قال الحسنُ: (انْقَضَتْ قِصَّةُ آدمَ عِنْدَ قَوْلِهِ (لِيَسْكُنَ إلَيْهَا) ثُمَّ أخْبَرَ اللهُ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ أنَّهُ تَغَشَّى زَوْجَتَهُ فَحَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ، فَلَمَّا أثْقَلَهَا مَا فِي بَطْنِهَا دَعَوا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَشْكُرَنَّكَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ بِعَمَلِهِمَا الَّذِي عَمِلاَهُ بِأنْ هَوَّدَاهُ أوْ نَصَّرَاهُ أوْ مَجَّسَاهُ؛ أيْ عَلَّمَاهُ شَيْئاً مِنَ الأَدْيَانِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي يَدْعُو إلَيْهَا إبْلِيسُ، وَلِهَذَا أعْظَمَ اللهُ شَأْنَهُ فِي آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ (فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بالآيَةِ آدَمَ وَحَوَّاءَ لَقَالَ: عَمَّا يُشْرِكَانِ). يقالُ: إنَّ حوَّاء كانت تلدُ في كلِّ بطنٍ ذكراً وأنثى، ويقال: ولدَتْ لآدمَ في خمسمائةِ بَطْنٍ ألفَ ولدٍ.

وقُرئَ (جَعَلاَ لَهُ شِرْكَاً) بكسر الشين على المصدر، وكان من حقّه أن يُقال على هذه القراءة جعَلاَ لغيرهِ شِرْكاً؛ لأنَّهما لا يُنكران أنَّ الأصلَ للهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: جعلا له ذا شِرْكٍ فحُذف كما في قولهِ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[2] أي أهلَ القريةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ معناه أيُشركون في العبادةِ ما لا يقدرُ على خلق شيءٍ يستحقُّ به العبادةَ؛ لأن الخلقَ هو الذي يدلُّ على اللهِ، واللهُ تعالى إنما يستحقُّ العبادةَ على الخلقِ لخلقهِ أصولَ النِّعم التي لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ، مثل الحياةِ والسَّمع والبصر والعقل، فإذا لم تقدر الأصنامُ على خلق شيء لم تحسن عبادتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ ؛ معناه: الأصنامُ مخلوقة منحوتةٌ، وَقِيْلَ: أرادَ به الأصنامَ والعابدِين جميعاً.

---

(١) الروم / ٢١ (٢) يوسف / ٨٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ ؛ أي لا يستطيعُ الأصنام دفعَ ضُرٍّ عنهم، ولا جلبَ نَفْعٍ إليهم، ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ ؛ ولا أن تنصُرَ نفسَها بأن تدفعَ عن نفسِها مَن أرادَها بسوءٍ. فإن قِيْلَ: كيف قال: ولا أنفسَهم على لفظِ من يعقِلُ والأصنامُ مواتٌ؟ قِيْلَ: لأن الكفارَ كانوا يصوِّرون منها على صورةِ مَن يعقلُ، ويُجرُونَها مجرَى من يعقلُ، فأجرَى عليها لفظَ ما قدَّروا ما هم عليه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ ؛ أي إن تدعُوا الأصنامَ إلى الهدى لَم تقبلِ الهدى، فإنَّها لا تَهدي غيرَها، ولا تَهتدِي بأنفسِها ولا تردُّ جواباً، وإنْ دعت إلى الهدى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ أم صَمَتُّمْ عنهم لا يتَّبعوكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ؛ أرادَ الأصنامَ مملوكةً مخلوقة أشباهُكم، سَمَّاها عِباداً لأنَّهم صوَّرُوها على صورةِ الإنسان، وقولهُ تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ ؛ ليس هو الدعاءَ الأوَّل، ولكن أرادَ فادعُوهم في مهمَّاتكم عند الحاجةِ إلى كشفِ الأسواءِ عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ؛ أي صيغتهُ صيغة أمرٍ[1]، ومعناه التعجيزُ؛ أي فَلْيَسْتَجِيبُوا لكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ ؛ في أنَّها آلهةٌ.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ ؛ معناهُ: إن معبودي ينصرُني ويدفعُ كيدَ الكائدين عنِّي، ومعبودُكم لا يقدرُ على نصرِكم، فإن قدرتُم أنتم على ضرٍّ فاجتمِعُوا أنتم مع الأصنامِ على كيدٍ ولا تؤجِّلوني.

وهذا لأنَّهم كانوا يخوِّفون النبيَّ ﷺ بآلهتِهم، عرَّفَ اللهُ الكفارَ بهذه الآيةِ أنَّهم مفضَّلون على الأصنامِ؛ لأن لهم جوارحَ يتصرَّفون بها وليس للأصنامِ ذلك، فكيف

---

(١) في المخطوط: (صيغته صفة) والمعنى لا يستقيم، والصحيح كما أثبتناه. في اللباب في علوم الكتاب؛ قال ابن عادل: واللام؛ لام الأمر على معنى التعجيز).

يعبدُون مَن هم أفضلُ منهم ؟! فالعجبُ من أنفسِهم عن اتِّباع النبيِّ ﷺ مع ما أيَّدَهُ اللهُ به من الآياتِ والمعجزات والدلائلِ الظاهرة؛ لأنه بشرٌ مثلُهم، ولم يأنفوا من عبادةِ حَجَرٍ لا قدرةَ له ولا تصرُّف، وهم أفضلُ منه في القدرة على التصرُّف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ معناهُ: يتولَّى حِفظَهم، ويكلؤُني ويتولَّى أمري الذي أنعمَ عليَّ بإنزالِ القرآن، ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ ؛ أي يتولَّى حِفظَهم، لا يكِلُهم إلى غيرِهِ ولا تضرُّهم عداوةُ مَن عاداهم.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ ؛ الآية قد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾ ؛ أي كما أنَّها لا تهدي غيرَها فلا تسمعُ الهدى، ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ فاتحةً أعيُنهم نحوَكم يعني الأصنامَ ينظرون إليك، ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا يصوِّرُونها فيجعلون لها أعيناً وآذاناً وأرجُلاً، فإذا نظرَ الناظرُ اليها خُيِّلَ إليه أنَّها تنظرُ إليه وهي لا تبصرُ، أو كانوا يلطِّخُون أفواهَ الأصنام بالخلوف والعسَلِ، وكانت الذبابُ يجتَمِعن عليها، فلا تقدرُ على دفعِ الذُّباب عن أنفُسِها.

وقال بعضُهم: معناهُ: وتراهم كأنَّهم ينظُرون إليك كقوله تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾[1] أي كأنَّهم سُكارى، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا) أيْ إنْ تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ أنْتَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُفَّارَ مَكَّةَ إلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا، (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) الْهُدَى).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ: (مَعْنَاهُ: خُذِ الْفَضْلَ مِنْ أمْوَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ﴾[2] وَهَذا إنَّمَا كَانَ قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ، فَصَارَ مَنْسُوخاً

---

(١) الحج / ٢ .
(٢) البقرة / ٢١٩ .

بالزَّكَاةِ)[1]. وقال الحسنُ ومجاهد: (خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أخْلاَقِ النَّاسِ فِي الْقَضَاءِ وَالاقْتِضَاءِ وَقَبُولِ عُذْرِهِمْ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُمْ وَمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ)[2].

وأصلُ العفوِ التركُ من قولهِ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شَيْءٌ﴾[3] أي تُرِكَ، والعفوُ عن الذنب تركُ العقوبةِ. ويقالُ: معنى العفو الْمُسَاهَلَةُ في الأمور، يقالُ: خُذْ ما أتاكَ عَفْواً؛ أي سَهْلاً. وعن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ سَألَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: حَتَّى أسْألَ، فَذهَبَ جِبْرِيْلُ فَقَالَ: [يَا مُحَمَّدُ؛ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ مَنْ ظَلَمَكَ][4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأمُرْ بالْعُرْفِ) أي بالمعروفِ الذي تعرفُ العقلاء صِحَّتَهُ، وقال عطاءُ: (يَعْنِي لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). وقولهُ تعالى: (وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) أي عن أبي جهلٍ وأصحابهِ، نَسَخَتْهَا آيةُ السَّيفِ. ومعنى الإعراضِ عنهم؛ أي أعرضْ عنهم بعدَ إقامةِ الحجَّة عليهم، ووقوعِ الإيَاسِ عن قَبولِهم، ولا تُقابلْهم بالسَّفَهِ ولا تُجاوبْهم استخفافاً بهم وصيانةً لقَدرِكَ، فإنَّ مجاوبةَ السَّفيهِ تضعُ القدرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إمَّا يُغرِيَنَّكَ بالوسوسةِ عند الغضب فالْتَجِئ إلى اللهِ واستَغِثْ به، ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لدُعائِكَ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ؛ بكَ. والنَّزْغُ هو الإزعاجُ بالحركةِ إلى الشَّرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين اتَّقوا الشِّركَ والمعاصي إذا مسَّهُم وسوسةٌ من الشيطان بإلقاء خواطر الشَّرِّ عليهم، فَرَغُوا إلى تذكُّر ما أوضحَ اللهُ من الحجَّة، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ ؛ عواقبَ أمُورهم، يرجِعون من الهوَى إلى الْهُدَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٦٦) عن ابن عباس، والأثر (١٢٠٦٧) عن السدي، والأثر (١٢٠٦٨) عن الضحاك، وأدرجها الطبري في المتن بنص واحد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٦٥) بمعناه.

(٣) البقرة / ١٧٨ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٧٠ و١٢٠٧١).

قرأ النخعيُّ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائي (طَيْفٌ)، وقرأ البـاقون (طَـايفٌ) وهما لُغتان وَقِيْلَ: الطائفُ ما يطوفُ حولَ الشـيءِ، والطَّيـفُ: الوسوسـةُ والْخَطْـرَةُ، وَقِيْلَ: الطائفُ ما طافَ به من الوسوسةِ، والطَّيفُ اللَّمْزُ والْمَسُّ. وقرأ سعيدُ بن جبير (طَيِّـفٌ) بالتشـديدِ، وقـال الكلـبيُّ: (طَـائِفٌ مِـنَ الشَّـيْطَان: ذَنْـبٌ)، وقـال مجـاهدُ: (الْغَضَبُ)[١]، وعن مجاهد: (هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بالذنب فَيَذْكُرُ اللهَ فَيَدَعُهُ)، وقال السديُّ: (مَعْنَاهُ: إذا أذْنَبُوا تَابُوا)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ ؛ أي وإخـوَانُ المشــركين وهم الشياطينُ يدعُونهم إلى المعاصِي والجهلِ، يقال لكلِّ كافرٍ أخٌ من الشَّياطين يَمُـدُّهُ في الغَيِّ. قرأ نافعُ (يُمِدُّونَهُمْ) بضمِّ الياء وكسرِ الميم وهما لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُقصِرُ إخوانُ المشركين من الوسوسةِ؛ لأنَّهم إذا علِمُوا قَبُولَهم لقولِهم زادُوا في إغوائِهم، وزادَ الكفارُ في طاعتِهم لَـهم، فـلا يقصِـرُون كمـا يقصِرُ المتَّقون.

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ) يعني إخوان الشَّـياطين وهم الضُّلاَّلُ يَمُدُّونَ المشركين في الغَيِّ. قرأ الجحدريُّ (يُمَادُّونَهُمْ)، وقرأ عيسـى (ثُـمَّ لاَ يَقْصُرُونَ) بفتح الياء وضم الصاد[٣].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: وإذا لَمْ تَأتِهم يا مُحَمَّدُ بالآيَةِ التي سَألوكَها تَعَنُّتاً قـالُوا: هـلاَّ طَلَبْتَـها مـن اللهِ فتأتِينـا بـها. وَقِيْلَ: معناهُ: هلاَّ أتيتَ بها من تِلقاءِ نفسِكَ ؟ قال الحسـنُ: (كَـانُوا إذا جَـاءَتْـهُمْ آيَـةٌ كَذبُوا بهَا، وَإذا أبْطَأتْ عَلَيْهِمُ الْتَمَسُوهَا).

وقولـــهُ تعــــالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قُل لَهم: ليستِ الآياتُ إلَيَّ، ولكنَّ اللهَ يُوحِي بها عَلَيَّ ما يعلمُ مـن المصلحةِ، وليس لي أنْ أسألَهُ إنزالَها إلاَّ إذا أذِنَ لِي في سُؤالِها. هذا القرآنُ بَصائِرُ مـن

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٧٩) بأسانيد.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٨٢) وقال: ((إذا زَلُّوا تَابُوا)).
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٥٢.

ربكم، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي حُجَجٌ من ربكم وهُدًى من الضَّلالةِ ونجاةٌ من العذاب، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ ؛ يُصَدِّقُونَ أنه مِن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وأبو هُريرة وسعيدُ بن جُبير وسعيد بن المسيَّب والزهريُّ: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الصَّلاَةِ)[1]. عن أبي العاليَةِ الرياحيِّ قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا صَلَّى، قَرَأ أصْحَابُهُ خَلْفَهُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ)[2]، وقال بعضُهم: المرادُ بالآيةِ وقتَ نُزول القرآنِ، أمَرَهُم اللهُ بالاستماعِ والإنصَاتِ.

وقال الزجَّاجُ: (يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ مَعْنَى الاسْتِمَاعِ الْعَمَلُ بمَا فِيْهِ)[3]، وعن ابن عبَّاس قال: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ نُزُول هَـذِهِ الآيَـةِ يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلاَةِ وَيَأْمُرُونَ بحَوَائِجِهِمْ، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ إلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ لَهُ: كَمْ صَلَّيْتُمْ؟ فَيَقُولُ كَذا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والقولُ الأوَّل أصحُّ وأقربُ إلى ظاهرِ الآية؛ لأنه ليس في الآيةِ تخصيصُ زَمانٍ دون زمان، ولا يجبُ على القومِ الإنصاتُ لقراءةِ مَن يقرأ في غيرِ الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون الخطابُ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به جميعُ الخلقِ، ويجوزُ أن يكون المعنى: واذكُرْ ربَّكَ أيُّها المستمعُ للقرآنِ إذا تُلِيَ عليكَ.

وقولهُ تعالى: (فِي نَفْسِكَ) يعني التفكُّرَ في النفسِ والتعرُّضَ لِنِعَمِ اللهِ مع العلمِ بأنه لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ، وأنه متى شاءَ سَلَبَها منه. والمراد بقوله: (وَدُونَ الْجَهْرِ) المتكلِّم بذكرِ الله على وجهِ الخِيفَةِ بالتضرُّعِ إليه والمخافَةِ منه، ولأن أفضلَ الدُّعاء ما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٩٩) عن ابن عباس، والأثر (١٢١٠٠) عن الزهري، والأثر (١٢١٢٠) عن ابن مسعود.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٦٣٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي العالية... وذكره).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٢ ص٣٢٢؛ قال الزجاج: (ويجوز أن يكون (فاستمعوا له وأنصتوا) اعملوا بما فيه ولا تجاوزوا).

كان خَفِيّاً على إخلاصٍ وخضوعٍ لا يشوبهُ رياءٌ وسُمعَةٌ. وقولهُ تعالى (فِي نَفْسِكَ) إشارةٌ إلى الإخلاصِ.

وَقِيْلَ: المرادُ بقوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) الذكرُ بالكلامِ الخفيِّ، وبقوله (دُونَ الْجَهْرِ) إظهار الكلامِ بالصَّوت العالِي. وقال ابنُ عباس:(مَعْنَى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ) يعني القراءةَ في الصَّلاة (تَضَرُّعاً) أي جهراً (وَخِيفَةً) أي سِرّاً (دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) أيْ دُونَ رَفْعِ الصَّوتِ فِي خَفْضٍ وسُكُونٍ سَمِّعْ مَنْ خَلْفَكَ الْقُرْآنَ).

وقال أهلُ المعاني: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) أي اتَّعِظْ بالقرآن واعتبِرْ بآياته، واذكُر ربَّكَ في ما يأمرُكَ بالطاعةِ (تَضَرُّعاً) أي تَواضُعاً وتخشُّعاً (وَخِيفَةً) أي خِيفةً من عقابهِ. وقال مجاهدُ: (أمَرَ أنْ يُذْكَرَ فِي الصُّدُور، وَأمَرَ بالتَّضَرُّعِ وَالاسْتِكَانَةِ، وَيُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ وَالصِّيَاحُ فِي الدُّعَاءِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) أي صلاةَ الغداةِ والمغرب والعشاء، والأصيلُ في اللغة: ما بين العصرِ إلى اللَّيلِ، وجمعهُ أصُلٌ، ثم آصَالٌ جَمْعُ الجمعِ، ثم أصَائِلُ. وَقِيْلَ: يعني (بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ): البكرَ والعِشَاءَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ ؛ زيادةُ تحريضٍ على ذكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كَي لا يَغفلَ الإنسانُ عن ذلك في أوقاتِ العبادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ معناهُ: أن الملائكةَ المقرَّبين الذين أكرَمَهم اللهُ لا يتعظَّمون عن طاعتهِ إن استكبرتُم أنتم فهُمْ أفضلُ منكم، وهم الملائكةُ لا يستكبرون عن عبادتهِ وينزِّهُونَهُ عن ما لا يليقُ به، ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ ؛ أي يُصلُّونَ فيَخِرُّونَ له سُجَّداً في صلاتِهم. وقوله تعالى: (عِنْدَ رَبكَ) يريدُ قُربَهم من الفضلِ والرَّحمةِ لا من حيث المكانُ والمسافة.

وعن معاذِ بن جبلٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَانَ جِبْرِيْلُ عليه السلام إذا أقْبَلَ بشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِيْهِ سُجُودٌ قَرَأ ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِداً وَيَأْمُرُنِي بذلِكَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ وَاجِبٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أمَّتِكَ]. وعن إبراهيمَ قال: (مَنْ قَرَأ آخِرَ الأَعْرَافِ إنْ شَاءَ رَكَعَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢١٢٨) مختصراً.

وَإِنْ شَاءَ سَجَدَ). وعن أُبَي بن كعبٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَعْرَافِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّار سِتْراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ آدَمُ شَفِيعاً لَهُ][(١)].

آخر تفسير سورة (الأعراف) والحمد لله رب العالمين

(١) هو جزء من حديث طويل في فضائل القرآن سورة سورة، وهو حديث موضوع.

سُـــورَةُ الأَنْفَـالِ

سُورَةُ الأَنْفَـال مَدَنِيَّـةٌ، وَهِـيَ خَمْسَـةُ آلافٍ وَثمَـانُونَ حَرْفـاً، وَأَلْـفٌ وَخَمْـسٌ وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ ؛ أي عن الغنَائِم، ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ ﴾ ؛ الغنـائمُ؛ ﴿ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ الإضافةُ للغنائمِ إلى اللهِ على جهـةِ التشـريفِ، والإضافـةُ إلى الرسول لأنه كان بيانُ حُكمِها وتدبيرِها إليه؛ لأن الغنائمَ كانت كلُّها لهُ كمـا قـال ﷺ في وبَرَةٍ أخَذهَا سِنَامَ بَعِيرٍ مِنَ الْفَيْءِ: [وَاللهِ مَـا يَحِـلُّ لِـي مِـنْ فَيْئِكُـمْ إلاَّ الْخُمْـسُ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ](٢).

وَقِيْلَ: لِما سألوهُ عن الغنائمِ؛ لأنَّها كانت حرَاماً علـى مَـن قبلـهم، كمـا قـال ﷺ: [لَمْ تُحَلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمٍ سُودِ الرُّؤُوسِ قَبْلَكُـمْ، كَـانَتْ تَـنْزِلُ نَـارٌ مِـنَ السَّـمَاءِ فَتَأْكُلُهَا](٣). وإنما سُميت الغنائمُ أنفَـالاً؛ لأن الأنفـالَ جمـعُ النَّفْـلِ، والنفـلُ الزِّيَـادَةُ، والأنفالُ مما زادَهُ الله هذه الأمة من الحلال، والنافلةُ من الصَّلاةِ ما زادَ على الفـرضِ، ويقال لولدِ الولد: نافلةٌ؛ لأنه زيادةٌ على الولدِ.

---

(١) مدنية بَدريَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء، وقـال ابـن عبـاس: ((هـي مدنيـة إلا سـبع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر سبع آيات)). والأصح أنها نزلـت بالمدينة وإن كانت الواقعة بمكة. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج٧ ص٣٦٠. واللبـاب في علـوم الكتاب: ج ٩ ص٢٤٣. والدر المنثور: ج ٤ ص٣.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في الإمام يستأثر شيئاً من الفيء لنفسـه: الحديـث (٢٧٥٥)، وإسناده صحيح عن عمر بن عنبسة.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع: التفسير: الحديث (٣٠٨٥)؛ وقال: حسـن صحيـح. وفي الإحسـان ترتيب صحيح ابن حبان: كتاب السير: الحديث (٤٨٠٦).

وعن ابن عبَّاس في سبب نُزول هذه الآيةِ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ رغَّبَ أصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فقَالَ: [مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ كَذا، وَمَنْ جَاءَ بأَسِيرٍ فَلَهُ كَذا] فلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ سَارَعَ الشَّبَابُ، وَأَقْبَلُوا بالأَسَارَى، وَأَقَامَ الشُّيُوخُ عِنْدَ الرَّايَاتِ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ مَخَافَةَ أنْ يَغْتَالَهُ أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَوَقَعَ الاخْتِلاَفُ بَيْنَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الْغَنِيمَةِ، فَقَالَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ: قِيَامُنَا أفْضَلُ مِنْ ذهَابِهِمْ، فَلَوْ أعْطَيْتَهُمْ مَا وَعَدْتَهُمْ لَمْ يَبْقَ لَنَا وَلاَ لِعَامَّةِ أصْحَابكَ شَيْءٌ. وقَالَ الآخَرُونَ: نَحْنُ قَتَلْنَا وَأَسَرْنَا. وَكَانَ ذلِكَ مُرَاجَعَةً بَيْنَهُمْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاكِتٌ لاَ يَقُولُ شَيْئاً، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ومعناها يسألونك عن الأنفالِ لِمَن هي، ويجوز أن يكون (عن) صِلةً في الكلامِ، والمعنى يَسألونكَ الأنفالَ التي وعدتَهم يومَ بدر، قلِ الأنفالُ للهِ والرسول ليس لكم فيها شيءٌ. قال عُبادة بن الصَّامت: (لَمَّا اخْتَلَفْنَا فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَسَاءَتْ أخْلاَقُنَا، نَزَعَهَا اللهُ مِنْ أيْدِينَا وَجَعَلَهَا إلَى رَسُولِهِ وَقَسَمَهَا بَيْنَنَا عَلَى سَوَاءٍ)(٢). وَقِيلَ: إنَّ التَّنْفِيلَ المذكورَ في هذه الآيةِ لروايةِ غَلَطٍ وقعَ من الرَّاوي؛ لأنه لا يجوزُ على النبيِّ ﷺ خَلْفُ الوَعْدِ واسترجاعُ ما جعلَهُ لأحدٍ منهم، والصحيحُ: أنَّهم اختلَفُوا في الغنائمِ من غير تنْفِيلٍ كان من رسول الله ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا مَعاصِيَهُ واحذروا مخالفةَ أمرِه وأمرَ رسولِه، (وَأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ) أي كونوا مُجتمعين على ما يأمُركم به اللهُ ورسولُهُ، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ؛ في الغنائمِ وغيرِها، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ ، كما تزعُمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ صِفَتَهم إذا ذُكر اللهُ عندَهم فَزِعَتْ قلوبُهم عند الموعظةِ. والوَجَلُ: هو الخوفُ مع شدَّة الْحُزنِ، والمعنى ليس المؤمنُ الذي يخالِفُ اللهَ ورسولَهُ (إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢١٥٣) بأسانيد. . وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل... وذكره)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢١٥٥) بإسنادين صحيحين.

ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ؛ أي قُرِئت عليهم آياتهُ بالأمر والنَّهي، ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ يقيناً وبصيرةً بالفرائض مع تصديقهم باللهِ ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي يُفَوِّضُونَ أمورَهم إلى اللهِ لا يَثِقُونَ بغيرِه.

ثُم زادَ في نعتِ المؤمنينَ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي يُقيمونَها بوضُوئِها وركوعِها وسُجودِها في مواقيتِها، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أعطَيناهُم من الأموال، ﴿ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ، في طاعةِ الله، وإنَّما خصَّ اللهُ الصلاةَ والزكاةَ؛ لعِظَمِ شأنِهما وتأكيدِ أمرِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَة الذين تقدَّم ذِكرُهم الذين استحقُّوا هذه الصفةَ صِدْقاً، ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي لَهم فضائلُ ومنازل في الرِّفعةِ في الآخرةِ على قدر أعمالِهم، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ ؛ لذنوبهم؛ ﴿ وَرِزْقٌ ﴾ ؛ وثوابٌ حَسَنٌ؛ ﴿ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَلَغَهُ أنَّ عِيرَ قُريشٍ أقبلَتْ من الشَّام، وفيهم أبو سُفيان ومَخْرَمَةُ بنُ نوفَل في أربعينَ رجُلاً من قريشٍ تُجَّاراً، فقالَ عليه السلام لأصحابهِ: [هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ قَدْ أقْبَلَتْ، فَاخْرُجُواْ إلَيْهَا، فَلَعَلَّ اللهَ أنْ يَنْفِلَكُمُوهَا فَتَنْتَفِعُواْ بهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ](١). فَبُعِدُوا على نواضِحِهم ومعهم فارسان لا غيرَ؛ أحدُهما الزُّبير والآخر المقدادُ، فخَرجُوا بغيرِ قوَّة ولا سلاحٍ، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لا يَرَونَ أنه يكون قتالٌ.

فبلغَ ذلك أبو سُفيان، فأرسلَ من الطريق ضَمْضَمَ بن عمرو الغفاري يخبرُ أهلَ مكَّة أن مُحَمَّداً قد اعترضَ لعِيرِكم فأدركُوها. فنَزلَ جبريلُ عليه السلام على رسول الله ﷺ فأخبرَهُ بنَفرِ المشركين يُريدون عِيرَهم، وقالَ: [يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ يَعِدُكَ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، إمَّا الْعِيرُ وَإمَّا الْعَسْكَرُ] فأخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ المسلمينَ فسرُّوا بذلكَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٠٠). وينظر شرح الطبري في جامع البيان: للأثر (١٢١٩٦) وتفسيره للآية.

وأعجبَهم، فاستشارَ رسولُ الله ﷺ حين عرفَ أنَّهم لا يُخالِفونَهُ، فقالوا لهُ: (وَاللهِ لَوْ أمَرْتَنَا أنْ نَخُوضَ الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ) ثم أخبرَهم أن في المشركين كثْرَةً فشُقَّ على بعضِهم وقالوا: أَلاَ كُنْتَ أخْبَرْتَنَا أنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ، فَنُخْرِجَ سِلاَحَنَا وَقُوَّتَنَا، إنَّمَا خَرَجْنَا فِي ثِيَابنَا نُرِيدُ الْعِيْرَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ وهم بالرَّوحَاءِ(١).

ومعناها: امْضِ على وجهكَ من الرَّوحَاءِ (كَمَا أخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ) أي من المدينة (بالْحَقِّ) أي الأمر الواجب، ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ يعني كراهةَ الطبعِ للمشقَّة لا كراهةَ الحقِّ، وقِيْلَ: معناهُ: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾؛ متكرِّهِينَ له كما أخرجَكَ ربُّك من بيتِكَ مع تكرُّهِكَ له، ومعنى يُجَادِلُونَكَ أي يُخَاصِمُونَكَ بقولِهم: هلاَّ أعْلَمتَنا القتالَ حتى كنا نستعدُّ له، ﴿ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾؛ أي بعد ما ظهرَ لهم أنكَ لا تصنعُ إلا ما أمرَكَ ربُّك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾؛ أي هُم بما عليهم من شدَّة المشقَّة لقلَّة عددِهم وعُدَّتِهم، وكثرةِ عدُوِّهم كأنَّما يُساقُونَ إلى الموتِ، ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾؛ إلى أسباب الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾؛ إمَّا العيرُ وإما العسكرُ أنَّها لكم، ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾؛ وتَمنَّونَ أن تكون لكم العيرُ دون العسكر، لأن العسكرَ ذاتُ شوكةٍ وهي السلاحُ، ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ أي يُظهرَ الإسلامَ بوعدِهِ الذي أنزلَ في الفُرقَان، ويقالُ: بأمرِهِ لكم بالقتالِ، ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي يُظهرَكُمْ على ذاتِ الشَّوكة فتستأْصِلُوهم، ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾؛ بإهلاكِهِ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ مُشركُو مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾؛ معناهُ: إذ تَسْتَغِيثُونَ أيُّها المسلمون ربَّكم حين رأيتُم قلَّة عددِكم وكثرةَ عدوِّكم، فلم يكن لكم مَفْزَعٌ إلا الدعاءُ لله وطلبُ المعونةِ

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (١٢٢١٠).

منهُ (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) أي أجابَكم، والاستجابةُ التَّعطِيَةُ على موافقةِ المسألةِ[١].

وقولهُ تعالى: (أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ) قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ فَكَانَ جُمْلَتُهُمْ أَلْفَيْنِ)[٢]. يقالُ: رَدِفْتُ الرَّجُلَ؛ إذا ركبتُ خلفَهُ، وَأَرْدَفْتُهُ إذا أركبتَهُ خلفَكَ. وقال عكرمةُ وقتادة والضحَّاك: (مَعْنَاهُ: بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُتَتَابِعِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً)[٣]، وقد يجوزُ أن يقالَ: أَرْدَفْتُ الرَّجُلَ إذا جاءَ بعدَهُ، وكذلك رَدِفَهُ. وأما قراءةُ نافع (مُرْدَفِينَ) بفتح الدالِ فمعناه: أَرْدَفَهُمُ اللهُ بالمؤمنين، ويقال: أَرْدَفْتُهُ وَرَدَفْتُهُ بمعنى تَبِعْتُهُ، قال الشاعرُ:

إذا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

أي جاءَت بعدَها؛ لأن الجوزاءَ تطلعُ بعدَ الثُّريا[٤].

فنَزل جبريلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيْمَنَةِ، ونزلَ مِيكَائِيلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيْسَرَةِ في صُورَةِ الرِّجالِ عليهم ثيابٌ بيضٌ وعمائمُ بيضٌ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ ؛ أي ما جعلَ اللهُ إمدادَ الملائكةِ إلا بشارةً بالنصرِ للمؤمنين، وَقِيْلَ: معناهُ: ما جعلَ الله إخبارَ النبيِّ ﷺ بإمدادِ الملائكة إلا بُشرى بالنصرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ ﴾ ؛ أي ولتَسكُنَ قلوبُكم في الحرب فلا تخافون من عدوِّكم. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي ليس

(١) أخرج الإمام مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة بدر: الحديث (٣/ ١٤٠٣-١٤٠٤): عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ] قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَلَمَّا فَرَغَ نَبِيُّ اللهِ مِنْ بَدْرٍ. قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَيْكَ بِالْعِيرِ. فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ: لاَ يَصْلُحُ!! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [وَلِمَ؟] قَالَ: (لأَنَّ اللهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَقَدْ أَعْطَاكَ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٣٤) بإسنادين الآخر بلفظ: (متتابعين).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٣٦) عن الضحاك بلفظ: (بعضهم على إثر بعض)، والأثر (١٢٢٣٧) مثله عن مجاهد، والأثر (١٢٢٣٩) عن قتادة.

(٤) جامع البيان: تفسير الآية ٩ من سورة الأنفال. وفي اللسان نسبه ابن منظور لخزيمة بن مالك بن نهد.

النَّصرُ بقلَّة العددِ ولا بكثرتهِ ولا من قِبَلِ الملائكةِ، ولكن النصرَ من عندِ اللهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ بالنَّقمةِ ممن عصَى، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ، في أفعالهِ.

وقد اختلفُوا هل قاتلَتِ الملائكةُ يومَ بدرٍ مع المؤمنين أم لاَ ؟ قال بعضُهم: لَم يُقاتِلوا ولكنَّ اللهَ أيَّدَ المؤمنين ليُشجِّع بهم قلوبَهم، ويُلقِي بهم الرُّعبَ في قلوب الكافرين، ولو بعثَهم اللهُ بالْمُحارَبَةِ لكان يكفِي مَلَكٌ واحدٌ، فإنَّ جبريلَ أهْلَكَ بريشَةٍ واحدة سَبْعاً من قُرى قومِ لُوط، وأهلكَ بصيحةٍ واحدة جميعَ بلادِ ثمود. وهذا القَولُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.

وقال بعضُهم: إنَّ الملائكةَ قاتلَتْ ذلك اليوم؛ لأنه رُوي أن أبَا جَهْلٍ قال لابنِ مسعود: مِنْ أيْنَ كَانَ ذلِكَ الضَّرْبُ الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ وَلاَ نَرَى شَخْصاً ؟ فَقَالَ لَهُ: (مِنَ الْمَلاَئِكَةِ) فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: هُمْ غَلَبُونَا لاَ أنْتُمْ!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ ؛ قال جماعةٌ من المفسِّرين: وذلكَ أنَّهُ لَمَّا أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالمسيرِ إلى الكفَّار، سارَ بمن معَهُ حتى إذا كان قَرِيباً من بدرٍ لَقِيَ رجُلين في الطريقِ، فسألَهما: [هَلْ مَرَّتْ بكُمَا الْعِيرُ ؟] قالا: نَعَمْ مرَّت بنا لَيلاً، وكان بين يدَي رسولِ الله ﷺ عشرةٌ من المسلمين، فأخَذُوا الرَّجُلين، وكان أحدُهما عبدَ العبَّاس بنِ عبدِ المطَّلب يقال له أبُو رافعٍ، والآخرُ عَبداً لعُقبة بن أبي مُعيطٍ يقالُ له أسْلَمَ كانَا يسقِيَان الماءَ، فجاؤُا بهما إلى رسولِ الله ﷺ، واستخلَى بأبي رافعٍ ودفعَ أسلمَ إلى أصحابهِ يسألونهُ، فقالَ ﷺ لأبي رافعٍ: [مَنْ خَرَجَ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ ؟] فقالَ: ما بَقِيَ أحدٌ إلا وقد خرجَ، فقال ﷺ: [أتَتْ مَكَّةَ الْيَوْمَ بأفْلاَذِ كَبدِهَا] ثُمَّ قَالَ: [هَلْ رَجَعَ مِنْهُمْ أحَدٌ ؟] قال: نَعَمْ؛ أبَيُّ بنُ شَرِيفٍ في ثلاثِمائة من بني زُهرة، وكان خرجَ لمكان العِيرِ، فلما أقبلَت العِيرُ رجعَ، فسمَّاهُ رسولُ الله ﷺ الأخْنَسَ حين خَنَسَ بقومهِ، ثُم أقبلَ رسولُ الله ﷺ على أصحابهِ وهم يَسألُونَ أسلمَ، وكان يقولُ لَهم: خرجَ فلانٌ وفلان، وأبُو بكرٍ رضي الله عنه يضربهُ بالعصَا ويقولُ له: كذبتَ بخبرِ الناس، فقالَ ﷺ: [إنْ صَدَقَكُمْ ضَرَبْتُمُوهُ، وَإنْ كَذبَكُمْ تَرَكْتُمُوهُ] فعَلمُوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد عرفَ أمرَهم[1].

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب المغازي: وقعة بدر: الحديث (٩٧٢٧) عن عكرمة.

فسَارُوا حتى نزَلُوا بدراً بجانب الوادِي على غـير مـاءٍ، ونـزلَ المشـركون علـى جانبهِ الأقصَى على الماءِ، والوادِي بينَهما فبَاتُوا ليلَتَهم تلك، فألقَى اللهُ على المسـلمين النَّومَ فنامُوا، ثم استيقَظُوا وقد أجْنَبُوا وليس معهم مـاءٌ، فأتـاهُم الشـيطانُ فوَسْـوَسَ إليهم وقالَ: لهم تزعُمون أنَّكم على دينِ الله وأنتـم مُجنِبُـونَ تُصَلُّـونَ علـى الجنابَـةِ، والمشرِكُون على الماءِ.

فأمطَر اللهُ الوادي وكان ذا رَمْلٍ تغيبُ فيه الأقدامُ، فاشتدَّ الرملُ وتلبَّدت بذلك أرضُهم وأوْحَلَ أرضَ عدوِّهم، وبنَـى المسـلمون في مكانِـهم حِيَاضـاً واغْتسَـلُوا مـن الجنابةِ وشربُوا وسقَوا دوابَّهم وتَهيَّأوا للقتال، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ) أي واذكرُوا إذ يُلقِي اللهُ عليكم النُّعاسَ، والنُّعاسُ: أولُ النَّومِ قبل أن يثقلَ. وقولهُ تعالى: (أَمَنَةً مِنْهُ) أي أمْناً من اللهِ منهم بوعدِ النَّصرِ أمْناً حتى غَشِيَهم النعاسُ في حال الاستعداد للقتال[١]. قال ابنُ عبَّاس: (النُّعَاسُ عِنْدَ الْقِتَـالِ أَمْـنٌ مِـنَ اللهِ، وَفِـي الصَّلاَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ).

قرأ ابنُ كثـيرٍ وأبـو عمـرو (يَغْشَـاكُمُ) واحتجَّـا بقولـهِ تعـالى: ﴿يَغْشَـى طَائِفَـةً مِنكُمْ﴾[٢] فجعلَ الفِعلَ للنُّعاسِ. وقرأ نافعُ (يُغْشِيكُمْ) على أنَّ الفعلَ للهِ تعالى ليكـون مُطابقاً لقوله: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) واحتجَّ بقولـهِ تعـالى: ﴿كَأَنَّمَـا أُغْشِـيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾[٣]. وقرأ الحسنُ وأبو رجَاءٍ وعكرمة وأهلُ الكوفـة وابـنُ عـامر ويعقـوب (يُغَشِّيكُمْ) بالتشديد لقوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[٤].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ؛ يعـني المطـرَ ليُطهِّرَكم به مـن الْجَنَابَـة والحـدثِ، ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ؛ وَسْوَسَـةَ الشيطانِ التي كان وَسْوَسَ إليكم بأنَّ عدُوَّكم قد غلـبَ علـى الماءِ، وأنَّكـم في مكـانٍ تَسُوحُ أقدامُكم في الرملِ. ويقال: أرادَ بالرِّجْزِ الجنابةَ التي أصابَتـهم بـالاحتلامِ، فـإنَّ الاحتلامَ إنَّما يكون من وَسْوَسَةِ الشيطانِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثار (١٢٢٥٨-١٢٢٦١).

(٢) آل عمران / ١٥٤ . (٣) يونس / ٢٧ . (٤) النجم / ٥٤ .

وقرأ سعيدُ بن المسيَّب (لِيُطْهِرَكُمْ) بالظاء من أطْهَرَكم اللهُ(١). وقرأ ابنُ محيصن (رُجْز) بضمِّ الراء. وقرأ أبو العاليةِ (رجْسَ الشَّيْطَان) بالسين، والعربُ تُعَاقِبُ بين السِّين والزاي فتقولُ: بَزَقَ وبسَقَ، والسِّراط والزِّراط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ أي وليَشُدَّ على قلوبكم بالصَّبر، ويشجِّعَكم على القتال. وَقِيْلَ: معناهُ: وليَربطَ على قُلوبكم بالصَّبر والمطر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ويُثبتَ بالمطرِ الأقدامَ حتى لا تسُوحَ في الرملِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ويثبتَ بالبصيرةِ وقوةِ القلب الأقدامَ؛ لأن الأقدامَ إنما تثبتُ في الحرب بقوَّة القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ ؛ إذ يُلهمُ ربُّكَ الملائكةَ النازلين من السَّماء (أنِّي مَعَكُمْ) بالنصرِ للمسلمين، ﴿ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ بالتَّنبيهِ والإخْطَار بالبَالِ، ويقالُ: بَشِّرُوهم بالنصرِ، وَقِيْلَ: أرُوهم أنفسَكم مَدَداً لَهم فإذا عاينُوكم ثَبَتُوا. والوحيُ: إلقاءُ المعنى الى النَّفسِ من وجهٍ خَفِيٍّ.

وعن ابن عبَّاس أنه قالَ: (سَوَّى أصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ صُفُوفَهُمْ، وَقَدَّمُوا رَايَاتِهِمْ فَوَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يَدْعُو اللهَ وَيَسْتَغِيثُ، فَهَبَطَ جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْسَرَتِهِمْ، فَكَانَ الْمَلَكُ يَأْتِي الرَّجُلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ وَيَقُولُ لَهُ: دَنَوْتُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: وَاللهِ لإنْ حَمَلُوا عَلَيْنَا لاَ نَثْبُتُ لَهُمْ أبَداً.

وَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِ الْكَفَرَةِ الرُّعْبَ بَعْدَ قِيَامِهِمْ لِلصَّفِّ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ: يَا مُحَمَّدُ أخْرِجْ إلَيْنَا أكْفَاءَنَا مِنْ قُرَيْشٍ نُقَاتِلُهُمْ. فَقَامَ إلَيْهِمْ بَنُو عَفْرَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ: عُوذ وَمِعْوَذ وَمَعَاذاً أُمُّهُمْ عَفْرَاءُ وَأبُوهُمُ الْحَارِثُ، فَمَشَوْا إلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا

(١) الوجه الأول: الإبل التي يحمل عليها ويركب، فكأنهم شربوا وسقوا إبلهم وما يركبون عليه. ولكثرة الماء تلبَّدت الأرض بحيث تسوخ فيه الأقدام فثبتت، فجعلهم ظاهرين بثباتهم فيها.

وأما الوجه الثاني: فإن الثعلبي نقل قراءة سعيد بلفظ: (لِيُطْهِرَكُمْ) وقال بطاء ساكنة من أطهره الله. والله أعلم بأي القراءتين قرأ سعيد وفسَّر. وأثبت قول سعيد كما هو ظاهر عندي في المخطوط.

وَأرْسِلُوا إلَيْنَا أكِفَّاءَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، قَالَ عَلِيٌّ: فَمَشَيْتُ إلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَمَشَى إلَيَّ، فَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ أطَرْتُ يَدَهُ، ثُمَّ بَرَكْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهُ، فَقَامَ شَيْبَةُ بْنُ رَبيعةَ إلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارثِ فَاخْتَلَفَا بضَرْبَتَيْن، ثُمَّ ضَرَبَ عُبَيْدَةُ ضَرْبَةً أخْرَى فَقَطَعَ سَاقَ شَيْبَةَ، ثُمَّ قَامَ حَمْزَةُ إلَى عُبَيْدَةَ بن ربيعة فَقَالَ: أنَا أسَدُ اللهِ وَأسَدُ رَسُولِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ حَمْزَةُ فَقَتَلَهُ. فَقَامَ أبُو جَهْلٍ فِي أصْحَابهِ يُحَرِّضُهُمْ وَيَقُولُ: لاَ يَهُولَنَّكُمْ مَا لَقِيَ هَؤُلاَءِ، فَإنَّهُمْ عَجِلُوا وَاسْتَحْمَقُوا، ثُمَّ حَمَلَ هُوَ بنَفْسِهِ، ثُمَّ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ عَلَى قُرَيْشٍ فَهَزَمُوهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ ؛ أي سأقذفُ في قلوبهم المخافةَ منكم. علَّمَ اللهُ المسلمين كيف يضربُونهم، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ؛ معناهُ على الأعناق، وقال عطيَّة والضحاكُ: (مَعْنَاهُ فَاضْرِبُوا الأَعْنَاقَ)[١]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[٢]، وَقَالَ ﷺ: [إنِّي لَمْ أبْعَثْ لأُعَذِّبَ بعَذاب اللهِ تَعَالَى، إنَّمَا بُعِثْتُ بضَرْب الرِّقَاب وَشَدِّ الْوَثَاق])[٣].

وقال بعضُهم (فَوْقَ) بمعنى (عَلَى)، أي فَاضربُوا على الأعناق، وقال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ فَاضْربُوا الرُّؤُوسَ). وقال ابن عبَّاس: (فَاضْرِبُوا الأَعْنَاقَ فَمَا فَوْقَهَا) يعني الرُّؤُوسَ والأعناقَ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾[٤] أي اثنتين فما فوقَهما، وإنما أمرَ الله تعالى بضرب الرِّقاب والأعناق؛ لأنَّ أعلى جلدةِ العنُق هو الْمَقْتَلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ قال عطيَّة: (يَعْنِي كُلَّ مِفْصَلٍ)[٥]، وقال ابنُ عبَّاس والضحاكُ: (يَعْنِي الأَطْرَافَ)[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٦٥) يقول: (اضْرِبُوا الرِّقَابَ).

(٢) محمد / ٤ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٩: تفسير الآية ٦ من سورة الأنفال؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير عن القاسم بن عبدالرحمن... وذكره)).

(٤) النساء / ١١ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٦٧).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٧٠) عن ابن عباس، والأثر (١٢٢٧٢) عن الضحاك.

وقال بعضُهم معنى قولِه تعالى: (فَـاضْرِبُوا فَـوْقَ الأَعْنَـاق) الصَّنَـادِيدُ، وقولِـهِ تعالى: (وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) يعني السَّفَلَةَ. إلا أنَّ الأوَّل أصحُّ. وَقِيْلَ: معناه: واضرِبُوا منهم كلَّ عُضوٍ أمكَنَكم، وليس عليكم تَوَقِّي عضوٍ دون عضو.

وعـن أبـي سـعيد الفاراني أنـه كـان يقـولُ: (أرَادَ اللهُ أنْ لاَ تَتَلَطَّـخَ سُـيُوفُ الْمُسْلِمِينَ بفَرَثِ الْكُفَّار، فَأَمَرَهُمْ أنْ يَضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاق وَيَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَـان). والبَنَانُ في اللغة: هو الأصابعُ وغيرُها من الأعضاءِ التي بها يكون قِوَامُ الإنسانِ صوناً لمكانه وحياته، مأخوذٌ من قولهم: أبْنَنَ الرجلُ بالمقامِ إذا أقامَ بهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلـك الضَّـربُ والقتلُ بأنَّهم شَاقُّوا أولياءَ الله ورسولَهُ، والمشَـاقَّةُ أن يصـيرَ أحدُ العدُوَّيـن في شِقٍّ والآخرُ في شِقٍّ آخر، كما أن الْمُجَادَلَةَ أن يصيرَ أحدُهما في حدٍّ غيرِ حدِّ الآخر. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ومَن يخالِفْ أولياءَ اللهِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ ، لهُ.

وأما إظهارُ التضعيفِ في موضع الجزمِ في قوله (يُشَاقِق) فهو لغةُ أهلِ الحجاز، وغيرُهم يُدغِمُ أحدَ الحرفين في الآخر لاجتماعِهما من جنسٍ واحد، كما قال تعالى في سورة الحشرِ ﴿وَمَنْ يُشَاقَّ اللهَ﴾ بقافٍ واحدة.

وقولهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ ؛ معنـاهُ: إن الـذي ذكـرتُ لكـم أيُّـها الكفار من العذاب العاجِلِ في الدُّنيا فَذُوقُوهُ. ثم بيَّن جلَّ ذِكرهُ أن القتـلَ في الدُّنيـا لا يصيرُ كفارةً لهـم، وأنَّ الله سيعاقِبُهم في الآخـرة بقولـه: ﴿ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ ، وإنما قال تعالى في عـذاب الدُّنيـا (فَذُوقُـوهُ)؛ لأن الـذوقَ يتنـاولُ اليسيرَ من الشيءِ، وكلُّ ما يلقَى الكفارُ من ضربٍ أو قتـلٍ في الدُّنيـا فـهو قليـلٌ مـن العذاب يُعَجَّلُ لهم، ومُعظَمُ عَذابهم يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذابَ النَّار) في فتحِ (أنَّ) وجهان أحدُهما: لأنَّـها في موضعِ الرفع تقديرهُ ذلِكُم فَذُوقُوهُ، وذلِكُمْ أنَّ للكافرينَ. والثاني: لأنَّها في موضـعِ النصب؛ تقديرهُ: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَاعْلَمُوا أنَّ للكافِرينَ. وَقِيْلَ: واعلَمُوا بأنَّ للكـافرين، فلما حَذفَ الباءَ نُصب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ خطابٌ من اللهِ للمسلمين حين التَقَوا بالعدوِّ يومَ بدر، معناهُ: إذا لقيتُم الذين كفَرُوا مُزَاحَفَةً مستعدِّين لحربهم، فلا تنهَزِمُوا حتى تُدبروا. والزحفُ في اللغة: هو الدُّنُوُّ قَلِيلاً قليلاً، والزحفُ التَّدانِي، يقال: زاحفتُ القومَ إذا ثَبَتُّ لهم، فكأنَّهُ قال تعالى: إذا واقَعتمُوهم للقتال فاثبُتوا لَهم. والتَّولِيَةُ: جعلُ الشيءِ يَلِي غيرَهُ وهو مُتَعَدٍّ إلى مَفعُولَين، وَوَلَّى دُبُرَهُ إذا جعلَهُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ ؛ أي ومَن يجعل ظَهْرَهُ إليهم وقتَ القتال، ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ ؛ إلا أنْ ينحرفَ ليُقاتِلَ في موضعٍ يراهُ أصلحَ في باب الْمُحارَبَةِ، وليطلبَ غرَّةً يطمعُ فيها من العدوِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ ؛ أي إلا أنْ يقصدَ الانضمامَ إلى جماعةٍ يَمنعونَهُ من العدوِّ، يعني إذا كَثُرَ العدوُّ للمؤمنين فيه يلجأون، فيحاربون العدوَّ بعد ذلك معهم؛ كان لهم تركُ القتال عند ذلك، ومن ولاَّهم الدُّبُرَ على سبيلِ الانْهزام من غيرِ هذين الوجهَين، ﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ، فقدِ احتملَ غضَباً من اللهِ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ ؛ في الآخرةِ ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ ، صارَ إليه.

والتَّحَرُّفُ في اللغة: هو الزَّوَالُ من جهةِ الاستواءِ، والتَّحَيُّزُ: طلبُ حَيِّزٍ يَكْمُنُ فيه.

واختلفَ العلماءُ هل الوعيدُ في هذه الآيةِ مقصورٌ على حرب بدر أم هو عامٌّ في جميعِ الأوقات؟ قال بعضهم: إنه خاصٌّ في حرب بدر؛ لأنه لم يكن يومئذٍ للمسلمين فيه سِواهُم، وكان النبيُّ ﷺ حاضِراً في ذلك الحرب، وكان النصرُ موعوداً إليه يومئذٍ ومع حضُورِهِ، وكان لا يعدُّ غيرهُ فئةً، وكان المنهزمُ عن القتال يومئذ غيرَ متحيِّزٍ إلى فئةٍ، فأما اليومَ المنهزمُ عن الحرب يكون مُتحيِّزاً إلى فئةٍ أعظمَ من الْمُحاربين من المسلمين. وقال بعضُهم: إنه عامٌّ في جميعِ الأوقات، ولا يجوزُ الانْهزَامُ عن قتالِ المشركين مع قوّة القتال، وإلى هذا ذهبَ ابنُ عباس، وذكرَ مُحمَّد بنُ الحسنِ في السِّيَرِ الكبير (أنَّ الْجَيْشَ إذا بَلَغُوا اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً فَلَيْسَ لَهُمْ أنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإنْ كَثُرَ

الْعَدُوُّ). واحتَجَّ بما رُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [خَيْرُ الأَصْحَاب أرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أرْبَعَةُ آلاَفٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ مِنْ قِلَّةٍ][1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: لَم تقتلُوهم يومَ بدرٍ بأنفُسِكم، ولكنَّ الله قَتَلَهم بالملائكةِ. وأضافَ اللهُ قتْلَهم إلى نفسهِ؛ لأن السببَ في قتلِهم كان من اللهِ تعالى، فإنهُ هو الذي أيَّدَ المؤمنين بالملائكةِ حتى شجَّعَ قُلوبَهم، وأنزلَ المطرَ حتى ثبَّتَ به الأقدامَ، وألقَى في قلوب المشركين الرُّعب حتى انْهزمُوا. وَقِيْلَ: كان المسلمون يقولُون قتَلنا فُلاناً وفلاناً، فأرادَ اللهُ تعالى أنْ لا يُعجَبُوا بأنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: [نَاوِلْنِي كَفّاً مِنْ تُرَاب الْوَادِي] فَنَاوَلَهُ قَبْضَةً، فَاسْتَقْبَلَ بهَا وُجُوهَ الْمُشْرِكِينَ فَرَمَاهُمْ وَقَالَ: [شَاهَتِ الْوُجُوهُ وَقُبِحَتْ] فَمَلأَ اللهُ أعْيُنَهُمْ بهَا، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ أحَدٌ إلاَّ وَقَدْ شُغِلَ بعَيْنِهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَزَمُوهُمْ[2]. فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ) أعلمَ اللهُ أن كفّاً من التُّراب لا يملأُ عيونَ ذلك الجيشِ برَميَةِ بَشَرٍ؛ لأنه تعالى تولَّى إيصالَ ذلك إلى أبصارهم من الموضعِ الذي كان فيه النبيُّ ﷺ حتى أصابَ عَيْنَ كلِّ واحدٍ منهم قِسْطٌ من ذلك التُّراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ ؛أي ولِيُنْعِمَ على المؤمنين بالنَّصر والغنيمةِ والأَسَارى نعمةً حسنةً. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي سميعٌ لدُعائِكم، عليمٌ بأفعالِكم وضمائرِكم.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا: الحديث (٢٦١١). والترمذي في الجامع: أبواب السير: الحديث (١٥٥٥)؛ وقال: حسن غريب. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو داود والترمذي وأبو يعلى، وفيه حبان بن علي وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجاله ثقات)). وفي الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان: الحديث (٤٧١٧) صححه الشيخ شعيب وقال: ((على شرط الشيخين)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٢٩٥) عن السدي مرسلاً، و(١٢٢٩٣) عن محمَّد بن كعب القرظي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ؛ أي ذلِكُم الذي ذكرتُ لكم من القتلِ والرَّمي والإبلاءِ الحسَنِ، (وأنَّ اللهَ) أي واعلَمُوا أنَّ اللهَ، وفي فَتْحِ (أنَّ) من الوجُوهِ مثلُ ما في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ وقد بيَّناهُ. وقولهُ تعالى: (مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) أي مُضْعِفُ كيدِهم. قرأ أهلُ الكوفة إلاَّ حفصاً وابن يعقوب وابن عامرٍ (مُوهِنُ) بالتخفيف، (كَيْدَ) بالنصب، وقرأ الحسنُ والأعمش وحفصٌ (مُوهِنُ كَيْدِ) مخففاً مضافاً بالخبرِ طَلَباً للخفَّة كقوله: ﴿مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾[1] ﴿كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ ؛ هذا خطابٌ للكافرين، وذلكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ قالَ يومَ بدرٍ قبلَ القتالِ لَهم: اللَّهُمَّ انصرْ أعزَّ الْجُنْدَين وأكرَمَ الفئَتين وخيرَ الدِّينَين، اللَّهُمَّ أيُّنا أقطعُ للرحمِ وأفسدُ للجماعةِ فَأَحِنْهُ اليومَ. فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ على نفسهِ، فأتاهُ بالفتحِ فضربَهُ إبنا عَفراء عوفُ ومعاذ وأجهزَ عليه ابنُ مسعود[3].

وقال السديُّ والكلبي: (كَانَ الْمُشْرِكُونَ حِينَ خَرَجُوا إلَى بَدْرٍ، تَعَلَّقُوا بأَسْتَار الْكَعْبَةِ، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ انْصُرْ أعْلَى الْجُنْدَيْنِ وَأهْدَى الْفِئَتَينِ وَأكْرَمَ الْحِزْبَينِ وَأفْضَلَ الدِّينَيْنِ، اللَّهُمَّ أيُّ الْفِئَتَينِ أحَبُّ إلَيْكَ فَانْصُرْهُمْ، اللَّهُمَّ اقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، إنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ النَّصْرُ، فَنُصِرَ مُحَمَّدٌ ﷺ)[4]. وقال عكرمةُ: (قَالَ الْمُشْرِكُونَ: اللَّهُمَّ لاَ نَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بالْحَقِّ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ (إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) أيْ إنْ تَسْتَحْكِمُوا فقَدْ جَاءَكُمُ الْحُكْمُ، وَإنْ تَسْتَقْضُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْقَضَاءُ)[5].

---

(١) القمر / ٢٧.

(٢) الدخان / ١٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٦) عن الزهري مرسلاً بإسنادين، وفي الرقم (١٢٣٠٧) عن عبدالله بن ثعلبة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٩) عن السدي.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٣).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي وإن تَنتَهُوا عن الشِّرك والمعاصي فهو خيرٌ، ﴿ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ ؛ إلى القتال، ﴿ نَعُدْ ﴾ ؛ بأنْ نأمُرَ المسلمين بجهادِكم وننصُرهم عليكم. وقال بعضُهم: هذه الآيَةُ خطابٌ للمؤمنين؛ أي اسْتَنْصِرُوا الله وَاسْأَلُوهُ الفتحَ فقد جاءكم الفتحُ والنصر، وإنْ تنتَهُوا عن فعلِكم في الأُسارى والفداءِ يومَ بدرٍ فهو خيرٌ لكم، وإنْ تعودُوا إلى فعلِكم بالأُسارى نَعُدْ إلى الإنكار عليكم، ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا ﴾ ؛ أي وإنْ سُلب عنكم النصرُ حتى لا تُغني عنكم جماعتُكم شيئاً، ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ ؛ في العددِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعٌ وابن عامر بخفضِ (إنَّ) وبفتحِ (أنَّ) بمعنى ولأن الله، وَقِيْلَ: عطفٌ على قولهِ (وَأنَّ الله مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)، وَقِيْلَ: على معنى وَاعْلَمُوا أنَّ الله، وقرأ الباقون (وإنَّ اللهَ) بالكسرِ على الابتداء، واختارَهُ أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأن قراءةَ عبد الله: (وَإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) بالنصرِ والمعونة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في أمرِ الغَنيمة وغيرِها، ولا تَوَلُّوا عن أمرِ الله، وأنتم تسمعون ما أنزلَ اللهُ تعالى، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ وَأنْتُمْ تَسْمَعُونَ الْحُجَّةَ فِي وُجُوب طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ).

وأما تخصيصُ المؤمنين بالأمرِ لهم بالطَّاعة وإن كانت هذه الطاعةُ واجبةً على غيرِ المؤمنين كوجوبها على المؤمنين، فلأحَدِ معنيين: إما إجلالاً لهم ورفعاً لقدرهم فيدخلُ غيرُهم في الخطاب على جهة التَّبعِ لهم، وإما لأنه لم يَعْتَدَّ بغيرِ المؤمنين؛ لإعراضهم عما وجبَ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا تكونوا كالذينَ قالوا سَمِعنَا على جهةِ القَبُول، وهم لا يسمعون للقبول، وإنما سَمِعُوا به للردِّ والإعراضِ عنه، ويقالُ: معناه: ولا تكونوا كالَّذين قالوا قَبلْنَا وهم لا يَقبلون، ومنه قولهُ [سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ] أي قَبلَ اللهُ حَمْدَ مَن حَمِدَهُ. واختلَفُوا

(١) في جامع البيان: مج ٦ ج٩ ص٢٧٨؛ قال الطبري: ((وقرأ ذلك عامة قرَّاء الكوفيين والبصريين: (وإنَّ اللهَ) بكسر الألف على الابتداء، واعتلوا بأنها في قراءة عبدالله (وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ))).

فيمَن نزلت هذه الآيةُ، قال ابنُ جُرَيج: (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ) وقال الحسنُ: (فِي أَهْلِ الْكِتَاب). ويقالُ: في مُشركي العرب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ؛ معناهُ: أن شرَّ الخليقةِ على وجهِ الأرض الكفَّارُ الذين لا يسمعونَ الْهُدَى، ولا يتكلَّمُون بالخير، ولا يتدبَّرون القرآنَ. وسَمَّاهم صُمّاً بُكماً؛ لأنَّهم لم ينتفِعُوا بما سَمعوا من دلائلِ اللهِ تعالى، قال الأخفشُ: (كُلُّ مُحْتَاجٍ إِلَى غَذَاءٍ فَهُوَ دَابَّةٌ). ومعنى الآيةِ: إن شرَّ ما دبَّ على وجهِ الأرض من خلقِ الله تعالى الصمُّ البُكْمُ عن الحقِّ، فهُم لا يسمعونَهُ ولا يعقلونه. وَقِيْلَ: صُمُّ القُلوب وعُميُها، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ؛ أي لو علِمَ اللهُ فيهم أنَّهم يصلُحون بما نوردُه عليهم من الحجَّة بآياتهِ لأَسْمَعَهُمْ إيَّاها. وَقِيْلَ: لأَسْمَعَهُمْ جوابَ كلِّ ما سألوهُ عنه، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ ؛ ولو بيَّن لهم كلَّ ما يختلِجُ في أنفسِهم لتولَّوا عن الهدى، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ لمعاندَتِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؛ معناهُ: أَجِيبُوا اللهَ والرسولَ. وَقِيْلَ: معنى الإجابة طلبُ الموافقةِ للدَّاعي على وجهِ الطاعة. وَقِيْلَ: الجمعُ بين الاستجابةِ لله وللرسولِ؛ أي استجِيبُوا للهِ بسَرائِركم وللرسولِ بظوَاهرِكم.

وقولهُ تعالى: (إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) أي إذا دعَاكُم إلى العلمِ الذي يُحييكم في أمرِ الدِّين. وَقِيْلَ: معناه: إذا دعاكم إلى الجهادِ الذي يُحيي أمرَكم. وَقِيْلَ: إذا دعاكم إلى ما يكون سَبَباً للحياةِ الدَّائمة في نعيمِ الآخرة؛ لأنه إذا حصلَ الامتثالُ بأمرِ الله ورسولِهِ، حصلت هذه الحياةُ الدائمة، وإن لم يحصلِ الامتثالُ أدَّى ذلك إلى العقاب الذي يتمنَّى معه الموتَ. قال القتيبي: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (لِمَا يُحْيِيكُمْ) يَعْنِي الشَّهَادَةَ؛

(١) الحج / ٤٦ .

لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١). واللامُ في قولهِ (لِمَا) بمعنى (إلى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ ؛ فيه ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: أن معناهُ: يَحُولُ بين المرءِ وأمَلِهِ بالموتِ أو غيره من الآفاتِ، فبادِرُوا إلى الطَّاعاتِ قبلَ الحيلولَةِ، ودَعُوا التسويفَ فإنَّ الأجلَ يَحُولُ دون الأملِ. وقال مجاهدُ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ لاَ يَتْرُكُهُ يَفْهَمُ وَلاَ يَعْقِلُ)(٢).

والثاني: أن معناهُ: أنَّ اللهَ تعالى أقربُ إلى ذي القلب مِن قلبه، فإنَّ الذي يَحُولُ بين الشَّيء وغيرِهِ أقربُ إلى ذلك الشيءِ من غيره، كما قالَ تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٣)، وفي هذا تحذيرٌ شديد.

والثالث أن معناهُ: أن اللهَ يُقَلِّبُ القلوبَ من حال إلى حال كما جاء في الدُّعاء:[يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب](٤). وقال ابنُ جبير: (يَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ أنْ يُؤْمِنَ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِ أنْ يَكْفُرَ). وقال ابنُ عبَّاس والضحاك: (يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَمَعْصِيَتِهِ، وَيَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَطَاعَتِهِ)(٥). وقال السديُّ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُؤْمِنَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَكْفُرَ إلاَّ بإذْنِهِ)(٦).

قرأ الحسنُ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرِّ) بتشديدِ الراء من غير همزٍ، وقرأ الزهريُّ بضمِّ الميمِ والهمزة وهي لغاتٌ صحيحة.

---

(١) آل عمران / ١٦٩ . (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٣٩).

(٣) ق / ١٦ .

(٤) عن النواس بن سمعان؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٣. وابن حبان في الإحسان: الحديث (٩٤٣) بإسناد صحيح. وعن أنس أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب القدر: باب ما جاء من أن القلوب بين إصبعي الرحمن: الحديث (٢١٤٠)؛ وقال: حسن. وفي الباب عن عائشة وأم سلمة وسبرة بن الفاكه وأبي هريرة.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٣٤) بأسانيد، والأثر (١٢٣٣٥) عن سعيد عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٤٠).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ؛ عطفٌ على قولـهِ: (أنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ). معناهُ: واعلَمُوا أنَّ مَحْشَرَكُمْ في الآخرةِ إلى اللهِ، فيَجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ، إنْ كان خَيراً فخيرٌ، وإنْ كان شرّاً فشرٌّ.

وَقِيْلَ: في آخر الآية تأويلُ الآيةِ؛ أي الذي يَحُولُ بين المرءِ وقلبهِ قادرٌ على أن يُبَدِّلَ خوفَكم أمْناً، وأمْنَ عدوِّكم خوفاً، فيجعلَ القويَّ ضعيفاً والضعيفَ قوياً، والعزيزَ ذليلاً والذليلَ عَزيزاً، والشُّجاعَ جَباناً، والجبانَ شُجاعاً، يفعلُ ما يشاء وما يريدُ، فأجيبُوا الرسولَ في الجهادِ ولا تخافُوا ضعفكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ ؛ نزلَت في عُثمانَ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أخبرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالفتنةِ التي تكون تُسَبِّبها أنّها ستكون بعدَك يلقاها أصحابُكَ تصيبُ الظالِمَ والمظلومَ، ولا تكون بالظَّلَمَةِ وحدَهم خاصَّة ولكنَّها عامة، وأخبرَ النبيُّ ﷺ بذلك أصحابَهُ، فكانَ بعد وفاةِ النبيِّ ﷺ من الفِتَنِ بسبب عليٍّ وعُثمان ما لا يخفَى على أحدٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُصِيبَنَّ) جوابُ الأمر بلفظ النَّهي، كما يقالُ: انْزَلْ مِنَ الدَّابةِ لا تَطْرَحْكَ أو لا تطرَحنْكَ، معناهُ: أنْ تَنْزِلَ عنها لا تطرحنَّك، فإذا أثبَتَّ النونَ الخفيفةَ والثقيلة كان آكدَ للكلامِ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[(٢)].

والمرادُ بالفتنةِ القتلُ الذي رَكِبَ الناسَ فيه بالظُّلم، وكان أمرُ الله أمراً باتِّقاء تركِ الإنكار على أهلِ المعاصي واتِّقاء الاختلاطِ بأهلِ المعصية، قال ابنُ عبَّاس: (أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ لاَ يقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، فَيَعُمُّهُمُ اللهُ بالْعَذاب)[(٣)].

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أصْحَابي فِتْنَةٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ بِصُحْبَتِهِمْ إيَّاي، يَسْتَنُّ بِهِمْ فِيهَا نَاسٌ بَعْدَهُمْ يُدْخِلُهُمُ اللهُ بِهَا النَّارُ]. حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٩١: تفسير الآية.

(٢) النمل / ١٨ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ تحذيرُ شدَّة العقوبةِ لِمَن أهَاجَ الفتنَ، قال ﷺ: [الْفِتْنَةُ رَاتِعَةٌ فِي بلاَدِ اللهِ وَاضِعَةٌ خِطَامَهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أهَاجَهَا]، وفي بعضِ الأخبار: [الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أيْقَظَهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ نزلت في الْمُهاجرين خاصَّة؛ أي احفَظُوا معشرَ المهاجرين إذ أنتم قليلونَ في العدَّة مقهُورون في أرضِ مكَّة، ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ أي يَخْتَلِسَكُمْ ويذهبَ بكم أهلُ مكَّة، ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ فآواكم إلى المدينَة وأعانكم يومَ بدرٍ بالملائكةِ، ورزقَكُم الحلالَ من الغنائم؛ لكي تشكُروا اللهَ وتعرفُوا ذلك منه فتطيعوهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، نزلت في أبي لُبَابَةَ بن عبدِ المنذر، فإنَّ بني قُريظةَ قالُوا لرسول الله ﷺ: ابْعَثْ لَنَا خَلِيفَةً مِنْ خُلَفَائِكَ نَنْزِلْ عَلَى حُكْمِهِ، فأبَى رسولُ اللهِ ﷺ أن يَنْزِلُوا إلاَّ على حُكم سعدِ بن مُعاذ، وكانوا يقولونَ: أرسِلْ إلينا أبَا لُبابة، وكَانَ عيالُهُ وولدُهُ وأهله عندَهم، فَبَعَثَهُ النبيُّ ﷺ إليهم، فقالوا: يا أبَا لُبابة أننزلُ على حُكم سعدِ بن معاذ، فأشارَ بيدهِ إلى حَلْقِهِ؛ أي إنَّهُ الذبحُ فَلاَ تَفْعَلُوا، وَلَم يتكلَّم بلسانهِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، قال أبو لُبابة: (فَمَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَلِمْتُ أنِّي خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ) كما فَعَلَ أبو لُبابة.

فلما نزلت هذه الآيةُ شَدَّ أبو لُبابَةَ نفسَهُ على سَارِيَةٍ من سَوَاري المسجدِ، وقالَ (لاَ أذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حَتَّى أمُوتَ، أوْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ) فمكثَ سبعةَ أيَّام لا يذوقُ فيها طَعاماً ولا شَراباً حتى خرَّ مَغشِيّاً عليهِ، ثم تَابَ اللهُ عليه، فجاءَ رسولُ الله

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن: الحديث (١٥ و٣٤٤) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفيه سعيد ابن سنان، ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٢٤٠٦)؛ قال: ((الحنفي متروك رماه الدارقطني وغيره بالوضع)). ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٦ ص١٠١ عن أبي الدرداء.

ﷺ فَحلَّهُ بيدِهِ، فقال أبو لُبابة: (تَمَامُ تَوْبَتِي أنْ أهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أصَبْتُ فِيهَا الذنْبَ، وَأنْ أنْخَلِعَ مِنْ مَالِي) فَقَالَ ﷺ: [يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ][1].

وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: لاَ تَخُونُوا اللهَ بِتَرْكِ فَرَائِضِهِ، وَالرَّسُولَ بِتَرْكِ سُنَّتِهِ)[2]. (وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ) أي ولا تخونوا أماناتِكم، انتصبَ على الظَّرف؛ أي إنَّكم إن فَعَلتُم ذلك فإنما خُنتُمْ أماناتِكم عَطفاً.

ويقالُ: أرادَ بقولهِ: (لاَ تَخُونُوا اللهَ) الخيانةَ من الغنائمِ التي هي عطيَّةُ اللهِ، والخيانةُ للهِ فيها خيانةُ الرسول أيضاً؛ لأنه هو القيِّمُ بقِسْمَتِها، وقولُهُ: (وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ) يحتملُ الخيانةَ في الغَنائم أيضاً؛ لأنَّهم كلُّهم مُشتَركون فيها، فمَن استبدَّ بشيءٍ منها فقد خَانَ، ويحتملُ الخيانةَ في أثْمَان بعضِ الناس بعضاً من حقُوق أنفسهم، وقال الأخفشُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى (وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) عَطْفاً عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ النَّهْي، تَقْدِيرُهُ: وَلاَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الإنسان ربَّما يتركُ الجهادَ ويخونُ في الأماناتِ لأجْلِ الأولادِ أو حِرْصاً على المالِ، وقد رَوَينا أنَّ أبا لُبابة إنما حَمَلَهُ على ما فَعلَ مالُهُ وأهلُه وولدُهُ الذين كانوا في بَنِي قريظَةَ؛ لأنه إنما ناصَحَهم لأجلِهم وخانَ المسلمين بسببهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي ثوابٌ جَسِيمٌ في الآخرةِ لمن لَم يَعْصِ اللهَ لأجلِ المالِ والذرِّية.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي إن تتَّقُوا اللهَ في الأماناتِ، فتمتَنِعوا من معاصيهِ بأداءِ فرائضه يجعَلْ لكم نُوراً في قلوبكم تُفرِّقون به بين الحقِّ والباطل. وَقِيلَ: يجعل لكم فَتْحاً ونَصراً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[3] أرادَ به يومَ عزِّ المؤمنين وخُذلان الكافرين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٣٥٩). والواحدي في أسباب النزول: ص١٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٦٨) بمعناه. (٣) الأنفال / ٤١.

وَقِيْلَ: معناهُ يجعل لكم مَخرَجاً ونجاةً في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاك: (فُرْقَاناً: أيْ ثَبَاتاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُكفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) أي يَمحُ عنكم ذنُوبَكم، ويستُرْ عليكم خطَايَاكم ولا يؤاخِذْكم بها، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي عظيمُ الفضلِ على عباده أسْدَى لهم بالنِّعَم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ ذكَّر اللهُ نبيَّه ﷺ فعقب ما أنعم الله عليه من النصر والظفر يوم بدر وما كان من مكر المشركين في أمره بمكة فقال: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي اذكر تلك الحالة.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيشٍ اجْتَمَعُوا فِي دَار النَّدْوَةِ يَمْكُرُونَ برَسُول اللهِ ﷺ وَيَحْتَالُونَ لَهُ، مِنْهُمْ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبيعَةَ؛ وَأبُو جَهْلٍ؛ وَأبُو سُفْيَانَ؛ وَالنَّضِرُ بْنُ الْحَارِثِ؛ وَأبو الْبُحْتُرِيِّ بْنُ هِشَامٍ؛ وَنَبيهُ وَمُنَبهُ؛ وَأبَيُّ بْنُ خَلَفٍ وَربيعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبيرٍ عَلَيْهِ ثِيَابُ أطْمَارٍ، فَجَلَسَ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا: مَا لَكَ يَا شَيْخُ دَخَلْتَ فِي خَلْوَتِنَا بغَيرِ إذنِنَا ؟! فَقَالَ: أنَا رَجُلٌ مِنْ أهْلِ نَجْدٍ قَدِمْتُ مَكَّةَ، فَأرَاكُمْ حَسَنَةً وَجُوهُكُمْ طَيِّبَةً رَوَائِحُكُمْ، فَأحْبَبْتُ أنْ أسْمَعَ حَدِيثَكُمْ فَأقْتَبسَ مِنْكُمْ خَيْراً فَدَخَلْتُ، وَإنْ كَرِهْتُمْ مَجْلِسِي خَرَجْتُ، وَمَا جِئْتُكُمْ إلاَّ أنِّي سَمِعْتُ باجْتِمَاعِكُمْ فَأرَدْتُ أنْ أحْضُرَ مَعَكُمْ، وَلَنْ تَعْدَمُوا مِنِّي رَأياً وَنُصْحاً. فَقَالُوا: هَذا رَجُلٌ لاَ بَأسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ.

فَتَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَبَدَأ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ فَقَالَ: أمَّا أنَا فَأرَى أنْ تَأْخُذُوا مُحَمَّداً، فَتَجْعَلُوهُ فِي بَيْتٍ تَسُدُّونَ عَلَيْهِ بَابَهُ؛ وَتَشُدُّونَ عَلَيْهِ وثَاقَهُ؛ وَتَجْعَلُونَ لَهُ كُوَّةً تُدْخِلُونَ عَلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَيَكُونُ مَحْبُوساً عِنْدَكُمْ إلَى أنْ يَمُوتَ. فَقَالَ إبْلِيسُ: بئْسَ مَا رَأيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أهْلُ بَيْتٍ، وَقَدْ سَمِعَ بهِ مَنْ حَوْلَكُمْ فَتَحْبسُوهُ، يُوشِكُ أنْ يُقَاتِلَكُمْ أهْلُ بَيْتِهِ وَيُفْسِدُوا عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ. فَقَالُوا صَدَقَ وَاللهِ الشَّيْخُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ أبو الْبَخْتَرِيِّ[1] فقَالَ: أرَى أنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ فَتَشُدُّوا وثَاقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تُخْرِجُوهُ مِنْ أرْضِكُمْ حَتَّى يَمُوتَ أوْ يَذْهَبَ حَيْثُ يَشَاءُ. فَقَالَ إبْلِيسُ: بِئْسَ الرَّأي مَا رَأيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أهْلُ بَيْتٍ، وَقَدْ سَمِعَ بِهِ مَنْ حَوْلَكُمْ أفْسَدَ عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ وَمَعَهُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَتُخرِجُونَهُ إلَى غَيْرِكُمْ فَيَأْتِيهِمْ فَيُفْسِدُ مِنْهُمْ أيْضاً جَمَاعَةً بمَا يَرَوْنَ مِنْ حَلاَوَةِ كَلاَمِهِ وَطَلاَقَةِ لِسَانِهِ، وَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَتَسْتَمِعُ إلَى حُسْنِ حَدِيثِهِ، ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّكُمْ بهِمْ فَيُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَيَقْتُلَ أشْرَافَكُمْ. فَقَالُوا: صَدَقَ واللهِ الشَّيْخُ.

فَتَكَلَّمَ أبو جَهْلٍ فقَالَ: أرَى أنْ تَجْتَمِعَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَأْخُذُونَ السُّيُوفَ، فَيَضْرِبُونَهُ جَمِيعاً ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإذا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلاَ يَدْرِي قَوْمُهُ مَنْ يَأْخُذُونَ وَلاَ يَقُومُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، وَإنَّمَا إذا رَأوا ذلِكَ قَبلُوا الدِّيَةَ، فَتُؤَدِّي قُرَيْشُ دِيَتَهُ وَاسْتَرَحْنَا. فَقَالَ إبْلِيسُ: صَدَقَ واللهِ الشَّابُّ، وَهُوَ أجْوَدُكُمْ رَأياً، الْقَوْلُ قَوْلُهُ لاَ أرَى غَيْرَهُ. فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذلِكَ.

فَنَزَلَ جِبرِيلُ عليه السلام فَأخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بذلِكَ، وَأمَرَهُ أنْ لاَ يَبيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبيتُ فِيهِ، وَأمَرَهُ بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ)[2] وَكَانَ مِنْ أمْرِ الْغَارِ مَا كَانَ، فذلك قوله (وَإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبتُوكَ) أي لِيَحبسُوكَ، وهو ما قالَهُ عمرُو بن هشام. ويقالُ: معنى (لِيُثْبتُوكَ) أي يَعْتَدُوكَ أو يُخرجوك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ يَقْتُلُوكَ) ظاهرٌ، وهو ما قالَهُ أبو جهلٍ، وقوله: (أوْ يُخْرِجُوكَ) أي مِن بين أظْهُرهم إلى غيرِهم، وهو ما قاله أبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾؛ أي يُريدون بكَ الشرَّ والهلاكَ، (وَيَمْكُرُ اللهُ) أي يُريد قتْلَهم ببدرٍ مجازاةً لهم على فعلِهم وسُوءِ صُنعِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي أفضلُ الصَّانِعين وأقوَى المدبرين؛ لأنه لا يمكرُ إلا بحقٍّ وصوابٍ، ومكرُهم باطلٌ وظلم.

---

(١) أبو البختري: هو العاص بن هشام أو ابن هاشم، كما في السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٢٨٣ و٣١٥ و٣٧٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٩٢) من طريق مجاهد عن ابن عباس، وزاذان مولى أم هانئ عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ يعني النَّضرَ بن الحارثِ، وذلك أنه كان يختلفُ تاجِراً إلى فارسَ والحِيرَةِ، فيسمعُ سَجْعَ أهلِها وذِكرَهم أخبارَ العَجَمِ وغيرِهم من الأمَم، ويَمُرُّ باليهود والنَّصارى فيراهُم يقرأون التوراةَ والإنجيلَ، فجاءَ مكَّةَ فوجدَ مُحَمَّداً يقرأ القرآنَ، فقالَ: (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذا إنْ هَـذا إلاَّ أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) أي أخبارُ الأُمَم الماضيةِ وأسماؤُهم. وكان النضرُ يقول: إن هذا الذي يحدِّثُكم به مُحَمَّد ما هو إلا مثلُ ما أحدِّثُكم به من أحاديثِ الأوَّلين، وكان النضرُ كثيرَ الحديث عن الأمم الخاليةِ[١].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ نزلَتْ في النَّضرِ بن الحارثِ أيضاً، قال: لو شئتُ لقُلْتُ مثلَ هذا، إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين في كُتبهم، ثم قال: اللَّهُمَّ إن كان هذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ هو الحقُّ من عندِكَ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السَّماء، كما أمطرْتَها على قومِ لُوطٍ، أو ائتِنا ببعضِ ما عذبتَ به الأُمَمَ فيه، فنَزَلَ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بعَذابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرينَ﴾[٢] وكان النضرُ من بني عبدِ الدَّار[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٠٢) عن ابن جريج، وتمامه في الأثر (١٢٤٠٣) عن السدي، و(١٢٤٠٤) عن سعيد بن جبير. (٢) المعارج / ١-٢.

(٣) حين تهيمنُ أجواء مشاعر العداءِ والحسد والبُغض على عقلِ الإنسان تجعل منه قطعةً من الجهل، بحيث لا يتفكَّر على سواء، وإلا فإن الإنصافَ يقتضي أن يطالِبَ المرءُ بالحجة والبرهان، ويخاصِمَ بالحجة والبرهان حتى يتأتى الرُّجحان، هذا في الظنون. أما في الأمور المحكمات فما عليه إلا الإجابةُ لمطالبها حالَ السماع وإيضاح أمرها.

في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال القرطبي: ((حُكي أنَّ ابنَ عباس لقيَهُ رجلٌ من اليهودِ؛ فقال اليهوديُّ: مِمَّن أنتَ؟ قال: مِن قُريش. فقال: أنتَ من القومِ الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...﴾ الآية. فهلاَّ عليهم أنْ يقولوا: إنْ كان هذا هو الحقُّ من عندك فاهدِنا له! إنَّ هؤلاء قومٌ يجهلون. قال ابنُ عباس: وأنتَ يا إسرائيلي، مِن القومِ الذين لم تجفَّ أرجلُهم من بَلَلِ البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنا إلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ فقالَ لهم موسى: ﴿إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأطرقَ اليهوديُّ مُفحَماً)).

فمثل هذا يسخرُ لا ليتَّعِظَ، بل ليهزأ، فكان جوابهُ على ما يستحقُّ فبُكِتَ.

ومعنى الآيةِ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذا قالُوا: اللَّهُمَّ... وأنتَ بين أظهُرِهم بمكَّة، فلم يُعذِّبْهم اللهُ حينئذٍ وعَذبَهم من بعدُ، فأُسِرَ النضرُ يومَ بدرٍ وقُتِلَ صَبراً، وكان الذي أسَرَهُ المقدادُ بن الأسودِ. وقولهُ تعالَى: (هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ) عناداً وتوكيداً وصِلَةً في الكلامِ، و(الْحَقَّ) نُصِبَ بخبرِ كان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (قَالَ الْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نوفَل: يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ إنَّكَ فِينَا لَصَادِقٌ وَلاَ نَتَّهِمُكَ، وَلَكِنَّا مَتَى نُؤْمِنُ بكَ غَزَانَا الْعَرَبُ، فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأنْتَ فِيهِمْ)) أي مُقيماً بين أظهُرِهم، ولَم تُعذبْ أمَّة قط ونبيُّها بين أظهُرِها حتى يخرجَ منها. (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ) أي وما كان اللهُ لِيُسَلِّطَ عليهم عدُوَّهم (وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) أي يُصَلُّونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ؛ يعني عذابَ الآخرةِ، وعن عبدِالرحمن بن أبزي قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمَكَّةَ، فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأنْتَ فِيهِم) فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةٌ بمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، وَكَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ وَيُصَلُّونَ، فَلَمَّا خَرَجَ كُفَّارُ مَكَّةَ إلَى حَرْب بَدْرٍ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ: (وَمَا لَهُمْ ألاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أيْ يَمْنَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ فَعَذبَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ ؛ أي ما كان الكفَّارُ أولياءَ المسجدِ الحرام، قال الحسنُ: (وَذلِكَ أنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أوْلِيَاءُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَرَدَّ اللهُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ). وَقِيْلَ: معناهُ: وما كانوا أولياءَ اللهِ. وقولهُ تعالَى: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ أي مَا أولياءُ اللهِ، وَقِيْلَ: ما أولياءُ المسجدِ الحرام إلا المتَّقونَ الشِّركَ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ ؛ الكفار، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، ذلكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤١٢) مختصراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ يعني: إنَّ تقرُّبَ المشركين إلى اللهِ كان بالصَّفِيرِ والتَّصفيق، كـانوا يفعَلـون ذلـكَ عنـدَ البيتِ مكانَ الدُّعاءِ والتَّسبيحِ. وَقِيْلَ: كَانُوا يأْتُون بأفعالِ الصَّلاة، إلاَّ أنَّـهم مع ذلـكَ يُصَفِّرُونَ فيها ويُصَفِّقونَ.

وَالْمُكَاءُ: طائرٌ أبيض يكون في الحجاز يُصَفِّرُ يسمَّى باسم بصوته، ويقالُ: مَكَـا يَمْكُو إذا صَفَّرَ. وصَدَى تَصْدِيَةً إذا صَفَّقَ بيدِهِ.

وقال مقاتلُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار عَـنْ يَمِينِهِ وَرَجُلاَنِ عَنْ يَسَارِهِ، فَيُصَفِّرُونَ كَمَا يُصَفِّرُ الْمُكَاءُ، وَيُصَفِّقُونَ بأَيْدِيهِمْ؛ لِيَخْلِطُـواْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ صَلاَتَهُ وَقِرَاءَتَهُ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ كَذلِكَ بصَلاَةِ مَنْ آمَنَ بـهِ، فَقَتَلَـهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ ويقالُ: أرادَ بهذا أنه يُقال لهم يومَ القيامةِ: (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ). وقـال أبُو جعفر: (سَأَلْتُ أبَا سَلَمَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) فَجَمَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ نَفَـخَ فِيهِمَا صَفِيراً)(١). وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَتْ قُرَيْشُ يَطُوفُـونَ بـالْبَيْتِ عُـرَاةً، وَيُدْخِلُـونَ أصَابعَهُمْ فِي أفْوَاهِهِمْ فَيُصَفِّرُونَ)(٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾؛ نزلـت هـذه الآيــةُ في الْمُطْعِمِينَ منهم يومَ بدرٍ، وكانوا ثلاثةَ عشرَ رجُلاً وهم: أبُو جَـهلٍ وأخـوهُ الحـارثُ؛ والنَّضرُ بن الحارثِ؛ وأُبَيُّ بن خلَفٍ؛ وزَمْعَةُ بنُ الأسـودِ؛ وعُتبـة وشَيبَةُ، كـان لكـلِّ واحدٍ منهم نوبَةُ يومٍ في الإطعامِ.

ومعنى الآيةِ:إنَّ الذيـن كفـرُوا يُنفِقُـونَ أموالَـهم علـى عـدَاوَةِ رسـولِ الله ﷺ لِيَصُدُّوا الناسَ عن دِين اللهِ، فيستقبحُ هذه الإنفاق منـهم، ثـم يكـون إنفاقُـهم ندامـةً عليهم يومَ القيامة، يُهزَمُونَ ويُقتلون ببدرٍ لا تنفعُهم نفقتهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٤٣)، وأدرج فيه: تفسير مجاهد في الأثر (١٢٤٤٥)، وتفسير سعيد بن جبير في الأثر (١٢٤٤٦).

والْحَسْرَةُ: مأخوذةٌ من الكَشْفِ، يقالُ: حَسَرَ رَأسَهُ إذا كَشَفَهُ، والْحَاسِرُ: كاشِفُ الرَّأسِ، فيكونُ المعنى: ثم يَكْشِفُ لهم عن ذلكَ ما يكونُ حَسْرَةً عليهم. قِيلَ: كان يُطعِمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عشْرَ جُزُر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ ﴾ ؛ بيانُ أنَّ ذلك القتلَ والهزيمةَ لا يُكفِّران ذُنوبَهم، وأنَّهم يُحشرون في الآخرةِ إلى جهنَّم للجزاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ ؛ أي لِيَميزَ اللهُ نفقةَ المؤمنين من نفقةِ الكافرين، والعملَ السَّيِّءَ من العملِ الصَّالحِ. وقُرئ (لِيُمَيِّزَ اللهُ) بالتشديد، والمعنى: لِيُمَيِّزَ اللهُ ذلك الحشرَ الخبيثَ من الطيِّب؛ أي الكافرَ من المؤمنِ، فيُنْزِلَ الْمُحِقَّ الجنانَ والكافرَ النِّيران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ ﴾ ؛ أي يجعلَ ما أنفقَهُ المشركون في معصيةِ الله بعضَهُ فوقَ بعضٍ، فيجعلهُ رُكاماً فيُكَوَّي بذلك جِباهُهم وجنُوبُهم في جهنَّم.

وَقِيلَ: أرادَ بقولهِ (فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً) طَرْحَ بعضهِ على بعضٍ، كما يفعلُ بالمتاعِ الخفيف تحقيراً له. وَقِيلَ: معنى (فَيَرْكُمَهُ) أي يجمَعهُ حتى يصيرَ كالسَّحاب الْمَرْكُومِ وهو المجتمعُ الكثيفُ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧ ﴾ ؛ أي هم الذين خَسِرُوا أنفُسَهم في الدُّنيا والآخرةِ، وغُشَّتْ صفقتُهم وخَسِرَتْ تجارَتُهم؛ لأنَّهم اشتَرَوا بأموالِهم عذابَ اللهِ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ ؛ أي قُل لأبي سُفيان وأصحابهِ إنْ ينتَهُوا عن الشِّرك وقتال مُحَمَّدٍ ﷺ (يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) أي ما قد مَضَى من ذُنوبهم قبلَ الإسلام، ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ ؛ لقتال مُحَمَّدٍ، ﴿ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ ﴾ ، في نصرِ الأنبياء والأولياءِ وهَلاكِ الكفَّار، وإنَّ للكفار النارَ في الآخرة. وأنشدَ بعضُهم[1]:

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠١؛ قال القرطبي: ((هو أبو سعيد أحمد بن محمَّد الزبيري)).

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إذا اعْتَرَفْ ثُمَّ انْتَهَى عَمَّا أَتَاهُ وَاقْتَرَفْ

لقولهِ (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي قاتِلوا كفَّارَ مكَّة حتى لا يكون شِرْكٌ. وَقِيْلَ: حتى لا يكون كافِرٌ بغير عهدٍ؛ لأن الْفِتْنَةَ إنما تكون بأَنْ يُتْرَكَ الْكُفَّارُ بلاَ عَهْدٍ، فَإِنَّ الْكَافِرَ بغَيْرِ عَهْدٍ يَكُونُ عَزِيزاً فِي نَفْسِهِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِهِ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالفتنةِ كلُّ ما يؤدِّي إلى الفسادِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي وتكون الطاعةُ كلُّها للهِ، فتجتمع الناسُ على دِينِ الإسلامِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي فإن انتهَوا عن الشِّركِ فإنَّ اللهَ يجازيهم جزاءَ البصيرِ بأعمالِهم. ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ ؛ أي أعرَضُوا عن طاعةِ الله، ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي ناصِرُكم، ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ ؛ نِعْمَ الحافظِ والوَلِيِّ، ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ مُنصِرُكم عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ حتى الْخَيْطَ وَالْمَخيطَ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ خُمُسُ الْغَنِيمَةِ يُقْسَمُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى خَمْسَةِ أسْهُمٍ، سَهْمٌ للهِ وَرَسُولِهِ، وَوَاحِدٌ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي فِيْهِ الْمُحْتَاجَ وَالضَّعِيفَ وَيَجْعَلُهُ فِي عِدَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ السِّلاَحِ وَنَحْوِهِ، وَسَهْمٌ لِذوي قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَهْمٌ لِيَتَامَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَسَهْمٌ لِمَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَهْمٌ لاِبْنِ السَّبِيلِ. ثُمَّ قَسَمَهُ أبُو بَكْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَلَى ثَلاَثَةِ أسْهُمٍ لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَكَذلِكَ فَعَلَ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)[1].

وبهذا أخذ أبو حَنيفة وأصحابُهُ؛ قالوا: إنَّ قولَهُ تعالى (للهِ خُمُسَهُ) لافتتاحِ الكلامِ باسمه تعالى على طريقِ التبرُّك، لا لأنَّ للهِ نصيباً من الْخُمُسِ، فإنَّ الدُّنيا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٩٦) عن ابن عباس مختصراً، وتمامه كما في الأثر (١٢٤٩٢) عن قتادة، والأثر (١٢٤٩٤) عن عطاء، والأثر (١٢٤٩٥) عن أبي العالية الرياحي.

والآخرة كلُّها لهُ سُبحانه، وسـهمُ رسـول الله ﷺ سَقَطَ بموتـهِ؛ لأن الأنبياءَ عليـهمُ السَّلام لا يُورَثُونَ، وبينَهم ذوي القراباتِ كان جعل النبيِّ ﷺ سـهمَهُ[١] في مَـن شـاءَ منهم، ألاَ ترى أنه أعطَى بني هاشم وبنِي المطَّلب، وأحرمَ بني نوفلَ وبـني عبدِ شمس مع مساواتِها بني عبدِ المطَّلـب في القُـرْب؛ لأن بـني هاشـم لم يفـارقوهُ في جاهليَّـة ولا إسلامٍ، وإذا بَطَلَ هذان السَّهمان بعدَ رسول الله ﷺ، ورَجَعْنا إلى السِّهام الثلاثةِ الـتي ذُكرت معَهُما، فقُسِّمَ الخمُسُ على ثلاثةِ أسهُم، ويدخلُ في استحقاقهِ فقراءُ بني هاشم دونَ أغنيائِهم بدلاً عمَّا حُرِمُوا من الصَّدقات، وأربعةُ أخماسِ الغَنيمة للغَانِمين[٢].

واليَتِيمُ من كلِّ جنسٍ من الحيوان الذي ماتَتْ أمُّهُ، إلا من بَني آدمَ فإنه إذا ماتَ أبوهُ. والمسكينُ الذي أسْكَنَهُ الضعفُ عن النُّهوضِ لحاجتهِ. وابنُ السَّبيلِ المنقطـعُ عـن مالهِ.

وقال بعضُهم: يُقسَمُ الخمُس الآنَ على أربعةِ أسهُم، فينفردُ سـهم قرابـةِ النـبيِّ ﷺ، وقال الشافعيُّ: (يُقْسَمُ الْخُمُسُ الآنَ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُم، سَـهْمٌ لِرَسُـول اللهِ ﷺ يُصْرَفُ إلَى الأَهَمِّ فَالأَهَمِّ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ)، ومِن أصحابهِ مَن قالَ: يصرفُ إلى الخليفةِ، وسهمُ قرابـةِ ذوي النـبيِّ ﷺ لأغنيائِـهم وفُقَرائِـهم، وثلاثـةُ أسـهُمٍ لليتـامَى والمساكين وابنِ السَّبيل.

---

(١) في المخطوط: (لبضعة)، ولا تدل على المعنى المراد. والصحيح: سهمه.

(٢) في المسألة آراء: الأول: عن قتادة أنه سئل عن سهم ذي القربى؛ فقال: ((كَانَ طُعْمَةً لِرَسُـول اللهِ ﷺ مَا كَانَ حَيّاً، فَلَمَّا تُوُفِّيَ جُعِلَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٢٥٠٦).

والثاني: عن سعيد المقري قال: كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن ذي القربى، قـال: فكتـب إليه ابن عباس: ((كُنَّا نَقُولُ أنَّا هُمْ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَـا قَوْمُنَـا، قَـالُوا: قُرَيْـشٌ كُلُّـهَا ذَوُو قُرْبَـى)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٠٦).

والثالث: أن سهم الرسول ﷺ يبقى لبني هاشم وبني المطلب، لما جاء بأنهم خاصـة النـبي ﷺ من قريش، ولأنه ﷺقسم سهم ذوي القربى بـين بـني هاشـم وبـني المطلـب وقـال: [إنَّـهُمْ لَـمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ، إنَّمَـا بَنُـو هَاشِـمٍ وَبَنُـو الْمُطَّلِـبِ شَـيْءٌ وَاحِـدٌ] وشَـبَّكَ بَيْـنَ أصَابِعِهِ. وإسناده صحيح أخرجه النجـدي والنسـائي. والمسـألة خلافيـة والراجـح فيـها الـرأي الثالث، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ ؛ معناهُ: اقبَلُوا ما أُمِرتُم به في الغنيمةِ إن كنتُم صدَّقتُم بتوحيدِ اللهِ، وبما أنزَلنا على عبدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وقولهُ تعالى: (يَوْمَ الْفُرْقَان) أي يومَ بدرٍ فُرِّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ بنصرِ المؤمنين وكَبْتِ الكافرين مع ضَعفِ المسلمين وقِلَّتِهم. وقولهُ تعالى: (يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان) أي يومَ جَمْعِ الكافرين والمؤمنين، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ من نصرِ المؤمنين وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ أي اذكرُوا يا أصحابَ مُحَمَّدٍ إذ كُنتم بالعُدوَةِ الدُّنيا؛ أي شَفيرِ الوادِي الذي يَلِي المدينةَ، يقالُ لشَفيرِ الوادِي عَدْوَةٌ وعِدْوَةٌ، (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) يعني المشركينَ بالجانب الآخر من الوَادِي على شفيرِ الأبعدِ من المدينةِ، وهو الجانبُ الذي يَلِي مكَّة. وقوله تعالى (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أي والقافلةُ الْمُقبلَةُ من الشَّام التي كان أبو سُفيان فيها كانت أسفلَ منهم بثلاثةِ أميالٍ كانوا نازلين أسفلَ الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ جَمَعَكم مع المشركين وأصحاب العِيرِ في ليلةٍ واحدة بمَنْزِلٍ واحدٍ، ولو تَواعَدْتُم للاجتماعِ هناكَ لاختلَفْتُم في الميعادِ بالعوائقِ التي تعوقُ عن ذلك، وبأنَّكم لو كُنتم تعلمون كثرةَ عددِ المشركين وقلَّةَ عَدَدِكم لم تَحضُروا في ذلك المكان للقتال. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ؛ أي ولكن قَدَّرَ اللهُ اجتماعَكم في ذلك المكان ليَقْضِيَ الله أمْرًا كائناً لا محالةَ من إعزاز المسلمين وإعلائهِ ((الإسلام))(١) على سائرِ الأديان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ؛ أي ليَموتَ من ماتَ منهم بعد قيامِ الحجَّة عليهم، ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ؛ ويعيشَ من عاشَ بعد قيامِ الحجَّة عليهم، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ ؛ بمقالَتِكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ بضمائرِكم، يُجازيكم على قدر أعمالِكم.

---

(١) سقطت من المخطوط؛ والسياق يقتضي ذكر الإسلام؛ وسوف يأتي على ذكره في تفسير الآية (٤٤).

قرأ أهلُ مكَّة والبصرة (بالْعِدْوَةِ) بكسر العين، وقرأ الباقون بضمِّها وهما لُغتان مشهورتان كالكِسْوَة والكُسْوَة والرِّشْوَة والرُّشْوَةِ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ حَيَّ عَـنْ بَيِّنَةٍ) قرأ نافعُ والبزي وخلَفٌ (حَيِيَ) بيائين مثل (حَيِيَ) على الأصل[(١)]، وقرأ الباقون بياءٍ واحدة مشدَّدة على الإدغام، ومعنى (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ) أي لِيَمُـوتَ مَـن ماتَ عن بيِّنة رآها وعبرةٍ عاينَها، أو حجَّة قامت عليه، وكذلكَ حَيوةُ من يحيَى لوعدهِ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[(٢)].

قَوْلُهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ ؛ قال ابـنُ عبَّـاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأى الْعَدُوَّ قَلِيلاً فِي الْمَنَام، فَقَـصَّ رُؤْيَـاهُ عَلَـى أصْحَابـِهِ، فَلَمَّـا الْتَقَـواْ ببَـدْرٍ قَلَّـلَ اللهُ الْمُشْـرِكِينَ فِـي أعْيُـنِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْدِيقاً لِرُؤْيَـا النَّـبيِّ ﷺ)، ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ ؛ أي لَجَبنتُمْ وتأخَّرتُم عن الصَّـفِّ ولاختَلَفتُـم في أمر الحرب، والفَشَلُ هو ضَعْفٌ مع الوَجَلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ التَّنَازُعُ أنْ يحاولَ كلُّ واحدٍ من الاثنين أن يَنْزِعَ صاحبَهُ مما هو عليـه، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ ؛ أي سلَّمكم من ذلك، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي بمـا في قُلوبكم، عَلِمَ أنَّكم لو عَلِمتُم كثرةَ عددِ المشركين لرَغِبتم عن القتال.

قولُـهُ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ الله تعالى قلَّلَ المشركين في أعيُنِ المسلمين ليتجرَّأ المسلمون على قتالِهم، وقلَّلَ المسلمين في أعيُنِ المشركين كَيلاَ يَستَعِدَّ المشركون لِحَربهم كلَّ الاستعدادِ.

رُوي عن عبدِالله بن مسعود أنهُ قال: (قُلْتُ لِرَجُلٍ بجَنْبي: أتُرَاهُمْ تَسْعِينَ رَجُلاً؟ قَالَ: هُمْ قَرِيبٌ مِنَ الْمِائَةِ، فَلَمَّا أسَرْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ سَألْنَاهُ عَنْ عَدَدِهِمْ، قَالَ: كُنَّا أَلْفاً أوْ تِسعُمِائَةٍ وَخَمْسِينَ)[(٣)].

---

(١) في المخطوط: رسم الناسخ: (سائر مثل حسي على الأصـل) وهـو تصحيـف، والصحيـح كمـا أثبتنـاه. وضبطـت القـراءة كمـا في كتـاب الحجـة للقـراءات السـبعة للفارسـي: ج ٢ ص٢٩٣، والجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٢.

(٢) الإسراء / ١٥ .

(٣) عند الطبري والقرطبي وفي الدر المنثور: ((سـبعين)). أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٢٥٣٩).

وقولهُ تعالى: (لِيَقْضِيَ اللهُ أمْراً كَانَ مَفْعُولاً) قد تقدَّم تفسيرهُ، والفائدةُ في إعادتهِ أنَّ المرادَ بالأوَّل إعلاءُ الإسلامِ على سائرِ الأديان، وبالثاني قتلُ المشركين وأسرُهم يومَ بدر وكلاهما كان كائناً في علمِ الله.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي إذا لقِيتُم جماعةً من الكفَّار فاثبتُوا لقتالِهم، واذكرُوا اللهَ كثيراً في الحرب بالدُّعاء والاستغفار؛ لكي تُفلِحُوا بالظَّفرِ على الأعداءِ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في الثَّباتِ على القتال ولا تختلفُوا فيما بينكم في لقاءِ العدوِّ والتقدُّم إلى قتالِهم فتَجبُنُوا من عدوِّكم، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (يَعْنِي رِيحَ النَّصْرِ)[٢] الَّتِي يَبْعَثُهَا اللهُ مَعَ مَنْ يَنْصُرُهُ كَمَا قَالَ الْعَلِيُّلاً: [نُصِرْتُ بالصَّبَا][٣].

وَقِيْلَ: معناهُ: وتذهبَ دولَتُكم وقوَّتُكم[٤]، وقال مجاهد: (وَتَذْهَبَ نُصْرَتُكُمْ)[٥]، وقال السديُّ: (جُرْأتُكُمْ وَحِدَّتُكُمْ وَجَلَدُكُمْ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي اصبرُوا على قتالِ المشركين ولا تولُّوهم الأدبارَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، بالنصرِ والمعونة.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٣؛ قال القرطبي: ((فإن القلبَ لا يسكنُ عند اللقاء ويضطربُ اللسان؛ فأمَرَ بالذكر حتى يثبتَ القلبُ على اليقين، ويثبتَ اللسانُ على الذِّكر، ويقولُ ما قاله أصحابُ طالوتَ: ﴿رَبَّنَا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذه الحالةُ لا تكون إلا عن قوَّة المعرفةِ، واتِّقاد البصيرةِ، وهي الشجاعةُ المحمودة في النَّاسِ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٤٧) بلفظ: ((ريح الحرب)). وعن ابن زيد في الأثر (١٢٥٤٨)؛ قال: ((الريح: النصر)).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب الاستسقاء: باب قول النبي ﷺ[نُصِرْتُ بالصَّبَا]: الحديث (١٠٣٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الاستسقاء: الحديث (١٧/ ٩٠٠).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل من قول النضر بن شميل والأخفش.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي قاتلُوا لوجهِ الله ولا تكونُوا في خروجِكم إلى قتالِ المشركين كالْمُشركين الذين خرَجُوا من ديارهم إلى قتال المسلمين بَطَراً وهو الطُّغيان في النِّعمة ورياءِ الناس، والرِّياءُ: هو إظهارُ الجميلِ مع إبطَان القبيحِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي هُم مع بَطَرِهم وريائِهم يَمنَعُونَ الناسَ عن دينِ الله.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لأَبي جَهْلٍ وَأصْحَابهِ قَبْلَ وُصُولِهِمْ إلَى بَدْرٍ: ارْجِعُوا إلَى مَكَّةَ فَقَدْ نَجتِ الْعِيرُ، قَالُوا: لاَ حَتَّى تُنْحَرَ الْجَزُورُ وَتُشْرَبَ الْخُمُورُ وَتُغَنِّي الْقَيْنَاتُ، حَتَّى تَسْمَعَ الْعَرَبُ بمَسِيرِنَا. فَنَزَلُوا ببَدْرٍ وَمَعَهُمُ الْقَيْنَاتُ بالدُّفُوفِ وَيَتَغَنَّيْنَ بهجَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَقَاهُمْ كَأْسَ الْمَنَايَا مَكَانَ الْخُمُور، وَنَاحَتْ عَلَيهِمُ النَّوَائِحُ مَكَانَ الْقَيْنَاتِ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ، وَأمَرَهُمْ بإخْلاَصِ النِّيَّةِ وَالصَّبْرِ فِي نَصْرِ دِينِهِ وَمُؤَازَرَةِ نَبيِّهِ ﷺ)[1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي واذكرُوا إذ زَيَّنَ لَهم الشيطانُ أعمالَهم يومَ بدر، وقالَ: لاَ غَالِبَ لكم اليومَ مِن أحدٍ من الناس فمنَعْتُكم وكثَّرْتُكم وإنِّي دافعٌ عنكم الشرَّ، ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ؛ أي لَمَّا توافقَتا رجعَ الشيطانُ القَهْقَرَى على عَقِبَيهِ هَارباً خَوفاً مما رأى، ﴿ وَقَالَ﴾ ؛ للمشركين: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا﴾ ؛ أي الملائكةَ تَنْزِلُ من السَّماء وأنتم، ﴿ لَا تَرَوْنَ﴾ ؛ وكان يعرفُ الملائكةَ ويعرفونَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ ؛ أي أخافهُ أنْ يُصيبَني معَكم بعذابهِ، ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ، قال مقاتلُ: (كَذبَ عَدُوُّ اللهِ، مَا كَانَ بهِ مِنْ خَوْفٍ مِنَ اللهِ، فَإنَّ اللهَ قَدْ أنْظَرَهُ إلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وَلَكِنَّهُ خَذلَهُمْ عِنْدَ الشِّدَّةِ). ويقالُ: ظَنَّ إبليسُ أن الوقتَ الذي أنظرَهُ اللهُ قد حضرَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٥١).

وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا وَجَدُوا الْعِيرَ أرَادُوا الرُّجُوعَ، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جعْنَمٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ: لاَ تَرْجِعُوا حَتَّى تَسْتَأْصِلُوهُمْ، فَإنَّكُمْ كَثِيرٌ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَلاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإنِّي مُعِينٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَلاَ تَمُرُّونَ بأحَدٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ إلاَّ سَارَ مَعَكُمْ، فَإنَّهُمْ لاَ يُخَالِفُونَنِي.

فَسَارُوا وَسَارَ إبْلِيسُ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ أحَدٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا سُرَاقَةُ أيْنَ مَا ضَمَمْتَ لَنَا؟ فَيَقُولُ: مُرُونِي، حَتَّى قَدِمُوا بَدْراً، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْقِتَالِ رَأى إبْلِيسُ جِبْرِيلَ فَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ رَاجِعاً، وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: يَا سُرَاقَةُ أيْنَ تَذْهَبُ؟ فَقَالَ: إنِّي أرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، فَقَالَ الْحَارِثُ: وَمَا تَرَى إلاَّ جَعَاشِيشَ أهْلَ يَثْرِبَ؟- وَالْجُعْشُوشُ: الرَّجُلُ الْقَصِيرُ - فَلَمَّا رَأى الْحَارِثُ إبْلِيسَ يَنْطَلِقُ، أهْوَى بِهِ لِيَأْخُذَهُ، فَدَفَعَهُ إبْلِيسُ فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقَالَ: - إني - أخَافُ اللهَ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ[1].

فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ جَعَلُوا يَقُولُونَ: هَزَمَ النَّاسَ سُرَاقَةُ، فَبَلَغَ ذلِكَ سُرَاقَةَ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: بَلَغَنِي أنَّكُمْ تَقُولُونَ أنِّي هَزَمْتُ النَّاسَ! وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ مَا بَلَغَنِي مَا تَقُولُونَ وَلاَ سَمِعْتُ بِمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغَنِي هَزِيْمَتُكُمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ لَهُ: أمَا أتَيْتَنَا يَوْمَ كَذا وَكَذا ؟ وَهُوَ يَقُولُ: لاَ؛ وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ مَا كَانَ مِنْ ذا قَلِيلٍ وَلاَ كَثِيرٍ. فَلَمَّا أسْلَمُوا عَرَفُوا أنَّهُ إنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ).

فإنْ قِيْلَ: كيف يجوزُ أن يتمكَّن إبليسُ مِن أن يَخلعَ صورةَ نفسهِ ويلبسَ صورةَ سُراقة؟ ولو كان قادِراً على أن يجعلَ نفسَهُ صورةَ إنسانٍ كان قادراً على أن يجعلَ غيرَهُ إنسَاناً؟ قِيْلَ: إذا صَحَّتْ هذه الروايةُ، فالجوابُ: أن اللهَ خَلَقَ إبليسَ في صُورةِ سُراقة، واللهُ تعالى قادرٌ على خلقِ إنسانٍ في مثلِ صورة سُراقة ابتداءً، فكان قادراً على أن يُصوِّر إبليسَ في مثل صورةِ سُراقة.

---

(١) مجمل ما أسنده الطبري في جامع البيان: الأثر(١٢٥٦٢) عن ابن عباس، و(١٢٥٦٣) عن السدي، و(١٢٥٦٤) عن عروة بن الزبير، و(١٢٥٦٦) عن قتادة، و(١٢٥٧٠) عن الحسن.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ: (الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُمُ الْمُشْرِكُونَ). وَقِيلَ: هم أناسٌ كانوا قد تكلَّموا بكلمةِ الإيمان حين كان النبيُّ ﷺ بمكَّة من دون علمٍ منهم بأمر رسول اللهِ ﷺ فيكون معنى قولِهِ: (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شَكٌّ، وهم الذين لا عزيمةَ لَهم في الكُفرِ ولا في الإسلامِ، ولم يكونوا أعداءَ النبيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ) قال ابنُ عباس: (لَمَّا نَفَرَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَدْرٍ وَلَمْ يُخْلِفُوا بِمَكَّةَ أَحَداً قَدِ احْتَلَمَ إلاَّ خَرَجُوا بِهِ، وَأخْرَجُوا مَعَهُمْ أنَاساً كَانُوا قَدْ تَكَلَّمُوا بالإسْلاَمِ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا الْتَقَوا وَرَأوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ، ارْتَابُوا وَنَافَقُوا وَقَالُوا لأَهْلِ مَكَّةَ: غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ، يَعْنُونَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّهُمْ دِينُهُمْ حِينَ خَرَجُوا مَعَ قِلَّتِهِمْ إلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ). فَقُتِلَ هَؤُلاَءِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأدْبَارَهُمْ، كَمَا ذكَرَ اللهُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي ومَن يثِقْ باللهِ في جميعِ أمُورِهِ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ بنصرهِ على عدوِّهِ ولو كثُرَ عددهُ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ يضعُ الأمورَ مواضعَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ ؛ أي لو ترَى يا مُحَمَّدُ حين يَقبضُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّار ببَدْرٍ يضربُون على وجُوهِهم بالأعمِدَةِ، وعلى أدبارهم يقولون لَهم: ﴿ وَذُوقُوا ﴾ ؛ بعدَ السَّيفِ في الدُّنيا، ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ؛ أي ذلكَ العذابُ الذي عَايَنْتُمُوهُ بكُفركم وخيانَتِكم، والخيانةُ إذا أضيفَت إلى الإنسان أكِّدت بذكر اليَدِ في العادةِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي اعلَمُوا أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ أحداً بجُرمِ أحَدٍ، ولا يعذِّبُ أحداً بغير ذنبٍ. وموضع (أنَّ) نصبٌ بنَزعِ الخافضِ عَطفاً على قولِهِ (بِمَا قَدَّمَتْ) تقديرهُ: وبأنَّ اللهَ، وكان الحسنُ إذا قرأ هذه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ج ٥ ص١٧١٦: الأثر (٩١٦٨).

السُّورة قال: (طُوبَى لِجَيْشٍ قَائِدُهُمْ رَسُولُ اللهِ، وَمُبَارِزُهُمْ أَسَدُ اللهِ، وَجِهَادُهُمْ طَاعَةُ اللهِ، وَمَدَدُهُمْ مَلاَئِكَةُ اللهِ، وَثَوَابُهُمْ رِضْوَانُ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي عَادَةِ هؤلاءِ في كُفرهم، كعَادةِ آلِ فرعون والذين مِن قبلهم، ﴿ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ﴾ ، التي أتَتْهُمْ بها الرُّسُلُ، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ ؛ فعاقبَهم، ﴿ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ ﴾ ؛ في أخذِ الأعداء، ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥٢ ﴾ ؛ لِمَن عصاهُ.

والدَّأبُ في اللغة: الْعَادَةُ، يقالُ: فلانٌ يَدْأَبُ في كذا؛ أي يُدَاومُ عليه ويُتعِبُ نفسَهُ فيه. وآلُ الرَّجُلِ: الذين يَرجِعُونَ إليه بأوْكَدِ الأسبَاب، ولهذا يقالُ لقرابةِ الرجُلِ: آلُ الرَّجُلِ ولا يقالُ لأصحابهِ: آلُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَدَأْب آل فِرْعَوْنَ) قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ كَفِعْلِ آل فِرْعَوْنَ)، وقال عطاء ومجاهدُ: (كَنِيَّتِهِمْ)، وَقِيْلَ: كَمِثَالِهِم، والمعنى: أنَّ أهلَ بدرٍ من المشركين فَعَلُوا كفِعْلِ آلِ فرعون من الكُفر والتكذيب، ففعلَ اللهُ بهم كما فعلَ بآلِ فرعون من الهلاكِ والعذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لم يفعلِ اللهُ ذلك العقابَ بهم بأنَّ الله لَم يَكُ مُزيلاً نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم في الدِّين والنِّعَم إلى أحوال لَم يَجُزْ لهم أن يغيِّروا إليها، كما فعلَ أهلُ مكَّة بعد أنْ أطعَمَهم اللهُ من جُوعٍ وآمَنَهُم من خوفٍ، وأرسلَ إليهم رَسُولاً منهم، وأنزلَ إليهم كِتَاباً بلسانِهم. ثم إنَّهم غيَّروا هذه النِّعَم ولم يَشكرُوها ولا عرفُوها من اللهِ، فغيَّرَ اللهُ ما بهم وأهلكَهم وعاقبَهم ببدر، ويُدخِلُهم النارَ في الآخرةِ.

قال الكلبيُّ: (يَعْنِي بالآيَةِ أهْلَ مَكَّةَ، بَعَثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّداً ﷺ، فَغَيَّرُوا نِعْمَةَ اللهِ، وَتَغْيِيرُهَا كُفْرُهَا وَتَرْكُ شُكْرِهَا)، وقال السديُّ: (نِعْمَةُ اللهِ يَعْنِي مُحَمَّداً، أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ فَكَذبُوهُ وَكَفَرُوا بِهِ، فَنَقَلَهُ اللهُ إلَى الأنْصَار)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ ﴾ ؛ أي سميعٌ لجميعِ المخلوقاتِ المسموعات، عليمٌ لمعاناتكم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ أي عادَتِهم في التكذيب بآياتِ اللهِ كعَادَةِ آل فرعون، ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأُمَمِ الماضيةِ، ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ التي جاءَتْ بها رُسُلهُم، ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ﴾ ؛ أي وأهلَكْنا، ﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ بالغرَق خاصَّة، ﴿ وَكُلٌّ ﴾ ؛ هؤلاءِ ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ لأنفسِهم، مُستحقِّين العقوبة بسُوءِ أعمالهم.

فإن قِيْلَ: لِمَ كرَّرَ آلَ فرعون ؟ قِيْلَ: المرادُ بالأوَّل أن هؤلاءِ جازَاهُم اللهُ بالقتلِ والأسْرِ، كما جُوزِيَ أولئكَ بالغرقِ والهلاك، والمرادُ بالثاني: أن صُنْعَ هؤلاءِ في النِّعَم التي أنعمَ اللهُ عليهم كصُنعِ آل فرعون فيما أعطاهم اللهُ من الْمُلْكِ والعزِّ في الدُّنيا، فلما غَيَّرَ كلُّ فريقٍ النعمَ غيَّر اللهُ سبحانه ما بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ أي إن شرَّ ما يدبُّ على الأرضِ الذين جَحَدُوا بتوحيدِ الله ونبوَّةِ رسُلهِ، مُصِرِّينَ على الكفرِ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ نزلَتْ في يَهودِ بني قُريظةَ، عاهَدَهم النبيُّ ﷺ على أنْ لا يضُرُّوا به ولا يُعِينُوا عليه عدُوّاً، فنَقَضُوا العهدَ وأعانوا أهلَ مكَّة بالسِّلاح على قتالِ النبيِّ ﷺ، ثم قالوا: نَسِينَا وأخطَأْنا، ثم عاهَدَهم مرَّة أخرى، فركِبَ كعبُ بن الأشرفِ إلى أهلِ مكَّة، وواثَقَهُمْ على حرب رسول الله ﷺ. وقولهُ تعالى: (عَاهَدْتَ مِنْهُمْ) أي معَهُم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يخافونَ اللهَ في نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فإما تصادِفهم في الحرب، فافْعَلْ بهم فِعْلاً من القتلِ والعُقوبَةِ والتَّنكيلِ تعرفُ بهم مَن ورائهم من أعدائِكَ. والتَّشْرِيدُ: التَّبْدِيدُ والتَّفْرِيقُ، ويقالُ: معنى (شَرِّدْ بهِمْ) أي اسْمِعْ بهِمْ بلُغَةِ قُريش.

وقال ابنُ عبَّاس: (فَشَرِّدْ بهِمْ؛ أيْ نَكِّلْ بهمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ)[١]، وقال ابـنُ جُبـير: (أَنْذِرْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ)[٢]. وَقِيْلَ: اقتُلْهُم قَتْلاً، وَقِيْلَ: أَثْخِنْ فيهِمُ القتلَ حتـى يخافَكَ غيرُهم من أهلِ مكَّة وأهلِ اليَمَن. وقـال القُتَيـبيُّ: (سَـمِّعْ بـهِمْ)، وقـرأ ابـنُ مسـعود (فَشَرِّذْ) بالذال المعجَّمة وهما واحـدٌ[٣]. وقـال قُطـرب: (التَّشْـرِيدُ بـالدَّال: التَّنْكِيـلُ، وَبالذال: التَّفْرِيقُ)[٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَعَلَّهُمْ يَذكَّـرُونَ) أي لكَـي يعتَـبروا فَـلا يَنقضُـوا العهدَ الذي بينَكَ وبينهم مخافةَ أن يحِلَّ بهم مثلَ ما حلَّ ببني قُريظة.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾؛ أي إذا خِفْتَ من قومٍ بينَكَ وبينَهم عهدٌ وخيانةٌ في ذلك العهدِ من غَدْرٍ بالمسلمين، أي عَلِمْتَ أنَّهم يفعلون ذلك بالمسلمين خِفْيَةً من غيرِ أن يظهرَ نقضُ العهدِ، فَانْبِذِ العــهدَ إليهم على سواءٍ منك ومنهم في العلمِ، ولا تبدَأهم بالقتالِ من قبلِ أن تُعلِمَهُم إعْلاَماً بَيِّناً بأنَّكَ نقضتَ العهدَ.

والمعنى: إمَّا تعلَمَنَّ يا مُحَمَّدُ من قومٍ مُعاهِدين لكَ نَكْـثَ عـهدٍ ونقـضَ عـهدٍ يظهرُ لك من آثار الغدر والخيانة كما ظهرَ لكَ من بني قُريظة والنَّضِـير، فَـانْبِذْ إليـهم؛ أي فَاطْرَحْ إليهم عهدَهم على سواءٍ؛ أي أخبرْهم وَأَعْلِمْهُمْ قبلَ حَربِـكَ إيـاهم أنَّـكَ فَسَخْتَ العهدَ بينَكَ وبينهم، حتى تصيرَ أنتَ وهـم علـى سـواءٍ في العلـمِ بـأنَّكَ لهـم محاربٌ، فيأخذُوا للحرب أهْبَتَهَا وَتَبْرَأ مــن الغـدر. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي لا يرضَى عملَ الذين يَخُونُونَ بالبَدْأَةِ بالقتالِ من غيرِ إعلامٍ بنقضِ العهد.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٩١).

(٣) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٥٤٧؛ قال: ((قـال شـهاب الديـن: وقـد تقـدم أن النَّقـطَ والشَّكل أمر حادث، أحدثه يحيى بن يعمر، فكيف يوجد ذلك في مصحف ابن مسعود؟!)).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣١؛ قال القرطبي: ((حكاه الثعلبي، وقال المهدوي: الذال لا وجه لها، إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف في اللغة (فشرِّذ).)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾؛ أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ أن مَن أفلتَ من الكفار من هذه الحرب قد سبقَ إلى الحياةِ. ويقالُ: لا تَحْسَبَنَّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أعداءَكَ من الكفار المشركين ربما يقولون لكَ بأنْ لا يُظفِرُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهم، بلِ اللهُ تعالى يُظهِرُكَ عليهم ويُظفِرُكَ.

وقرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وحفص بالياءِ على معنى لا تَظُنَّنَّ هؤلاءِ المشركين إنَّ من ماتَ منهم فقد فاتَ من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ اللهَ لا يبعثهُ يومَ القيامةِ ولا يعاقبهُ. وقرأ أهلُ الشام: (أنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ) بالفتحِ، وتكونُ (لاَ) صلةً تقديرهُ: ولا تحسبَنَّ الذين كفرُوا سبَقُوا أنَّهم لا يُعجِزُونَ؛ أي لا يَفُوتُونَ. وقيل معناهُ: لأَنَّهُمْ، وقرأ عامَّة القُرَّاء بالكسرِ على الابتداء[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾؛ أي أعِدُّوا للكفار ما استطعتُم من آلاتِ الحرب. وعن ابن عبَّاس وعقبة بن عامرٍ؛ قالَ: قَرأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: [ألاَ إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، ألاَ إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، لَهُوَ الْمُؤْمِنِ فِي الْخَلاَءِ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ][2]. وَمَاتَ عُقْبَةُ فَأَوْصَى بِتِسْعِينَ قَوْساً مَعَ كُلِّ قَوْسٍ سِهَامُهَا فِي سَبيلِ اللهِ، وَقَالَ عُقْبَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ الثَّلاَثَةَ سَهْمٌ وَاحِدٌ، صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالْمُهْدِي لَهُ، وَالرَّامِي بِهِ][3] وقالَ ﷺ: [كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إلاَّ رَمْيَةً بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ أهْلَهُ، فَإنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ][4].

---

(١) ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٢ ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) رواه المسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الرمي والحث عليه: الحديث (٢١٧/١٩١٧). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٥٩٩) مرسلاً، والحديث (١٦٠٠) موصولاً بأسانيد عديدة. وعند أبي داود في السنن: الحديث (٢٥١٤). والترمذي في الجامع: الحديث (٣٠٨٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٠: الحديث (٩٣٩). وفي مجمع الزوائد: ج٤ ص٣٢٩؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات)) وهو مخرج عند الترمذي في الجامع: الحديث (١٦٣٧). وابن ماجة في السنن: الحديث (٢٨١١).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٩٤١ و٩٤٢). والترمذي في الجامع: كتاب الجهاد: باب ما جاء في فضل الرمي: الحديث (١٦٣٧ ١٦٣٨) واللفظ له؛ وقال: حديث حسن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ارْتَبطُوا الخيلَ لَهم ولقتالِهم؛ أي أعِدُّوا لَهم ذلك لتخويفِ عدُوِّ اللهِ وعدُوِّكم (وَآخَرِينَ مِـنْ دُونِـهِمْ) أي مِـن دون كُفَّار العرب وأهلِ الكتاب (لاَ تَعْلَمُونَهُمْ) أي لا تَعرفُونَهُم. قال ابـنُ عبَّـاس: (يَعْنِـي كُفَّارَ الْجِنِّ)[١]، قالَ ﷺ: [لاَ يَقْرَبُ صَاحِبَ قَوْسٍ جِنِّيٌّ أبَداً]. ويقـالُ: إن الجـنَّ لا تدخلُ بيتاً فيه قوسٌ ولا سلاحٌ.

قال السديُّ: (أرَادَ بِهِ أهْلَ فَارسَ)[٢]، وقال الحسـنُ: (هُـمُ الْمُنَـافِقُونَ)، وقـال الضحَّاك: (هُمُ الشَّيَاطِينُ)، ولا يمتنعُ أن يكون الكلُّ مراداً بالآيةِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي ما تُنفقوا من شيءٍ في الجهادِ يوفَّ إليكم ثوابهُ، ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنقصُ شيءٌ من حقِّكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإنْ مالَتْ يـهودُ بني قريظةَ إلى الصُّلح فمِلْ إليهم وصالِحْهم، فكان هذا قبـلَ نُـزول بـراءة، ثـم نُسِخَ بقولهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[٣] وبقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِيـنَ لاَ يُؤْمِنُـونَ باللهِ﴾[٤].

والسِّلْمُ والسَّلْمُ بـالخفضِ والنصـب، وإنما قـال (فَـاجْنَحْ لَـهَا) لأن السَّـلم والْمُسَالَمَةَ بمعنى واحدٍ، فردَّ الكنايةَ إلى المعنى. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١٢٦٠٨)؛ قال الطبري: ((وقـال آخـرون: هـم قـوم مـن الجـن)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣٨؛ قال القرطبي: ((قال رسول الله ﷺ: [هُمُ الْجِنُّ] ثم قـال رسولُ الله ﷺ:[إنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يُخَبِّلُ أحَداً فِي دَارٍ فِيـهَا فَـرَسٌ عَتِيـقٌ]. وقـال: هـذا الحديـث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن الملكي عن أبيه عن جده عن رسـول الله ﷺ. وروي: [إنَّ الْجِنَّ لاَ تَقْرَبُ دَاراً فِيهَا فَرَسٌ، وَإنَّهَا تَنْفِرُ مِـنْ صَـهِيلِ الْخَيْـلِ])). وفي المطـالب العاليـة: ج ٣ ص٣٣٥-٣٣٦: الحديث (٣٦٣٠) كما حكـاه القرطبي. وفي مجمـع الزوائـد: ج٧ ص٢٧؛ قـال الهيثمي:((رواهُ الطبراني فيه مجاهيل)).

(٢) أخرجه الطبراني في جامع البيان: الأثر (١٢٦٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثـر (٩١١٠): ج ٥ ص١٧٢٤.

(٣) التوبة / ٥. (٤) التوبة / ٢٩.

أي ثِقْ باللهِ تعالى إنْ نَقَضُوا العهدَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ بمقالَتِكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ بما تفعلون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُرِدِ الذين يطلبُون منكَ الصُّلحَ أنْ يخدعُوكَ بإظهار الصُّلح لتَكُفَّ عنهم إلى أن يتَقَوَّوا بغيرِكَ، فإنَّ اللهَ كافيكَ في حربِهم وقتالِهم، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قَوَّاكَ يومَ بدرٍ بنصرهِ وقوَّاكَ بالمؤمنين، وهم الأوسُ والخزرجُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي جَمَعَهم على الْمَوَدَّةِ في الإيمان، وقولهُ تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي ما قَدَرْتَ على جمعِ قُلوبهم على الأُلْفَةِ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ ﴾ ؛ في سُلطانهِ لا يقدرُ أحدٌ أن يَغْلِبَهُ ويمنعَهُ عن مُرادهِ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ يضعُ الأمورَ في موضعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي كافِيكَ اللهُ، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ نزلَتْ في البيداء في غزوَةِ بدر. وقِيْلَ: لَمَّا أسلمَ عمرُ ﷺ نزلَ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(١).

وقال بعضُ المفسِّرين: موضعُ (مَنْ) خفضٌ عطفاً على الكافِ في قولهِ (حَسْبُكَ اللهُ) أي وحسبُ مَن اتَّبعَكَ. وقال بعضُهم: موضعهُ رفْعٌ عطفاً على اسمِ الله؛ أي حسبُكَ اللهُ ومَتبُوعُكَ مِن المؤمنين. قِيلَ: إن هذه الآيةَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ياأَيُّها النَّبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) نزلَتْ في البيداءِ في غزوةِ بدرٍ قبلَ القتال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ ؛ أي رَغِّبْهُمْ في القتال، والتَّحريضُ: الترغيبُ في الشيءِ بما يدعُو إليه نحوُ وعدِ الثواب على القتالِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر(٩١٣٥) عن سعيد بن جبير؛ قال: ((لَمَّا أسلمَ مع النبيِّ ﷺ ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً وستُّ نسوةٍ، ثم أسلمَ عُمر فنزلت الآيةُ))، قال: وروي عن سعيد بن المسيب نحو ذلك. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٨ ذكره الهيثمي عن ابن عباس وقال: ((رواه الطبراني وفيه إسحق بن بشرِ الكاهلي وهو كذابٌ)).

والتنفيلُ عليه، وقولـهُ تعـالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ هـذا وعـدٌ مـن اللهِ؛ أي يُقَوِّي واحداً من المسلمين المتَصبرين في الدِّين على عشرةٍ مـن الكفَّـار، ويقـوِّي مائـةً صابرةً محتسبة على ألفٍ من الكفَّار.

وقولهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ؛ أي ذلك النصـرُ مـن اللهِ لكم على الكفَّار وخُذلانُهم بأنَّكم تفقهونَ أمـرَ اللهِ وتصدِّقُونـه فيمـا وعـدَهُ مـن الثواب، والكفارُ لا يفقهون ذلك ولا يصدِّقونه.

قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَـى أنْ يُقَاتِلَ الرَّجُلُ مِنْهُمُ الْعَشْرَةَ مِنَ الْكُفَّار، وَالْمِائَةُ مِنْهُمُ الأَلْفَ مِـنَ الْكُفَّـار كَمَـا أمَـرَ اللهُ، فَلَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِ الْكُفَّار ببَدْرٍ وَكَانَ فَرْضَ الْقِتَالَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا ذكَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ، شَقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلَهُ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ؛ أي الآنَ هَـوَّنَ اللهُ عليكم القتالَ الذي فرضَهُ عليكم وسهَّلَ الأمرَ عليكم لتَعرفُوا فتشكُروا، وعَلِمَ في الأزَلِ أن في الواحدِ منكم ضَعْفاً عن قتال العشرةِ، والمائةِ عن قتال الألفِ)(١). وَقِيـلَ: عَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً في النُّصرة في أمرِ الدِّين.

قرأ عاصمُ وحمزة وخلَف (ضَعفاً) بفتح الضاد، وقرأ الباقون بضَمِّها أي عَجْـزاً عما فرضَ عليكم، ومَـن قـرأ (ضَعفـاً) فمعنـاه شـيوخاً وضعافـاً، وقـرأ أبـو جعفـر (ضُعَفَاءَ) بضمِّ الضادِ وفتح العين والمدِّ وهمزة من غيرِ تنوينٍ على جمعِ ضَعِيـف مثـل شُرَكاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ؛ أمرَ اللهُ بأنَّ الواحدَ يثبتُ للاثنين وضَمِنَ له النصرَ عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ؛ أي بـأمرِ اللهِ، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ؛ أي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٢٦٣٤ و١٢٦٣٥) بسياق آخر. وابـن أبـي حـاتم في التفسير: الأثر (٩١٣٨ و٩١٤٠).

مُعِينٌ لَهم، قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ فَرَّ مِنْ رَجُلَين فَقَدْ فَرَّ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلاثَةٍ لَمْ يَفِرَّ)(١). وهذا إذا كان للواحدِ المسلم من السِّلاح والقوَّة مثلَ ما لكلِّ واحدٍ من رجُلين من الكافرين، كان فَارّاً، فأما إذا لم يكن، لم يَثبُتْ حُكم الفرار.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يكون له أسْرَى من المشركين فيفاديهم(٢) أو يَمُنَّ عليهم، ولكن السَّيفَ حتى يُمكِنَ في الأرضِ لا بد من القتال، فيقتلُ منهم قَتْلاً ذريعاً ليَرتَدِعَ مَن وراءَهم. والإثخانُ في كلِّ شيء: شِدَّتُهُ، يقالُ: أثْخَنَهُ المرضُ إذا اشتدَّ قوتهُ عليه، وكذلك أثْخَنَتْهُ الْجِرَاحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ خطابٌ للذين أسرَعُوا في أخذِ الغنائمِ وشَغَلُوا أنفسَهم بذلك عن القتال، وذلك أنَّهم لَمَّا كان يومُ بدر تعجَّل ناسٌ من المسلمين فأصَابُوا من الغنائم، ومعناهُ: تريدون بالقتال المالَ، وسَمَّاهُ عَرَضاً لقِلَّةِ لُبْثِهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ ؛ أي يريدُ منكم العملَ بما تستحقُّون به ثوابَ الآخرةِ. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ ؛ أي مَنِيعٌ في سُلطانه، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ في أمْرِهِ وقضائه، فاعمَلُوا ما أمَرَكم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي لَولاَ حُكمٌ من اللهِ سبقَ في إباحةِ الغنائمِ لَمسَّكُم فيما استبحتُم قبلَ الإثخان عذابٌ عظيم. وَقِيْلَ: لولا كتابٌ مِن الله سبقَ في أهلِ بدر أن يغفرَ اللهُ لَهم ما تقدَّمَ من ذُنوبهم وما تأخَّرَ. وَقِيْلَ: معناهُ: لولا حكمُ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظِ وفي القرآنِ أنه لا يعذِّبُ قوماً حتى يُبيِّن لهم ما يتَّقون لأصابَتْكم عقوبةٌ عظيمة.

---

(١) ينظر اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٥٦٦. وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٦٤٢).

(٢) في المخطوط وضع فراغ ورسم فيه: (فيـ ـيـهم أو يمن عليهم) والتقدير كما أثبتناه، حيث يقتضيه السياق والله أعلم.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا قَتَلَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ سَبْعِينَ وَأسَرُوا سَبْعِينَ، اسْتَشَارَ النَّبيُّ ﷺ أصْحَابَهُ فِي أمْرِ الأُسَارَى، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ قَوْمُكَ، فَإنْ تَقْتُلْهُمْ يَدْخُلُوا النَّارَ، وَلَكِنْ فَادِهِمْ فَيَكُونَ الَّذِي تَأْخُذُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَعَلَّ اللهَ يُقَلِّبُ قُلُوبَهُمْ. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أعْلَمُ قَوْماً كَانُوا أشَرَّ لِنَبِيِّهِمْ مِنْهُمْ فَاقْتُلْهُمْ.

فَأخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ برَأيِ أبي بَكْرٍ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمَا مَثَلاً فَقَالَ: [مَثَلُ أبي بَكْرٍ مَثَلُ إبْرَاهِيمَ ﷺ حَيْثُ قَالَ ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١]، وَمَثَلُ عُمَرَ مَثَلُ نُوحٍ ﷺ حَيْثُ قَالَ ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[٢]] ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفِدَاءَ عَلَى الأُسَارَى.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...) إلى آخِرِ الآيَتَيْن، قَالَ عُمَرُ: فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أبُو بَكْرٍ يَبْكِيَان، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكُمَا؟! حَتَّى الأَرْضُ إنْ وَجَدتْ بُكَاءً لِبُكَائِكُمَا بَكَتْ مَعَكُمَا، فَقَالَ ﷺ: [إنَّمَا أبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أصْحَابُكَ مِنْ أخْذِ الْفِدَاءِ]، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى﴾)[٣].

وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قالَ: (لَمَّا جِيءَ بالأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ ﷺ: [مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ؟] فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: قَوْمُكَ وَأهْلُكَ اسْتَبْقِهِمْ لَعَلَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَذبُوكَ وَأخْرَجُوكَ، قَدِّمْهُمْ وَاضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ، وَمَكِّنْ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبْ عُنُقَهُ، وَمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ - بِسَبَبٍ لَهُ - فَأضْرِبْ عُنُقَهُ، فَإنَّ هَؤُلاَءِ أئِمَّةُ الْكُفْرِ. فَسَكَتَ النَّبيُّ ﷺ، فَقَالَ أنَاسٌ: نَأْخُذُ بقَوْلِ أبي بَكْرٍ، وَقَالَ نَاسٌ: نَأْخُذُ بقَوْلِ عُمَرَ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ ألْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإنَّ اللهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإنَّ مَثَلَكَ يَا أبَا بَكْرٍ مَثَلُ عِيسَى قَالَ ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ

---

(١) ابراهيم / ٣٦ . (٢) نوح / ٢٦ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٦٥٥ و١٢٦٥٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩١٥٠ ٩١٥١).

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١]، وَمَثَلُكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ مُوسَى قَالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٢]، ثُمَّ قَالَ ﷺ لِلأَسَارَى: [أَنْتُمُ الْيَوْمَ عَالَةٌ فَلاَ يَنْقَلِبَنَّ أَحَدٌ إلاَّ بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ] ثُمَّ قَالَ ﷺ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ) أي لولا حُكمُ اللهِ في أنه يُحلُّ لهم الفديَةَ التي أخذوها من الأسارى. وَقِيْلَ: معناه: لولا ما سبقَ لهذه الأُمَّة من الرحمةِ إذا عَمِلُوا الخطايَا ثم عَرَفُوا بما عَمِلوا وتابُوا ورجعُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا) مخاطبةٌ لهم لاَ لرسول الله ﷺ وجِلَّت[٤] أصحابهُ، فإنَّ أبا بكرٍ كان مرادهُ إعزازَ الدِّين وهدايةَ الأنصار، ولأنَّ الله قال: (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ) ولم يقُل فيما عزمتُم وأسررتُم.

قوله: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾ ؛ الفاءُ في أوَّل هذه الآيةِ للجزاء، المعنى: أُحِلَّتْ لكم الغنائمُ فكلُوا. والطَّيِّبُ: الْمُسْتَلَذُّ، ويوصفُ الحلالُ بذلك على التشبيهِ، فإنَّ المستلذ لا يكون فيه كراهيةٌ في الطَّبعِ، وكذا الحلالُ ما لا يكون فيه كراهيةٌ في الدُّنيا.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ ؛ أي اخْشَوْهُ ولا تفعلُوا شيئاً لَمْ تُؤمَرُوا به ولم يرَخِّصْ لكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا فرَّطَ منكم ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ بكم إذ لم يعذِّبْكم فيما فعلتُم قبل الرُّخصةِ.

---

(١) المائدة / ١١٨ .

(٢) يونس / ٨٨ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٤٣: الحديث (١٠٢٥٨ و١٠٢٥٩) مطولاً. عن عبيد الله عن عبدالله بن مسعود، والحديث (١٠٢٥٧) عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود. والحديث فيه نظر. أما حديث عبيد الله فإنه لم يسمع من أبيه، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٦ ص٧٨. وأما حديث زر بن حبيش ففيه موسى بن مطير وهو ضعيف. وحديث عبيد الله حسنه الترمذي وغيره.

(٤) كما في المخطوط: (وجِلَّت).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا وَضَعَ الْفِدَاءَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَسَارَى أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً مِنْ ذهَبٍ، وَجَعَلَ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ مِائَةَ أوْقِيَّةً، قَالَ الْعَبَّاسُ: أتَجْعَلُ عَلَيَّ مِائَةَ أوْقِيَةٍ وَعَلَى عَدُوِّكَ سُهَيلِ بْنِ عَمْرٍو أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ لِقَطْعِكَ الرَّحِمَ وَلِظُلْمِكَ] قَالَ: تَرَكْتَنِي وَاللهِ أسْألُ قُرَيْشاً مَا بَقِيتُ، فَكَيْفَ تَتْرُكُ عَمَّكَ يَسْألُ النَّاسَ بكَفِّهِ؟!

فَقَالَ ﷺ: [وَأيْنَ الذهَبُ الَّذِي اعْطَيْتَهُ أمَّ الْفَضْلِ عِنْدَ مَخْرَجِكَ؟ فَقُلْتَ: إنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ فِي وَجْهِي هَذا فَهُوَ لَكَ وَلِعَبْدِاللهِ وَقُثَم وَلِلْفَضْلِ] قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟! قَالَ: [أخْبَرَنِي اللهُ بذلِكَ] فَقَالَ: أشْهَدُ أنَّكَ صَادِقٌ وَأنِّي لَمْ أعْلَمْ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ قَطُّ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَإنِّي دَفَعْتُ إلَيْهَا الذهَبَ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ إلاَّ اللهُ، وَأنَا أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَأسْلَمَ وَأمَرَ ابْنَ أخِيهِ أنْ يُسْلِمَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعنَاها: يَا أيُّها النبيُّ قُل للعبَّاس وعقيل وغيرهم من الأَسَارَى: إنْ يعلَمِ اللهُ في قلُوبكم رغبةً في الإيمانِ وإخلاَصاً في النيَّة، يُؤتِكُمْ خيراً مما أخذ منكم من الفديةِ. يجوزُ أن يكون المعنى: يَخْلِفُ عليكم في الدُّنيا، ويجوز أن يكون: ويُجازيكُم في الآخرةِ.

وكان العباسُ أحدَ الثلاثة عشر الذين ضَمِنُوا طعامَ أهلِ بدر، فخرجَ معهم بعشرين أوقيَّةً من ذهبٍ ليُطعِمَ بها الناسَ، ولم تبلُغْهُ نوبةُ الإطعامِ حتى أسِرَ وأخِذ وهي معه فأخذوهَا منه، فلما وضعَ النبيُّ ﷺ على العبَّاس الفداءَ مِائةَ أوقيَّةٍ قَالَ: (يَا مُحَمَّدُ احْتَسِبْ لِيَ بالْعِشْرِينَ أوْقِيَّةً مِنْ فِدَائِي). فَأبَى وَقَالَ: [أمَّا شَيْءٌ خَرَجْتَ تَسْتَعِينُ بهِ عَلَيْنَا فَلاَ أتْرُكُهُ لَكَ].

فَلَمَّا أسْلَمَ العباسُ كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ قَدْ أعْطَانِي خَيْراً مِمَّا أخذ مِنِّي، أبْدَلَنِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ أوْقِيَّةً الَّتِي أخِذتْ مِنِّي عِشْرِينَ مَمْلُوكاً،

---

(١) من رواية الكلبي؛ أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص١٦٢.

كُلُّ مَمْلُوكٍ يَضْرِبُ بعِشْرِينَ أَلْفاً فِي التِّجَارَةِ، وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ مَا أُحِبُّ أنَّ لِي بِهَا جَمِيعَ أمْوَالِ أهْلِ مَكَّةَ، أنْجَزَ لِي أحَدَ الْوَعْدَينِ، وَأنَا أرْجُو أنْ يُنْجِزَ لِيَ الْوَعْدَ الثَّانِي، أنْتَظِرُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبي)[(١)].

وعن العلاءِ بن الحضرميِّ ﷺ أنَّهُ بَعَثَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانِينَ ألْفاً، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: (أعْطِنِي مِنْ هَذا الْمَال) فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أطَاقَ حَمْلَهُ، فَجَعَلَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ: (أمَّا إحْدَى اللَّتَيْنِ وَعَدَنَا اللهُ فَقَدْ أنْجَزَهَا، فَلاَ نَدْري مَا يَصْنَعُ بالأُخْرَى). يعني (يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ معناهُ: وإنْ يُردِ الذين أطلَقْتَهم من الأُسارَى خِيَانَتَكَ بأن يُعِيدُوا حَرْباً لك وينصُروا عدُوَّكَ عليك، فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ بمخالفةِ ما أخذ عليهم من العهُودِ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ عاهدَ الذين أطلقهم على أن لا يُعِينُوا عليه فخَانُوه وخالَفُوا، وقوله تعالى (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) أي فأمكنكَ منهم يومَ بدرٍ، وإنْ خانوكَ فَسَيُمَكِّنُكَ منهم ثانياً، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾؛ بكلِّ شيءٍ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾؛ في كلِّ ما يفعلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾؛ أي إن الذين آمَنوا بتوحيدِ الله وبمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ وهاجَرُوا من مكَّة إلى المدينةِ وجاهَدُوا العدوَّ بأموالِهم وأنفُسِهم في طاعةِ الله.

ثُم ذكرَ اللهُ الأنصارَ فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا ﴾؛ النبيَّ والمهاجرين معَهُ أعطَوهُم المأوَى وأنزَلُوهم ديارَهم، ﴿ وَنَصَرُوا ﴾؛ أي أعَانُوهم بالسَّيفِ على الكفَّار، ﴿ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾؛ أي أنصارُ بعضٍ في الدِّين والمواريثِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩١٧٨ و٩١٧٩). وينظر: أسباب النزول للواحدي: ص١٦٢. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٦٨٠ و١٢٦٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٦٨١) عن قتادة مرسلاً. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج٨ ص٥٣؛ قال القرطبي: ((وفي صحيح مسلم: لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَالٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [خُذْ] فَبَسَطَ ثَوْبَهُ وَأخَذَ مَا اسْتَطَاعَ أنْ يَحْمِلَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ ﴾ ؛ أي والذين صدَّقوا من أهلِ مكَّة في ديارهم ولَم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي ليس بينَكم وبينهم ميراثٌ، ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ ؛ وإطلاقُ لفظ الموالاةِ يقتضي التوارثَ في الجملةِ، وإن كان بعضُ أسباب الموالاة أوكدَ من بعضٍ.

قال ابنُ عبَّاس: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَأنَاسٌ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ لاَ يَرِثُنَا إخْوَانُنَا وَهُمْ عَلَى دِينِنَا مِنْ أجْلِ أنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا؟ فَهَلْ نُعِينُهُمْ عَلَى أمْرٍ إن اسْتَعَانُونا عَلَيْهِ؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ .

معناهُ: وإن قاتلَهم الكفارُ ليَردُّوهم عن الإسلامِ فانصرُوهم، ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ ؛ إلاَّ أن يقاتِلُوا قوماً، ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ ؛ فاستنصرُوكم عليهم فلَم تقاتِلُوهم معهم، بل عليهم أن يكفُّوا عن طلب النُّصرة منكم لهم عليهم؛ لأنه أمانٌ، وأمانُ واحدٍ من المسلمين يلزمُ كافَّتهم، فيجبُ الإصلاحُ بينهم على غيرِ وجه القتالِ. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي بصيرٌ بأعمالِكم، يجازيكم عليها.

قال ابنُ عبَّاس: فَمَكَثُوا عَلَى هَذا مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَمْكُثُوا، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ؛ أيْ أنْصَارُ بَعْضٍ فِي الدِّينِ، وبَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الْمِيرَاثِ. يعني أنَّ الكافرَ لا يرثُ المؤمنَ الذي لم يهاجِرْ، بل الكافرُ يرثُ من الكافرِ، والمؤمنُ يرثُ من المؤمنِ، فصارت هذه الآيةُ ناسخةً للتي قبلَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي إلاَّ تفعلُوا ما أمَرتُكم به ولم تُورثُوا الأعرابيَّ الذي لَم يهاجِرْ من المهاجِر، ولَم تجعلُوا ولايةَ الكافرِ للكافر وولايةَ المؤمن للمؤمنِ، (تَكُنْ فِتْنَةٌ) أي بالْمَيْلِ إلى الضَّلالةِ وفسادٍ في الدِّين، فإن الكفارَ بعضُهم أولياء بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ؛ أي أولئكَ الذين حقَّقُوا إيمانهم بالهجرةِ وإقامة الجهادِ في سبيلِ الله. وَقِيْلَ: معناهُ: أولئك الذين حقَّقَ اللهُ إيمانهم بأن أثنَى عليهم ومَدَحَهم في

كتابهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ؛ لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ في الجنَّة بأن يُطعِمَهم طَعاماً يصير كالْمِسْكِ رَشحاً ولا يستحيلُ في أجوافِهم نَجْواً[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ معناهُ: والذين آمَنُوا من بعدِ المهاجرين السَّابقين، وهاجَرُوا إلى المدينةِ وجاهَدُوا معكم الكفارَ، فأولئكَ منكم في الدِّين والنُّصرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ ؛ أي أن الأقاربَ بعضُهم أولَى ببعضٍ في الميراثِ من غيرِهم، هاجَرُوا أو لم يُهاجِرُوا إذا كانوا مُسلِمينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ﴾ ؛ يجوزُ أنْ يكون المرادُ بالكتاب القُرْآن، ويجوز أن يكون معناهُ في اللوح المحفوظ، ويجوز أن يرادَ بالكتاب الْحُكْم، كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ﴾[٢] أي حَكَمَ اللهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ ما فَرَضَ من المواريثِ وغيرِ ذلك.

قال قتادةُ: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَكَانُوا يَتَوارَثُون بالإسْلاَمِ وَالْهِجْرَةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُسْلِمُ وَيُهَاجِرُ، وَكَانَ لاَ يَرِثُ أخَاهُ)[٣]، فَنسَخَ اللهُ ذلِكَ بقَوْلِهِ: (وَأوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى بِبَعْضٍ) وَصَارَتِ الْوِرَاثَةُ بالْقَرَابَةِ كَمَا ذكَرَ اللهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، وَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: [لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ][٤].

---

(١) النَّجْوُ: ما يخرجُ من البطنِ و(استنجى) مسح موضع النَّجو أو غسله.

(٢) المجادلة / ٢١ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧١١) مختصراً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩٢٠٦) عن الزبير بن العوام، وفيه قصة ذلك.

(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الصيد: باب لا يحل القتال بمكة: الحديث (١٨٣٤)، وفي كتاب الجهاد: باب فضائل الجهاد: الحديث (٢٧٨٣)، وباب لا هجرة بعد الفتح: الحديث (٣٠٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب تحريم مكة وصيدها: الحديث (٤٤٥/ ١٣٥٣).

وعن أُبَيٍّ بن كعبٍ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ فَأَنَا لَهُ شَفِيعٌ وَشَهِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ، وَرُفِعَ لَهُ بِهَا عَشْرُ دَرَجَاتٍ][1].

آخر تفسير سورة (**الأنفال**) والحمد لله رب العالمين.

(١) تقدم؛ وأنه لا يصح.

سُــورَةُ التَّوْبَــة

سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدَنِيَّةٌ؛ وَهِيَ عَشْرَةُ آلاَفٍ وَأَرْبَعمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُون حَرْفاً، وَأَرْبَعَةُ آلاَفٍ وَثَمَانٌ وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وثلاثُون آيَةً.

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾ أي هذهِ مِن اللهِ، فيكون رَفعاً على الابتداءِ، ويجوزُ أن يكون (بَـرَاءَةٌ) رَفعـاً بـالابتداءِ، وخبرهُ: (إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ). والبراءةُ: رفعُ العِصمَةِ، يقالُ: فـلانٌ بـريءٌ مـن فـلان، وبرئَ اللهُ مِنَ المشركين. وإنما ذكرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ من العهدِ؛ لأنَّ المشركين كـانوا ينقضُونَ العهدَ قبلَ الأجَلِ، ويُضمِرُونَ الغدْرَ، فأمرَ اللهُ بنَبْذِ العهدِ إليـهم، إمـا بخيانـةٍ مَستُورَةٍ ظهرت أمَارتُهَا منهم، وإما أن يكون شرطُ النبيِّ ﷺ لنقضِـهم في العـهدِ أنْ يُقِرَّهُم ما أقرَّهم اللهُ.

فأما تركُ البسملةِ في أوَّل هذه السُّورة، فقد رُوي أنَّ أبَيَّ بـن كعـبٍ سُئِلَ عـن ذلكَ فقال:(لأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ أوَّلَ كُلِّ سُورَةٍ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) وَلَمْ يَأْمُرْ فِي سُـورَةِ الْـبَرَاءَةِ بذَلِـكَ، فَضُمَّـتْ إِلَـى الأَنْفَالِ لِشَبَهِهَا بِهَا)[1] يعني أنَّ أمرَ العُهودِ مذكور في الأنفال، وهـذه السُّـورة نزلَـتْ بنقضِ العهُودِ. سُئل عليٌّ ﷺ عن هذا فقالَ: (لأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَـتْ فِـي السَّـيْفِ، وَلَيْسَ لِلسَّيْفِ أَمَانٌ، وَبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِـنَ الأَمَـانِ، ولأنَّ الْبَسْـمَلَةَ رَحْمَـةٌ، وَالرَّحْمَةُ أمَانٌ، وَهَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ بالسَّيْفِ وَلاَ أَمَانَ فِيْهِ)[2].

---

(١) هـذا الأثـر مـروي أيضـاً عـن ابـن عبـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا؛ قـال: (قلـتُ لعثمـان بـن عفان ﷺ: ما حَمَلَكم إلى أن عمَدتم إلى الأنفال وهي المثاني وإلى براءة وهـي مـن المئين فقرَنتُم بينهما ولم تكتبُوا (بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)...). أخرجه الـترمذي في الجـامع: أبـواب التفسـير: الحديث (٣٠٨٦)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: سورة التوبة: الحديث (٣٣٢٦). وفي الدر المنثور:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ؛ أي سِيرُوا في الأرضِ على الْمَهَلِ واقْبلُوا وادبرُوا في الأرضِ إلى أن يمضيَ أربعةٌ. وَقِيْلَ: هو على الخطاب؛ أي قُل لَهم سِيرُوا في الأرضِ مُقبلِينَ ومُدبرِينَ آمِنِينَ غيرَ خائفِين من قَتْلٍ ولا أسْرٍ ولا نَهْبٍ.

ويقالُ: إن قولَهُ: (فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ) بيانُ أن هذا السَّيْحَ المذكورَ في أوَّل هذه السورةِ إنَّما هو بعدَ أربعةِ أشهُر، فإنَّ عهدَ الكفَّار باقٍ إلى آخر هذه المدَّة. قال الحسنُ: (أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَنْظُرَ فِي عُهُودِ الْكُفَّار، فَيُقِرَّ مَنْ كَانَ عَهْدُهُ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ عَلَى عَهْدِهِ أنْ يَمْضِي، وَيَحِطَّ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ أكْثَرَ مِنْ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، وَيَرْفَعَ عَهْدَ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ قَبْلَ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ فَيَجْعَلَهُ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ).

واختلَفُوا في هذهِ الأربعةِ أشهُر، قال بعضُهم: من عشرين ذِي القِعدَةِ إلى عِشرين من رَبيع الأوَّل. ورُوي في الخبرِ: أنَّ مكَّة فُتحت في سنةِ ثمانٍ من الهجرة، ووَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ عتَّابَ بن أسَيدٍ الوقوفَ بالناسِ في الموسمِ، واجتمعَ في تلك السَّنة في الوقوفِ المسلِمُون والمشركون[1].

فلمَّا كانت سنةُ تسعٍ ولَّى رسولُ اللهِ ﷺ أبَا بكرٍ وبعثَ معه عشرَ آياتٍ من أوَّلِ براءة أو تسعِ آياتٍ، وأمرَهُ أن يقرَأها على أهلِ مكَّة، وينبذَ إلى كلِّ ذِي عهدٍ عهدَهُ

=ج ٤ ص١٢٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه)). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٦٢ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(١) سبب اجتماعهم ما أخبر به الحسن قال: ((إنَّمَا سُمِّيَ الْحَجُّ الأَكْبَرَ مِنْ أجْلِ أنَّهُ حَجَّ أبُو بَكْرٍ الْحَجَّةَ الَّتِي حَجَّهَا، وَاجْتَمَعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْحَجَّ الأَكْبَرَ)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٧٧).

ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى، عن سمرة بن جندب ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح: [إنَّهُ عَامُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ]. قال: اجتمع حج المسلمين وحج المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، فاجتمع حج المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق الله السموات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع قبل العام حتى تقوم الساعة)). في الدر المنثور: ج ٤ ص١٢٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني ورجاله موثوقون ولكن متنه منكر).

كما وصفَ اللهُ تعالى، فلمَّا خرجَ أبو بكرٍ ﷺ منها إلى مكَّة، نـزلَ جـبريلُ ﷺ فقـالَ للنبيِّ ﷺ: [لاَ يُبَلِّغُ عَنْكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ] فدعَا عَليّاً ﷺ وأمَرَهُ بالذهاب إلَى مكَّةَ، وقال: [كُنْ أنْتَ الَّذِي يَقْرأ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ، وَمُرْ أبَا بَكْـرٍ فَلْيُصَـلِّ بالنَّاسِ]. فسارَ حتى لَحِقَ أبا بكرٍ ﷺ في الطريقِ، فأخبرَهُ بذلـكَ فمَضَيَـا، وكـان أبـو بكرٍ على الموسِمِ.

فلمَّا كان يومُ النحرِ واجتمعَ المشركونَ، قام عليٌّ ﷺ عند جمرةِ العَقَبَةِ وقالَ: (يَا أيُّهَا النَّاسُ؛ إنِّي رَسُولُ رَسُول اللهِ ﷺ إلَيْكُمْ) فَقَالُواْ: بمَ ذا ؟ فقرأ عليهم (بَـرَاءَةٌ مِـنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم...) إلى آخرِ الآياتِ التي نزلَتْ[1].

وكان الحجُّ في السَّنة التي قرأ عليٌّ ﷺ فيـها هـذه السُّورةَ في العاشـرِ مـن ذي القعدَةِ، ثم صارَ الحجُّ في السَّنة الثانيةِ في ذي الحجَّة، وكان السببُ في تقديـمِ الحـجِّ في سَنَةِ العهدِ ما كان يفعلهُ بنو كِنَانَةَ في النَّسِيءُ وهو التأخيرُ. وذهبَ بعضُ المفسِّـرين إلى أنَّ الأربعةَ الأشهر المذكورة في هذهِ الآيةِ هي: شوَّال وذُو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي غيرَ فَائِتِين عن اللهِ بعدَ الأربعةِ الأشهر، فإنَّكم إنْ أجَّلتُم هذه الأشهرَ فلـن تفوتُـوا اللهَ تعـالى. وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢ ﴾ ؛ أي معـذِّبَ الكـافرين في الدُّنيا بـالقتل في الآخرةِ بالنار. والإخْزَاءُ: هو الإذلالُ على وجهِ الأذوَنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ؛ أي وإعلامٌ من اللهِ ورسوله إلى الناسِ يـومَ الحـجِّ الأكبرِ وهو يومُ النحرِ، كذا روَى ابنُ عبَّاس، وسُمي يومُ النحرِ يومَ الحجِّ الأكبرِ؛ لأنه اتَّفقَتْ فيه الأعيادُ على قول أهل الْمِلَلِ. وعن النبيِّ ﷺ: [أنَّهُ يَوْمُ عَرَفَةَ]، قال قيـسُ ابن مَخْرَمَةَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فَقَالَ: [أمَّا بَعْدُ؛ فَإنَّ هَـذَا يَـوْمُ الْحَـجِّ الأكْبَرِ][2].

---

(١) في هذه القصة غرابة، فضلاً عن الاضطراب في ترتيب أحداثها، وما جاء في الأخبار الصحيحـة يظهر خطأ فهم الخبر من الناقل، أو تزوير المعنى، بما يطول ذكره إن أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٤٠).

ويروى أنَّ عَلِيّاً ﷺ خرجَ يوم النَّحرِ على بغلةٍ بيضاءَ إلى الجبانة، فجاءَهُ رَجُلٌ فأخَذَ بلِجَامِهَا وسَأَلَهُ عن يومِ الحجِّ الأكبر، فقال: (هُوَ يَوْمُكَ هَذَا، خَلِّ سَبِيلَهُ)(١). وسُئِلَ عبدُالله بن أبي أوفى عن يوم الحجِّ الأكبر، فقالَ: (سُبْحَانَ اللهِ! هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ يُهْرَاقُ فِيْهِ الدِّمَاءُ وَنَحْلِقُ فِيْهِ الشَّعْرَ وَيُحَلُّ فِيْهِ الْمُحَرَّمُ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَذَانٌ) عطف على قوله: (بَرَاءَةٌ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) أي أن اللهَ ورسولهُ بريءٌ من المشركين، تقديرهُ: أنَّ اللهَ بريءٌ ورسولهُ أيضاً بَريءٌ. ومَن قرأ (وَرَسُولَهُ) بالنصب فعلى معنًى وأن رسولَهُ بريءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي تبتُم من الشِّرك فهو خيرٌ لكم من الإقامةِ عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ أعرَضتُم، ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ﴾ ؛ فائتِين عن؛ ﴿ اللَّهِ ﴾ .

وقولهُ تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ ؛ تكرارٌ للوعيدِ، وعن أبي هُريرةَ ﷺ قال: (كُنْتُ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالبَرَاءَةِ إلَى مَكَّةَ) فقِيلَ لأبي هُرَيْرَةَ: بِمَ إذا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: (كُنَّا نُنَادِي: أنَّهُ لاَ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَحُجَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَأجَلُهُ إلَى أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، فَإذَا مَضَتْ أرْبَعَةُ أشْهُرٍ فَإنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْ عَهْدِ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ ؛ استثناءٌ من اللهِ تعالى من قوله: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) وأرادَ بقولهِ: (إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ) بني ضَمْرَةَ وهم حَيٌّ من بَني كِنَانَةَ عاهدَهم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحديبية عند البيتِ، وكان بقِيَ لهم من عهدِهم تسعةٌ من بعدِ يوم النَّحرِ من السَّنة التي حجَّ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٢٧٦٦) الرابع منها والسادس.

فيها أبو بكرٍ ﷺ، وكانوا لم يَنقُضوا شيئاً من عُهودِهم، ولَم يُمالُوا عدُوّاً على رسولِ الله ﷺ، فأمَرَ النبيُّ ﷺ أن -أبقى- لهم بعهدِهم إلى آخرِ مُدَّتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي يرضَى عملَ الذين يتَّقون نقضَ العهدِ. قرأ عطاءُ (يَنْقُضُوكُمْ) بالضَّادِ المعجمة من نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ إذا مضَتِ الأشهرُ التي حرَّمَ اللهُ القتالَ بالعهدِ فيها، (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ ؛ يقالُ أرادَ بذلك الأشهرَ الْحُرُمَ المعروفةَ؛ وهي: رجبُ وذو القعدةِ وذو الحجَّة والمحرَّم، كأنه قالَ: فإذا انسلخَ الأشهرُ الحرُمُ فاقتلُوا المشركين حيث وجدتُموهم في الحِلِّ أو في الحرَمِ، وخُذُوهُمْ؛ أي اْاسرُوهم، ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ ؛ أي احبسُوهُمْ، ويقالُ: أراد بذلك أنْ يُحالَ بينهم وبين البَيتِ؛ أي امنعوهُم دخولَ مكَّة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ ؛ أي اقعُدوا القتالَ على كلِّ طريقٍ يأخذون فيهِ إلى البيتِ أو إلى التجارةِ، وهو أمرٌ بتضييقِ السبيل عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ معناهُ: فإن تابُوا عن الشِّرك، وقبلُوا إقامَ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة فأطلِقُوهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا سَلَفَ من شِركهم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ بهم حين قبلَ توبتَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ أحدٌ من المشركين استأمَنَك ليسمعَ دعوتَك واحتِجاجَكَ بالعدل، فأمِّنْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ، فإن أرادَ أن يُسلِمَ فرُدَّهُ إلى موضعِ أمْنِهِ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الأمانُ لهم، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أمرَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾ أي كيف يكونُ لهم عهدٌ، وهم يُضمِرُونَ الغدرَ في عُهودِهم عندَ اللهِ وعندَ رسُولِهِ؛ أي لن يكونَ لهم عهدٌ يجبُ الوفاءُ به، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ ﴾ ؛ في وفاءِ العهدِ فلم ينقضوهُ كما نقضَ غيرُهم،

﴿ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ ؛ بوفاءِ أجَلِهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ لنقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ؛ أي كيف يكون لهم العهدُ، وقال الأخفشُ: (مَعْنَاهُ: كَيْفَ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَهُمْ إنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَحْفَظُوا فِيكُمْ قَرَابَةً وَلاَ عَهْداً)، وقال قتادةُ: (الإلُّ: الحِلْفُ)، قال السديُّ: (هُوَ الْعَهْدُ)[١] وَلَكِنَّهُ كَرَّرَهُ لِمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ وَإنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ.

قال مجاهدُ: (الإلُّ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[٢] وَمِنْهُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، فَإنَّ مَعْنَاهُمَا عَبْدُ اللهِ. وَأبُو بَكْرٍ لَمَّا سَمِعَ كَلاَمَ مُسَيلَمَةَ قَالَ: (هَذا كَلاَمٌ لَيْسَ هُوَ إلٌّ)[٣] أي لم يتكلَّمْ به اللهُ. وقرأ عكرمةُ (إيْلاً) بالياء يعني اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، مثل جبريل ومِيكائِيل[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ أي يتكلَّمون بالعهدِ بأفواهِهم، ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ إلاَّ نقضَ العهدِ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ . أي مُتمادُون في الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي اختارُوا على القرآن عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا، ﴿ فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾ فصرَفُوا الناسَ عن طاعةِ الله، فبئْسَ العملُ عملُهم، وذلك أنَّهم نقضُوا العهدَ الذي بينَهم وبين رسولِ الله ﷺ بأكْلَةٍ أطعمَهُم إيَّاها أبو سُفيان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨١٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٠٢).

(٣) في المخطوط: (وبال) وهو تصحيف. ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية: ص٨٢٧: تفسير الآية. وعند البغوي في معالم التنزيل: ص٥٤٢: تفسير الآية؛ قال: ((إن ناساً قَدِموا على أبي بكر من قومِ مُسيلمة الكذّاب، فاستقرأهم أبو بكرٍ كتابَ مُسيلمة، فقرأوا، فقال أبو بكر: (إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ)؛ أي من الله)).

(٤) في جامع البيان: مج ٦ ج١٠ ص١١٠؛ قال القرطبي: (والإلُّ: اسم يشتمل معان ثلاثة: وهي العهد والعقد، والحلف، والقرابة، وهو أيضاً بمعنى الله. فإذا كانت الكلمة تشتمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يعمَّ ذلك كما عمَّ بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قرابة، ولا عهداً، ولا ميثاقاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ؛ فإن قِيلَ: لِمَ أعادَ قولَهُ تعالى: (لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلاً وَلاَ ذِمَّةً) ؟ قِيلَ: ليس هذا بإعادةٍ؛ لأنَّ الأول وَرَدَ في جميعِ الكفَّار الذين نقضُوا العهدَ، والثاني إنَّما وردَ في طائفةٍ من اليهودِ الذين كانوا ينقضُون العهدَ، فإنَّ هذه الطائفةَ منهم الذين اشترَوا بآياتِ الله ثمناً قليلاً؛ فإنَّهم كانوا يكتُمون صفةَ رسولِ الله ﷺ بشيءٍ من المواكَلَةِ كانوا يأخذونها من سَفلَتِهم، وكانوا يأخُذون الرِّشَاءَ على الحكمِ الباطل، ويغيِّرون أحكامَ اللهِ التي أنزلَها على أنبيائِهم. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ يعني في نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ ؛ أي فإن تابوا عن الكفرِ وقَبلوا إقامةَ الصَّلاة وإيتاءَ الزَّكاة، فهُم إخوانُكم في دينِ الإسلام، ﴿ وَنُفَصِّلُ ﴾ ؛ ونأتي بـ، ﴿ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ ؛ آيةً بعدَ آيةٍ، ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أمْرَ اللهِ وأحكامَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾ ؛ أي نقضُوا أيمانَكم والحلف من بعدِ العهُودِ التي عاهدتَّهم أنْ لا يُقاتِلُوكَ ولا يُعِينُوا عليكَ ولا على حُلفائِكَ، ﴿ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ ؛ الإسلام وعابوهُ، وذلك أنَّهم قالوا: ليس دينُ مُحَمَّدٍ بشيءٍ ، ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ ؛ أي رُؤُوسَ الكُفرِ، ﴿ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ﴾ .

قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ فِي أبي سُفْيَانَ وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَعِكْرِمَةَ بْنِ أبي جهلٍ وَسَائِرِ رُؤَسَاءِ قُرَيشٍ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ، وَهُمُ الَّذِينَ هَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ)[1]. وقال مجاهدُ: (هُمْ أهْلُ فَارسَ وَالرُّومُ)[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٣٢ و١٢٨٣٣ و١٢٨٣٧) عن قتادة. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٢٢) عنه أيضاً. والأثر (١٢٨٣١) عن ابن عباس من غير ذكر أسمائهم. وينظر: اللباب في علوم الكتاب: نقله عن ابن عباس أيضاً. ومعالم التنزيل: ص٥٤٢.

(٢) حكاه أهل التفسير؛ ينظر: معالم التنزيل: ص٥٤٣. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٣٤. ويقوي معناه أثر حذيفة ﷺ قال: ((مَا قُوتِلَ أهْلُ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدُ)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٣٨). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٢٤).

وقولهُ تعالى (إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ) أي لا عهودَ لهم؛ جَمْعُ يَمِينٍ، وقال قطربُ: (لاَ وَفَاءَ لَهُمْ بالْعَهْدِ). وقرأ الحسنُ وعطاء وابنُ عامر (لاَ إِيْمَانَ) بكسر الهمزة؛ أي لا تصديقَ لهم، قال عطيَّة: (لاَ دِينَ لَهُمْ) أي هم قومٌ كفَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: لا أمانَ لهم فلا تُؤَمِّنُوهُمْ واقتلُوهم حيث وجدتُّموهم، فيكون مصدرُ أمَّنْتُهُ إيْمَاناً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ ؛ أي ليُرجَى منهم الانتهاءُ عنِ الكُفرِ ونقضِ العهد.

وفي الآية بيانُ أنَّ أهلَ العهدِ متى خالَفوا أشياء مما عاهدوهم عليه فقد نُقِضَ العهدُ، وأما إذا طَعَنَ واحدٌ منهم في الإسلام: فإنْ كان شُرطَ في عُهودِهم أن لا يذكُروا كتابَ اللهِ ولا يذكرون مُحَمَّداً ﷺ بما لا يجوزُ، ولا يَفتِنُوا مُسلِماً عن دينهِ ولا يقطَعُوا عليه طَرِيقاً ولا يُعِينُوا أهلَ الحرب بدلالةٍ على المسلمين، فإنَّهم إذا فعَلُوا ذلك في عهودِهم وطَعَنوا في القرآنِ وشتَموا النبيَّ ﷺ، ففيه خلافٌ بين الفقهاءِ.

قال أصحابُنا: يُعْذَرُونَ ولا يُقتلون، واستدَلُّوا بما روَى أنسُ بن مالك ﷺ: أنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ فَقِيلَ: ألاَ تَقْتُلُوهَا؟ قَالَ: [لاَ][(١)]. ولحديث عائشة: أنَّ قَوْماً مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ! ففهمَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ] فقالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ألَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! فقَالَ: [بَلَى قَدْ قُلْتُ: عَلَيْكُمْ][(٢)] ولَمْ يقتُلْهم النبيُّ ﷺ بذلك[(٣)]. فذهب مالكُ إلى أنَّ مَن شتَمَ النبيَّ ﷺ من اليهودِ والنصارى قُتِلَ إلا أن يُسلِمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (ذَلِكَ أنَّ قُرَيْشاً

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الهبة: باب قبول الهدية من المشركين: الحديث (٢٦١٧).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الاستتابة: باب إذا عرَّض الذمي أو غيره بسب النبي ﷺ: الحديث (٦٩٢٧).

(٣) جاء في حديث أنس ﷺ: أنَّ الْيَهُودِيَّ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! ألاَ نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: [لاَ؛ إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ]. أخرجه البخاري في الصحيح: الحديث (٦٩٢٦).

أعَانُوا بَنِي الوَلِيدِ بْن بَكْرٍ وكَانُوا حُلَفَاءَهُمْ عَلَى خُزَاعَةَ؛ وَخُزَاعَةُ حُلَفَاءُ النَّبيِّ ﷺ فَهزَمُوا خُزَاعَةَ، فَجاءَ وَفْدُ خُزَاعَةَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وأخْبَرَهُ بالقصَّة، وناشَدُوا حِلْفَهُ فقالَ قائلُهم[1]:

يَـا رَب إنِّـي نَاشِـدٌ مُحَمَّـدَا ... حِلْـفَ أبينَـا وَأبيـهِ الأَتْلَـدَا

كُنَّـا وَالِـداً وكُنْـتَ وَلَـدا(*) ... ثمَّـتَ أسْلَمْنَا وَلَـمْ نَـنْزِعْ يَـدَا

فَـانْصُرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـراً أبَـدَا ... وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَـأْتُوا مَـدَدَا

فِيـهِمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تجَـرَّدَا ... إنَّ قُرَيْشـاً أخْلَفُـوكَ الْمَوْعِـدَا

وَنقَضُـوا مِيثَـاقَكَ الْمُؤَكَّـدَا ... وَبيَّتُونَـا بالْوَتِـيرِ هُجَّـدَا

نَتْـلُوا الْقُـرْآنَ رُكَّعـاً وَسُجَّـدَا

فقالَ النبيُّ ﷺ: [لاَ نُصِرْتُ إنْ لَمْ انْصُرْكُمْ] فقالَ أبو بكرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أتَنْصُرُهُمْ عَلَى قَوْمِنَا ؟! قَالَ: [لاَ نُصِرْتُ إنْ لَمْ انْصُرْهُمْ] ثُمَّ أمَرَ النَّاسَ أنْ يَتَجَهَّزُوا إلَى فَتْحِ مَكَّةَ، فَفَتَحهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ.

وَأحَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْقِتَالَ لِخُزاعَةَ وَلَمْ يُحِلَّـهُ لأحَـدٍ غَـيْرِهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ألاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكثُوا أيْمَانَهُمْ) أي نقضُوا عهودَهم يعنِي قُريشاً، (وَهَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ) من مكَّة حين اجتمعُوا على قتلهِ في دار النَّدوة (وَهُم بَدَءُوكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ) أي هم الذين بدَأوا بنقضِ العهد حين قاتلُوا خزاعةَ حلفاءَ رسول الله ﷺ، ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ ؛ أي تخافُونَ أن ينَالكم مكروهٌ في قتالِهم فتتركوا قتالَهُم، ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ ؛ تخافوهُ في ترككم لقتالهم، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ مصدِّقين بعقاب الله وثوابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ؛ أي قاتِلُوا أهلَ مكَّة يعذِّبْهم اللهُ بأيديكم بالسَّيف، ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ ؛ أي يذلّهم، ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

(١) هو عمرو بن سالم؛ في الدر المنثور: ج ٤ ص١٣٨-١٣٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن اسحق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة)) وفيه بعض اختلاف.

(*) في المخطوط: (وَوَالِدٌ لَكُنْتَ وَكُنَّا وَلَدَا) ولا يستقيم المعنى.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني بَنِي خزاعةَ يومَ فتح مكَّة الذين قاتلَهم بنو بكرٍ، ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ بني خُزاعةَ، فشَفَى اللهُ صدورَ بني خزاعة وأذهبَ غيظَ قُلوبهم؛ أي كَرْبَها ووَجْدَها.

وقولهُ تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾؛ استثناءُ كلام اللهِ؛ أي يتوبُ الله على مَن يشاء من أهلِ مكَّة فيهديهِ للإسلامِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ بجميعِ الأشياء، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾؛ في جميعِ الأمُور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ معناهُ: إنْ ظنَنتُم أيُّها المؤمنون أنْ تُترَكُوا على الإقرار والتصديقِ فلا تُؤمَروا بالجهادِ، قوله: (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) أي ولَمَّا يرَ اللهُ جهادَكم حين تُجاهدون، ولَمَّا يرَ اللهُ الذين لم يتَّخذوا منكم من الكفار بطَانَةً يُفْشُونَ إليهم سِرَّهم وأمْرَهم. وكان اللهُ تعالى قد علِمَ أمْرَهم بالقتال، مَن يقاتلُ مِمَّن لا يقاتلُ، ولكنَّه يعلمُ ذلك عَياناً، وأرادَ العلمَ الذي يُجازَى عليه وهو علمُ المُشَاهَدَةِ؛ لأنه يُجازيهم على عمَلِهم لا على عِلْمِهِ فيهم.

والوَلِيجَةُ: المدخَلُ في القومِ مِن غيرهم؛ مِنْ وَلَجَ شَيْءٌ يَلِجُ إذا دَخَلَ. والخطابُ في الآيةِ للمؤمنين حين شَقَّ على بعضِهم القتالُ وكَرِهُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا) فلا تُؤمَروا بالجهادِ وتُمتَحَنُوا بهِ؛ ليظهَرَ الصادقُ من الكاذبِ، والمطيعُ من العاصِي، وقال قتادةُ: (مَعْنَى وَلِيجَةً أيْ خِيَانَةً)، وقال الضَّحَّاكُ: (خَدِيعَةً)، وقال ابن الأنباريُّ: (الْوَلِيجَةُ: الدَّخِيلَةُ)، وقال عطاءُ: (أولياء)، قال الحسنُ: (كُفْرٌ وَنِفَاقٌ)[1]. وقِيلَ: الوَلِيجَةُ: الرجلُ من يختص يدخله مودَّةً دون الناس، يقالُ: هو وَلِيجَةٌ وهُم وَلِيجَةٌ، للواحدِ والجمعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي عالِمٌ بأعمالِكم، وفي هذا تَهديدٌ للمنافقين وعِظَةٌ للمخلصين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٥٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٤٧).

قولهُ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا أسِرَ الْعَبَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ، أقْبَلَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ يُعَيِّرُونَهُ بالْكُفْرِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَعَوْنِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأغْلَظَ عَلِيٌّ ﷺ الْقَوْلَ لَهُ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: مَا لَكُمْ تَذْكُرُونَ مَسَاوِءَنَا وَلاَ تَذْكُرُونَ مَحَاسِنَنَا؟! فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: ألَكُمْ مَحَاسِنُ ؟! قَالَ: نَعَمْ؛ إنْ كُنْتُمْ تُجَاهِدُونَ الأَعْدَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَحْنُ نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَحْجُبُ الْكَعْبَةَ، وَنَسْقِي الْحَاجِّ، وَنَفُكُّ الأَسِيرَ، فَنَحْنُ أفْضَلُ مِنْكَ أجْراً. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ رَدّاً عَلَى الْعَبَّاسِ)(١). ومعناها: ما كانَ للمشركين أن يقوموا بعمارةِ المسجدِ، وأنَّ المساجدَ للهِ. والعمارةُ على وجهين؛ تُذكَرُ ويرادُ بها البناءُ وتجديدُ ما انْهَدَمَ منها، ويؤنَّثُ ويرادُ بها الزيادةُ، ومِن ذلك العُمْرَةُ ومعناها زيارةُ البيتِ، فانتظمت الآيةُ، نَهى المشركين عن بناءِ المساجد وعن عمارتِها بالطاعةِ، فإنَّهم إنما يعمرونَها بعبادةِ الأوثان ومعصيةِ الله.

ومَن قرأ (مَسْجِدَ اللهِ) على التوحيدِ أرادَ المسجدَ الحرام خاصَّة وهي قراءةُ ابن كثيرِ وأبي عمرو ومجاهد وسعيد بن جبير وقراءة ابنِ عبَّاس، وقرأ الباقون (مَسَاجِدَ) بالجمعِ، وإنما قالَ (مَسَاجِدَ) لأنه قِبْلَةُ المساجدِ كلِّها. وقيل لعكرمة: لِمَ تَقْرَأ (مَسَاجِدَ) وإنَّمَا هُوَ مَسْجِدٌ وَاحِدٌ ؟ فقالَ: (إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ مَسَاجِدِ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ ؛ نُصبَ (شَاهِدِينَ) على الحال على معنى: ما كانت لَهم عمارةُ المسجدِ في حال إقرارهم بالكُفر، وهم كانوا لا يقولون نحنُ كفَّار، ولكن كان كلامُهم يدلُّ على كُفرهم، وهذا كما يقالُ للرجلِ: كلامُكَ يشهدُ أنَّك ظالِمٌ، وهو قولُ الحسنِ، وقال السديُّ: (شَهَادَتُهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ بالْكُفْرِ، أنَّ الْيَهُودِيَّ لَوْ قُلْتَ لَهُ: مَا أنْتَ ؟ قَالَ: يَهُودِيٌّ، وَيَقُولُ النَّصْرَانِيُّ: هُوَ نَصْرَانِيٌّ، وَيَقُولُ الْمَجُوسِيُّ: هُوَ مَجُوسِيٌّ)(٢).

وَقِيْلَ: شهادَتُهم على أنفسِهم بالكفر سجُودُهم لأصنامِهم وإقرارُهم أنَّها مخلوقةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الكفرَ أذهبَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٦١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٥٦ و١٢٨٥٧).

ثوابَ أعمالِهم وهي التي مِن جنسِ طاعةِ المسلمين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ ظاهرُ المرادِ.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى مَن يكون أَوْلَى بعمارةِ المسجد الحرام: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾؛ معناهُ: إنما يعمرُ مساجدَ اللهِ بطاعةِ الله مَن كان في هذه الصِّفة، قوله: (وَأَقَامَ الصَّلاَةَ) يعني إقامَ الصلاة المفروضة (وَآتَى الزَّكَاةَ) الواجبةَ في مالهِ، وقولهُ تعالى: (وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللهَ) أي لم يَخَفْ مِن غيرِ اللهِ، ولم يَرْجُ إلا ثوابَهُ. وكلمةُ عسى مِن الله واجبةٌ، والفائدةُ في ذكرِها في آخرِ هذه الآية ليكونَ الإنسانُ على حذَرٍ من فعلِ ما يُحبطُ ثوابَ عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ رُوي عن ابن عبَّاس أنه قال: (قَالَ الْعَبَّاسُ: لَئِنْ كُنْتُمْ سَبَقْتُمُونَا بالإسْلاَمِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). يعني أنَّ ذلك كان منكُم في الشِّركِ ولا أقْبَلُ ما كانَ في الشركِ. ورُوي أنَّ المشركين قالُوا: عمارةُ المسجدِ الحرام وقيامٌ على السِّقايةِ خيرٌ ممن آمَنَ وجاهَدَ. وكانوا يفتخِرون بالحرَمِ، ويستكبرون به مِن أجل أنهم أهلهُ وعُمَّارُهُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، وأخبرَهم أنَّ عِمارَتَهم المسجدَ الحرامَ وقيامَهم على السِّقايةِ لا ينفعُهم عندَ اللهِ من الشِّرك بالله.

وقال الحسنُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ وَالْعَبَّاسَ وَطَلْحَةَ بْن شَيْبَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، وَذلِكَ أنَّهُمُ افْتَخَرُوا، فَقَالَ طَلْحَةُ: أنَا صَاحِبُ الْبَيْتِ، بِيَدَيَّ مِفْتَاحُهُ، قَالَ الْعَبَّاسُ: أنَا صَاحِبُ السِّقَايَةِ، وَقَالَ عَلِيٌّ: أنَا صَاحِبُ الْجِهَادِ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)[1] أي أجعلتُم صاحبَ سقايةِ الحاجِّ وصاحبَ عمارةِ المسجد الحرام كإيمان مَن آمنَ بالله واليومِ الآخر، ﴿وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وَقِيْلَ: معناهُ: أجعلتُم ساقيَ الحاجِّ وعامرَ المسجدِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٦٤) عن محمَّد بن كعب القرظي بتمامه، وعن الحسن مختصراً.

الحرام، جعلَ السقايةَ بمعنى السَّاقِي، والعمارةَ بمعنى العامرِ، كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[1] أي للمتَّقين.

وقرأ عبدُالله بن الزُّبير وأبي: (أجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعَمَرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) على جميعِ السَّاقي والعامر[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ ﴾ ؛ أي لا يرشِدُهم إلى الحجَّة ما دامُوا مُصِرِّينَ على الكُفرِ، ولا يرشِدُهم إلى الجنَّة والثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: الذين صدَّقُوا بتوحيدِ الله، وهاجَرُوا من أوطانِهم إلى رسول الله ﷺ، وجاهَدُوا العدوَّ في طاعةِ الله أعظمُ درجةً عند اللهِ، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ المهاجرين هم الظَّافِرُون بأمَانِيهم من الخيرِ، النَّاجُونَ من النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ ﴾ ؛ أي يُبشِّرُهم ربُّهم في الدُّنيا على ألْسِنَةِ الرُّسل نجاةً من العذاب في الآخرة، ورضوان عنهم ويبشِّرُهم بجناتٍ، ﴿ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ ﴾ ؛ دائمٌ لا يزولُ عنهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ؛ أي دائِمين فيها أبداً مع كون النَّعيم مُقيماً لَهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢ ﴾ ؛ أي ثوابٌ كثير في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ نزلَت في المهاجِرين، ومعناهُ: لا تتَّخِذُوا آباءَكم وإخوانكم الذين بمكَّة أولياءَ، تُنصَرون بهم وتَنصُرونَهم إنِ اختاروا الكفرَ على

---

(١) طه / ١٣٢ .

(٢) في المحرر الوجيز: ص٨٣٢؛ قال ابن عطية: ((وقرأ ابن الزبير وأبو وَجْزَة، ومحمد بن علي، وأبو جعفر القارئ، وقال: وقرأ الضحاك وأبو وجزة وأبو جعفر القارئ: (سُقَايَةَ.)))

(٣) الفرقان / ٢٤ .

الإيمان، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ إنما جعل الظالمين لموالاةِ الكفار؛ لأنَّ الراضي بالكُفر يكون كافراً، وعن الضحَّاك: (لَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بالْهِجْرَةِ وكَانُوا قَبْلَ الْفَتْحِ بمَكَّةَ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ إيْمَانَهُ إلاَّ بمُهَاجَرَةِ الآبَاءِ وَالأَقْرِبَاءِ أيْ بمُجَانَبَتِهِمْ إذا كَانُوا كُفَّاراً، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنْ نَحْنُ اعْتَزَلْنَا مَنْ خَالَفَنَا فِي الدِّينِ، انْقَطَعَ آبَاؤُنَا وَعَشِيرَتُنَا، وَتَذْهَبَ تِجَارَتُنَا وَتَخْرَبَ دِيَارُنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وقال الكلبيُّ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ، جَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ لأَخِيهِ وَأبيهِ وَامْرَأتِهِ وَأقْرِبَائِهِ: إنَّا قَدْ أُمِرْنَا بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ فَاخْرُجُوا مَعَنَا إلَيْهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْجِبُهُ ذلِكَ فَيُنَازِعُ إلَيْهِ مَعَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى أنْ يُهَاجِرَ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَهُمْ: وَاللهِ لاَ أنْفَعُكُمْ بشَيْءٍ وَلاَ أُعْطِيكُمْ وَلاَ أُنْفِقُ عَلَيْكُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَتَعَلَّقُ بهِ زَوْجَتُهُ وَوَلَدُهُ وَعِيَالُهُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: نُنْشِدُكَ اللهَ أنْ لاَ تُضَيِّعْنَا، فَيَرِقُّ وَيَجْلِسُ وَيَتْرُكُ الْهِجْرَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإخْوَانَكُمْ أوْلِيَاءَ) أي أصدقاءُ فتُفشُونَ إليهم سِرَّكُم وتُؤثِرُونَ المقامَ معهم على الهجرةِ والجهاد إن استحَبُّوا الكفرَ على الإيمان، ومَن يتولَّهم منكم فيُطلِعُهم على عورةِ الإسلام وأهلِه، ويُؤثِر الْمُكْثَ معهم على الهجرةِ، (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أي القَاضُونَ الواضِعُون الولايةَ في غيرِ موضعِها.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للذين تركُوا الهجرةَ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤكم وإخوانكم ونساؤكُم وقراباتُكم، ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ ؛ اكتسَبتُموها بمكَّة وأصبتُموها، ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ ؛ أي عدمَ نفاقِها إذا اشتغلتُم بطاعةِ الله، ﴿ وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ ؛ ومنازلُ تعجبُكم الإقامة بها بمكَّة، ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ﴾ ؛ طاعةِ، ﴿ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ بالهجرةِ إلى المدينةِ، ﴿ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ ، وأحبَّ إليكم من الجهادِ في طاعةِ اللهِ، ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ، أي فانتظِروا حتى يأتيَ اللهُ بفتحِ مكَّة، ويقال: حتى يأتي اللهُ بعذابٍ عاجل أو آجِلٍ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يرشدُ الخارجِين عن طاعتهِ إلى معصيتِه، ولا يهديهم إلى جنَّتهِ وثوابه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خرَجَ من مكَّة بَعْدَ مَا فتحها، وكَانَ انْفِتَاحُها فِي بَقِيَّةِ أيَّام رَمَضَان، فمكث بها حَتَّى دَخَلَ شَوَّالُ مُتوجِّهاً إِلَى حُنَين، وبعث رَجُلاً مِنْ بَنِي سُلَيم عَيْناً لَهُ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي حَدْرَد، فأتَى حُنَيناً فكَانَ بَيْنَهُم يَسْمَعُ أخْبَارَهُمْ، فَسَمِعَ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ يَقُولُ لأَصْحَابهِ: أنْتُمُ الْيَوْمَ أرْبَعَةُ آلاَفِ رَجُلٍ، فإذا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَاحْمِلُوا عَلَيهِمْ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَوَاللهِ لاَ تَضْرِبُونَ بأرْبَعَةِ آلاَفِ سَيْفٍ شَيْئاً إلاَّ أفْرَجَ لَكُمْ. وكَانَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ عَلَى هَوَازن، وَكِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلِ عَلَى ثَقِيفٍ، فَأقْبَلَ ابْنُ أبي حَدْرَدَ حَتَّى أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأخْبَرَهُ بمَقَالَتِهِمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَجِّهاً إلَيهِمْ فِي عَشَرَةِ آلاَفِ رَجُلٍ، كذا قال الكلبيُّ.

وقال مقاتلُ: (كَانُوا أحَدَ عَشَرَ ألفاً وَخَمْسَمِائَةٍ)[1]، وقال قتادةُ: (خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى حُنَينٍ لِقِتَالِ هَوَازنَ وثَقِيف فِي اثْنَي عَشَرَ ألْفاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، وَالْفَينِ مِنَ الطُّلَقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ سَلَمَةُ بْنُ سَلاَمَةَ[2]: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ نُغْلَبُ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، فَسَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَلِمَتُهُ وَابْتَلَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ بذَلِكَ، فَلَمَّا الْتَقَوا حَمَلَ الْعَدُوُّ عَلَيهِمْ حَمْلَةَ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَقُومُوا لَهُمْ حَلْبَ الشَّاةِ أن انْكَشَفُوا وَتَبعَهُمُ الْقَوْمُ فِي أدْبَارِهِمْ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَأبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارثِ يَقُودُ بهِ، وَالْعَبَّاسُ أخَذَ بالثَّغْرِ، وَحَوْلَ رَسُول اللهِ يَوْمَئِذٍ نَحْوٌ مِنْ ثَلاَثِمائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَانْهَزَمَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَكِّضُ بَغْلَتَهُ نَحوَ الْكُفَّار لاَ يَأْلُ، وَكَانَتْ بَغْلَتُهُ شَهْبَاءَ وَهُوَ يُنَادِي: [يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَيَا مَعْشَرَ الأنْصَار إلَيَّ، أيْنَ أصْحَابُ الصُّفَّةِ] أيْ أصْحَابُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

---

(١) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص٤٢.

(٢) سلمة بن سلامة بن وقش الأشهلي الأنصاري، الصحابي، شهد العقبة الأولى والعقبة الآخرة والمشاهد كلها، واستعمله عمر على اليمامة؛ وتوفي سنة خمس وأربعين بالمدينة وهو ابن سبعين سنة. ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (١٠٢٦).

وَكَانَ الْعَبَّاسُ يُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، أَيْنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، هَلُمُّوا فَإِنَّ هَذَا رَسُولُ اللهِ. وَكَانَ الْعَبَّاسُ صَيِّتاً جَهُورِيَّ الصَّوْتِ، يُروَي أَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ صَوْتِهِ أَنَّهُ أغِيرَ يَوْماً عَلَى مَكَّةَ فَنَادَى وَاصْبُحَاهُ، فَأَسْقَطَتْ كُلُّ حَامِلٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ.

فَلَمَّا صَاحَ بِالْمُسْلِمِينَ عَطَفُوا حِينَ سَمِعُوا صَوْتَهُ عَطْفَةَ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَقَالَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، وَجَاؤُا عُنُقاً وَاحِداً لِنَصْرِ دِينِ اللهِ، وَأَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاءِ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيهِمْ، وَحَمِيَ الْوَطِيسُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ يَتَطَاوَلُ إِلَى قِتَالِهِمْ، ثُمَّ أَخَذَ كَفّاً مِنَ الْحَصَى فَرَمَاهُمْ بِهِ وَقَالَ: [شَاهَتِ الْوُجُوهُ، انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ] فَوَاللهِ مَا زَالَ أَمْرُهُمْ مُدْبِراً وَجَدُّهُمْ كَلِيلاً، وَهَرَبَ حِينَئِذٍ آمِرُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ)[١].

وقال أبي اسحاق: (قُلْتُ لِلْبَرَاءِ[٢]: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مَعَهُمْ مُوَلِّياً؟ قَالَ: لاَ وَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، مَا وَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ دُبُراً قَطُّ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءَ يَرْكُضُ نَحْوَ الْكُفَّارِ وَهُوَ يَقُولُ: [أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ] ثُمَّ قَالَ لِلعَبَّاسِ:[نَادِ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ] فَعَطَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مُسْرِعِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْمُشْرِكِينَ وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ)[٣].

قال سعيدُ بن جُبير: (أَمَدَّ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِخَمْسَةِ آلاَفِ مَلَكٍ)، وقال الحسن ومجاهدُ: (كَانُوا ثَمَانِيَةَ آلاَفٍ)، قال قتادةُ: (كَانُوا سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفاً)، وقال سعيدُ بن جبير:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٧٤ و١٢٨٧٥) عن قتادة، والأثر (١٢٨٧٦) عن السدي، والأثر (١٢٨٧٧) عن كثير بن عباس، والأثر (١٢٨٧٨) عن سعيد بن المسيب. والحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٧٦/ ١٧٧٥).

(٢) عند البخاري في الصحيح: (قال رجل للبراء: ...) في الحديث (٢٨٦٤ و٢٨٧٤ و٢٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب من قاد دابة غيره في الحرب: الحديث (٢٨٦٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب في غزوة حنين: الحديث (٧٨/ ١٧٧٦).

(حَدَّثَنِي رَجُلٌ كَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَالَ: لَمَّا الْتَقَيْنَا نَحْنُ وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَقِفْ لَنَا حَلْبَ شَاةٍ، فَلَمَّا كَشَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقُهُمْ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ – يعني – النَّبِيَّ ﷺ تَلَقَّانَا رِجَالٌ بِيضُ الثِّيَابِ حِسَانُ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا: شَاهَتِ الْوُجُوهُ ارْجِعُوا، فَرَجَعْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافَنَا فَكَانَتْ إِيَّاهَا)[١] يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ.

ورُوي أن الملائكةَ قاتلت يومئذ، في الخبر: أنَّ رجُلاً من بني نَصْر بن معاوية قال للمؤمنين وهو في أيدِيهم: أينَ الخيلُ البُلْقُ؟ والرجالُ عليهم الثياب البيضُ ؟ ما كنَّا نراكم فيهم إلاَّ كهَيئةِ الشَّامة، وما كان قتلُنا إلا بأيدِيهم، فأخبَرُوا بذلكَ رسولَ الله ﷺ، فقال: [تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ][٢].

قالَ: فلما هربَ أميرُ المشركين مالكُ بن عوف انْهزمَ المشركون وولَّوا مُدبرين، وانطلقَ المسلمون حتى أتَوا أَوْطَاساً بها عيالُ المشركين وأموالُهم، فبعثَ رسولُ الله ﷺ على المسلمين رجُلاً من الأشعريِّين أمَّرَهُ عليهم يقالُ له أبو عامرٍ، فسارَ معهم إلى أوطَاس فقاتلَ أهلَها حتى هزمَهم اللهُ وسبَى المسلمون عيالَ المشركين، وهربَ مالك ابن عوفٍ حتى أتَى إلى الطائفِ فتحصَّنَ بها، وأخِذَ مالهُ وأهله في مَن أخِذ، وقُتِلَ أبو عامر رضي الله عنه. ثم أتَى رسولُ الله ﷺ الطائفَ فحاصرَهم بقيَّة ذلك الشهر، فلما دخلَ ذو القعدةِ وهو شهرٌ حرام لا يحلُّ فيه القتالُ، رجعَ رسولُ الله ﷺ إلى الْجِعْرَانَةِ فأحرمَ منها بعُمرةٍ، وقسَّم بها السَّبيَ والمالَ وغنائمَ حُنين وأوطاس.

وتألَّفَ أناسٌ منهم أبو سُفيان بن حربٍ، وسهلُ بن عمرو، والأقرعُ بن حابس، فأعطَاهُم وجعلَ يُعطي الرجلَ منهم الخمسينَ والمائة من الإبلِ، فقالَ طائفةٌ من الأنصار: مَنَّ الرجلُ وآثرَ قَوْمَهُ بالعُجب، إنَّ أسيافَنا تقطرُ من دمائِهم وغنائمُنا تُردُّ عليهم. فبلغَ ذلك رسولُ الله ﷺ فجمعَهم وقالَ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟] فَقَالُوا: هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ، وَكَانُوا يَكْذِبُونَ، فَقَالَ: [أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ وَكُنْتُمْ ؟].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٨٢) عن سعيد مختصراً، والأثر (١٢٨٨١) عن عبدالرحمن مولى أم برثن.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٤٨، وزاد فيه: أن اسم الرجل (شجرة).

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: ائْذَنْ لِي أتكَلَّمُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [تَكَلَّمْ] قَالَ: أمَّا قَوْلُكَ [كُنْتُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي] بحَقٍّ كُنَّا كَذَلِكَ، وَأمَّا قَوْلُكَ: [كُنْتُمْ أذِلَّةً فَأعَزَّكُمُ اللهُ بِي] فَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أنَّهُ مَا كَانَ حَيٌّ مِنْ أحْيَاءِ الْعَرَبِ أمْنَعَ لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنَّا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا سَعْدُ أتَدْرِي مَنْ تُكَلِّمْ ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا عُمَرُ أكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَلَكَتِ الأنْصَارُ وَادِياً وَسَلَكَتِ النَّاسُ وَادِياً لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ، الأنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ] ثُمَّ قَالَ: [يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أمَا تَرْضَوْنَ أنْ يَنْقَلِبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالإبِلِ وَتَنْقَلِبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إلَى بُيُوتِكُمْ؟] قَالُوا: بَلَى رَضِينَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا قُلْنَا ذَلِكَ إلاَّ مَحَبَّةً للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [إنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذُرَانِكُمْ][(١)]. فلما قَدِمَ النبيُّ ﷺ قامَ خطيباً فقال: [أمَّا خَطِيبُ الأنْصَارِ؛ وَلَوْ قَالَ: كُنْتَ طَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَكُنْتَ خَائِفاً فَآمَنَّاكَ، وَكُنْتَ مَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ، لَكَانَ قَدْ صَدَقَ] فَبَكَتِ الأنْصَارُ. بَلِ اللهُ وَرَسُولُهُ أعْظَمُ مَنّاً عَلَيْنَا[(٢)].

وذُكِرَ لنا: أن ضِئْرَ النبيِّ ﷺ التي أرضعتَهُ من بني سَعْدٍ أتَتْهُ يومَ حُنين فسألَهُ سَبَايا حُنين، فقال ﷺ: [إنِّي لاَ أمْلِكُكُمْ وَإنَّمَا أمْلِكُ نَصِيبِي مِنْهُمْ، وَلَكِنِ ائْتِينِي غَداً فَسَلْنِي وَالنَّاسُ عِنْدِي، فَإذَا أعْطَيْتُكِ حِصَّتِي أعْطَاكِ النَّاسُ] فجاءت من الغَدِ، فبسطَ لها ثوبَهُ فقعدَتْ عليه، ثم سألَتْهُ ذلك فأعطاها نصيبَهُ، فلما رأى ذلك الناسُ أعطَوها أنصباءَهم[(٣)]. قال الزهريُّ وابن المسيَّب: ((إنَّهُمْ أصَابُوا يَوْمَئِذٍ الْفَي سَبِيٍّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أمَرَ مُنَادِياً فَنَادَى يَوْمَ أوْطَاسٍ:[أنْ لاَ تُوطَأ الْحَبَالَى حَتَّى يَضَعْنَ، وَالْحَيَالَى حَتَّى تَسْتَبْرِئْنَ بِحَيْضَةٍ))[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٨٧٤) عن قتادة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص١٤٢-١٤٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٢؛ قال: (وقال قتادة: وذكر لنا... وذكره)). وذكر ابن هشام قصة الشيماء في السيرة النبوية: ج ٣ ص١٠٠-١٠١.

(٤) أخرجه ابو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في وطء السبايا: الحديث (٢١٥٥) و(٢١٥٧) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هو صحيح من حديث أبي سعيد.

ثم إنَّ مالكَ بن عوفٍ قال لأصحابهِ: هل لكم أنْ تُصيبـوا مـن مُحمَّـدٍ مَـالاً ؟ قالُوا: نَعَمْ، فأرسلَ إلى النبيِّ ﷺ أنِّي أريدُ أن أسلِمَ فمَا تُعطِيني ؟ قالَ: [أُعطِيكَ مِائَـةً مِنَ الإبلِ ورُعَائهَا] فجاءَ وأسلمَ وأقامَ يوماً أو يومَين، فلمَّـا رأى المسلمين ورقَّتَـهُمْ وزُهدَهم واجتِهادَهم رَقَّ لذلكَ، فقال له النبيُّ ﷺ: [يَا ابْـنَ عَـوْفٍ ألاَ نَفـي لَـكَ بمَا وَعَدْنَاكَ ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أمِثْلِي يـأخذُ علـى الإسـلامِ شَيئاً؟! ثـم أسـلمَ أهـلُ الطَّائفِ، وكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتحَ عامَّةَ الشام[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) أي لقد أعانكم اللهُ على أعدائِكـم في مواضـعَ كثيرةٍ من قتالِ بدرٍ وحرب بني قُريظة والنَّضير وحُنَين وفتحِ مكة. قولهُ: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) أي وأعانكم يومَ حُنين، وحُنَينُ: اسمُ وادٍ بين مكَّة والطائف، وأُضِيفَ اليومُ إلى حُنَين لوقوعِ الحرب يومئذٍ بها.

وقولهُ تعـالى: (إذ أعْجَبَتْكُـمْ كَـثْرَتُكُمْ) إذ سـرَّتكم، والإعجـابُ هـو السُّرورُ والتعجُّبُ، فلم تُغْـنِ عنكـم كَـثرَتُكم شيئاً ولا دفعـت عنكـم سـوءاً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ؛ أي ضاقَتْ عليكـم الأرضُ مع سِعَتِها من خوفِ العدوِّ، فلم تجدوا موضِعاً للفـرار إليـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي أعرَضتُم مُنهزِمين لا تَلْوُونَ على أحدٍ. والإدبارُ الذَّهابُ إلى الخلفِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ ؛ أي أنـزلَ أمْنَـهُ ورحمتَـهُ على رسوله، ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حتى عادُوا فظَفِروا. والسَّكِينَةُ في اللغة اسـمٌ لِما يسكنُ إليه القلبُ، وقال الحسنُ: (أرَادَ بالسَّكِينَةِ الْوَقَـارَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ؛ أي أنزلَ من السَّماء ملائكةً لنصرِكم، لم تروها بـأعيُنِكم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ يعـني بـالقتلِ والأسـرِ، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ ؛ العقابُ، ﴿ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص١٣٣-١٣٤.: قصة إسلام مالك بن عوف النصري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾ ؛ أي ثم يتوبُ مِن بعد الهزيمةِ على مَن يشاءُ منهم مَن كان أهْلاً لذلكَ، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ ﴾ ؛ لِمَا كان منهم في الشِّرك إذا تابُوا ﴿ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ بهم في الإسلامِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنما المشـركونَ قَذرٌ، وقِيلَ: خبثٌ. والنَّجَسُ: مصدرٌ أقِيمَ مقامَ الاسمِ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، يقالُ: رجلٌ نَجَسٌ وامرأةٌ نَجَسٌ، ورجال ونساءٌ نَجَس، ولا يؤنَّثُ ولا يُجمع؛ فلهذا لم يقل إن المشركينَ أنجاسٌ، وسَمَّى المشركَ نَجساً؛ لأنَّ شِركَهُ يجري مجرَى القذر في أنه يُجنَبُ الْجُنُب، كما تُتجَنَّبُ النجاسات؛ أي يجبُ التبرُّؤ من المشركين وقطعُ مودَّتِهم.

والنجاسةُ على ضَربين، نجاسةُ أعيان، ونجاسةُ الذُّنوب، وكان الحسنُ يقول: (لاَ تُصَافِحِ الْمُشْرِكِينَ، فَمَنْ صَافَحَهُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ)[1]، وقال قتادةُ: (سَمَّاهُمُ اللهُ نَجَساً لأَنَّهُمْ يُجْنِبُونَ وَلاَ يَغْتَسِلُونَ، وَيُحْدِثُونَ وَلاَ يَتَوَضَّـؤُونَ، فَمُنِـعَ مِـنْ دُخُـولِ الْمَسَـاجِدِ؛ لأَنَّ الْجُنُبَ لاَ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) أي لا ينبَغِي لهـم أن يقربوهُ للحجِّ والطَّواف بعد هذا العامِ، وهو العامُ الذي حجَّ فيه أبو بكرٍ ﵁، ونـادَى عليٌّ ﵁ فيه ببراءَةٍ، وهو سنةُ تسعٍ من الهجرة، ثم حجَّ رسولُ الله ﷺ في العامِ الثاني حجَّة الوداعِ في سنة عاشرٍ من الهجرة[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ) بيانُ أنَّ المرادَ بالآيةِ إبعادُ المشركين عن المسجدِ الحرام، كما رُوي عن عليٍّ ﵁ أنه كان يُنادي فيهم في ذلك العامِ: [أَلاَّ لاَ يَطُوفَنَّ بهذَا الْبَيْتِ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَعُرْيَانٌ].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٤).

(٢) هذا تأويل الإمام الطبري، وأدرجه المصنف رَحِمَهُ اللهُ في مجال كلام قتادة. وأخرجه الطـبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٨٩)؛ قال: النجس: الجنابة. والأثر (١٢٨٩١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٥) عن قتادة.

قال ابنُ عبَّاس[١]: (فَقَالَ أنَاسٌ مِنْ تُجَّار بَكْر بْن وَائِل وغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ قِرَاءَةِ عَلِيٍّ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: سَتَعْلَمُونَ يَا أهْلَ مَكَّةَ إذَا فَعَلْتُمْ هَذَا مَاذا تَلْقَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ وَمِنْ أيْنَ تَأكُلُونَ، أمَا وَاللهِ لَتُقَطَّعَنَّ سُبُلُكُمْ، وَلاَ نَحْمِلُ إلَيْكُمْ شَيْئاً. فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ أهْلِ مَكَّةَ وَشُقَّ عَلَيْهِمْ، وَألْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوب الْمُسْلِمِينَ حُزْناً وَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أيْنَ تَعِيشُونَ وَقَدْ نَفَى الْمُشْرِكِينَ وَقَطَعَ عَنْكُمُ الْمِيرَةَ ؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ كُنَّا نُصِيبُ مِنْ تِجَارَاتِهِمْ، فَالآنَ يَنْقَطِعُ عَنَّا الأسْوَاقُ وَالتِّجَارَةُ وَيَذْهَبُ الَّذِي كُنَّا نُصِيبُهُمْ فِيهَا، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾) معناهُ: وإنْ خِفتُم فقراً من إبعادِ المشركين، (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) بغيرهم، فأخْصَبَتْ تَبَالَةُ[٢] وَجَرَشُ وحَملوا إلى مكَّة الطَّعامَ والإدامَ، وأغنَى اللهُ أهلَ مكَّة من تُجَّار بني بكرٍ[٣]. ورُوي أن أهلَ نَجْدٍ وصنعاءَ من أهلِ اليمَنِ أسلَمُوا وحملوا إلى مكَّة الطعامَ في البحرِ والبرِّ.

والعَيلَةُ: الفقرِ والصِّفَاقِ، يقالُ: عَالَى الرجلُ يَعِيلُ عليه، قال الشاعرُ:

وَلاَ يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاؤُهُ ... وَلاَ يَدْري الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

أي يفتقرُ. وفي مُصحف عبدِالله (وَإنْ خِفْتُمْ عَائِلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)[٤].

وقولهُ تعالى: ﴿ إِن شَآءَ ﴾ ؛ استثناءٌ، فجاء عِلمُ اللهِ أنه سيكون لئَلا تتركَ العبادُ الاستثناءَ في أمورهم، ولتنقطعَ الآمالُ إلى اللهِ في طلب الغِنَى منهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بخلقهِ وما يُصلِحُهم، حكيمٌ فيما حكمَ من أمرهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٦-١٢٩١٠) وأدرجها الطبراني في هذا النص.

(٢) في المخطوط: (توبالة).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٦.

(٤) في المحرر الوجيز: ص٨٣٦؛ قال ابن عطية: ((وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود: ﴿عَائِلَةً﴾ وهو مصدر كالقائلة، من قال يقيلُ، وكالعاقبة والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً لمحذوف تقديره: (حالاً عائلة.)) وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٧.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَٰخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ؛ معناه: قاتِلُوا اليهودَ والنصارى الذين لا يُؤمنون بآياتِ الله التي أنزلَها على نبيِّه ﷺ. وَقِيْلَ: معنى قولهِ: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾؛ أي كانوا يَصِفُونَ اللهَ سبحانه بصفةٍ لا تليقُ به، لأن اليهودَ مُثَنِّيَةٌ والنَّصارى مُثَلِّثَةٌ. وقولهُ تعالى: (وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ) أي لا يحرِّمون الخمرَ والخنْزير ونحوَ ذلك مما لم يُقِرُّوا بتحريمِهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لا يعتقدون دينَ الإسلامِ ولا يخضعون لله بالتوحيدِ، وَقِيْلَ: معنى (دِينَ الْحَقِّ) أي دينَ اللهِ؛ لأن اللهَ هو الحقُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارى، ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ ﴾ ؛ أي حتَّى تؤخذَ الجزيةُ من أيديهم وهم قِيَّامٌ أذِلاَّء، والآخِذُ جالسٌ. ويقال: أرادَ بالقهرِ، كأنه قالَ: عن قَهْرٍ من المسلمين عليهم واعترافٍ منهم للمسلمين بأنَّ أيدِي المسلمين فوقَ أيديهم، كما يقالُ: اليدُ لفلانٍ في هذا الأمرِ، ويرادُ به نَفَاذُ أمْرِهِ. ويحتملُ أن يكون المعنى باليدِ إنعامُ المسلمين عليهم بقَبولِ الجزيةِ عنهم. ويقال: أراد باليدِ القوَّة على معنى أنه ليس على الفقيرِ غيرِ المتموِّل جزيةٌ.

وأما طعنُ المخالف[١] كيف يجوزُ إقرار الكفَّار على كفرِهم بأداءِ الجزيةِ بدَلاً عن الإسلامِ ؟ فالجواب: أنه لا يجوز أن يكون أخذُ الجزيةِ عنهم رضًى بكُفرِهم، وإنما الجزيةُ عقوبةٌ لهم على إقامتِهم على الكفرِ، وإذا جازَ إمهالُهم بغيرِ الجزيةِ للاستدعاءِ إلى الإيمان كان إمهالُهم بالجزيةِ أولى. قال أبو عُبيد: (يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ أعْطَى شَيْئاً كَرْهاً مِنْ غَيْرِ طِيب نَفْسٍ مِنْهُ أعْطَاهُ عَنْ يَدٍ)[٢]، قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ يُعطِيهَا بأيدِيهِمْ يَمْشُونَ بهَا كَارِهِينَ، وَلاَ يَجِيئُونَ رُكْبَاناً وَلاَ يُرْسِلُونَ بهَا)[٣].

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٦٨؛ نقل الخلاف عن ابن الراوندي.
(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٥٠-٥٥١.
(٣) علقه الطبري في جامع البيان؛ قال: ((وذلك قول ابن عباس من وجه فيه نظر)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩) ﴾ ؛ أي ذليلُـونَ ومَقـهُورُونَ، قـال عكرمةُ: (مَعْنَى الصَّغَار هُوَ أنْ تَأْخُذَهَا وَأنْتَ جَالِسٌ وَهُوَ قَائِمٌ)(١)، وقال الكلبيُّ: (هُوَ أنَّهُ إذا أعْطَى الْجِزْيَةَ صُفِعَ فِي قَفَاهُ)(٢)، وَقِيْلَ: هو أنه لا يُقبَلُ فيها رسالةٌ ولا وكالَةٌ.

وتؤخذُ الجزية أيضاً من الصَّابئين والسامِريِّ؛ لأن سبيلَهم في أهلِ الكتاب سبيلُ لأهلِ البدَعِ فِينَا، وتؤخذُ الجزية أيضاً من الْمَجُوسِيِّ؛ لأنه قـد قيـلَ إنَّـهم كـانوا أهـلَ كتابٍ فرُفِعَ كتابُهم، وعن سـعيدِ بـن المسيَّب (أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ أخَـذَ الْجِزْيَـةَ مِـنْ مَجُوسِ الْهَجَرِ، وَأخَذَهَا عُمَرُ ﷺ مِنْ مَجُوسِ أهْلِ السَّوَادِ)(٣).

رُوي أنَّ عمر ﷺ قال: لاَ أدْري كَيْفَ أصْنَعُ بالْمَجُوس. فَقَالَ لَهُ عَبْدُالرَّحْمَـنِ ابْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُـولُ:[سُـنُّوا بِـهِمْ سُـنَّةَ أهْـلِ الْكِتَاب غَيْرَ نَاكِحِينَ نِسَاءَهُمْ وَلاَ آكِلِي ذبَائِحِهِمْ](٤).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الآيةُ؛ أي قالتِ اليهودُ حين قرأ عليهم عزيرٌ التوراةَ عن ظهرِ قلبٍ: إن اللهَ لم يجعلِ التوراةَ في قلـبِ أحدٍ إلا وهو ابنهُ! وعن ابن عبَّاس ﷺ: (أنَّ جَمَاعَـةً مِـنَ الْيَـهُودِ مِنْـهُمُ النُّعْمَـانُ بْـنُ أوْفَـى، وَشَاسُ بْنُ قَيْسٍ، وَمَالِكُ بْنُ صَيْفٍ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ: كَيْـفَ نَتَّبِعُـكَ وَقَـدْ تَرَكْتَ قِبْلَتَنَا، وَلاَ تَزْعَمُ أنَّ عُزَيْراً ابْنُ اللهِ تَعَالَى! فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٥)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩١٢). وابن أبي حاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٠٤٢) — من تفسير المغيرة في جوابه لرستم لمعنى (الجزية) –.

(٢) أيضاً نقله البغوي في معالم التنزيل: ص٥٥١. قلتُ: وفي هذا القول مبالغة، لا تتفـق وعمومـات الشريعة، بل الغرض من الجزية في مفهوم ودلائل النصـوص الشـرعية في البـاب؛ ينظـر: الجـامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١١٤-١١٥: المسألة الحادية عشرة.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب أهل الكتاب: أخذ الجزية: الأثر (١٠٠٢٦) عن الزهـري. ومجوس أهل هجر: هم أهل البحرين. والكلمة فارسية معناها: عبدة الفرس. وأخرجـه البيـهقي في السنن الكبرى: كتاب الجزية: باب المجوس أهـل كتـاب: الحديـث (١٩١٦٩) عـن سـعيد بـن المسيب مرسلاً.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في المصنـف: كتـاب أهـل الكتـاب: الأثـر (١٠٠٢٥). والبيـهقي في السـنن الكبرى: الحديث (١٩١٦٧). وأصله في صحيح البخاري: كتاب الجزية: باب الجزية والموادعة.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٩١٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٤٣).

وقرأ عاصمُ والكسائي ويعقوب (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) بالتنوين، وقرأ الباقون بغيرِ التنوين، فمَن نوَّنَ قال: لأنه اسمٌ خفيف فوجهُهُ أن يصرفَ وإنْ كان أعجمياً مثل نوحٍ وهود ولوطٍ، وقال أبو حاتم والمبرد: اختيار التنوينِ لأنه ليس بصفةٍ والكلامُ ناقصٌ، و(ابْنُ) في موضعِ الخبر وليس بنعتٍ، وإنما يحذفُ التنوين في النَّعتِ. ومَن تركَ التنوينَ قال لأنه اسمٌ أعجمي. قال الزجَّاج: (يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْخَبَرُ مَحْذُوفاً تَقْدِيرُهُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ مَعْبُودٌ، عَلَى أنْ يَكُونَ (ابْنُ) نَعْتاً لِلْعُزَيْرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ؛ هذا قولُ نصارى نجران، وقولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم لا يتجاوَزون في القولِ عن العبادةِ؛ أي المعنى إذ لا بُرهانَ لهم لأنَّهم يعترفون أنَّ اللهَ لا يتخذُ صاحبةً، فكيفَ يزعُمون أنَّ له ولداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي يُشَابهُونَ في قول ذلك قولَ أهلِ مكَّة حين قالَ: اللاَّتُ والعُزَّى ومناةُ. وَقِيلَ: أرادَ يُشَابهُونَ قولَ الكفَّار الذين يقولون الملائكةُ بناتُ اللهِ.

قرأ عاصم (يُضَاهِئُونَ) بالهمز[1]، وقرأ العامَّة بغيرِ همزٍ، يقال: ضَاهَيْتُهُ وَضَاهَأْتُهُ بمعنى واحدٍ، وقال قتادةُ والسدي: (ضَاهَتِ النَّصَارَى قَوْلَ الْيَهُودِ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُضَاهِئُونَ) أي يُشَابهُونَ، يقالُ: امرأةٌ أضْهَيَاً إذا شابَهت الرجُلَ في أنَّها لا ثديَ لها ولا تحيضُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ؛ أي لَعَنَهُمُ اللهُ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال ابنُ جُرَيجٍ: (مَعْنَاهُ قَتَلَهُمُ اللهُ)، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ ؛ أي أنَّى يَكْذِبُونَ ويَصْدِفونَ عن الحقِّ بعد قيام الدلالةِ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ؛ اتخذَ النصارى واليهود علماءَهم وعُبَّادَهم أرْبَاباً؛ أي أطاعُوهم في معاصِي الله، فجعلَ

---

(١) في جامع البيان؛ قال الطبري: (لغة ثقيف).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩١٨) عن قتادة، والأثر (١٢٩١٩) عن السدي.

اللهُ طاعتَهم عبادتَـهم؛ لأنَّـهم اتَّبعُوهـم وتركُـوا أوامـرَ الله ونواهيـهِ في كتُبـهم، قـال الضحَّاك: (الأَحْبَارُ: الْعُلَمَاءُ)[1] وَاحِدُهُمْ حِبْرٌ وَحَبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَبِفَتْحِـهَا، وَالْكَسْـرُ أَفْصَحُ، وَالرُّهْبَانُ مِنَ النَّصَارَى: أَصْحَابُ الصَّوَامِعِ وَأَهْلُ الاجْتِهَادِ فِي دِينِهِمْ. وقولـهُ تعالى: (أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ) أي سَـادَةً مـن دونِ الله يُطيعونـهم في معـاصِي الله. وأما تسميةُ العالِم حَبراً فلكثرةِ كتابتهِ بالحِبرِ، وَقِيْلَ: لتَبْحِيرهِ المعاني بالبيـانِ الحسَـنِ. وأما الراهبُ فهو الخاشعُ للهِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ ؛ أي اتُّخِذَ المسيحُ إلـهاً. وقولـهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ ﴾ ؛ أي لَم يُؤمَـروا في جميعِ الكتُبِ ولا على ألْسِنَةِ الرُّسـلِ إلاَّ بعبادةِ إلَـهٍ واحـدٍ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي تنْزيهاً للهِ عن الشِّرك وما لا يليقُ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ أي يريـدونَ أن يُرَدَّ القرآنُ ودلائـلُ الإسـلام بـالتكذيب بألسِـنَتِهم، وقـال الضحَّـاك: (يُرِيـدُ الْيَـهُودُ وَالنَّصَارَى أنْ يَهْلَكَ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ وَلاَ يُعْبَدَ اللهُ بالإسْـلاَمِ)[2] ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ ؛ ويعلِي دِينَهُ وكلماتِهِ ويُظهرَ الإسلامَ وأهلَهُ علـى أهـلِ كـلِّ ديـنٍ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ؛ أي هو الذي بَعَثَ مُحَمَّـداً ﷺ بـالقرآن وديـنِ الإسـلام، ليُظـهِرَهُ على سائرِ الأديان بالحجَّة والغلَبَةِ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ . واختلفَ العلماءُ في قوله (لِيُظْهِرَهُ) قال ابنُ عبَّاس: (إنَّـهَا عَـائِدَةٌ عَلَـى الرَّسُـول، يَعْنِـي لِيُعِمَّـهُ بشَرَائِعِ الدِّينِ كُلِّهِ فَيُظْهِرَهُ عَلَيْهَا حَتَّى لاَ يَخفَى عَلَيْـهِ شَـيْءٌ مِنْـهَا)[3]. قـال آخـرون: (الهاءُ) راجعٌ الى دينِ الحقِّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٦٦).

(٣) بمعناه أخرجه الطبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٢٩٣٥). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٠٧٠).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ؛ معناهُ: يا أيُّها الذين آمنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن إنَّ كَثيراً من الأحبار وهم من ولدِ هارُون، قوله: (وَالرُّهْبَان) وهم أصحابُ الصَّوامعِ وهم دونَ الأحبار في العلم، قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بالْبَاطِلِ) أرادُوا به أخذَ الرِّشَا على الحُكمِ، وما كان لَهم مِنَ الهدايا من سَفَلَتِهم على كِتمَان بَعْثِ النبيِّ ﷺ وصفتهِ، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس، وقال السديُّ: (الأَحْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ، وَالرُّهْبَانُ أَصْحَابُ الصَّوَامِعِ مِنَ النَّصَارَى)(١).

وأما تخصيصُ الأكلِ في الآية، فلأنَّ مُعظَمَ المقصودِ من التَّمليكِ الأكلُ، فوُضِعَ الأكلُ موضعَ الْمِلْكِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي يَصرِفُونَ الناسَ عن دينِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي يجمَعونَها ويضَعون بعضها فوقَ بعضٍ، ولا يُنفِقُونَ الكُنُوزَ في طاعةِ الله. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يُنفِقُونَ الفضَّة، وحذفَ الذهبَ؛ لأن في بيانِ أحدِهما حكمُ الآخر، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾(٢)، والدليلُ على أنَّ هذه الكنايةَ راجعةٌ إلى الذهب والفضَّة جميعاً أنَّها لو رَجعت إلى أحدِهما لبَقِيَ الآخرُ عارياً عن الجواب، فيصيرُ كلاماً مُنقطعاً لا معنى له، وتقديرُ الآيةِ: لاَ يُنفقون منها؛ أي لا يُؤَدُّونَ زكاتَهما ولا يُخرِجُونَ حقَّ الله منهما، إلاَّ أنه حذفَ (مِنْ) وأرادَ إثباتَها، بدليلِ أنه تعالى قال في آيةٍ أخرى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) قال النبيُّ عليه السلام: [فِي مِائَتَي دِرْهَمٍ خَمْسُ دَرَاهِمَ، وَفِي عِشْرِينَ مِثْقَالاً مِنَ الذَّهَب نِصْفُ مِثْقَالٍ](٣) ولو كان الواجبُ إنفاق جميعِ المال لم يكن لِهذا التقديرِ وجهٌ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٣٦).

(٢) الجمعة / ١١ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الزكاة: باب نصاب الذهب: الحديث (٧٦٢٦) عن علي رضي الله عنه.

وسُمِّي الذهبُ ذَهباً؛ لأنه يذهبُ ولا يبقَى، وسميت فضـةً لأنَّـها تَنْفَـضُّ؛ أي تُفرَّقُ ولا تبقَى، وحسبُكَ باسمِهنَّ دلالةً على فَنَائِهما وأنه لا بقاءَ لهما.

وقولهُ تعالى: (فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ أَلِيمٍ) أي ضَعِ الوعيدَ لهم بالعذاب موضعَ بشارةِ بالنِّعم لغيرِهم؛ وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: (كُلُّ مَالٍ أدَّيْتَ زَكَاتَهُ فَلَيْـسَ بكَنْزٍ وَإنْ كَانَتْ تَحْتَ سَبْعِ أرْضِينَ، وَكُـلُّ مَـالٍ لَـمْ تُـؤَدِّ زَكَاتَـهُ فَـهُوَ كَـنْزٌ وَإنْ كَـانَ ظَاهِراً)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ؛ أي يوم يوقدُ على المكنوز في نار جهنَّم فتكوَى بها جِباهُـهم وجنُوبُهم وظهورهم عقوبةً، قال ابنُ عباس: (لاَ يُوضَعُ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَـمٌ عَلَـى دِينَارٍ وَلاَ عَلَى دِرْهَمٍ، وَلَكِنْ تُوَسَّـعُ جُلُودُهُـمْ لِذَلِـكَ فَـلاَ يَمَـسُّ دِينَـارٌ دِينَـاراً وَلاَ دِرْهَـمٌ دِرْهَماً)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: هذا ما جمعتُـم في دار الدُّنيـا، ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، فذوقـوا عقوبـةَ مـا كنتـم تجمعونَ. وسُئل أبو بكر الورَّاق: لِمَ خُصَّتِ الجِبَاهُ والجُنوبُ والظُّهورُ بالكَيِّ ؟ فقال: (لأنَّ الْغَنِيَّ صَاحِبَ الْكَنْزِ إذا رَأى الْفَقِيرَ الْعَصْرَ وَإذَا ضَمَّهُ وَإيَّاهُ مَجْلِـسٌ ازوَرَّ عَلَيْـهِ وَوَلاَّهُ ظَهْرَهُ)[٣].

عن ثوبَان مولَى النبيِّ ﷺ أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَـالَتِ الصَّحَابَـةُ: فَـأيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ: أنَا أسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَألَهُ فَقَـالَ ﷺ: [لِسَـاناً ذاكِـراً وَقَلْباً شَاكِراً وَبَدَناً صَابراً وَزَوْجَةً تُعِينُكَ عَلَى إيْمَانِكَ][٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٣٨ و١٢٩٣٧). وابن أبي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٨١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٦٠) بإسنادين. وابن أبـي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٠٩٢) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٨٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديـث (١٢٩٤٥). والإمـام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٢٧٨ و٢٨٢. والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٠٩٤).

وعن أبي هُريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: [مَا مِنْ صَاحِب كَنْزٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إلاَّ أحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَار جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَتُكْوَى بهَا جَبينُهُ وَجَنْبَاهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار.

وَمَا مِنْ صَاحِب إبلٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسِيرُ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ آخِرُهَا رُدَّ عَلَيْهِ أوَّلُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار. وَمَا مِنْ صَاحِب بَقَرٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسِيرُ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى آخِرُهَا رُدَّ عَلَيْهِ أوَّلُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يُرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار.

وَمَا مِنْ صَاحِب غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ بأظْلاَفِهَا وَتَنْطَحُهُ بقُرُونِهَا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءَ وَلاَ جَلْحَاءَ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ آخِرُهَا رُدَّ أوَّلُهَا حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ معناهُ: إن عِدَّةَ الشُّهور التي تتعلَّقُ بها الأحكامُ من الحجِّ والعُمرة والزكاةِ والأعياد وغيرها اثنا عشرَ شهراً على منازل العُمرة، تارةً يكون الحجُّ والصومُ في الشِّتاء، وتارةً في الصيفِ على اعتبار الأهِلَّة. وقوله تعالى: (فِي كِتَابِ اللهِ) يعني اللَّوحَ المحفوظَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) إنَّما قال ذلكَ؛ لأن اللهَ تعالى أجرَى الشمسَ والقمرَ في السَّموات يوم خلقَ السمواتِ والأرض.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب إثم مانع الزكاة: الحديث (٢٤ ٢٦/ ٩٨٧) مطولاً. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٩٤٧) مختصراً. ولقد كرر الناسخ كلمة (غنم) بدلاً من (إبل، وبقر)، وضبطت كما في صحيح مسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ﴾ ؛ واحدٌ فَرْدٌ وهو رَجَبْ وثلاثةٌ سُرْدٌ[1] متتابعةٌ، وهي ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، سماها حُرُماً لِعظَمِ انتهاكِ حُرمَتِها، كما خُصَّ الْحَرَمُ بمثلِ ذلك، وكانت العربُ تُعظِّمُها وتحرِّمُ القتالَ فيها حتى أن الرجلَ لو لَقِيَ قاتلَ أبيهِ أو أخيه فيها لم يُهِجْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ ؛ أي في أشهرِ الْحُرُمِ بالعملِ بالمعصية وتركِ الطاعة. وَقِيْلَ: باستحلال القتلِ والغَارَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تجعلوا حَلاَلَها حَراماً، ولا حرامَها حَلالاً، والذنبُ والظلم فيهن أعظمُ من الظلمِ فيما سواهنَّ. ويقالُ: معناه: فلا تظلِمُوا في الاثني عشرِ الشهر أنفُسَكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) أي ذلك الحسابُ المستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ ﴾ ويجوزُ أن يكون الكافَّة راجعةً إلى المسلمين؛ أي قاتِلُوا جميعاً، قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) أي كما يُقاتِلونكم أي جميعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦ ﴾ ؛ أي معهم بالنُّصرة.

واختلفَ العلماءُ في حُرمةِ القتال في الأشهُرِ الْحُرُمِ، فقالَ بعضُهم: لا يجوزُ القتال فيها والغارةُ لأن اللهَ سَمَّاها حُرُماً فيكون قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) دَليلاً على جواز القتال فيها على وجهِ الدَّفع.

وذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ إلى أن القتالَ فيها جائزٌ، والمرادُ بقوله: (مِنْهَا أرْبَعَةٌ حُرُمٌ) تعظيمُ انتهاكِ حُرمَتِها بالظلمِ والفساد فيها، وتعظيمُ ثواب الطاعة التي يفعلُ فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) يدلُّ على أنَّ اللهَ أخرجَ هذه الأشهرَ الحرم من أن تكون حُرماً.

---

(١) في المخطوط: (سرادى). والسَّرْدُ: الثقبُ، وفلان يَسْرُدُ الحديثَ: إذا كان جيِّد السياق له. وسَرْدُها: نسجُها؛ وهو تداخل حلقات الدرع بعضها ببعض. وقولهم في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سَرْدٌ؛ أي متتابعة، وهي ذو الحجة وذو القعدة والمحرم، وواحد فَرْدٌ هو رجب. مختار الصحاح: (سرد).

وفي باب الجهادِ دليلاً تقديراً آخر أن أحدَ الجهاد داخلٌ تحت قوله: (فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) وكان اللهُ تعالى مَيَّزَ الجهادَ من الظلمِ الذي هو إقدامٌ على النُّفوس والأموالِ، وقوله تعالى: (كَافَّةً) منصوبٌ على الحال.

قال قتادةُ وعطاء: (كَانَ الْقِتَالُ كَثِيراً فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، ثُمَّ نُسِخَ وَأُحِلَّ فِيْهِ بِقَوْلِهِ: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) يَعْنِي فِيْهِنَّ وَفِي غَيْرِهِنَّ). وقال الزهريُّ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّمُ الْقِتَالَ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ تَحْرِيمِ ذلِكَ حَتَّى نَزَلَتْ بَرَاءَةُ، وَأُحِلَّ قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ)[(١)].

وقال سفيانُ الثوريُّ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْقِتَالِ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، قَالَ: (لاَ بَأْسَ بِالْقِتَالِ فِيهِنَّ وَفِي غَيْرِهِنَّ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَزَا هَوَازِنَ وَحُنَيْناً وَ ثَقِيفاً بِالطَّائِفِ وَحَاصَرَهُمْ فِي الشَّوَّالِ وَبَعْضِ ذِي الْقِعْدَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ حُرْمَةَ الْقِتَالِ فِيْهَا مَنْسُوخٌ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ ؛ أي إنَّما تأخيرُ الشَّهرِ الحرام من المحرَّم إلى صفَر، واستباحةِ المحرَّم زيادةٌ في الكفرِ يغلطُ ويخطِئ بالنَّساء سائرُ الكفَّار، ومن قرأ (يَضَلُّ) صفَر مكان المحرَّم، ويحرِّمون المحرَّم عاماً فلا يُقاتِلون فيه، ثم يقاتِلون في صفَر، (لِيُوَاطِئُوا عِدَةَ مَا حَرَمَ اللهُ) ؛ أي ليُوافِقُوا في العددِ أربعةَ أشهُرٍ، وكانوا يقُولون: هذه أربعةٌ بمنْزلة أربعةٍ. والْمُوَاطَأَةُ الموافقةُ، وأصلُ النَّسِيءِ الحاضِرُ ومنه بيعُ النَّسِيئَةِ، ومنه أَنْسَأَ اللهُ فِي أجلِ فُلان، ومنه الْمِنْسَأَةُ وهي العصَا يرجُو بها ويؤخِّر.

قرأ قتادةُ ومجاهد وأبو عمرو ونافع غير وَرْشٍ[(٣)] وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وابن عامر (النَّسِيءُ) بالمدِّ والهمزة وهو مصدرٌ كالسَّعِيرِ والحريقِ ونحوهما،

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٤ عن قتادة وعطاء والزهري.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٤.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٦؛ قال القرطبي: (قال النحاس: ولم يرو أحد عن نافع فيما علمناه (إِنَّمَا النَّسِيُّ) بلا همز إلا ورشٌ وحده). قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص١١٧.

ويجوزُ أن يكون مفعُولاً مَصرُوفاً أي فعيلٌ مثل الجريحِ والقتيل والصريعِ، تقديرهُ: إنما الشهرُ المؤخَّر. وقرأ أبو جعفرٍ ووَرْشٌ (إنَّما النَّسِيُّ) بالتشديدِ من غير همزةٍ، وروَى ذلك ابنُ كثير على معنى الْمَنْسِيِّ أي المتروكِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(١).

وقوله: (يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، قرأ أهلُ المدينةِ وابنُ كثير وابن عامرٍ وأبو عمرو وأبو بكر بفتح الياء وكسر الضَّادِ لأنَّهم هم الضالُّون لقوله: (يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً)، وقرأ الحسنُ وقتادة ومجاهد ويعقوب بضمِّ الياء وكسرِ الضاد؛ أي يُضِلُّ به الذين كفرُوا الناسَ المقتدِين بهم، وقرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ أبا بكر بضمِّ الياء وفتحِ الضاد، وهي قراءةُ ابنِ مسعود لقوله: (زُيِّنَ لَهُمْ)، وقوله تعالى: (يُحِلُّونَهُ عَاماً) أي يُحِلُّونَ النسيءَ.

وقولهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ؛ أي ليُوافِقُوا، وقيل: ليُشَبهوا، ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ ؛ أي يُحِلُّوا ما حَرَّمَهُ اللهُ من الغارةِ والقتلِ في الشَّهرِ الحرام، وإنما كان يفعلُ هكذا بنو كِنانةَ وربَّما كانوا يؤخِّرون رَجَباً ويبدِّلونَهُ صَفَراً لتكونَ الشهورُ متواليةً، وقولهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ﴾ ؛ أي حسَّنَ في قُلوبهم قُبْحُ أعمالِهم من تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، وتحليلِ ما حرَّم الله، قال الحسنُ: (زَيَّنَتْهَا لَهُمْ أنْفُسُهُمْ وَالشَّيَاطِينُ) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي لا يُوَفِّقُهم مجازاةً لكُفرهم. وقِيْلَ: لا يَهديهم إلى الجنَّة والثواب.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ النَّاسِئُ رَجُلاً مِنْ كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُ نُعَيم بْنُ ثعلبة وجنادةَ بنُ عَوْفٍ وَكَانَ يَقُومُ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُ: ألاَ إنَّ آلِهَتَكُمْ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ صَفَرَ الْعَامَ، فَيُحَرِّمُونَ فِيْهِ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَالَ وَيَسْتَحِلُّونَ فِي الْمُحَرَّمِ، فَإذَا كَانَ مِنْ قَابلٍ نَادَى: ألاَ إنَّ آلِهَتَكُمْ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمُحَرَّمَ الْعَامَ، فَيُحَرِّمُونَ فِيْهِ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَالَ وَيَسْتَحِلُّونَ صَفَرَ لِيُفِيدُوا مِنْهُ)(٢).

---

(١) التوبة / ٦٧.

(٢) أصوله أخرجها الطبري في جامع البيان: الآثار (١٢٩٨٠) عن ابن عباس، و(١٢٩٨٣) عن مجاهد، و(١٢٩٨٥) عن قتادة.

وفي بعضِ الرِّوايات: أنه كان يقولُ قبلَ هذا النداءِ: يـا أيُّـها النـاس أنـا الـذي أعابَ ولا خابَ ولا مردَّ لِمَا قضيتُ، فيقولُ له المشركون: لبَّيكَ ربَّنا، ثم يسـألونَهُ أن يُنسِئَهم شَهراً فيقولُ: ألا إن صَفَرَ العامَ حلالٌ يريدُ بـه المحـرَّم، وربَّمـا يقـولُ: حـرامٌ، فيحرِّمون المحرَّم صَفراً، وكان إذا قالَ الناسيءُ في المحرَّم: حلالٌ، عقَدُوا الأوتارَ وشدُّوا الأزجةَ[١] وأعلَوا السيوفَ وأغارُوا على الناسِ، وإذا قالَ: حُرِّمَ، حلُّوا الأوتارَ ونزعُوا الأزجة وأغمَدُوا السيوفَ[٢].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقامَ بالمدينةِ بعد مرجعهِ من الطَّائفِ، ثم أمرَهُ اللهُ بالجهاد لغزوةِ الرُّوم وأمرَهُ بالخروجِ إلى غزوةِ تَبُوك، وذلكَ في زمانِ عُسْرَةٍ وشِدَّةٍ من الحرِّ حين طابَتْ ثمارُ أهلِ المدينة فأمَرَ النبيُّ ﷺ بالخروجِ إلى الجهادِ فكـانوا يتثاقَلون من الخروجِ ويحبُّون الظِّلالَ والثمارَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعنَاها: ما لكُم إذا قيلَ لكم اخرجُوا إلى جهادِ المشـركين تثـاقَلْتُمْ إلى الأرضِ وتكَاسَلْتُمْ واطمأنَنتُم إلى أوطـانِكم، ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ ؛ استفهامٌ يعني الإنكارَ؛ أي آثَرْتُم[٣] عملَ الدُّنيا على عملِ الآخـرة، وآثرتُـم الحيـاةَ في الدُّنيا على الحياةِ في الآخرة، ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ أي ما منفعةُ الدُّنيا في الآخرةِ وفي ما يتمتَّعُ به أولياءُ الله في الجنَّة إلا يسـيرٌ لأن الدُّنيـا تضمحلُّ ويفنَى أهلُها، والآخرةُ دار القَرَار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ ؛ أي إلاَّ تَخْرُجُوا مـع نبيِّكـم في الجـهادِ يعذِّبكـم عـذابَ الاسـتئصال،

---

(١) الزُّجُّ: زُجُّ الرُّمحِ؛ والسهمِ، والجمع: الزِّجَاجُ. قال الأزهـري: زُجُّ الرمـح: الحديـدُ الـتي تركَـبُ سافلَةَ الرمحِ، والسِّنَانُ: التي تركب عاليتَهُ، والزُّجُّ يُركَزُ به الرمحُ في الأرضِ، والسِّنان يُطعـن بـه. ويقال لنصلِ السهم: زُجٌّ. قال خالدُ بن كلثوم: كانوا يستقبلون أعداءَهم إذا أرادوا الصلح بأزجَّةِ الرِّماحِ، فإن أجابوهم وإلا قلَبُوا الأسِنَّة وقاتلوهم. ينظر: تهذيب اللغة: ج ١ ص٢٤٤ (زج).

(٢) نقله أهل التفسير عن الكلبي؛ ينظر: المحرر الوجيز: ص٨٤٥.

(٣) في المخطوط: (اخترتم) وهو غير مناسب، فأثبتناه كما يقتضي سياق الكلام.

ويستبدِلْ قوماً غيرَكم أي أطوعَ للهِ منكم، ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ ؛ أي ولا تنقصوا من مُلكِهِ شيئاً بقُعودِكم عن الجهادِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من العذاب والإبدال، ﴿ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة لَمَّا أرادُوا قتلَ النبيِّ ﷺ أخبرَهُ جبريلُ بذلك وأمرَهُ بالخروجِ، فقالَ النبيُّ ﷺ لعليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: [نَمْ مَكَانِي عَلَى الْفِرَاشِ] وخرجَ مع أبي بكرٍ رضي الله عنه إلى غار جبَلِ ثور -وهو جبلٌ بأسفلِ مكَّة- ومشَى رسولُ اللهِ ﷺ على أطرافِ أصَابعهِ حتى حَفِيَتْ، فلمَّا رآهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه وجعلَ يستندُ به حتى أتَى فَمَ الغار، وكان الغارُ مَقرُوناً بالْهَوَامِّ، فلما أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ دخولَ الغار قال له أبُو بكرٍ رضي الله عنه: مَكَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ حَتَّى أسْتَبْرِئَ الْغَارَ. فدخلَ واستبراهُ وجعلَ يُسَوِّي الْجُحْرَةَ بثيابهِ خِشيَةَ أن يخرجَ منها شيءٌ يؤذِي رسولَ الله ﷺ فبَقِيَ جُحْرَانِ فوَضَعَ عَقِبَهُ عليهما ثم قال: إنْزِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فنزلَ فكانا في الغار ليلتَهما.

فدخلَ الكفَّارُ على عليٍّ رضي الله عنه فقالوا لَهُ: يا عليُّ أين مُحَمَّدٌ؟ فقالَ: لاَ أدْرِي أيْنَ ذهَبَ، فطلبوهُ من الغدِ واستأجَرُوا رجُلاً يقال له كَرْزُ بن علقمةَ الجرَّاح، فقَفَا لهما الأثرَ حتى انتهَى بهم إلى جبلِ ثور، فقالَ: انتهينا إلى هنا وهذا أثرهُ فما أدري أينَ أخذَ يَميناً أو شمالاً أو صعدَ الجبلَ. فصَعَدُوا الجبلَ يطلبونَهُ، وأعمَى اللهُ عليهم مكانَهُ فلم يهتَدُوا إليه.

فقامَ رجلٌ منهم يبولُ مستقبلاً رسولَ اللهِ ﷺ وأبَا بكرٍ بعورتهِ، فقال أبُو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أرَاهُ إلاَّ قَدْ أبْصَرَنَا، فقَالَ ﷺ [لَوْ أبْصَرَنَا مَا يَسْتَقْبلُنَا بعَوْرَتِهِ]. وأقبلَ شبابُ قريشٍ من كلِّ بطنٍ، معهم عِصِيُّهم وقِسيُّهم حتى رَأوا بابَ الغار، وكان ﷺ مرَّ على ثُمامَةٍ وهي شجرةٌ صغيرة ضعيفة فأمرَ أبا بكر أن يأخُذَها معه، فلما سارَ إلى باب الغار أمرَهُ أن يجعلَها على باب الغار، وألْهَمَ اللهُ العنكبوتَ فنسجَتْ حتى سترت وجهَ النبيِّ ﷺ وصاحبَهُ، وبعثَ اللهُ حمامَتين وحشِيَّتين فأقبلَتا حتى وقعتَا على باب الغار بين العنكبوتِ وبين الشجرة، فلما رأى المشركون الشجرةَ والحمامةَ ونسجَ العنكبوتِ علِمُوا أنْ ليس في الغار أحدٌ، وكان أبو بكرٍ يقولُ: يا

رَسُولَ اللهِ قَدْ أُتِيْنَا وَمَا أنَا إلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَإنْ قُتِلْتَ أنْتَ تَهْلَكُ هَذِهِ الأُمَّةُ فَلاَ يُعْبَدُ اللهُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، فقال: [لاَ تَحْزَنْ يَا أبَا بَكْرٍ إنَّ اللهَ مَعَنَا].

ثم نزلَ المشركون من الجبلِ، ولم يقدِرُوا على رسـول الله ﷺ، فمكـثَ رسـولُ اللهِ ﷺ بالغار ثلاثةَ أيَّام ولياليهنَّ، وكان عبدُالله بن أبي بكرٍ يأتِيهما بأخبار أهل مكَّة، فلما أمِنَا طلبَ ((القوم)) وكان رسولُ اللهِ ﷺ أمِرَ بالهجرة إلى المدينةِ، فاستأجرَ رجُلاً يقالُ له عبدُالله بن أُرَيقِطْ يَهدِيهم الطريقَ إلى المدينةِ فخـرجَ بـهما إلى المدينـةِ، فسَمِعَ سُراقَةُ بن مالك بن مقسم الكِنَاني بخرُوجهِ إلى المدينةِ، فلَبسَ لأمَتَهُ وركِبَ فرسَهُ يتَّبـعُ آثارَهم حتى أدركَ رسولَ اللهِ ﷺ، فدعَا عليه رسولُ الله ﷺ فَسَاخَتْ قوائمُ فرسـهِ، فقالَ: يَا مُحَمَّدُ أدْعُ اللهَ أنْ يُطْلِقَ عَلَيَّ فَرَسِي فَأرُدُّ عَنْكَ مَـنْ أرى مِـنَ النَّـاسِ، فَقَـالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ إنْ كَانَ صَادِقاً فَأطْلِقْ فَرَسَهُ] فرجعَ سُراقة وقَدِمَ أبو بكرٍ رضي الله عنه مـع النبيِّ ﷺ حتى أتيَا المدينة. هكذا رُويَ وفي هذا قصَّةٌ طويلةٌ[1].

ومعنى الآية: ألاَّ تنصرُوا مُحَمَّداً ﷺ في الخروج معه إلى تَبُوكٍ فاللهُ ينصرهُ كما نصرَهُ إذ أخرجَهُ الكفارُ من مكَّة وهو ثانِيَ اثنين؛ أي لم يكن معـهُما غيرُهمـا، وقولـهُ تعالى (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) نُصِبَ على الحال؛ أي وهو أحـدُ اثنـين. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ ؛ أرادَ به غار ثَوْر حين خرجَـا إليـه. والغـارُ النُّقْبُ الـذي يكـونُ في الجبلِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ معناهُ: إذا يقولُ رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ: لا تحزَنْ على قَتلِي وذهاب الإسلامِ إنَّ اللهَ يحفَظُنا ويدفعُ شرَّ المشركين عنَّا.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي أنـزلَ طُمَأنِينَـةً علـى رسولِهِ حتى سَكَنَ واطمأنَّ. ويقالُ: أنزلَ سَكِينَتَهُ على صاحبِهِ أبي بكرٍ رضي الله عنه، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان لنـا سَكَناً، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: أعـانَ مُحَمَّداً ﷺ وقوَّاهُ يومَ بدرٍ والأحزاب وحُنين بجنودٍ لم تُعاينُوهَا وهم الملائكةُ.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٤٣-١٤٦. والمحرر الوجيز: ص٨٤٦-٨٤٧. وجامع البيان: تفسير الآية: الآثار (١٢٩٩٥-١٣٠٠٠). وأصلها في الصحيح عند البخاري: كتاب فضائل الصحابة، وصحيح مسلم، والجامع الترمذي، وفي السيرة النبوية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ ﴾ ؛ أي وجعلَ كلمةَ الشِّركِ مغلوبةً مذمومةً، وجعلَ أهلَها أذِلَّةً أسفَلِينَ، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ ؛ أي وجعلَ كلمةَ التوحيدِ هي الكلمةُ العاليةُ الممدُوحَةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي مَنِيعٌ بالنِّقمةِ ممن عصَاهُ وما حكمَ به من أمرِهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ؛ أي انفِرُوا إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ شَباباً وشُيوخاً. وَقِيْلَ: مُوسِرِينَ ومُعْسِرِينَ. وَقِيْلَ: مشَاغِيلَ وغير مشاغيل. وَقِيْلَ: نُشَّاطاً وغيرَ نُشَّاطٍ، أي خفَّت عليكم الحركةُ أو ثقُلَت. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ في طاعةِ الله، ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ ؛ الجهادُ، ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ من القعودِ عنه، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أنَّ اللهَ صادقٌ في وعدِهِ ووعيدِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ ؛ اسمُ كانَ مضمرٌ تقديرُهُ: لو كان المدعوُّ إليه عَرَضاً قَرِيباً؛ أي غَنِيمةً وسَفَراً سَهلاً لاتَّبعُوكَ؛ أي لو عَلِمُوا أنَّهم يُصِيبُونَ مَغْنَماً لخرَجُوا معكَ، نزلَ هذا فيمَن تخلَّف من غزوةِ تبوكَ من المنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ ﴾ ؛ أي لكن بعُدَت عليهم المسافةُ إلى الشَّام، ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا ﴾ ؛ في اعتذارهم إليكم لو كان لنا سَعَةٌ في الزادِ والمالِ، ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ؛ في غزاتِكم، ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ بالأيمانِ الكاذبةِ والقعودِ عن الجهادِ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أنَّ لهم سَعَةً في المالِ والزادِ وإنَّهم لكاذِبون في هذا الاعتذار، وَقِيْلَ: معنى قولِهِ: (وَسَفَراً قَاصِداً) أي مَوضِعاً قريباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ ؛ أي تجاوزَ اللهُ عنكَ يا مُحَمَّدُ لِمَ أذِنتَ لهم في القعودِ عن الجهاد حتى يظهرَ لكم الذين صدَقوا في الاعتذار، ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في عُذرهم، قدَّمَ اللهُ العفوَ على العتاب حتى يسكُنَ قلبهُ ﷺ، ثُم قالَ بعدَ العفوِ: (لِمَ أذِنْتَ لَهُمْ)، ولو أنَّ اللهَ

أخبرَهُ بالذنب قبلَ أن يُخبرَهُ بالعفوِ لكان يخافُ على النبيِّ ﷺ مِن هَيبَتِهِ قولُهُ: (لِمَ أذِنتَ لَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لا يستأذِنُكَ المؤمنون في القعودِ عن الجهادِ. وقولُه: (أنْ يُجَاهِدُوا) معناهُ: أنْ لاَ يُجاهدوا، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بالمخلِصين المطِيعين فيُميِّزهم عن المنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ ؛ أي إنما يستأذِنُكَ في القعودِ عن الجهاد الذين لا يُصدِّقون باللهِ وبيوم البعث، ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي شكَّت واضطربت، ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ شكِّهم يتحيَّرون. والرَّيبُ: الشكُّ مع اضطراب القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ ؛ أي لو أرادَ اللهُ لهم الخروجَ معك إلى العدوِّ لاتَّخذُوا له أهبةً، ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ ؛ أي لكن لَمْ يُرِدِ اللهُ خروجَهم معك، لأنَّهم لو خرَجُوا لكان يقعُ خروجُهم على وجهِ الإضرار بالمسلمين وذلك كفرٌ ومعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ ؛ أي حَبَسَهم، يقالُ: ثبَّطَهُ عن الأمرِ إذا حبَسَهُ عنه، ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي اقعدُوا مع النِّساء والصبيان. ويجوز أن يكون القائلُ لَهم النبيُّ ﷺ بأمر الله، ويجوزُ أن يكون قد قالَ بعضُهم لبعضٍ. وَقِيْلَ: قال لَهم الشيطانُ وَوَسْوَسَ لَهم.

ثم بيَّن اللهُ أن لا منفعةَ للمسلمين في خروجِهم، بل عليهم مضرَّة لهم، فقال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ؛ أي لو خرَجُوا فيكم ما زادوكم الا شرّاً وفساداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ ؛ أي لأسرَعوا فيما بينكم، ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ ؛ أي يطلُبون فسادَ الرأي وعيوبَ المسلمين، ويقالُ: سارُوا فيكم بالنميمة، والإيْضَاعُ: الإسراعُ في السَّيرِ، يقالُ: أوْضَعَ البعيرَ إيْضَاعًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ ؛ أي وفيكم قائلون منهم ما يسمعون منهم، ويقالُ: في عَسْكرِكُم عيونٌ لهم ينقُلون إليهم ما يسمَعون عنكم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ؛ يُجازيهم على سوءِ أفعالهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي وقد طلبَ هؤلاءِ المنافقون صدَّ أصحابك عن الدين، وردَّهم إلى الكفرِ، وتحويلَ الناس عنكَ قبل هذا اليوم، كفعل عبدِالله بن أُبَيّ يومَ أحُد، وقولهُ تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ؛ أي احتَالُوا فيك وفي إبطالِ دِينِكَ بالتحويلِ عنكَ، وتشتُّتَ أمركَ وكلمتك من قبل غزوةِ تبوك، فقَلَّبوا لكَ الأمُور ظَهراً لبطنٍ، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ؛ أي حقُّ الإسلام، وأظهرَهُ الله على سائرِ الأديان، ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ لذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَظَهَرَ أمرُ اللهِ﴾ ؛ أي دينُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ؛ نزلَ في جَدِّ بن قيس من المنافقين، دعاهُ النبيُّ ﷺ إلى الخروجِ إلى العدوِّ وحرَّضَهُ على الجهادِ، فقالَ لِجَدِّ بن قيسٍ: [هَلْ لَكَ فِي جِلاَدِ بَنِي الأَصْفَرِ، فَتَتَّخِذَ منهم سَرَارِي وَوُصَفَاءَ] يعني الرُّوم.

وكان الأصفرُ رجُلاً من الحبشةِ مَلَكَ الرُّوم، وغلبَ على ناحيةٍ منها، فتزوجتِ الحبشةُ من الرُّوم، فولَدَت لهم بنات أخَذْنَ من بياضِ الرُّوم وسوادِ الحبشة، فكُنَّ صُفْراً لُعْساً لم يُرَ مثلُهنَّ، فقال له جدُّ بن قيسٍ: ائْذَنْ لِي يا رسولَ اللهِ أنْ أقِيمَ، ولا تَفْتِنِّي ببناتِ الأصفر، فقد عرفَ قَومِي عُجْبِي بالنِّساء، وإنِّي أرى المرأةَ تُعجِبُنِي فما أملكُ نفسي حتى أضعَ يدِي على الْمُحَرَّمِ، فلما سمعَ النبيُّ ﷺ قولَهُ أعرضَ عنه وقال: [أذِنْتُ لَكَ](١).

وقولهُ تعالى: (وَلاَ تَفْتِنِّي) أي ائْذَنْ لي في التخلُّف ولا تَفتِنِّي ببناتِ الأصفر، قال قتادةُ: (مَعْنَاهُ وَلاَ تُؤَثِّمْنِي)(٢)، وقولهُ تعالى ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألاَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٣٠٤٧-١٣٠٥٠). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٥٨. وفي المحرر الوجيز: ص٨٥١.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٥٢).

في الإثْم والشِّركِ وقعُوا بنفاقِهم ومخالفتهم أمـركَ في تـركِ الجهاد، ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّهم يدخلون جهنَّم لا محالةَ؛ لأن الشيءَ إذا كان مُحيطاً بالإنسانِ فإنه لا يفوتهُ.

روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟] قَالُوا: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ، غَيْرَ أنَّهُ بَخِيلٌ. قَالَ ﷺ: [وَأيُّ دَاءٍ أدْوَى مِنَ الْبُخْلِ ؟! بَلْ سَيِّدُكُمُ الْفَتَى أبْيَضُ الْجَعْدِ بِشْرُ ابْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ](١) فَقَالَ فِيهِ حسَّانُ الشِّعرَ(٢):

وقَالَ رَسُولُ اللهِ وَالْحَقُّ قَوْلُهُ ... لِمَنْ قَالَ مِنَّا: مَنْ تَعُدُّونَ سَيِّدَا؟

فَقُلْتُ لَهُ: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الَّذِي ... بِبُخْلِهِ فِينَا وَإنْ كَانَ أنْكَدَا

فَقَالَ: وَأيُّ الدَّاءِ أدْوَى مِنَ الَّذِي ... رَمَيْتُمْ بِهِ لَوْ عَلَى بِهِ يَدَا؟!

وَسُوِّدَ بِشْرُ بْنَ الْبَرَاءِ لِجُودِهِ ... وَحَقٌّ لِبِشْرِ بْنِ الْبَرَا أنْ يُسَوَّدَا

إذا مَا أتَاهُ الوَفْدُ أذْهَبَ(٣) مَالَهُ ... وَقَالَ: خُذُوهُ؛ إنَّنِي عَائِدُ غَدَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ ؛ أي إنْ تُصِبْكَ يا مُحَمَّدُ حَسَنَةٌ من فتحٍ وغنيمة تَسُؤْهُمْ تلكَ الحسنةُ وتحزنهم يعني المنافقين، ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ ؛ أي قَتْلٌ وهزيمة ونكبَةٌ، ﴿ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي أخَذْنا حِذْرَنا بالتخلُّف عنهم من قبلِ هذه المصيبة، ﴿ وَيَتَوَلَّوا۟ ﴾ ؛ عنك، ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ مسرورون بما أصابَك من الشدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للمنافقين: لن يُصِيبَنا إلاَّ ما كتبَ اللهُ علَينا في اللَّوح المحفوظ، قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: أنَّا لَسْنَا بمُهْمَلِينَ بَلْ جَمِيعُ مَا يُصِيبُنَا مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ)، ويقالُ: معناهُ: قُل لن يُصِيبَنا في عاقبةِ الأمر إلاَّ ما كتبَ اللهُ لنا من الفتحِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٥٠١٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٥٩ ذكر القرطبي بعضه.

(٣) في المخطوط: (أنهب) بدل (أذهب).

والنُّصرة على الكفَّار، فإنْ أصابَتنا الهزيمةُ في الحال فإن أمورَ العبادةِ لا تجري إلا على تدبيرٍ قد أحكِمَ وأبرمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ مَوْلَانَا) أي وَلِيُّنا يحفظُنا وينصرُنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ معنى التوكُّل على اللهِ: تفويضُ الأمرِ إليه مع ثِقَةٍ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي هل تنتَظِرُون بنَا إلا النصرَ على الكفَّار والظَّفرَ بهم، أو القتلَ على وجهِ الشَّهادة في الدُّنيا مع ثواب الآخرة، ونحن ننتظرُ بكم أحدَ الشرَّين: إما أنْ يُصيبَكم الله بعذاب الاستئصال مِن عنده، أو بأنْ ينصُرَنا عليكم فنَقتُلَكم بأسيافِنا، فانتظِرُوا ما قلتُ كي ننتظرَ نحن بكم عذابَ الاستئصالِ والنُّصرة عليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾؛ معناهُ: إنْ أنفقتُم في الجهادِ طَائِعين من قِبَلِ أنفسِكم أو مُكرَهين مخافةَ القتلِ لن يتقبَّل منكم ما أسررتُم من الكفرِ والنفاق، وقد يُذكر لفظُ الأمرِ ويراد به الشرط الجزاءُ كما قال الشاعر:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةٌ لَدينَا وَلاَ مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

معناهُ: إنْ أحسَنتِ بنا أو أسَاتِ فأنتِ غيرُ ملومةٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ تعليلُ نفي قَبول صَدَقَتِهم؛ لأن النفاقَ يحبطُ الطاعةَ، ويمنعُ من استحقاق الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾؛ ما منَعهم عن إيجاب الثواب لهم على نفقاتِهم إلا كفرُهم باللهِ وبرسوله، ومعنى (نَفَقَاتُهُمْ) أي صدقاتُهم. قرأ حمزةُ والكسائي وخلف (يُقْبَلَ) بالياءِ لتقديم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء.

---

(١) من شواهد الطبري في جامع البيان: تفسير الآية. والبيتُ لكثير عزة، يعبر فيه عن الثبات في الأمر على حاله والعهد الذي هو عليه.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ ؛ أي مُتثَـاقِلون لأنَّهم لا يرجون بأدائِها ثواباً ولا يخافونَ بتركِها عقاباً، والمعنى أنَّـهم يُصلُّـون مُـرَاءَاةَ النـاسِ، ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ وكذلـك يُنفقـون في الزكـاةِ وغيرِها لأجلِ التَّستُّرِ بالإسلام، لا لابتغاءِ ثواب الله. وكُسَالَى جمعُ كَسْلاَنِ كما يقـالُ سُكَارَى وسَكرَان.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ﴾ ؛ أي لا تُعجِبُـكَ يـا مُحَمَّدُ كثرةُ أموالهـم ولا أولادِهـم في الحيـاة الدُّنيـا، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ وفي الآخرةِ، قال الحسنُ: (لاَ تَسرُّكَ أمْوَالُـهُمْ وَلاَ أوْلاَدُهُـمْ، إنَّمَـا يُرِيدُ اللهُ لِيُشَدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي التَّكْلِيفِ بأنْ يَأْمُرَهُمْ بالإنْفَاق فِي الزَّكَاةِ وَالْغَزْو وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنَ الْمَكَارِهِ الَّتِـي تَشُـقُّ عَلَيْـهِمْ؛ لأنَّـهُمْ لاَ يَرْجُـونَ بذَلِـكَ ثَوَابـاً فِـي الآخِـرَةِ، وَيَكُونُونَ مُعَذَّبينَ بالإنْفَاق إذ كَـانُوا يُنْفِقُونَـهَا عَلَـى كَـرْهٍ مِنْـهُمْ). وَقِيْـلَ: أرادَ بقولـهِ (لِيُعَذِّبَهُمْ بهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي ما ينالُهم من المصائب في أموالهم لا تكـون كفَّـارةً لذنوبهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي تخرُجَ أنفسُهم علـى الكفـر. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي في حالِ كونِـهم كـافِرين. والزَّهْـقُ خـروجُ الشيءِ بصعوبةٍ وأصلهُ الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: أنَّ هؤلاء المنافقين يَحلِفون للمؤمنين أنَّهم على دِينهم، يقولُ الله تعالى: (وَمَا هُمْ مِنْكُـمْ) أي لَيسُـوا علـى دِينكـم، ﴿ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي يخـافُون مـن المسلمين، فأظهرُوا الإسلامَ وأسرُّوا النفاق.

قَوْلُهُ تَعـالَى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معناه: لو يَجِدون حِرْزاً يَلْجَأونَ إليه ويتحصَّنون فيـه، أو غِيرَانـاً في الجبالِ أو سَرَباً في الأرضِ، أو قوماً يمكنُهم الدخولُ فيما بينهم يحفظونَـهم عنكـم، لصَبَوا إليهم وهم يَجْمَحُونَ؛ أي يسبقون ويُسرعون إسراعاً لا يردُّ وجوهَـهم بشـيءٍ. يقالُ: فرسٌ جَمُوحٌ إذا ذهبَ في عَدْوِهِ لم يرده اللِّجَامُ، قال عطـاءُ في معنـى قولـهِ لَـوْ

يَجِدُون مَلْجَأً: (أيْ مَهْرَباً)(١)، وقال ابنُ كَيسان: (قَوْماً يَأْمَنُونَ فِيهِمْ).

قرأ عبدُالرحمن بنُ عوفٍ (أَوْ مُغَارَاتٍ) بضمِّ الميمِ، وقولـهُ تعـالى: (أَوْ مُدَّخَلاً) قال الكلبيُّ: (نَفَقاً فِي الأَرْضِ كَنَفَقِ الْيَرْبُوعِ)(١) وَقِيْلَ: معناهُ: موضعُ دخول يدخُلـون فيه. وقرأ الحسنُ (مَدْخَلاً) بفتح الميمِ وتخفيف الـدال، وقـرأ أُبَـيٌّ (مُنْدَخَـلاً) بإثبـات النُّون. وقولهُ تعالى: (لَوَلَّوْا إلَيْهِ) قـرأ الأشـهبُ العُقَيلِـيُّ (لَوَالَـوْا إلَيْـهِ) بـالألف مـن الْمُوَالاَتِ(٢)؛ أي تابعُوا وسارَعوا .

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ ؛ أي مِـن المنـافقين مـن يَعِيبُكَ في الصَّدقات، ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ ؛ الصدقةَ مقدارَ مُرادِهم، ﴿ رَضُواْ ﴾ ؛ بالقسمةِ، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ ﴾ ؛ لا يَرضُون بالقسمةِ.

نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي الجوَّاظ وغيرهُ من اللمَّازينَ من المنافقين، كمـا رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقسِمُ الصدقاتِ فقال أبو الجوَّاظ: ما تَرون صاحِبَكم يقسـمُ صدقـاتِكم في رُعاة الغنمِ، فقال ﷺ: [لاَ أبَا لَكَ، أمَا كَـانَ مُوسَـى عليه السلام رَاعِيـاً ! أمَـا كَـانَ دَاوُدُ عليه السلام رَاعِياً !] فذهبَ أبو الجوَّاظ، فقالَ ﷺ: [احْذرُوا هَـذَا وَأصْحَابَـهُ] فـأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ(٣).

وعن أبي سعيدِ الخدري رضي الله عنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ يَقْسِمُ قَسْـماً إذ جَـاءَهُ ابْـنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: [وَيْلَكَ مَـنْ يَعْـدِلُ إذا لَـمْ أعْدِلْ؟!] فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ ﷺ: [دَعْهُ فَـإنَّ لَهُ أصْحَاباً يَحْتَقِرُ أحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ وَصَوْمَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُـونَ مِنَ الدِّيـنِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ](٤).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٥٦٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ص٨٥٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص١١٩.

(٣) عزاه البغوي في معالم التنزيل: ص٥٦٥ إلى الكلبي.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب استتابة المرتدين: باب من ترك قتال الخوارج: الحديث (٦٩٣٣). واسم ذي الخويصرة: حرقوص بن زهير؛ قيل: إنه أصل الخوارج. ينظر: فتح الباري: شرح الحديث.

قرأ الحسنُ ويعقوب (يَلْمُزُكَ) بضمِّ الميم، وقرأ الأعمش (يُلَمِّـزُكَ) بضم الياء وتشديدِ الميم، يقالُ: لَمَزَهُ وَهَمَزَهُ إذا أعابَهُ، ورجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ، وقال عطاءُ: (مَعْنَى يَلْمِزُكَ أيْ يَغْتَابُكَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ قرأ إيادُ بنُ لَقيطٍ[2] (إذَا هُمْ سَاخِطُونَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾؛ أي لو رَضُوا ما رزقَهم اللهُ وما يُعطِيهم رسولهُ من العطيَّة والصدقةِ، ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾؛ أي كَافِينَا اللهُ سيُعطينا اللهُ من رزقِهِ، وسيُعطينا رسولهُ مما يكون عندَهُ من السَّعة والفضلِ وقَالُوا: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ ﴾؛ أي فيما عندَهُ من الثواب، ﴿ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ لكانَ خيراً لهم وأعْوَدَ عليهم، إلا أنه حذفَ الجوابَ؛ لأن الحذفَ للجواب في مثل هذا الموضعِ أبلغُ من الإثبات؛ لأنَّكَ إذا حذفتَ الجوابَ ذهبَتْ فيه النفسُ كلَّ مذهبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس والحسن وجابر بن زيد والزهريُّ ومجاهد: (الْفَقِيرُ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ، وَالْمِسْكِينُ الَّذِي يَسْأَلُ). ومعنى الآية: إنَّما الصدقاتُ لهؤلاءِ المذكورين لا للمنافقين.

قال ابنُ عبَّاس: (الْفُقَرَاءُ هُمْ أصْحَابُ الصُّفَّةِ، صُفَّةُ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانُوا نَحْوَ أرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنَازِلُ فِي الْمَدِينَةِ وَلاَ عَشَائِرُ، فَأَوَوْا إلَى صُفَّةِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ، يَلْتَمِسُونَ الرِّزْقَ بالنَّهَار وَيَأْوُونَ إلَيْهِ باللَّيْلِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أتَاهُمْ بِهِ إذا أمْسَوا). قَالَ: (وَالْمَسَاكِينُ هُمُ الطَّوَّافُونَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤١) قال: ((الطَّعنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ)).

(٢) في تفسير القرآن العظيم: ج ٦ ص١٨١٦: النص (١٠٣٤٥)؛ قال ابن أبي حاتم: ((بسنده عن أبي الفضل قال: سمعت زياد بن لقيط يقرأ. قال: قلت لسهل بن عثمان: لعله إياد بن لقيط، فأبى أن يدع قوله: زياد)).

(٣) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن إياد بن لقيط)).

فعلى هذا المسكين أفقرُ من الفقير، ومن الدليلِ على ذلك أنَّ الله قالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ثم قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾[(١)]، ومعلومٌ أن الجاهلَ بحال الفقير لا يحسبهُ غنياً إلاَّ وله ظاهرٌ جميل ويدهُ حسَنةٌ، وقال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[(٢)]. قيل في التفسير: الذي قد لَصَقَ بالتُّراب وهو جائعٌ عارٍ ليس بينه وبين التراب شيءٌ يَقيه. وقال أبو العبَّاس ثعلب: (حُكِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ اللُّغَةِ أنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لأَعْرَابيٍّ: أفَقِيرٌ أنْتَ ؟ قَالَ: لاَ؛ بَلْ مِسْكِينٌ. وأنشدَ الأعرابيُّ:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّتِي كَانَتْ حُلُوبَتُهُ ... وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ[(٣)]

فَسَمَّاهُ فَقِيراً مَعَ وُجُودِ الْحُلُوبَةِ)[(٤)]. وقال محمَّد بن مَسلمة: (الْفَقِيرُ الَّذِي لاَ مِلْكَ لَهُ) قال: (وَكُلُّ شَيْءٍ مُحْتَاجٍ إلَى شَيْءٍ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ)، واحتجَّ مَن قال: إن الفقيرَ أفقرُ من المسكين بقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[(٥)] فأضافَ السفينةَ إليهم، وهذا لا دلالةَ فيه لأنه رُوي أنَّهم كانوا فيها أُجَراءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، يعني السُّعاةَ الذين يجلبون الصَّدقةَ، ويتولَّون قبضَها من أهلِها، يُعطون منها سواءٌ كانوا أغنياءَ أم فقراء، واختلفُوا في قَدْر ما يُعطَون، قال الضحَّاك: (يُعْطَوْنَ الثُّمُنَ مِنَ الصَّدَقَةِ)[(٦)]، وقال مجاهدُ: (يَأْكُلُ الْعُمَّالُ مِنَ السَّهْمِ الثَّامِنِ)[(٧)]، وقال عبدُالله بن عمرو بن العاص: (يُعْطَوْنَ عَلَى قَدْرِ عَمَالَتِهِمْ)[(٨)]، وقال الأعمشُ: (يُعْطَوْنَ بقَدْرِ أجُورِ أمْثَالِهِمْ وَإنْ كَانَ أكْثَرَ مِنَ الثُّمُنِ)، وقال مالكُ وأهلُ العراق: (إنَّمَا ذلِكَ لِلإمَامِ وَاجْتِهَادِهِ يُعْطِيهِمُ الإمَامُ قَدْرَ مَا رَأى)، وعن ابنِ عمر: (يُعْطَوْنَ بقَدْرِ عَمَلِهِمْ)، وعند الشافعيِّ: (يُعْطَوْنَ ثُمُنَ الصَّدَقَاتِ).

---

(١) البقرة / ٢٧٣ . (٢) البلد / ١٦ .

(٣) السَّبَدُ: الوَبَرُ، وقيل: الشَّعر، والعرب تقولُ: ما له سبَدٌ ولا لَبَد، أي ما له ذو وبرٍ ولا صوف متلبد، ويُكنى بهما عن الإبل والغنم.

(٤) ينظر: لسان العرب: مادة (فقر): ج ١٠ ص٢٩٩. ونقله المنذري عن ابن فَهْمٍ؛ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: ج ٩ ص١٠٣: مادة (فقر). (٥) الكهف / ٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٢).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٣).

(٨) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ؛ هم قومٌ كان يُعطيهم النبيُّ ﷺ يتألَّفهم على الإسلام، كانوا رُؤساءَ في كلِّ قبيلةٍ، منهم أبو سُفيان بن حربٍ من بني أُميَّة، والأقرعُ بن حَابسٍ، وعقبةُ بن حصن الفزَّاري وغيرُهما من بني عامر بن لُؤي، والحارثُ بن هشامٍ المخزوميُّ، وسهيلُ بن عمرو الجمحيُّ من بني أسَدٍ، والعباسُ بن المرداسِ من بني سُليم، فلما توُفِّيَ رسولُ الله ﷺ جاءَ المؤلَّفة قلوبُهم إلى أبي بكرٍ وطلَبُوا منه سَهمَهم، فأمَرَهم أن يكتبُوا كِتَاباً، فجَاؤُا بالكتاب إلى عُمر ﷺ ليشهدَ، فقال عمر: إيْشُ هَذَا ؟ قَالُوا: سَهْمُنَا، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(1) إنَّ الإسْلاَمَ أجَلُّ أنْ يُرْسَى عَلَيْهِ. ثم أخذ عمرُ كتابَهم ومَزَّقَهُ وقالَ: إنَّمَا كَانَ النَّبيُّ يُعطِيكُمْ يَتَألَّفُكُمْ عَلَى الإسْلاَمِ(2)، فَالْيَوْمَ فَقَدْ أعَزَّ اللهُ الإسْلاَمَ، فَإنْ ثَبَتُّمْ عَلَى الإسْلاَمِ وَإلاَّ فَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ السَّيْفُ. فَرَجَعُوا إلَى أبي بَكْرٍ وَقَالُوا: أنْتَ الْخَلِيفَةُ أمْ هُوَ ؟! فَقَالَ: هُوَ إنْ شَاءَ! فَبَطَلَ سَهْمُهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ ؛ معناهُ عندَ أكثرِ الناس في فِكَاكِ الرِّقَاب وهم الْمُكَاتَبُونَ، وذهبَ مالكٌ إلى أنَّهم رقابٌ يُبتَاعُونَ من الزَّكاة ويُعتقُونَ، فيكون ولاؤُهم لجميعِ المسلمين دون المعتِقين، قال: (وَلاَ يُعْطَى الْمُكَاتَبُ مِنَ الزَّكَاةِ وَلاَ مِنَ الْكَفَّارَاتِ شَيْئاً).

وقد رُوي أنَّ رجُلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ: [فُكَّ الرَّقَبَةَ وَأعْتِقِ النَّسْمَةَ] قَالَ: أوَلَيْسَا سَوَاءً ؟ قَالَ: [لاَ؛ فَكُّ الرَّقَبَةِ أنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا](3)، فاقتضَى قوله تعالى (وَفِي الرِّقَاب) المعوضة في العِتقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ ؛ يعني الْمَدْيُونِينَ الذين لا يكون لهم فضلٌ نصاب على الدَّين؛ لأنَّ المالَ وإنْ كان في أيدِيهم فهو مستحَقٌّ أيدِيهم، وقال مجاهدُ

(1) الكهف / ٢٩ .

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٧٦). والطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٠٧) مختصراً.

(3) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب الزكاة: باب الحث على إخراج الصدقة: ج ٢ ص١٣٥: الحديث (١). وفي موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان: الحديث (١٢٠٩) وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٤٠؛ قال الهيثمي: ((رواه الإمام ورجاله ثقات)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٩٩.

والزهري: (إِنَّمَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِلْمَدْيُونِينَ إذا كَانَ الدَّيْنُ قَدْ لَحِقَهُ بِغَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَعْصِيَةٍ)[١]، وقال قتادةُ: (الْغَارِمُونَ هُمْ قَوْمٌ لَحِقَهُمْ دُيُونٌ فِي غَيْرِ تَبْذِيرٍ وَلاَ فَسَادٍ)، وعن مجاهدٍ: (أَنَّ الْغَارِمَ مَنِ احْتَرَقَ بَيْتُهُ، أَوْ ذَهَبَ السَّيْلُ بِمَالِهِ، أَوْ أَدَانَ عَلَى عِيَالِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ أرادَ به المجاهدِين إذا انقطَعُوا عن أزوادِهم ورواحِلتِهم، وقال أبو يوسف: (هُمُ الْفُقَرَاءُ الْغُزَاةُ)، وأما إذا كان الغازي غنياً اختلَفُوا فيه، فقال أبو حنيفةَ وأبو يوسف ومحمَّد: (لاَ يُعْطَى الْغَازِي الْغَنِيُّ)، وقال الشافعيُّ ومالك: (يُعْطَى الْغَازِي الْغَنِيُّ) وحُجَّتُهما قوله ﷺ: [لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلاَّ لِخَمْسَةٍ: رَجُلٌ عَمِلَ عَلَيْهَا، وَرَجُلٌ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَى إِلَيْهِ جَارُهُ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ؛ هو المسافرُ المنقطع عن مالِه، سُمِّي بذلك لملازمتِه السَّبيل، كما يقالُ: ابنُ الغَنِيِّ وابنُ الفقيرِ، قال مجاهدُ والزهري: (لاِبْنِ السَّبِيلِ حَقٌّ فِي الزَّكَاةِ وَإِنْ كَانَ غَنِيّاً)[٤] قال قتادةُ: (ابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الضَّيْفُ)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي فَرَضَ اللهُ هذه الأشياءَ فريضةً، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالحِ عباده، ﴿ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ ؛ في أفعالهِ. والفَرْضُ في ذكرِ الأصناف في هذه الآية بيانُ أنه لا يجوزُ إخراج الصَّدقة منهم إلى غيرهم؛ لأن الحاجةَ في جميعِ الأصناف المذكورين في هذه الآيةِ موجودةٌ، ولأن مَن عليه الزكاةُ إذا حَمَلَ الزكاةَ بنفسهِ إلى الإمامِ لم يكن لأحدٍ مِن العمَّال في ذلك نصيبٌ. وقال الشافعيُّ: (تُقْسَمُ الصَّدَقَةُ عَلَى الأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الآيَةِ، إلاَّ أنْ يُفْقَدَ صِنْفٌ فَيُقْسَمُ عَلَى الْبَاقِينَ). وَقِيْلَ: يقسمُ على أصلِهِ على سبعةِ أصنافٍ؛ لأن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٥) عن مجاهد، والأثر (١٣١١٦) عن الزهري.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١١٤) بإسنادين.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٢٢) مرسلاً عن عطاء، والحديث (١٣١٢٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٥).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٧).

المؤلَّفة قد سقطُوا، قال: (وَيُعطَى كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الثَّمَانِيَةِ ثُلُثَهُ مِنْ أهْلِ كُلِّ صِنْفٍ، فَإنْ أعطَى اثْنَيْنِ ضَمِنَ ثُلُثَ سَهْمٍ).

واختلف العلماءُ في المقدار الذي إذا ملكَهُ رجلٌ دخلَ في حدِّ الغِنَى، وخرجَ من حدِّ الفقر، قال بعضُهم: إذا كان عندَ أهلهِ قوتُ يومِهم، واستدلَّ بقول النبيِّ ﷺ: [مَنْ سَألَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، فَإنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا ظَهْرُ الْغِنَى ؟ قَالَ: [أنْ تَعْلَمَ أنَّ عِنْدَ أهْلِهِ مَا يُعَيِّشُهُمْ وَيُغَدِّيهِمْ](١).

وقال بعضُهم: اذا مَلَكَ أربعين دِرْهماً أو عِدْلَها من الذَّهب، واستدلَّ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [مَنْ سَألَ مِنْكُمْ وَعِنْدَهُ أوْقِيَّةٌ أوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَألَ إلْحَافاً]، وكانت الأُوْقِيَّةُ يومئذٍ أربعين درهماً(٢).

وقال بعضُهم: إذا مَلَكَ خَمسين درهماً أو عِدْلَهَا من الذهب لِمَا رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [لاَ يَسْألُ عَبْدٌ مَسْألَةً وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي وَجْهِهِ كُدُوحٌ أوْ خُدُوشٌ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا غِنَاهُ ؟ قَالَ: [خَمْسُونَ دِرْهَماً، أوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ](٣).

والصحيحُ: أنَّ مَن مَلَكَ مِائتي درهمٍ أو عِدْلِها من فرضٍ أو غيرهِ فاضِلاً عن ما يحتاجُ إليه مِن مسكَنٍ وخادمٍ وأثاثٍ وفَرَسٍ، لم تَحِلَّ له الصدقةُ لقولهِ ﷺ: [إنِّي اُمِرْتُ أنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ](٤) فجعلَ الناسَ فريقين، ولا خلاف أن الذي يملِكُ مِائتي درهمٍ يكون غنيّاً، فوجبَ أن لا يكون داخِلاً في الفُقَراء، ولو كان الاعتبارُ بالضَّرورة لكان الذي له غداءٌ دون العَشَاءِ أو عَشَاءٌ دون الغَدَاءِ لا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٠-١٨١. وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب من يعطى من الصدقة: الحديث (١٦٢٩). والطبراني في الكبير: الحديث (٥٦٢٠) وإسناده صحيح. وفي الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان: الحديث (٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب من يعطى من الصدقة: الحديث (١٦٢٧). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قسم الصدقات: الحديث (١٣٤٨٧).

(٣) ينظر ما قبله.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٧٢.

تحلُّ له الصدقةُ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ قال: [لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ][1] والفرسُ في الكثيرِ الأحوال يُساوي أكثرَ من أربعين دِرهمًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْجَمَاعَةَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ جَلاَّسُ بْنُ سُوَيدٍ وَمَخْشِيُّ بْنُ حُمَيِّرٍ[2] وَأبُو يَاسِرِ بْنِ قَيْسٍ وَسِمَاكُ بْنُ يَزِيدٍ وَعُبَيْدُ بْنُ هِلاَلٍ وَرُفَاعَةُ بْنُ التَّابُوتِ[3] كَانُوا يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَقُولُونَ فِيْهِ مَا لاَ يَجُوزُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا فَإنَّا نَخَافُ أنْ يَبْلُغَهُ الْخَبَرُ، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: بَلْ نَقُولُ مَا شِئْنَا ثُمَّ نَأْتِيهِ فَيُصَدِّقُنَا فِي مَا نَقُولُ، فَإنَّ مُحَمَّداً أذُنٌ سَامِعَةٌ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[4] . ومعناها: ومِن هؤلاء المنافقين مَن يُؤذِي النبيَّ ﷺ، ويقولون هو صاحبُ أذنٍ يُصغِي إلى كلِّ أحدٍ، ويقبلُ كلَّ ما قيلَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي قِيلَ: هو مستمعٌ بخيرٍ لا مستمعٌ بشَرٍّ، وَقِيْلَ: معناهُ: هو يستمع إلى ما هو خيرٌ لكم وهو الوحيُ. وقرأ الحسنُ: (هُوَ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ) كلاهُما بالتنوينِ والضمِّ، معناهُ: إنْ كان كما قُلتم فهو خيرٌ لكم يقبَلُ عُذركَم. وقرأ نافع: (قُلْ أذْنُ) بجزمِ الذال وهو لغةٌ في الأذن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي يُصدِّقُ بما أنزلَ عليه، والإيمانُ باللهِ لا يعملُ إلا بالحقِّ، ويؤمِنُ للمؤمنين أي يُصدِّقُ المؤمنين في ما يُخبرونَهُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص١٣١: الحديث (٢٨٩٣). وأصله عند الإمام أحمد في المسند: ج١ ص٢٠١. وأبي داود في المسند: الحديث (١٦٦٥ و١٦٦٦)، وقد تقدم.

(٢) مَخْشِيُّ بنُ حُمَيِّرِ الأشجعي: حليفُ لبني سلمة من الأنصار، كان من المنافقين وأرجفَ يوم تبوك، ثم تاب وحسنت توبته، وسمي عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيداً، قتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (٢٣٧٩). وفي المخطوط: (مخشي ابن خويلد) وهو تصحيف.

(٣) أو رافع بن تابوت، في الإصابة: ج ٢ ص٤٨٨: الترجمة (٢٦٦٣) رفاعة بن ثابت، وهو غير رفاعة بن تابوت المنافق.

(٤) القصة ذكرها أهل التفسير باختصار وبألفاظ يكمل بعضها بعضاً، ينظر: جامع البيان: الأثر (١٣١٤٩-١٣١٥٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٠٠).

واختلَفُوا في الـ (لام) التي للمؤمنين، فقال بعضُهم هي زائدةٌ كما في قولِهِ تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾[1] معناهُ: ردِفكُمْ. قال بعضُهم: إنما ذُكر اللام للفرق بين التَّصديق والإيمان، فإنه إذا قِيْلَ: ويُؤمِنُ للمؤمنين لَم يُقبل غيرُ التصديق، كما في قولِه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[2] أي بمُصدِّق، وقوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾[3] أي لن نصدِّقكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ والأعمش وحمزة بالخفضِ على معنى: أذُنُ خيْرٍ وأذُن رحمةٍ، وقرأ الباقون: (وَرَحْمَةٌ) بالرفعِ يعني: هو رحمةٌ، جعلَ الله النبيَّ ﷺ رحمةً لهم؛ لأنَّهم إنما نالُوا الإيمانَ بدُعائهِ وهدايته. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ وعيدٌ مِن الله لهؤلاء المنافقين على مقالتِهم. قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَةُ جَاؤُا إلَى النَّبيِّ ﷺ يَحْلِفُونَ أنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ:

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ ولم يقُل يرضُوهُما؛ لأنه يُكرَهُ الجمعُ بين ذكرِ اسم الله وذكرِ اسم رسولهِ في كِنَايَةٍ واحدةٍ، كما رُوي أنَّ رَجُلاً قَامَ خَطِيباً عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ ﷺ: [بئْسَ الْخَطِيبُ أنْتَ! هَلاَّ قُلْتَ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ؟][4]. وقال النبيُّ ﷺ: [لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلاَنٌ، وَلَكِنْ قُولُواْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ][5] فكرِهَ الجمعَ بين الله وبين غيره في الذكرِ تعظيماً لله. والضميرُ في قولِه (يُرْضُوهُ) إلى الواحدِ؛ لأنَّ رضَى اللهِ مُتَضَمِّنٌ رضَى رسولِهِ. وقولُهُ: ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ إنْ كانوا مصدِّقين بقُلوبهم غيرَ مُنافِقين كما يدَّعون، فطلَبُهم رضَى اللهِ أوْلَى من طلَبهم رضَاكُم.

---

(١) النمل / ٧٢ . (٢) يوسف / ١٧ . (٣) التوبة / ٩٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥٦. ومسلم في الصحيح: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة: الحديث (٤٨/ ٨٧٠).

(٥) عن حذيفة رفعه؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب لا يقال خبثت نفسي: الحديث (٤٩٨٠). وابن ماجة في السنن: كتاب الكفارات: باب النهي أن يقال: الحديث (٢١١٨)، وإسناده صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يُخبرْهُم الرسولُ ﷺ أنه مَن خالفَ اللهَ ورسوله في الدِّين فيجعلُ نفسَهُ في حدٍّ، واللهَ ورسولَهُ في حدٍّ فله نارُ جهنَّم، ودخلت (أنَّ) مؤكّدة وهي إعادة أن الأُولى؛ لأنه لما طالَ الكلامُ كانت إعادتُها أوكَدَ. ومَن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الهوَانُ الشديدُ الدائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ ؛ الكثيرُ من المفسِّرين على (أنَّ) اخبار مِن المنافقين أنَّهم يحذَرُون أنَّ الله نَزَّلَ عليهم سورةً تُخبرُ عن ما في قلوبهم من النِّفاق والشِّركِ، فإنَّ بعض المنافقين كانوا يَعلَمُونَ نبوَّةَ النبيِّ ﷺ، ولكنهم كانوا يَكفُرُونَ عند أهلِ الشِّرك عِناداً وحَسَداً، وبعضُهم كانوا عندَ أنفُسِهم شاكِّين غيرَ مُستبصِرينَ، وكانوا يخافون إذا أذنَبُوا ذنباً أنْ يَنْزلَ على النبيِّ ﷺ من القُرآن ما يكشفُ عن نفاقِهم، وفي الآيةِ ما يدلُّ على هذا وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) أي مُظْهِرٌ ما تخافون من ظهور النِّفاق، وعن هذا سُمِّيت هذه السورةُ (سُورَةُ الْفَاضِحَةِ)؛ لأنَّها فضَحَتِ المنافقين، وتُسمَّى أيضاً (الْحَافِرَةُ)؛ لأنَّها حفَرَتْ عن قلوب المنافقين.

وقولُهُ تعالَى: ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ تهديدٌ وإنْ كان لفظُ الأمر، كما في قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1]، وذهبَ الزجَّاجُ إلى أنَّ قولَهُ: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) لفظةُ إخبارٍ ومعناهُ: الأمرُ كلُّه، كأنه قالَ: لِيحْذَر، وهذا كما قال: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ فِي مَسِيرِهِ رَاجِعٌ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوك، وَثَلاَثَةُ نَفرٍ يَسِيرُونَ بَيْنَ يَدَيه، فَجَعَلَ رَجُلاَنِ يَسْتَهْزِئَانِ برَسُولِ اللهِ وَيَقُولُونَ: إنَّ مُحَمَّداً قَالَ: نَزَلَ فِي أصْحَابنَا الَّذِينَ يَحْلِفُوا كَذا وَكَذا، وَالثَّالِثُ يَضْحَكُ مِمَّا يَقُولُونَ وَلاَ يَتَكَلَّمُ بشَيْءٍ.

---

(١) فصلت / ٤٠ . (٢) البقرة / ٢٢٨ .

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام على النَّبيِّ ﷺ وَأخْبَرَهُ بما يَقُولُونَ، فَدَعَا عليه السلام عَمَّاراً وَقَالَ: [إنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بكَذا وكَذا، ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، إنْطَلِقْ إلَيْهِمْ وَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَتَحَدَّثُونَ، وَقُلْ لَهُمْ: أحْرَقْتُمْ أحْرَقَكُمُ اللهُ] فَفَعَلَ ذلِكَ عَمَّارُ، فَجَاؤُا إلَى النَّبيِّ ﷺ يَعْتَذِرُونَ وَيَقُولُونَ: كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فِيمَا يَخُوضُ فِيهِ الرَّكْبُ إذا سَارَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ.

وعن الحسنِ وقتادةَ: (أنَّهُمْ كَانُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ، فَقَالُوا: أيَطْمَعُ هَذا الرَّجُلُ أنْ يُفْتَحَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ؟ هَيْهَاتَ مَا أبْعَدَهُ عَنْ ذلِكَ! فَأطْلَعَ نَبيَّهُ عَلَى ذلِكَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ منه ألِفُ استفهامٍ، معناهُ: النِّيَّةُ لهم على ما كانوا يفعلونَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ ﴾؛ أي لا تعتذِرون عن مَقالَتِكم، ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾؛ أي قد أظهرتُم الكفرَ بعد إظهاركم الإيمانَ، فإنَّهم قطُّ لم يكونوا مُؤمِنين، ولكن كانوا مُنافِقِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ ﴾؛ وفيه قراءَتان، هذه بالضَّمِّ على ما لَم يُسَمَّ فاعلُه، والثانية: (إنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً) بالنصب، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إنْ يَعْفُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ يَضْحَكُ وَهُوَ مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيِّرٍ[2]، يُعَذِّبِ الرَّجُلاَنِ اللَّذان كَانَا يَتَكَلَّمَانِ بالْهَمْزِ)[3] ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي كافرين في السِّرِّ، وكلُّ معصيةٍ جُرْمٌ إلاَّ أنَّه أرادَ بالْجُرْمِ ههنا الكفرَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٥٣) عن قتادة.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٦٩. وفي المخطوط صحف الناسخ الاسم فقال: (جهين بن حميد). ترجم له ابن عبدالبر في التمهيد: ج ٣ ص٤٣٧: الرقم (٢٣٧٩)، وقال: (مخشي بن حمير الأشجعي حليف لبني سلمة من الأنصار، كان من المنافقين، وسار مع النبي ﷺ إلى تبوك حين أرجفوا برسول الله ﷺ وأصحابه، ثم تاب وحسنت توبته، وسمي عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيداً، لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر).

(٣) أخرجه أبو حاتم الرازي في التفسير: الأثر (١٠٤٠٣) مختصراً. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٥٦) عن ابن إسحق وسماه. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص١٦٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ﴾ ؛ أي بعضُهم مُضَافٌ إلى بعضهم لاجتماعِهم على الشِّرك والاستهزاءِ بالمسلمين، كما يقالُ: أنا مِن فلان وفلانٌ منِّي؛ أي أمْرُنا واحدٌ وكَلِمَتُنَا واحدةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ أي بالكُفرِ والمعاصي، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي عن الإيمان والطاعة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ ﴾ ؛ قال الحسنُ ومجاهد: (أيْ يُمْسِكُونَهَا عَنِ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ)، وَقِيْلَ: عنِ الزَّكَوَاتِ المفروضةِ، وقال قتادةُ: (عَنِ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ ﴾ ؛ أي تركُوا أمْرَ اللهِ وأعرَضُوا عنه حتى صارَ كالمنسيِّ عندَهم بإعراضِهم عنه، فتركَهم اللهُ من رحمتهِ حتى صارُوا كَالْمَنْسِيِّيْنَ عندَهُ، وإنْ كان النِّسيانُ مما لا يجوزُ على اللهِ إلاَّ أنه قال (فَنَسِيَهُمْ) لمزاوجةِ الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[1]، قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي هم المتمرِّدون في الكفرِ والفسقِ وفي كلِّ شيء، والْمُتَمَرِّدُ فيه وإنْ كان النفاقُ أعظمَ من الفسقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ ؛ في الآية جمعٌ بين المنافقين وبين الكفَّار في التسميةِ، وإنْ كان المنافقون همُ الكفار؛ لتكون الآيةُ دالَّةً على أنَّ المنافقين يلحقُهم الوعيدُ من جِهَتَين، من جهةِ الكُفرِ والنِّفاقِ.

وجهنَّم من أسماءِ النار يقول العربُ للبئر البعيدة القعر: جِهْنَامٌ، فيجوزُ أن تكون جَهَنَّمُ مأخوذةً من هذه اللَّفظةِ لبُعدِ قَعرها. وقولهُ تعالى: ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْۚ ﴾ ؛ أي كفايَتُهم على ذنوبهم؛ لأن فيها جزاءَ أعمالِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾ ؛ أي أبعدَهم من الثواب والمدح في الدُّنيا، وعن الثواب والرحمة في الآخرةِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي عذابٌ دائم.

---

(١) البقرة / ١٩٤ . (٢) الشورى / ٤٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا ﴾ ؛ أي وعدَ اللهُ أهلَ زمانِكم على الكفرِ والنِّفاق نارَ جهنَّم، كما وعدَ الذين من قبلِكم كانوا أشدَّ منكم قوَّةً في البَدَن وأكثرَ أموالاً وأولاداً، ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ ، فانتفعُوا بنصيبهم وحظِّهم في الدُّنيا، ولم ينفعْهم ذلكَ حين نزلَ بهم عذاب الله، فكذلك أنتم، والْخَلاَقُ هو النصيبُ من الخيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ ؛ أي فاستمتَعتُم أنتم بنصيبكم من الدُّنيا وخُضتم فيها، ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ ؛ أي خُضتم في الكفرِ والاستهزاء بالمؤمنين كما خاضَ الأوَّلون.

وقولهُ تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة حَبطَتْ أعمالُهم التي عَمِلوها على جهةِ البرِّ مثلُ الإنفاق في وجُوهِ الخير ومثلُ صِلَةِ الرَّحم حبطَتْ، ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ حتى لا يستحقُّوا بها الإكرامَ والتعظيمَ في الدُّنيا، و، حبطَتْ في، ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ الذين خسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ، والْخُسْرَانُ هو ذهابُ رأسِ المال من دون أصلِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ معناهُ: ألَم يأتِ المنافقين والكفارَ خبرُ مَن قبلِهم كيف أهلكَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حين تمرَّدُوا في الكُفر، واستهزَأوا بالمؤمنين وهم قومُ نوحٍ، أهلكَهم اللهُ بالغرق، وعَادٌ قومُ هودٍ أهلكَهم اللهُ بالريحِ، وثَمُودُ أهلكَهم اللهُ بالصَّيحةِ والرَّجْفَةِ وهم قومُ صالحٍ، وقومُ إبراهيمَ أهلكَهم اللهُ نَمْرُودُهم بالبَعُوض وسائرِ قومه بالْهَدْمِ، وأصحابُ مَدْيَنَ قومُ شُعَيبٍ أهلكَهم اللهُ بالصَّيحَةِ وعذاب الظُّلَّة، ومَدْيَنُ بئْرُ مَدْيَنَ بنُ إبراهيم نُسبَتِ القريةُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ﴾ ؛ أي الْمُنْقَلِبَاتُ وهي قرياتُ قومِ لُوطٍ أهلكَهم اللهُ بالخسفِ، وقَلَبَ مَدَائِنَهُمْ عليهم. ويقالُ: أرادَ بالْمُؤْتَفِكَاتِ كلَّ مَن انقلبَ أمرُهم عليهم من الخيرِ إلى الشرِّ. يقالُ: الهالكُ انقلبَت عليه الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ ؛ أي بالْحُجَجِ والبراهين، ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لَمَّا كذبوا الرُّسلَ وكفرُوا

بالآيات أهلكَهم، ولم يكن ذلك ظُلماً؛ لأنَّهم استحَقُّوا ذلك بعمَلِهم فكانوا هم الظالمين لأنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ ؛ أي بعضُهم أنصارُ بعضٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؛ أي بالتَّوحيدِ واتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وشرائعه، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ؛ عن ما لا يعرفُ في شريعةٍ ولا سُنة، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ؛ الْخَمْسَ بشَرائطِها، ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ ؛ ويؤدُّون، ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ؛ الواجبةَ في أموالِهِ، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ ؛ في الفرائضِ، ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ؛ في السُّنَنِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ؛ أي يُنعِمُ عليهم في الآخرةِ، والرحمةُ هي النِّعمَةُ على المحتاجِ.

وعن بعضِ أهلِ الإشارة: سيرحَمُهم في خمسةِ مواضع: عند الموتِ وسكَراتِه، وفي القبرِ وظُلُماتِه، وعند قراءةِ الكتاب وحسَراتِه، وعند الميزان وندامَتِه، وعند الوُقوفِ بين يَدَي اللهِ ومسؤولاتِه. وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾ أي غالبٌ في مُلكِه وسُلطانِه، تجري أفعالهُ على ما توجبهُ الحكمة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ؛ أي بساتينَ تجري من تحتِ شجَرِها وغُرَفِها أنهارُ الماءِ والعسَلِ والخمرِ واللَّبن، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ؛ أي مُقيمين دائمين فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ ؛ أي مساكِنها طاهرةً عامِرةً يطيبُ بها العيش، قال الحسنُ: (هِيَ مَسَاكِنُ بَنَاهَا اللهُ مِنَ اللَّآلِئِ وَالْيَوَاقِيتِ الْحُمْرِ وَالزُّبُرْجَدِ الأَخْضَرِ).

وقوله: (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) أي في بساتين إقامَة، قال ابنُ عبَّاس: (جَنَّاتُ عَدْنٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّاتُ حولَها مُحْدِقَةٌ بها وَهِيَ مُغْطَاةٌ مُنْذُ خلَقَهَا اللهُ حَتَّى يَنْزِلَهَا أَهْلُهَا النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ). وعن مجاهدٍ قال: (قَالَ عُمَرُ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا جَنَّاتُ عَدْنٍ؟ قُصُورٌ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ذهَبٍ، لِكُلِّ قَصْرٍ خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ بَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفاً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، لاَ يَدْخُلُهَا إلاَّ نَبِيٌّ، وَهَنِيئاً لِصَاحِبِ هَذا الْقَبْرِ، وَأَشَارَ إلَى قَبْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَ، وَهَنِيئاً لأَبِي بَكْرٍ أَوْ شَهِيدٍ، وَإنِّي لَعُمَرُ الشَّهَادَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ؛ أي رضَى الرب عنهم أكبرُ وأعظم من هذا النعيمِ كلِّه لأنَّهم إنَّما نالُوا ذلك كله برضوان الله عَزَّ وَجَلَّ، والرِّضْوَانُ: إرادةُ الخيرِ والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ أي ذلك الذي ذكرتُ هو الحياةُ الوافرة، نَجَوا من النار وظَفَرُوا بالجنَّة.

وعن الحسنِ في قولهِ تعالى: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) أي سرورٌ في الآخرةِ برضوان اللهِ عنهم يكون أكثرُ من سُرورِهم بهذا النَّعيمِ كُلِّه. وعن رسول الله ﷺ: [إذا أَنْزَلَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، قَالَ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ؟ فَيَقُولُونَ: بَلَى يَا رَب وَمَا أَكْبَرُ مِنْ ذلِكَ ؟ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَداً][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أي جاهِدِ الكفَّارَ بالسَّيفِ والمنافقين باللِّسان، واغلُظْ على الفريقين جميعاً، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ ، ومصيرُهم في الآخرةِ، ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ ؛ الموضعُ الذي يَصيرُونَ إليه، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ بالْقِتَالِ، وَالْمُنَافِقِينَ بالْحُدُودِ، فَإِنَّهُمْ كَثِيرُو التَّعَاطِي لِلأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِلحُدُودِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي وَالْجَلاَّسِ بْنِ سُوَيدٍ وَعَامِرِ ابْنِ النُّعْمَانِ وَغَيْرِهِمْ، كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلاً، خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ بتَبُوكَ وَسَمَّاهُمْ رِجْساً، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقّاً عَلَى إخْوَانِنَا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، فَسَمِعَهُ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: أَجَلْ وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ وَلأَنْتُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٨٢). والبخاري في الصحيح: كتاب التوحيد: باب كلام الرب مع أهل الجنة: الحديث (٧٥١٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة: باب إحلال الرضوان على أهل الجنة: الحديث (٩/ ٢٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٣١٨٨).

فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ أخْبَرَهُ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ بمَا قَالَ الْجَلاَّسُ، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: يَكْذِبُ عَلَيٌّ يَا رَسُولَ اللهِ! فَأمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ أنْ يَحْلِفَان عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَلَفَا جَمِيعاً، فَرَفَعَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أنْزِلْ عَلَى نَبِيِّكَ وَبَيِّن الصَّادِقَ، فَقَالَ ﷺ: [آمِينَ] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١) . ومعناها: يحلِفان المنافقون باللهِ ما تكلَّموا بكَلِمةِ الكُفرِ ولقد تكلَّموا بها وأظهَرُوا الكفرَ بعدَ إظهارهم الإسلامَ. وَقِيْلَ: كفرُوا بقولِهم ذلك بعدَ ما كانوا أسلَمُوا على زَعمِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ؛ أي قصَدُوا إلى ما لم يَصِلُوا إلى ذلك، والْهَمُّ بالشَّيءِ في اللُّغة: مقاربته دون الوقُوعِ فيه، قِيْلَ: إنَّهم كانوا هَمُّوا بقتلِ الذي أنكرَ عليهم قولَهم. وَقِيْلَ: معنى الآية: أنَّ رسولَ الله ﷺ خرجَ إلى غزوةِ بَني الْمُصْطَلِقِ، وقد جَمَعُوا له ليُقاتِلوا، فالتَقوا على مائِهم فهزَمَهم اللهُ وسَبَى رسولُ الله ﷺ أبناءَهم ونساءَهم ورجعَ، فلما نَزَلَ مَنْزِلاً في الطريقِ اختصمَ رجلٌ من أصحاب عبدِالله بن أبَيٍّ ورجلٌ من المخلصِين غفَّاري يقالُ له جَهْجَاهُ، فلطمَ الغفاريُّ صاحبَ عبدِالله بن أبَي، فغضبَ عبدُالله وقالَ: مَا صَحِبْنَا مُحَمَّداً إلاَّ لِتُلْطَمَ، ثم نظرَ إلى أصحابهِ قال: لقد أمرتُكم أن تكفُّوا طعامَكم عن هذا الرجلِ ومَن معه حتى يتفرَّقوا فلم يفعلوا، واللهِ لئن رجَعنا الى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقال الغفاريُّ: أتَقُولُ مِثْلَ هَذا ؟! وَاللهِ لَئِنْ شِئْتَ لأَلْطُمَنَّكَ، قال عبدُالله: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ! فقال زيدُ بن أرقم وكان غلاماً حديثَ السنِّ: يَا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ رَسُولِهِ، أتَقُولُ هَذا؟! وَاللهِ لأُبَلِّغَنَّ رَسُولَ اللهِ مَا قُلْتَ.

ثم انطلقَ إلى النبيِّ ﷺ وأعلمَهُ وعنده عمرُ رضي الله عنه، فقال عمرُ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْ عَبَّادَ بْنَ قَشٍّ فَيَقْتُلَهُ، فَقَالَ: [يَا عُمَرُ إذاً يُحَدِّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصْحَابَهُ] فبلغَ عبدَالله بن أبَي ما قالَ زيدُ بن أرقم، فمشَى إلى النبيِّ ﷺ ومعه أشرافُ الأنصار يصدِّقونه ويكذِّبون زيداً ويقولون: يُخْشَى أنْ يَكُونَ زَيْدٌ قَدْ وَهِمَ، وكان ابنُ أبَيٍّ يحلفُ باللهِ ما قالَ ذلك، فقالَ أسَيْدُ: يَا رَسُولَ اللهِ ارْفِقْ بعَبْدِاللهِ، فَوَاللهِ لَقَدْ جَاءَ اللهُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٩٠ و١٣١٩١).

تَعَالَى بكَ وَإنَّ قَوْمَهُ لَيُتَوِّجُونَهُ، فَهُوَ يَرَى أنَّكَ سَلَبْتَهُ مُلْكاً عَظِيماً. فَسَاءَ رَسُولَ اللهِ يَوْمَهُ ذلِكَ حَتَّى أمْسَى، وَلَيْلَتَهُ حَتَّى أصْبَحَ وَنَزَلَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ فِي قَوْلِ ابْنِ أبَيٍّ (وَهَمُّوا بمَا لَمْ يَنَالُوا) وَنَزَلَ (للهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[١].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ ؛ معناهُ: وما طَعَنُوا على النبيِّ ﷺ وأصحابهِ إلاَّ أنْ أغناهم اللهُ من فضلهِ وأغناهم رسولهُ، وذلك أن رسولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ إلى المدينةِ وكان أهلُها من شدَّة العيشِ لا يركبون الخيلَ، ولا يحوزُونَ الغنيمةَ، فلما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ استغنَوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ ﴾ ؛ أي إنْ يتُوبوا من النِّفاق يكن خَيراً لَهم في الدُّنيا والآخرة، ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ وإنْ يُعرضوا عن التوبةِ يُعذِّبهمُ اللهُ في الدنيا بالقتلِ، ويقالُ: بإظهار حالهم في الآخرةِ بالنار، ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي وما لهم في الأرض مِن حافظٍ يحفظُهم، ولا دافعٍ يدفعُ عنهم عذابَ اللهِ، قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ الْجُلاَّسُ بْنُ سُوَيدٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أسْمَعُ اللهَ قَدْ عَرَضَ عَلَيَّ التَّوْبَةَ، صَدَقَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ فِيمَا قَالَ لَكَ، وَأنَا أسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأتُوبُ إلَيْهِ. فَقَبلَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ تَابَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ عَاهَدَ اللهَ وَهُوَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، كَانَ لَهُ مَالٌ بالشَّام فَأبْطَأَ عَلَيْهِ، فَجَهَدَ لِذلِكَ جُهْداً شَدِيداً، فَحَلَفَ باللهِ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ يَعْنِي الْمَالَ الَّذِي لَهُ بالشَّام لَنَصَّدَّقَنَّ مِنْهُ، وَلَنَصِلَنَّ الرَّحِمَ وَلَنُؤَدِّيَنَّ مِنْ حَقِّ اللهِ، وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُقِيمِينَ لِفَرَائِضِ اللهِ، فَآتَاهُ اللهُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ لَهُ بالشَّامِ، فَبَخِلَ بمَا وَعَدَ وَلَمْ يَفْعَلْ مَا عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ)[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية ٨ من سورة المنافقين: الحديث (٢٦٤٨١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٣) من طريقين.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٤).

وعن أبي أمامة الباهلي: أنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ اُدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَقَالَ لَهُ: [وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ] ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَقَالَ: [وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! أمَا تَرْضَى أنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لَوْ سَأَلْتَ اللهَ أنْ يُسَيِّلَ عَلَى الْجِبَالِ ذهَباً وَفِضَّةً لَسَالَتْ، يَا رَسُولَ اللهِ اُدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَوَاللهِ لَئِنْ آتَانِي اللهُ مَالاً لأُوتِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَقَالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً] ثلاثَ مَرَّاتٍ.

فَاتَّخَذ غَنَماً فَنَمَتْ حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا أزِقَّةُ الْمَدِينَةِ فَتَنَحَّى بِهَا، وَكَانَ يَشْهَدُ الصَّلَوَاتِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ثُمَّ يَخْرُجُ إلَيْهَا، ثُمَّ نَمَتْ حَتَّى تَعَذرَتْ بِهَا مَرَامِي الْمَدِينَةِ فَتَنَحَّى بِهَا، وَكَانَ يَشْهَدُ الْجُمَعَ مَعَ رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إلَيْهَا، ثُمَّ نَمَتْ فَتَرَكَ الْجُمَعَ وَالْجَمَاعَاتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ (١) اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ عَلَى الصَّدَقَاتِ، رَجُلاً مِنَ الأنْصَارِ وَرَجُلاً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَكَتَبَ لَهُمَا الصَّدَقَةَ وَأسْنَانَهَا وَأمَرَهُمَا أنْ يَأخُذا مِنَ النَّاسِ، فَأتَيَا ثَعْلَبَةَ، قَالَ لَهُمَا: خُذا مِنَ النَّاسِ فَإذا فَرَغْتُمَا فَمُرَّا عَلَيَّ، فَفَعَلاَ فَقَالَ: مَا هَذِهِ إلاَّ أخْتُ الْجِزْيَةِ! فَانْطَلَقَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

فَرَكِبَ عُمَرُ رَاحِلَتَهُ، وَمَضَى إلَى ثَعْلَبَةَ، وَقَالَ: وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! هَلَكْتَ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيكَ كَذا وَكَذا، فَأقْبَلَ ثَعْلَبَةُ يَبْكِي وَيَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأسِهِ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ صَدَقَتِي، فَلَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَتَهُ حَتَّى قُبِضَ، ثُمَّ أتَى إلَى أبِي بَكْرٍ ﷺ فَلَمْ يَقْبَلْ صَدَقَتَهُ، ثُمَّ أتَى عُمَرَ ﷺ فَلَمْ يَقْبَلْ صَدَقَتَهُ، فَمَاتَ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ عُثْمَانُ صَدَقَتَهُ (٢).

---

(١) التوبة / ١٠٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٥)، وفيه أبو عبدالملك علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف من جهة حفظه. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٤٠٨).

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي أعقبَهم ببخلِهم نفاقاً في قلوبهم إلى يومِ جزَاءِ البُخلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: فجازَاهم ببُخلِهم نِفَاقاً في قُلوبهم بما أخلَفُــوا اللهَ؛ أي بإخلافِهم بما وعَدُوا من التصدُّق وكذِبهم فيما قالوا. وقال الحســنُ: (مَعْنَــاهُ: أوْرَثَــهُمُ اللهُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبهِمْ بأنْ حَرَمَهُمُ التَّوْبَةَ كَمَا حَرَمَ إبْلِيسَ). قالوا: وإنَّما أرادَ اللهُ بـهذا بأنَّ اللهَ تعالى دلَّنا على أنه لا يتوبُ، كما دلَّنــا حــالُ إبليــس لأنــه لا يتــوبُ؛ لأن اللهَ سَلَبَ عنه قدرةَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) معناهُ على قول الحسنِ وقتادة: (إلَى يَوْمِ يَلْقَــوْنَ اللهَ) أي يلقَون اليومَ الذي لا يملكُ فيه الحكمَ والضرَّ والنفعَ إلا اللهَ، وفي هــذه الآيــةِ دلالةٌ على أن مَن نَذرَ نذراً فيه قربةٌ يجوز أن يقولَ: إنْ رزقَني اللهُ ألفَ درهمٍ فعليَّ أنْ أتصدَّقَ بخمسمائةٍ لَزِمَهُ الوفاءُ به، وفيها دلالةُ جواز تعليق النذر بالشَّرط نحوَ أن يقولَ: إنْ قَدِمَ فلانٌ فلِلَّهِ عليَّ صيامٌ وصدقة، وإنْ ملكتُ عَبداً، أو هذا العبدَ فعليَّ أنْ أعتِقَهُ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإنْ صَلَّى وَصَامَ: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذبَ، وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ][(١)].

قَوْلُــهُ تَعَــــالَى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ ألم يعلم المنافقون أنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرُّونَ من الكفر، ومــا يُناجُونَ فيه فيما بينهم، وأنَّ الله عالِمٌ بكلِّ شيء خفِــيٌّ علــى العبــادِ، وهــذا اســتفهامٌ بمعنى التوبيخ.

قَوْلُـــــهُ تَعَــــالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَبَ ذاتَ يَوْمٍ حِينَ أرَادَ الْخُرُوجَ إلَى غَزْوَةِ تَبُوكٍ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَقَالَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢١٣). وأصله في الصحيحين:[أربــع]؛ أخرجــه البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان: باب علامة المنافق: الحديــث (٣٤). ومســلم في الصحيــح: كتاب الإيمان: باب خصال المنافق: الحديث (١٠٦/ ٥٨).

[اجْمَعُوا صَدَقَاتِكُمْ] فَجَاءَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ بِأَرْبَعَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [أَكْثَرْتَ! هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ لِي ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ، فَأَمْسَكْتُ أَرْبَعَةً لِنَفْسِي وَعِيَالِي وَهَذِهِ أَرْبَعَـةُ آلاَفٍ لأُقْرِضَـهَا رَبـي، فَقَـالَ ﷺ [بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ] فَبَارَكَ لَهُ حَتَّـى بَلَـغَ مَالَـهُ حِـينَ مَـاتَ، وَطَلَّقَ إِحْدَى نِسَائِهِ فِي مَرَضِهِ وَصَالَحُوهَا عَنْ رُبُعِ ثُمنِهَا عَلَى ثَمَانِينَ أَلْفاً.

وَبَعْدَهُ جَاءَ عُمَرُ ﷺ بِنَحْوٍ مِنْ ذلِكَ، وَجَاءَ عُثْمَانُ ﷺ وَصَدَقَتُهُ، وَجَاءَ عَـاصِمُ ابْنُ عَدِيٍّ الأَنْصَارِيُّ بِسَبْعِينَ وسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، وَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ وَقَـالَ: يَـا رَسُولَ اللهِ لَيْلَتِي كُلُّهَا أَجُرُّ بِالْحَرِيرِ حَتَّى أَصَبْتُ ثُلُثَ صَاعَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَـا فَأَمْسَكْتُهُ لِعِيَالِي، وَأَمَّا الآخَرُ فَأُقْرِضُهُ رَبي، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَشُدَّهُ فِي الصَّدَقَـةِ. فَطَعَـنَ فِيهِمُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: وَاللهِ مَا جَاءَ هَؤُلاَءِ بِصَدَقَاتِهِمْ إِلاَّ رِيَاءً وَسُمْعَةً، وقَالُوا فِي أبي عَقِيلٍ: إِنَّهُ جَاءَ لِيُذكِّرَ بنَفْسِهِ وَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، وَإِنَّ اللهَ أَغْنَـى عَـنْ صَاعِ أَبِي عَقِيلٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَـةَ)[1]. ومعنَاهـا: الذيـن يُعِيبُـونَ الْمُطَّوِّعِـينَ مـن المؤمنين في الصَّدقاتِ وهم المنافقون عَابُوا عمرَ وعثمانَ وعبدَالرحمن بن عوف رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (وَالَّذِيـنَ لاَ يَجِـدُونَ إِلاَّ جُـهْدَهُمْ) أي ويُعيبـون علـى الذيـن لا يَجِـدون إلاَّ جُـهدَهم؛ أي طاقَتَـهم مـن الصَّدقـاتِ، عـابُوا الْمُكْـثِرَ بالرِّيـاءِ، والْمُقِـلَّ بالإقْلال. والْجُهْدُ بالضمِّ والنصب لُغتان بمعنى واحد، ويقالُ: الْجَهْدُ بالنصب المشقَّة، والْجُهْدُ بالضمِّ الطاقةُ، وَقِيْلَ: الْجَهدُ بالعملِ والْجُهد في القوَّةِ، قـرأ عطـاءُ والأعـرج (جَهْدَهُمْ) وهما لُغتان مثل الوُجْدِ والوَجدِ، فالضمُّ لغةُ أهلِ الحجاز، والفتح لغة أهلِ نَجْدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي يستهزؤن بهم، ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي يُجازيهم جزاءَ سخرتِهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي وجيعٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٣٣) وهـو إدراج للأحـاديث (١٣٢٢٠-١٣٢٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ؛ وذلك لَمَّا نزلت هذه الآيةُ التي قبلَ هذه أتى المنافقون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَغْفِرْ لَنَا، فكَانَ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لِقَوْمٍ مِنْهُمْ عَلَى ظَاهِرِ إسْلاَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بنِفَاقِهِمْ، وكَانَ إذا مَاتَ أحَدٌ مِنْهُمْ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ الدُّعَاءَ وَالاسْتِغْفَارَ لِمَيِّتِهِمْ، فكَانَ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ عَلَى أنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَأَعْلَمَهُ اللهُ بأنَّهُم مُنَافِقُونَ، وَأخْبَرَ أنَّ اسْتِغْفَارَ النَّبِيِّ ﷺ لاَ يَنْفَعُهُمْ، فذلك قولُهُ: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وهذه اللفظةُ لفظةُ الأمرِ، ومعناهُ الخبر؛ أي إنْ شِئْتَ استغفرتَ لهم، وإنْ شئتَ لا تستغفِرْ، فإنَّكَ إن استغفرتَ لهم سبعين مرَّة لن يغفرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ في بيان العلَّة التي لأجلِها لا ينفعُهم استغفار الرسول ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يوفِّقهم ولا يرشدهم إلى جنَّتهِ وثوابهِ وكرامته، وأما تخصيصُ (سَبْعِينَ مَرَّةً) بالذكرِ فهو لتأكيدِ نفي المغفرةِ بهذا؛ لأن الشيءَ إذا بُولِغَ في وصفهِ أكِّدَ بالسَّبع والسبعين، وهذه كما يقولُ القائل: لو سألتَني حاجتَكَ سبعين مرَّةً لم أقضِها، لا يريدُ أنه إذا أزادَ على السَّبعين قضَى حاجتَهُ، ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [لَوْ عَلِمْتُ أنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ لَغُفِرَ لَهُمْ لَزِدْتُ عَلَيْهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي فرحَ المخلَّفون عن غزوةِ تبوك بقعُودِهم لمخالفةِ رسول الله ﷺ، وقيل بقعودِهم عن الجهاد بعد النبيِّ ﷺ، وقرأ عمرُو بن ميمون (خَلْفَ رَسُول اللهِ) والمخلَّفُ ما يتركُ الإنسان خَلْفَهُ، والمتخلِّفُ الذي يتأخَّرُ بنفسه، والخلافُ قد يكون بمعنى المخالَفةِ، وقد يكون بمعنى خلف، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[(٢)]، ويقرأ خلافك على المعنيَين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي كَرِهوا أن يقاتِلُوا المشركين مع رسولِ الله ﷺ بأموالِهم وأنفُسِهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٥٠٧).

(٢) الاسراء / ٧٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ ؛ أي قالَ بعضُهم: لا تخرجُوا فإن الحرَّ شديدٌ والسفرَ بعيدٌ، وكانوا يُدعَون إلى غزوةِ تبوك في وقتِ نُضْجِ الرُّطَب وهو أشدُّ ما يكون من الحرِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ ؛ أي قُل لَهم نارُ جهنَّم التي استحقُّوها بتركِ الخروج الى الجهاد أشدُّ حرّاً من هذا الحرِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي لو كانوا يفقهُون أوامرَ اللهِ ووعدَهُ ووعيدَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي فليضحَكُوا قليلاً لأنَّ ذلك لا يبقى، وليَبْكُوا كثيراً في الآخرةِ في النار، وهذا اللفظُ أمرٌ، ومعناهُ الخبر. وَقِيْلَ: تقديرهُ: فليضحَكُوا قليلاً فيبكون كثيراً، قال أبو موسى الأشعري: (إنَّ أهْلَ النَّار لَيَبْكُونَ الدُّمُوعَ فِي النَّار حَتَّى لَوْ جَرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، ثُمَّ إنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ بَعْدَ الدُّمُوعِ).

قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ أهْلَ النِّفَاق لَيَبْكُونَ فِي النَّار عُمْرَ الدُّنْيَا، فَلاَ يَرقُ لَهُمْ دَمْعٌ وَلاَ يَكْتَحِلُونَ بنَوْمٍ)، قال ﷺ: [يُرْسِلُ اللهُ الْبُكَاءَ عَلَى أهْلِ النَّار فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى وُجُوهَهُمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ]، وقال النبيُّ ﷺ: [لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ ؛ معناهُ: إنْ رجعَكَ اللهُ من تبوك، إلى طائفةٍ من المنافقين بالمدينة فاستأذنُوكَ للخروجِ معك الى غزوةٍ أخرى فقل: لن تَخرجُوا معي أبداً إلى الجهادِ، ولن تقاتِلُوا معي عدُوّاً، ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي في غزوةِ تبوك، ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي مع النِّساءِ والصبيان، هذا قولُ الحسنِ.

والْخَالِفُ الذي يبقَى بعد الشَّاخِص، وَقِيْلَ: هو الذي يبقَى لنقصٍ يكون فيه. وعن ابنِ عبَّاس أن معنى الْخَالِفين: (الْمُتَخَلِّفِينَ بغَيْر عُذْر)، وَقِيْلَ: إنَّ هذا مأخوذٌ من قولِهم خَلَفَ اللَّبَنُ إذا فَسَدَ، والخالِفُ الفاسدُ، وقيل الخالِفون خُسَّاسُ الناس

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب الزهد: الحديث (٢٣١٣)، وقال حديث صحيح.

وأدنياؤهم، ويقال فلان خَالَفَهُ أهلهُ إذا كـان دونـهم، وَقِيْـلَ: مـع الخـالِفين أي أهـلِ الفساد من قولِهم يَنْبذٌ خَالِفٌ أي فاسدٌ، وخلَفَ اللبنُ خُلُوفـاً إذا حَمِـضَ مِـن طُـول وضعهِ في السقاءِ، وخَلَفَ فمُ الصَّائمِ اذا تغيَّرت رائحتهُ. وقرأ مـالكُ بـن دينـار (مَعَ الْخَلِفِينَ) بغيرِ ألف، وقال الفرَّاء: يقالُ عبدٌ خَالِفٌ وصاحبٌ خَالِفٌ إذا كان مُخَالفاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي لا تُصَلِّ على أحدٍ ماتَ من المنافقين أبداً، ولا تَقُمْ على قبرِ أحدٍ منهم لتدفِنَهُ وتدعـو له، ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ وجحدوا بالله ورسوله بقلوبهم، ومـاتوا علـى الكفرِ والنفاق، وقال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا مَرِضَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي سَلُول بَعَثَ إلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ لِيَأْتِيَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ إذا مَاتَ، وَأنْ يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ، وَأنْ يُكَفِّنَهُ فِي قَمِيصِهِ الَّذِي يَلِي جِلْدَهُ، فَقبلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ عَبْـدُاللهِ انْطَلَـقَ ابْنُهُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَدَعَاهُ إلَى جِنَازَةِ أبيهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا اسْمُكَ؟] قَالَ: الْحَبَّابُ بْنُ عَبْدِاللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنْتَ عَبْدُاللهِ بْنُ عَبْدِاللهِ، إنَّ الْحَبَّابَ هُوَ الشَّيْطَانُ].

ثُمَّ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، فَلَمَّا قَامَ ﷺ لِيُصَلِّـيَ عَلَيْـهِ، قَـالَ عُمَـرُ ﷺ: يَـا رَسُولَ اللهِ أتُصَلِّي عَلَى عَدُوِّ اللهِ الْقَائِلِ يَوْمَ كَذا وَكَذا ؟! فَقَالَ: [دَعْنِي يَا عُمَرُ] فَعَادَ عُمَرُ لِمَقَالَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: [دَعْنِي يَا عُمَرُ] فَعادَ لِمَقَالَتِهِ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: [قَدْ خُيِّرْتُ فِـي ذلِكَ، وَلَوْ عَلِمْتُ أنِّي إذا اسْتَغْفَرْتُ لَهُ أكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً غُفِرَ لَـهُ لَفَعَلْـتُ] وَقَـالَ: [تَأخَّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ] قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْتُ مِنْ جُرْأتِي عَلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ فَـأنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً) يعني بعدَ ما صلَّيتَ علـى عبـدِالله بـن أبي.

ورُوِي أنَّ عَبْدَاللهِ بنَ أبَيٍّ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَعَـثَ إلَـى النَّبِيِّ ﷺ يَسْـألُهُ أحَـدَ ثَوْبَيْهِ يُكَفَّنُ فِيهِ، فَبَعَثَ إلَيْهِ بأحَدِهِمَا، فَقَالَ: مَا أريدُ إلاَّ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ مِـنْ ثِيَـابكَ، فَوَجَّهَ إلَيْهِ بذلِكَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذلِكَ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّ قَمِيصِي لَنْ يُغْنِـي عَنْـكَ مِـنَ اللهِ شَيْئاً، وَعَسَى أنْ يُسْلِمَ بسَبَب هَذا الْقَمِيصِ خَلْقٌ كَثِيرٌ] فَأسْلَمَ ألفٌ من الخوارجِ! لَمَّـا

رآوْهُ يطلبُ الاستشفاعَ بثوب رسولِ الله ﷺ[(١)].

قال ابنُ عبَّاس:(اللهُ أعْلَمُ أيُّ صَلاَةٍ كَانَتْ تِلْكَ وَمَا خَادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إنْسَاناً قَطُّ)، وقال مقاتلُ: (إنَّ النَّبيَّ ﷺ أرَادَ أنْ لاَ يُصَلِّيَ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ، جَاءَ إلَيْهِ ابْنُهُ فَقَالَ: أنْشُدُكَ باللهِ أنْ لاَ تُشَمِّتْ بيَ الأَعْدَاءَ، وَكَانَ ابْنُهُ مُؤْمِناً حَقّاً، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَانْصَرَفَ النَّبيُّ ﷺ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ). وعن رسول الله ﷺ: أرَادَ أنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَأخَذ جِبْرِيلُ بثَوْبهِ، فَقَالَ: (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي ماتُوا على الكفرِ والنفاق، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ ما صلَّى رسولُ الله ﷺ بعدَها على منافقٍ ولا قامَ على قبرهِ حتى قُبضَ، وكلَّم رسولُ الله ﷺ في ما فعل بعبدِالله بن أبَي، فقالَ: [وَمَا يُغْنِي عَنْهُ قَمِيصِي وَصَلاَتِي مِنَ اللهِ، واللهِ إنِّي كُنْتُ أرْجُو أنْ يُسْلِمَ بهِ ألْفٌ مِنْ قَوْمِهِ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي لا تعجبْكَ كثرةُ أموالهم وأولادِهم في الدُّنيا، إنما يريدُ اللهُ أن يعذِّبَهم بها، ويخرجَ أرواحَهم بصعوبةٍ، ﴿ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ هذا على التقديمِ والتأخيرِ في الآيةِ على ما تقدَّم ذكرهِ، فأما التأويلُ على نَظْمِ الآيةِ، فمعناهُ: إنَّما يريدُ الله أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا بالتشديدِ عليهم في التكليفِ بالإنفاقِ والأمرِ بالجهاد.

فإنْ قِيْلَ: لِمَ أعادَ قولَهُ (وَلاَ تُعْجِبْكَ أمْوَالُهُمْ وَأوْلاَدُهُمْ)؟ قِيلَ: فيه قولان: أحدُهما بشدَّة التحذيرِ عن الاغترار بالأموال والأولاد، والثاني: أنه أرادَ بالأول قَوْماً من المنافقين، وأرادَ بالثاني قوماً آخرين منهم، كما يقالُ: لا تعجِبْك أموالُ زيدٍ وأولادُه، ولا تعجبك أموالُ عمرٍو وأولادُه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٥٥-١٣٢٦٢). وأصل هذه الأحاديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب استغفر لهم أو لا: الحديث (٤٦٧٠). ومسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: الحديث (٢٥/ ٢٤٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٦١) مرسلاً من حديث قتادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي إذا أنزلت من القرآن قِطْعَةٌ مشتملةٌ على آياتٍ أحاطت بها أن آمِنُوا باللهِ أي صدِّقوا وداوِمُوا على الإيمان وجاهِدُوا الكفارَ مع رسول الله ﷺ استأذنكَ في القعودِ عن الجهاد ذوُو السَّعةِ والغِنَى منهم، ﴿ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا ﴾ ؛ دَعْنا وَاذنْ لنا، ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ عن الجهادِ. والطَّوْلُ في الحقيقة هو الفَضْلُ الذي يتمكَّن به من مُطاوَلةِ الأعداءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ ؛ أي رَضِيَ المنافقون بأنْ يكونوا في تخلُّفِهم عن الجهادِ مع النساءِ المتخلِّفات في الحيِّ بعد غزوةِ أزواجهنَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ يعني الطبعُ في اللغة جعلُ الشيءِ كالطَّابعِ نحو طَبْعِ الدِّينار والدرهم، ويجوز أنْ يكون الطبعُ على القلب علامةً يَقْفِلُ اللهُ بها قلبَ الكافرِ المعاند ليعلمَ من يطَّلعُ عليه من الملائكةِ أنه لا يجتهدُ في طلب الحقِّ، فهُم لا يفقهون أوامرَ اللهِ ونواهيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ لكن الرسولُ مُحمَّد ﷺ والذين آمَنُوا معه، وهم أهلُ اليقين من الصحابةِ، جاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم على ضدِّ ما فَعَلَ المنافقون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناه: أولئكَ لهم الحسَناتُ المقبولات، فإن الخيرات منافعُ تسكنُ النفس إليها، ويجوز أن يكون معناهُ: الزَّوجاتُ الحسنات في الجنَّة، كما قال اللهُ فيهن ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾(١) واحدةُ الخيرات خَيْرَةٌ، وهي الفاضلةُ في كلِّ شيء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي الظَّافرون بالْمُرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي أعدَّ اللهُ لهم في الجنَّة بساتين تجري من تحتِها وشجرها ومساكنها الأنهارُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي مُقيمين دائمين فيها لا يَموتون ولا يُخرَجون منها، ﴿ ذَٰلِكَ

---

(١) الرحمن / ٧٠ .

﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي هو النجاةُ الوافرة، فازُوا بالجنَّة ونعيمِها، ونَجَوا من النار وجَحيمِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عبَّاس والضحاك ومجاهد: (الْمُعْذِرُونَ) بالتخفيفِ وهم الذين اعتذرُوا؛ أي جاؤُا بالعُذْر، وأمَرَهم رسولُ الله بالتخلُّف بعُذرهم وهم من المخلَّفين، وَقِيْلَ: الْمُعْذِرُونَ بالتخفيفِ المبالِغُون في العُذر، كان ﷺ يقول: [لَعَنَ اللهُ الْمُعَذِّرُونَ][1] بالتشديدِ يعني الذين يقبلون في التخلُّف بلا علَّة يُوهِمُونَ أنَّ لهم عذراً، ولا عُذرَ لهم، والتعذيرُ التقصيرُ في الشيءِ مع طلب العُذر.

وأما القراءةُ المشهورة (الْمُعَذِّرُونَ) بالتشديد فمعناها ما تقدَّم يعني الْمُقَصِّرِينَ، قال الفرَّاء: (أَصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الذالِ وَنُقِّلَتْ حَرَكَةُ التَّاءِ إلَى الْعَيْنِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ قرأ العامَّة (كَذبُوا) مخففاً يعني المنافقين قعدَت طائفةٌ منهم من دون أنْ يعتذروا، وقرأ أبي والحسن: (كَذَّبُوا) بالتشديد، وقوله تعالى: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ يجوز أن تكون الفائدةُ في دخولِ (مِنْ) بيانُ أنَّ منهم مَن يسلَمُ، ومنهم من يموتُ على كُفرهِ ونفاقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي ليس على الْمَرْضَى والشُّيوخ الكبار، ولا على المرضَى الذين لا يقدِرون على الخروج إلى الجهادِ، ولا على الذين لا يكون عندَهم نفقةٌ يُنفقونَها في الجهادِ وهم الفقراءُ، ليس عليهم مَأْثَمٌ في القعودِ عن ذلك إذا كان قعودُهم على وجهِ النُّصحِ للهِ ورسوله، وهو إنْ سَعَوا في

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٦٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن الأنباري في الأضداد عن ابن عباس)).

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٧ وذكره بمعناه.

إصلاحِ ذات البَين وما يرجعُ على الجهادِ، ولا يكون قعودُهم للتثريب على المسلمين وإفسادِ شيءٍ من أمرِهم. والنُّصْحُ: إخراجُ الغشِّ عن العملِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ ؛ أي ما على الْمُطِيعِينَ الموحِّدين من سبيلٍ في العقاب، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذنوبهم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ إذ أرْخَصَ لهم في القعودِ بالعُذر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ ؛ أي وليس على الذين إذا ما أتَوكَ لتحملَهم إلى الجهادِ بالنَّفقةِ، ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فهؤلاءِ ليس عليهم حرجٌ في القعودِ عن الجهاد، قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سَالِمِ بْنِ عُمَيرٍ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ وَعَمْرو بْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَعُبَيْدِاللهِ ابْنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ بْنِ مُغَفَّلٍ وَمَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ وَصَخْرِ بْنِ سَلَمَةَ الَّذِي كَانَ وَقَعَ عَلَى امْرَأتِهِ فِي رَمَضَانَ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُكَفِّرَ، وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي مُزَيْنَةَ مِنْ أهْلِ الْحَاجَةِ، أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُواْ: يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ نُدِبْنَا لِلْخُرُوجِ مَعَكَ، فَاحْمِلْنَا لِنَغْزُو مَعَكَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: [لاَ أجِدُ مَا أحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ] فَتَوَلَّوا وَهُمْ يَبْكُونَ)(1) فذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ وقال الحسنُ: (نَزَلَتْ فِي أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ معناهُ: إنَّما السبيلُ في العقاب على الذين يَستأذِنُونكَ في القُعودِ عنكَ وهم أغنياءُ، ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ ؛ أي مع النِّساءِ، ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ مُجَازَاةً لهم على فِعلِهم، ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أوامرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٨٤). وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٢٦٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري)) بطرق وذكره. وقال أيضاً: ((أخرجه ابن مردويه عن مجمع بن الحارثة... وذكره)) وتنوع ذكر أسمائهم.

قولهُ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ ؛ أي يَعْتَذِرُ المنافقون إليكم إذا انصرَفتُم إليهم من هذهِ الحرب في قعُودِهم على الجهاد، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ ؛ فإنه[1] بصير بكم وهو اللهُ تعالى، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ؛ لن نُصدِّقكُم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ؛ قد أخبرنا الله من أسراركم أنه ليس لكم عذرٌ، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ ؛ أي يُظهرُ، ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم﴾ ؛ ما غابَ عن العبادِ، وما عمِلَهُ العبادُ فيَجزيَكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ؛ أي سيحلفُ المنافقون باللهِ في ما يعتذِرُون إليكم إذا رجعتُم إليهم لتُعرِضُوا عنهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ؛ فلا تُعاقِبُوهم على جهةِ الْهَوَان لَهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ؛ أي هم النَّتَنُ الذي يجبُ الاجتناب عنه فاجتنِبُوهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ؛ ومصيرُهم جهنَّمُ، ﴿جَزَاءً﴾ ؛ لهم على فعلِهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ ؛ أي يحلِفُون لكم في الاعتذار لترضَوا عنهم أنتم من دون أنْ يطلبُوا رضَى اللهِ، ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فإن أنتَ رضيتَ يا مُحَمَّدُ والمؤمنون بحلفِهم الكاذب، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ أي عن الخارجِين عن طاعةِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ ؛ أرادَ بالأعراب أسداً وغطفَانَ، بيَّن اللهُ أنَّهم في كفرهم ونفاقِهم أشدُّ من مُنافِقي أهلِ المدينة. وَقِيْلَ: معناهُ: أهلُ البَدْوِ أشدُّ كُفراً ونفاقاً من أهلِ الحضَر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ ؛ أي أحرَى وأولَى ألاَّ يعلَمُوا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ؛ لأنَّهم أبعدُ من سماعِ التَّنْزِيلِ وإنذار الرسول ﷺ، ولهذا قِيْلَ: إن مَن بَعُدَ من الأمصار ونَأى من حضرةِ العُلماءِ كان أجهلَ بالأحكامِ والسُّنَن ممن جالسَهم ويسمعُ منهم، ولهذا لا إمامةَ لأعرابيٍّ في الصلاةِ.

---

(١) في المخطوط رسمها الناسخ بشكل قريب من (أي) و(أن) والمناسب ما أثبتناه والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ معناه: ومِن الأعراب من يتَّخذُ ما ينفقُ في الجهاد يحسبهُ غرماً، ولا يحتسبُ فيه الأجرَ ولا يرجو الثوابَ به، إنما ينفقُ خَوفاً أو رياءً، وينتظرُ بكم الموتَ والهلاك، ودوائرَ الزَّمانِ وصُرُوفَهُ، يعني أنَّهم ينتظرون أنْ ينقلبَ الزمانُ عليكم بموتِ رسول الله ﷺ وظهورَ المشركين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ أي عاقبةُ السَّوْءِ والهلاكِ، وإنما ينتظرُون بكم ما نَزَلَ بهم، والسَّوءُ بفتح السِّين المصدرُ، وبالضَّمِّ الاسمُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المراد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ؛ معناهُ: من الأعراب من يصدِّقُ باللهِ واليوم الآخر في السرِّ والعلانية، قِيْلَ: إنَّ المرادَ من هذه الآية أسْلَمَ وغفَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي يتخذ نفقتَهُ في الجهادِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالى في طلب المنْزلةِ عنده والثواب، وقوله تعالى: ﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي يطلبُ بذلك دعاءَ الرسول ﷺ بالمغفرةِ وصلاحِ الدُّنيا والآخرة، كما يطلبُ المنْزلةَ عندَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ ؛ هذه كلمةُ تنبيهٍ؛ أي سيقرِّبُهم الله بهذا الإنفاق إذا فعلُوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي في حَسَنَتِهِ وثوابهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذنوب العبادِ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وأطاعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ ؛ أرادَ بالسَّابقِين الذين سبَقوا إلى الإيمان، وهم الذين صَلَّوا إلى القِبلَتَين وشَهِدُوا بَدْراً، وقال الشعبيُّ: (هُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا بَيْعَةَ الرُّضْوَان بالْحُدَيْبيَةِ)، وَقِيْلَ: هُمُ الذين أنفقُوا قبلَ الهجرةِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾[1].

---

(١) الحديد / ١٠ .

وإنَّما مَدَحَ السابقين لأن السابقَ إمامٌ للتالي، وقولهُ تعالى: (وَالأَنصَار) عطفٌ على المهاجرين، وقرأ بعضُهم (وَالأَنْصَارُ) بالرفعِ عطفاً على السَّابقين، وعن عمر ﷺ: (وَالأَنْصَار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ) بغيرِ الواو[1]، وسمِعَ رجُلاً قرأ (وَالَّذِينَ) بالواو فقالَ: (مَنْ أقْرَأكَ هَذِهِ الآيَةَ ؟ قَالَ: أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، قَالَ: لاَ تُفَارِقْنِي حَتَّى أذهَبَ بِكَ إلَيْهِ، فَلَمَّا أتَاهُ قَالَ لَهُ: يَا أبَيُّ أقْرَأتَهُ هَذِهِ الآيَةَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: كُنْتُ أظُنُّ أنَّا ارْتَفَعْنَا رِفْعَةً لاَ يَبْلُغُهَا أحَدٌ بَعْدَهَا، فَقَالَ أبَيٌّ: تَصْدِيقُ هَذِهِ الآيَةِ أوَّلُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[2] وَأوْسَطُ سُورَةِ الْحَشْرِ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[3])[4].

وقوله تعالى: (بِإحْسَانٍ) والإحسانُ هو فعلُ الحسَنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي رَضِيَ اللهُ عنهم بإحسانِهم، ورَضُوا عنه بالثَّواب والكرامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ في هذا الموضعِ بغير (مِنْ) إلا ابنَ كثير فانه يقرأ (مِنْ تَحْتِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ ؛ أي ومِن حول مَدينَتِكم من الأعراب مُنافقون، قِيلَ: إنَّهم مُزينَةُ وجُهَيْنَةُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي ومِن أهلِ مَدينتكم مُنافقون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أي أقاموا وثبَتُوا على النفاق، ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ بأعيانِهم، ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ ونعلمُ نِفاقَهم، ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أرادَ العذابَ الأول الفَضِيحَةَ والإخراجَ من المسجدِ، والعذابَ الثاني عذابَ القبرِ.

رُوي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ خَطِيباً يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: [يَا فُلاَنُ أخْرُجْ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ، يَا فُلاَنُ أخْرُجْ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ] فَأخْرَجَهُمْ بِأسْمَائِهِمْ. وَكَانَ عُمَرُ ﷺ لَمْ يَشْهَدِ الْجُمُعَةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٣٠٤).
(٢) الآية/ ٣ . (٣) الآية / ١٠.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٣٠٥).

لِحَاجَةٍ لَهُ، فَلَقِيَهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاخْتَبَأَ عَنْهُمُ اسْتِحْيَاءً؛ لأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدِ الْجُمُعَةَ، وَظَنَّ النَّاسُ قَدِ انْصَرَفُوا، وَاخْتَبَؤُا هُمْ عَنْ عُمَرَ ﷺ وَظَنُّوا أنْ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِمْ. فَدَخَلَ عُمَرُ الْمَسْجِدَ وَإذا هُوَ بِالنَّاسِ لَمْ يُصَلُّوا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا عُمَرُ قَدْ فَضَحَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ.

وقال الحسنُ: (أرَادَ بِالْعَذَابِ الأَوَّلِ السَّبْيَ وَالْقَتْلَ، وَبِالثَّانِي عَذَابَ الْقَبْرِ)[1]، وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أرادَ به عذابَ جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ ؛ أي في المدينة قَومٌ آخرون أقرُّوا بذنوبهم، خلطوا عَملاً صالحاً بعملٍ سيِّء؛ أي تخلَّفوا عن الغزوِ ثم تابوا، ويقال: خرَجُوا إلى الجهادِ مرَّةً وتخلَّفوا مرة، فجمعُوا بين العملِ الصالح والعمل السيِّء، كما يقالُ: خَلَطَ الدنانيرَ والدراهمَ؛ أي جمعَها، وخلطَ الماءَ واللَّبنَ؛ أي أحدَهما بالآخرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي يتجاوزَ عنهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا سلفَ من ذُنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ بهم إذ قَبلَ توبتَهم. وإنما ذكرَ لفظ (عَسَى)؛ ليكونَ الإنسانُ بينَ الطمعِ والإشفاق، فيكون أبعدَ من الاتِّكالِ والإهمالِ.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي لُبَابَةَ بْنِ الْمُنْذِرِ وَأوْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ وَوَدِيعَةَ ابْنِ حُذامٍ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانُوا عَشْرَةَ أنْفُسٍ، تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكٍ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ مَا أنْزَلَ اللهُ عَنِ الْمُتَخَلِّفِينَ نَدِمُوا عَلَى صَنِيعِهِمْ، فَرَبَطَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ أنْفُسَهُمْ عَلَى سَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَأقْسَمُوا أنْ لاَ يَحُلُّوا أنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ الَّذِي يَحُلُّهُمْ، وَكَانُوا لاَ يَخْرُجُونَ إلاَّ لِحَاجَةٍ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا.

---

(١) أخرجه الطبري في المعجم الأوسط: ج ١ ص٤٤٢: الحديث (٧٩٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٠٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٣٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه العنقري وهو ضعيف)). وليس عندها عبارة: (وقال الحسن).

وَكَانُوا عَلَى ذلِكَ حَتَّى قَدِمَ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأُخْبِرَ بِأَمْرِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: [وَأنَا لاَ أحُلُّهُمْ حَتَّى أؤْمَرَ بِهِمْ] فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ (عَسَى) مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، وَأمَرَ بحَلِّهِمْ وَانْطَلَقُوا إلَيْهِ، وَقَالُوا: هَذِهِ أمْوَالُنَا الَّتِي خَلَّفَتْنَا عَنْكَ، فَخُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا، فَقَالَ ﷺ: [مَا أمِرْتُ فِيْهَا بشَيْءٍ][1] فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ ؛ ظاهرُ الآيةِ يقتضي رجوعَ الكنايةِ في قولهِ: (خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ) أي المذكورين، وقيلَ: وهمُ الذين اعترَفُوا بذنوبهم، إلاَّ أنَّ كُلَّ حُكمٍ حَكَمَ اللهُ ورسولهُ في شخصٍ مِن عبادهِ، فذلك الحكمُ لازمٌ في سائرِ الأشخاصِ، إلاَّ ما قامَ دليلُ التخصيصِ به.

وَقِيْلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) ابتداءٌ ذُكِرَ لجميعِ المسلمين لدلالةِ الحال على ذلك وإنْ لم يتقدَّم ذكرُ المسلمين كقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] يعني القُرآنَ. ومعنى الآية: تُطهِّرُهم عن الذنوب وتُزَكِّيهم بها؛ أي تُصلِحُ أعمالَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: تُطهِّرُهم أنتَ بها من دَنَسِ الذُّنوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ ؛ أي استغفِرْ لهم وادْعُ لهم، ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ ﴾ ؛ أي إنَّ دعاءَكَ واستغفارَكَ طمأنينةٌ، ﴿ لَّهُمۡۗ ﴾ ؛ في أنَّ اللهَ يقبَلُ توبتَهم، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ ؛ بمقالتِهم، ﴿ عَلِيمٌ ١٠٣ ﴾ ؛ بنيَّاتِهمْ وثوابهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى التَّنبيهِ، وقبولُ التوبةِ إيجابُ الثواب عليها، وقولهُ تعالى (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) أرادَ به أخذَ النبيِّ ﷺ والأئمَّةِ بعدَهُ؛ لأن أخذهم لا يكون إلاَّ بأمرِ الله، وكأنَّ اللهَ هو الآخذ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ ؛ أي المتجاوزُ عن مَن تابَ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ ﴾ ؛ عن مَن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ ؛ أي اعملُوا عملَ مَن يعلمُ أنَّ اللهَ يرى عملَهُ ويتجاوزُ به، ظاهرُ المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٢١).

(٢) القدر / ١ .

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ معناهُ: مِن أهلِ المدينة قومٌ آخرون مُرْجُونَ لأمر الله إمَّا يُعذِّبُهم بتخلُّفِهم عن الجهادِ، وإمَّا يتجاوزُ عنهم بتوبتِهم عن الذنوب، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾؛ بهم ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يحكمُ في أمرِهم ما يشاءُ. و(إمَّا) في الكلامِ بوقوع أحدِ الشَّيئين، واللهُ تعالى عالِمٌ بما يصيرُ إليه أمرُهم، إلاَّ أنَّ هؤلاء العبادَ خُوطِبُوا بما يتفاهَمُون فيما بينهم ليكون أمرُهم عندَكم على هذا، أي على الخوفِ.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّبيعِ الْعُمَرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، وَهُمْ مِنَ الأَنْصَار تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: أنَا أفْرَهُ أهْلِ الْمَدِينَةِ جَمَلاً فَمَتَى مَا شِئْتُ لَحِقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأقَامَ حَتَّى مَضَتْ عَلَيْهِمْ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ ثُمَّ آيَسَ أنْ يَلْحَقَهُمْ وَنَدِمَ عَلَى صَنِيعِهِ، وَأقَامَ صَاحِبَاهُ مَعَهُ، وَنَدِمَا لَكِنْ لَمْ يَفْعَلاَ مَا فَعَلَهُ أبُو لُبَابَةَ وَأوْسُ وَوَدِيعَةُ.

فَفَقَدَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ نُزُول هَذِهِ الآيَةِ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ أنْ يُجَالِسُوهُمْ أوْ يُوَاكِلُوهُمْ أوْ يُشَارِبُوهُمْ، وَأرْسَلَ إلَيْهِمْ أن اعْتَزِلُوا نِسَاءَكُمْ، وَأرْسَلَ إلَى أهْلِيهِنَّ، فَجَاءَتِ امْرَأةُ هِلاَل فَقَالَتْ: إنَّ هِلاَلاً شَيْخٌ كَبيرٌ وَإنْ لَمْ آتِهِ بطَعَامٍ هَلَكَ، فَقَالَ ﷺ: [وَإيَّاكِ أنْ يَقْرَبَكِ] قَالَ كَعْبٌ: فَمَرَرْتُ عَلَى أبي قَتَادَةَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، وَكَلَّمْتُهُ فَأبَى أنْ يُكَلِّمَنِي، فَاسْتَعْبَرْتُ وَقُلْتُ: أمَا وَاللهِ إنَّكَ لَتَعْلَمُ أنِّي أحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. فَمَضَى عَلَى هَذَا خَمْسُونَ يَوْماً، فَلَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ أنْزَلَ اللهُ (هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب التوبة: باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه: الحديث (٥٣/ ٢٧٦٩)؛ عن عبدالله بن كعب عن أبيه.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ بَنِي عَمْرو بْنِ عَوْفٍ قَالُوا فِيمَـا بَيْنَـهُمْ: تَعَـالَوا نَبْنِي مَسْجِداً يَكُونُ مُتَحَدَّثَنَا وَمَجْمَعَ رَأينَا بأنْ تَأْتُوا إلَى رَسُول الله وَتَسْتَأْذِنُوهُ أنْ نَبْنِـي مَسْجِداً لِذوي الْعِلَّةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ. فَأذِنَ لَهُمْ فَبَنَوا مَسْجِداً، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ فِـي ذلِـكَ الْمَسْجِدِ مَجْمَعُ بْنُ الْحَارِثَةِ، وَكَانَ قَارِئاً لِلْقُرْآنِ فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ)[1]. ومعناهـا: والذين اتَّخَذوا مسجداً للضِّرار والكُفرِ والتفريقِ بين المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْـلُ) أي وانتِصَـاراً لِمَـن حاربَ اللهَ ورسولَهُ، وهو أبو عـامرٍ الراهـب كـان حـارَبَ النـبيَّ ﷺ قبـلَ بنـاءِ هـذا المسجدِ، ومضَى إلى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّوم يستعينُ به علـى النـبيِّ ﷺ وأصحابـهِ، فسـماهُ رسولُ الله ﷺ فَاسِقاً، قال: [لاَ تُسَمُّوهُ الرَّاهِبَ]، وَدَعَا عَلَيْهِ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَمَـاتَ كَافِراً بقِنِسْرِينَ مَوْضِعٌ بالشَّام[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ ؛ معناهُ: ليحلفَ المنـافقون أنَّا لم نُردْ ببناءِ هذا المسجدِ إلا الخيرَ، وهم كَذَبَةٌ في حلفِهم لقولهِ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ ما بَنَوْهُ للخيرِ.

روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ مُهَاجِراً أقْبَلَ إلَيْهِ أبُـو عَـامِرٍ هَـذا الْمَذْكُـورُ فَقَالَ لَهُ: مَا هَذا الَّذِي جِئْتَ بهِ ؟ قَالَ: [الْحَنِيفِيَّةُ دِينُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ] قَالَ أبُـو عَامِرٍ: وَأنَا عَلَيْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [فَإنَّكَ لَسْتَ عَلَيْهَا] قَالَ: بَلَـى؛ وَلَكِنَّـكَ أدْخَلْـتَ فِي الْحَنِيفِيَّةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَا فَعَلْتُ ذلِكَ، وَلَكِنْ جِئْـتُ بـهَا بَيْضَـاءَ نَقِيَّةً] فَقَالَ أبُو عَامِرٍ: أمَاتَ اللهُ الْكَاذِبَ مِنَّا طَرِيداً وَحِيداً غَرِيباً، فقال ﷺ: [آمِـينَ] فَسَمَّاهُ أبُو عَامرٍ الفَاسِقِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن عبدالله بن عباس وغيره: الحديث (١٣٣٦١-١٣٣٦٣).

(٢) أخرج القصة الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٦٣-١٣٣٦٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٦٦).

فَلَمْ يَزَلْ أبو عَامِرٍ كَذلِكَ إِلَى أنْ هُزِمَتْ هَوازِنُ، فَخَرَجَ هَارِباً إِلَى الشَّامِ فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ أن اسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَسِلاَحٍ وَابْنُوا لِي مَسْجِداً، فَإِنِّي ذاهِبٌ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، وَآتٍ بِجُنْدٍ مِنَ الرُّومِ وَأخْرِجُ مُحَمَّداً ﷺ وَأصْحَابَهُ. فَبَنَوا مَسْجِداً إِلَى جَنْبِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ الَّذِينَ بَنَوْهُ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً.

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْهُ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَجَهِّزٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِداً لِذوي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، وَإِنَّا نُحِبُّ أنْ تَأْتِيَهُ فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ وَتَدْعُوَ لَنَا بالْبَرَكَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [إنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا لأَتَيْنَاكُمْ إنْ شَاءَ اللهُ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ].

فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَبُوكِ أتَوْهُ فَسَألُوهُ إتْيَانَ مَسْجِدِهِمْ، فَدَعَا بِقَمِيصِهِ لِيَلْبَسَهُ وَيَأْتِيَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَأعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِخَبَرِهِمْ وَمَا هَمُّوا بِهِ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدَّهْشَمِ وَمَعَنَ بْنَ عَدِيٍّ وَعَامِرَ بْنَ السَّكَنِ وَالْوَحْشِيَّ قَاتِلَ حَمْزَةَ، وَقَالَ لَهُمْ: [انْطَلِقُوا إِلَى هَذا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أهْلُهُ فَاهْدِمُوهُ وَحَرِّقُوهُ] فَخَرَجُوا سِرَاعاً، فَأَخَذُوا سَعَفاً مِنَ النَّخْلِ، وَاشْعَلُوا فِيهِ النَّار وَهَدَمُوهُ، وَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُتَّخَذ كِنَاسَةً يُلْقَى فِيهِ الْقِمَامَةُ وَالْجِيَفُ، وَمَاتَ أبُو عَامِرٍ بالشَّامِ وَحِيداً غَرِيباً(١).

وقال عكرمةُ: (سَألَ عُمَرُ ﷺ رَجُلاً مِنْهُمْ: مَاذا أعَنْتَ فِي هَذا الْمَسْجِدِ، قَالَ: أعَنْتُ فِيهِ بِسَارِيَةٍ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أَبْشِرْ بِهَا فِي عُنُقِكَ فِي نَار جَهَنَّمَ). ورُوي: (أنَّ بَنِي عمرو بن عوفٍ بَنَوا مَسجِداً وَسَألُوا عُمَرَ ﷺ أنْ يصَلِّي بِهِمُ الْجَمَاعَةَ مُجَمِّعُ بْنُ الحارثة فَقَالَ: لاَ؛ وَلاَ نِعْمَةَ عَيْنٍ، ألَيْسَ بِإمَامِ مَسْجِدِ الضِّرَار، فَقَالَ لَهُ مُجَمِّعُ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، فَوَاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ فِيهِ وَإِنِّي لاَ أعْلَمُ مَا أضْمَرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَا صَلَّيْتُ مَعَهُمْ، وَكُنْتُ غُلاَماً وَهُمْ شُيُوخٌ لاَ يَقْرَءُونَ مِنَ الْقُرآنِ شَيْئاً، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ وَلاَ أعْلَمُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ، فَعَذرَهُ عُمَرُ ﷺ وَصَدَّقَهُ، وَأمَرَهُ بِالصَّلاَةِ فِي

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٦١) مرسلاً عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة، والحديث (١٣٣٧١) عن ابن زيد، و(١٣٣٧٢).

مَسْجِدِ قُبَاءٍ)[1]. قَرَأ أهلُ المدينة والشامِ الذين اتَّخذوا بغير (واو) وكذلك هو في مصاحفِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ؛ أي لا تُصَلِّ في مسجدِ هؤلاء المنافقين أبداً، ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ ؛ يعني مسجدَ قُباء أسِّسَ لوجهِ الله منذ أوَّل يوم بُنِيَ، ويقال: هو مسجدُ النبيِّ ﷺ أحقُّ أن تصلِّي فيه، ولا يمتنعُ أن يكون المرادُ المسجدِ الذي أسِّسَ على التَّقوَى كِلاَ المسجدَين، مسجدُ النبيِّ ﷺ ومسجد قُباءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ ؛ في مسجدِ قُبَاءٍ رجالٌ يُحِبُّونَ أن يتطهَّروا. قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوب بالتَّوْبَةِ).

والمشهورُ أن المرادَ بالتطهيرِ في هذه الآيةِ الاستنجاءُ بالماء كما رُوي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ببَاب قِبَاءٍ وَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكُمْ فِي طُهُوركُمْ، فَبمَ تَطَّهَّرُونَ؟] قَالُوا: إنَّا نُتْبعُ الأَحْجَارَ بالْمَاءِ[2]؛ أي نستجمرُ بالحجرِ ثم نستنجي بالماءِ، فقرأ عليهم النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ، وسَنَّ النبيُّ ﷺ الاستنجاءَ بالماءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي أثنَى على المطَّهِّرين من الذُّنوب، والمتطهِّرين بالماءِ من الأدناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ ؛ الألِفُ في أوَّل الآية ألِفُ استفهامٍ دخلَتْ في الكلامِ للإنكار، وقولهُ تعالى (جُرُفٍ هَارٍ) أي على طَرَفِ الْهُوَّةِ، وقوله (هَارٍ) ساقِطٍ، وأصلهُ هَايِرٍ، إلا أنه حذفَ الياء.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٥٥. وهو مُجمع بن جارية بن عامر الأنصارين توفي في آخر خلافة معاوية. قال ابن إسحق: (كان المجمع بن جارية غلاماً حدّثاً قد جمعَ القرآنَ على عهدِ رسول الله ﷺ، وأبوه جارية ممن اتخذ مسجدَ الضِّرار). ترجم له ابن عبدالبر في التمهيد: ج ٣ ص٤١٨: الرقم (٢٣٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٩١) عن قتادة، والحديث (١٣٣٩٢) عن محمد ابن عبدالله بن سلام، والحديث (١٣٣٩٣) عن عويم بن ساعدة. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٧٩).

والْجُرُفُ: ما تَمُرُّ به السيولُ من الأوديةِ فتسيرُ جانبَهُ وتنثرهُ، ولو وقفَ الإنسانُ عليه لسقطَ وانْهَارَ، وشَفَا الشَّيءِ حَرْفُهُ وهو مقصورٌ يكتبُ بالألفِ وتَثْنِيَتُهُ شِفْوَان.

قرأ نافعُ وأهل الشام بضمِّ الهمزةِ والنون على غيرِ تسمية الفاعلِ، وقرأ الباقون بفتحِهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ)، قرأ ابنُ عمر (تَقْوًى) منوَّن، وقوله تعالى (جُرُفٍ) قرأ ابنُ عامر وحمزةُ وأبو بكر وخلَف بالتخفيفِ، وقرأ الباقون بالتَّثقيلِ وهما لُغتان، وهي البَرُّ التي لم تُمطرْ، وقال أبو عُبيد: (بَنَى الْهُوَّةَ وَالرَّمْلَ) والشيءُ الرَّخْوُ وما يجرفهُ السَّيلُ في الأوديَةِ، والهايرُ الساقطُ الذي يتداعَى بعضه على إثْرِ بعضٍ كما يتهاوَى الرملُ، والشيء الرَّخْوُ، وفي مُصحف أُبَيّ (فَانْهَارَتْ بِهِ قَوَاعِدُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)[١]. قال قتادةُ: (ذكِرَ لَنَا أنَّهُ حُفِرَتْ بُقْعَةٌ مِنْهَا فَرُؤِيَ الدُّخَانُ يَخْرُجُ مِنْهَا)[٢]، وقال جابرُ بن عبدِالله: (رَأَيْتُ الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَار)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي انْهارَ الْجُرُفُ بالبناءِ؛ أي هارَ به؛ أي كما أنَّ مَن بنَى على جانب نَهْرٍ صفة ما ذكرنا انْهارَ بناؤهُ في النَّهْرِ، فكذلك بناءُ أهلِ النِّفاق مسجد الشِّقاق كبناءٍ على جُرُفِ جهنَّم يتهوَّرُ بأهلِه فيها. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يوفِّقُهم ولا يَهديهم الى جنَّتهِ وثوابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يزالُ بنيانُهم مسجدَ الضرار حيرةً متردِّدة في قلوبهم، ويقال شكّاً واضطِرَاباً، يعني أن شكَّهم لا يزالُ وإن زيلَ ذلك البناءُ، بل يبقى ذلك في قلوبهم حتى خابَ أمَلُهم، اشتدَّ أسَفُهم بأنْ بعثَ رسولُ الله ﷺ عامر بن قيس وَوَحشياً مولَى مُقطِّمِ بن عديٍّ فخرَّباهُ وهدَماهُ، ثم أمرَ الأنصارَ بإلقاءِ الجِيَفِ والعَذْرَاتِ الكِنَاسَاتِ فيه، إذ لم يُبْنَ لله تعالى، فبَقِيَ ذلك حسرةً وندامة في قلوب المنافقين حتى تقطَّع قلوبُهم؛ أي حتى يموتَ على ذلك.

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١٣٤٠٥) عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٠٧).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٠٩).

ويقالُ: معناهُ: لا يزالون شاكِّين حتى يموتُوا، فإذا ماتُوا صاروا إلى اليقين حيث لا ينفعُهم اليقين، قال السديُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَـزَالُ هَـدْمُ بُنْيَانِـهِمْ الَّـذِي بَنَـوْهُ رِيبَـةً فِـي قُلُوبِهِمْ؛ أيْ حَزَازَةً وَغَيْظاً فِي قُلُوبِهِمْ؛ أيْ أنْ تَصَدَّعَ قُلُوبُهُمْ فَيَمُوتُوا).

وقرأ الحسنُ ويعقوب أي (إنْ) مخفَّفاً على الغايةِ، يـدلُّ عليه تفسيـر الضحَّاك وقتادة، ولا يزالون في شَكٍّ منه إلى أن يَموتُوا فيستيقِنوا ويتبيَّنوا، قرأ شيبةُ وابن عـامر وحمزة وحفص (تَقَطَّعَ) بفتح التاءِ وتشديد الطاءِ المعنـى تتقطـعُ، ثـم حُذفـت إحـدَى التائين، وقرأ ابنُ كثير ومجاهد ونافعٌ وعاصم وأبو عمر والكسائي (تُقَطَّعَ) بضم التـاء وتشديد الطاء على غيرِ تسمية الفاعل، وقرأ يعقوب (تُقْطَعَ) بضم التاء خفيفة الطـاء من القطعِ. وروي عن ابنِ كثير بفتحِ التاء خفيفـة، (قُلُوبَـهُمْ) نصبـاً أي بفعـلِ ذلـك أنتَ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بأعمالِكم، حكيـمٌ في ما حَكَمَ من هدمِ مسجدهم وأظهرَ نفاقَهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ طلبَ المؤمنين أن يعدُّوا أنفسَهم وأموالَهم ويخرجـوا إلى الجهادِ في سبيل الله ليُثيبهم الجنةَ على ذلك.

فإن قِيلَ: كيف يصحُّ شـراءُ الجنَّـة علىذلـكَ وهـي مملوكـةٌ لله تعـالى؟ وكيـف يشتري أحدٌ ملكه بملكهُ؟ قِيلَ: إنما ذكر هذا على وجـهِ التلطُّـف للمؤمنـين في تـأكيدِ الجزاء كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] فذكـرَ الصدقـةَ بلفظِ القَرْضِ للتحريضِ على ذلك والترغيب فيه، إذِ القـرضُ يوجـب ردَّ المفلسِ لا محالةَ، وكأن اللهُ عَامَلَ عبادَهُ معاملةَ مَن هو غيرُ مالكٍ، وعن جعفر الصَّادق أنـه كـان يقولُ: (يَا ابْنَ آدَمَ اعرفْ قَدْرَ نَفْسِكَ، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَّفَكَ قَدْرَكَ وَلَـمْ يَـرْضَ أنْ يَكُونَ لَكَ ثَمَنٌ غَيْرُ الْجَنَّةِ).

---

(١) البقرة / ٢٤٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ؛ فيه بيانُ عرضِ الذي لأجلهِ اشتراهُم، وهو أن يُقاتِلوا العدوَّ في طاعةِ الله، ومعناهُ: فيَقْتُلُونَ المشركين، ويقتلهم المشركون، وعلى هذا أكثرُ القرَّاء، حمزةُ والكسائي (فَيُقْتَلُونَ) بالرفع، (وَيَقْتُلُونَ) بالنصب، واختارَ الحسنُ هذه القراءةَ لأنه إذا قُرئ هكذا كان تسليمُ النفسِ إلى الشِّراء أقربُ، وإنما يستحقُّ البائعُ تسليمَ الثمن إليه تسليمَ المبيع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ أي أوجبَ اللهُ لهم الجنَّةَ ووعدَهم وعدَ حقٍّ منه لَهم. وإنَّما قال (حَقّاً) للفصلِ بين الوعدِ الذي حجرهُ على وجهِ الجزاء لهم على العملِ، وبين الوعدِ ينجزهُ للتصديقِ على وجه التفضيل لا الجزاءِ لهم على العملِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي أوجبَ اللهُ الجنةَ للمؤمنين في جميعِ كتُبهِ التي أنزلَها اللهُ على أنبيائهِ عليهمُ السلام، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ليس أحدٌ أوفَى من اللهِ في وعدهِ وشَرطِه، وعَدَكم وعداً ولا يخلفُ لوعدهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ببيعكم أنفسَكم من اللهِ، فإنه لا يشري أرفعُ من اللهِ سبحانهُ، ولا ثمنَ أعلى من الجنَّة. وَقِيْلَ: إنَّ هذا أنزل في الذين بايَعُوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوانِ تحتَ الشجرةِ، ثم صارَ عامّاً في كلِّ مَن يعملُ مثلَ عَملِهم.

قال محمَّد بن كعب: (لَمَّا بَايَعَتِ الأَنْصَارُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ بِمَكَّةَ وَهُمْ سَبْعُونَ نَقِيباً، قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِرَسُول اللهِ ﷺ اشْتَرِطْ لِرَبكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: [اشْتَرِطُ لِرَبي أنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً، وَاشْتَرِطُ لِنَفْسِي أنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ عَنْهُ أنْفُسَكُمْ وَأمْوَالَكُمْ] قَالُوا: وَإذا فَعَلْنَا ذلِكَ فَمَا لَنَا؟ قَالَ: [الْجَنَّةُ]، قَالَ: رَبحَ الْبَيْعُ لاَ نُقِيلُ وَلاَ نَسْتَقِيلُ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بأنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ) ثُمَّ هَدَاهُمُ اللهُ بقَوْلِهِ (فَاسْتَبْشِرُوا ببَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بهِ)).

قال الحسنُ: (اسْمَعُوا إلَى بَيْعَةٍ رابحَةٍ بَايَعَ اللهُ بهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ، وَاللهِ مَا عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ إلاَّ وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ). قال: (وَمَرَّ أعْرَابيٌّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ

يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ: كَلاَمُ مَنْ هَذا؟ فَقَالَ:[كَلاَمُ اللهِ تَعَالَى] وقَالَ: بَيْعٌ وَاثِقٌ مُرْبِحٌ لاَ نُقِيلُهُ وَلاَ نَسْتَقِيلُهُ، فَخَرَجَ إلَى الْعَدُوِّ فَاسْتُشْهِدَ). وأنشدَ الأصمعيُّ لجعفرَ ﷺ:

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّهَا ... وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنْ
بِهَا تُشْتَرَى الْجَنَّاتُ إنْ أَنَا بِعْتُهَا ... بِشَيْءٍ سِوَاهَا إنَّ ذلِكُمْ غُبْنْ
لَئِنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصَبْتُهَا ... لَقَدْ ذَهَبَتِ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنْ

وكان جعفرُ الصادق يقول: (أَيَا مَنْ لَيسَتْ لَهُمْ عَنْهُ إنَّهُ لَيْسَ لأَبْدَانِكُمْ بِثَمَنٍ إلاَّ الْجَنَّةُ، فَلاَ تَبِيعُوهَا إلاَّ بِهَا). وأنشدَ أبو علي الكوفي :

مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً فِي عَدْنٍ عَالِيَةً ... فِي ظِلِّ طُوبَى رَفِيعَاتٌ مَبَانِيهَا
دَلاَّلُهَا الْمُصْطَفَى وَاللهُ بَائِعُهَا ... مِمَّنْ أَرَادَ وَجِبْرِيلٌ مُنَادِيهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي النجاةُ العظيمة والثوابُ الوافر؛ لأنَّها نَيْلُ الجنَّة الباقيةِ بالنفسِ الفانية.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ في الآيةِ قَولان: أحدُهما: أن قولـه (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ) رُفِعَ بالابتداء، كأنهُ قال: التائبون العابدون... إلى آخر الآيةِ لَهم الجنةُ أيضاً؛ أي مَن قعدَ عن الجهادِ غيرَ مُوَازرٍ ولا قاصدٍ تركه، وهو على هذه الصِّفة في هذهِ الآية فله الجنَّة.

والقولُ الثاني: أنّ قولَهُ (التَّائِبُونَ) يدلُّ على المقاتِلين، كأنه قال: المقاتِلُون التائبون العابدون، ويجوزُ أنْ يكون قولهُ: (التَّائِبُونَ) رفعاً على المدحِ، أي هم التائبون من الشِّرك والذُّنوب، المطيعون للهِ (الْحَامِدُونَ) الذين يحمَدون اللهَ تعالى على كلِّ حالٍ، (السَّائِحُونَ) الصَّائِمُونَ[1].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن أبي هريرة: الحديث (١٣٣٤٩ و١٣٣٤٠)، و(١٣٤٤٣) عن ابن عباس بأسانيد. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٢٨).

كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ](١) وإنما سُمي الصَّائم سَائحاً تشبيهاً بالسائحِ في الأرض؛ لأن السائحَ ممنوعٌ من الشَّهوات، فكذلك الصائمُ.

قال الحسنُ: (أَرَادَ بالسَّائِحِينَ صَوَّامِي شَهْرِ رَمَضَانَ)(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [السَّائِحُونَ الصَّائِمُونَ](٣). وسُئل سعيدُ بن جبير عن السائحين فقالَ: (هُمُ الصَّائِمُونَ)(٤)، وقال الشاعرُ:

بَـرّاً يُصَلِّي لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ... يَظَلُّ كَثِيرَ الذِّكْرِ للهِ سَائِحَا

أي صَائماً.

وقال الحسنُ أيضاً: (السَّائِحُونَ الَّذِينَ يَصُومُونَ عَنِ الْحَلاَلِ وَأمْسَكُوا عَنِ الْحَرَامِ، وَهَهُنَا وَاللهِ أقْوَامٌ رَأيْنَاهُمْ يَصُومُونَ عَنِ الْحَلاَلِ، وَلاَ يُمْسِكُونَ عَنِ الْحَرَامِ، وَاللهُ سَاخِطٌ عَلَيْهِمْ)، وقال عطاءُ: (السَّائِحُونَ هُمُ الْغُزَاةُ وَالْمُجَاهِدُونَ)(٥). وسئل عكرمةُ عن قولهِ تعالى: (السَّائِحُونَ) فقال: (طَلَبَةُ الْعِلْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) أي الذين يؤدُّون ما فرضَ اللهُ عليهم من الرُّكوع والسجودِ المفروضة، وقولهُ تعالى: (الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ) أي الآمِرون بالإيمان والنَّاهون عن الشِّرك. وَقِيْلَ: معناهُ: الآمِرون بكلِّ معروفٍ، والناهون عن كلِّ منكرٍ.

وإنما ذُكر الناهون بالواو وبخلاف ما سبقَ؛ لأن النهيَ عن المنكرِ لا يكادُ يُذْكَرُ إلا وهو مقرونٌ بالأمرِ بالمعروف، فدخلَ الواوُ ليدُلَّ على المقارنةِ. والمعروفُ: هو السُّنة، والمنكرُ: هو البِدْعَةُ.

---

(١) في الأصل المخطوط يكرر الناسخ صفحة سابقة من التفسير، ولا يشير إلى تكرارها سهواً منه، وهي من قوله: (واستأذنوه أن يبنوا مسجداً لذي العلة... وحرقوها وخرجوا سراعاً).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٣٩-١٣٤٤٠).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٤٤).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٧٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ عُطِفَ على ما تقدَّم. وَقِيْلَ: المرادُ بهم جميعُ المذكورين من أوَّل الآيةِ إلى هذا الموضع، وهذه الصِّفة من أتَمِّ ما يكون من المبالغةِ في وصفِ العباد بطاعتهِ لله، والقيامِ بأوامره والانتهاءِ عن زواجرهِ؛ لأن اللهَ تعالى بيَّن حدودَهُ في الأمرِ والنهي وفي ما نَدَبَ إليه فرغَّب فيه أو خيَّر فيه، وبيَّن ما هو الأَولى في مجرَى طاعةِ الله تعالى، فإذا قامَ العبدُ بفرائضِ الله وانتهَى إلى ما أرادَ الله منه كان من الحافظِين لحدودِ الله، كما رُوي عن خلفِ بن أيُّوب: أنَّهُ أمَرَ امْرَأتَهُ أنْ تُمْسِكَ إرْضَاعَ وَلَدِهِ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ وَقَالَ: قَدْ تَمَّتْ لَهُ سَنَتَان، قِيلَ لَهُ: لَوْ تَرَكْتَهَا حَتَّى تُرْضِعَهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَأيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي بشِّرهُم بالجنةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِـكَ أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ سَـأَلَ عَـنْ أبَوَيْـهِ أيُّهُمَا أحْدَثُ عَهْداً بهِ؟ فَقِيلَ: أُمُّكَ، فَقَالَ: [هَلْ تَعْلَمُونَ مَوْضِـعَ قَبْرِهَـا؟ لَعَلِّـي آتِيـهِ فَأَسْتَغْفِرُ لَهَا، فَإنَّ إبْرَاهِيمَ عليه السلام اسْتَغْفَرَ لأَبَوَيْـهِ وَهُمَـا مُشْـرِكَان] فَقَـالَ الْمُسْـلِمُونَ: وَنَحْنُ أيْضاً نَسْتَغْفِرُ لآبَائِنَا وَأهْلِينَا. فَانْطَلَقَ ﷺ حَتَّى أتَى الْقَبْرَ، فَإذا هُوَ بجِبْرِيلَ عليه السلام عِنْدَ الْقَبْرِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَة)[١].

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [اسْـتَأْذنْتُ رَبـي أنْ أسْـتَغْفِرَ لِوَالِـدَيَّ فَلَـمْ يَأْذنْ لِي، وَاسْتَأْذنْتُ أنْ أزُورَ قَبْرَهُمَا فَأَذِنَ لِي][٢]. ومعنى الآيةِ: ما ينبغِي ومـا يجوزُ للنبيِّ والذين آمَنُوا أن يطلبُوا المغفرةَ للمشركين، ولو دعَتهُم رقَّةُ القرابةِ إلى الاستغفار لَهم، ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي من بعـدِ مـا ظهرَ لهم أنَّهم أصحابُ النار بأنَّهم ماتُوا على الكفرِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٣٠٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني وابـن مردويـه مـن طريـق عكرمة عن ابن عباس)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٣٧٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنائز: باب استئذان النبي ﷺ: الحديث (١٠٨/ ٩٧٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ ؛ أي ما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعَدَها أبوهُ له أن يُسْلِمَ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ ﴾ ؛ لإبراهيمَ، ﴿ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ ؛ بأنْ لم يُؤمِنْ حتى ماتَ على الكفرِ، ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ؛ أي مِن أبيهِ ومن دِينه.

ويقالُ: إنما هذه الموعدةُ إنما كانت مِن ابراهيمَ لأبيهِ، فإنه كان قالَ لأستغفِرَنَّ لكَ ما دمتَ حيًا، ولم يكن اللهُ تعالى أعلمَ إبراهيم أنه لا يغفرُ للمشركين، يدلُّ عليه قراءةُ الحسنِ (إلاَّ مِنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ الأوَّاهُ: التَّوَّابُ. قال ابنُ مسعود (هُوَ الدَّعَّاءُ)[2]، وقال الحسنُ وقتادة:(هُوَ الرَّحِيمُ الرَّفِيقُ)، ويقالُ: هو المؤمنُ بلُغَةِ الحبشةِ، إلا مَن قال إنه لا يجوزُ أن يكون في القرآن شيءٌ غير عربيٍّ، قال: هذا موافقٌ من العربيةِ بلُغة الحبشة. وَقِيْلَ: الأوَّاهُ الفقيهُ، وقال كعبُ: (هُوَ الَّذِي إذا ذكِرت عِنْدَهُ النَّارُ قَالَ: آهٍ)[3]، وَقِيْلَ: هو المتأوِّهُ شَفَقاً وفَرَقاً، المتضرِّعُ نفساً ولُزوماً للطاعةِ، وأما الحليمُ فهو الذي لا يعجِّلُ بعقوبةِ الجاهلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أنْزَلَ الْفَرَائِضَ وَعَمِلَ بهَا النَّاسُ، ثُمَّ أنْزَلَ بَعْدَ ذلِكَ مَا نَسَخَهَا وَقَدْ مَاتَ نَاسٌ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بالأَمْرِ الأَوَّلِ مِثْلَ الصَّلاَةِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَنَحْوِ ذلِكَ، وَمَاتَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ عَلَى الْقِبْلَةِ الأُوْلَى، فَذكَرَ الْمُؤْمِنُونَ ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ)[4].

---

(١) (أباه) بالباء الموحدة، ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٢٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٣٥١٥).

(٤) في معالم التنزيل: ص٥٨٦؛ نقله البغوي عن مقاتل والكلبي. وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ١ ص٧٤.

ومعناها: وما كان اللهُ لِيُضِلَّ عمـلَ قـومٍ ويُـنْزِلَ قوماً مَنْزِلَـةَ الضَّلال بعـدَ إذ هداهُم للإيمان حتى يُبَيِّنَ لهم ما يتَّقون من المعاصِي، ويقال: حتـى يُبَيِّـنَ الناسـخَ مـن المنسوخ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من النَّاسخِ والمنسـوخ، وبكـل مـا فيـه مصلحـةُ الخلقِ ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ الله لَمَّا أمرَ المسلمين بقتـال المشـركين كافَّـة، وكـان في المشـركين ملـوكٌ لا يطمعُ المسلمون بهم لشوكَتِهم وعزِّهـم، أخـبرَ اللهُ تعـالى أن للهِ ملـكَ السَّـموات والأرض، يُحيـي مـن يشـاءُ ويُميـت مـن يشـاء، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ ؛ يُوالِيكم، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ ينصرُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ؛ معناه: وقد تجاوزَ اللهُ من تولَّى النبيَّ ﷺ إذنَهُ للمنافقين بالتخلُّف، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أذِنتَ لَـهُمْ﴾، وتجـاوزَ عـن ذُنـوب المهاجرين والأنصار.

وَقِيْلَ: أراد بذلك قوماً منهم تخلَّفُوا عن رسول الله ﷺ ثم خرَجُوا فـأدركوهُ في الطريقِ. وقولهُ تعالى: (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) صفةُ مدحٍ لأصحاب النبيِّ ﷺ باتِّباعِهم إياهُ في وقت الشِّدةِ في غزوة تبوك، وكانت بهم العُسْرَةُ في النفقـةِ والرُّكـوب والحرِّ والخوف، وكانت الدابةُ الواحدة بين جماعةٍ يتعقَّبون عليها، وكانت التمرةُ تُشـقُّ بالنِّصف فيأكلُها الرجُلان كل واحدٍ نصفها، وربما كانت جماعةٌ يَمُصُّونَ تمـرةً واحـدة، ويشربون عليها، وربما كانوا يَنحَرُونَ الإبلَ فيشربون من ماءِ كرُوشِها في الحرِّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي مِـن بعد ما كادَ تَمِيلُ قلوبُ طائفةٍ منهم عن الخروجِ والجهاد، ويقـال مـن بعـدِ مـا كـادوا يرجِعون عن غزوتِهم من الشدَّة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي ثم خفَّفَ عنهم ما أخلفهم عن الحرب حتى كادُوا يعقلـون عـن أنفسِـهم، وهـذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾... إلى أن قالَ: ﴿عَلِمَ أَنْ

لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[١] أي خفَّفَ عنكم، وكقوله: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[٢] أي خفَّف عنكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ ؛ أي تابَ على الثلاثةِ، وهم كعبُ بن مالك، ومُرَارةُ بن الربيع، وهلالُ بن أميَّة الذين خُلِّفوا عن قبول توبتِهم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ؛ منعَ سِعَتَها بامتناعِ الناس من مكالمتهم، ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي قلوبهم حين كتبَ قيصرُ إلى كعب ابن مالك: بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، فَالْحَقْ بنَا فَإنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلٌ وَكَرَامَةٌ، فَقَالَ كَعْبٌ: (مِنْ خَطِيئَتِي أنْ يَطْمَعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكُفْرِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي عَلِموا وأيقَنُوا ألاَّ مفَرَّ من عذاب الله إلا إليه بالتوبةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي قبلَ توبتَهم، ﴿ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ ؛ أي ليرجِعُوا عن مثلِ صنيعهم. ويقال: ليتوبَ الناسُ من بعدِهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ ؛ أي المتجاوزُ عن ذنوب المؤمنين، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ بعبادهِ التَّائبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ أي يا أيُّها الذين آمنوا اخشَوا اللهَ ولا تعصوهُ، وكونوا مع النبيِّ ﷺ ومع الذين صدَقت نيَّاتُهم، واستقامَتْ قلوبُهم وأعمالُهم في الشدَّة والرَّخاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما جازَ لأهلِ المدينةِ ومَن حولَهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهادِ، وهذا نَهيٌ وردَ بلفظِ النَّفي، ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي لا ينبغِي أن يكونوا بأنفُسِهم آثَرَ وأشفقَ عن نفسِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بل عليهم أن يجعَلُوا أنفُسَهم وقايةً للنبيِّ ﷺ لِمَا أوجبَ له من الحقوقِ عليهم بدعائهِ لهم إلى الإيمانِ حتى اهتدَوا به ونَجوا من النار.

---

(١) المزمل / ٢٠ . (٢) البقرة / ١٨٧ .

(٣) تقدم عزوه إلى صحيح مسلم. وأخرجه الطبري من حديث طويل أيضاً: الرقم (١٣٥٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ؛ أي ذلك الزجرُ بأنَّهم في التخلُّف عن الجهاد، لا يصيبُهم عطشٌ ولا تعب في أبدانِهم، ولا شدَّةُ مجاعةٍ في طاعة اللهِ، ولا يجاوزُون مكاناً فيظهرون فيه من سهلٍ أو جبل مجاوزتَهم ذلك المكان، فإنَّ الإنسان يُغيظُهُ أن يطأ أرضَهُ غيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ؛ أي لا يُبْطِلُ ثوابَ مَن أحسنَ عملاً من جهادٍ وغيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ؛ أي لا يُنفقون في الجهادِ نفقةً صَغُرَتْ أو كَبُرتْ، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ؛ من الأوديةِ في طلب الكفَّار، ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ ؛ ذلك، ﴿لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾ ؛ مِن أعمالهم التي، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوب وَبَيَان نِفَاقِهِمْ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: وَاللهِ لاَ نَتَخَلَّفُ عَنْ غَزْوَةٍ يَغْزُوهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلاَ سَرِيَّةٍ أبَداً، فَلَمَّا أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذلِكَ بالسَّرَايَا إلَى الْغَزْو، وَنَفَرَ الْمُؤْمِنُونَ جَمِيعاً وَتَرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْمَدِينَةِ، أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذلِكَ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها: أنه ليس للمؤمنينَ أن ينفِرُوا كافَّة ويَخلِفُوا رسولَ الله وحدَهُ ليس عنده أحدٌ من المسلمين يتعلَّمُ منه الحلالَ والحرامَ والشرائعَ والأحكام، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ؛ أي فهلاَّ خرَجَ من كلِّ جماعةٍ طائفةٌ إلى الجهادِ، وتبقى طائفةٌ مع رسول الله ﷺ؛ ليسمعَ الذين تخلَّفُوا عند النبيِّ ﷺ الوحيُ، إذا رجعت السَّرايا علَّمُوهم ما عَلِموا فيستَوُون جميعاً في العلمِ في معرفة الناسخِ والمنسوخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ؛ أي لِينذِرَ الذين تخلَّفوا مع رسولِ الله ﷺ قومَهم الذين نَفروا إذا رجعُوا إليهم من

غُزاتِهم، ويخبرُوهم بما نزلَ بعدَهم من القرآنِ، لكي يحذرُوا كلُّهم فلا يعملون شيئاً بخلافِ ما أنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ؛ أي قاتِلُوا الأدنى فالأدنى من عدوِّكم مثل بني قريظة والنضير وخيبر؛ أي ابدأوا بمَن حولكم، ثم قاتِلُوا سائرَ الكفَّار، لأن الاشتغالَ بقتال مَن بعدَهم من المشركين مع تركِ قتالِ مَن قَرُبَ لا يُؤمَنُ معه هجومُ مَن قَرُبَ على ذَراري المسلمين ونسائِهم وبلادهم إذا خَلَتْ مِن المجاهدين، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أي ليكن منكم قولٌ غليظ وشدَّة عليهم في الوعدِ؛ كَيْلاَ يطمعَ فيكم أحدٌ من أهلِ الكفر، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ في النصرِ على عدوِّهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ معناهُ: إذا ما أُنزلت سورةٌ من القرآن، فمِنَ المنافقين مَن يقولُ: أيُّكم زادته هذه السُّورة إيماناً؟! إنَّما كان بعضُهم يقولُ لبعضٍ على جهةِ الْهُزْءِ. ويقالُ: كانوا يقولون للمستضعَفين من المسلمين: أيُّكم زادتهُ هذه الآيةِ يقيناً وبصيرةً؟ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ وهم المخلِصُون من أصحاب رسول الله ﷺ زادتْهم تصديقاً مع تصديقِهم، ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ أي يفرَحُون بكلِّ ما يَنْزِلُ من القرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: وأما الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق فزادَتْهم السورةُ شكّاً إلى شكِّهم وكُفراً إلى كُفرهم، لأنَّهم كلما كفَرُوا بسورةٍ ازدادوا كُفراً، والمؤمنون كلَّما صدَّقوا بسورةٍ ازدادوا تصديقاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ إذ هم لشكِّهم فيما أنزلَهُ اللهُ من السورةِ إلى أن ماتُوا على الكفرِ.

وإنما سَمَّى اللهُ النفاقَ مرَضاً؛ لأن الحيرةَ في القلب مرضٌ في القلب، كما أن الوجعَ في البدنِ مرضٌ في البدن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ معناه: أوَلاَ يرَى المنافقون أنَّهم

يخسَرُون بالدُّعاء إلى الجهادِ في كلِّ عامٍ مرَّة أو مرَّتين، ويقال: يهلَكُون بهتْكِ أسرَارهم، ثم يُظْهِرُ اللهُ من سوء نِيَّاتِهم وخُبْثِ سرائرهم[1]. ويقالُ: كانوا ينقضون عهدَهم في السَّنة مرةً أو مرتين فيُعاقَبون، ثم لا يتُوبُون عن نفاقِهم ولا يذكرون بما صنعَ اللهُ بهم بنقضِهم العهدَ. وقرأ حمزةُ ويعقوب: (أَوَلاَ تَرَوْنَ) بالتاء خطاباً للنبيِّ ﷺ والمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ ؛ إذا نزلت سورةٌ فيها عيبُ المنافقين فخاطَبهم النبيُّ ﷺ وعرَّض لهم في خُطبتهِ، نظرَ بعضُ المنافقين إلى بعضٍ، ﴿ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ﴾ ، من المخلِصين إذا هو قائمٌ فخرجَ من المسجدِ، فإذا كان لا يراهُ أحدٌ خرجَ من المسجدِ وانصرفَ، وإن علِموا أنَّ أحداً يراهُم قاموا وثبَتُوا مكانَهم حتى يفرغَ النبيُّ ﷺ من خطبتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ ﴾ ؛ أي انصرفُوا عن الإيمان والعمل بترك ما يستمعون، ويقال: انصرفُوا عن المكان الذي سَمِعُوا فيه، ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ ؛ باللطف الذي يُحْدِثُهُ للمؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ ﴾ ؛ أي ذلك الصرفُ بأنَّهم قومٌ لا يفقَهون ما يريدُ الله بخطابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ ؛ هذا خطابٌ لأهلِ مكَّة، والمعنى: لقد جاءَكم رسولٌ من أهلِ نَسَبكم ولسانكم، شريفُ النَّسَب تعرفونَهُ وتفهمون كلامَهُ. وإنما قالَ ذلك؛ لأنه أقربُ إلى الألفَةِ. وَقِيْلَ: إن هذا خطابٌ لجميعِ الناس، معناه: جاءَكُم آدمِيٌّ مثلُكم، وهذا أوكدُ للحجَّة عليكم؛ لأنَّكم تفهمون عن مَن هو من جنسِكم.

وقرأ ابنُ عبَّاس والزهري (مِنْ أَنْفَسِكُمْ) بفتحِ الفاء؛ أي من أشرَفِكم وأفضَلِكم، مِن قولِكَ: شيءٌ ذو نَفَس[2]، وقال: كان مِن أعلاكُم نسَباً، قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) أي شديدٌ عليه عَنَتُكُمْ وإثمُكم، العَنَتُ: الضِّيقُ والمشقَّةُ.

---

(١) في المخطوط: (شرارهم).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٢٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ؛ أي حريصٌ على إيمانِكم وهُداكم أنْ تُؤمِنُوا فتَنجُوا من العذاب وتفوزُوا بالجنَّة والثواب، والحِرْصُ: شدَّةُ الطَّلَب للشيء مع الاجتهادِ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ كلامٌ مستأنفٌ؛ أي وهو شديدُ الرحمةِ لجميع المؤمنين، رفيقٌ لِمَن اتَّبعَهُ على دينهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي فإنْ أعرَضُوا عنكَ وعن الإيمان بكَ، فقُلِ اللهُ تعالى حَسْبي لا إلهَ إلاَّ هوَ؛ أي لا ناصرَ ولا مُعِينَ غيرهُ، (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أي بهِ ثِقَتِي، وإليه فوَّضتُ أمري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) أي خالِقُ السَّريرِ العظيمِ الذي هو أعظمُ مِن السَّمواتِ والأرض، وإنَّما خُصَّ العرشُ بذلك؛ لأنه إذا كان ربُّ العرشِ العظيمِ مع عَظَمَتِهِ، كان ربُّ ما دونَهُ في العِظَمِ. وَقِيْلَ: إنما خصَّ العرش؛ تشريفاً للعرشِ وتعظيماً لشأنهِ. وقرئ في الشواذ (الْعَظِيمُ) بالرفعِ على نَعْتِ الرب[1].

آخر تفسير سورة (براءة) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في جامع البيان: الحديث (١٣٥٨٧) بأسانيد؛ أخرج الطبري بسنده عن أبي بن كعب؛ قال: (آخر آية نزلت من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ إلى آخر الآية، فقال: أحدث القرآن عهداً بالله الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة).

سُورَةُ يُونُسَ

سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعُ آيَاتٍ، وَسَبْعَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثَمَانُمِائَةٍ وَاثْنَان وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً. وَعَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّـهُ قَـالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُونُسَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بيُونُسَ وَكَذبَ بهِ، وَبعَدَدِ مَنْ غَرِقَ مَعَ فِرْعَوْنَ].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ﴾ ، قال ابن عباس: (مَعْنَاهُ: أنَا اللهُ أرَى) وعنه: (أنَّهُ مِنْ حُرُوفِ الرَّحْمَنِ). وقيل: أنا الربُّ لا ربَّ غيرهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ ؛ أي هذهِ آياتُ الكتاب، وإنَّما أضافَ السورةَ إلى القُرآن؛ لأنَّها بعضُ الكتاب، كما تضافُ السورة لأنَّها بعضهُ.

وأما وصفُ القرآن بأنه حكيمٌ؛ فلأنَّ القرآنَ كالناطقِ بالحكمة بما فيه بين التمييز بين الحقِّ والباطلِ. ويقالُ: معنى الحكيمِ الْمُحْكَمُ بالحلالِ والحرام والأمرِ والنهي، يقالُ: أحكمتُ الشيءَ فهو مُحْكَمٌ وحكيمٌ، كما يقالُ: أكرمتُ الرجلَ فهو مُكْرَمٌ وكَريمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ معناهُ: أعَجِبَتْ قريشُ أنْ أوحَينا إلى رجُلٍ مثلهم من أهلِ نسَبهم أنْ خَوِّفِ الناسَ بالعذاب، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الكفار

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣٠٤؛ قال القرطبي: ((مكيَّة في قولِ الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابنُ عباس: إلاَّ ثلاثَ آياتٍ من قولهِ تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ...﴾ إلى آخرهنَّ)). وقال مقاتلُ: ((غيرَ آيتين، وهما قولهُ تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ...﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾)). ينظر: تفسيره: ج ١ ص٨٠.

كانوا يقولُون: لم يجدِ اللهُ رسولاً يبعثه إلينا إلاّ يتيمَ أبي طالبٍ. ويقالُ: كانوا يَعجَبون من البعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِهِمْ) أي أعمالهم الصالحةَ التي قدَّمُوها لأنفسِهم سَلَفَ خيرٍ عند ربهم يستوجبون بها المنْزلةَ الرفيعةَ في آخرتِهم عند ربهم، وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (قَدَمَ صِدْقٍ: شَفَاعَةُ بَيْنَهُمْ لَهُمْ هُوَ إمَامُهُمْ إلَى الْجَنَّةِ وَهُمْ بالأثرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي قال كفَّار مكة: إنَّ هذا القرآنَ لسِحرٌ مُبينٌ، وقرأ أهلُ الكوفة وابن كثير (لَسَاحِرٌ) بالألفِ يعنُونَ مُحمَّداً ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ولو شاءَ لخلقَها في أقلِّ من لحظةٍ، ولكنَّهُ خلقَها للترتيب؛ ليكون حدوثُ شيءٍ بعدَ شيءٍ على الترتيب أبلغَ للملائكةِ في التفكُّرِ بها من حُدوثِها كلِّها في حالةٍ واحدة، وقد تقدَّم تفسيرُ الاستواءِ، ودخلت (ثُمَّ) على الاستواءِ وهي في المعنى داخلةٌ على الترتيب، كأنَّهُ قال: ثُمَّ يُدبرُ الأمرَ وهو مستوٍ على العرش، فإنَّ تدبيرَ الأمُور كلها يَنْزلُ من عندِ العرش، ولهذا تُرْفَعُ الأيدِي في قضاءِ الحوائج نحوَ العرش. والاستواءُ: الاستيلاءُ، ولم يَزَلِ اللهُ سبحانه مُستَولياً على الأشياءِ كلِّها، إلا أن تخصيصَ العرشِ لتعظيمِ شأنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ أي يقضِي القضاءَ إلى الملائكةِ من رسُلهِ ولا يُشركُه في تدبيرِ أحدٌ من خلقهِ. وعن عمرو بن مُرَّة ((عن عبدالرحمن بن سابط))[(١)] قال: [يُدَبرُ أمْرَ الدُّنْيَا بأمْرِ اللهِ أرْبَعَةٌ: جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ وَإسْرَافِيلُ. أمَّا جِبْرِيلُ فَعَلَى الرِّيَاحِ وَالْجُنُودِ، وَأمَّا مِيكَائِيلُ فَعَلَى الْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَأمَّا مَلَكُ الْمَوْتِ فَوُكِّلَ بقَبْضِ الأَرْوَاحِ، وَأمَّا إسْرَافِيلُ فَهُوَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ بمَا يُؤْمَرُونَ بهِ][(٢)].

---

(١) سقط من المخطوط، وصححناه من شعب الإيمان للبيهقي.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالملائكة: الحديث (١٥٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ جوابُ قولِ الكفَّار أنَّ الأصنامَ شُفعاؤُنا عندَ اللهِ، فبيَّن اللهُ تعالى ما مِن مَلَكٍ مقرَّبٍ، ولا نبيٌّ مُرسَلٍ يشفعُ لأحدٍ إلا مِن بعد أنْ يأذنَ اللهُ لمن يشاء ويرضَى، فكيف تشفعُ الأصنام التي ليس لها عقلٌ وتمييز.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ ؛ أي الذي يفعلُ ما هو المذكور في هذه الآيةِ من خَلْقِ السَّموات والأرضِ وتدبير الخلق هو اللهُ خالقكم ورازقُكم، ﴿ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ ؛ ولا تعبدُوا الأصنامَ فإنَّها لا تستحقُّ العبادةَ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ ؛ أي هل تتَّعِظُونَ بالقرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ ﴾ ؛ أي إلى اللهِ سبحانه رجوعُكم جميعاً، وانتصبَ قولهُ: (جَمِيعاً) على الحال، وقوله: (وَعْدَ اللهُ) نُصبَ على المصدر؛ أي وعدَ اللهُ وَعداً، والمعنى وعدَ الله البعثَ بعدَ الموتِ وَعداً حقّاً كائناً لا شكَّ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي يخلقُكم في بطون أمَّهاتِكم نُطَفاً، ثم عَلَقاً ثم مُضغَةً ثم عظاماً، ثم يخرجُكم نَسْماً للتَّمامِ، ثم يُميتكم عند انقضاءِ آجالكم ثم يبعثُكم بعد الموتِ، وفي هذا بيانُ أن خلقَ الشيءِ على الترتيب حالٌ بعد حالٍ أدلُّ على الترتيب من خلقهِ جُملةً واحدة في ساعةٍ واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ ؛ فيه بيانُ أن البعثَ للجزاءِ؛ لنَجزيَهم بالعدل لئَلاَّ ننقصَ من ثواب محسن، ولا نزيدُ على عقاب مُسِيءٍ، بل يُجازي كُلاًّ على قدر عمله كما قال (جَزَاءً وفَاقاً)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ ؛ أي من ماءٍ حارٌّ قد انتهى حرُّهُ، ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ ﴾ ؛ وجيعٌ يخلُصُ وجعهُ إلى قلوبهم، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤ ﴾ ؛ بالكتُب والرسُل.

---

(١) النبأ / ٢٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ؛ أي هو الذي جعل الشمسَ ضياءً للعالَمين بالنهار، والقمرَ نوراً بالليلِ.

رُوي في الخبر: أنَّ وجوهَهما إلى العرشِ وظهُورَهما إلى الأرضِ، يُضيء وجوهَهما لأهلِ السموات السَّبع، وظهورهما لأهلِ الأرضين السبع، كما قال (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَدَّرَهُ) أي قدَّرَ القمرَ منازلَ وهي ثمانٍ وعشرون منْزلةً في كلِّ شهرٍ. وقيل معناه: (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) لا يجاوزُوها ولا يقصرُوها، وَقِيْلَ: جعل (قَدَّرَ) لهما يعدى إلى مفعولين، ويجوز أن يكون المعنى وقدَّرَهما، إلا أنه حذفَ التثنيةَ للاختصار والإيجاز، كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ما خلق اللهُ الشمسَ والقمر، إلا لتعلَمُوا الحسابَ وتعتَبروا بهما، وتستدلُّوا بطلوعِها وغروبها على صانعِهما.

وقوله: (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) أي لتعلَمُوا بالشمسِ حسابَ السنين وحسابَ الشُّهور والليالي والأيامِ على ما تقدَّمَ أن القمرَ يقطعُ في الشهرِ ما تقطعهُ الشمس في السَّنة، ويعني بقولِهِ: (وَالْحِسَابَ) حسابَ الأشهُرِ والأيام والساعاتِ، وقولهُ تعالى: (مَا خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إلاَّ بالْحَقِّ) ردَّهُ إلى الفعلِ والخلق والتدبيرِ، ولو أرادَ الأعيانَ المذكورة لقال: تِلْكَ إلا بالحقِّ، ثم يخلقهُ باطلاً، بل إظهارُ الصَّنعةِ، ودلالتهُ على قدرتهِ وحكمته.

---

(١) نوح / ١٦.

(٢) التوبة / ٦٢. في معاني القرآن: ج ١ ص٤٥٨؛ قال الفراء: (ولم يقل: وقدَّرهما. فإنْ شئتَ جعلتَ تقدير المنازل للقمرِ خاصة؛ لأن به تُعلم الشهور. وإن شئتَ جعلت التقديرَ لهما جميعاً، فاكتفى بذكرِ أحدهما من صاحبه).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي نُبيِّنُ علاماتِ وحدانيَّة اللهِ تعالى بأنه بعدَ آيةٍ (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) تفصيلَ الآياتِ. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص (يُفَصِّلُ) بالياء، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لقولهِ قبلَهُ (مَا خَلَقَ) فيكون متَّبعاً له، وقرأ الباقون بالنُّون على التعظيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ في اختلافِ ألوان الليلِ والنهار وتقلُّبها بذهاب الليل وجيئةِ النهار، وذهاب النهار وجيئةِ الليل، وفيما خلقَ اللهُ في السَّموات من الشمسِ والقمر والنجومِ والسَّحاب والرياح، والأرضِ من الجبالِ والشجر والبحار والأنهار والدواب والنبات، لعلاماتٍ لقوم يتَّقون اللهَ ويخشَون عقوبتَهُ.

فلم يؤمِنوا بهذه الآياتِ ولم يصدِّقوا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ:

قولُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إن الذين لا يخشَون عقابَ اللهِ، وتنعَّموا بالحياة الدُّنيا، فلا يعمَلون إلا بها ولا يرجُون إلى ما ورائِها (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) أي سَكَنوا إليها وآثَرُوها على عملِ الآخرة، والذين هُم عن دلائلِ توحيدنا غافلون تاركون لها مكذِّبون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي أهلُ هذه الصِّفة مصيرُهم إلى النار، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ يعمَلون في دار الدُّنيا. وقد يُذكر الرجاءُ بمعنى الخوفِ كما قال اللهُ ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾[1] أي لا تخافُون للهِ عَظَمَةً، ويجوزُ أن يكون المعنى: لا يرجون لقاءَنا؛ أي لا يرجون جزاءَنا، فجعل لقاءَ جزائهِ بمنْزلة لقائهِ.

---

(١) نوح/ ١٣ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي إن الذين صدَّقوا بمُحَمَّدٍ والقرآنِ وعمِلُوا الصالحاتِ يُرشِدُهم ربُّهم على الصِّراط إلى الجنَّة بنور إيمانِهم. وَقِيْلَ: يرشدُهم إلى منازلهم في الجنة. وَقِيْلَ: يُثَبِّتُهُمْ على الإيمان.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي تجري الأنهارُ بين أيديهم وهم في الغُرَفِ يتطلَّعون عليها كما قال عزَّ وَجَلَّ حاكياً عن فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْـهَارُ تَجْرِي مِـنْ تَحْتِي﴾(١). ويجوزُ أن يكون معناه: تجري من تحتِ شَجَرِهم وبساتينهم في جناتٍ تنعمون فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا ﴾ ؛ أي قولُهم ودعـاؤهم في الجنَّـة: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ ، فإذا سَمِعَ الخدَّام ذلك من قولِهم أتوهم بما يشتهون، قال ابن جُريج: (يَمُرُّ الطَّيْرُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ فَيَشْتَهِيهِ، فَيُسَبحُ اللهَ تَعَالَى، فَيَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ مَا شَاءَ، فَإذا فَرَغَ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ)(٢). ويقالُ معنى قولهِ: (دَعْوَاهُـمْ فِيـهَا) أي مُفْتَتَحُ كلامِهم التسبيحُ، ومختَتَمُ كلامهم التحميدُ، لاَ أن يكون الحمدُ آخرَ كلامِـهم حتـى لا يتكلمون بعدَهُ بشيءٍ.

قال طلحةُ بن عبدِالله: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ، فَقَالَ: [هُوَ تَنْزِيهُ للهِ مِنْ كُـلِّ سُـوءٍ](٣). وسُئِلَ عَلِـيٌّ ﷺ عَـنْ ذلِـكَ فَقَـالَ: (كَلِمَـةٌ رَضِيَـهَا اللهُ لِنَفْسِهِ)(٤). وقال الحسنُ: (بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ: [إنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبيحَ، كَمَا تُلْهَمُونَ أنْفُسَكُمْ].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وتحييهم الملائكة بالسـلام،

---

(١) الزخرف / ٥١ .

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦١٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١٣٦٢٤) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٢٣).

وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾[١] قرأ بلالُ بن أبي بُردة وابن محيصن (إنَّ الْحَمْدَ للهِ) بكسرِ (إنَّ) وتشديدِ النون ونصب (الْحَمْدَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآية نزلت في النَّضْرِ بن الحارثِ حين قال ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية[٢] ثم صارت عامَّة في كلِّ مَن يستعجلُ العقابَ الذي يستحقُّه بالمعاصي.

معناهُ: ولو يعجلُ الله للناس الشرَّ كما يعجِّلُ الخيرَ إذا دعَوا بالرَّحمة والرزق والعافية لَمَاتُوا وهَلَكُوا. وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية دعاءُ الإنسان على نفسهِ وولَدِه وقومه، مثلُ قول الرجلِ إذا غَضِبَ على ولدهِ: اللهُمَّ لا تُبارِكْ فيه وَالْعَنْهُ، وقولهُ لنفسهِ: لا رفعني اللهُ من بينكم، والمعنى على هذا: ولو يعجِّلُ الله للناسِ إجابةَ دعائهم في الشرِّ كاستعجالهم الإجابةَ في الخير (لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهُمْ) أي لفَرَغَ من عذابهم وماتُوا جميعاً. وقال شهرُ بن حَوْشَبْ: (قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُب أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ الْمُوَكَّلَيْنِ: لاَ تَكْتُبَا عَلَى عَبْدِي فِي حَالِ ضَجَرِهِ شَيْئاً).

وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوب (لَقَضَى) بفتح القاف والضاد (أجَلَهُمْ) بفتح اللام، وقرأ الأعمشُ (لَقَضَيْنَا) وقرأ العامة (لَقُضِيَ) بضمِّ القاف وكسرِ الضاد، ورفعِ قوله (أجَلُهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي نتركُ الذين لا يخافون البعثَ في ضلالتِهم وكُفرهم يتحيَّرون ويتردَّدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في هِشَامِ بن المغيرةِ المخزوميِّ، ومعناهُ: إذا أصابَ الإنسانَ الشدَّةُ والمرضُ دعانا لكشفهِ وهو مضطجعٌ لِمَا به من المرضِ أو قاعِداً إذا هانت العلَّة، أو

---

(١) الأحزاب / ٤٤.

(٢) الأنفال / ٣٢ .

قائماً إذا بَقِيَ أثرُ العلَّة، أو كان في شدة معيشة أو غيرها، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ ﴾ ؛ رفعنَا ما كان به من الشدَّة استمرَّ على الإعراضِ عن شُكرنا ما أنعمنا عليه في كشفِ الضرِّ عنه، ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ؛ قط؛ أي كأنَّهُ لم يَمَسَّهُ ضُرٌّ، وكأنْ لم نكشف الضرَّ عنه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في الشِّركِ من الدعاء في الشدَّة، وتركِ الدعاء في الرَّخاءِ، فاغترُّوا بما زُيِّنَ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ ؛ أي ولقد أهلكنا الأممَ الماضيةَ من قبلِكم حين كفرُوا، ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ بالدلالاتِ الواضحاتِ، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى إنما أهلكَهم؛ لأنه كان المعلومُ من حالهم أنه لو أبقَاهم أبداً لأدبروا ولم يُؤمنوا، ولو كان في بقائِهم صلاحٌ لهم ولغيرِهم لأبقَاهم. وقولهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي هكذا نَجزي القومَ المشركين، نُهلِكُهم كما أهلكنا الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي ثم أسكنَّاكم الأرضَ من بعد الأوَّلين لنُجازيكم على ما تعملون من الخيرِ والشرِّ، ونشاهدُ هل تعتبرون بما صُنِعَ بالأوَّلين أم لا ؟ وهذا على التهديدِ؛ أي إنْ عامَلتُكم مثل معاملَتِهم أهلكتُكم كما أهلكتُهم.

وإنما قال (لِنَنْظُرَ)؛ لأنه سبحانهُ يعامِلُ العبدَ معاملةَ المختبرِ الذي لا يعلمُ الشيءَ حتى يكون مظاهرة في العدل، وأنه إنما يُجَازي العبادَ على أعمالهم لا على علمهِ فيهم، قال رسولُ الله ﷺ: [إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ][1]، قال قتادةُ: (وَذكِرَ لَنَا أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: صَدَقَ رَبُّنَا مَا جَعَلَنَا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٢٤ ص١٨١: الحديث (٥٧٧-٥٨٩) عن خولة بنت قيس، وفيه: [إنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]، وإسناده حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في موارد الضمآن: الحديث (٨٠٢)، وفي الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (٢٨٩٢).

خَلْقاً إلاَّ لِيَنْظُرَ إلَى أعْمَالِنَا، فَأدُّوا أعْمَالَكُمْ خَيْراً باللَّيْلِ وَالنَّهار وَالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا قُرِئَ على أهلِ مكة آياتُنـا المنَزَّلـة في القـرآن، قـال الذين لا يخشَون عِقابنا ولا يطمَعون في ثوابنا ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ: أئْتِ يا مُحَمَّدُ بقرآنٍ ليس فيه عيبُ آلِهَتنا ولا ذكرٌ في البعثِ والنُّشور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ بَدِّلْهُ) أي قالوا أو بَدِّلْ هذهِ بغيرهِ، قُل يا مُحَمَّدُ (مَا يَكُونُ لِـي أنْ أبَدِّلَهُ) أي ما يجوزُ وما ينبغي لي أن أغَيِّرَهُ من قِبَلِ نفسي، ما أقولُ أو ما أعمـلُ إلا ما يوحَى إلَيَّ من القرآن، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ ؛ أعلمُ، ﴿ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ ؛ فبدَّلـتُ القرآنَ أنه يكون عليَّ، ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: لـو شاءَ اللهُ ما قرأتُ القرآنَ عليكم بأن كان لا يُنَزِّلهُ عَلَيَّ، ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ولا أعلمَكم اللهُ به؛ أي لو شاءَ الله أنْ لا يُشعِرَكم، وفي قراءةِ الحسن (وَلاَ أدْرَاكُمْ بهِ) أي ولا أعلَمَكم به. وقولهُ تعـالَى: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ومكثتُ فيكم دَهْراً قبلَ إنزالِ القرآن، ولم أقُلْ مِـن هـذا شـيئاً، فليـس عليكـم ذهـنُ الإنسانيَّة أنه ليس من تِلْقَاءِ نفسِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار له: أنَّ الله خالقُ السمواتِ والأرض وهو عالِمٌ بما فيها، يعلمُ أن ليـس فيـهما إلَـهٌ ينفـعُ ويضـرُّ غيرهُ، فتخبرونه أنتم بشيءٍ لا يعلمهُ، فيعلم بأخباركم، وهذا نفـيٌ للعلـمِ، والمـرادُ بـه نفيُ ما قالوه: من أن شفاعةَ الأصنامِ ((تنفعهم)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أجدُ ممـن اختلقَ على اللهِ كذباً بأنْ جعلَ شريكاً له أو ولَداً إذا ادَّعَى النبوةَ بغيرِ حـقٍّ، أو قـالَ: أمِرْنا بعبادةِ الأصنام فنتقرب بعبادتِها إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٣٠)، وله قصة في الأثر (١٣٦٣٨).

أي بأنبيائهِ ورسُلهِ وكتُبهِ، وقولـهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي لا يوصِلُهم إلى مُرادِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾؛ أي وإنَّ أهلَ مكَّة يعبُدون مِن دون اللهِ الأصنامَ التي لا يضرُّهم إنْ ترَكُوا عبادتَها ولا ينفعُهم إنْ عبدُوها، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ فإنهُ الذي أذِنَ لنا في عبادتِها وأنه يستشفعها فينا، وأرادُوا بذلك شفاعةَ الأصنامِ في مصالحِ دُنياهم؛ لأنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بالبعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ هذا لا يكون أبداً. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي تنْزيهاً للهِ عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ بذاتهِ، وارتفعَ وتَبرَّأ عمَّا يُشرِكون بهِ مِن الأصنامِ والأوثان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾؛ اختلفَ الناسُ في المرادِ بهذه الآيةِ، قال بعضُهم: أرادَ بذلك أنَّ الناسَ كانوا أُمَّةً واحدةً في وقتِ آدمَ عليه السلام، ثم اختلفُوا بأنْ كفَرَ بعضُهم بعضاً، وأوَّلُ مَن اختلفَ قابيلُ وهابيل. ويقال: أرادَ به الناسَ كلَّهم وُلِدُوا على الفطرةِ، ثم اختلفُوا بأنْ غيَّر بعضُهم الفطرةَ ولم يغيِّرْ بعضهم، بل ثبتَ عليها.

وقال بعضهم: أرادَ بذلك أنَّهم كانوا أمةً واحدةً على عهدِ إبراهيم ونوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كلُّهم كانوا كافِرين، فتفرَّقوا بين مؤمنٍ وكافر. ويقال: أرادَ بالناسِ ههنا العربَ، كانوا على الشِّركِ قبلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ ثم اختلَفُوا بعدَهُ، فآمَنَ بعضُهم وكفرَ بعضُهم. فالقولُ الأوَّلُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ لو كان لكم من اللهِ سبقٌ ببقاءِ التكليف على الناسِ أي وقت معلوم سواءٌ أطاعوهُ أو عصَوهُ لِمَا علِمَ من المصلحةِ لهم ولغيرِهم في ذلك، لعجَّلَ لهم العذابَ عند العصيان، فاضطرَّهم إلى معرفةِ الحقِّ فيما اختلفوا فيه. وقرأ عيسَى بن عُمر (لَقَضَى بَيْنَهُمْ) بالفتحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي يقولُ كفار مكةَ: هَلاَّ أنزلَ على مُحَمَّدٍ آيةٌ من ربه، يعنُون الآيةِ التي كانوا يقترحونها على سوى الآيات التي أنزل اللهُ تعالى (فَقُلْ إنَّمَا الْغَيْبُ للهِ) أي قُل لهم يا مُحَمَّدُ نزول الآياتِ لله تعالى لو عَلِمَ الإصلاحَ في زيادةِ الآيات لأنزلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي فانتظِروا عقابَ اللهِ بالقتلِ في الدُّنيا والنار في الآخرة، ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ بهلاكِكُم بما أوعدَ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ﴾ ؛ معناهُ: إذا أعطَينا الناسَ ما يُسَرُّونَ به من العافيةِ والنِّعمَةِ والرحمةِ والمطر من بعدِ فَقْرٍ وبلاء ومرَضٍ وقحطٍ وشدَّةٍ أصابتهُم، إذا لَهم مكرٌ في آياتِنا بالاحتيالِ في دفْعِها والتكذيب بها، كانوا لا يقولون: هو رزْقُ اللهِ ورحمتهُ، و(إذا) تنوب عن جواب الشرط كما ينوبُ الفعلُ، والمعنى إذا مَسَّتْهُمْ راحةٌ ورخاء بعد شدَّةٍ وبلاء. وَقِيْلَ: مطرٌ بعد قحطٍ إذا لهم كفرٌ وتكذيب. قال مقاتل: (لاَ يَقُولُونَ هَذا رزْقُ اللهِ، وَإنَّمَا يَقُولُونَ: سُقِينا بنَوْءِ كَذا) وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رزْقَكُمْ أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ ؛ أي أسرعُ جزاءً على المكر وأقدرُ على ذلك، يسمَّى الجزاءُ باسمِ الْمَجْزِيِّ عليه. وَقِيْلَ: معناهُ: قُل اللهُ أعجلُ عقوبةً وأشدُّ أخذاً وأقدرُ على الجزاءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي الكِرَامُ الكَاتِبين، يكتبُون ما تمكُرون أنتم. قرأ الحسنُ ومجاهد وقتادة ويعقوب (مَا يَمْكُرُونَ) بالياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي هو الذي يسهِّلُ عليكم السَّيرَ ويحفَظُكم إذا سافرتُم في البرِّ على الدواب، وفي البحرِ على السُّفُن، فالسيرُ في البحرِ مضافٌ إلى اللهِ على الحقيقة؛ لأنَّ سَيْرَ السفينةِ لا يكون إلا بجَرْيِ الماء، وبالريحِ للسَّفينة.

---

(١) الواقعة / ٨٢ .

وأما السيرُ في البرِّ فإضافتهُ إلى اللهِ تعالى على معنى تسخيرِ الْمَرْكُوب، وتسييرِهِ بإمساكهِ بقُدرةِ الله تعالى أيضاً. قرأ ابنُ عامرٍ وأبو جعفر (يَنْشُرُكُمْ)، والسَّيْرُ من النَّشْرِ؛ أي نَبُثُّكُمْ في البرِّ والبحرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ ﴾ ؛ أي حتى إذا كُنتم في السُّفن، وقد يكون الفُلْكُ واحداً، وقد يكون جَمعاً، فمَن جعلَهُ واحداً فجمعهُ أفْلاَكٌ، ومَن جعلَهُ جَمعاً فواحدُ فَلَكٍ، كما يقالُ أسَدٌ وأسْدٌ.

وقولهُ تعالى: (وَجَرَيْنَ بهِمْ) أي السُّفنُ جَرَيْنَ بأهلِها بريحٍ لَيِّنَةٍ ساكنةٍ، وفرحُوا بسُكون ريحِها وأعجبُوا، قال الزجَّاجُ: (ابْتِدَاءُ الْكَلاَمِ خِطَابٌ، وَبَعْدَ ذلِكَ إخْبَارٌ عَنْ مَعَانِيهِ؛ لأَنَّ مُخَاطَبَةَ اللهِ لِعِبَادِهِ لاَ تَكُونُ إلاَّ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ، وَذلِكَ بمَنْزِلَةِ الإخْبَارِ عَنِ الْغَائِب)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ ؛ أي ركوبُهم الموجَ من كلِّ جانبٍ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ﴾ ؛ أي أيْقنُوا أنه قد دَنَا هَلاكُهم، تقولُ العرب لكلِّ مَن وقعَ في الهلاكِ، أو بليَّة عظيمةٍ: أُحِيطَ بفُلاَنٍ؛ أي أحاطَ به الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي دَعَوا اللهَ ليكشِفَ ذلك عنهم، مُخلصين له الاعتقادَ، لا يدعُون عند الشدَّة غيرَهُ، قال الحسنُ: (لَيْسَ هُوَ إخْلاَصُ الإيْمَان، وَلَكِنَّهُ لِعِلْمِهِمْ بأَنَّهُ لاَ يُنْجِيهِمْ مِنْ تِلْكَ الشِّدَّةِ إلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ ﴾ ؛ أي مِن هذه الرِّيح الشديدةِ والغرق، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ لكَ على نعمائِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ ؛ فلما أنْجَاهُم من البحرِ إذا هم يتطاولون على أنبياءِ الله وأوليائهِ، ويعمَلُون بالمعاصي

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص١١. وفي المطبوع اختصر العبارة أو سقطت منه. وعبارة الإمام الطبراني أتم وأوضح في المعنى.

والفساد، والدعاءِ إلى غيرِ عبادة الله. والبَغْيُ في اللغة: التَّرَامِي إلى الفسادِ، يقالُ: بغَى الجرحُ بَغْياً إذا ترامَى إلى الفسادِ، وبَغَتِ المرأةُ إذا فسَدَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنَّما ظُلْمُكم وتطاولُكم يعودُ ضَررهُ عليكم، ويرجعُ وَبَالُـهُ إليكـم، وقولـهُ تعـالى: (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي هو تَمَتُّعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ومتاعٌ يَذْهَبُ ويفْنَى، ويجوزُ أن يكون قولُه: (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبرٌ لقولهِ (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي لا يتهيَّأ لكـم إلاَّ أن يبغِي على بعـضٍ في مـدَّة يسيرةٍ مـن الدُّنيـا مـع سـرعةِ انقضائـها، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ بعد الموتِ، ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ وقرأ حفـص (مَتَاعَ) بالنصب على المصدر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: إنما صفةُ حياةِ الناسِ الدُّنيا وهي الحياةُ الأُولى، صفةُ ما أنزلَ اللهُ فينبتُ به أنواعَ النباتِ، واختلطَ بعضهُ إلى بعضٍ؛ لأن المطرَ يختلطُ بالنباتِ ويدخلُ في خلالهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ أي مما يصيرُ إلى النـاسِ مـن الحبوب والثمار، وبعضه عَلَفاً للدَّواب من العشب والكَلإِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ ؛ أي زيَّنَـها مـن النباتِ، والزُّخْرُفُ: حُسْنُ الشَّيءِ، وقولهُ (وَازَّيَّنَتْ) أي تزيَّنت بنباتِـها وأثمارهـا مـن الأحمرِ والأصفر والأخضر وسائرِ الألوان التي لا غايةَ لها في الْحُسْنِ بعدَها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ ؛ حسِبَ أهلُـها إدراكَ الانتفاعِ بها. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا ﴾ ؛ أي أتَاها عقابُنا في ليلٍ أو نهار، إما ببَردٍ أو بصواعقَ محرقةٍ أو غيرها، ويسمَّى العقـابُ أمراً؛ لأنَّ أفعالَ الله سبحانهُ تضافُ إليـها بلفـظِ الأمـر؛ لأنَّ ذلـك أدلُّ علـى سُرعَةِ السُّكون من غيرِ استبطاءٍ ولا تَعَبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكن بذلكَ المكانِ شيءٌ من الخضرِ والحسن والنباتِ، والْمَغْنَى: هو الموضعُ الذي يقام فيه ويعمـر، والمغَـانِي: المنازلُ التي يعمِّرها الناس بالنُّزول بها، كما يقالُ غَنِينا بمكانِ كذا إذا نُـزَادُ بـه، ووجـهُ

تشبيه الحياةِ الدنيا بالمطرِ الذي يُنْزَلُ فينبت به النباتُ، ثم يقضى فينقطعُ أنه كما لا يبقَى من ذلك شيءٌ من ذلك النباتِ، كذلك المتمسِّكُ بالدنيا أقوَى ما ينتهِي إليه أمرُ دنياه يأتيهِ الموتُ.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وتزيَّنت، وقرأ أبو عُثمان الشهدي والضحَّاك (وَازَّائَتْ) على وزن (احْمَارَّتْ)، وقرأ أبو رجاء والشعبيُّ والحسن (وَازْيَنَت) على مثال (افْعَلَتْ) مقطوعةُ الألف ساكنة الزاي، قال قطربُ معناه: (أتَتْ بالزِّينَةِ) كما يقالُ: اذكَرَتِ المرأةُ وَآنَثَتْ إذا أتَتْ بالذُّكور والإناثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ؛ أي كما فصَّلنَاكم، فكذلكَ نُبيِّنُ الآياتِ في القرآن، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ في أمرِ الدُّنيا والآخرة، وإنما خَصَّ بذلك من يتفكَّرُ؛ لأن الغافلَ عن ذلك والمتغافِلُ لا يكادُ ينتفع بهذه الأمور، بل هو كالأنعامِ وأضَلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَاللهُ يَدْعُو إلَى عَمَلِ الْجَنَّةِ)، وقال: (اللهُ السَّلاَمُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ) ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي يُكرِمُ مَن يشاءُ بالكرامةِ وبالهدايةِ إلى دينِ القيم، قائمٌ برضاءِ الله وهو الإسلامِ، ويقالُ: معنى دار السَّلام الدار التي يسلمُ أهلُها عن الآفاتِ والأمراض والهرَمِ والموت، والسَّلامُ بمعنى كالرِّضاع والرِّضاعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ؛ أي للَّذين أحسَنُوا العملَ في الدُّنيا لَهم الْحُسنَى وهي الجنةُ ولذاتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَزِيَادَةٌ) رُوي عن أبي بكرٍ ﷺ أنه قالَ حين تَلاَ هذه الآية: (أتَدْرُونَ مَا الزِّيَادَةُ؟ قَالُوا: مَا هِيَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ اللهِ تَعَالَى)[١].

وعلى هذا القولِ حذيفةُ وأبو موسى وصُهيب[٢] وعبادةُ بن الصَّامت وكعبُ ابن عَجْرَة وعامرُ بن سعيد والحسنُ وعكرمة وأبو الجوزاءِ والضحَّاكُ والسديُّ وعطاء

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٥٠)، وقال: (وقتادة).

ومقاتل، وهو قولُ أبي بكرٍ الصدِّيق ﷺ يدلُّ عليه قولهُ ﷺ: [إذا دَخَلَ أهْـلُ الْجَنَّـةِ نُودُوا: أنْ أهْلَ الْجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً لَمْ تَرَوْهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ ؟! أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ وَيَنْظُـرُونَ إلَيْـهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَوَاللهِ مَا أعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْهُ][1].

وقال ابنُ عبَّاس: (لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الْحُسْنَى؛ أيْ لِلَّذِينَ شَهِدُوا أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ الْجَنَّةَ)، وروى عطيَّة: (أنَّ الْحُسْنَى هِـيَ الْوَاحِـدَةُ مِـنَ الْحَسَـنَاتِ بوَاحِـدَةٍ، وَالزِّيَـادَةُ التَّضْعِيفُ عَشْرُ أمْثَالِهَا إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ)[2].

وَقِيلَ: الْحُسْنَى النُّصْرَةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَـاضِرَةٌ، إلَى رَبهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، وعن عليٍّ ﷺ قالَ: (الزِّيَادَةُ غُرْفَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِـدَةٍ، لَـهَا أرْبَعَـةُ أبْوَابٍ)[4]، ويقالُ: الزيـادة رضَـا الـرب، كمـا رُوي أنَّ أهـلَ الجنَّـة يُؤتـونَ بـالتُّحَفِ والكراماتِ ويقولُ لَهم رسولُ رب العزَّة (إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكُمْ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ فَهَلْ رَضِيتُمْ عَنِّي ؟).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يَعلُو وجوهَهم ولا يلحقُها سـوادٌ وهـو كُسـوفُ الوجهِ (وَذِلَّةٌ) أي ولا هَـوَانٌ ولا حَـزَنٌ، ولا يكـون نعيـمُ الجنـة كنعيـمِ الدُّنيـا، ولا يشـوبهُ التنغيصُ ولا التنكيد. والرَّهَقُ في اللغة هو الرُّهُـوقُ ومنـه قولُـهم للصبـيِّ إذا قـاربَ البلوغَ: مُرَاهِقٌ؛ أي قاربَ أن يبلغَ الاحتلامَ. والْقَتَرُ: غَبْرَةٌ فيـها سـوادٌ. وقـرأ الحسـنُ (قَتْرٌ) بإسكانِ التاء، وهما لُغتان. وباقي الآية ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٧٣١٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: بـاب إثبات رؤية المؤمنين: الحديث (٢٩٦/ ١٨٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٣٤٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بمعناه عن ابن عباس في الرقم (١٣٦٧٢)، وعن الحسن في الرقم (١٣٦٧٤).

(٣) القيامة / ٢٢و٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٧١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ؛ معناهُ: والذين أبَوا طاعةَ اللهِ في ما أمَرَهم به ونَهاهُم عنه، يجازيهم اللهُ بما يستحقُّونه على العقوبةِ، ولا يجازيهم بأكثرَ من الاستحقاق، بخلافِ الطاعة فإنه تعالى قد يتفضَّلُ على الْمُطِيعِ بزيادة الأجر، فإنه كان يجوزُ أن يتَّصِلَ ابتداءً بتلك الزيادةِ، والجزاءُ مرفوعٌ بإضمار، كقوله ﴿فَفِدْيَةٌ﴾(١) أي فعَلَيْهِ ذلكَ، ويجوزُ أن يكون مَرفوعاً بالابتداءِ خبرُ (بمِثْلِهَا) أي مثلِ، الباءُ فيه زائدةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ؛ أي يَعْلُوهُمْ كَآبَةٌ وكسُوفٌ وهوانٌ؛ لأن العقابَ لا يكون عقاباً بمجرَّد الألَم، وإنما يكون عِقاباً بما يُقَارِنُهُ بإرادة الإذلال والإهانةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ؛ أي ما لَهم من حافظٍ يدفعُ عنهم عقابَ الله. وقولهُ تعالى (مِنْ عَاصِمٍ) مِنْ هَهُنا صلةٌ.

وقوله: ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ ؛ أي كأنَّما ألبسَتْ وجُوهم قِطَعاً من اللَّيل، أكثرُ القراءةِ على فتحِ الطَّاء وهو جمعُ قِطْعَةٍ، ويكون (مُظْلِماً) على هذهِ القراءة نَصباً على الحال، والقطعُ دونَ النعتِ كأنَّه أرادَ قِطَعاً من الليلِ المظلم، فلما حذفَ الألفَ واللام نُصب على القطعِ. ويجوزُ أن يكون حالاً؛ أي قِطَعاً من الليلِ في حال الظُّلمة.

وقرأ ابنُ كثير والكسائي ويعقوب (قِطْعاً) ساكنةَ الطَّاء؛ أي بَعْضاً كقولهِ تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾(٢) ويكون (مُظْلِماً) نعتاً للقطعِ، وقولهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أهْلِ الشِّرْكِ). وقولهُ: (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بمِثْلِهَا) أي قِصَاصُ الشِّركِ باللهِ النارُ، ليس في النار زيادةٌ على جزاءِ الْمِثْلِ، إذ لا ذنبَ أعظمُ من الشِّرك، ولا عِقابَ أشدُّ من النار، كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾(٣). وقال

(١) البقرة / ١٩٦ .

(٢) الحجر / ٦٥ .

(٣) النبأ / ٢٦ .

ﷺ: [أوْقِدَ عَلَى النَّار الْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أوْقِدَ عَلَيْهَا الْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أوْقِدَ عَلَيْهَا الْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإنَّ لَوْنَهَا أشَدُّ سَوَاداً مِنَ الْقَبْرِ فِي عَيْنَيْنِ خَضْرَاوَيْنِ، وَاهْلُهَا سُودٌ، فَكَذلِكَ طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَو اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ اهْلِهَا عَلَى الأَرْضِ لاَسْوَدَّتْ بهَا الأَرْضُ مِنْ شِدَّةِ سَوَادِهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي يوم نَجْمَعُهم جميعاً من قُبورهم إلى الْمَحْشَرِ للفصْلِ بينهم. ونحْشُرُ في اللغة: جَمْعُ الحيوانِ من كلِّ مكان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ؛ أي نقولُ للذين أشركُوا في عبادتِهم مع اللهِ غيرَهُ، وأشركُوا في أموالِهم كما أخبرَ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿هَذا للهِ بزَعْمِهِمْ وَهَذا لِشُرَكَائِنا﴾[2].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ ؛ أي يقالُ لهم: قِفُوا أنتم وآلهتكم، وهذه كلمةُ تَهديدٍ، كما يقالُ للغيرِ: مَكَانَكَ؛ أي الْزَمْ مكانَكَ حتى تنتظرَ ماذا حلَّ بكَ بسوءِ صَنيعكَ، وحتى نفصِلَ بينكَ وبين خصمِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ففرَّقنا بين الكفار وبين آلهتِهم في القول بالاختلاف الذي يكون بينهم، وليس هذا من الإزالة ولكنه من قولك: أزَلْتُ الشيءَ عن مكانهِ أزِلْهُ أزيلاً، والترسل الكثيرةُ من هذا الباب، والمزايَلَةُ المفارقةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن اللهَ يسألُ الأصنامَ التي عبَدُوها: هل أمرتُم هؤلاءِ بعبادتِكم ؟ فيقولون للذين كانوا يعبدُونها ردّاً عليهم: (مَا كُنْتُمْ إيَّانَا تَعْبُدُونَ) بأمْرِنا ولم نعلَمْ بعبادتِكم، ولم يكن فينا روحٌ فنفعلَ بعبادتِكم، فيقولُ الكفار: بَلَى قد عبدنَاكم، وأمرتُمونا فأطعنَاكم، فتقولُ الأصنام، كما قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي كفَى باللهِ فَاصِلاً للحُكم بيننا وبينكم، ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ لا نعلمُ شيئاً

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٩١) وضعفه، وقال: ((حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلمُ أحداً رفعَهُ غير يحيى بن أبي بكر عن شريك)).

(٢) الأنعام / ١٣٦.

من ذلك. والفائدةُ في اختصار الأصنام أن يُظهرَ اللهُ للمشركين ضَعْفَ معبُودِهم، وليزيدَهم ذلك حسرةً على عبادتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾؛ من قرأ (يَبْلُو) بالياءِ فالمعنى فنخبرُ كلَّ نفسٍ ما قدَّمت من خيرٍ أو شر، ومن قرأ (تَبْلُو) بالتاء فالمعنى تقرأ كل ((نفسٍ)) كتابَ عملِها. ويجوزُ أن يكون معناهُ: تَتَّبعَ كلُّ نفسٍ جزاءَ عملها، و(هُنَالِكَ) من الظُّروف، أصلهُ هُنَاكَ، واللامُ زائدةٌ والكاف للمخاطَبةِ، وكُسِرت اللامُ لسكونِها وسكونِ الألِف.

وقولهُ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي رُدُّوا إلى جزاءِ الله وإلى الموضعِ الذي لا يملكُ الحكمَ فيه أحدٌ إلا اللهَ، والحقُّ هو الذي يكون معنى اللفظِ حاصلاً فيه على الحقيقةِ، واللهُ تعالى حقٌّ لأنَّ الإلهيَّة حاصلةٌ له على الحقيقةِ؛ لاقتدارهِ على جميعِ الأشياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾؛ وبَطَلَ عنهم ما كانوا يختلِقُون من الكذب بالأصنامِ أنَّها آلهةٌ وأنَّها تشفعُ عندَ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي قل لكفَّار مكَّة: مَن يرزُقكم من السَّماء المطرَ؛ و؛ مِنَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾؛ النباتَ والثمار، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ يقدرُ على أن يخلُقَ لكم، ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي مَن يُخرجُ الحيَّ مِن النُّطفةِ، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ أي مَن يخرجُ النطفةَ من الحيِّ، والفرخَ من البيضةِ، والبيضةَ من الفرخِ، والسُّنبلةَ من الحبَّة، والحبةَ من السُّنبلةِ، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أمرَ العبادَ على وجهِ الحكمة، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، فيعرفُون باللهِ تعالى هو الذي يفعلُ هذه الأشياء، وأنَّ الأصنامَ لا تقدرُ على شيءٍ من هذا، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ فقُل لهم يا مُحمَّد: أفلا تخافون من عقاب الله، ولِمَ تعبدون الأصنامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي الذي يرزقكم من السَّماء والأرضِ، ويُخرجُ الحيَّ مِن الميت، ويُخرج الميتَ من الحيِّ، ويدبرُ الأمرَ، وهو ربُّكم الحقُّ دون الأصنامِ الباطلة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾؛ أي فما

يردُّكم عن عبادةِ الله وهو الحقُّ إلى عبادةِ الأصنام الباطلةِ إلا الضَّلالَ، ومِن أين ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ عن الإيمانِ باللهِ وإخلاصِ الطاعة له بعدَ المعرفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي كما وجبَت كلمةُ العذاب فيهم، وجبَ على كلِّ مَن تَمرَّدَ بالكفرِ، وقوله: (أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) يجري مجرَى التَّعليلِ، كأنَّه قالَ بإصرارهم على الكُفرِ؛ لأنه كلما كان تمرُّدهم أكثرَ، كانوا في الكفرِ أشدَّ ضلالةً، وإلا فقد آمَنَ كثيرٌ من الكفار، وقال ابنُ عبَّاس: (وَجَبَتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ عليه السلام).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحمَّد: هل مِن شركائِكم الذين أشركتُم مع اللهِ في العبادة من ينشئُ الخلقَ من النُّطفةِ بعد أنْ لم يكن، ويجعلُ فيه الروحَ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ يُعِيدُهُ) فيه اختصارٌ؛ لأنَّ الإعادةَ ردُّ الشيء إلى الحالةِ الأُولى، ولا يكون ذلك إلا بعد فَناءٍ، فيكون تقديرُ الآية: مَنْ يَبْدَأُ الخلقَ من النطفةِ، ثم يُفْنِيهِ، ثم يعيدهُ في الآخرةِ. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي مِن أين تُصرفُون عن الإيمانِ بالله وإخلاصِ الطاعة له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قل هل مِن آلهتِكم مَن يهتدي إلى الرُّشدِ، وما فيه صلاحٌ لَهم، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ ؛ أي الرَّشَادِ وما فيه صلاحُ الإنسانِ، يقالُ: هُدِيتُ إلى الحقِّ، وهُدِيتُ لِلحقِّ بمعنًى واحد.

وقولهُ تعالَى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ معناهُ: أفمَن يدعو إلى عملِ الحقِّ أحقُّ أن يطاعَ ويُعملَ بأمرِه، أمَّن لا يهتدِي طريقاً إلا أن يُحمل فيُذهبَ به حيث يرادُ، يعني الأصنامَ، كأنه قالَ: إن "الأصنام" التي يعبدونَها مِن دون الله لا تَهتدي بأنفسِها إلا أنْ يهدى بها عند غيرِها[1].

واختلفَ القُرَّاء في قولِه: (أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي)، وأجودُها قراءَتان: (يَهَدِّي) فتح الهاء، و(يَهِدِّي) بكسرِ الهاء، والأصلُ في ذلك يهتَدِي أدغمت التاءُ في الدَّال، وطُرِحَ فتحُها على الهاءِ، وكُسرت الهاءُ لالتقاء السَّاكِنَين.

---

(١) في المخطوط: (إلا أن يهديها عند غيرها).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم في عبادةِ الأوثان؟ فكيفَ تقضون لأنفسِكم، فتعبدُون مَن لا يستحقُّ العبادةَ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ ؛ أي ما يعبدُ أكثرهم الأصنامَ إلاّ تقليداً لآبائِهم وقبائلِهم بظَنٍّ يظنُّونه في غيرِ يقين، يعني أنَّ رؤساءَهم قالت لَهم: إن الأصنامَ تشفعُ لهم عند اللهِ، وأما السَّفلَةُ فلا يعلمون إلا ما قالت رُؤساؤهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ؛ أي إنَّ الظنَّ في موضعٍ يمكن الوقوفُ فيه على العلمِ لا يُغني عن الحقِّ شيئاً؛ لأنه لا يكون ذلك بمنْزلة مَن عرفَ شيئاً باليقين ثم تركَ ما عرفَ بالظنِّ، فإن عِلْمَهُ بالظنِّ لا يُغني عن عملِ الحقِّ شيئاً، وعبادةُ الصَّنم بالظنِّ لا تُغني من عذاب الله شيئاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وعيدٌ لهم على كُفرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ هذا جوابٌ عن دعواهم على النبيِّ ﷺ الافتراءَ على اللهِ وقولهم: إئْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْهُ، معناه: إن القرآنَ كلامُ اللهِ في أعلاَ طبَقاتِ البلاغةِ بحُسنِ النظام، فليس هذا مما يقدر أحدٌ أن يفتريَهُ على اللهِ، ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ ﴾ ؛ الكُتُبَ المنَزَّلة، ﴿ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، من التوراةِ والإنجيل والزَّبُور؛ لِمَجيئهِ شاهداً لها بالصِّدقِ، وبكونه مُصَادقاً بما تضمَّنته تلك الكتبُ من البشارةِ.

ويجوزُ أن يكون معنى التصديق لما (بَيْنَ يَدَيْهِ) أي التصديقُ بما بين يدَي القرآن من البعث والنُّشور والحساب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ ؛ معناه: وتبيينَ المعاني المختلفةِ من الحلال والحرام والأمرِ والنهي، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أيْ لاَ شَكَّ فيه أنه حقٌّ، ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ؛ معناهُ: بل يقولون: إنَّ مُحَمَّداً اختلَقَ هذا القرآنَ من تِلْقَاءِ نفسهِ! قل يا مُحَمَّدُ: إن كان هو اختَلَقَهُ فأْتوا بسورةٍ من مثل ((سُوَر)) القرآن، فإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نشَأ بين أظهُرهم وتعلَّمَ اللغةَ منهم، فإذا لم يَأْتوا مع حرصِهم على تكذيبهِ وإبطالِ أمره، دلَّ أنَّ مِثْلَهُ غيرُ

مقدور للبشرِ. ومعنى الآية: فلو قَدَرَ هو على افتراءِ القرآن لقَدَرتُم أنتم على الإتيـانِ بسُورةٍ مثلِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي استَعِينُوا علـى الإتيان بسورةٍ مثل القرآن بكلِّ مَن قدرتُم عليه، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أن مُحَمَّداً اخْتَلَقَهُ من تلقاءِ نفسه، فَإنَّ الْعَادَةَ لَمْ تَجرِ بـأَنْ يَسْـتَبدَّ إنْسَـانٌ بـالافْتِرَاءِ عَلَـى كَلاَمٍ لاَ يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ.

فلمَّا قرأ عليهم النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ فلم يُجيبوا، فأنزلَ اللهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ؛ أي بل كذبوا بما لم يُدركـوا من كيفيَّة ترتيبِهِ ونظْمِهِ، وما فيه من الجنَّة والنار والبعثِ والقيامة والثواب والعقـاب، ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ ؛ أي ولَم يأْتِهمْ بعدُ حقيقةِ ما وُعِدُوا في الكتـاب مما يَـؤُولُ إليه أمرُهم من العقوبةِ والعذاب على التكذيب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أنبيـاءَهـم مـن البعـثِ، ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ يعـني أنَّ عاقِبَتـهم العــذابُ والهلاك بتكذيبهم، كذلك يكون عاقبةُ هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس: (يَعْنِي وَمِنَ الْيَهُودِ مَنْ يُؤْمِنُ بالقُرْآن فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ فَلاَ يُؤْمِنُ بِهِ)، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ باليـهودِ مَـن يؤمـنُ ومَـن لا يؤمنُ، وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي أهْلِ مَكَّةَ). وَقِيْلَ: في الآيةِ إشارةٌ إلى أنـه لـولاَ أنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ أنَّ منهم مَن سيُؤمِنُ في المستقبلِ لأهلكَهم جميعاً في الحال.

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ ؛ أي إنْ كذبَـكَ قومُكَ في ما أتيتَهم به فقل: لِي جزاءُ عملِي، ولكم جـزاءُ أعمَـالِكم، ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ ﴾ ؛ من جزاءِ عملِي، ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ مـن جـزاءِ أعمَالِكم، وكان هذا القولُ مع النبيِّ ﷺ على جهةِ حُسنِ العِشْرَةِ معهم لا لأنـه كـان

شاكاً في جزاءِ عملهِ وجزاء عملهم، وقال الكلبي ومقاتلُ: (هَذِهِ الآيَـةُ مَنْسُوخَةٌ بآيَـةِ الْجِهَادِ)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ، كَـانُوا يَبْلُغُـونَ مَكَّـةَ فَيَأْتُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَيَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَمِعُونَ قِـرَاءَتَـهُ فَيُعْجِبُـهُمْ ذلِـكَ وَيَشْـتَهُونَهُ؛ ثُـمَّ تَغْلِبُ عَلَيْهِم الشَّقَاوَةَ فَلاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ). والمعنى: ومِنهم مَن يستمعُ إليك وهو في المعنى كأنَّهُ متفكِّرٌ في ما تقولُ وهو غيرُ متفكِّر فيه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ نظرَ مَن هو في الظاهرِ مستمعٌ إلى كلامِكَ، وطَـالبٌ الانتفـاعَ به، وليس في الحقيقةِ كذلكَ، قوله: (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ) أي كمـا لا يقـدرُ أنْ يسـمعَ كلامَكَ الصمُّ، فكذلك لا يقدرُ على أن ينتفع مِنْ كلامِـكَ غـيرَ طـالبِ الانتفـاعَ بـه، وكما أنَّكَ لا تقدرُ على أن تُبْصِرَ العُمْيَ، فكذلك لا تقدرُ على أنْ تنفعَ بما يـأتي مـن الأدلَّة مَن ينظرُ ولا يطلبُ الانتفاعَ بها. وفي الآية ما يدلُّ على تفضيـلِ السَّمعِ على البصر؛ لأنه تعالى ذكَرَ مع الصم فُقدان العقل، ولم يذكر مع العمَى إلا فقدانَ البصرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لا ينقـصُ مـن حسناتِهم، ولا يزيدُ في سيِّئاتِهم ما يمنعهم الانتفـاعَ بكلامـهِ وأدلَّتـهِ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ بأنْ لا يطلُبوا الانتفاعَ به ويُعرِضَوا عن التفكُّرِ فيه، أخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ أن تقديرَ الشَّقاوةِ عليهم لم يكن ظُلماً منـه؛ لأنـه يتصرَّفُ في مُلكـهِ كيف يشاءُ، وهم إذا كسَبُوا المعاصي فقد ظلَمُوا أنفُسَهم؛ لأن الفعـلَ منسـوبٌ إليـهم وإنْ كان القضاءُ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ويوم يجمعُهم في الموقف كـأنْ لم يلبثُـوا في الدُّنيـا إلا قـدرَ سـاعةٍ مـن

---

(١) عن الكلبي ومقاتل وابن زيـد؛ نقلـه القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ٨ ص٣٤٦. وفي جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((وقيل: إن هذه الآية، نسخها الجهاد والأمر بالقتال)).

النَّهار، وفي هذا بيانُ أن الْمُكْثَ في الدُّنيا وإنْ طالَ، كان في جَنْب الآخرةِ بمنْزلة ساعةٍ من النَّهار. قوله تعالى: (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) أي يعرفُ بعضُهم بعضاً، ويكون في معرفةِ بعضِهم لبعضٍ حَسْرَةٌ على مَن ضَلَّ بقيام الحجَّة عليهم.

وقال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ حِينَ يُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ثُمَّ تَنْقَطِعُ الْمَعْرِفَةُ)، وَقِيْلَ: معناهُ: كأنْ لَم يلبَثُوا في قبورهم إلا ساعةً من نهارهم، وقال الضحَّاك: (قَصُرَ عِنْدَهُمْ مِقْدَارُ الْوَقْتِ الَّذِي بَيْنَ مَوتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ، فَصَارَ كَالسَّاعَةِ مِنَ النَّهَار لِهَوْلِ مَا اسْتَقْبَلُوا مِنْ آخِرِ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ، يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ بتَوْبيخِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، يَقُولُ كُلُّ كَافِرٍ لآخَرَ: أنْتَ أضْلَلْتَنِي يَوْمَ كَذا، وَأنْتَ أوْرَثْتَنِي دُخُولَ النَّار بمَا عَلَّمْتَنِي وَزَيَّنْتَهُ لِي). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي غَبنَ الذين كذبوا بالبعثِ بعد الموت بذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ ؛ في الآيةِ وعدٌ مِن الله لنَبيِّهِ ﷺ أن ينتقمَ له منهم، منهُ في حياتهِ أو بعدَ مَماتهِ، قال المفسِّرون: كانت وَقْعَةُ بَدْرٍ مما أراهُ الله في حال حياته مما أوعدَ المشركين من العذاب (أوْ نَتوَفَّيَنَّكَ) قبلَ أن نُريكَ، (فَإلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) بعدَ الموتِ فيجزيَهم بأعمالِهم.

قال الزجَّاج: (أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ إنْ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْهُمْ فِي الْعَاجِلِ انْتَقَمَ مِنْهُمْ فِي الآجِلِ)(١). وقولهُ تعالى: (فَإلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) أي لا يفُوتُوننا ولا يُعجِزُوننا. وعن ابن عبَّاس قال: (نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: إنَّ رَبي أمَرَنِي أنْ لاَ أفَارِقَكَ الْيَوْمَ حَتَّى تَرْضَى، فَهَلْ رَضِيتَ؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ أرَانِي بَعْضَ مَا أوْعَدَهُمْ فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذلِكَ]). وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مِن محاربَتِكَ وتكذيبكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ ؛ أي لكلِّ أمَّةٍ من الأمم رسولٌ يدعُوهم إلى ما أمَرَهم اللهُ به ونَهاهم عنه، ويبشِّرُهم بالجنةِ ويخوِّفُهم بالنار، ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ يومَ القيامةِ شاهدٌ عليهم بأعمالهم ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٠، والمعنى أتم وأوضح.

يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ؛ بالعدلِ فيُوفَّى كلُّ إنسانٍ جزاءَ عمله لا يُنقَصُ من ثواب مُحْسِنٍ، ولا يزادُ على عقاب مُسِيءٍ.

كما رُوي في الخبرِ: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي بكِتَابي فِيْهِ حَلاَلِي وَحَرَامِي؟ فَيَقُولُونَ: مَا أتَانَا رَسُولٌ وَلاَ كِتَابٌ! ثُمَّ يُؤْتَى بالرَّسُولِ الَّذِي أرْسِلَ إلَيْهِمْ فَيَقُولُ: بَلْ يَا رَب قَدْ أبْلَغْتُهُمْ كِتَابَكَ وَرِسَالَتَكَ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: نَحْنُ نَشْهَدُ قَدْ أبْلَغَهُمْ رِسَالَتَكَ وَكِتَابَكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ خَلْقُكَ يَشْهَدُونَ لَكَ بمَا شِئْتَ! فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى ألْسِنَتِهِمْ وَيَأْذنُ لِجَوَارِحِهِمْ فِي الْكَلاَمِ، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ؛ أي يقولُ الكفَّارُ: وَقِّتْ لنا وقتاً بمجيء هذا الوعدِ الذي وَعَدْتَنا به من العذاب إنْ كنتَ من الصَّادقين أنَّ العذابَ ينْزِلُ بنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّدُ: لا أقدِرُ لنفسي على دفعِ ضُرٍّ وجرِّ نفعٍ إلا ما شاءَ اللهُ أن يقدرَ لي عليه، فكيف أقدرُ لكم. ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ ؛ أي وقتٌ مضروب، ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ؛ بعد الأجلِ ولا يتقدَّمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنْ أتاكُم عذابُ الله ليلاً أو نهاراً ما الذي يستعجلُ من العذاب المشركونَ، أي كيف يَصنعون وكيف يقبَلُ منكم إيمانكم وهو إيمانُ الإلجاءِ إذا نزلَ بهم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ ؛ الألِفُ في أوَّل هذه الآيةِ ألِفُ استفهامٍ، ذُكرت على جهةِ الإنكار، والمعنى إذا نزلَ عليكم العذابُ آمَنتُم به؟ قالوا: نَعَمْ، قل لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ ؛ تؤمنون ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ؛

---

(١) سيأتي إن شاء الله في تفسير الآية (٢٠-٢٢) من سورة فصلت.

وهو العذابُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ ، أي يقولون، ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي تعملون في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ ؛ ويَستخبرُونكَ يا مُحمَّدُ: أحقٌّ ما تَعِدُنا من العذاب والبعث بعد الموت؟ ﴿ قُلْ ﴾ ؛ نَعَمْ واحْلِفْ عليه ﴿ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ ؛ إنه صدقٌ وكائن، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ اللهَ عن إحلال العذاب بكم، ويحتملُ أن يكون المرادُ بقوله تعالى (أحَقٌّ) هو دينُ الإسلام ؟ قال الزجَّاج: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (إي ورَبي): نَعَمْ إنَّهُ لَحَقٌّ؛ أيْ إنَّ الْعَذابَ نَازلٌ بكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي لو أنَّ كلَّ إنسان ظالمٍ كان له ما في الأرض جميعاً لافتدَى به من عذاب الله، ثم لا ينفعهُ ذلك ولا يُقبَلُ منه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) أي أسَرَّ القادةُ[1] الندامةَ عن الأتباع حين رأوا العذابَ، والمعنى: أخفَى الرؤساءُ في الكفرِ الندامةَ عن الذين أضَلُّوهم وسَتَروها عنهم، هذا قولُ عامَّة المفسِّرين.

وقال أبو عُبيد: (الإسْرَارُ مِنَ الأَضْدَادِ، يُقَالُ: أسْرَرْتَ الشَّيْءَ إذا أخْفَيْتَهُ، وَأسْرَرْتَهُ إذا أعْلَنْتَهُ) قَالَ: (مِنَ الإعْلاَنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأوا الْعَذابَ) أيْ أظْهَرُوهَا). قِيْلَ: معناهُ: وأخلَصُوا الندامةَ، والإسرارُ الإخلاصُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي قُضِيَ بين الخلائق كلِّهم بالعدل، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ بأنْ لا[2] يُزادَ على عذاب الْمُسيءِ على قدره المستحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على منعهِ من إحلال العقاب بمملوكه، ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ بإحلال العقاب بالْمُجرمين، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

---

(١) في المخطوط: (العادة) وهو تصحيف.

(٢) (لا) سقطت من المخطوط.

قوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ؛ يعنِي قُريشاً، والموعظـةُ القـرآنُ، والمواعَظَـة الـتي تدعـو إلى الصـلاحِ، (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور) أي دواءٌ لذوي الجـهلِ، والقـرآنُ مزيـلٌ للجـهلِ وكاشـفٌ لعَماءِ القلوب، ﴿ وَهُدٗى ﴾ ؛ وبيانٌ من الضَّلالـةِ، ﴿ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ ؛ أي ونِعمَةٌ من اللهِ لأصحاب النبيِّ ﷺ.

ومعنى الْمُوعِظَةُ الإِيَابَةُ بما يدعو إلى الصَّلاحِ بطريق الرَّغبَـةِ والرهبـةِ. ومعنـى الشِّفَاءِ ما يجدهُ مَن يستدلُّ إعجازَ القرآن من الرُّوح بزوال الشِّركِ والتشبيه، وهو شرحُ الصَّدر الذي ذكرَهُ الله بقولهِ: ﴿أفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإسْـلاَمِ فَـهُوَ عَلَـى نُـورٍ مِـنْ رَبهِ﴾[1]. ومعنى (الْهُدَى) بيانُ الشَّرائعِ من الحلال والحرام والفَرضِ والنَّدب والإيابة. وأما الرَّحْمَةُ فهي الإنعامُ على المحتاج بدليلِ أن مَلِكاً لو أهدَى إلى مَلِكٍ لم يكن له منـهُ رحمةٌ عليه، وأما تخصيصُ المؤمنين بالرحمةِ؛ فلأنَّهم همُ الذين ينتفِعون بنِعَمِ الدِّين.

قوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس ومجاهد والحسنُ وقتادة: (فَضْلُ اللهِ الإسْلاَمُ، وَرَحْمَتُهُ الْقُـرْآنُ)[2] وهـذا قـولُ عامَّة المفسِّرين. وعن أبي سعيدِ الخدري قالَ في معنى هذهِ الآية: (فَضْـلُ اللهِ الْقُـرْآنُ، وَرَحْمَتُهُ جَعْلُكُمْ مِنْ أهْلِهِ)[3] والمعنى: قل يا مُحمدُ لأصحابكَ: بالقُرآن الذي أكرمَكَ اللهُ به والإسـلامِ الـذي وفَّقكـم لـه فـافرَحُوا، ﴿ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾ يجمعُ اليهود والمشركون من الأموالِ.

وقرأ بعضُهم (فَلْتَفرَحُوا) و(تَجْمَعُونَ) كِلاهما بالتاءِ المخاطبة. وعن محمَّـد بـن كعبٍ القرظي قال: (إذا عَمِلْتَ عَمَلاً رَجَاءَ ثَوَاب اللهِ فَافْرَحْ، فَإنَّهُ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا يَجْمَعُ أهْلُ الدُّنْيَا).

---

(١) الزمر / ٢٢ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٣٦٩٩) عـن قتـادة، والأثـر (١٣٧٠٠) عـن مجـاهد، والأثر (١٣٧٠٣) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٩٦).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ ؛ أي قُـل يـا محمَّد لأهلِ مكَّةَ: أرأيتُم ما أنزلَ اللهُ لكم في الكتاب من رزقٍ جعلَهُ لكم حَـلالاً طيِّباً مِـن الأنعـامِ والحـرث، ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ ؛ أي جعلتُـم البَحَـائِرَ والسَّوَائِبَ حَلالاً للرِّجالِ منفعةً، وحَراماً على النساءِ، وجعلتُـم لآلهتِكـم مـن الحـرثِ نَصيباً فحرَّمتموهُ على النساءِ، وأحللتمـوهُ للرجـال، واللهُ سـبحانه لم يحـرِّمْ شـيئاً مـن ذلـكَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَـهم يـا مُحَمـدُ: ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ ؛ أمَركـم بتحريمِـهِ، ﴿ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ تختلِقُون الكذبَ، يعني: بَيِّنُوا الحجةَ في ذلـك، وإلاّ فأنتم تَفْتَرُونَ على ربكم.

ثم أوعدَهم على الكذب فقال: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي ما ظَنُّ الذين يَكْذِبُونَ على اللهِ في التحليل والتحريمِ ماذا يفعـلُ بهم يومَ القيامةِ، أتَظنُّون أن اللهَ لا يعاقبُهم على افترائِهم عليه؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي لَذُو مَنٍّ عليهم بتأخيرِ العذاب عنـهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ نِعَمَ اللهِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ؛ أي ومــا تكـونُ في أمـرٍ مـن الأمُور، وقال الحسنُ: (مِنْ شَأْنِ الدُّنْيَا وَحَوَائِجِكَ فِيهَا، وَمَـا تَتْلُـوا مِنْـهُ، أيْ مِـنَ اللهِ نَازلٍ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ يُوحَى إلَيْكَ مِنْ سُورَةٍ أوْ آيَةٍ تَقْرَأ عَلَى أمَّتِكَ).

والخطـابُ للنـبيِّ ﷺ وأمَّتـهُ داخلـون فيـه؛ لأنَّ خطـابَ الرئيسِ خطـابٌ لـه ولأتباعِهِ، يدلُّ على ذلك قولهُ: (وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً) أي مـا تعمَلون أنتم جميعاً يا بَنِي آدمَ عامَّةً ويا أمَّةَ مُحَمَّدٍ من خيرٍ أو شرٍّ، إلاّ كُنَّا على أمركـم وتِلاوَتِكم وعمَلِكم شُهوداً إذ تدخلون فيه. قال الفرَّاءُ: (مَعْنَاهُ يَقُولُ: اللهُ تَعَالَى شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)(١) وَالْمَعْنَى ألاَ يَعْلَمُهُ فَيُجَازيكُمْ بِـهِ. والإفَاضَـةُ الدخـولُ في العمـلِ، وقال ابنُ الأنباريِّ: (إذ تَنْدَفِعُونَ فِيهِ) وقال ابنُ عبَّاس: (إذ تَأْخُذُونَ فِيهِ).

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي ما يغيبُ وما يبعُد، ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ ، من وزن نملةٍ حمراء صغيرةٍ من أعمال العباد، ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ولا أخفُّ من الوزن من الذرَّة، ﴿ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ ، ولا أثقلَ منه، ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ ، إلاّ وهو مع علمِ الله تعالى ومكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ. والعُزُوبُ البُعْدُ والذهابُ، ويَعْزُبُ بضمِّ الزاي وكسرِها لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِثْقَالِ ذرَّةٍ) أي وَزْنَ ذرَّة، ومثقالُ الشيء ما وَازَنَهُ.

قال الفرَّاءُ: (مَنْ نَصَبَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (أَصْغَرَ) و(أَكْبَرَ) فَإِنَّمَا أَرَادَ الْخَفْضَ يُتْبِعْهُمَا الْمِثْقَالَ وَالذرَّة، إلاَّ أنَّهُمَا لاَ يَنْصَرِفَان؛ لأَنَّهُمَا عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَ اتِّبَاعُ مَعْنَى الْمِثْقَالِ؛ لأَنَّكَ لَوْ لَقِيتَ مِنَ الْمِثْقَالِ مَنْ كَانَ رَفْعاً وَهُوَ كَقَوْلِهِ: مَا أتَانِي مِنْ أحَدٍ عَاقِلٍ وَعَاقِلٌ، وَكَذلِكَ: مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِهِ وَغَيْرُهُ)[(١)].

وَقِيْلَ: رُفع على الابتداءِ، وخبرهُ (إلاَّ فِي كِتَابٍ) فمَن قرأ (وَلاَ أصْغَرَ وَلاَ أكْبَرَ) بالنصب فالمعنى: وما يعزبُ عن ربك مِن مثقال ذرَّة، ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبرَ. ومَن رفع فالمعنى: وما يعزبُ عن ربكَ مِثقالُ ذرَّةٍ، ولا أصغرُ ولا أكبر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ معناه: ألا إنَّ أولياءَ الله تولاَّهم اللهُ بحفظهِ وحِيَاطَتِه، لا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ ولا هم يَحْزَنُونَ على ما اختَلَفوا في الدُّنيا، وقولهُ تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ تفسيرُ أولياءِ الله؛ أي الذين يؤمِنون بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، ويتَّقون الشِّركَ والفواحشَ، وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ سُئِلَ عَنْ أوْلِيَاءِ اللهِ فَقَالَ: [هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ][(٢)]، وعنه ﷺ قال: [هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ][(٣)] يعني إذا رآهمُ العامَّة ذُكِرَ من أجل سِيمَاهُم في وجوهِهِم.

---

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٠: تفسير الآية.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٧٢٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٧٢٤) بأسانيد عديدة مرسلة، وأصله في الرقم (١٣٧٢١) عن ابن عباس قال: ((الذين يذكر الله لرؤيتهم)).

وسُئل عيسى عليه السلام عنهم فقال: (هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَنَظَرُواْ إِلَى آجِلِهَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى عَاجِلِهَا، فَأَحْيَوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الْحَيَاةِ، يُحِبُّونَ اللهَ وَيُحِبُّونَ ذِكْرَهُ).

قولهُ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ معناهُ: لَهم البُشرى في الحياةِ بالقرآن، وفي الآخرةِ بالجنَّة. ويقالُ: أرادَ بالبشرى في الدُّنيا بشَارَةَ الملائكةِ ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا...﴾ الآية[١].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ بَعْدِي إلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ] قيل: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ ؟ قَالَ عليه السلام: [الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِنَفْسِهِ][٢] وقرأ له: [وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ، فَمَنْ أُرِيَ ذلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا خلفَ في وعدِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي ذلِكم الذي وعدَكم اللهُ هو الثوابُ الوافِرُ والنجاةُ الوافرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يحزُنكَ يا مُحَمَّدُ تكذيبُهم إيَّاكَ وتهديدُهم لكَ بالقتلِ، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ على كُفرهم وتكذيبهم ونسبَتِهم له إلى الافتراءِ على ربه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؛ استئنافُ كلام، ولذلك كُسرت (إنَّ)، والمعنى: فإنَّ القوةَ لله جميعاً يمنعُهم عنكَ بعزَّتِه، ولا يتعذرُ أحدٌ الا بإذنه وهو ناصِرُكَ وناصرُ دينِكَ، و﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لمقالةِ الكفَّار ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ بضمائرهم. ولا يجوزُ أن يقرأ (أنَّ الْعِزَّةَ) بالنصب لاستحالةِ أن النبيَّ ﷺ كان يحزنهُ قولُ الكفار بأنَّ العزةَ لله جميعاً.

---

(١) فصلت / ٣٠.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٣٠٥١) عن حذيفة بأسانيد. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٧٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني والبزار ورجال الطبراني ثقات)).

(٣) أصله في صحيح البخاري: كتاب الرؤيا: باب رؤيا الصالحين: الحديث (٦٩٨٣)، وباب من رأى النبي ﷺ: الحديث (٦٩٩٤) عن أنس بن مالك. وفي مجمع الزوائد: ج٧ ص١٧٢؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والطبراني ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له مَن فيهما من الخلق على مَن لا يعقلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ؛ أي ما يتَّبعون شركاءَ على الحقيقةِ والمعرفة، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ أي ما يدَّعونهم إلا بالظنِّ بتقليد آبائِهم وقول بعضهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونا إلَى اللهِ زُلْفَى﴾[1] ويظنُّون أنَّها تشفعُ لهم يومَ القيامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي ما هُم إلا يكذِبون في قولِهم إنَّها تشفعُ لهم عند اللهِ.

قولُهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي هو الذي جعلَ لكم الليلَ لتنَامُوا فيه وتستريحوا عمّا لَحِقَكم من النَّصَب بالنهار، وخلقَ النهار مُضيئاً للذهاب والمجيء وطلب المعيشةِ، وسَمَّاهُ مُبصراً؛ لأنه يُبصر فيه كما قال رُؤبة: (قَدْ نَامَ لَيْلِي، وَتَجَلَّى هَمِّي). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أي في ذلك[2] للدلالاتِ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ دلائلَ الله، ويتفكّرون فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ؛ أي قال الكفارُ: اتَّخذ اللهُ وَلَداً، فإن المشركين قالُوا: الملائكة بناتُ الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابن الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أي تَنْزيهاً له عن الولدِ، والشَّريكِ، ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ، هو غنيٌّ عن اتخاذِ الولد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ مَن كان له مُلْكُ السَّموات والأرضِ وما بينهما، فما حاجتهُ الى اتِّخاذ الولدِ ؟! وإنما يتخذُ الولدَ ذو الضَّعْفِ ليتقوَّى به، ويستعينَ به على بعضِ اُمُورِه، وذو الوَحشَةِ ليستأنسَ به، ومَن يخافُ الموتَ على نفسهِ، فيتَّخذُ الولدَ ليخلُفَهُ في أملاكهِ بعد موته، والله تعالى

(١) الزمر / ٣.

(٢) في المخطوط: (ذكرك).

لا يجوز عليه السُّرور ولا المنافعُ والمصارف[1]، ولا يلحقهُ الموت، فهو غَنِيٌّ عن اتخاذِ الولد.

ثم طالبَ الكفارَ بالحجَّة والبرهان، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ ؛ أي ما عندكم من حجَّةٍ وبرهان على هذا القول، ثم أنكرَ عليهم ذلك تَبْكِيتاً لهم فقال تعالى: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ وهذا على حجَّة الإنكار والردِّ عليهم؛ أي لِمَ تقولون على اللهِ ما لاَ علمَ لكم به ولا حجَّةَ لكم عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي قُل يا مُحَمَّد إن الذين يختلقون كَذِباً؛ يكذِبُون به على اللهِ تعالى لا يُفلِحُونَ في الدُّنيا بالحجَّة ولا بالآخرةِ في الثواب، ولا يسعَدون في العاقبةِ وإن اغترُّوا بطول السَّلامة[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ رُفع على معنى ذلكَ متاعٌ في الدُّنيا يتمتَّعون به قليلاً ثم ينقضِي. وَقِيْلَ: لهم متاعٌ في الدُّنيا يتمتَّعون به أيَّاماً يسيرةً، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ ؛ الغليظَ الذي لا ينقطعُ، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ، أي بكفرِهم باللهِ ورسولهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ؛ أي إقرَأ عليهم خبرَ نوح، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ ؛ ثَقُلَ عليكم وعظُمَ، ﴿ مَّقَامِى ﴾ ، ومُكثِي فيكم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ ؛ وعظِي لكم ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ به وَثِقْتُ واليه فوَّضتُ أمْري، وذلك حين قالُوا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي اعزمُوا على أمركم مع شركائِكم. وَقِيْلَ: معناهُ: فاعزمُوا على أمركم، وادعُوا لآلِهتِكم واستَعِينوا بهم، واجْمِعُوا على أمرٍ واحد. ومَن قرأ (فَاجْمَعُوا) بنصب الميم فهو من الْجَمْعِ.

---

(١) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط بوضوح، ولعلها (والمضارُّ). والله أعلم.

(٢) في المخطوط رسمها الناسخ من غير نقط: (واعروا بطور السلامة).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ ؛ أي يكُن أمرُكم عليكم ظاهِراً مُنكَشفاً لا يسترهُ شيء. والغُمَّةُ مأخوذةٌ من الغَمامَةِ، ويقالُ: الغُمَّةُ الغَمُّ؛ أي لا يكون أمرُكم غمّاً عليكم وفرِّجوا عـن أنفسكم، ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي امْضُوا بما تقصِدُون من القتلِ ولا تُمهلُون.

قال الزجَّاجُ: (الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ (وَشُـرَكَاءكُمْ) بِمَعْنَـى مَـعَ)[1] والمعنـى فـاجْمِعوا أمرَكم مع شركائِكم ثم لا يكون أمرُكم عليكم مبهماً، يعني ليكن أمركم ظـاهراً منكشـفاً لا تسترون معاداتي، ثُمَّ امضُوا إلَيَّ بمكرُوهِكم وما توعدونني به. معنى قضـاءِ الشـيء امضاؤهُ والفراغُ منه، وهذا أحدُ معجزاتِ نوحٍ ؑ؛ لأنـه كـان وَحيـداً، وقـد قرَعَـهم بالعجزِ عن الوصولِ اليه وإلى قتلِهِ، فلم يقدِرُوا عليه بسُوءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ معنـاهُ: فـإنْ أعرَضتُـم عن الإيمانِ بما جئتكم به لم يضُرّني إعراضُكم، فإنّي لا أطلبُ منكم أجراً ولا أدعُوكم إلى الإيمان لمطمعٍ مني في مالِكم، وما دعاني فيما أدعوكم عليه إلا الإيمان بـالله، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ ﴾ ؛ أي وقـد أمرَنـي، ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ ﴾ ؛ أي مـع؛ ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ على دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ ؛ أي فنجَّيناهُ ومَن معه من المؤمنين من الغرَقِ في السفينةِ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ ؛ أي جعـلَ اللهُ الذيـن نَجَوا مع نوحٍ ؑ من الغرَق خَلفاً ومَكاناً في الأرضِ مِن قومٍ أهلِكـوا بالتكذيـب، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[2] وذلك أنَّ الناسَ كـانوا مـن ذرِّيتـه بعد الغرقِ، وهَلَكَ أهلُ الأرضِ جميعاً بتكذيبِهم لنوحٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي بدلالَتـها حسّـاً، ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ، ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي كيف صـارَ آخِرُ أمرِ الذين أنذرَتْهم الرسلُ فلم يؤمنوا، وهذا تَهديدٌ لقومِ النبيِّ ﷺ عـن تكذيبـهِ

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٣.

(٢) الصافات / ٧٧ .

حتى لا يَنْزِلَ بهم مثل ما نزلَ بقومِ نوحٍ، وتسليةٌ للنبيِّ ﷺ ليصبرَ على أذاهُم كما صبرَ نوحُ عليه السلام على أذى الكفَّار مع قلَّة مَن معه من المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ ؛ أي ثم بعثنا مِن بعدِ نوحٍ رسُلاً مثلَ هودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشُعيبٍ وغيرهم إلى قومِهم، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ بالْحُجَجِ والبراهينَ، ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ ؛ ليُصدِّقوا، ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ في الابتداءِ، والمعنى: فما كان الذين بُعِثَ إليهم الرسلُ ليُؤمِنوا بما كذبوا، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ يعني قومَ نُوحٍ عليه السلام؛ أي لَمْ يصدِّقوا به، كما كذبَ قومُ نوحٍ، وكانوا مِثلَهم في الكفرِ والعنفِ. قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَعْمَاهَا فَلاَ يُبْصِرُونَ سَبِيلَ الْهُدَى). وما بعدها من الآيات:

ظاهر التفسير ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ ؛ أي قالوا لموسى عليه السلام: أجِئتَنا لتَصرفَنا عما وجَدنا عليه آباءَنا، واللَّفْتُ هو الصَّرْفُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ويكون لك ولِهارون السلطانُ والْمُلْكُ والشرف في أرضِ مصرَ، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨ ﴾ ؛ أي بمصدِّقين. وإنما سَمَّى الْمُلْكَ كبرياءً؛ لأنه أكبَرُ ما يطلبُ من أمرِ الدُّنيا، والكبرياءُ استحقاق صفة الكِبْرِ في أعلَى المراتب، فلهذا لا يجوزُ أن يوصفَ به أحدٌ غيرُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ ﴾ ؛ أي بكلِّ حاذقٍ بالسِّحرِ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ ﴾ قالَ هذا لَهم على وجهِ التعجيزِ لَهم، إنَّكم لا تقدِرون على إبطالِ أمْرِي، فيكون هذا

أمرُ تعجيزٍ كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾(١) ولا يجوزُ أنْ يكون هذا أمراً بالسِّحر، إذ عملُ السحرِ كفرٌ، والأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يأمُرونَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ ﴾ ؛ معناهُ: فلما ألقَتِ السَّحَرَةُ ما جاؤُا به، قال لهم موسى: الذي جِئتُم به السحرُ والخداع؛ أي الذي جئتم به سِحْرٌ. ووقفَ بعض القرَّاء على (مَا جِئْتُمْ) ثم قال: (السِّحْرُ) على معنى: أيُّ شيءٍ جئتُم بهِ أهُوَ السحرُ؟ على جهةِ التوبيخ لهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ ﴾ ؛ أي يُبْطِلُ عملَ السَّحرة حتى يُظهرَ الحقُّ من الباطلِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٨١) ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَ السَّاحِرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٨٢) ﴾ ؛ أي ينصرُ دينَهُ الحقّ بالوعدِ الذي وعدَهُ لموسى كما قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾(٢) الى آخرِ الآية. ويجوزُ أن يكون معنى الكلمات: ما كتبَهُ اللهُ تعالى في اللوحِ المحفوظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ ﴾ ؛ أي ما صدَّقَ بموسى وبما جاءَ به إلا ذريَّته من قومِ فرعون، وهم قومٌ كان آباؤهم من القِبْطِ وأمَّهاتُهم من بني إسرائيل، فآمَنوا بموسى واتَّبعُوا أمَّهاتهم وأخوالَهم، ولم يُسلِمْ آباؤُهم الذي كان موسى عليه السلام مبعوثاً اليهم.

وقال الحسنُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ تَعَالَى (إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) كَانَ فِرْعَوْنُ أجْبَرَهُمْ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أصْحَابِ نَفْسِهِ، فَلَمَّا أسْلَمَتِ السَّحَرَةُ وَآمَنُوا بمُوسَى اتَّبَعَهُمْ هَؤُلاَءِ الذُّرِّيَّةُ فِي الإيْمَانِ). وكان يقولُ: (لَمْ يُؤْمِنْ مِنَ الْقِبْطِ أحَدٌ إلاَّ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَكْتُمُ إيْمَانَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ).

قولهُ: (عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ) معناهُ على القول الأول: آمَنت به ذريَّتهُ على خوفٍ من فرعون وآبائِهم وقومِهم. وعلى القول الثاني: على خوفٍ من

---

(١) البقرة / ٢٣ .

(٢) القصص / ٣٥ .

فرعون وأشرَافِهم ورُؤسائهم أن يعلـمَ الأشـرافُ أمرَهـم فيُخـبروا فرعـونَ فيقتُلَـهم ويعذبَهم أو يصرفَهم عن دينهم. وقـال الزجَّـاج: (إنَّمَـا قَـالَ (فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِمْ) لأنَّ فِرْعَوْنَ ذا أصْحَابٍ يَأْتَمِرُونَ بهِ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لَمُسْـتَكبرٌ في أرضِ مصـر، ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ ؛ في الكفـر والمعـاصي، والإسـرافُ: هـو التجاوزُ عن الحدِّ في كلِّ شيءٍ. وعن محمَّد بن المنكدر قالَ: (عَـاشَ فِرْعَـوْنُ ثَلاَثَمِائَـةً وَاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً لَمْ يَرَ مَكْرُوهاً، وَدَعَا مُوسَى عليه السلام ثَلاَثِينَ سَنَةً).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ ؛ أي قالَ موسى لبنِي إسرائيل: يا قومِي إنْ كُنتم صدَّقتُم باللهِ كما تقولون فأسْنِدُوا أمُورَكم إليـه، ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ ، إنْ كنتـم مُخلصـين مُستَسـلِمين لأوامــرِه، وذلك حينَ قالوا لِمُوسى: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1]. وَقِيـلَ: إنَّ موسى خاطبَ بالخطاب المذكور في هذه الآيـة الذريَّـة الـتي آمَنـت علـى خـوفٍ مـن فرعون وملئِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ؛ أي قالَ موسى أسْنَدْنَا أمورَنا إلى اللهِ ووثِقْنَا به، ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ ؛ أي لا تُظْـهِرْهُم علينا فيَظُنُّوا أنَّهم على الحقِّ، فيكون ذلك فتنةً لهم ولغيرهم. ويقال: يعني لا يمكِنُهم أن يُنْزِلُوا بنا أمراً لا نطيقُ الصبرَ عليه فننصرفَ بـه عـن الدِّيـن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ ؛ أي خَلِّصْنَا بطَاعتِكَ من استعبادِهم إيَّانــا، فاستجابَ اللهُ دعاءَهم كما ذكرَ من بعدُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعونَ لَمَّا أتاهُ موسَى بالرسالةِ أمرَ بمسَـاجدِ بـني إسـرائيل فكُسِّـرت كلُّـها وخُرِّبت، ومنعُوهم من الصَّـلاةِ علانيـةً، فـأنزلَ الله هـذه الآيـةَ، وأمِـرُوا أن يتَّخِـذُوا

(١) الأعراف / ١٢٩.

مساجدَ في بُيوتِهم ويصلُّون فيها خَوفاً من فرعون. والمعنى: وأوحَينا إليهما أن اتَّخِـذا لقومِكما بمصْرَ بيُوتاً، يقال: بَوَّأَهُ إذا عدَّ لغيرِهِ بَيتاً، وتبوَّأ إذا اتخذ لنفسهِ بيتاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ ﴾ ؛ أي اجعلُوهـا مُصَلَّـى، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ ﴾ ، فصلُّوا فيها مُستَتِرين مِـن فرعـون وقومـهِ. وَقِيـلَ: معناهُ: واجعلوا بُيوتَكم مساجدَ. وقال الحسنُ: (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ وَجِبَالِ الْكَعْبَـةِ) قال: (وَكَانَتِ الْكَعْبَةُ قِبْلَةَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[١].

وَقِيلَ: إنَّما لم يذكرِ اللهُ الزكاةَ في هذه الآيةِ؛ لأن فرعونَ قـد استعبَدَهم وأخـذ أموالَهم فلم يكن لهم ما يجبُ الزكاة فيـهِ. قولـه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي وبشِّرهُم بالثواب في الآخرة، وبالنَّصرِ في الدُّنيا آجِلاً وعاجلاً.

قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ أي قالَ موسى: إنكَ أعطيتَ فرعـونَ ومـلأهُ زينـةً؛ أي زهـرةً مـن المركَب والْحِلِيِّ والثياب، وأموالاً كثيرةً مـن الدراهـم والدنانـير والعُـروض. قولـهُ: ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ ﴾ ؛ أي ربَّنا أعطيتَهم الزينةَ والأمـوالَ ليكـون عاقبـةُ أمرهم أن يُضِلُّوا عن سـبيلِكَ فـلا يُؤمِنـوا، وهـذه الـلامُ لامُ العاقبـة كمـا في قولـه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[٢].

قولهُ: ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ ؛ معنى الطَّمْسِ على الأموالِ تغييرُهـا عن جِهَتِها إلى جهةٍ لا ينتفعُ بها، وحقيقةُ الطَّمْسِ ذهابُ الشـيءِ عـن صُورتـهِ بمَحْـقِ الأثر. قال مجاهد وقتادة: (فَغَيَّرَ اللهُ أمْوَالَ فِرْعَوْنَ حَتَّى صَارَتْ دَرَاهِمُـهُمْ وَدَنَانِـيرُهُمْ حِجَارَةً أنْصَافاً وَأثْلاَثاً وَأرْبَاعاً، وَكَذلِكَ سَائِرُ أمْوَالِهِمْ حَتَّـى السُّـكَّرَ وَالْفَوَاكِـهَ). قـال قتادةُ: (بَلَغَنَا أنَّ حُرُوثاً لَهُمْ صَارَتْ حِجَارَةً)[٣]. وقال عطاء: (لَمْ يَبْقَ لَـهُمْ مَعْـدِنٌ إلاَّ طَمَسَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أحَدٌ).

---

(١) الأقوال في هذا الباب نقلها الطبري في جامع البيان عن ابن عبـاس في الأثـر (١٣٧٧٩)، وعـن مجاهد في الأثر (١٣٧٨٣). (٢) القصص / ٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٧٩٣).

قولهُ: ﴿ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ ؛ معناه: واربطْ على قلوبهم بالصبرِ حتى لا يتحوَّلوا عن بلادِهم إلى بلاد الخصب فيبقون في هذهِ العقوبة أبداً. وَقِيْلَ: معناهُ: امنَعهُم عن الإيمان بكَ، والمعنى اطْبعْ عليها حتى لا تَلِينَ ولا تشرحَ الايمان. قولهُ: ﴿ فَلَا يُؤۡمِنُواْ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ والفراء: (هَذا دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ أيْضاً)[1]، والتأويلُ فلا آمنوا، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ يعني الغرقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا ﴾ ؛ أي قَالَ اللهُ تَعَالَى لموسى وهرون: قد أجبتُ دعوتَكما، وذلك أنَّ موسى كان يدعُو بالدُّعاء المذكور في الآية، وكان هرون يُؤَمِّنُ على دُعائهِ، فسمَّاها اللهُ دَاعِينَ، قوله (فاسْتَقِيمَا) أي فاستقيما في دُعاءِ الناسِ إلى الإيمان، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ لأن سبيلَهم كان الغيِّ والضلالَ، وخفَّفَ ابنُ عبَّاس (تَتْبَعَانِ) من تَبعَ يَتْبَعُ، والنون الشديدةُ إنما دخلت مؤكِّدةً للنهي.

قولهُ: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ ؛ يعني بحرَ الْقُلْزمِ وهو بقُرب نيلِ مصرَ، جعلَهُ الله لهم يُبساً حتى جاوزوهُ، ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا ﴾ ؛ ليبغُوا عليهم، ﴿ وَعَدۡوًا ﴾ ، ويظلِمُوهم. قولهُ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ ؛ حتى إذا ألجمَ فرعونَ الغرقُ من إيمان الإنجاء فلم ينفعْهُ ذلك، فلما، ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ قال له جبريلُ: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ ؛ أي تؤمنُ عند الغرق، ﴿ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ بالكفرِ والمعاصي في وقتِ الْمُهْلَةِ.

رُوي عن ابنِ عباس: (أنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ رَأيْتَنِي وَفِرْعَوْنُ يَدْعُو بكَلِمَةِ الإخْلاَصِ وَأنَا أدُسُّهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ لِشِدَّةِ غَضَبي عَلَيْهِ مَخَافَةَ أنْ يَتُوبَ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [يَا جِبْرِيلُ وَمَا شِدَّةُ غَضَبكَ؟] قَالَ: يَا مُحَمَّدُ لِقَوْلِهِ أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى وَهِيَ كَلِمَتُهُ الأَخِيرَةُ، وَإنَّمَا قَالَهَا حِينَ انْتَهَى إلَى الْبَحْرِ، وَكَلِمَتُهُ

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٧. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٦.

الأُولَى: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي، وَكَانَ بَيْنَ الأُولَى وَالأُخْرَى أرْبَعِينَ سَنَةً)[1].

وهذه الروايةُ صحيحةٌ إلاَّ قولهُ: (مَخَافَةَ أنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ) لأنه لا يخلو إما أن يكون التكليفُ ثابتاً في ذلكَ الوقتِ أو غيرَ ثابتٍ، فإنْ كان ثابتاً لم يَجُزْ على جبريل عليه السلام أنْ يَمنَعَهُ من التوبةِ، ولو منعَهُ من التكلُّم باللسانِ لكانت ندامةُ فرعون بالقلب كافيةً في توبته؛ لأن الأخرسَ إذا تابَ بالندمِ بقلبهِ وعزَمَ على تركِ المعاودةِ إلى القبيح كانت توبتهُ صحيحةً.

وإنْ لم يكن التكليفُ ثابتاً في ذلك الوقتِ لم يكن للمنعِ عن التوبة معنى بوجهٍ من الوجُوهِ، وإنما لا يُقْبَلُ الإيمانُ في وقتِ الإلجاءِ؛ لأنَّ الذي يؤمِنُ في تلكَ الحالةِ يعلمُ أنه لو حاولَ خلافَ ما يُؤمَرُ به حِيلَ بينه وبينه، فلا يكون مُثاباً بإعلاءِ ذلك الإيمان معرفته من طريق الضرورةِ دون الاجتهاد.

قولُه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ ؛ أي فاليومَ نُلقِيكَ على نَجْوَةٍ من الأرضِ، وهي المكانُ المرتفع؛ أي ببَدَنِكَ أي بدِرْعِكَ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ فِرْعَوْنُ قَصِيراً طُولُهُ سِتَّةُ أشْبَارٍ، وَكَانَتْ لِحْيَتُهُ قَرِيباً مِنْ قَامَتِهِ، وَكَانَتْ لَهُ دِرْعٌ سَلاَسِلُهَا مِنْ ذهَبٍ يَعْرِفُهَا جَمِيعُ بَنِي إسْرَائِيلَ، فَسَألَتْ مُوسَى بَنُو إسْرَائِيلَ فَدَعَا اللهَ فَأخْرَجَهُ ببَدَنِهِ حَتَّى وَارَاهُ، وَعَرَفُوا الدِّرْعَ فَطَابَتْ أنْفُسُهُمْ بِتِلْكَ).

ويقال: كان في بَنِي إسرائيل من لا يصدِّقُ بهلاك فرعون، ولذلك سألَ موسى عليه السلام أن يُلقِيَهُ اللهُ على نَجْوَةٍ من الأرضِ ببدنهِ؛ أي وحدَهُ دون قومهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: نُنجِيكَ من الماءِ ببدنك دون رُوحِكَ، فأما روحُكَ فتُعذبُ على كلِّ حال. قولُه: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ ؛ أي لِمَن بعدكَ من الكفَّار آيةً في النَّكَال، لئَلاَّ تقول لأحدٍ بعدَكَ مثلَ مقالَتِكَ، وتعرفوا أنَّكَ لو كُنتَ إلهاً ما غَرِقْتَ. قولُه: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ يعني لغافِلُون عن التفكُّرِ في دلائِلنا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان مختصراً وبألفاظ في الرقم (١٣٨١٦ و١٣٨١٨) عن ابن عباس، و(١٣٨١٧) عن أبي هريرة. وأخرجه الترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣١٠٨) وحسنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ ؛ أي ولقد أنزلنا بني إسرائيلَ في موضعِ خَصْبٍ وأمْنٍ، وهي أرضُ مصرَ ما بين أردن وفلسطين، ويقال: هي الأرضُ المقدَّسة التي وَرثوها من أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، وسَمَّاها مَنْزِلَ صِدْقٍ؛ لأن فَضْلَها على سائرِ المنازل كفضْلِ الصِّدق على الكذب. وَقِيلَ: هم بنُو قريظةَ والنضير أنزلناهم مبوَّأ صِدْقٍ بين المدينة والشَّامِ من أرضِ يثربَ. ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي من النَّخلِ وما فيها من الرُّطَب والتمرِ.

قولهُ: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ ؛ معناهُ أنَّهم لم يزالوا مُؤمنين بمُحَمَّدٍ ﷺ يجدونَهُ مكتوباً عندَهم في التوراةِ والإنجيل لم يختلفوا في ذلك، بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ فآمَنَ به بعضُهم وكفرَ به بعضهم.

ومعنى الآيةِ: ما اختلَفُوا في تصديق النبيِّ ﷺ وإنه نبيٌّ حتى جاءَهم العلمُ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ)، وقال الفرَّاء: (الْعِلْمُ مُحَمَّدٌ ﷺ)(١) لأَنَّهُ كَانَ مَعْلُوماً عِنْدَهُمْ بنَعْتِهِ، وَذلِكَ أنْ لَمَّا جَاءَهُمُ اخْتَلَفُوا فِيْهِ وَفِي تَصْدِيقِهِ فَكَفَرَ بِهِ أكْثَرُهُمْ).

قولهُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، بتمييزِ الْمُحِقِّ من الْمُبْطِلِ، ويُجازي كُلاً منهم بما يستحقُّه، ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فيُدخِلُ المصدِّقين بكَ الجنةَ، ويُدخِلُ المكذِّبين النارَ.

قولهُ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ قال أكثرُ أهلِ العلم: هذا خطابٌ لرسول الله ﷺ والمرادُ به غيرهُ من الشُّكَّاكِ، ومثل ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾(٢) الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرهُ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٣)، ولم يقل بما تعملُ، قال الزجَّاج: (إنَّ اللهَ يُخَاطِبُ النَّبِيَّ ﷺ وَذلِكَ

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٨؛ قال الفراء: (و﴿الْعِلْمُ﴾ يعني محمداً ﷺ وصفته).
(٢) الأحزاب / ١ .
(٣) النساء / ٩٤ .

الْخِطَابُ شَامِلٌ لِلْخَلْقِ، فالمعنى: فإن كنتم في شكٍّ فاسألُوا)(١).

وقال ابنُ عبَّاس: (لَمْ يُردْ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي اللهِ وَلاَ فِي مَا أُوْحَى إِلَيْهِ، لَكِنْ أَرَادَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ فِي أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا لِئَلاَّ يُنَافِقُوا كَمَا شَكَّ الْمُنَافِقُونَ). وعن ابن عبَّاس أنه قالَ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَجِيءُ إِلَى مُحَمَّدٍ مَا يُلْقِيهِ الشَّيَاطِينُ إِلَيْهِ! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وَأَرَادَ بِالَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَخْبِرُونَكَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لاَ أَسْأَلُ أَحَداً وَلاَ أَشُكُّ فِيْهِ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ](٢) وكان النبيُّ ﷺ أعلمَ باللهِ تعالى وأشدَّ يقيناً من أنْ يسألَهم، وإنَّما التقديرُ: فإن كنتَ في شكٍّ أيُّها السامعُ مما أنزلنا على نبيِّكَ. ومِن عادةِ العرب أنَّهم يُخاطِبون الرجلَ بشيءٍ يريدون به غيرَهُ كما قالوا: إيَّاكِ أعْنِي واسمعي يا جارةُ.

وكانت الناسُ على عهدِ النبيِّ ﷺ ثلاثَ مراتب: مؤمنٌ؛ وكافر؛ وشاكٌّ، فخاطبَ اللهُ بهذه الآية الشاكَّ أمَرَهُ بسُؤال الذين يقرءُون الكتابَ من قَبْلِهِ عن النبيِّ ﷺ المبَشَّر به حتى إذا وافقت صفتهُ في الكتاب المنَزَّل له قبلَ القرآن صفةَ النبيِّ ﷺ على الشَّاكِّ هو المبشَّر به.

قولُه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي الشَّاكِّين في الحقِّ، وما في الآيةِ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ معناهُ: إن الذين أخبرَ اللهُ عنهم أنَّهم لا يؤمنون، ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ فيصيرون مُلجَئِين إلى الإيمانِ، فلم يُقبلْ منهم الإيمانُ حينئذٍ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٧.

(٢) في الدر المنثور: ج ٤ ص٣٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤١).

قولـهُ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ ؛ أي هـلاَّ كـانت قريـةٌ آمَنت عندَ نزول العـذاب فنفعَـها إيمانُـها وقُبـلَ منـهم، ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ ﴾ ؛ لَمَّا آمنوا وعَلِمَ اللهُ منهم الصدقَ صرفَ عنهم عذابَ الهونِ، ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ آجالِهم المضروبةِ لهم.

وعن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيْمَانُـهَا إلاَّ قَـوْمَ يُونُسَ))[١] والْمَعْنَى: لَمْ أفْعَلْ هَذا بأُمَّةٍ قَطُّ إلاَّ قَـوْمَ يُونُـسَ لَمَّـا آمَنُـوا كَشَـفْنَا عَنْـهُمْ، فَتَكُونُ (لَوْلاَ) مَعْنَاهَا النَّفْيُ. وقال قتادةُ: (لَمْ يَكُنْ هَذا مَعْرُوفاً لأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ كَفَرَتْ، ثُمَّ آمَنَتْ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذاب فَكُشِفَ عَنْهُمْ إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ كُشِفَ عَنْهُمُ الْعَذابُ بَعْدَ أنْ تَدَلَّى عَلَيْهِمْ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ) آجالِهم، وذلكَ: أن يونُسَ عليه السلام بعثَهُ اللهُ إلى قومِهِ، فدعاهم إلى طاعةِ الله وتركِ الكُفرِ فأبَوا، قالَ: رَب فَدَعَوْتُهُمْ فأبَوا، فـأوحَى اللهُ إليه: أن ادْعُوهُمْ فَإنْ أجَابُوكَ، وَإلاَّ فَأعْلِمْـهُمْ بـأنَّ الْـعَذابَ يَأْتِيـهِمْ إلَـى ثَلاَثَـةِ أيَّـامٍ. فدعاهُم فلم يُجيبوا، فأخبرَهم بالعذاب وخرجَ مِن بينهم، فقالُوا: ما جَرَّبْنَا عليه كَذِبـاً مُذْ كانَ، فاحتَالُوا لأنفُسِكم.

فلمَّا كان اليومُ الثالث رَأوا حُمْرَةً وسَوَاداً من السَّـماء كهيئـةِ النـار والدُّخـان، فجعلوا يطلُبُون يونُسَ فلم يجدوا، فلما يَئِسُوا من يونُسَ وجعل يحطُّ السوادُ والحمرة، فقال قائلٌ منهم: فإنْ لم تَجِدُوا يونسَ فإنَّكم تجدوا ربَّ يونس، فادعوهُ وتضرَّعُوا إليه.

فخرَجُوا إلى الصحراءِ، وأخرَجُوا النسـاءَ والصبيـان والبـهائمَ، وعَجُّـوا إلى اللهِ مُؤمِنين به، وارتفعتِ الأصواتُ، وقرُبَتْ منهم الحمرةُ والدُّخان حتـى غَشِـيَ السـوادُ سُطوحَهم وبلَغَهم حرُّ النار، فلما عَلِمَ اللهُ منهم صدقَ التوبةِ رفعَ عنهم العذابَ بعـد ما كان غَشِيَهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤٤).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤٥) مطولاً.

قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي لو شاء ربُّك يا مُحَمَّدُ لآمَنَ أهلُ الأرضِ كلُّهم. وَقِيْلَ: معناهُ: لو شاءَ ربُّكَ لأن يُجبرَ النـاسَ على الإيمانِ لآمَنَ مَن في الأرضِ كلهم جميعاً، كما آمَنَ قومُ يونس.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفأنتَ تريدُ إكراهَ الناسِ على الإيمانِ إن لم يُردِ اللهُ إكراهَهم عليهِ مع أنه قادرٌ على إكراهِهم عليه، فلا ينبغِي لكَ أن تريدَ هذا، وأنت غيرُ قادرٍ على إكراهِهم عليه. وَقِيْلَ في سبب نزولِ هذه الآية: أنَّ النبي ﷺ كان حَريصاً على أنْ يُسلِمَ عمُّه أبو طالبٍ وقومه، فأعلمَهُ اللهُ بهذه الآيةِ أنَّ إسلامَهم ليس بيدهِ.

قولـه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بتوفيقـهِ، ويقال: إلا بأمره وقد أمـرَ اللهُ الكـلَّ بالإيمـان، وَقِيـلَ: معنـاهُ: إلا بتمكـينِ الله. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (السُّخْطَ)[1]، قال أبو الحسنِ: (الْعَذابَ عَلَى الَّذِيـنَ لاَ يَعْقِلُـونَ) أي على الذيـن لا ينتَفِعون بعقولِهم، وقال الحسنُ: (يحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالْكُفْرِ وَيَذُمُّهُمْ عَلَيْهِ).

قولـهُ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُـل لهـم يـا مُحَمَّـدُ تفكَّروا فيما في السمواتِ والأرض من الآياتِ والدَّلالاتِ نحو مَسيرِ الشمسِ والقمرِ والنُّجومِ في مَجَاريها في أوقاتٍ معلومة على الدَّوام، ووقوفِ السَّماء بغيرِ عَمَدٍ ولا علاقةٍ، وخروجِ النِّتاجِ من الأُمَّهات، وانظروا إلى الجبال والشَّجر وغيرِ ذلك، وكلُّ هذا يقتضي مُدَبرَ الأمر يُشبهُ الأشياءَ ولا تشبهه، ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ . ثم قالَ حين لم يتفكَّروا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ معناهُ: ما تنفعُ الآياتُ، ولا تدفعُ عمَّن سبقَ في علمِ الله أنه لا يؤمنُ، فهل ينظرون إلا أن يصيبَهم مثل ما أصابَ الأُمَمَ قبلَهم من العذاب، يقال: أيَّام فلان؛ ويـرادُ بـه أيام

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٥٨).

دولته ومحنتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي انتظِروا حلولَ العذاب الذي أوعدَكم به ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ، لذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ معناهُ: ثم نُنجِّي رسُلَنا والمؤمنين من العذاب الذي يحلُّ بالكفَّار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي كما نُنجِي الرسُلَ من العذاب كان علينا أن ننجِي المؤمنين كلهم من العذاب الذي ينْزِلُ بالكفار.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قُل لَهم: يا أهلَ مكَّة إنْ كُنتم في شكٍّ من دِيني الذي أتيتُكم به، فأنا مستيقنٌ فلا أشكُّ في بُطلان دِينكم، فلا أعبدُ الذين تعبدُون من دون الله بشَكِّكُم في دِيني، ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ ؛ أي يُميتكم ويُعيدُكم، ولا أعبدُ الذي لا يقدر على الضرِّ والنفعِ والإحياء والإماتةِ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي وأمِرْتُ أن أخلِصَ دِيني وعَمَلي للهِ، والمرادُ بإقامةِ الوجه الإقبالُ على ما أمِرَ به من أمُور الدِّين، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ . وقِيْلَ: أرادَ بذلك إقامةَ الصلاةِ. والحنيفُ: هو المستقيمُ في الدِّين. وقِيْلَ: هو العادلُ عن الأديان الباطلة إلى دِين الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ؛ أي ما لا ينفعُكَ إنْ دعوتَهُ، ولا يضرُّكَ إنْ تركتَ عبادتَهُ، ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ ، فإن دعوتَ غيرَ اللهِ إلهاً، ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ الضَّارِّين لنفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُردِ اللهُ بك ضُرّاً فلا يقدرُ أحدٌ على دفع ذلك الضرر إلا هو، ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ بنعمةٍ وأمر تُسرُّ به، ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ ؛ مانع لعطيَّته. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يختصُّ بالفضل مَن يشاءُ، ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ على ما توجَّهُ الحكمةُ على ما يستحقُّون بأعمالِهم، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ ؛ لذُنوب العبادِ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للناسِ كلهم: قد جاءَكم الحقُّ من ربكم؛ أي الكتابُ والرسول، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ؛ بالكتاب والرسول، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي يرجعُ نفعُ هدايتهِ إليه، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ؛ فإنَّما يكونُ وبالَ ضلالهِ على نفسه. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي لستُ بحفيظٍ عليكم، أدفعُ عنكم الضرَّ، وأطلبُ إليكم النفعَ شئتُم أو أبيتُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي اتَّبعْ يا مُحَمَّدُ ما تؤمرُ به في القرآن، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ ؛ على أذاهم، ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يقضِي الله بينَكَ وبينهم، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أعدلُ القَاضِين؛ لأنَّ الحاكمَ لا يكون إلا بالصَّلاحِ والسَّدادِ، وكان حكمهُ أنْ أمرَ النبيَّ ﷺ بقتالِهم.

آخر تفسير سورة (**يونس**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ[1] إلاَّ فِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَارِ﴾ إلَى آخِرِ الآيَتَين، فَإنَّهُمَا نَزَلَتَا فِي الْمَدِينَةِ. وَمَنْ قَرَأ سُورَةَ هُودٍ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بهُودٍ وَكَذبَ بهِ، وَنُوحٍ وَشُعَيْبَ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أنَا اللهُ الرَّحْمَنُ). وقولهُ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ؛ وَقِيْلَ: (كِتَابٌ) بدلٌ من قولهِ (الر) لأنه خبرهُ، كأنه قال: هذه الحروفُ كتابٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أحْكِمَتْ آيَاتُهُ) أي أحكِمَتْ بالأمر والنهي، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ؛ بالثواب والعقاب، وقال قتادة: (أحْكِمَتْ عَنِ الْبَاطِلِ بالْحُجَجِ وَالدَّلاَئِلِ، ثُمَّ فُصِّلَتْ بأنْ أنْزِلَتْ شَيْئاً فَشَيْئاً)[2]. وقال الكلبيُّ: (كِتَابٌ أحْكِمَتْ آيَاتُهُ لَمْ يُنْسَخْ بكِتَابٍ، كَمَا نُسِخَتِ الْكُتُبُ وَالشَّرَائِعُ بهِ، (ثُمَّ فُصِّلَتْ) بُيِّنَتْ بالأحْكَامِ مِنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ). وقولهُ: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ ؛ أي مِن عند حكيمٍ في خَلقهِ وتدبيرهِ، خبيرٍ بمَن يصدِّقُ ويكذِّبُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ ؛ أي أحْكَمَ اللهُ القرآنَ بالْحُجَجِ لِئَلاَّ يُطيعوا إلاَّ اللهَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أمَرَكم أنْ لا تعبُدوا غيرَهُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٩٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه النحاس في تاريخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٦٣).

إنِّي لكم من اللهِ مُعَلِّمٌ بموضعِ المخافة لتَحذرُوا، وموضعِ الخيرِ لتطلُبوا، ونذيرٌ بمعنى مُنْذِرٍ، كما في قولهِ ﴿أَلِيمٌ﴾ يعني مؤلِم.

قولهُ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ؛ أي وأمرَكم أن تطلبُوا المغفرةَ من ربكم، واجعلُوها غرَضَكم وتوصَّلوا إليها بالتوبةِ وهي الندمُ على القبيحِ، والعزمُ على تركِ المعاودة إليه. وَقِيْلَ: معناهُ: وأنِ استغفروا ربَّكم بالتوبةِ عما سلَفَ من ذُنوبكم، ثم توبُوا إليه عمَّا يقعُ منكم من الذنوب في المستقبلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ؛ (يُمتِّعْكُمْ) جُزمَ على جواب الأمر؛ أي إنْ فعلتُم ذلك أنعمَ اللهُ عليكم نِعَماً سابغةً حِسَاناً تستبقون بها إلى آجالِكم التي قدَّرَها اللهُ لكم، فلم يستأصِلكم كما استأصلَ الأُمَمَ المكذِّبَة به قبلَكم. قال القتيبيُّ[(١)]: (أصلُ الإمتَاعِ الإطَالَةُ)[(٢)] يقالُ: جبلٌ مَاتِعٌ، وقد مَتَعَ النهارُ إذا طالَ، فمعنى يُمَتِّعْكُمْ يُعَمِّرْكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ؛ أي مَن كان ذا فَضْلٍ في دينهِ فضَّلَهُ اللهُ في الآخرةِ بالثواب على عمله. وَقِيْلَ: يعطِي كلَّ ذِي عمَلٍ صالحٍ أجرَهُ وثوابه. وقال ابنُ عبَّاس: (يُعطِي كُلَّ مَنْ فَضَلَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَضْلَهُ؛ يَعْنِي الْجَنَّةَ وَهِيَ فَضْلُ اللهِ، يَعْنِي أنَّ مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ). وعن ابن مسعود قال في هذه الآيةِ: (مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، وَإنْ لَمْ يُعَاقَبْ بتِلْكَ السَّيِّئَةِ فِي الدُّنْيَا أخِذ مِنْ عَشْرِ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً وَبَقِيَتْ لَهُ تِسْعٌ) ثُمَّ قالَ:(هَلَكَ مَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أعْشَارَهُ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ؛ أي إنْ أعرَضُوا عنِ الإيمانِ والتوبةِ، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ ؛ أي عظيمِ الشَّأنِ وهو يومُ القيامةِ، وإنما

---

(١) القُتَيبيُّ: هو ابن قُتَيبة عبدالله بن مسلم، توفي سنة (٢٧٦) من الهجرة.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٤؛ قال القرطبي: (وأصل الإمتاعِ الإطالةُ، ومنه أمتَعَ اللهُ بكَ ومتَّعَ). وينظر قول ابن قتيبة في غريب الحديث: ج ١ ص٥٩٧.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٧٢).

ذكرَ الخوفَ في هذا الموضعِ؛ لأن الخطابَ من الرسول ﷺ، والخوفُ عليه جائزٌ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾ ؛ على إعادَتِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شُرَيْقٍ، كَانَ حِينَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُظْـهِرُ لَـهُ أَمْـراً حَسَناً، وَكَانَ حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَكَانَ حَسَنَ الْحَدِيثِ، إلاَّ أنَّهُ كَانَ يُضْمِرُ فِي قَلْبِهِ خِـلاَفَ مَا يُظْهِرُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي أمْرِهِ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

يقالُ: إنَّ طائفةً من المشركين بَلَغَ بهم الجهلُ إلى أنْ قالُوا: إنَّا اذا أغلَقنا أبوابَنـا، وأرخَينا سُتُورَنا، واستَغْشَيْنَا ثِيابَنا، وثَنَيْنَا صُدورَنا على عداوةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كيـف يعلـمُ بنا؟ فَأَنْبَأَ اللهُ نَبِيَّهُ عليه السلام عَمَّا كَتَمُوهُ. ومعنى الآيةِ: الا إنَّهم يَثْنُونَ صدورَهم على الكفرِ وعداوةِ النبيِّ ﷺ؛ لِيكتُموا منه ما في صدورهم من عداوتِهِ بإظهار المحبَّة. ويقال: معنى (يَثْنُونَ) يعرضون بصدورهم عن النبيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ؛ معناه: الا حين يَتَغَطَّونَ بثيابهم يعلمُ اللهُ ما يُسِرُّونَ بقلوبهم وفيما بينهم وما يُظـهِرون من محبَّة أو غيرِها، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بالقلوب التي في الصُّدور، لأن الصدورَ مواضعُ القلوب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ ؛ أي ما من حيوان يدبُّ، قال الزجَّاج: (الدَّابَّةُ اسْمٌ لِكُلِّ حَيَوَانٍ مُمَيِّزٍ وَغَيْرِهِ، ذكَراً كَانَ أوْ أنْثَى).

وفي الآيةِ بيانُ أن اللهَ عالِمٌ بالقلوب كلِّها، وذلك أنه إذا كان ضَامِنـاً رزقَ كـلِّ دابةٍ في الأرض، فليس يرزقُها إلاّ وهو يعلمُ صغيرَها وكبيرَها، من الذرِّ فما فوقَها وما دونَها، وإذا عَلِمَها فقد عَلِمَ مستقرَّها ومستودَعَها، المستقرُّ موضعُ قَرَارِها وهو الموضعُ الذي تأوي إليه، والمستودَعُ هو الموضعُ الذي تُودَعُ فيه، قِيْلَ: إنه الرَّحِـمُ، وَقِيْـلَ: هـو الموضعُ الذي تُدْفَنُ فيه.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: تفسير الآية. والجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٥.

وقال قتادةُ ومجاهد: (أمَّا مُسْتَقَرُّهَا فَفِي الرَّحِمِ، وَأَمَّا مُسْتَوْدَعُهَا فَفِي الصُّلْب) ﴿كُلٌّ﴾ ؛ ذلكَ عندَ اللهِ، ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ ؛ يعني اللوحَ المحفوظ، والمعنى: أن ذلك ثابتٌ في علمِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ عَلَى اللهِ رزْقُهَا) قال المفسِّرون: فَضْلاً لا وجُوباً، والله تَكَفَّلَ بذلك بفضلِه. قال أهلُ المعاني (عَلَى) ههُنا بمعنى (من)، المعنى: إلاَّ مِنَ الله رزقُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبينٍ) أي رزقُ كلِّ دابَّةٍ وأجلُها مكتوبٌ في اللوحِ.

قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ مِمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالى لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كِتَابُهُ نُورٌ وَقَلْبُهُ نُورٌ، يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى فِيْهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلاَثمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، يَخْلُقُ بكُلِّ نَظْرَةٍ وَيُحْيي وَيُمِيتُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)، قال أبو رَوقٍ: (أعْلاَهُ مَعْقُودٌ بالْعَرْشِ، وَأسْفَلُهُ فِي حِجْرِ مَلَكٍ كَرِيمٍ يُسَمَّى مَاطُوتُون)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ؛ يعني قبلَ أنْ خَلَقَ السموات والأرضَ، قال ابنُ عبَّاس: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ، أوَّلُهَا يَوْمُ الأَحَدِ وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَوْ أرَادَ سُبْحَانَهُ خَلْقَهَا فِي أقَلِّ مِنْ لَحْظَةٍ لَفَعَلَ).

قولُهُ تعالى: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) فيه بيانُ أنَّ السموات والأرضَ ليستَا بأوَّلِ خَلْقٍ، وأنه تقدَّمَهما خلقُ شيءٍ آخر، وفيه بيانُ زيادةِ القَدْرِ؛ لأن العرشَ مع كونهِ أعظمَ مِن السمواتِ والأرضِ كان على الماءِ، ولم يكن ذلك الماءُ على قَرارٍ، ولكنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمسكَهُ بقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ؛ أي ليَبلُوكم فينظرَ أيُّكم أحسنُ عملاً، فيُثِيبُ المطيعَ المعتبرَ بما يرَى من آياتِ السموات والأرضِ، ويعاقِبَ أهلَ العنادِ.

---

(١) هكذا رسمها في المخطوط، ولم أقف على النص في كتب التفسير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن قُلتَ يا مُحَمَّدُ للكفار: إنَّكم مبعُوثون من بعدِ الموتِ، ليقولُنَّ الذين كفَرُوا: ما هذا إلا تَمويهٌ ليس له حقيقةٌ، وقد أقَرُّوا أنَّ اللهَ خالقُ السمواتِ والأرض، ويُمسِكُها بغيرِ عمَدٍ، لا يعجزهُ شيءٌ فكيف يشُكُّون في البعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن أخرنا العذاب عن الكفار، ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ ﴾ ، ليقولون: ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ، ما منعناهُ، قال ابنُ عبَّاس ومجاهد: (يَعْنِي إلَى أجَلٍ وَحِينٍ)، والأُمَّة ههنا المدةُ، ليقولُنَّ ما يحبسُ هذا العذابَ عنَّا إن كان ما يقولهُ مُحمَّدٌ حقّاً، يقول اللهُ تعالى: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ؛ العذابُ، ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على صَرفهِ عنهم.

فالمعنى: أنَّهم لَمَّا قالوا: ما يحبسُ العذابَ عنَّا على وجهِ الاستهزاء، قَالَ اللهُ تعَالَى: (ألاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ) يعني إذا أخذتْهم سيوفُ النبيِّ ﷺ وأصحابهِ لم تُغْمَدْ عنهم حتى تعلُو كلمةُ الإخلاصِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي نزَلَ بهم جزاءُ استهزائِهم وهو العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ لا يصبرُ على سَلْب تلك النعمةِ، ويصيرُ آيِسَ شيء أقنطَهُ من رحمةِ الله، قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ)، وَقِيْلَ: في عبدِالله بن أبي أمَيَّة المخزومي[1]. والرحمةُ ههنا الرِّزْقُ، وقوله: ﴿ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يشكرُ نِعَمَ اللهِ قبلَ أن تُسلَبَ عنه، ولا يصبرُ بعد أنْ سُلِبَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ ؛ أي ولئن أذقنا الكافرَ النِّعَمَ الظاهرةَ بعد المضرَّة الظاهرةِ التي أصابتْهُ، ليقولَنَّ الكافرُ: ذهبَ الشدائدُ والضرُّ والفاقةُ والآلامُ عنِّي، ويفرحُ بذلك ويَبْطَرُ ويَفْجُرُ به على الناسِ من دون أنْ يشكُرَ اللهَ على كشفِ الشدائد عنه.

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٠-١١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي بَطِرٌ مُفَاخِرٌ أوليائي بما وسَّعتُ عليه. وإنما نُصِبَ اللام في قولـهِ (لَيَقُولَنَّ ذهَبَ السَّيِّئَاتُ) لأنه في موضعِ الوحْدَان، وقوله: (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) بضَمِّ اللامِ في موضعِ لفظِ الجماعةِ، وقولهُ تعالى: (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)[1] بنصب اللام أيضاً؛ لأن الفعلَ مقدَّمٌ على الاسمِ فذُكِرَ بلفظ الوحْدَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ استثناءٌ ليس من الأوَّل، معناهُ: لكن الذين صَبَروا على الشدائدِ، وعَمِلوا الصالحاتِ فيما بينهم وبين ربهم أولئك لهم مغفرةٌ لذنوبهم وثوابٌ عظيم على طاعتِهم وصبرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾ ؛ سببُ نزول هذه الآيةِ: أنَّ المشركين كانُوا يقولون للنبيِّ ﷺ: لو تركتَ سبَّنَا وسبَّ آلهتنا جالَسنَاكَ، وكانوا يُؤذونَهُ ويقولون: لولا أنزل على مُحَمَّدٍ كَنْزٌ من السَّماءِ فيعشُ به وينفعهُ، أو جاءَ معه مَلَكٌ يشهدُ له ويُعينُهُ على الرسالةِ.

وَقِيْلَ: إن المشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: لو أتيتَنا بكتابٍ ليس فيه سبُّ آلهتِنا حتى نؤمنَ بكَ ونتَّبعَكَ، وقال بعضُ المتكبرين: هَلاَّ ينزلُ عليك يا مُحَمَّدُ مَلَكٌ يشهدُ لكَ بالصدق، أو تُعطَى كَنْزاً تستغني أنتَ وأتباعُكَ؟ فَهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يدعَ سَبَّ آلهتِهم فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. ولا يجوزُ أن تكون كلمة (لَعَلَّ) في أول هذه الآية على جهة الشَّكِّ، وإنما الغرضُ تثبيتُ النبيِّ ﷺ في ما أُمِرَ به؛ كيلا يلتفتَ على قولِهم، وكي لا ييأسُوا عن تركِ أداء الرسالة.

فلما قالوا للنبيِّ ﷺ: (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ). يقولُ اللهُ للنبيِّ ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ ﴾ ؛ أي عليكَ أن تُنذِرَهم وتُخوِّفَهم وتأتِيَهم بما يُوحَى إليكَ

---

(١) الروم / ٥٨ .

من الآياتِ، وليس عليك أن تأتِيَ بشهوَاتِهم وما يفرَحُون مِـن الآيـاتِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من مقالَتِهم وغيرِ ذلك، ﴿ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي حفيظٌ.

والفرقُ بين ضَائِقٍ وَضَيِّقٍ، أن الضائقَ يكونُ بضِيـقٍ عَـارضٍ، والضَّيـقُ قصـورُ الشيءِ عن مقدارِ غيرِهِ أنْ يكونَ فيه، وموضـعُ (أنْ يَقُولُـوا) حـذف البـاء[1] تقديـرهُ: ضَائِقٌ به صدرُكَ بأنْ يقُولوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ؛ معناهُ: بل يقولُ الكفَّارُ: اختلقَ مُحَمَّدٌ القرآنَ من تلقاءِ نفسه، قُل لَـهم يـا مُحَمَّـد: إنْ كان هذا مُفْتَرَى على اللهِ فأْتُوا بعشرِ سُوَرٍ مثله مُفتَرياتٍ مختلفـاتٍ، فـإنَّ القـرآنَ نـزل بلُغَتِكم، وأنا نشأتُ بين أظهُرِكم، فإن لم يُمكنكم أن تأتوا بمثلِ القرآن فاعلموا أنه مـن عندِ الله، ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي استعِينوا بكلِّ أحدٍ يقدرُ على الإتيان بعشرِ سُوَرٍ مثله مفتريات، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ في مقـالَتِكم أنَّ مُحَمَّداً اختلقَهُ.

وذهبَ بعض المفسِّرين: إلى أن المرادَ بالسُّوَرِ العشرِ: من سُورةِ البقـرة إلى هـذه السُّورة، والأَوْلى أن يُقال: إن المرادَ فاتوا بعَشرِ سُور مثلِ سُوَرِ القرآنِ أيَّ سُورةٍ كانت، لأن سُورةَ هُودٍ مكِّية، وسورة البقرةِ وما بعدها مدَنيَّاتٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمسـلمين؛ أي فـإن لم يُجِبْكَ هؤلاءِ الكفَّارُ إلى الإتيان بمثل القرآن، فاعلَمُوا أنَّ هذا القرآنَ أنزلَهُ جبريلُ بعلمِ الله وأمرِه. ويجوز أن يكون بعلمِ الله؛ أي بما أنزلَ اللهُ فيه من غَيْبٍ.

ويجـوز أن يكـون معنـاهُ: فـإنْ لم يستجِيبوا لكُـم؛ أي فـإن لم يُجِبْكُـمُ الذيـن دعوتُموهم إلى المعاونةِ إلى الإتيان بمثل هذا القرآن، فقد قامت عليكم الحجَّةُ، فاعلَمُوا أنَّما أُنْزِلَ بعلمِ الله، واعلموا أنَّما أنزلَهُ إلاَّ هو، ولا يُنْزِلُ الوحيَ أحدٌ غيرُه، فهل أنتـم مُخلِصُون للهِ في التوحيد والعبادةِ.

---

(١) في المخطوط: (خفضُ الياءِ) وهو تحريف؛ لا يتناسق مع سياق الكلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الآيةِ وجهَان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بالآيةِ إذا أتَى بالأعمالِ التي تكون حَسَنَةً في العقلِ مثل صِلَةِ الرَّحمِ والتصدُّقِ وإعانةِ المظلوم، فإن اللهَ يجازيهِ على هذه الأعمالِ في الدُّنيا بأن يُمَكِّنَهُ مما حولَهُ ويعطيهِ ما يسعَى لطلبهِ وافراً عليه ويُقِرَّ عَيْنَهُ بذلك.

والثاني: أنَّ المراد بها المنافقُ إذا خرجَ للغزو مع المسلمين وهو يريدُ الغنيمةَ دون الثواب ونصرةِ الدِّين، يجزيهِ الله على غزوهِ بأن أمرَ بإعطائهِ سَهْمَهُ من الغنيمةِ لا يُبْخَسُ عنه شيءٌ من سهمهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين عَمِلوا لغيرِ الله من الكفار والمنافقين ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ، ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ ؛ من الأعمالِ الحسَنة؛ لأنَّهم لم يروا لها ثواباً، ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ من خيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ ؛ اختصارٌ معناهُ: أفمَن كان على بَيِّنَةٍ من ربه، ويتلوهُ شاهدٌ منه كالذي يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتها، وأرادَ بالبيِّنة البرهانَ الذي هو من اللهِ، وكان النبيُّ ﷺ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ من ربه، ويقرأ عليه القرآنَ شاهدٌ من اللهِ وهو جبريلُ عليه السلام، هكذا قالَ أكثرُ المفسِّرين أنَّ المرادَ بقولهِ: أفَمَنْ كان على بيِّنة من ربهِ هو النبيُّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي ومِن قبلِ القرآنِ كان جبريلُ يقرأ على موسَى التوراةَ إماماً يُقتَدى به، ونعمةً من اللهِ لِمَن آمَنَ به، و(إمَاماً) بالنصب على الحالِ، (وَرَحْمَةً) أي ذا رحمةٍ، وَقِيلَ: أرادَ بقوله (أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) جميعَ المؤمنين، وأرادَ بالشَّاهدِ النبيَّ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ يعني أصحابَ النبيِّ ﷺ ومَن صدَّقَه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ ؛ أي مَن يكفُرْ بالنبيِّ ﷺ من أصنافِ الكفَّار واليهودِ والنصارى وغيرهم، فالنارُ مصيرهُ التي

وعدَ اللهُ في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي لا تكن في شكٍّ من القرآن، وظاهرٌ أنَّ هذا الخطابَ للنبيِّ ﷺ إلاَّ أن المرادَ به جميعُ الناس. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ يعني القرآن، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يصدِّقون في أنَّ القرآنَ من عندِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي ليس أحدٌ أظلمَ لنفسهِ من الكاذب على ربه بأن زعمَ أن له ولَداً وشريكاً، ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، معناهُ: أولئكَ الكاذبون يُساقُونَ يوم القيامةِ إلى ربهم، ويُوقفون في المقاماتِ التي يطالَبون فيها بأعمالِهم، ويُسألون فيها، ويُجازَوْنَ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهد: (الأَشْهَادُ هُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَالأَنْبِيَاءُ)[1]، وقال قتادةُ: (يَعْنِي الْخَلاَئِقَ)[2]، وقال مقاتلُ: (هُمُ النَّاسُ).

والأَشْهَادُ جمعُ شَاهِدٍ مثل نَاصِرٍ وأنْصَارٍ وصَاحِبٍ وأصحابٍ، ويجوزُ أن يكون جمعُ شَهِيدٍ مثل شريفٍ وأشرافٍ. والمعنى: يقولُ الأشهادُ يومَ القيامة من الملائكةِ والنبيِّين والعلماءِ وعامَّة المؤمنين، ويُشيرون الى الكفار فيقولون: (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبهِمْ) فيُفضَحُ الكفارُ على رُؤُوسِ الأشهادِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون من قولِ الأشهادِ، ويجوز أنْ يكون من قولِ الله، وأرادَ بالظَّالمين المشركين، واللَّعْنَةُ: الإبعادُ من الخيرِ.

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُقَرِّرُهُ بذُنُوبهِ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَب أعْرِفُ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَب أعْرِفُ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ مَا شَاءَ أنْ يَسْأَلَهُ، قَالَ: فَإنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأنَا أغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ بيَمِينِهِ. وَأمَّا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٦٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٦٧).

الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَيْهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِهِمْ، ألاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ؛ أوَّلُ الآيةِ نعتٌ للظالمين، والمعنى: الذين يسببون للصدِّ من دون اللهِ وطاعته، ويبغون للهِ سبيل الإسلام زَيغاً وعِوَجاً، يتأوَّلون القرآنَ على خلافِ تأويلهِ، ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ، أعادَ كلمةَ (هُمْ)؛ تأكيداً لشأنِهم في الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: أولئك ليسُوا بغائِبين عن اللهِ في الأرضِ، ولا مهربَ لهم من عذابهِ حتى يجزِيَهم بأعمالِهم الخبيثة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي لا يقتصرُ لهم على عقاب الكُفر، بل يُعاقبون على الكفرِ، وعلى الصدِّ عن سبيل اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: كلَّما مضَى ضِعْفٌ من العذاب جاءهم ضِعْفٌ من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ ؛ أي كان يَثْقُلُ عليهم سماعُ الحقِّ من شدَّة عداوتِهم للنبيِّ ﷺ، ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ لأنَّهم صُمٌّ عن الحقِّ عُمْيٌ لا يُبصرون ولا يهتدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي أهلكُوا أنفسَهم في الآخرةِ، وذُكرَ الهلاكُ بلفظِ الْخُسران؛ لأن الخسرَان هو ذهابُ رأسِ المال، ورأسُ مال الإنسان نفسهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ذهبَ عنهم الانتفاعُ بأعمالهم التي كانوا يكذِبون بها على اللهِ كما قالوا في الدُّنيا، وَقِيْلَ: معناهُ: ذهبَ عنهم الأصنامُ التي كانوا يعبدونها في الدُّنيا، يَفْتَرُونَ بقولهم إنَّها آلهةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٦٨٥)، وكتاب التوحيد: الحديث (٧٥١٤). ومسلم في الصحيح:كتاب التوبة: الحديث(٢٧٦٨/٥٢). وهذا أول موضوع يذكر فيه البخاري ومسلم، وعلىما يبدو أنه إدراج من الناسخ وليس في الأصل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ ؛ قيل: معنى (لاَ جَرَمَ): لا بدَّ، ويقال: لا محالة، ويقال: حقاً، قال سيبويه: (لاَ جَرَمَ بمَعْنَى حَقّاً)[1]. وقال الزجَّاج: (لاَ بَقَاءَ لِمَا ظَنُّوا أنَّهُ يَنْفَعُهُمْ) كأنه قال: لا ينفعُهم ذلك جَرَمَ، ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ ؛ أي كَسْبُ ذلك الفعلِ لهم الخسران، وجَرَمَ معناه: كَسَبَ، وذلك كقولهِ: ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ ؛ الإخْبَاتُ: الْخُشُوعُ والتواضعُ والطُّمَأنِينَةُ؛ أي تواضَعُوا وخشَعوا لربهم. وقال مجاهد: (اطْمَأنُّوا)، وقال قتادة: (أنَابُوا). وهذه الآيةُ نازلةٌ في أصحاب النبيِّ ﷺ، وما قبلَها نازلٌ في المشركين.

ثم ضربَ اللهُ مثلاً في الفريقين فقال:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ ﴾ ؛ يعني الكفار، ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ ؛ يعني المؤمنين؛ لأنَّهم سَمِعوا الحقَّ وأبصروهُ واتَّبعوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؛ أي هل يستوي الأعمَى والأصمُّ والبصير والسميع عند عاقلٍ، كما لا يَستويان عندَ أحدٍ من العُقَلاء، فكذلك لا يستوي حالُ المؤمن والكافرِ عندَ الله في الدُّنيا والآخرة، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ ؛ أي أفلا تتَّعظون بأمثالِ القرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ ابتدأ بذكر أوَّل رسول جاءَ بالشريعةِ بعد آدمَ عليه السلام وهو نوحٌ عليه السلام، أوَّلُ مَن جاءَ بتحريمِ الأُمَّهات والأخواتِ، وقولهُ تعالى: (إنِّي لَكُمْ) مَن فتحَ الألِفَ كان التقديرُ: أرسَلنا نُوحاً بأنِّي لكم، ومَن كسرَ فتقديره ليقول: إنِّي لكم.

---

(١) قال سيبويه معناه في كتاب سيبويه: ج ٣ ص١٣٨. وفي معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٣٧؛ قال الزجاج: (ومعنى (لا) نفي لما ظنُّوا أنه ينفعهم، كأن المعنى: لا ينفعهم ذلك جرمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون).

(٢) المائدة / ٢.

وقولهُ تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ؛ أي وليقُولوا لاَ تعبُدوا إلا اللهَ فإنه لا إله إلا هو، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ؛ أي إنِّي أعلمُ أن يكون عليكم إنْ لم تُؤمنوا عذاب يوم أليم، وإنما وصفَ اليومَ بالألَمِ؛ لأن أسبابَ الألَمِ تقعُ فيه، فنسَبَ الألَم إليه.

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ؛ أي قالَ الرُّؤساء والأشرافُ الذين كفَروا من قومِ نوحٍ: ما نراكَ يا نوحُ إلا بَشَراً مثلَنا في الصورةِ والخِفَّة، فلِمَ صِرْتَ أولى أن تكون نبيّاً ورَسُولاً للهِ منَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ ؛ ما نراكَ آمَنَ بكَ إلاّ الذين هم أسَافِلُنا وأخسُّنا، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُونَ الْمَسَاكِينَ الَّذِينَ لاَ عُقُولَ لَهُمْ وَلاَ شَرَفَ وَلاَ مَالَ) والرَّاذِلُ الدُّونُ من كلِّ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ؛ أي مَن قرأ (بَادِئَ) بالهمزِ فمعناهُ: أنَّهم اتَّبعوكَ بأوَّلِ الرأيِ من دون تفكُّرٍ ونظرٍ، مِن قولهم: بَدَأتُ الأمْرَ؛ أي ابتدأتهُ، ويجوزُ أن يكون المعنى: بَادِيَ الرؤية؛ أي بأوَّل ما تقعُ الرؤية عليهم يعلمُ أنَّهم أراذِلُنا، وقد يكون الرأيُ بمعنى الرُّؤيةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأيَ الْعَيْنِ﴾[1] أي رُؤيةَ العينِ. ومن قرأ (بَادِيَ) بغير همزٍ فمعناه: ظاهرَ الرأيِ وهم يعرِفون الظاهرَ ولا تمييزَ لَهم.

ويجوزُ أن يكون معناه: اتَّبعوكَ في الظاهر، وباطنُهم على خلافِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ ؛ أي ما نرَى لكَ ولقومِكَ علينا من فَضْلٍ، فإنّ الفضلَ يكون بكثرةِ المال، وشرفِ النَّسب والمنْزلة في الدُّنيا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ؛ فيما تقولونَهُ على اللهِ، وفيما تدْعُون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ ؛ أي قالَ لهم نوحُ: أخبروني إنْ كنتُ على بُرهان وحُجَّة من ربي، ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً﴾ ؛ نعمةً، ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ؛ وهي النبوَّةُ، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ ؛ فخفيت، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ، هذه النعمة

---

(١) آل عمران / ١٣ .

التي ظهرَتْ لِمَـن اتَّبعونـي فلـم تُبصِروهـا لتَفـاوُتِكم، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ ، امكنّنـا أن نجعلَكـم قـابلين لهـا، ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ هـذا ممـا لا يكـونُ. قـال قتادةُ:(وَاللهِ لَو اسْتَطَاعَ نَبِيُّ اللهِ أَلْزَمَهَا قَوْمَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ ذلِكَ)[1].

فإن قِيْلَ: فهَلاَّ قال فَعَمِيتُمْ عَنْهَا وهم الذين كانوا عموا؟ قُلْنَا: قد بيَّنا إنه وَضع ذلك موضع: فخَفِيت عليكم، ثم لا فرقَ بين اللفظين كما لا فرقَ بين قولهم: أدخلتُ الخاتمَ في الإصبع، وأدخلتُ الإصبعَ في الخاتم. ومن قرأ (فَعُمِّيَتْ) بضمِّ العين وتشديد الميم، فالمعنى: أَلَيْسَتْ عليكم نُبُوَّتِي؟.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ ﴾ ؛ أي لا أسألُكم علـى دُعائي لكم إلى اللهِ مالاً، فتخشَون العـدمَ في أموالكـم بإجـابَتِي، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي ما ثوابي إلا على اللهِ يُعطيني في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ ﴾ ؛ قال ابنُ جريج: (إنَّهُمْ سَأَلُوهُ طَرْدَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيُؤْمِنُوا بِهِ أَنَفَةً مِنْ أنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، فَقَالَ: لاَ يَجُـوزُ لِـي طَرْدُهُـمْ بقَوْلِكُـمْ وَازْدِرَائِكُـمْ)، ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ ﴾ ؛ مـا وعدَهـم، ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ فيجزيهم بأعمالهم، ويقال: فيُخـاصِمُوني عنـدَهُ إنْ طردتُـهم، ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أوامرَ اللهِ وما فيه إصلاحُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ ﴾ ؛ معناهُ: يـا قـومِ مَن يمنَعُني من العقاب النازل في يومِ القيامة إنْ طردتُ مَن آمن بي، وآويتُ مَن كفـرَ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ تتَّعظون بما أقولُ لكم فتؤمنون.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ ؛ أي لا أرفعُ نفسي فوقَ منزلتي، فأقولُ إنَّ عندي مقدوراتِ اللهِ، فـأخصُّ بذلـك مـن أشاءُ، وأمنعه ممن أشاء. وقولهُ تعالى: (وَلاَ أعْلَمُ الْغَيْبَ) أي ولا أدَّعي علمَ الغيب فـإني لا أعلمُ إلا ما علَّمَني اللهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٨٦).

ويقال: إنَّهم لما قالوا لنوح عليه السلام: إن هؤلاءِ إنما آمَنوا بكَ، واتَّبعوكَ في ظاهرِ ما ترى منهم، أجابَهم نوحُ بهذا، فقال: لا أقولُ لكم عندِي خزائنُ اللهِ، يعني غُيُوبَ اللهِ التي يعلمُ منها ما تُضمِرهُ الناس، فلا أعلمُ الغيبَ، ولا أعلمُ ما يُسِرُّونَهُ في أنفسهم، فسَبيلي قَبُولُ إيمانِهم الذي ظهرَ لي، ومضمراتُهم لا يعلمها إلاّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقولهم: ما نراكَ إلا بَشَراً مثلنا؛ أي لا أدَّعي أنّي مَلَكٌ نزلتُ إليكم من السَّماء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ ؛ أي لا أقولُ للذين تحتقِرُ أعيُنكم وتستصغرُ: لن يؤتيكم اللهُ صَلاحاً في الدُّنيا وفَلاحاً في الآخرةِ، يعني المؤمنين الذين قالوا: هم أراذِلُنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي إن طردتُّهم تكذيباً، الظاهرُ إيمانُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ ؛ أي قالُوا: يا نوح قد خاصَمْتَنا فيما دعوتَنا إليه من دِين غيرِ آبائنا، فأكثرتَ خصُومتَنا ودُعاءَنا، فلا نقبلُ منكَ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ، أي بما تعِدُنا أنَّ اللهَ يُعذِّبنا على الكفرِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أرادَ بهذا القول أن يُلْبِسُوا على ضُعفائِهم أنَّ نوحاً عاجزٌ عن إنزالِ العذاب بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ ؛ أي إن العذابَ ليس بيَدِي، ولكنَّ اللهَ هو الذي يقدرُ عليه، فيُنْزِلُهُ عليكم إنْ شاءَ، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ من إنزالِ العذاب بكم، عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: [إنَّ نُوحاً عليه السلام كَانَ إذا جَادَلَ قَوْمَهُ ضَرَبُوهُ، فَإذا أفَاقَ قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: قال لَهم: لا ينفعُكم دُعائِي، وتحذيري إيَّاكم إنْ أردتُ أنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية (٤٠) عن عبيد بن عمير الليثي في الرقم (١٤٠٠٩).

أحذّركم من عذاب الله إنْ كان اللهُ يريدُ أن يُضِلَّكم عن الْهُدَى مجازاةً بعملِكم، فإن إرادةَ اللهِ فوق إرادَتِي، ويكونُ ما يريدُ لا ما أريدُ.

فإن قِيْلَ: كيف يجوزُ أن تكون إرادةُ إبليس موافقةً لإرادةِ الله، وإرادةُ نوحٍ مخالفةً لإرادة الله؟ فالجواب: إنَّ اللهَ تعالى شاءَ لأُولئك القومِ الكفرَ، وشاءَ لنوحٍ أن يسألَهم الإيمانَ، وشاءَ لإبليس أن يسألَهم الكفرَ، فالكلُّ بمشيئةِ الله تعالى. ويقالُ: معنى قولهِ: (إنْ كَانَ الله يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ) إن كان اللهُ يريد أن يُهلِكَكم، وينحّيَكم من رحمتهِ بكُفرِكم، كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[1] أي هَلاكاً وعذاباً، والغَيُّ قد يكون بمعنى الْخَيْبَةِ، كما قال الشاعرُ:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا[2]

أي ومَن يَخِبْ، يقالُ: غوَى الرجلُ يَغْوِي غَيّاً؛ إذا فسدَ عليه أمرهُ، أو فسدَ هو في نفسهِ، ومنه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3] أي فَسَدَ عليه عيشةُ في الجنَّة، وهذا يُؤَوَّلُ أيضاً إلى معنى الْخَيْبَةِ فيها فسادُ العيشِ.

وذكرَ الحسنُ في معنى الآية: (لاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي الْيَوْمَ إذا نَزَلَ بكُمُ الْعَذابُ، فَاسْتَدْرِكُوا أمْرَكُمْ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذاب لِتَنْتَفِعُوا بنُصْحِي). قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ رَبُّكُمْ) أي مَالِكُكُم يقدرُ على إنزالِ العذاب بكم، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي إليه مصيرُكم بعد الموتِ فيجزيَكم بأعمالكم.

وهذه الآيةُ مما يحتجُّ بها أنَّ الشرطَ إذا اعترضَ على الشرطِ مِن غير أن يتخلَّلهُما الجوابُ، كان الشرطُ الثاني مُقدَّماً على الأوَّل في المعنى، حتى لو قالَ قائلٌ: إنْ دخلتَ الدارَ، إنْ كلَّمْتَ زيداً فعبدِي حرٌّ، لا يحنَثُ حتى يكلِّمَ ثم يدخلَ. فيكون تقديرُ الآية: ولا ينفعُكم نُصحِي إنْ كان اللهُ يريد أن يُغوِيَكُمْ إن أردتُ أن أنصَحَ لكم.

---

(١) مريم / ٥٩ .

(٢) ينظر: لسان العرب: ج ١٠ ص١٤٩: (غوي).

(٣) طه / ١٢١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ ؛ معناهُ: أنَّ قومَهُ يقولون: إنَّ نُوحاً قد تَقَوَّلَ على اللهِ الكذبَ، فأمَرَ اللهُ نوحاً أن يُجيبَهم بالقول اللَّيِّنِ بعدَ المبالغةِ في إقامة الحجَّة عليهم، فيقولُ لَهم: (إن افْتَرَيْتُهُ) أي تَقَوَّلْتُ الكذبَ على اللهِ فعليَّ عقوبةُ إجرامِي، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ، وأنا بريءٌ من عُقوبَةِ جُرمِكم. ويقالُ: معنى الآيةِ: أم يقولُ أهلُ مكَّة إنَّ مُحمَّداً ﷺ قد افترَى قصَّةَ نوحٍ (قُلْ إنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إجْرَامِي) والإجرامُ يستعمل في كَسْب الإثم خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ أي وأوحَى اللهُ إلى نوحٍ: أنه لن يصدِّقَ من قومِكَ سِوَى مَن صدَّقَ، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ فلا تَغْتَمَّ بالْحُزْنِ عليهم، والابْتِئَاسُ: هو الغَمُّ على وجهِ الاستكانةِ للحُزن على الشَّأن. فقيل: إنما دعَا نوحُ عليه السلام بقولِهِ: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[1] بعدَ هذا الوحي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ؛ أي اصْنَعِ السَّفينة بحِفظِنا لكَ حفظَ الرَّاعِي لغيرِهِ لدفع الضَّرَر عنه، وذكرَ الأعيُنَ لتأكيدِ الحفظ. ويقالُ: معناهُ بأعيُنِ الملائكةِ الذين يُعرِّفونكَ كيف تُصنعُ السفينةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَوَحْيِنَا) أي وبأمرنا إيَّاك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ؛ أي لاَ تُراجِعْني الكلامَ في نَجاةِ الذين ظلَمُوا أنفسهم بالكفرِ، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ بالطُّوفان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي لما أخذ نوحٌ في علاجِ السَّفينة. ويُروى أنه استأجرَ أجَراءَ ينحِتُون معه، وكلَّما مرَّ ملأٌ من قومِهِ هَزِئُوا به لمعالجتِهِ السفينةَ؛ لأنَّهم كانوا يَرَونه يعملُ السفينةَ مع أنَّه لم يكن بقُربهِ ماءٌ، وكان من لَدُنْ آدم عليه السلام إلى نوحٍ يُسْقَوْنَ من ماءِ المطر، فلا بَحرَ ولا نَهرَ جَارٍ، فكانوا يقُولون: انظروا إلى هذا الشَّيخِ الضالِّ يصنعُ هذه السفينةَ يخوِّفنا بالغرقِ،

---

(١) نوح / ٢٦ .

ويجعلُ للماءِ أكَافاً[١] فأين الماءُ؟! وكانوا يقولون في كلامِهم: فَرَغْتَ مِنْ أمرِ النبوَّة، وأخذتَ في أمرِ النِّجارةِ! وكانوا يَرَونَهُ ينجرُ الخشبَ، وهي شبهُ البيتِ العظيم، فإذا سألوهُ عن ذلك، قال أعملُ سفينةً تجري في الماءِ، ولم يكن هناكَ قبل ذلك سفينةٌ، فكانوا يتضاحَكون ويعجَبُون من عملهِ.

و﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم نوحٌ : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ ؛ الآنَ، ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ ؛ عندَ نزول العذاب، ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أنتمُ الساعةَ؛ أي إن كُنتم تسخرون منَّا لِمَا تَرَوْنَ من صَنْعَةِ الفُلْكِ، فإنَّا نعجبُ من غفلَتِكم عما أضلَّكم، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ من أحقُّ بالسُّخريِّ مِنَّا ومنكم، وتعلمون، ﴿ مَن ﴾ ؛ الذي، ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ ، ويَنْزِلُ عليه، ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ دائمٌ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ أوْحَى إلَيْهِ أنَّ مَوْعِدَكَ أنْ يَخْرُجَ الْمَاءُ مِنْ آخِرِ مَكَانٍ فِي دَارِكَ وَهُوَ تَنُّورُ الْخَابزَةِ، تَنُّورُ آدمَ عليه السلام كَانَ يَوْمَ حَجَّ نُوحٌ عليه السلام رَأى تَنُّورَ آدَمَ عليه السلام فَحَمَلَهُ مَعَهُ، وَوَهَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ).

ثُمَّ قَالَ لَهُ: إذا رَأيْتَ الْمَاءَ قَدْ فَاضَ مِنْهُ فَاحْمِلْ فِي السَّفِينَةِ مَا أُمِرْتَ بهِ مِنْ أجْنَاسِ الْحَيْوَانِ، ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ وَ احمِلْ؛ ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ بالعذاب وهي امرأتهُ الكافرة وابنهُ كنعان استثناهما اللهُ من جُملة أهلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ؛ أي احمِلْ مَن آمَنَ معكَ أيضاً في السَّفينة، وقال ابنُ عبَّاس وعكرمة والزهريُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَفَارَ التَّنُّورُ) أيِ انْبَجَسَ الْمَاءُ

---

(١) إكَافُ الحمار وَوكَافُهُ، والجمع (أكُفٌ). وقد (آكَفَ) الحمار و(أوْكَفَهُ) أي شدَّ عليه الإكاف. وفي تهذيب اللغة: ج ١٠ ص٢١٣؛ قال الأزهري: (رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [خِيَارُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ أصْحَابُ الوَكَفِ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ أصْحَابُ الوَكَفِ؟ قَالَ: [قَوْمٌ تَكَفَّأُ عَلَيْهِمْ مَرَاكِبُهُمْ فِي الْبَحْرِ]). وقال: (يُقَالُ: فُلاَنٌ عَلَى وَكَفٍ مِنْ حَاجَتِهِ، إذَا كَانَ لاَ يَدْرِي عَلَى مَا هُوَ مِنْهَا... لأنَّ التَّكَفِّي الْمَيْلُ).

عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ)[(١)]. وقال عليٌّ ﷺ: (وَفَارَ التَّنُورُ؛ أيْ طَلَعَ الْفَجْرُ)[(٢)].

وقولهُ تعالى: (جَاءَ أَمْرُنَا) أي عذابُنا، وقولهُ تعالى: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) أي احمِلْ في السفينةِ من كلِّ زوجين اثنين، الذكَرُ زوجٌ والأنثى زوجٌ، وهو قولُ الحسنِ ومجاهد وقتادة؛ قالوا: (ذكَراً وأنثى).

فلما فارَ الماءُ من التَّنور أرسلَ اللهُ السماءَ بمطرٍ شديد، فأقبلتِ الوحوشُ حين أصابَها مطرُ السماءِ إلى نوح وسُخِّرت، فحَمل في السفينةِ من كلِّ طيرٍ زَوجين، ومن كلِّ وحشٍ زوجين، وكلِّ دابَّة وبَهيمة زَوجين، ومن كلِّ سَبُعٍ زوجين، وحمَلَ من البقرِ والغنم خمسةَ أزواجٍ.

وبعثَ اللهُ جبريلَ فقطعَ فِقَارَ العقرب، وضربَ فمَ الحيَّة فحمَلَها في السَّفينة، وكانت السماءُ تُمْطِرُ، وكان هو عندَ قومهِ يحذِّرُهم حتى ابتلَّت أقدامُهم، وصارَ الماءُ إلى الكعبَين، ثم حذرَهم حتى صارَ الماءُ إلى نصفِ الساق، ثم حذرَهم حتى صارَ إلى الرُّكَب وإلى الْحِقْوَيْن، كلُّ ذلك يحذِّرُهم ويُنذِرهم، وكان يَنُوحُ ويَبكِي عليهم. وقال ابنُ عبَّاس: (سُمِّيَ نُوحاً؛ لأَنَّهُ كَانَ يَنُوحُ عَلَى الإِسْلاَمِ حَيْثُ لَمْ يُقِرَّ بِهِ قَوْمُهُ).

فلمَّا بلغَ الماءُ الشِّدْوَةَ قالَ: غَرِقَ قَومِي، ثم قال لابنهِ كنعانَ: (يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا) فكثُرَ الماءُ حتى صار فوقَ الجبالِ خمسةَ عشر ذِراعاً بالذراع الأول، وكان للسفينةِ ثلاثةُ أبوابٍ بعضُها أسفل من بعضٍ، حملَ في البابِ الأسفلِ السِّباع والهوامَّ، وفي البابِ الأوسطِ الوحْشَ والبهائِمَ، وفي البابِ الأعلى بني آدمَ، وكانوا ثمانين إنساناً، أربعين رجُلاً وأربعين امرأةً، سِوَى التي غرِقَتْ، وثلاثةَ بنين: سَامٌ وحَامٌ ويَافِثُ، ونساؤُهم وإثنانِ وسَبعُون إنساناً فيهم الْخَضِرُ وهو ابنُ بنتِ نوحٍ.

واختلَفُوا في مقدار السفينة، قال الحسنُ: (كَانَ طُولُهَا أَلْفاً وَمِائَتَي ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا سِتُّمِائَةِ ذِرَاعٍ)[(٣)]، وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ طُولُهَا ثَلاَثمِائَةِ ذِرَاعٍ وَعَرْضُهَا خَمْسِينَ ذِرَاعاً، وَارْتِفَاعُهَا ثَلاَثِينَ) وهو قولُ قتادةَ قال: (وَكَانَ لَهَا بَابَانِ فِي عَرْضِهَا).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠١٤) عن ابن عباس، والأثر (١٤٠١٦) عن عكرمة.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠١٧) بأسانيد.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٠٧).

وقولهُ تعالى: (وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) أي واحمِلْ أهلَكَ، يعني ولدَهُ وعياله، (إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) يعني امرأتَهُ وأهله وابنهُ كنعان، و(مَنْ آمَنَ) يعني واحمِلْ مَن آمنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي إلا نفرٌ قليل، قِيْلَ: ثمانون إنساناً، وَقِيْلَ: ثلاثةُ بنين وثلاثُ كَنَائِن، الكَنَائِنُ: زوجاتُ البَنِين، وقال ابنُ جريج: (كَانُوا ثَمَانِيَةَ أنْفُسٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾؛ أي قال لَهم نوحُ: اركَبُوا في السفينةِ، وقولهُ (بسْمِ اللهِ) يجوزُ أن يكون متَّصلاً بقولِهِ (ارْكَبُوا) أي ارْكَبُوا بسم الله، ويجوزُ أن يكون متَّصلاً بقوله (مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا) أي بسمِ الله إجراؤُها وإرسَاؤُها.

وقال الضحَّاك: (كَانُوا إذا أرَادُوا أنْ تَجْرِيَ السَّفِينَةُ قَالُوا: بسْمِ اللهِ، فَجَرَتْ، وإذا أرَادُوا أنْ يُرْسُوهَا قَالُوا: بسْمِ اللهِ، فَرَسَتْ)، ومَن قرأها (مَجْرَاهَا) بنصب الميم فهو عبارةٌ عن الموضعِ الذي تُجْرِي فيه، ولَم يقرأ أحدٌ (مُرْسَاهَا) الا بضَمِّ الميم، ومَن قرأ (مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا) فهو نعتُ (اللهِ)، والمعنى بسمِ الله الْمُجْرِي لها حيث يشاءُ، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾؛ يعني: السفينة تجري بهم في موج كالجبال العظيمةِ، ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾؛ كنعان وكان كافراً، ﴿ وَكَانَ فِى مَعۡزِلٖ ﴾؛ عنهُ ولَمْ يركب معه، وَقِيْلَ: معناهُ: وكان في معزلٍ من دين أبيه: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾؛ في السَّفينة بشرطِ الإيمان، ولذلكَ قَالَ: ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي على دِينهم فتغرقَ معهم، وقال الحسنُ: (إنَّمَا دَعَاهُ إلَى رُكُوب السَّفِينَةِ؛ لأنَّ ابْنَهُ كَانَ يُظْهِرُ لَهُ الإيْمَانَ نِفَاقاً، وَكَانَ يَحْسِبُهُ مُؤْمِناً).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٣٤).

واختلفَتِ القراءةُ في قولـه (يَـا بُنَـيِّ ارْكَـب مَعَنَـا): قـرأ بعضُـهم بكسـرِ اليـاء على الإضافة وهو الأجودُ؛ لأن الأصلَ يا بني ثلاثُ يَاءَاتٍ، ياءُ التصغيرِ وياءُ الفعلِ[1] وياءُ الإضافة، فحُذفت ياءُ الإضافة، وتُركت الكسرةُ دليلاً على الإضافـة، وأدغِمَـت إحدى اليائين في الأخرى[2]. وقرأ بعضُهم (يَا بُنَيَّ) بفتحِ الياء على أن أصلَها: يا بُنَيَّـا بالألف، كما تقولُ العرب: يا غُلاَما أقبلْ، تريدُ يا غُلامِيَ أقْبِلْ، فتُبدَلُ الألفُ من ياءِ الإضافة على وجهِ النُّدْبَةِ والتَّفْجِيعِ، وكان الأصلُ يا بُنَيَّا ثم حُذفت الألـف لسـكونِها وسكونِ الراء من قولِهِ (ارْكَبْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ ؛ أي قال ابنُ نوحٍ: سأذهبُ وأرجع إلى مأوًى من الجبلِ حَريزٍ يَمنعُنِي من آفاتِ المـاء، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ له نـوحُ عليه السلام: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ ؛ بالنجـاةِ، وتقديـرُ الكلام: لا عاصمَ اليومَ من عذاب الله إلا اللهُ تعالى، وقال بعضُـهم: لا عـاصمَ اليـومَ من عذاب الله إلا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ، وهـو نـوح عليه السلام فإنَّـه قـد جعـلَ الله إليـه إركـابَ المؤمنين في السفينةِ، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: لا معصـومَ اليـوم إلا مـن رَحِمَـهُ اللهُ، كمـا قـال الحطيئة:

دَعِ الْمَكَـــارِمَ لاَ تَرْحَـــلْ لِبُغْيَتِـــهَا ... وَاقْعُـدْ فَـإِنَّكَ أَنْـتَ الطَّـاعِمُ الْكَاسِـي

الْمَطْعُومُ[3] الْمَكْسُوُّ، ومنه يقالُ: سِرٌّ كَاتِمٌ أي مكتومٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ ﴾ ؛ أي بـين كنعـانَ ونـوح، وَقِيْـلَ: بـين كنعان والجبلِ، ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

---

(١) في المخطوط: (ولام الفعل) وهو تحريف من الناسخ، والصحيح: (ياء الفعل).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٣٩؛ قال القرطبي: (وأصل (يا بني) أن تكون بثلاث يـاءات: ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافـة، فـأدغمت يـاء التصغير في لامِ الفعـل، وكسـرت لامُ الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسـكون الراء في هذا الموضع، وهذا أصل قراءة من كسر الياء، وهذا أيضاً أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضـاً مـن حـرف يحـذف، أو لسـكونها وسكون الراء).

(٣) في المخطوط: (الْمُطعِمُ) والمناسب كما أثبتناه.

قولهُ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ ؛ أي قِيْلَ بعدَ ما تناهى أمرُ الطُّوفان، وذلك لِمَا روى ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّ السَّمَاءَ مَطَرَتْ أرْبَعِينَ يَوْماً اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَخَرَجَ مَاءُ الأَرْضِ أرْبَعِينَ يَوْماً اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَسَارَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَطَافَتْ بهِمُ الأَرْضَ كُلَّهَا فِي خَمْسَةِ أشْهُرٍ لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى أتَتِ الْحَرَمَ فَلَمْ تَدْخُلْهُ، وَطَافَتْ بالْحَرَمِ اسْبُوعاً، وَرُفِعَ الْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ آدَمُ إلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، جُعِلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ عَلَى أبي قُبَيْسٍ، واُوْدِعَ فِيْهِ، ثُمَّ ذهَبَتْ بهِمُ السَّفِينَةُ فِي الأَرْضِ حَتَّى انْتَهَتْ بِهِمْ إلَى الْجُودِيِّ وَهُوَ جَبَلٌ بأَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ بَعْدَ خَمْسَةِ أشْهُرٍ). ويقالُ: رَكِبَ نوحُ في السفينةِ لعشرٍ مضَين من رجب، وخرجَ منها يومَ عاشوراء، فذلك خمسةُ أشهر.

فلما استقرَّت السفينةُ على الْجُودِيِّ كشفَ نوح الطبقَ الذي فيه الطيرُ، فبعثَ الغرابَ ليأتيه بالخبرِ فأبصرَ جِيفَةً، فوقعَ عليها وابطأ على نوحٍ ولم يأتهِ، فأرسلَ الْحَدَأةَ على إثرهِ فأبطأت عليه ولم تأته، فدعَا على الغراب أن يكون طويلَ العمر في مخافةٍ وشقاء. ثم أرسلَ الحمامة بعد الحدأة بسبعٍ فلم تجدْ مَوقِعاً فرجعت، فبسطَ لها نوحُ عليه السلام كفَّهُ فوقعت عليهِ، ثم مكثَ نوح ما شاءَ الله، ثم أرسلَها مرَّة أخرى فجاءت بعدَ ذلك فوقعت على الأرضِ وغابَت رجلاَها في الطِّين، فعرفَ نوحٌ أن الأرضَ قد ظَهرت، فدعَا بها فقالَ: كونِي آنَسَ طيرٍ وأنعمَهُ وأكيَسَهُ.

وقوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) أي أنْشِفِي الماءَ الذي خرجَ منكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَا سَمَاءُ أقْلِعِي) أي كُفِّي عن الصَّب، يقال: أقلعَتِ السماءُ إذا استمسكَ المطرُ حتى لم يبقَ له أثرٌ، وأقلعَتِ الْحُمَّى عن فلانٍ إذا تركتْهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ ؛ أي ونَشِفَ الأرض ماؤُها، ويقال غاضَ الماءُ يَغِيضُ إذا غارَ في الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ ؛ أي وقعَ هلاكُ الكفار على التَّمام، هَلَكَ مَن هلكَ، ونَجا مَن نَجَا. قال ابنُ عبَّاس: (نَشَّفَتِ الأَرْضُ مَاءَهَا الَّذِي خَرَجَ مِنْهَا، وَذهَبَ مَاءُ السَّمَاءِ إلَى الْبُحُورِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ (يَا أرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)).

قولهُ: ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ ؛ أي استوَتِ السفينةُ علـى الجـوديِّ شَـهراً، وهو جبلُ بالجزيرةِ، ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معنـاه: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (بُعْداً) أي سخطٌ من رحمة الله للقوم الكافرين، ويجوز أن يكـون هـذا مِن قول أهلِ السفينة حينَ نَجَوا من الغرق، وخرجُوا من السفينةِ، قالوا: (بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي أبعَدَهم اللهُ من رحمتِهِ في الآخرة أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ ؛ أي قومِي، ﴿ وَإِنَّ وَعۡدَكَ ﴾ ؛ بنجـاةِ قومـي، ﴿ ٱلۡحَقُّ ﴾ ؛ الصِّـدقُ لا شـكَّ فيـه، ﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ في قولِكَ وفعلِكَ، وكان دعاءُ نوحٍ ﷺ بهذا الدُّعاء حـين حَالَ الموجُ بينَهُ وبين ابنهِ كنعـان. ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ ؛ معناهُ: قال اللهُ: يا نوحُ إنَّهُ ليس من أهلِكَ الذين وعدتُكَ أن أنجِيَـهُمْ، إنمـا أهلُكَ دِينُكَ، وإنَّ ابنَكَ كافرٌ ليس على دينِكَ، فانقطعَتِ العصمةُ بينَـكَ وبينـه بكُفـرهِ وإيمانِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) أي إنَّ سؤَالَكَ إيَّايَ أنْ أنجِي كـافراً عَمَـلٌ غيرُ صالحٍ، قرأ الكسائيُّ ويعقوب (عَمِلَ) بكسرِ الميم وفتح اللام (غَيْرَ) منصوب؛ أي إنه عَمِلَ بالشِّركِ والتكذيب، وقرأ الباقون بالرَّفع والتنوينِ (غَيْرُ) بـالرفع؛ أي إنـه ذُو عَمَلٍ غير صالح. وَقِيْلَ: إنَّ سُؤَالَكَ إيَّاي نجاةَ ولدِكَ الذي ليس من أهلِكَ سؤَالٌ غـيرُ مُرْضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثـير بتشـديد النُّون وفتحِها، وقرأ أهلُ المدينة والشام بتشديد النونِ وكسرِها، والمعنى واحـدٌ؛ أي لا تسألني ما ليسَ لك به علمٌ أنه صوابٌ وأنا أفصِلهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي إنِّـي أعِظُكَ أن تسألَني سؤَالَ الجاهلِ، ولكن سَلْني سؤَالَ العالِم بي. والوَعْظُ في اللغة: هو الزَّجْرُ عن القبيحِ، وكان نداءُ نوحٍ (رَب إنَّ ابْنِي مِنْ أهْلِي) نداءَ تعظيمٍ لله تعالى علـى ظنٍّ أنَّ ابنَهُ من أهلِ دينه. وقولهُ تعالى (إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ) نداءُ تنبيهٍ على أنـه ليـسَ مِن أهلِ دينه، ولا من أهلِ أن يلطفَ به.

واختلَفُوا في هذا الابنِ، فقالوا: إنه لَمْ يكن ابنَ نوحٍ لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي مِن ولدِكَ وهو قولُ مجاهد والحسنِ، والمعنى على قولِهما إنهُ وُلِدَ لغيرِ رُشدهِ.

قال قتادةُ: (وسُئِلَ الْحَسَنُ عَنْهُ فَقَالَ: (وَاللهِ مَا كَانَ ابْنَهُ)، وَقَرَأَ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[1]! فَقُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ ابْنِي) وَقَالَ: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) وَأَنْتَ تَقُولُ: لَمْ يَكُنِ ابْنَهُ! وَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ لاَ يَخْتَلِفُونَ فِي أَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: (وَمَنْ يَأْخُذُ دِينَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ؟! إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ)[2]. وقال ابنُ جريج: (وَنَادَاهُ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ ابْنُهُ، وَكَانَ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِهِ)[3]. وقال بعضُهم: إنما كان ابنَ امرأتهِ، واستدلُّوا بقولهِ (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ولَم يقُل إن ابني منِّي، وهو قولُ أبي جعفر الباقر.

وقال أكثرُ المفسِّرين: إنه كان ولدَهُ مِن صُلبهِ، وقولهُ تعالى: (لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي الذي وعدتُكَ أن أنْجيهُمْ، قالُوا: ومَا بَغَتِ امرأةُ نَبِيٍّ قط، وإنَّما خيانتُهما في الدِّين لا في الفراشِ، ولأنَّ الله تعالى يعصِمُ أنبياءَهُ صلواتُ اللهُ عَلَيْهِمْ أن يقعَ مِن نسائهم ما يُلحِقُ بهم عَيْباً في الدُّنيا، وإنْ كان قد يقعُ منهنَّ ما يكــون عَيْباً في أمرِ الآخرة، وفي الحديثِ: [مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، وَكَانَتْ خِيَانَتُهَا لَهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَكَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الأَضْيَافِ] وهذا قولُ ابنِ عبَّاس وعكرمةُ وسعيد بن جبيرٍ والضحَّاك[4].

وقال أبو معاوية البجلي: (قَالَ رَجُلٌ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: قَوْلُهُ (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) هَلْ كَانَ ابْنَ نُوحٍ؟ فَسَبَّحَ اللهَ طَوِيلاً، قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، يُحَدِّثُ اللهُ مُحَمَّداً نَبِيَّهُ وَيَقُولُ إِنَّهُ ابْنُهُ وَتَقُولُ أَنْتَ لَيْسَ ابْنَهُ ! كَانَ ابْنَهُ وَلَكِنْ كَانَ مُخَالِفاً فِي النِّيَّةِ وَالْعَمَلِ

---

(١) التحريم / ١٠ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٦٤) بأسانيد عديدة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٧٠) عن ابن عباس، والأثر (١٤٠٧١) عن سعيد ابن جبير مختصراً.

وَالدِّينِ، فَمَنْ ثَمَّ قَالَ: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ))(١). وهذا القولُ أولَى بـالصواب، والـيَقُ بظاهرِ الكتاب.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ ؛ أي قال نوح: إني أمتنعُ بك أن أسألكَ ما ليس لي به علمٌ أنه صـوابٌ، ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي ﴾ خطيئَتي هذهِ وهي هذا السؤالُ، ﴿ وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ بالوزْرِ والعقوبةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ لنوحٍ: فاهبطْ من السَّـفينة إلى الأرضِ بـأمْنٍ وسـلامةٍ مـن الآفاتِ، (وَبَرَكَاتٍ) أي وخَيراتٍ ثابتة عليك وعلى الذين معـك مِـن المؤمنـين. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي وأمَـمٌ سنمتِّعُهم عليهم بعدَكَ في الدُّنيا ثم يَمسُّهم في الآخرةِ منَّا عذابٌ أليم، وهم الكـافرون وأهلُ الشَّقاوةِ.

فهبطَ نوحُ ومَن معه من الجوديِّ، ولم يكن لواحدٍ منهم نَسْلٌ إلا لنوحٍ وأولادهِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ)(٢)، وعن محمَّد بن كعبٍ قـال: (دَخَـلَ فِي السَّلاَمِ وَالْبَرَكَةِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَدَخَلَ فِـي الإمْتَـاعِ وَالْعَـذاب كُلُّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(٣). وفي الآيةِ دلالةٌ على ذلك؛ لأن لفظَ الأُمَمِ يـدلُّ على الجماعاتِ الكثيرة، ولم يكن مع نوحٍ في السفينة إلا قليلٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ ﴾ ؛ أي تلـك القصَّـةُ التي ذكرتُها لكَ يا مُحَمَّدُ قصةُ نوحٍ من الأمور الغائبة عنـكَ، ﴿ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ ، القرآن وهذا مِنَّةٌ مـن اللهِ تعـالى، ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ ﴾ ؛ علـى أذى الكفَّار، كما صبرَ نوحُ على أذاهم، واصبر على القيام بأمرِ الله وتبليـغ الرِّسـالةِ، ومـا تلقـى مـن أذى قومِـكَ كمـا صـبرَ نـوحُ علـى أذى قومـهِ، ﴿ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٧٣). (٢) الصافات / ٧٧ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٨٩).

﴿لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾؛ أي آخرَ الأمرِ بالسَّعادة والظَّفر والنصرِ للمتقين، كما كانت لنوحٍ ومَن آمنَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾؛ أي وأرسَلنا إلى عادٍ أخاهم هُوداً في النَّسب، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾؛ أي وَحِّدُوهُ دونَ الأصنامِ فإنَّها ليست بآلِهَةٍ، وما أنتُم إلا كاذبون في قولِكم إنَّها آلهةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي لا أسألُكم على ما أؤَدِّي إليكم من الرِّسالة مَالاً فتتَّهمُوني أنِّي أبتغي بذلك كسبَ مالٍ أو تخشَون أن ألزمَكم غرَماً في مالِكم، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾؛ أي ما ثوابي إلا على الذي خلقَني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾؛ أن الأمرَ على ما أقولهُ. وأصلُ الفطْرِ الشَّقُّ، وسمي الخلقُ فطراً لأنه يظهرُ به المخلوق كما يظهرُ الشيء بالشَّقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي استغفِرُوا ربَّكم من الكفر والذنوب ثم ارجِعُوا إليه بالنَّدم والعزم على تركِ العَوْدِ في الذُّنوب، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾؛ بالمطرِ، ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ دائماً مُتواتراً، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾؛ في أبدانِكم وأموالكم، ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾؛ التي لكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾؛ عمَّا أدعُوكم إليه مُذنبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي حُجَّةٍ، وقد جاءَهم بمعجزةٍ إلا أنَّهم لم يعتقِدُوها حجَّةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي قالُوا: ما نحنُ بتاركِي عبادةِ آلهتنا بقولِكَ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾؛ أي بمصدِّقين فيما تقولهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي قالُوا ما نقولُ فيكَ إلا أنه أصابَكَ بعضُ آلهتنا بجُنون فَخبَلَ عقلَكَ لسبكَ إيَّاها، وكان القومُ يعلمون وكلُّ أحدٍ أنَّ الذي يعقلُ ويُميِّزُ لو أرادَ أن يصيبَ غيره بجُنون لم يقدِرْ على ذلكَ، فكيف تقدرُ الأصنامُ التي لا عقلَ لها ولا تمييزَ ؟! والاعتِراءُ افتِعَالٌ من عَرَاهُ يَعْرُوهُ إذا مَسَّهُ وأصابَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ ﴾ ؛ أي قالَ هودُ: إنِّي أشهدُ الله على نفسِي، واشهَدُوا أنتم أيضاً أنِّي بريءٌ مما تُشركون مع اللهِ في العبادة، ولم يكن إشهادهُ إيَّاهم للاحتجاجِ بقولهم، وإنما هو للاحتجاجِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي إنْ قدرتُم على قَتلِي أنتم وآلهتُكم، أو على إنزالِ السُّوء، فافعَلُوا ولا تُمهلوني طَرفَةَ عَينٍ، ولم يقل هذا على جهةِ الأمرِ لهم، وإنما قالَ لبيانِ عَجزهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ﴾ ؛ أي فوَّضتُ أمرِي إلى خالِقِي وخالِقُكم متمسِّكاً بطاعتهِ وتاركاً لمعصيتهِ، وهذا هو حقيقةُ التوكُّلِ على اللهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ ؛ أي ما مِن أحدٍ إلا وهو في قَهْرِ اللهِ وتحت قُدرَتهِ، وإنما جعلَ الأخذ بالناصيةِ كنايةً عن ذلك؛ لأنَّكَ إذا أخذتَ بناصيةِ غيرِكَ فقد قَهرْتَهُ وأذلَلْتَهُ، والنَّاصيةُ مَقْدَمُ شَعْرِ الراسِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي هو في تدبيرِ عباده لا يفعلُ إلا الحقَّ، فإنه عادلٌ لا يَجُورُ، ويقال: إن معناهُ: أن طريقَ العبادةِ على الله كما قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ ﴾ ؛ أي فإنْ تولَّوا عن الإيمان فما هو تقصيرٌ مني في إبلاغِ الرسالة، ولكن لسُوءِ اختيارِكم، ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ ؛ أطوعَ له منكم؛ أي يهلِكُكم بعذاب استئصال، قد يستخلِفُ بهلاكِكُم قوماً غيرَكم أطوعَ له منكم، ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ ﴾ ؛ أي لا تَقدِرُون على أن تُنقِصُوا شيئاً من مُلكِهِ وهو سبحانهُ لا يجوزُ عليه المضَارُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي هو شاهدٌ على أعمالِ العباد للمجازاةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ منها.

---

(١) الفجر / ١٤ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ ؛ أي لما جاءَ أمْرُنا بعقاب قوم هُودٍ بالرِّيحِ العَقِيم، نَجَّينَا هُوداً والمؤمنين به من ذلكَ العقـاب، ﴿ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ يُحتمل أن يكـون المـرادُ: أنْ نَجَّاهُمْ مِن الريحِ العقيمِ، إلا أنه أعادَ ذِكْرَ النجاةِ للتأكيدِ وتفخيم الحـال. ويحتمـلُ أن يكون معناهُ: كما نَجَّينَا المؤمنين مِمَّا عُذِّبَ بـه عـادٌ في الدُّنيـا، فكذلـك نَجَّينَـاهم مـن عذاب الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ ﴾ ؛ أي كذبوا بدلائلِ اللهِ الدالَّة على وَحْدَانِيَّتِهِ وصِدْقِ أنبيائهِ، وعَصَوا هُوداً ومَن قبلَهُ ومَـن بعـدَهُ؛ لأنه ﷺ أرسِلَ بتصديق مَن قبله وبالبشارةِ لمن بعده، فلما كذبوهُ فقد كذبوا الرُّسُـلَ كلَّهم. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي أمـرَ كـلِّ طَـاغٍ عَاتٍ مُعرِضٍ عن اللهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ ﴾ ؛ أي أتبعُوا بعدَ الهلاكِ في هذه الدُّنيا بالإبعادِ عليهم باللَّعْنِ، فلَعَنَتْهُمُ الملائكةُ والناس ما دامَتِ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ ؛ أي ويومَ القيامةِ يُبعَدُونَ من رَحمـةِ الله كمـا أبعدوا في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ ﴾ ؛ أي جَحَـدوا، ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي أبعدَهم الله مـن رحمتـهِ إبعـاداً. وفي هـذا تَـهْدِيدٌ للكفار، كأنَّهُ تعالى قالَ: انظُروا يا أهـلَ مكَّـة كيـف فعلَـتْ عـادٌ وكيـف فُعِـلَ بـهم، فاحذرُوا أنْ يُصيبَكم مثلَ ما أصابَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ ﴾ ؛ في النَّسَـب، ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي أنشأ آباءَكم كما قـالَ في آيةٍ أخرى ﴿خَلَقَكُمْ مِـنْ تُـرَابٍ﴾(١)، ﴿ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ ؛ أي المـرادُ أن تكونـوا عُمَّارَ الأرضِ وسُكَّانَها، فمَكَّنَكم مـن عِمارَتِـها وأحوَجَكـم إلى المسـكنِ فيـها. وقـال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: أعْمَرَهَا لَكُمْ مُدَّةَ أعْمَارِكُمْ)(٢) مِنَ الْعُمْـرَى، وَهِـيَ الْهِبَـةُ الَّتِـي يَهَبُـهَا الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ عَلَى أنْ تَكُونَ لِلْمَوْهُوب لَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى الْوَاهِب.

---

(١) الروم / ٢٠، وغيرها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١١١) بمعناه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي استغفروهُ من الشِّرك والذنوب، ثم دُومُوا على التوبةِ، ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ ؛ ممن تقرَّبَ إليه، ﴿ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ لِمَن دعاهُ وأطاعَهُ. وأراد بالقُرب الإسراعَ بالرَّحمة والإجابةِ؛ لا قُرب المسافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ ؛ أي قد كُنَّا نرجُو فيكَ الخيرَ قبلَ هذا اليوم لِمَا كان فيكَ من الخلائق الحسَنة والشمائل المرْضِيَّة، والآنَ قد دعوتَنا إلى غيرِ دين آبائِنا قد يَئِسنَا منكَ، ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ؛ الألفُ ألِفُ استفهامٍ بمعنى الإنكار. وقولهُ تعالى ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي لو أجبنَاكَ إلى ما تدعُونا إليه لأجبنَاكَ على شَكٍّ ظاهرٍ، فإنَّا لا نعلمُ صِدقَكَ فيما تقولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ ﴾ ؛ أخبِرُوني، ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ ؛ برهانٍ وحجَّة، ﴿ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ ؛ نعمةً وهي النبوَّةُ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ ، فمَن يمنعُ عذابَ الله عنِّي إنْ عصَيتهُ مع نعمتهِ عليَّ، ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ إنْ عصيتُ اللهَ في اتِّباع دينِكم إلا خُسران الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ ؛ أي دلالةً ومُعجِزةً على صِدْق قَولِي حيث أخرجتُها لكم بإذن الله ناقةً عشراءَ من صخرةٍ ملساءَ كما سألتُم، ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ وقد تقدمَ ذلك في سورةِ الأعراف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ؛ أي لما جاءَ أمرُنا بالعذاب نَجَّينا صَالحاً من ذلك، ونَجَّينا الذينَ آمنُوا معهُ بنعمةٍ منَّا، ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ ، الْخِزْيُ: هو الذل الذي يُستَحى منهُ، وهو ما نَزَلَ بهم في كلِّ يومٍ من عَلامَةِ الأشقياءِ من اصْفِرَار وجُوهِهم في اليومِ الأوَّل، واحْمِرَارها في اليومِ الثاني، واسوِدَادِها في اليومِ الثالث، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ

﴿ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي هو القادرُ على أخذِ أعدائه، العزيزُ المنتقِم ممَّن عصاهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ معناهُ: الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكفرِ، وَقِيْلَ: الذين ظلَمُوا الناقةَ. والصَّيحَةُ: جِبريلُ عليه السلام صَاحَ بهم صيحةً هائلةً عند صباحِ اليوم الرابعِ، لَم تحتَمِلها قلوبُهم فهلَكُوا.

وإنَّما قالَ في هذهِ الآية: (وَأخَذ)، وفي آيةٍ أخرى: (وَأخَذتْ)؛ لأنَّ الصيحةَ والصِّياحَ واحدٌ، فردَّ الكنايةَ مرَّة إلى الصِّياحِ ومرَّة إلى الصَّيحَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي مَيِّتِينَ قد هَمَدُوا رَمَاداً جُثُوماً على الرُّكَب. ويقال: أصبحُوا في بلادِهم جَاثِمين على وجُوهِهم على الطَّرفِ. وقولهُ تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكونُوا في الأرضِ قَطُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي بربهم، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي أبعَدَهم اللهُ من رحمتهِ. وقرئ (لِثَمُودٍ) بالكسرِ لقُربها من قولهِ (ألاَ إنَّ ثَمُودَ)، فمَن صرفَهُ جعله اسماً، ومَن لم يصرفْهُ جعله اسماً للقبيلةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ جِبريلَ وَمَنْ مَعَهُ اثْني عَشَرَ مَلَكاً جَاؤُا إلَى إبْرَاهِيمَ لِيُبَشِّرُوهُ بإسْحَقَ مِنْ زَوْجَتِهِ سَارَةَ).

فلما دخَلُوا عليه، ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ ؛ أي سلَّمُوا عليه سَلاماً، وَقِيْلَ: قالوا: نُسَلِّمُ سَلاماً، وهو نَصبٌ على المصدر، وقولهُ: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ ؛ أي أجابَهم إبراهيمُ بأن قالَ: عليكم سَلامٌ. وإنما لم يقل عليكُم سَلاماً بالنصب؛ لأنه لو كان كذلكَ لكَان يُتوَهَّمُ أن إبراهيمَ عليه السلام حكَى قولَ الملائكةِ أنَّكم سلَّمْتُم سلاماً، فخالَفَ بينهما ليكون قولهُ جَواباً لَهم. ومَن قرأ بكسرِ السِّين، فالسِّلْمُ والسَّلامُ بمعنى واحدٍ، كحَلٍّ وحَرَمٍ مثل حلالٍ وحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي ما لَبثَ إبراهيمُ أن جاءَ بعِجْلٍ مَحْنُوذٍ؛ أي مَشْويٍّ، قال ابنُ عبَّاس: (الْحَنِيذُ: النَّضِيجُ)[١] وهو قولُ مجاهد وقتادة[٢]، والْحِنْذُ: إشْوَاءُ اللَّحمِ بالحجارةِ الْمُحَمَّاةِ في شَوْءٍ مِن الأرضِ، وهو مِن فِعْلِ البادِيةِ، وقال مقاتلُ: (إنَّمَا جَاءَهُمْ بعِجْلٍ لأنَّهُ كَانَ أكْثَرُ مَالِهِ الْبَقَرَ)[٣].

وقال الحسنُ: (إنَّمَا جَاءَهُمْ بالطَّعَامِ لأنَّهُمْ جَاؤُهُ عَلَى صُورَةِ الآدَمِيِّينَ، عَلَى هَيْأةِ الأَضْيَافِ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أحَبَّ إلَيْهِ مِنَ الضَّيفَانِ، وَلَوْ جَاؤُهُ عَلَى صُورَةِ الْمَلاَئِكَةِ لَمْ يَكُنْ يُقَدِّمُ إلَيْهِمْ ذلِكَ لِعِلْمِهِ باسْتِغْنَاءِ الْمَلاَئِكَةِ عَنِ الطَّعَامِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ ؛ أي لَمَّا وضعَ الطعامَ بين أيديهم، فرآهُم لا يَمُدُّونَ إليه أيديَهم أنْكرَهم، ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أضمرَ في نفسهِ، ﴿ خِيفَةً ﴾ ؛ خَوْفاً منهم، وكان أهلُ ذلكَ الزمانِ إذا لم يأكلْ بعضُهم من طعامِ بعضٍ خَافُوا من غَائِلَتِه. فلما عَلِمتِ الملائكةُ خوفَهُ منهم، ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ ؛ منَّا يا إبراهيمُ، ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ ﴾ ، أي إنَّ اللهَ أرسلنا، ﴿ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ لنُهلِكَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ ؛ معناهُ: وامرأتهُ سَارَةُ كانت قائمةً معه على رؤُوسِهم بالخدمةِ، ويقالُ: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ في حالِ محاورةِ إبراهيمَ مع الملائكةِ، ويقال: إنَّ سارةَ بنتُ عمِّ إبراهيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَضَحِكَتْ) أي ضَحِكَتْ من سُرورِها بالسَّلام، فزَادُوها بشَارةً بإسحقَ عليه السلام، وقال السديُّ: (إنَّ إبْرَاهِيمَ قَالَ لَهُمْ: ألاَ تَأْكُلُونَ؟! قَالُوا: إنَّا قَوْمٌ لاَ نَأْكُلُ إلاَّ بالثَّمَنِ، قَالَ: كُلُوا وَأدُّوا ثَمَنَهُ، قَالُوا: وَمَا ثَمَنُهُ؟ قَالَ: أنْ تَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أوَّلِهِ وَتَحْمَدُوهُ فِي آخِرِهِ. فَنَظَرَ جِبْرِيلُ إلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَقَالَ: حَقٌّ لِهَذا أنْ يَتَّخِذَهُ اللهُ خَلِيلاً، فَضَحِكَتِ امْرَأتُهُ وَقَالَتْ: عَجَباً لأَضْيَافِنَا نَخْدِمُهُمْ بأنْفُسِنَا تَكْرِمَةً لَهُمْ وَهُمْ لاَ يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا!)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٢٤).
(٢) جامع البيان: الأثر (١٤١٢٥) عن مجاهد، والأثر (١٤١٢٦) عن قتادة.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص١٢٥.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٣٧ و١٤١٤٨).

وقال قتادةُ: (ضَحِكَتْ لِغَفْلَةِ قَوْمِ لُوطٍ، وَقُرْبِ الْعَذَابِ مِنْهُمْ)[١]. وَقِيلَ: ضَحِكَتْ سُروراً بالأمْنِ منهم لَمَّا قالوا: لاَ تَخَفْ، وقال عكرمةُ: (ضَحِكَتْ أيْ حَاضَتْ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ قرأ ابنُ عامر وحمزة ويعقوب بالنصب على معنى: وَوَهَبْنَا لها من وراءِ اسحقَ يعقوبَ، وَقِيْلَ: بنَزعِ الخافض؛ أي وبشَّرناها من وراءِ اسحقَ بيعقوب، فلما حُذفت الباء نُصِبَ.

وقال الزجَّاج: (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ ذلِكَ فِي مَوْضِعِ الْخَفْضِ عَلَى ذلِكَ؛ لأنَّهُ لاَ يَجُوزُ الْفَصْلُ بَيْنَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ وَبَيْنَهُمَا وَاوُ الْعَطْفِ إلاَّ بإعَادَةِ حَرْفِ الْجَرِّ؛ لأنَّهُ لاَ يَجُوزُ أنْ يُقَالَ: مَرَرْتُ بزَيْدٍ فِي الدَّار وَالْبَيْتِ وَعَمْرٍو، حَتَّى يَقُولَ: وَبعَمرٍ)[٣].

وقولهُ (فَبَشَّرْنَاهَا بإسْحَقَ) قال المفسِّرون: كان إبراهيمُ قد وُلِدَ له من هَاجَرَ وكَبرَ وشَبَّ، فتمنَّت سارةُ أن يكون لها ابنٌ وآيَسَتْ من ذلك لكبَرِ سِنِّها، فبُشِّرت على كِبَرِ السنِّ بولدٍ يكون نبياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ وَرَاءِ إسْحَقَ يَعْقُوبَ) قال الزجَّاج: (بَشَّرُوهَا أنَّهَا تَلِدُ اسْحَقَ، وَأنَّهَا تَعِيشُ إلَى أنْ تَرَى وَلَدَ وَلَدِهِ، وَوَرَاءَ هَهُنَا بمَعْنَى بَعْدَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾؛ لا يجوزُ أن يكون هذا على جهةِ الإنكار، فإن (يَا وَيْلَتَا) كلمةٌ تستعمِلُها النساءُ عند وقوعِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٠١٢) عن ابن عباس.

(٣) في إعراب القرآن: ج ٢ ص١٧٦؛ قال النحاس: ((قال الفراء: ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الخافض. قال سيبويه: ولو قلتَ: مررتُ بزيدٍ أولَ أمسِ عمرٍو، كان قبيحاً خبيثاً، لأنك فرَّقتَ بين المجرور وما يشاركه وهو الواو كما تفرق بين الجار والمجرور)). ومعناه في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٥١؛ قال الزجاج: (ومَن زعَمَ أن يعقوب في موضع جر فخطأ زعمه، ذلك لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو العاطفة، لا يجوز: مررت بزيد في الدار، والبيتِ عمرو ولا في البيت عمرو، حتى تقول: وعمرو في البيت).

أمرٍ فظيعٍ، فاستعمَلَتها في هذا الموضعِ على جهة التعجُّب، ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ . وأصلهُ: يَا وَيْلَتِي فأُبدل من الياءِ الألـف لأنـه أخـفُّ مـن الياءِ والكسرِ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَتْ سَارَةُ بِنْتَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ زَوْجُـهَا ابْـنَ مِائَـةٍ وَعِشْرِينَ، فَتَعَجَّبَتْ بِأَنْ يَكُونَ بَيْنَ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ وَلَدٌ)[1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً) أي هـذا الـذي يعرفونـهُ بَعْلِي، ثـم قـالت (شَيْخاً) أي انتبـهوا لـه في حـالِ شيخوخَتهِ فهو نُصِبَ على الحالِ، وذهبَ الكوفيُّون إلى أنه نُصِـبَ علـى القطـعِ عـن المعرفة إلى النَّكرة كما يقالُ: خرجَ زيدٌ راكباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قالت الملائكـةُ: أتعجَبـينَ من قُدرة اللهِ وأنت عارفةٌ أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شـيء؟ قـال السـديُّ: (أَخَـذ جِـبْرِيلُ عُوداً يَابساً فَدَلَكَهُ بَيْنَ إصْبَعَيْهِ فَإذا هُوَ أخْضَرُ يهْتَزُّ، فَعَرَفَتْ أنَّهُ مِنَ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ ؛ معنـاهُ: نعمـةُ اللهِ عليكم في الدِّيـن والدنيـا وخيراتـهِ التامَّـة عليكـم يـا أهـلَ البيـتِ بيـتِ إبراهيـم ، ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ ﴾ ؛ لأعمـالِكم، ﴿ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي كريـمٌ يُكرمُكـم بـالنِّعَمِ، الكريمُ هو الذي يَبْتَدِئُ بالنعمةِ قبلَ الاستحقاق، والْمَجِيدُ الْمَاجِدُ وهـو ذو الشَّرَفِ والمجدِ والكرَمِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ ؛ أي الخـوفُ والفَــزَعُ، ﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ؛ بإسحقَ جعلَ، ﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ ، يجادِلُ رسُلَنا، ﴿ فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

واختلفُوا في هذهِ المجادلة، فقال بعضُهم: سألَ عن سبب تعذيب اللهِ لهم سـؤالَ مُستَقْصٍ حتى قالَ: إنَّ اللهَ أمرَ باستئصالِهم وبتخويفِهم بالعقاب، وحتى قال: إنَّ فيها لُوطاً. وقال بعضُهم: أراد بالمجادلةِ الدُّعاءَ والتضرُّعَ وشدةَ الحـرصِ علـى نجـاة القـومِ رجاءَ إيمانِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٥٠) عن ابن إسحق.

كما رُوي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قامَ من الليلِ يُصلِّي وهو يقولُ: يا رب أتُهلِكُ قومَ لوطٍ؟ قِيْلَ: يا إبراهيمَ ليس فيهم مؤمنون، قال: يا رب فإن كان فيهم خمسونَ أهلُ بيتٍ مُؤمنون أتُهلِكُهم ؟ قِيْلَ: لا، قال: فأربعونَ؟ قِيْلَ: لاَ، فَلَمْ يزل يُرَدِّدُ حتى قِيْلَ: إنْ كان فيهم خمسةُ أبياتٍ مؤمنين رفَعنا عنهم البلاءَ[1]. يقولُ الله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

قِيْلَ: لَمَّا جادَلَهم إبراهيمُ عليه السلام قالت له الرُّسُل: يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا الجدال، إنه قد جاءَ أمرُ ربكَ بعذابهم، وإنَّهم آتيهم عذابٌ غير مردودٍ، قولُه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ ؛ أي وَقُورٌ بَطِيءُ الغضب، والحليمُ: الْمُحْتَمِلُ للأذى مع قُدرتهِ على العقوبةِ والمكافأة، ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾ ؛ بالدعاء، ويقال: الرحيمُ، ويقال: المتأوِّهُ خوفاً وأسَفاً على الذُّنوب، و﴿ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ هو الراجعُ إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ ؛ أي عن جِدَالِكَ، ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ بهلاكهم، ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ غيرُ مُنصَرِفٍ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ؛ يعني لَمَّا جاءت الملائكةُ لوطاً ساءَهُ مجيئُهم، وضاقَ بهيأتهم قلبُه[3]؛ فإنَّهم جاؤهُ في صورةِ الغُلمَان الْمُرْدِ الحِسَان، وكان قد علِمَ عادةَ قومِه، فخافَ عليهم من صنعِ قومه، ﴿ وَقَالَ ﴾ ؛ في نفسِه: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي شديدٌ لازم شرُّهُ كالمعصُوب بالعُصبةِ، كأنَّهُ قال: هذا يومٌ الْتَفَّ الشرُّ فيه بالشرِّ، وأما ضِيقُ الذرْعِ فيوضعُ موضعَ ضيقِ الصَّدر، يقال: ضاقَ فلانٌ بأمرهِ ذرْعاً إذا لم يجد من الْمَكْرَهِ في ذلك مَخلصاً.

---

(١) اخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٤١٥٨-١٤١٦٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٠٤٠).

(٢) الذاريات / ٣٦ .

(٣) في المخطوط: (قبله) وما أثبتناه يناسب معنى السياق.

قِيْلَ: معناهُ: ضَاقَ بهم وسْعاً. وكان لوطٌ ضاقَ وسعَهُ بهم أنْ يحفظَهم. وفي الخبرِ: أنه جعلَهم فيما بينَ مَواشِيهم، فلما كان في وقتِ غفلةِ الناس حَملَهُم إلى دارهِ، فذهبت امرأتهُ الخبيثة وأخبرَتْهم، وقالَتْ لَهم: إنه قد نزلَ عند لُوطٍ أضيافٌ لم يُرَ قط أحسَنَ وُجوهاً منهم، ولا أطيبَ ريحاً، ولا أنظفَ ثياباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وذلك أنَّ امرأةَ لوط لَمَّا أخبرَتْهم بأضيافهِ، جاؤُا إلى دارهِ يُسرعُونَ إليه، ويُهَرْوِلُونَ هَرْوَلَةً، والإهْرَاعُ: مَشْيٌ بين مِشيَتَين، ومِن قبلِ ذلك كانوا يعمَلون المعاصِي، وهي ما كانوا يعمَلون من الفاحشةِ مع الذُّكور، فإنَّهم كانوا يعملون ذلك مِن دون أن يُخْفِي بعضٌ عن بعضٍ.

﴿قَالَ﴾ : لَهم لوطُ عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ؛ عَرَضَ عليهم بناتَهُ نِكَاحاً، وأظهرَ من نفسهِ في صونِهم ما لا شيءَ أبلغُ منه، أظهرَ الكرامةَ في باب الأضيافِ، فذكرَ بناتَهُ ليدلَّ بذلك على التشديدِ في دَفعِهم عمَّا أرادُوا. فكان يجوزُ في ذلك الوقتِ تزويجُ الْمُسْلِمَةِ من الكافرِ، كما كان يجوزُ في شَريعتنا في ابتداءِ الإسلام، فإنَّ النبيَّ ﷺ زوَّجَ ابنتَهُ من ابنِ العاص بن الرَّبيع. ويقالُ: أرادَ بقوله (بَنَاتِي) بناتَ قومهِ؛ لأن النبيَّ يكون للقومِ بمنْزلةِ الوالدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ ؛ أي اتَّقُوا عقابَ الله، ولا تُلزمُوني عَيباً في ضَيفِي، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ في نفسهِ فينْزَجِرُ عن هذا الأمرِ، ويزجرُكم عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي مَيلَنا إلى الغِلمَان دون النِّساء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ ؛ أدفعُكم بها عن أضيَافي، ويُمكِنُني، ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ ؛ إلى قبيلةٍ أستغيثُ بها على دَفعِكم لَمَنَعْتُكُم أشدَّ المنعِ عما تُحاولون.

وعن رسول الله ﷺ قال: [رَحِمَ اللهُ أخِي لُوط لَقَدْ آوَى إلَى رُكْنٍ شَـدِيدٍ][1] أي التجأ إلى اللهِ وملائكته، وقال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا عَلِمَ جِبْرِيلُ وَالْمَلاَئِكَةُ خَوْفَ لُوطٍ مِنْ تَهْدِيدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ كَانَ لُوطُ أغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَـى الْمَلاَئِكَـةِ وَهُـوَ يُنَاشِـدُ قَوْمَهُ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: يَا لُوطُ إنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، وَإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ ؛ فـافتحِ البـابَ ودَعْنا وإيَّاهم، ففتحَ البـابَ فدخلُـوا، فقـامَ جـبريلُ في الصُّـورةِ الـتي يكـون فيـها في السَّماء، فنَشَرَ جناحَهُ وضربَ بـه وُجوهَـهم فطَمَـسَ أعيُنَـهم وأعمَـاهُم، فصـارُوا لا يعرفون الطريقَ ولا يهتَدُون إلى بُيوتِهم.

فقالَ لوطُ عليه السلام متى مَوعِدُ هَلاكِهم ؟ قالوا: الصُّبْـحَ، قـالَ: أريـدُ أسـرعَ مـن ذلك، فقالوا: أليس الصُّبح بقريبٍ؟ وذلـك قولـهُ تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَـنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أعْيُنَهُمْ﴾[3].

ثُم قالوا له: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ؛ وفيه قراءَتان (فَأسْـر) بـالهمز والوصـلِ، يقال سَرَى وأسْرَى بمعنى واحدٍ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي في آخـرِ الليل عند السَّحَرِ والهدوءِ، وقال الضحَّاك: (بقِطْعٍ أيْ ببَقِيَّةٍ)، وقـال قتـادةُ: (بَعْـدَ مَـا مَضَى صَدْرُهُ)، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ .

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو (امْرَأتُكَ) رفعاً على الاستثناءِ مـن الإلتفـات؛ أي ولا يلتَفِت أحدٌ إلا امرأتُكَ، فإنَّها تلتفتُ فتهلَكُ. وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء من الإسراءِ؛ أي فَاسْرِ بأهلِكَ إلا امرأتَكَ فلا تَسْرِ بها وخلِّفها مـع قومِـها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(١٤٢٠٢) بأسانيد ثمانية عن أبي هريـرة رضي الله عنه. والإمـام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٨٤. والترمذي في الجامع: سورة يوسـف: الحديـث (٣١١٦) مكـرراً وحسنه. والحاكم في المستدرك: ذكر لوط النبي: الحديث (٤١٠٨)، وقـال: صحيـح علـى شـرط مسلم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢١١) عن وهب بن منبه.

(٣) القمر / ٣٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ﴾ ؛ أي قالت الملائكةُ: إن وقتَ هلاكِهم، ﴿ ٱلصُّبْحُ ﴾ ؛ فقالَ لوط: الآنَ يا جبريلُ، وإنما ذلكَ لضيقِ صدره منهم وشدَّة غيظِه، فقالَ جبريلُ: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ وفي هذا بيانُ أنَّ اللهَ لا يُهلِكُ أحداً قبلَ انقضاءِ مدَّتهِ، وإنْ ضاقَتْ صدورُ أوليائهِ عنه.

وعن ابن عبَّاس: (أنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا قَالَ لِلُوطٍ: فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ لُوطُ: يَا جِبْرِيلُ كَيْفَ أَصْنَعُ وَأَبْوَابُ الْمَدِينَةِ قَدْ أُغْلِقَتْ، فَجَمَعَ لَهُ جِبْرِيلُ أَهْلَهُ وَبَقَرَهُ وَغَنَمَهُ وَمَالَهُ، وَاحْتَمَلَهُمْ عَلَى جَنَاحِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ مُتَوَجِّهاً إِلَى صَغَرَ، وَهِيَ عَلَى أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ مِنْ مَدَائِنِ لُوطٍ، وَهِيَ إِحْدَى الْقُرَى الْخَمْسِ: سَدُومُ وَدَادَ وَمَاو وَعَامُورا وَصَغَرْ، وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ صَغَرْ يَعْمَلُونَ عَمَلَهُمْ، وَكَانَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ أَلْفُ مُقَاتِلٍ، فَمَا سَارَ لُوطُ فَرْسَخَيْنِ حَتَّى سَمِعَ الصَّيْحَةَ)[١].

كما رُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام جعلَ جناحه في أسفلِها فرفَعها من الأرضِ السَّابعة إلى السَّماءِ حتى سَمِعَ أهلُ السَّماء نباحَ الكلاب وصياحَ الدِّيكة، ثم قلبَها وجعلَ أسفلها أعلاَها، وأعلاها أسفلَها، وأقبلَت تَهوي من السَّماءِ إلى الأرض، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ؛ قال وهبُ: (لَمَّا رُفِعَتْ إِلَى السَّمَاءِ أَمْطَرَ اللهُ عَلَيْهَا حِجَارَةَ الْكِبْرِيتِ بِالنَّار، ثُمَّ قُلِبَتْ عَلَيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) قِيلَ: أمطرَ اللهُ الحجارةَ على شُذاذِهم ومُسافريهم. واختلَفُوا في السِّجِّيل، فقيل: هو فارسيةٌ مُعرَّبَة، وفيه بيانُ أن تلك الحجارةَ كانت شديدةً صَلِبَةً، نحو ما يُطبَخُ من الطِّين فيصيرُ كالآجُرِّ وأصلبَ منه، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[٢]. وقال بعضُهم: هو من سجيل وهو الإرسَالُ، فيكون معناهُ: حجارةً مُرسَلَةً، ويقال: السِّجِّيلُ: سَماءُ الدنيا، وقيل: السجِّيلُ وَالسِّجِّينُ: الشديدُ من الحجَرِ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٠٩) عن قتادة مختصراً.
(٢) الذاريات / ٣٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي بعضُهم فوقَ بعضٍ. وقولُهُ: ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾؛ أي مُعَلَّمَةً بعَلامةِ المعاقَبين، وكانت مخطَّطة بالسَّوادِ والْحُمْرَةِ والبَياضِ. وَقِيْلَ: كان مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمَ مَن هَلَكَ بهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ أي أعلَمَتها الملائكةُ في السَّماء بأمرِ الله.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ أي وما تلك الحجارةُ من ظالِمي أمَّتِكَ ببعيدٍ. وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (لاَ وَاللهِ لاَ تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ حَتَّى تَسْتَحِلَّ هَذِهِ الأُمَّةُ أدْبَارَ الرِّجَالِ كَمَا اسْتَحَلُّوا النِّسَاءَ، وَلاَ تَذْهَبُ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يُصِيبَ طَوَائِفَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ حِجَارَةٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّك).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾؛ أي وإلى ولَدِ مدينَ بن إبراهيم أخاهُم في النَّسب، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾؛ أي ولا تَنقُصُوا حقوقَ الناسِ عند الكَيْلِ والوزنِ عليهم بالتَّطفيفِ، ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾؛ أي إنِّي أراكُم في الخصْبِ والرُّخْصِ ما أوفيتُم للناسِ حقوقَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إنِّي أراكم في كثرةِ الأموال، وأنتم مُستَغنون عن نُقصَانِ الكَيْلِ والوزن، ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي عَذاباً يحيطُ بكم فلا يفلتُ منكم أحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾؛ أي بالعدل، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾؛ أي ولا تنقُصوهم حُقوقَهم، ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ أي لا تضطَربوا في الأرضِ بالقبيح مُفسدِين بالمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا ﴾؛ معناهُ: ما أبقاهُ الله خيرٌ لكم من الحلال بعد إتْمَامِ الكيلِ والوزن خيرٌ لكم مما حرَّمَ عليكم من البخسِ والتطفيفِ إنْ كنتم مصدِّقين ما أقولُهُ لكم. ويقالُ: أراد بالبقيَّة طاعةَ الله، فإنَّها هي التي يبقَى ثوابُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ أي لم أوكَّلْ بحفظِكم فأقاتِلَكم وأمنعَكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ ؛ أي قالوا يا شعيبُ: أكثرةُ صَلواتِكَ التي تفعَلُها تأمرُكَ أن نتركَ عبادةَ ما يعبدُ آباؤنا، وتأمرُكَ أن تأمُرَنا بأنْ لا نفعلَ في أموالنا ما نشاء، وقال عطاء: (مَعْنَى قَوْلِهِ: أصلاتُكَ؛ أيْ دِينُكَ يَأْمُرُكَ، فَكَنَّى عَنِ الدِّينِ بالصَّلاَةِ؛ لأنَّهَا مِنْ أمْرِ الدِّينِ، وَكَانَ شُعَيْبُ كَثِيرَ الصَّلاَةِ، فَلِذلِكَ قَالُوا هَذا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ ؛ السفيه الجاهل، فذكروا الحليم الرشيد على جهةِ الاستهزاء، هكذا رُوي عن ابن عبَّاس، ويقال: قالوا ذلك علَى جهةِ التحقيقِ إنكَ لأنتَ الحليمُ الرشيد في قومِكَ، فكيف تَنهَانا عن عبادةِ ما يعبدُ آباؤنا وعن أن نفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ من البَخْسِ والتَّطفيفِ، كأنَّهم استبعَدُوا أن يكون آباؤُهم قد أخطَأوا في دِينهم ورباهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ ؛ أي قال لَهم شعيبُ: أخبروني إنْ كنتُ على دلالةٍ واضحة من ربي، ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ النبوَّةَ فإنَّها أعظمُ رزْقِ الله تعالى. وقِيْلَ: أراد به المالَ الحلالَ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ شُعَيْبُ ﷺ كَثِيرَ الْمَالِ كَثِيرَ الصَّلاَةِ)، وقِيْلَ: معنى قولهِ (رزْقاً حَسناً) أي عِلْماً ومعرفةً. وأما جوابُ قولهِ (إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبي وَرَزَقَنِي) المالَ الحلال اتبعهُ الضلالَ فأبْخَسُ وأطَفِّفُ، أشُوبَ الحلالَ بالحرامِ كما تفعلون به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ؛ أي ما أريدُ أن تترُكوا ما نهيتُكم عنه لأعملَ أنا به فانتفعَ، والمعنى لستُ أنهاكُم عن شيءٍ ثم أدخلُ فيه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ؛ أي ما أريدُ إلا الإصلاحَ في أمر الدين والمعاش بقدر استطاعَتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ؛ أي ما توفيقي للصَّلاح إلا مِنَ اللهِ، والتوفيقُ من اللهِ: هو كلُّ فِعْلٍ يَتَّفِقُ مَعَ الْعَبْدِ عِنْدَ اخْتِيَار الطَّاعَةِ وَالصَّلاَحِ، وَلَوْلاَهُ لَكَانَ يَختارُ خِلافَ ذلِك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ؛ أي فوَّضتُ أمري إلى اللهِ، وقولهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ ؛ أي أرجعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ ؛ أي يا قومِ لا يكسِبَنَّكم عداوتي أنْ لا تُؤمنُوا فيصِيبُكم مثلُ ما أصابَ قومَ

نوحٍ من الغرَق، ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ ؛ من الرِّيح العقيم، ﴿ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ ؛ من الصَّيحَةِ، ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي قد بلَغكم ما أصابَهم وهم أقربُ إليكم ممن تقدَّمهم. يجوزُ أن يكون المراد بذلك قُربَ زمانِهم، ويجوز أن يكون المرادُ به قربَ ديارهم منهم، وكلٌّ ذلك أقربُ إلى الاعتبار.

قولُهُ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ اي استَغفِرُوهُ من الشِّركِ والذنوب، ثم تُوبُوا إليه بإخلاصٍ، ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ بعبادهِ، ﴿ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ مُتَوَدِّدٌ بالنِّعم وقبول التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ؛ أي ما نفْهَمُ كثيراً مما تقولُ، قال ابنُ الأنباريِّ: (مَعْنَاهُ مَا نَفْقَهُ صِحَّةَ كَثِيرٍ مِمَّا تَقُولُ، يَعْنُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ، وَمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الزَّكَاةِ وَتَرْكِ الْبَخْسِ، وَالْفِقْهُ فِي اللُّغَةِ هُوَ اسْتِدْرَاكُ مَعْنَى الْكَلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ ؛ قالَ ابنُ عبَّاس: (أَرَادُوا بِالضَّعْفِ أَنَّهُ ضَرِيرُ الْبَصَرِ)[1]، وقال ابنُ جبير: (مَعْنَاهُ إنَّا لَنَرَاكَ أعْمَى)[2]، وقد رُوي أنه كان قد ذهبَ بصرهُ من كثرةِ بُكائهِ من خَشيَةِ اللهِ تعالى. وفي بعضِ الرِّوايات: أنه عَمِيَ ثلاثَ مرَّات، وكان اللهُ تعالى يردُّ عليه بَصَرَهُ حتى أوحَى إليه: يا شعيبُ ما هذا البكاءُ ؟ قال: شَوقاً إليك يا رب. وسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ شُعَيْبٍ قَالَ: [ذاكَ خَطِيبُ الأَنْبيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ ؛ أي ولو لا عَشِيرتُكَ لقتلنَاكَ بالحجارةِ، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي إنا لا نَدَعُ قتلَكَ لعزَّتِكَ علينا، ولكن لأجلِ قومِكَ. والمعنى: لستَ تَمتَنِعُ علينا أنْ نقتُلَكَ لولا ما نُراعِي من حقِّ عَشيرَتِكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١١٦٠) عن ابن عباس. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٧١) عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٦٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان:الأثر(١٤٧٢١):قال سفيان:(وكان يقال له خطيب الأنبياء).

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إنَّكم تزعُمون أنَّكم تتركون قَتلِي إكراماً لرَهْطِي واللهُ تعالى أوْلَى بأن يُتَّبَعَ أمرهُ؛ أي إنَّكم تركتم قَتلِي لأجلِ عشيرتِي، ولا تتركونَهُ لأجلِ اللهِ، قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ ﴾ ؛ أي نَبَذْتُمْ أمرَ اللهِ وراءَ ظُهوركم، والظِّهْرِيُّ: ما نَبذهُ الإنسانُ وراءَ ظَهرهِ، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ، لا يَعزُبُ عنه عِلمُ شيءٍ.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾ ؛ أي اعمَلُوا على دِينِكم إنِّي عاملٌ على دِينِي، وهذا على سبيلِ التَّهديد والوعيدِ، والْمَكَانَةُ والمكانُ بمعنى واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ ﴾ ؛ أي يُذِلُّـهُ ويُهينُهُ، وَ تعلمُون ﴿ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ ﴾ ، على اللهِ، ﴿ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أي انتَظِروا إنِّي منتظرٌ معكم.

قَوْلُهُ تَعـالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ أي نَجَّينا شُعيباً من ذلك العذاب، ونَجَّينا الذيـن آمنـوا معـه برحمـةٍ منَّـا، ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ ؛ يعني من قومِ شُعيب.

يقـال: إنَّ جـبريل صـاحَ بـهم صيحـةً، فخرجـت أرواحُـهم مـن أجسـادِهم، ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي ميِّتين ساقِطين صَرْعَى. وَقِيْـلَ: بـل واقِفِين على رُكبِهم، ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكونوا في الأرضِ قطُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: الاَ سُحْقاً وهلاكاً لقومِ شُعيب كما هلَكت ثَمُودُ، وإنما شبَّهَهم بثَمُودَ؛ لأن الصيحةَ كـانت سَبباً في هلاكِ الفريقَين جميعاً.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مَدْيَنَ أصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ، وَلَمْ تَتحَـرَّكِ الرِّيـحُ لَيْـلاً وَلاَ نَهاراً، فَكَانَ يُحرِقُهُمْ باللَّيْلِ حَرُّ القَمَرِ، وَبالنَّهَار حَرُّ الشَّمْسِ، فَنَشَأَتْ لَهُمْ سَـحَابَةٌ كَهَيْئَةِ الظُّلَّةِ فِيْهَا عَذابُـهُمْ، فَأتَوهَـا يَسْتَظِلُّونَ تَحتَـهَا وَيَطْلُبُـونَ الـرَّوْحَ، فَسَـالَ عَلَيْـهِمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَرَجَفَتِ الأَرْضُ مِنَ الْعَذاب وَأحرَقَتْهُمُ السَّـحَابَةُ، وَذلِـكَ قَوْلُـهُ

تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(1)).

قال: (وَلَمْ يُعَذبْ أُمَّتَان بعَذابٍ وَاحِدٍ إلاَّ قَوْمَ شُعَيْبَ وَصَالِح، فَأَمَّا قَوْمُ صَالِحٍ فَأَخَذتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَأمَّا قَوْمُ شُعَيْبٍ فَأَخَذتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ فَوْقِهِمْ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ أي أرسَلنا مُوسَى بدَلائِلنا، والآيـةُ العلامـةُ الـتي فيـها العِـبرَةُ، وقولـه تعـالى: (وَسُلْطَان مُبين) أي وحجَّة بيِّنَةٍ مسلَّطة علـى إبطَـال الفاسـد. وقولـه تعـالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ؛ وأشرافِ قومِهِ، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ ؛ أي اتَّبعوا قولَـهُ وتركُـوا أمـرَ الله، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ ؛ أي مـا هـو بصَـائبٍ، إلا أنَّـهم اتبعـوا وخالَفُوا أمرَ موسى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ؛ أي يَمشِي أمامَ قومِهِ يومَ القيامةِ حتى يهجُمَ بهم على النار، وإنما يمشِي أمامَ قومِهِ يومَ القيامـة لأنَّـهم اتبعوهُ في الدنيا حتى هدَاهُم إلى طريقِ النار، فكذلكَ يمشي بهم في الآخرةِ حتى يدخلَ بهم النارَ.

وأما عطفُ الماضي الذي هو (فَأَوْرَدَهُمْ) على المستقبلِ فهو على معنى فهو إذا قَدِمَهُمْ أوردَهم النارَ. وإنما تقدَّمَهم ولم يقل يسبقُ؛ لأن قولَهُ يسبقُ قومَهُ لا يدلُّ علـى أنه يَمشِي بين أيديهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ فيـه إلى النـار، والـوِرْدُ في الحقيقة إنما يستعملُ في الماءِ كما قالَ تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)(2)، ولكنْ لَمَّـا كـان فرعونُ وقومه في الآخرةِ يكونون عَطَاشَى ويَرِدُونَ على ما بهم من العطَـشِ اسـتعملَ فيهم هذه اللَّفظة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ؛ أي وأتْبَعَـهُم اللهُ في الدنيا لعنةً بإبعادِهم عن الرَّحمة بالغرقِ (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) لَهم لعنـةٌ أخـرى وهـي النـارُ،

---

(1) الشعراء / ١٨٩ .

(2) القصص / ٢٣ .

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ ؛ بئْسَتِ اللعنةُ على إثْـرِ اللعنـة، تَرَادَفَـتْ عليـهم اللَّعَنَاتُ الغرَقُ في الدنيا والنارُ في الآخرةِ.

والرِّفْدُ في اللغة: هو العَوْنُ في الأمرِ إلا أن العطيـةَ تُسـمَّى رِفْـداً لما فيـها مـن العَوْن، كأنَّهُ قالَ: بئْسَ العطاءِ ما أعطَى. وقال بعضُهم: هذا من الْمَقْلُـوب؛ أي بئْـسَ الرِّدْفُ الْمَرْدُوفُ، فالرِّدْفُ: لَعْنَةُ اللهِ إياهم، والمردوفُ لَعْنَةُ الأنبياءِ والمؤمنين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ ؛ أي ذلـكَ الـذي ذكرتُ يا مُحَمَّدُ من أخبار الأُمَمِ الماضيةِ ينْزِلُ به عليكَ جبريلُ عليه السلام نقصُصهم عليكَ مرَّةً بعد مرةٍ، مأخوذٌ من إتبَاعِ الشيءِ الشيءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ أي منها قائمُ الأبنِيةِ وقـد بـادَ أهلهُ كما قالَ تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[1]، والحصيدُ ما هَلَكَ بأهلهِ فلا يبقى له مكان ولا أثرَ نحو مدائنِ قومِ لوط حُصِدت من الأرضِ السُّفلَى. والمعنى منها قائمٌ بقيَت حيطانهُ ومنها حصيدٌ مخسوفٌ به قد أمْحِيَ أثره، قال ابنُ عبَّاس: (قَائِمٌ يَنْظُـرُونَ إلَيْهِ وإلَى مَا بَقِيَ مِنْ أثرهِ، وَحَصِيدٌ قَدْ خَربَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أثَرٌ شَبيهٌ بالزَّرْعِ إذا حُصِدَ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ؛ أي مـا ظلَمنـاهم بإهلاكِهم، ولكن ظلَمُوا أنفُسَهم بسوءِ اختيارهم، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ ؛ أي فما نفعَتهُم آلهتُهم، ﴿ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾ ؛ التي كانوا يعبُدونـها، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ ؛ أي تَخْسِيرٍ ومنـهُ: ﴿تَبَّـتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2] أي خَسِرَتْ يداهُ وخَسِرَ هو.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ ؛ معنـاهُ: كما أخذ ربُّكَ فرعون ومَن تَقدَّمَهُ من الكفار، فكذلك أخْذُ ربكَ إذا أخذ القُرى وهي كافرةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وقولهُ تعـالى: (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) من صِفَةِ القُرَى وهي في الحقيقـةِ لأهلِـها وسُكانِها، ونحـو هـذا قولـه ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[3].

---

(١) الحج / ٤٥ (٢) المسد / ١ . (٣) الأنبياء / ١١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك لعِبرَةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ فلا يَقتَدِي بهم، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ؛ معناهُ: إن يومَ القيامة يومُ يُجْمَعُ فيه الأوَّلون والآخِرون، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي يشهدُه أهلُ السموات والأرض. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ وقد عدَّهُ الله، وعَلِمَ أن صلاحَ الخلقِ في إدامة التكليفِ عليهم إلى ذلك الأجَلِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ مَن قرأ (يَأتِي) بإثبات الياء فعلَى الأصلِ، ومعناهُ: يوم يأتِي ذلك اليومُ لا تَكلَّمُ نفسٌ في الشَّفاعةِ إلا بأمرِ الله، ويقالُ: لا يجبرُ أحدٌ أن يتكلَّم بالاحتجاجِ وإقامة العُذر من مَشِيئَةِ اللهِ إلا بإذنه، ومَن قرأ (يَأتِ) بغيرِ ياء فهي لُغة هُذيلٍ، وهكذا في مُصحَفِ عُثمان، ومنه يقولُ العرب: لاَ أدْرِ ولا أمْضِ، فيحذفُ الياءَ ويجتزئُ بالكسرِ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن الناس شَقِيٌّ وسعيدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي فأمَّا الذين كُتبت عليهم الشقاوةُ ففي النار، وقال بعضُهم: شَقُوا بفِعلِهم، وقال بعضُهم: شَقُوا في بطُون أمَّهاتِهم، فما شَقِيَ أحدٌ بفعلٍ إلا بعدَ ما شَقِيَ في بطنِ أمه، وما شَقِيَ في بطنِ أمه إلا بعدَ سابقِ علمِ الله فيه، وإنما يلحقـهُ اللَّومُ بالشقاوة المحتومةِ لا بالشقاوة المعلومة، وكذلك السعادةُ على هذه الجملة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ الزفيرُ شدَّةُ الأَنِينِ في الصَّدر، والشهيقُ الأَنِينُ الشديدُ المرتفع نحوَ الزَّعْقَةِ التي تكون من شدَّةِ الكَرْب والحزن، وربَّما يتبعُها الغَشْيَةُ، ومن هذا قالوا: إن الزفيرَ أوَّلُ صوتِ نهيق الحمار، والشهيقُ آخر صوت نهيقهِ، وسُمي رأسُ الجبلِ شاهقاً لارتفاعه.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي دائمين في النار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ؛ قال بعضُهم: أرادَ بذلك مقدارَ سماء الدُّنيا وأرضها، وذلكَ أنَّ العربَ إذا أرادت تأكيدَ التأكيدِ والتبعيد قالت: ما دامتِ السمواتُ

والأرض، وما لاحَ كوكبٌ، وما أضاءَ القمرُ، وما اختلفَ الجديدان، لا يريدُ بذلك الشرطَ، وإنما يريد بذلك التأكيدَ والتبعيدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أي سِوَى ما شاءَ ربُّكَ من الْخُلُودِ بعدَ مُضِيِّ مقدار سماء الدُّنيا وأرضها. وقال بعضُهم: معنى الآية: ما دامَت سماءُ الدُّنيا وأرضها، وسماءُ الجنَّة وأرضها، وقوله: (إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ) مذكورٌ على وجه التأبيدِ أيضاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ أي يفعلُ ما شاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ ؛ مَن قرأ (سُعِدُوا) بضمِّ السين فمعناهُ: رُزقُوا السعادةَ، ومِمَّن قرأ ذلك أهلُ الكوفة، قولهُ: ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي أعطَاهم النعيمَ عطاءً غير مجذوذٍ أي غير مقطوعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ ؛ أي فلا تكن أيُّها الشاكُّ في مِرْيَةٍ، ﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ من دون الله أنه باطلٌ، والمِرْيَةُ هي الشكُّ مع ظهور دلائل التُّهمةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ معناهُ: ما يعبدون إلا على جهةِ التقليد لآبائهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي حظَّهم من العذاب غيرَ منقوصٍ عن مقدار ما استحقُّوا؛ آيسَهم الله بهذا القول عن العفوِ، وَقِيْلَ: أرادَ بالنصيب الأرزاقَ والآجال، وما قُدِّرَ لهم في دُنياهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ؛ أي ولقد أعطينا موسى الكتابَ، فصدَّق به بعضُهم، وكذب به بعضهم، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي لولاَ وعدُ الله سبقَ بإبقاء التكليفِ عليهم إلى ذكرِ الوقت لقضى بتعجيلِ العقاب لمن استحقَّ العقابَ في الدُّنيا، وبتعجيل الثواب لمن استحقَّ الثوابَ في الدنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي وإنَّهم لفِي شكٍّ من القرآنِ يريبُهم أمرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ كُلاًّ من الفريقَين المصدِّق والمكذِّب يجتمعان يومَ القيامة فيُوفِّيهم ربُّكَ، ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ على التمامِ، ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ وبما يستحقُّون من الجزاءِ خَبيرٌ.

قرأ ابنُ كثير ونافع (وَإِنْ كُلاًّ لَمَا) كلاهما بالتخفيفِ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (وَإِنْ) مخفَّفة (لَمَّا) مشدَّدة، والباقون كلاهما بالتشديدِ، فحُجة أبو عمرو والكسائي أن اللامَ في قوله (لَمَّا) لامُ التأكيدِ دخلت في خبرِ إن، واللامُ التي في (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لامُ القسمِ، تقديره: واللهِ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ، دخلت (مَا) للفصلِ بين اللاَّمَين.

وأما حُجة نافع وابن كثير في نصبهِ (كُلاًّ) ما قال سيبويه: إنَّهُ سَمِعَ مِنَ الْعَرَب مَنْ يَقُولُ: إنْ عَمراً لَمُنْطَلِقٌ، فَيُخَفِّفُونَ إنْ وَيُعْمِلُونَهَا، وأنشدَهُ الشاعرُ[١]:

وَوَجْهُهُ حَسَنُ النَّحْرِ كَأَنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّانِ

والمعنى على قراءةِ أبي عمرو (وَإِنَّ كُلاًّ) من السعيدِ والشقيِّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ربُّك أعمالَهم، و(مَا) زائدةٌ في قولهِ (لَمَّا)، ومَن خفَّف (إِنْ) كان معناه معنى المشدَّدة، تقول: إنْ زَيْداً لَقَائِمٌ، وَإنَّ زَيْداً لَقَائِمٌ، تريدُ إثباتَ قيامهِ، فإذا قُلتَ: إنْ زَيْدٌ قَائِمٌ، فمعناهُ: مَا زَيْدٌ قَائِمٌ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[٢] بتخفيفِ (لَمَا)، تقدير لعلَّها حافظٌ، ومن خفَّف (إِنْ) وشدَّدَ (لَمَّا) فتأويلهُ الجحدُ والتحقيق؛ أي ما كلٌّ إلا لَيُوَفينَّهم، ونُصبَ (كُلاًّ) على هذا التأويلِ بـ (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لا بـ (أنْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ؛ أي استقمْ يا مُحَمَّدُ في التمسُّكِ بطاعةِ الله تعالى كما أُمِرْتَ وَ ليستقم، ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ ؛ من الشِّركِ، ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ ؛ بمجاوزةِ أوامرِ الله تعالى، ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

---

(١) في جامع البيان؛ حكاه الطبري:

وَوَجْهُهُ مُشْرِقُ النَّحْرِ كَأَنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّانِ

(٢) الطارق / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي لا تميلُوا إلى الذين ظلموا بالأنس بهم والمحبَّة والرضا بفعلِهم، قال السديُّ: (وَلاَ تُدَاهِنُوا الظَّلَمَةَ)، وقال أبو العاليةِ: (لاَ تَرْضَوا بأعْمَالِهِمْ)(١)، وقال عكرمةُ: (هُوَ أنْ يُحِبَّهُمْ)، وقال قتادةُ: (وَلاَ تَلْحَقُوا الْمُشْرِكِينَ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي فتُصيبَكم كما تصيبُهم، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ من أعوانٍ يدفعون عنكم عذابَ الله، ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ على أعدائِكم؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنما ينصرُ المطيعِين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي وقتَ الغَداةِ والعصرِ، ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ساعةً بعد ساعةٍ من الليل، يعني صلاةَ المغرب والعِشَاء. والزُّلْفَى جَمْعُ الزُّلْفَةِ؛ وهي الساعةُ القريبة من أوَّل الليل.

ويقالُ: إن صلاةَ الظُّهر داخلةٌ في قوله (طَرَفَي النَّهار)؛ لأنَّها لا تقامُ إلا بعدَ الزوال، فإذا زالتِ الشمسُ فقد دخلَ الطرفُ الآخر خُصوصاً إذا اعتبرَ النهارُ من طلوعِ الفجر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ؛ أي إن الصلواتِ الخمس يُذهِبْنَ الصغائرَ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ](٣). وَقِيْلَ: إنَّ التوبةَ تُكفِّرُ عقابَ السيِّئات، وَقِيْلَ: أرادَ بالحسناتِ: سُبحان اللهِ؛ والحمدُ للهِ؛ ولا إلهَ إلا اللهُ؛ واللهُ أكبر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الخطابُ تذكيرٌ للذاكرين الذين يذْكُرون أوامرَ اللهِ ويأخذون بها، ويذكرون نَواهِيَهُ فيجتنبون معاصيه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٣٣٤) بأسانيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٣٣٦) بلفظ: ((وَلاَ تَلْحَقُوا بالشِّرْكِ، وَهُوَ الَّذِي خَرَجْتُمْ مِنْهُ)).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٨٤. ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس: الحديث (١٦/ ٢٣٣). والترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: باب في فضل الصلوات الخمس: الحديث (٢١٤؛ وقال: حديث حسن صحيح.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ فِـي رَجُـلٍ يُقَـالُ لَـهُ عُمَـرَ بْـنَ عَرَفَـةَ الأَنْصَارِيّ، أتَتْهُ امْرَأةٌ تَبْتَاعُ تَمراً فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ: إنَّ فِي الْبَيْتِ تَمراً أجْوَدَ مِنْهُ، فَانْطَلِقِي مَعِي حَتَّى أعْطِيكِ مِنْهُ.

فَانْطَلَقَتْ مَعَهُ، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْبَيْتَ وَثَبَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً مِمَّا يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأةِ إلاَّ وَقَدْ فَعَلَهُ، إلاَّ أنَّهُ لَمْ يُجَامِعْهَا - يَعْنِي أنَّهُ ضَمَّهَا وَقَبَّلَهَا وَحَذفَ شَـهْوَتَهُ - فَقَالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَتَرَكَهَا وَنَدِمَ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَأتَى إلَى رَسُولِ اللهِ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ رَاوَدَ امْرَأةً عَنْ نَفْسِهَا، وَلَمْ يُبْقِ شَيْئاً مِنْ مَا يَفْعَلُـهُ الرَّجُـلُ بالنِّسَـاءِ غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يُجَامِعْهَا ؟

فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ! وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئاً، فَقَالَ: [مَا أدْرِي، مَا أدْرِي عَلَيْـكَ حَتَّـى يَـأْتِيَ فِيـكَ شَـيْءٌ] فَحَضَـرَتْ صَـلاَةُ الْعَصْرِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلاَةِ، نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُنَبِّؤُهُ بِهَذِهِ الآيَةِ، فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ أخَـاصٌ لَـهُ أمْ عَـامٌّ؟ فَقَـالَ: [بَـلْ عَـامٌّ لِلنَّـاسِ كُلِّهِمْ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ ؛ أي فهلاَّ كان مِن القرون الماضية، وَقِيْلَ: ما كان من القُرون مـن قبلِكـم ذو تَميـيزٍ، ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ عن المعاصِي؛ أي ولِمَاذا أطبَقُـوا كلُّـهم علـى المعصيـةِ حتـى استحقُّوا بذلك عذابَ الاستئصال، والبَقِيَّةُ في اللغة: ما يُمْدَحُ به الإنسانُ، يقال: فلانٌ في بَقِيَّةٍ، وفي بني فُلان بَقِيَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ كانوا ينـهَون عـن الفسـادِ، وهـم الأنبيـاءُ عَلَيْـهِمُ السَّـلاَمُ والصـالحون، فأنجَينَـاهُم مـن العـذاب. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ؛ أي أقبَلُوا على ما خُوِّلوا مـن دُنيـاهم،

(١) أخرجه الطـبراني في الجـامع الكبـير: ج ٢٠ ص١١٣: الحديـث (٢٧٧ و٢٧٨). والـترمذي في الجـامع: كتـاب التفسـير: الحديـث (٣١١٢-٣١١٥). والطـبراني في الكبـير: ج ١٠ ص٢٣١: الحديث (١٠٥٦٠ مختصراً. والبخاري في الصحيح: كتاب مواقيت الصلاة: باب صلاة الكفـارة: الحديث (٥٢٦).

واستَغنوا بذلك عن طاعةِ الله، فلم يَنْهَوا عن الفسادِ، وعَتَوا عن أمر الله، وآثَرُوا الدُّنيا وبطَرُوا، ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي وكانوا مُذنِبين بتركِ الأمرِ بالمعروف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي لم يكن لِيُهلِكَ أهلَ القرى بظُلمٍ منهُ عليهم إذا كان أهلُها مصلحين، ولكن إنَّما كان أهلكَهم بظُلمِهم لأنفسهم. وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه أنَّ معناهُ: (مَا كَانَ لِيُـهْلِكَ أهْلَ الْقُرَى بشِرْكِهِمْ وَهُمْ مُصْلِحُونَ، يَتَعَاطَوْنَ الْحَقَّ بَيْنَهُمْ، أيْ لَيْسَ مِنْ سَبيلِ الْكُفَّـار إذا قَصَدُوا الْحَقَّ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَتَرْكِ الظُّلْمِ انْ يُنْزِلَ اللهُ بهِمْ عَذاباً يُهلِكُهُمْ). والمعنى: ما كان اللهُ لِيُهلِكَهم بشِرْكِهم، وهم مُصلِحون مـا بينـهم لا يتظـالَمون ويتعـاطَون الحـقَّ بينهم، وإنَّما يهلِكُهم إذا تظالَموا؛ لأنَّ مكافأةَ الشِّـركِ النـارُ؛ أي إنَّمـا يُهلِكُـهم بزيـادةِ المعصيةِ على الشِّرك، كما في قومِ لُوطٍ وقومِ صالح وقومِ موسى وغيرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ؛ أي لجعلَهم كلَّـهم على دينِ الإسلام، ولكن عَلِمَ أنَّهم كلَّهم ليسوا بأهلٍ لذلك، وَقِيْلَ: لو شاءَ لأَلْجَأهُمْ إلى الإيمانِ لآمَنُوا كلُّهم ضرورةً، ولكن لو فَعَلَ ذلك لزَالَ التكليفُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي في الدِّيـن علـى أدْيَـان شتَّى مِـن يـهودِيٍّ ونصرانِـيٍّ ومجوسـي وغـيرِ ذلـك. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ ؛ إلا مَن عَصَمَهُ اللهُ من الباطلِ والأديانِ المخالفةِ بأنْ لَطَفَ به، ووفَّقَهُ للإيمان المؤدِّي إلى الثواب، فهو ناجٍ من الاختلاف بالباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ؛ أي وللرَّحـمةِ خلقَـهم؛ أي لكـي يُؤمِنُـوا فيرحَمَهم. وَقِيْلَ: معناهُ وللاختلافِ خلَقَهم، فتكون اللامُ في هـذا لامَ العاقبـةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي من كفَّار الجنِّ وكفار الإنس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ؛ أي كلُّ القِصَصِ وكلُّ ما يحتاجُ إليه نبيِّنهُ لكَ من أخبار الرُّسل ما يطيبُ ويسكنُ به قلبُـكَ ويزيدُكَ يَقِيناً ويقوِّي قلبَكَ. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان ضَاقَ صدرهُ بمـا يكـون مـن أذى قومهِ في الله، فقَصصَ اللهُ عليه شيئاً من أخبار الرُّسل المقدَّمين مـع أمَمِـهم لنثبـتَ بـه

فُؤادَكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ ﴾ ؛ أي في هذه السُّورة الصِّدق من أقاصيصِ الأنبياء وللوعظِ وذكر الجنَّة والنار.

وخُصَّت هذه السورةُ بمجيءِ الحقِّ فيها تَشريفاً لها ورَفعاً لمنْزلَتِها. وقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (فِي هَذِهِ) الدُّنيا، والموعظةُ: تعريفُ القبيحِ للزَّجر عنه، وتعريفُ الحسَنِ للترغيب فيه، و؛ هي؛ ﴿ وَذِكۡرَىٰ ﴾ ؛ الذِّكرى، ﴿ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ ﴾ أي اثبتُوا على ما أنتم عليه كثباتِ الرَّجُل على مكانهِ، وهذا على وجهِ التهديد، ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ؛ ما يَعِدُكم الشيطانُ، ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ ﴾ ؛ ما وَعَدَ اللهُ بنا ونزول ما وعدَ الله بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي له ما غابَ عن البلادِ في السَّموات والأرض، ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ ؛ أمرُ العبادِ، كُلُّهُ؛ فأطِعْهُ وفوِّضْ أمرَكَ إليه، ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣ ﴾ أي يَجزي المحسِنين بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءَتهِ. وقرأ (يَعْمَلُونَ) بالياءِ على معنى قُل لَهم ذلك.

عن رسول الله ﷺ قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ هُودٍ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ نُوحاً وَهُوداً وَشُعَيباً وَلُوطاً وَصَالِحاً وَإبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَمَنْ كَذبَهُمْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ].

تم تفسير سورة (**هود**) والحمد لله رب العالمين.

سُــورَةُ يُــوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ عليه السلام مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً، وَأَلْـفٌ وَتِسْـعُمِائَةٍ وَسِـتَّةٌ وَسُـتُّون كَلِمَةً، وَتِسْعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: [عَلِّمُوا أرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَأَيُّمَا مُسْلِمٌ قَرَأَهَا وَعَلَّمَهَا أهْلَهُ أوْ مَا مَلَكَـتْ يَمِينُـهُ، هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَعْطَـاهُ مِـنَ الْقُـوَّةِ أنْ لاَ يَحْسُـدَ مُسْـلِماً][(1)] وَبِـاللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُه، قولهُ: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: هذه الآياتُ الكتاب المبين، وَقِيْلَ: معنـاهُ: سـورةُ يوسـف آيـاتُ الكتـاب علـى القول الذي يقولُ: إن (الر) اسمُ السورةِ. وقولهُ تعالى: (الْمُبِين)؛ لأنه يُبَيِّنُ الهدَى والرُّشدَ، وَقِيْلَ: البَيِّنُ حلاله وحرامهُ وحدوده وأحكامهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ ؛ أي أنزَلنا القرآنَ على مجاري كـلام العـرب في مخاطباتِـهم، ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ ﴾ ؛ أي لكـي يُدركُـوا معنـاهُ ويَفهَموا ما فيهِ، ولو نزلَ بغيرِ لغة العرب لم يعلموهُ.

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ ؛ أي نحن نُبَيِّنُ لكَ أحسنَ البيناتِ، والقاصُّ هو الذي يأتِي بالقصةِ علـى حقيقتِها.

---

(١) في تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص٤٤٨؛ قال ابن كثير: ((رواه الثعلبي وغـيره))، وذكـر مسـنده وقال: ((وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له الحافظ ابـن عسـاكر متابعاً...)) وقال: ((فذكر نحوه وهو منكر سائر طرقه)).

واختلفَ العلماءُ لِمَ سُميت بأحسَنِ القصصِ من بين الأقاصيص، فقيل: سماها أحسن القصص؛ لأنه ليس قصَّةٌ في القرآن تتضمَّنُ من العبرةِ والحِكَمِ والنكت ما يتضمَّنُ هذه القصة. وَقِيْلَ: سماعاً أحسنَ القصصِ لامتداد الأوقات في ما بين مبتدَأها إلى مُنتهاها. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ بَيْنَ رُؤْيَا يُوسُفَ وَمَسِيرَاتِه وَإِخْوَانِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً).

وَقِيْلَ: سَمَّاها أحسنَ القصصِ؛ لأنّ فيها ذِكرَ الأنبياءِ والملائكة والصالحين، والإنسِ والجنِّ والأنعام والطير، والملك والمماليكِ والبحار، والعلماءِ والجهَّال، والرجال والنساءِ وحِيَلِهنَّ ومَكرهن، وفيها أيضاً ذكرُ التوحيدِ والفقه والسيَر، وتعبيرِ الرُّؤيا والسياسَة والمعاشَرة والتدبير والمعايش، فصارَتْ أحسنَ القصصِ لما فيها من المعاني الجزيلةِ والفوائد الجليلةِ التي تصلُح للدنيا. وَقِيْلَ: أحسنُ القصصِ بمعنى أعجَب[1].

وَقِيْلَ: أرادَ بأحسنِ القصص جميعَ القصصِ التي في القُرآن، فإنَّ اللهَ تعالى ذكرَ في القرآن أخبارَ الأمم الماضية، وحالَ رسُلِهم عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وذكرَ جميعَ ما يحتاجُ العباد إليه إلى يومِ القيامة بأعذب لفظٍ في أحسنِ نَظْمٍ وترتيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ) أي أوحَينا إليك هذا القرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي وقد كُنتَ من قبلِ نُزول جبريل عليكَ بالقرآنِ غافِلاً عن قصَّة يوسُفَ وعن الحكمةِ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾؛ الآيةُ متَّصلةٌ بما قبلَها، فإنَّ معناهُ: نحن نقصُّ عليكَ أحسنَ القصص، إذ قالَ يوسفُ لأبيهِ. قرأ طلحة بن مصرف (يُوسِفُ) بكسر السين، ثم قرأ ابنُ عبَّاس (يَا أبَتَ) بفتح التاء في جميعِ القرآن، وأصلهُ على هذا يا أبَتَا، ثم حُذفت الألف، وأبقى فتحةً دلالةً عليها، قال رُؤبة:

تَقُولُ بِنْتِي قَدْ أنَى أنَاكَا ... يَا أبَتَا عَلَّكَ أوْ عَسَاكَا

(١) أدرج الناسخ هنا عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي). وقد نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٥ ص١٩٧.

وقرأ الباقون (يَا أَبَتِ) بالكسرة على الإضافةِ يقدِّرُها بعدَها، وَقِيلَ: كُسرت؛ لأنَّها أجريت مجرَى التأنيثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) قال المفسِّرون: رأى يوسفُ عليه السلام هَذِهِ الرُّؤيا وهو ابنُ اثنى عشرَ سنةً، قال ابنُ عبَّاس: (وذلِكَ أنَّهُ قَالَ لأَبيهِ: يَا أَبَتِ إنِّي رَأيْتُ فِي الْمَنَامِ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً نَزلَتْ مِنْ أمَاكِنِهَا فَسَجَدَتْ لِي، وَ رَأَيْتُ ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ ؛ نَزلاَ مِنْ أمَاكِنِهمَا فَسَجَدَا لِي، وَأرَادَ بذلِكَ سَجْدَةَ التَّحِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا يَقُومُ الْمَلاَئِكَةُ بالسُّجُودِ لآدَمَ عليه السلام).

قال: (وَكَانَتِ الرُّؤْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، وَكَانَ تَأْويلُ رُؤْيَاهُ عِنْدَ يَعْقُوبَ: أنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ هُوَ فِي حَالَتِهِ، وَأنَّ أمَّ يُوسُفَ وَهِيَ رَاحِيلُ كَانَتْ قَدْ مَاتَتْ، وَأنَّ الأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً إخْوَةُ يُوسُفَ وَكَانُوا أحَدَ عَشَرَ أخاً، وإنَّهُمْ كُلُّهُمْ سَيَخْضَعُونَ لِيُوسُفَ). وَإنَّمَا تَأَوَّلَهَا يَعْقُوبُ عَلَى ذلِكَ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ أضْوَأ مِنَ الشَّمْس وَالْقَمَر، وَيَهْتَدِي بضَوْئِهمَا أهْلُ الأَرْضِ، ثُمَّ لاَ شَيْءَ بَعْدَهُمَا أضْوَأ مِنَ الْكَوَاكِب، فَدَلَّتْ رُؤْيَاهُ عَلَى أنَّ الَّذِي يَخْضَعُونَ لَهُ أئِمَّةُ الْهُدَى الَّذِينَ يَهْتَدِي النَّاسُ بهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ ثانياً ليس بتكرار؛ لأنه أرادَ بالرُّؤية الثانية رؤيةَ سُجودِهم له، وإنما حُملت الآية على الرؤيا لا على رؤيةِ العين؛ لأنا نعلمُ أن الكواكبَ لا تسجدُ حقيقةً للآدميِّين، ولهذا قال يعقوبُ: (لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ).

وعن ابنُ عبَّاس أنَّهُ قَالَ: (لَمَّا قَصَّ يُوسُفُ رُؤْيَاهُ عَلَى أبيهِ نَهَرَهُ وَزَجَرَهُ لِئَلاَّ يَفْطَنَ إخْوَتُهُ، وَقَالَ لَهُ فِي السِّرِّ: إذا رَأيْتَ رُؤْيَا بَعْدَهَا لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ). فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحيٌ، يعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوا بها حسَدوهُ فأمرَهُ بالكتمان، وإنما كان قَصَّهَا على يعقوبَ فقط، وهذا القولُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية، أي لا تُخبرهُم بذلك لئَلاَّ يحملُهم الحسدُ إلى قصدِكَ بسوءٍ، ومن الخضوعِ له على إنزالِ التثريب عليه والاحتيالِ لهلاكه، والكَيْدُ: هو طلبُ الشرِّ بالإنسان على جهةِ الغَيظِ عليه.

اختُلِفَ فيما عناهُ في هذه اللامِ التي في قولهِ تعـالى: (فَيَكِيـدُوا لَـكَ كَيْـداً) قـال بعضُهم: معناهُ: فيَكِيدُوكَ والـلامُ صِلَـةٌ كقولـهِ تعـالى: ﴿لِرَبِـهِمْ يَرْهَبُـونَ﴾[١]، وقـال بعضُهم: هو مثلُ قولِهم: نصَحتُكَ ونَصحتُ لكَ وأشباههِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾ ؛ أي إنَّ الشيطان عدوٌّ ظاهرُ العـدوان لبني آدمَ، فـلا تذكُـرْ رؤيـاكَ لإخوتِـكَ؛ لئـلا يحملُـهم الشيطان على الحسَدِ وإنزال الضُّرِّ بكَ.

وهذا أصلٌ في جواز تركِ إظهار النِّعمة عند مَن يُخشى حسدهُ وكَيدهُ، وإنْ كان الله تعـالى قـال: ﴿وَأَمَّـا بِنِعْمَـةِ رَبِـكَ فَحَـدِّثْ﴾[٢]، وعـن رسـول الله ﷺ أنَّـهُ قـالَ: [اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بالْكِتْمَان، فَإنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أي مثـلَ مـا رأيـتَ مـن سُـجودِ الشمسِ والقمر والكواكب، كذلكَ يصطَفيكَ ربُّكَ ويختارُكَ، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: من تأويلِ الرُّؤيا لأنَّ فيه أحاديثَ النـاسِ عـن رُؤيـاهم. وَقِيْلَ: معناهُ: أفْهمَكَ عواقبَ الأمُور والحوادث. ويقالُ: يعلِّمُكَ الشرائعَ التي لا تُعلَمُ إلا من قِبَلِ اللهِ تعالى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ أي يُتِـمُّ نِعمَتَـهُ عليك بالنبوَّة كما أتمَّ النعمـةَ؛ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ؛ أي يُتِمَّ النعمةَ أيضاً على أولادِ يعقوبَ بكَ؛ لأن ذلك يكون سرَّ حالِـهم؛ أي تكون النبوَّةُ فيهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾ ، في أفعالهِ.

---

(١) الأعراف / ١٥٤ . (٢) الضحى / ١١ .

(٣) اخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٧٨: الحديث (١٨٣) عن خـالد بـن معـدان عـن معـاذ بـن جبـل. وفي الأوسـط:ج٣ ص٢٢٦: الحديـث (٢٤٧٦). وفي المعجـم الصغـير: ج ٢ ص٢٩٢: الدحيـث (١١٨٦). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٨ ص١٩٥: الـبر والصلـة: بـاب كتمـان الحوائج؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطاء، قال العجلي: لا بأس به. وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجالـه ثقـات، إلا خـالد بـن معـدان لم يسـمع مـن معـاذ)). وللحديث شواهد كثيرة.

وفي بعض التفاسير: أنَّ يعقوب ﷺ كان خطبَ إلى خالهِ ابْنَتَهُ راحيلَ على أن يخدمَهُ سبعَ سنين فأجابَهُ، فلما حلَّ الأجَلُ زوَّجَهُ ابنتَهُ الكبرى لآيَا، فقالَ يعقوبُ لخالهِ: لَمْ يكن هذا على شَرطِي، قال: إنَّا لا نُنكِحُ الصغيرةَ قبلَ الكبيرةِ، فهَلُمَّ فَآخُذْ منِّي سبعَ سنين أخرى وأزَوِّجُكَ راحيلَ، وكانوا يجمعون بين الأختين، فرعَى يعقوبُ سبعَ سنين أخرى وزوَّجه راحيل، ودفعَ لكلٍّ واحدةٍ من ابنتيه أمَةً تخدمها فوهبتاهما ليعقوبَ ﷺ فولَدت لآيَا أربعةَ بَنين: روبيل[1] وسَمعون ويهودَا ولاَوي، وولَدت راحيل: يوسُفَ وبنيامين، وولدت الأَمَيَان: بنيامين وهابيل ودان ويسائيل وجادوان وآشير. فجملة بَنيهِ اثنا عشرَ ولداً سِوَى البنتين.

فإن قالَ قائلٌ: إنْ كان يعقوبُ عَلِمَ أنَّ الله يجتبي يوسُفَ ويعَلِّمهُ مِن تأويلِ الأحاديث، فلِمَ إذاً قال: (لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ)؟ وكيفَ قالَ لَهم: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) مع علمهِ أنَّ الله سيبعثهُ رَسُولاً؟

والجوابُ: أنه ﷺ كان عَالِماً من طريقِ القطعِ أنَّ الله سيُبلِغُهُ هذه المنْزلة، ولكن كان مع ذلك يخافُ من وصُولِ الْمَضَارِّ إليه بكَيدِهم، وإنْ لم يخَفِ الهلاكَ. وأرادَ بقولهِ: (أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) الزجرَ لهم عَن التَّهاوُنِ في حفظهِ، وإنْ كان يعلمُ أن الذئبَ لا يَصِلُ إليه، ولذلك لَمْ يصدِّقهم في قولِهم: (فَأَكَلَهُ الذئبُ)، بل حاجَّهم بما يظهرُ به كَذِبُهم.

وَقِيْلَ: أرادَ بقوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) التخلُّصَ من السِّجنِ، كما خَلَّصَ اللهُ إبراهيمَ ﷺ من النار، وإسحقَ من الذبحِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: لقد كان في خَبَرِ يُوسُفَ وإخوتهِ عبرةٌ للسَّائلين عنهم. وقرأ ابنُ كثير (آيَةٌ) كأنَّهُ جعلَ شأنَهُ كُلَّهُ آيةً للسائلين[3]، وذلك أنَّ اليهودَ سألت النبيَّ ﷺ عن قصَّةِ يوسُفَ،

---

(١) وربما (روسيل).

(٢) في جامع البيان: مج ٧ ج١٢ ص٢٠١: النص (١٤٤٥٣)؛ أخرج الطبري عن عكرمة قال: (فنعمتهُ على إبراهيم أن نجاه من النار، وعلى إسحق أن نجاه من الذبح).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ٧ ج١٢ ص٢٠١؛ قال: (وروي عن مجاهد وابن كثير أنهما قرءا على التوحيد).

فأخبرَهم بها كما في التَّوراة، فعَجِبوا منهُ وقالوا: مِن أين لكَ هـذا يـا مُحَمَّـدُ ؟ قـالَ: [عَلَّمَنِيهُ ربي]. وَقِيْلَ: معناهُ: للسَّائلين أي لِمَن سألَ عن أمرِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ ؛ هـذه لامُ القَسَم، تقديرهُ: واللهِ ليُوسُفُ وأخوهُ بنيامين أحبُّ إلى أبينا منَّا، ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ؛ أي جماعةٌ وكانوا عشرةً، سُموا عصبةً؛ لأن بعضَهم يتعصَّبُ لبعضٍ[1]، ويُعِينُ بعضُهم بعضاً. والعُصبَةُ: ما بين الواحدِ إلى العشرة، وَقِيْلَ: إلى الخمسةَ عشر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي من الْخَـاطِئِين في تَرْكِ العدل في المحبَّة بيننا لَفِي خطأ بَيِّنٍ من التدبيرِ باختياره الصغـيرين، ولا منفعـةَ لـه فيهما علَينا مع أنَّا نسعى في منافعه ونرعَى له غَنَمَهُ ونتعهَّدها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ؛ اختلفُوا في قائلِ هذا القول، قال وهب: (قَائِلُهُ سَمْعُون)، وقال مقاتلُ: (قَالَهُ روبيـل)، وقوله تعالى (أو اطْرَحُوهُ أرْضاً) يعنون ابْعِدُوهُ على وجهٍ يقعُ به اليأسُ مـن اجتماعـهِ مع أبيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَخلُ لَكُمْ وَجْهُ أبيكُمْ) أي يَخْلُ لكم وجههُ عن يوسُفَ، ويخلصُ محبَّتهُ لكم، ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي تَتُوبُوا بعدَ ذلك مـن هذا الذنب، ويصلحُ حالتكم مع أبيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ؛ قال أكثر المفسِّرين: القائلُ بهذا هو يَهُوذا، وكان أعقلَهم وأشدَّهم قوةً، والمعنى أنه قالَ لهم اطرحوهُ في قعرِ البئر، ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ؛ على الطريقِ. والغَيَابَةُ: هو الموضعُ الذي غابَ عن بصَرِكَ، والْجُبُّ: هو البئرُ التي لم يُطْوَ بالحجارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: قال لَهم: إنْ كُنتم لا بدَّ فَاعِلين به أمراً فَاعْدِلُوا إلى هذا الأمـرِ، وإلاَّ فـاتركُوا كـلَّ ذلـك. والظـاهرُ مـن قولـهِ

(١) في المخطوط: (يبغض بعضاً) وهو تصحيف.

(الْجُب) أنه جُبٌّ مُشار إليه معروفٌ، قال وهب: (هُوَ بأَرْضِ الأُرْدُنِّ عَلَى ثَلاَثَةِ فَرَاسِخَ مِنْ مَنْزِلِ يَعْقُوبَ).

فلمَّا أبْرمُوا هذا التدبيرَ وعزَمُوا عليه تلَطَّفوا بالوصُول إلى مُرادِهم، وجَاؤُا إلى أبيهم، فقالوا كما قالَ اللهُ: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي مَا لَكَ لا تأمَنَّا عليه، فترسِلَهُ معنا وإنَّا له لناصحون في الرَّحمةِ والبرِّ. قولهُ: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ؛ أي يذهبُ ويجيء وينشطُ؛ ويقرأ كلاهما بالنُّون والياءِ.

والرَّتْعُ: هو التردُّدُ يَميناً وشِمالاً للاتساعِ في الملاذِ. ومن قرأ (يَرْتَعْ) بالياء فهو من يَرْتَعُ؛ أي يرعَى ماشيتَهُ، واللَّعِبُ: هو الفعلُ الذي يطلبُ منه التَّفْريحُ من غير عاقبةٍ محمودة، وهو على وَجهين: مباحٌ ومحظور، كما قالَ عليه السلام: [كُلُّ لَعِبٍ حَرَامٌ إلاَّ ثَلاَثَةٌ: مُلاَعَبَةُ الرَّجُلِ أهْلَهُ، وَنَبْلُهُ بقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ][1] ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ عن الأَسْوَاءِ؛ وعن كلِّ ما يخافُ عليه.

قولهُ: ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي يحزُنني ذهابُكم به؛ لأنه يُفارقُني فلا أراهُ، ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ ذكرَ شيْئين: الحزنُ لذهابهم، والخوفُ عليه أن يجده الذِّئبُ وحدَهُ وقتَ غفلَتِهم عنه فيأكلَهُ. وكان يعقوبُ قد رأى في منامهِ كأنَّ ذِئباً قد عَدَا على يُوسفَ، فكان خائفاً عليه، فمِن ذلك قال: (أخَافُ أنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ؛ أي ونحن جماعةٌ ترَى الذِّئبَ قد قصَدَ، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لعاجِزُون، والْخُسْرَانُ هنا العجزُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص١٩٣: الحديث (١٧٨٥). وفي الأوسط: ج ٨ ص٩٠: الحديث (٧١٧٩) من حديث عمر بإسناد ضعيف. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٦٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط والكبير والبزار ورجال الطبراني رجال الصحيح، ما خلا عبدالوهاب بن بخت وهو ثقة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ ؛ أي فأرسلَهُ معهم، فلَمَّا ذهبوا به اتَّفقَتْ دَوَاعِيهم أن يجعلوهُ في الْجُب، قال السديُّ: (خرَجُوا بهِ مِنْ عِنْدِ أبيهِمْ وَهُمْ مُكْرِمُونَ لَهُ، فَلَمَّا صَارُوا فِي الْبَرِّيَّةِ أظْهَرُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، فَجعَلَ أخٌ لَهُ يَضْرِبُهُ، فَيَسْتَغِيثُ بالآخَرِ فَيَضْرِبُهُ، لاَ يَرَى فِيْهِمْ رَحِيماً، فَضَرَبُوهُ حَتَّى كَادُوا يَقْتُلُونَهُ.

فَجَعَلَ يَصِيحُ وَيَقُولُ: يَا أبَتَاهُ لَوْ تَعْلَمُ مَا صُنِعَ بابْنِكَ ؟ فَقَالَ لَهُمْ يَهُودَا: ألَيْسَ قَدْ أعْطَيْتُمُوهُ مَوْثِقاً ألاَّ تَقْتُلُوهُ ؟ فَانْطَلَقُوا بِهِ فِي الْجُب فَدَلُّوهُ فِيْهِ، فَتَعَلَّقَ بشَفِيرِ الْبئْرِ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ وَنَزَعُوا قَمِيصَهُ وَقَالَ: يَا إخْوَتَاهُ رُدُّوا عَلَيَّ قَمِيصِي أتَوَارَى بهِ، فَقَالُوا: أدْعُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً يُلْبسُوكَ وَيُؤْنِسُوكَ، فَدَلُّوهُ حَتَّى إذا بَلَغَ نِصْفَ الْبئْرِ ألْقَوْهُ وَأرَادُوا أنْ يَمُوتَ، وَكَانَ فِي الْبئْرِ مَاءٌ فَسَقَطَ فِيْهِ، وَآوَى إلَى صَخْرَةٍ فَقَامَ عَلَيْهَا وَجَعَلَ يَبْكِي، فَنَادَوا فَظَنَّ أنَّ الرَّحْمَةَ أدْرَكَتْهُمْ فَأجَابَهُمْ، فَأرَادُوا أنْ يَرْضُخُوهُ بالْحِجَارَةِ لِيَقْتُلُوهُ فَمَنَعَهُمْ يَهُودَا، وَكَانَ يَهُودَا يَأْتِيهِ بالطَّعَام)(١).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ ؛ قال المفسِّرون: أوحَى اللهُ إلى يوسفَ في البئرِ تَقْويَةً لقلبهِ: لَتَصْدُقَنَّ رُؤْيَاكَ، وَلَتُخْبرَنَّ إخوتَكَ بصُنْعِهِمْ هَذا بَعْدَ الْيَوْمِ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ بأنَّ يوسفَ في وقتِ إخبارِكَ إيَّاهم بأمرهم، وكان فيما أُوحي إليه: أنِ اصبر على ما أصابَكَ واكْتُمْ حالَكَ، فإنَّكَ تُخبرُهم بما فعَلُوا بكَ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (كَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَبَقِيَ فِي الْجُب ثَلاَثَةَ أيَّامٍ). وفي بعضِ الرواياتِ: أنه لَمَّا أُلقِيَ في الْجُب جعلَ يقول: يا شاهداً غيرَ غائبٍ، ويا قريباً غيرَ بعيدٍ، ويا غالباً غيرَ مغلوبٍ: اجعَلْ لي من أمْري فَرَجاً ومَخرجاً، فأوحَى اللهُ إليه وهو في البئرِ: اصبرْ على ما أصابَكَ واكْتُمْ حالَكَ، فإنَّكَ تخبرُ إخوانَكَ في وقتٍ عن ما فعَلُوا بكَ في وقتِ إخباركَ إيَّاهم بأمرهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٤٧٧).

ثم عَمَدوا إلى سَخْلَةٍ فذبَحوها، وجعلوا دَمَها على قميص يوسف، ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ ؛ أي يتباكون، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي نتسابقُ في الرَّمي، وقِيلَ: نُسابقُ في الاصطياد، ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ؛ ليحفظَهُ، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ ؛ أي بمُصَدِّقٍ لنا في أمرِ يوسف لفَرطِ محبَّتِكَ له وتُهمتِكَ إيانا فيه، ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ ؛ محل الصدق عندكَ في غيرِ هذا الحديثِ.

ثم أرَوهُ قميصَهُ ملطَّخًا بالدمِ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ ؛ أي بدَمٍ كذبٍ، فلمَّا نظرَ يعقوبُ إلى القميصِ قال: ما عهدتُ ذِئباً حَليماً مثلَ هذا الذئب! فكَيْفَ أكلَ لحمه ولم يُخرِّقْ قميصَهُ؟! ولو أنَّهم كانوا مزَّقُوا قميصَهُ حينَ لطَّخوهُ بالدمِ، كان ذلك أبعدَ عن التُّهمةِ عنهم[1]، ولكن لا بدَّ في المعاصِي أن يقترنَ بها الخزنان، ﴿قَالَ﴾ ؛ يعقوبُ: كَذبتُمْ، ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أي زَيَّنت لكم أنفسُكم في هلاكِ يوسف فضيَّعتموهُ. ويقالُ: إن يعقوب كما قال لَهم: لو أكلَهُ الذئبُ فشَقَّ قميصَهُ ! قالوا: لو قتلَهُ اللصوصُ لَمَا تركُوا قميصَهُ، هل يريدون إلا الثيابَ والمتاعَ، فسَكتوا متحيِّرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ ؛ أي فصبرٌ جَميلٌ أوْلَى من الجزَعِ، والصبرُ الجميلُ هو الذي لا شَكوَى فيه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ ؛ أي معناهُ: أستعينُ باللهِ على الصبرِ في ما يقولون.

ورُوي: (أنَّ شُرَيْحاً كَانَ جَالِساً لِلْقَضَاءِ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ تَبْكِي وَتَشْكُو، فَقِيلَ لَهُ: يُوشِكُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ مَظْلُومَةً، فَقَالَ شُرَيْحٌ: قَدْ جَاءَ إخْوَةُ يُوسُفَ أبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ وَهُمْ كَذبَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ ؛ أي جاءَت قافلةٌ من المسافرين بعد أن مكثَ يوسفُ عليه السلام في الجُب ثلاثةَ أيَّام. يُروى أنَّهم جاءوا من قِبَلِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٤٩٢) عن الشعبي قال: ((ذَبَحُوا جَدْياً وَلَطَّخُوهُ مِنْ دَمِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ يَعْقُوبُ إلَى الْقَمِيصِ صَحِيحاً، عَرَفَ أنَّ الْقَوْمَ كَذبُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: إنْ كَانَ هَذَا الذِّئْبُ لَحَلِيماً، حَيْثُ رَحِمَ الْقَمِيصَ وَلَمْ يَرْحَمْ ابْنِي! فَعَرَفَ أنَّهُمْ قَدْ كَذبُوهُ)).

مَدْيَنَ يريدون مُعَرِّفاً خطرَ الطريق، فتحيَّرُوا وجعلوا يَهيمُونَ حتى وقعُوا في الأرضِ التي فيها الْجُبُّ، فأرسَلَ كلُّ قومٍ منهم واردَهم، والواردُ الذي يُقَوِّمُ القومَ لطلب الماء، فوافقَ الْجُبُّ مَالِكَ بْنَ ذعرٍ وهو رجلٌ من العرب من أهل مَدينَ، ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ في البئرِ، فتعلَّقَ بها يوسفُ، فلم يَقدِرُوا على نَزْعِـهِ، فنَظَرُوا فرأوا غُلاماً قد تعلَّقَ بالدَّلْوِ، فنادَى أصحابَهُ فـ ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ ، قال: مَا ذاكَ يا مالِكُ؟ قال: غلامٌ أحسنَ ما يكون من الغِلمَانِ. فاجتمَعُوا عليه وأخرَجوهُ.

قال كعبٌ: (كَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الْوَجْهِ جَعِدَ الشَّعْرِ ضَخْمَ الْعَيْنِ مُسْتَوِيَ الْبَطْنِ صَغِيرَ السُّرَّةِ، وَكَانَ إذا تَبَسَّمَ رَأيْتَ النُّورَ فِي ضَوَاحِكِهِ، لاَ يَسْتَطِيعُ أحَدٌ وَصْفَهُ، وَكَانَ حُسْنُهُ كَضَوْءِ النَّارِ وَكَانَ يُشْبِهُ آدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى قَبْلَ أنْ يُصِيبَ الْمَعْصِيَةَ). ويقال: إنه وَرِثَ ذلك الجمالَ من جدَّتهِ سارة، وكانت قد أعطيت سُدُسَ الْحُسْنِ.

وقولُهُ تعالى: (قَالَ يَا بُشْرَى هَذا غُلاَمٌ) من قرأ (يَا بُشْرِي) أي بياء الإضافة، فهو خطابٌ للفرحِ على القلب، كما قالَ: يا فَرَحِي يا طُوبَايَ ويا أسَفِي. ومن قرأ بغيرِ ياء الإضافة فمعناهُ تبشيرُ الأصحاب، كما يقالُ: يا عَجَبَا ويرادُ به يا أيُّها القومُ اعجَبُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ ؛ أي أسَرَّ الذين وجَدُوا يوسُفَ من رُفَقَائِهم ومن القافلة مخافةَ أن يَطلُبَ أحدٌ منهم الشِّركَةَ معهم في يوسف عليه السلام، قولُهُ: (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) نُصِبَ على المصدر؛ أي قالوا في ما بينَهم: إنَّا نقولُ إن أهلَ الماءِ استَبضَعُوكَ بضاعةً، ويجوزُ أن يكون (بضَاعَةً) نَصباً على الحالِ على معنى أنَّهم كتَمُوهُ حين أعقَدُوا التجارةَ فيه.

ويقال: إن قولَهُ (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) راجعٌ إلى إخوةِ يوسف، فإنه رُوي أنَّهم جَاؤُا بعدَ ثلاثةِ أيَّام فلم يجدُوا في البئرِ، فنظَرُوا فإذا القومُ نُزُولٌ بقُربِ البئرِ، فإذا هم بيوسُفَ، فقالوا لَهم: هذا عبدٌ آبقٌ منذُ ثلاثةِ أيام، وقالوا لِيُوسُفَ: لَئِنْ أنكرتَ أنَّكَ عبدٌ لنا فَلَنَقتُلَنَّكَ، وقالوا للقومِ: اشتَرُوا مِنَّا فذلك معنى قولهِ (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) بأن طلَبُوا من يوسُفَ كتمانَ نسبهِ، إلا أنَّ القولَ الأوَّلَ أقربُ إلى ظاهرِ الآية. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ ﴾ ؛ أي بيوسُفَ، وهذا يجري مجرَى الوعيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ؛ أي بَاعوهُ إخوتـهُ من مالكِ بن ذعْرٍ بعشرينَ دِرهَماً، فأصابَ كلٌّ منهم دِرهَمين فلم يأخُذْ يهُودَا نصيبَهُ، وأخذهُ الباقون، وقال الضحَّاكُ: (بَاعُوهُ باثْنَي عَشَرَ دِرْهَماً). وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (بِثَمَنٍ بَخسٍ) أيْ بِثَمَنٍ حَرَامٍ؛ لأَنَّهُ سَمَّى الْبَخْسَ حَرَاماً، وَسَمَّى الْحَرَامَ بَخْساً؛ لأَنَّهُ لاَ بَرَكَةَ فِيْهِ). وقال الكلبيُّ: (بَاعُوهُ باثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ دِرْهَماً). وقولـهُ تعالى: (مَعْدُودَةٍ) أي قليلةٍ، وذِكْرُ العددِ عبارةٌ عن القلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي لم يكُن لَهم فيه رغبةٌ ولا في ردِّهِ على أبيهِ، ولم يعلَمُوا منْزلَتَهُ من اللهِ تعالى، يعني: أنَّ إخوةَ يوسُفَ كانوا في يوسف من الزَّاهدِين؛ لأنَّهم لم يعرفُوا كرامتَهُ على اللهِ تعالى. وَقِيْلَ: كانوا في يُمْنِهِ من الزَّاهدين أن عرضهم أن يُغَيِّبُوهُ عن أبيهِ، وكتَمَ يوسفُ شأنه مخافةَ أن يقتلَهُ إخوتهُ، و(شَرَوْهُ) أي باعوهُ، قال الشاعرُ:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ

أي بعتُ بُرْداً وهو غلامهُ.

ثم انطلقَ مالك بن دُعْر وأصحابهُ بيُوسُفَ ومعهم إخوتهُ يقولون: استَوثِقُوا منه فإنه آبقٌ سارقٌ كاذب، وقد بَرِئْنَا إليكم من عُيوبهِ. فحمله مالِكُ بن دُعر على ناقتهِ وسارَ به نحو مِصْرَ، وكان طريقُهم على قبرِ أمهِ، فلما بلغَ قبرَ أمه أسقطَ نفسه من الناقةِ وهو يبكِي ويقولُ: يا أماهُ ارفَعِي رأسَكِ من الثَّرى، وانظُري إلى ولدكِ يوسفَ وما لَقِيَ بعدَكِ من البلايَا، يا أماهُ لو رأيتِي ضَعفِي وذُلِّي، يا أماه لو رأيتِني، نزَعُوا قميصي وشدُّوني، وفي الْجُب القونِي وعلى حرِّ وجهي لطَمُونِي، وبالحجارةِ رجَمونِي.

ثم فقدَهُ مالك بن دُعر فصاحَ في القافلةِ: ألاَ إنَّ الغلامَ رجعَ إلى أهلهِ، فطلبوهُ فوجدوه، فقال له رجلٌ منهم: يا غلامُ قد أخبَرَنا مواليكَ أنك آبقٌ سارقٌ، فلم نصدِّقْ حتى رأيناكَ، فقال: واللهِ ما أبقْتُ، ولكنَّكم مررتُم على قبرِ أمِّي، فلم أتمالَكْ أن رميتُ نفسي عليه، فرفعَ يده فلطَمَ وجهَهُ حتى حمله على ناقته.

وذهَبُوا به حتى قَدِمُوا مصرَ، فأمرَهُ مالك بن دُعر حتى اغتسلَ ولَبسَ ثوباً حَسَناً، وعرضَهُ على البيعِ، فاشتراهُ قطفيرُ بن رُوَيحِب لامرأته، قال وهب: (تَرَافَعَ النَّاسُ فِي ثَمَنِهِ وَتَزَايَدُوا حَتَّى بَلَغَ ثَمَنُهُ وَزْنَهُ مِسْكاً وَوَرِقاً، فابتاعَهُ قطفيرُ بهذا الثمنِ وأتى به إلى منْزله)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ ؛ واسمُها راعيل: ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ ؛ أي أحْسِنِي طولَ مُقامهِ عندنا، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ؛ في أمُورنا ونبيعُ فنربح في ثمنِه، ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ ؛ نسبناه، وكان العزيزُ عقيماً، أو حصُوراً لا يولَدُ له، إنما قالَ لِمَا رأى على يوسُفَ من الجمالِ والعقلِ والهداية إلى الأمُور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي كما خلَّصناهُ من البئر وإخوته كذلك مكَّنَّاهُ فيها حتى بلَغَ ما بلغَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ ؛ أي لنُعلِّمَهُ من ضُروب العلوم، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي لا يقدرُ أحدٌ منكم دفعِ ما أرادَ من أمرهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أن اللهَ غالبٌ على أمرهِ وهم المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا بَلَغَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سنَةً آتَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ وَالْفِقْهَ، وَجَعَلْنَاهُ حَكِيماً عَلِيماً)، قال: (وَالأَشُدُّ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ إلَى ثَلاَثِينَ سَنَةً)[2]. ويقال: أقصاهُ اثنان وستُّونَ سنةً، فأما الاستواءُ فهو أربعونَ سَنةً. وقال الحسنُ: (أعْطِيَ يُوسُفُ الرِّسَالَةَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَالَةِ، وَكَانَ أعْطِيَ النُّبُوَّةَ مِنْ قَبْلُ).

ويقال: معناه: وآتيناهُ حُكماً وعلماً بين الناسِ، فإذا الناسُ كانوا تحاكَمُوا إلى العزيز، أمرَهُ أن يحكمَ بينهم؛ لِمَا رأى من عقلِهِ وأمانته وعلمه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي كما جزَينا يوسُفَ على صبرهِ على الْمِحَنِ، كذلك نَجزِي الْمُحسِنين في أقوالِهم وأفعالهم.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٥٨.
(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: الأثر (١٤٥٥١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ؛ أي رَاوَدَتْهُ امرأةُ العزيزِ واسْمُها زُلَيْخَا، وكان يوسفُ من أحسنِ البشر، وكان كضَوءِ النَّهار ونور الشَّمسِ، وكان بحيث لا يستطيعُ آدميٌّ أن يصِفَهُ، فراودَتهُ أي طالَبَته لِمُرادِها منه، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ ؛ عليهِ وعليها وطلَبت منه أن يُواقِعَها، قولهُ (وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ) قال المفسِّرون أغلقَت سبعة أبوابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ ؛ أي هَلُمَّ إلى ما هُيِّءَ لك، قرأ ابنُ كثير (هَيْتُ لَكَ) بفتح الهاء وضمِّ التاء، وقرأ أهلُ المدينة والشام بكسرها وبفتح التاءِ، وقرأ الباقون بفتح الهاءِ والتاء، وهي قراءةُ النبيِّ ﷺ، ومعناهُ جميعاً: هَلُمَّ وأقبلْ، قال مجاهدُ: (تَدْعُوهُ إلَى نَفْسِهَا وَهِيَ كَلِمَةُ حَثٍّ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ؛ أي أعوذ باللهِ أن أفعلَ ما لا يجوزُ لِي فِعْلهُ. وَقِيْلَ: اعتصمُ باللهِ عن فعلِ ما تدعُنّي إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ؛ ذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ معناهُ: إنَّ زوجَكِ سيِّدي أحسنَ تربيَتي ومنزِلَتِي مدَّةَ مُقامِي عندَهُ، لا أخونهُ في أهلهِ.

سَمَّاهُ رَبّاً للرقِّ الذي كان ثبتَ له في الظاهرِ عليه. وَقِيْلَ: معناهُ: إن اللهَ تعالى ربي أحسنَ إلَيَّ بتخليصِي من البئر وما قصدَنِي قَومي من الهلاكِ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ ؛ أي لا يَأمَنُ ولا ينجُو من عذاب الله الذين يظلِمُون أنفسهم، أراد بهم الزُّناةَ، ويجوزُ أن يكون أرادَ لو فعَلَ ما دَعَتْهُ إليه لكان ظَالِماً لزَوجِها في أهلهِ.

وفي قولهِ (هَيْتَ) خلافٌ من فتحِ التاء فلِسُكونِها وسكونِ الياء قبلَها نحوُ: كيفَ وأينَ، ومَن ضَمَّ التاءَ فعلى أنَّها مبنيَّةٌ على الضمِّ نحو حيثُ ومنذ، ومَن قرأ بفتحِ الهاء وكسرِ التاء فلأنَّ الأصلَ في التقاءِ السَّاكِنَين حركةُ الكسرِ، ويجوز أن يكون مبنيّاً على الكسرِ مثل أمسِ وجَيْرِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٦٤) بمعناه، وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٦٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ؛ قال الحسنُ: (أمَّا هَمُّهَا فَأَخَبُّ هَمٍّ وَهُوَ الْعَزْمُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَأَمَّا هَمُّهُ فَهُوَ مَا طُبعَ عَلَيْهِ الرِّجَالُ مِنْ شَهْوَةِ النِّسَاءِ مِنْ دُونِ عَزْمٍ عَلَى الزِّنَا).

واختلفَ أهلُ العلمِ في ذلك، فرُوي عن ابنِ عبَّاس أنه سُئِلَ: مَا بَلَغَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ؟ قَالَ: (حَلَّ الْهِمْيَانَ[1] وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْخَاتِنِ)[2]. وعن ابن أبي مليكة قال: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: مَا بَلَغَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ ؟ قَالَ: (اسْتَلْقَتْ لَهُ عَلَى قَفَاهَا وَقَعَدَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا يَنْزِعُ ثِيَابَهُ)[3] وهو قولُ سعيدِ بن جُبير والضحَّاك والسديُّ.

ورُوي عن ابنِ عبَّاس: (أنَّه لَمَّا راوَدت يوسُفَ جعلت تذكرُ محاسنَهُ وتشوِّقه إلى نفسها، فقالت: يا يوسفُ ما أحسنَ ماء عينيكَ؟ قال: هو أوَّلُ ما سِيلَ على الأرضِ من جسَدِي، قالت: ما أحسنَ وجهَكَ؟ قال: هو للتُّراب يأكلهُ، قالت: ما أحسنَ شعْرَك، قال: هو أوَّلُ سَتْرٍ من بدَنِي، قالت: ما أحسنَ صُورَتَكَ، قال: ربي صوَّرَني، قالت: يا يوسفُ صورةُ وجهكَ أنْحَلَتْ جسمي، قال: إن الشيطانَ يُعِينُكِ على ذلكَ، قالت: فراشُ الحريرِ قد بسطتهُ قم فاقضِ حاجَتِي، قال: إذن يذهبُ نصيبي من الجنَّة، قالت: أدخل في السترِ معي، قال: ليس بشيءٍ يستُرني من ربي.

فلم تزَلْ تدعوهُ إلى اللذة، ويوسف شابٌّ مستقبلٌ يجد من شبق الشباب ما يجدُ الرجل. وهي حسناءُ جميلة حتى لانَ لها لما يرى من كَلَفِها به وهمَّ بها)[4].

فهذه أقاويلُ أجِلَّةِ أهلِ التفسير، وقال جماعةٌ من المتأخِّرين: (لاَ يَلِيقُ هَذا بالأَنْبيَاءِ) وأوَّلوا الآيةَ، قال بعضُهم: هَمَّ بالفرار، وهذا لا يصحُّ لأن الفرارَ مذكَّرٌ، وَقِيْلَ: هَمَّ بضَربها ودفعِها ومخاصمتها، وقال بعضُهم معنى قوله: (وَهَمَّ بها) بمُنَاهَا أن تكون له زوجةً.

---

(١) الهميان: شداد السروايل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٦) و(١٤٥٩٢) عن سعيد بن جبير وابن عباس. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٧٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٦) بأسانيد عديدة، والأثر (١٤٥٩٠).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٤) و(١٤٥٨٥) عن السدي. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٧٥).

وقال أهلُ الحقائقِ: الْهَمُّ هَمَّان: همٌّ مقيمٌ ثابت، وهو إذا كان معه عَـزْمٌ وعقـدٌ ونيَّة ورضًى مثل هَمِّ امرأةِ العزيزِ، فالعبدُ مأخوذٌ به، وهَمٌّ عارضٌ وارد وهو الْخَطْـرَةُ والفكرةُ وحديث النَّفسِ من غـيرِ اختيـارٍ ولا عَـزْمٍ مثـل هـمِّ يوسـف، والعبـدُ غـير مأخوذٌ به.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَـنْ أُمَّتِـي مَـا حَدَّثَـتْ بِـهِ أنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُواْ أوْ يَفْعَلُوا بهِ](١). عن ابنِ عبَّاس قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَـا مِنْ أحَدٍ يَلْقَى اللهَ قَدْ هَمَّ بخَطِيئَةٍ قَدْ عَمِلَـهَا، إلاَّ يَحْيَـى بْـنَ زَكَرِيَّـا فَإنَّـهُ لاَ يَـهِمُّ ولَـمْ يَفْعَلْ](٢).

وقال بعضُهم في قولهِ (وَلَقَدْ هَمَّتْ بهِ وَهَمَّ بهَا) قال أبو العبَّاس أحمدُ بن يحيـى ثعلب: (هَمَّتِ الْمَرْأةُ بالْمَعْصِيَةِ مُصِرَّةً عَلَى ذلِكَ، وَهَمَّ يُوسُفُ بالْمَعْصِيَةِ وَلَمْ يَأْتِهَا). وَقِيْلَ: هَمَّت المرأةُ عازمةً علـى الزنـى، ويوسـفُ عارَضَـهُ مـا يعـارضُ الشبابَ مـن خَطَراتِ القلب وحديث النَّفس، فلم يلزمه، وهذا الْهَمُّ ليـس ذنبـاً إذ الرجـلُ الصـائم يخطرُ بقلبهِ شرابُ الماءِ البارد، فإذا لم يشرب كان غيرَ مُؤَاخَذٍ بما يحسُّ في نفسهِ فيه.

وقال الزجَّاج: (وَهَمَّ بهَا وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُـلِ مِـنَ الْمَـرْأةِ، إلاَّ أنَّ اللهَ تَعَالَى تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بأنْ أرَاهُ الْبُرْهَانَ، ألاَ تَرَاهُ قَالَ: وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ؛ اختلفُوا في هـذا البرهـان، قـال ابنُ عبَّاس والحسنُ وابن جبير ومجاهد:(رَأى صُـورَةَ يَعْقُـوبَ عَاضّـاً عَلَـى أنَامِلِـهِ)(٤)،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٤ ص٣٨٨: الحديث (٣٦٦١) عـن أبي هريـرة ﷺ. والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٥٥ و٤٢٥ و٤٧٤. والبخاري في الصحيح: كتاب العتق: بـاب الخطأ والنسيان: الحديث (٢٥٢٨)، وفي الإيمان: باب تجاوز الله عن حديث النفس: الحديث (٦٦٦٤). وأبو داود في السنن: كتاب الطلاق: باب ما جاء فيمن يحدث نفسه: الحديث (٢٢٠٩).

(٢) في الدر المنثور: ج ٤ ص٤٨٨؛ قـال السيوطي: ((أخرجـه أحمـد والحكيـم الـترمذي في نـوادر الأصول والحاكم وابن مردويه)) وفي ص٤٨٦؛ قال: ((أخرجه عبدالرزاق وأحمد في الزهد وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم)). وقد تقدم.

(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٨٢.

(٤) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٤٦٠٠) عـن سـعيد، و(١٤٦٠٢) عــن مجـاهد، و(١٤٦٠٧) عن الحسن.

وقال قتادةُ: (سَمِعَ صَوْتاً: يَا يُوسُفُ إنَّهُ فِعْلُ السُّفَهَاءِ، وَأنْتَ مَكْتُوبٌ فِي دِيوَانِ الأَنْبِيَاءِ)[1].

ويقالُ: خرج كَفٌّ بينَهما بلا جسدٍ مكتوبٌ فيه ثلاثةُ أسطرٍ؛ إحداها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[2] والثاني: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[3]، والثالثُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[4].

وعن محمَّد بن كعبٍ القُرظي قال: (مَعْنَى (لَوْلاَ أنْ رَأى بُرْهَانَ رَبهِ): لَوْلاَ مَا عَلِمَهُ مِنْ قَبيحِ الزِّنَى، وَوُجُوب الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ)[5] وَهَذا كُلُّهُ مَحْذُوفُ الْجَوَاب، وَجَوَابُهُ: لَوْلاَ ذلِكَ لَعَزَمَ عَلَى الْقُبْحِ، وَعَمِلَ عَلَى مقتضى شَهْوَتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ ؛ أي كما مكَّنَّا له في الأرضِ، كذلك أريناهُ البرهانَ (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ) أي الخيانةَ (وَالْفَحْشَاءَ) يعني الزِّنَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ الذين أخلَصُوا دِينَهم للهِ، ومَن قرأ بفتحِ اللام فمعناهُ: مِن عِبادنا الذين أخلَصْنَاهم واصْطَفَيناهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ ؛ قال السديُّ: (ذلِكَ أنَّ زُلَيخَا قَالَتْ لِيُوسُفَ حِينَ أغْلَقَتِ الْبَابَ: مَا أحْسَنَ شَعْرَكَ ﷺ إلَى آخِرِ الْكَلاَمِ) وَقَدْ تَقَدَّمَ ذلِكَ حَتَّى هَمَّ بهَا، فَلَمَّا رَأى الْبُرْهَانَ قَامَ مُبَادِراً إلَى الْبَاب هَارباً، فَاتَّبَعَتْهُ الْمَرْأةُ فَأدْرَكَتْهُ، فَلَمَّا أحَسَّتْ بقُوَّتِهِ مَزَّقَتْ آخِرَ قَمِيصِهِ مَانِعَةً لَهُ مِنَ الْخُرُوجِ. والقَدُّ قطعُ الشيءِ بأسرهِ طُولاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ ؛ صَادفا زوجَها عند الباب جَالساً، فلمَّا رأتْهُ هَابَتْهُ، و﴿ قَالَتْ ﴾ سابقةً بإلقاءِ الذنب على يوسف: ﴿ مَا جَزَآءُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٨٣ و١١٤٨٤).

(٢) البقرة / ٢٨١. (٣) الإسراء / ٣٢.

(٤) الانفطار / ١٠-١١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٨٩).

﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ؛ يعني الزِّنَى، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ ؛ أن يُودَعَ في السجنِ، أوْ؛ يُعَذبَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ ؛ يعني الضَّربَ الوجيعَ.

فلمَّا قالت المرأةُ ذلك، لَمْ يجِدْ يوسُفُ بُدّاً من تبرئةِ نفسه، ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ ؛ أي طالَبَتني بمُرادِها من نفسي فأبَيتُ وفرَرْتُ منها، فأدركَتْني وشقَّتْ قَميصي، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ،وكان مع زوجِها بالباب، ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ، ابنُ عمٍّ لها حكيم، فقال ابنُ عمِّها: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ ؛ إنْ كان شُقَّ القميصُ مِن قُدَّامِه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ ؛ فهي صادقةٌ، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ، وإنْ كانَ من خلْفِهِ فهو صادقٌ، وقال الضحَّاك: (كَانَ الشَّاهِدُ صَبيّاً فِي الْمَهْدِ فَأنْطَقَهُ اللهُ تَعَالَى)[1]. قِيْلَ: كان ذلك الصبيُّ ابنَ خالِ المرأة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ ؛ أي فلمَّا رأى ابنُ عمِّها قَدَّ القميصِ من خلفٍ، ويقال: فلمَّا رأى زوجُها ذلك، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ ؛ أي قولُها (مَا جَزَاءُ مَنْ أرَادَ بأهْلِكَ سُوءً) من مَكْرِكُنَّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

ثم قالَ ليوسُفَ بعدَما ظهرَتْ براءتُهُ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ ؛ يعني أمْسِكْ ذِكرَهُ حتى لا ينتشرَ في البلدِ وفي ما بين الناس، ثم أقبلَ عليها وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ ؛ فإن الخطابَ كان منكِ ألقيتِهِ على يوسف.

وقد احتجَّ مالكُ والحسنُ بن حيٍّ[2] في الحكمِ بالعلامة بهذه الآيةِ: أنَّ اللُّقَطَةَ إذا ادَّعَاهَا مُدَّعٍ وَوَصَفَهَا وَجَبَ عَلَى الْمُلْتَقِطِ أنْ يَدْفَعَهَا إلَيْهِ عَلَى مَذْهَبِهِمَا. ولا حجَّة

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٦٣٠).

(٢) الحسن بن حيّ؛ هو: ابن صالح بن صالح بن حي، وهو: حيَّان بن شُفَي بن هُني بن رافع الهمداني الثوري. قال البخاري: (يقال: حي لقبٌ). واختلف القول فيه؛ قال عنه أحمد: (الحسن ابن صالح صحيح الرواية، متفقه، صائن لنفسه الحديث والورع)، وقال يحيى بن معين: (ثقة، مأمون، مستقيم الحديث، يكتب رأي مالك، والأوزاعي، والحسن بن صالح هؤلاء ثقات). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (١٣٠٧): ج ٢ ص٢٦٤-٢٦٨.

هما في هذه الآيةِ، إذ لا خلافَ بين الفُقهاءِ أن الأملاكَ والأيدي لا تستحقُّ بالعلاماتِ، فإنَّ العطَّارَ والدباغَ إذا اختلفَا في عِطْرٍ في أيدِيهما لم يكن العطارُ أوْلَى به من الدَّباغِ، وكذلك الاسكافِيُّ والصَّيرَفِيُّ إذا اختلفَا في حذاءٍ في يدِ الصيرفِيِّ لم يستحقُّهُ الاسكافِيُّ؛ لأن ذلك من صِناعتهِ.

وعن مجاهد: (أنَّ امْرَأتَيْنِ اخْتَصَمَتَا إلَى شُرَيْحٍ فِي وَلَدٍ لَهُنَّ، فَقَالَ شُرَيْحُ: ألْقُوهَا مَعَ هَذِهِ، فَإنْ هِيَ رَدَّتْ وَفَرَّتْ وَاسْتَفَزَّتْ فَهِيَ لَهَا، وَإنْ هَرَبَتْ وَفَرَّتْ فَلَيْسَتْ لَهَا)(١). وكان ذا القولِ من شُريح على جهةِ ما يغلبُ في الظنِّ ليميِّزَ المبطلَ من المدعِيَين فنحكمُ عليه بالإقرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُنَّ أرْبَعُ نِسْوَةٍ: امْرَأةُ سَاقِي الْمَلِكِ، وَامْرَأةُ خَبَّازِهِ، وَامْرَأةُ صَاحِبِ سِجْنِهِ، وَامْرَأةُ صَاحِبِ دَوَابِهِ، قُلْنَ فِي امْرَأةِ الْعَزِيزِ: إنَّهَا تَدْعُو عَبْدَهَا إلَى نَفْسِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ؛ قد خرقَ حبُّهُ حجابَ قلبها فلا يعقلُ غيره، ويقال: قد أحبَّتهُ حتى دخلَ حُبُّهُ شِغافَ قَلبها. والشِّغَافُ: جلدةٌ تشتملُ على القلب، يقالُ: شَغَفَهُ إذا رماهُ فأصابَ ذلك الموضعِ منه كما يقالُ كَبَدَهُ إذا أصابَ كَبدَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (حُبّاً) نُصِبَ على التميزِ كأنَّهُنَّ قُلنَ: أصابَ حبُّه وسطَ قلبها وسويداءَ قلبها. وقرأ أبو رجاءٍ والشعبي: بالعين المهملة، ومعناه ذهبَ بها الحبُّ كلَّ مذهبٍ، مشتقٌ من شِعافِ الجبال أي رُؤوسها(٢). قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي في الخطأ البيِّن.

---

(١) هكذا النص في المخطوط، وهو غير واضح، ولم أقف عليه.

(٢) قال الرازي: (شَغَفَهُ الْحُبُّ يَشْغَفُهُ، بفتح العين فيهما (شَغَفاً) بفتحتين: أحْرَقَ قلبَهُ، وقيل: أمرضَهُ. وقرأ الحسن: ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبّاً﴾ قال: بطنها حُباً). مختار الصحاح: ش ع ف: ص٣٤٠. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٧٦؛ نقله القرطبي؛ قال: (قال النحاس...). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٤٤.

قال ابنُ عبَّاس: (فَجَعَلْنَ يُفْشِينَ هَذا فِي الْمَدِينَةِ، فَبَلَغَ ذلِكَ زُلَيْخَا) فهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ ؛ أي فلما سمعت بكلامِ هؤلاء النِّسوة وذمِّهن لها أرسلت إليهنَّ، فدعَتهُنَّ لوليمةٍ أعدَّتْها لهن، ويقال: إنما سُمي قول النسوةِ مَكْراً؛ لأنَّها كانت أطلَعتْهُنَّ واستكتَمَتْهن فأفْشَينَ سِرَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ؛ أي أصلَحت وهيَّأتْ لهن أمكنةً يقعُدن عليها، ووسائدَ يتَّكِينَ عليها، وفي قراءة ابنِ عباس (مُتْكاً) بالتخفيف بغير همز، قال: (وَالْمُتْكُ: الأُتْرُجّ)[١].

قال وهبُ: (دَعَتْ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً، وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ أتْرُجاً وَبطِّيخاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ؛ لتقطعَ بها الفواكِهَ والأُترج على ما جَرت به العادةُ، ويقال: كانت وضَعت لَهُنَّ خُبزاً ولَحماً وهذه الفواكه، ﴿وَقَالَتِ﴾ ؛ ليوسُف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ؛ وذلك أنَّها كانت قد أجْلَستَهُ في مجلسٍ غير الذي كُنَّ جلسنَ فيه. قال عكرمةُ: (وَكَانَ فَضْلُ يُوسُفَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحُسْنِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى النُّجُومِ).

وعن أبي سعيدٍ الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَرَأَيْتُ يُوسُفَ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ: يُوسُفَ] قَالَ: كَيْفَ رَأيْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ][٢]. ورُوي أن يوسف ﷺ كان إذا مشَى في أزقَّة مصرَ يُرى نورُ وجهِهِ على الجِدَارَاتِ كما ترى نورَ الشمسِ والماء على الجدار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) فخرجَ عليهن، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ؛ أي عَظُمَ عندَهُن، و؛ بلغَ من شَغْلِ قُلوبهن برؤيته ما، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ؛ بالسَّكاكين. قال قتادةُ: (قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ حَتَّى الْقَيْنَهَا وَهُنَّ لاَ يَشْعُرْنَ)، ويقالُ: معنى (أَكْبَرْنَهُ) أي حِضْنَ، ويقال: معنى (أكْبَرْنَ) آمَنَّ. قِيْلَ: أنَّهن كُنَّ يقطِّعن أيديهن وهن

---

(١) المتك: مخففاً غير مهموز هو الأترج. وبالضم أو الفتح يقال: الأترنج؛ وهو كل شيء يقطع بالسكين و غيره من الفواكه. والترنج ثمرة حامضة أكبر من الليمون وفيها استطالة، ورائحتها قوية وقشرها أصفر.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٤٤. وابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص٨٤.

يحسَبن أنّهن يُقطِّعنَ الأترُجَ، ولم يجدن الألَمَ لاشتغال قُلوبهن برؤيةِ يوسف. قال وهب: (وبَلَغَنِي أنَّ سَبْعاً مِنَ الأَرْبَعِينَ مِمَّنْ كُنَّ فِي ذلِكَ الْمَجْلِسِ وَجَدْنَ بِيُوسُفَ الْعَلَيْهِ السَّلَامُ).

وقولهُ تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ؛ أي قُلن معاذ اللهِ أن يكون هذا آدمياً، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ، بل هو، ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ؛ من السَّماء، فشبَّهنَهُ بالْمَلَكِ وهُنَّ لا يَرَينَ الْمَلَكَ، ولكنَّ الناسَ إذا وصَفُوا بالْحُسْنِ شَبَّهوا بالْمَلَكِ. ومعنى (حَاشَ للهِ) أي تَنْزِيهاً للهِ، وفي قراءةِ الحسن (إنْ هَذا إلاَّ مَلِكٌ كَرِيمٌ) بكسر اللامِ، ويُقرأ (مَا هَذا بشِري) أي بعبدٍ مُشترى، وليست هذه القراءة بشيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ ؛ أي قالت زُلَيخا: فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيْهِ فِي حُبهِ وشَغَفي به، وذا إشارةٌ إلى يوسُفَ ولكن مخاطبة لهن، ثم أقَرَّت لهن فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ ؛ أي دَعوتُهُ إلى مُرادِي فامتنعَ بالعفَّة، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ما أدعوهُ إليه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ في السِّجنِ، ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي الأذِلاَّء فيه مع السُّرَّاق، وجعلت تقول هذا القول منها قبالته وهو جالسٌ يسمع.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا قَالَتْ زُلَيْخَا هَذا الْقَوْلَ، قَالَ هَؤُلاَءِ النِّسْوَةُ لِيُوسُفَ: أطِعْ مَوْلاَتَكَ) فَقَالَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي قالَ يوسفُ: يا رب نزولُ السجنِ أحبُّ إليَّ مما يَدعونَني إليه من قبيحِ الفعلِ، والسِّجنُ أسهلُ عليَّ من المعصيةِ. ومَن قرأ (السَّجْنُ) بفتح السين فهو المصدرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ؛ أي وإلاّ تَلْطُفْ بي بما يصرفُ عنِّي كيدهُن أمِلْ إليهنَّ بهوَاي، ﴿وَأَكُن مِّنَ﴾ ؛ بمنْزلة، ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ، في فِعْلي. وفي هذا دليلٌ على أنَّ النسوةَ طلَبن منه مثلَ ما طلبَتِ امرأةُ العزيز، فإنه روي أنّهن لَمَّا رأينَ يوسف استأذنَّ امرأةَ العزيز أن تَخْلُو كلُّ واحدةٍ منهن بهِ، وتدعوهُ إلى امرأة العزيز وإلى طاعتِها، فلمَّا خَلَونَ به دَعَتْهُ كلُّ واحدة منهن إلى نفسِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ ؛ أي فأجابَهُ ربُّـه في دعائهِ فصرفَ عنه كيدَهن، وعصَمَهُ من الفواحشِ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ لدعاءِ عباده، العليمُ بضمائرهِم ونياتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي بَدَا للعزيزِ وأصحابه من بعدِ ما رَأوا العلاماتِ من شقِّ القميـصِ وقطـعِ الأيـدِي وقضاء ابنِ عمِّها عليها، أن يحبسَهُ إلى مدَّة حتى تنقطعَ مقالةُ الناسِ، ويأتِي على هـذا الحديثِ مدَّة، فحبَسَهُ بعد ظهور عُذرهِ خمسَ سنين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ ﴾ ؛ رُوي: أنـه دخلَ على يوسُفَ بعدَ دخولهِ الخمسَ سـنين عَبْدَان للملـكِ، وهـو صـاحبُ شـرابهِ وصاحبُ طعامهِ، غَضِبَ عليهما الملكُ، واتَّهَمَ صـاحبَ الطعـامِ أنـه يريـدُ أن يَسُـمَّهُ. وصاحبَ الشَّراب بأنه مَالأهُ على ذلك، وذلك أنَّ أعداءَ الملـكِ أرادوا الْمَكْـرَ بـالملكِ واغتيالهِ، فطَلَبوا هذين وضَمِنُوا لهما مَالاً ليَسُمَّا طعامَ الملـكِ وشـرابَهُ، فـأبَى السَّـاقِي وقَبلَ الخبَّازُ الرِّشْوَةَ فسَمَّ الطعامَ.

فلَمَّا حضرَ وقتهُ قال السَّاقِي: أيُّها الملكُ لا تأكُلْ فإنه مسمومٌ، وقال الخبازُ: أيُّها الملكُ لا تشرب فإنه مسمومٌ. فقال الملكُ للسَّاقي: اشْرَبْ، فَشَرِبَ فلم يضُـرَّهُ، وقـال للخباز: كُلْ من طَعامِكَ فأبَى، فجرَّبَهُ الملكُ على دابَّة فأكلت من الطعامِ فمَاتَتْ، فأمرَ الملكُ بحبسِهما.

وكان يوسفُ قد قالَ لأهلِ السِّجن لَمَّا دخله: إنِّي أعبَرُ الأحـلامَ، فقـال أحدُ هَذين القيمين لصاحبهِ: هلُمَّ فلنُجَرِّبْ هذا العبدَ العِبْرَانِيَّ برُؤيا له، فسألاهُ من غيرِ أن يكونا رأيا شيئاً. قال ابنُ مسعود: (مَا رَأيَا شَيْئاً إنَّمَا كَانَا تَحَالَمَا عَلَيْهِ لِيُجَرِّبَا عِلْمَهُ)(١).

وقال قومٌ: كانا رأيَاها على حقيقةٍ ويقين، فقالَ السَّاقي: أيُّها العالِمُ إنِّي رأيـتُ كأنِّي في بُستانٍ وإذا بكَـرَةٍ عليـها ثلاثـةُ عنـاقيد فجنيتُـها، وكـأنَّ كـأسَ الملـكِ بيـدي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٤٥).

فعصَرتُهم فيه وسقَيتُ الملكَ فشَربهُ، وقال الخبَّازُ: إنِّي رأيتُ كأنَّ فوقَ رأسي ثلاثَ سِلاَلٍ من خُبْزٍ وألوانِ الأطعمَةِ فإذا سِبَاعُ الطيرِ تَنهَشُه.

وإنما سُمي العنبُ باسمِ الخمر لأن الشيءَ يُسمَّى بما يؤُولُ إليه، وقال الضحَّاك: (الْخَمْرُ هُوَ الْعِنَبُ)[1] بعَيْنِهِ بلُغَةِ عُمَانَ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ (إنِّي أرَانِي أعْصِرُ عِنَباً). قال الأصمعيُّ: (أخْبَرَنِي الْمُعْتَزُّ أنَّهُ لَقِيَ أعْرَابياً مَعَهُ عِنَبٌ، فَقَالَ: مَا مَعَكَ؟ قَالَ: خَمْرٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي أخبرنا بتفسيرهِ وتعبيره، وما يؤولُ إليه أمرُ هذه الرُّؤيا، ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي العالِمين الذين أحسَنُوا العلمَ. وقِيْلَ: من المُحسنِين إلينا إنْ قلتَ ذلك وفسَّرتَ رُؤيانا. وعن الضحَّاك في قولهِ تعالى: (إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) قال: (كَانَ إحْسَانُهُ إذا مَرِضَ رَجُلٌ فِي السِّجْنِ قَامَ عَلَيْهِ، وَإذا أضَاقَ وَسَّعَ عَلَيْهِ، وَإذا احْتَاجَ سَألَ لَهُ)[2]. وقيل: إحسَانهُ أنه كان يُداوي مَريضَهم، ويُعزِّي حَزينَهم.

قال[3]: (فَكَرِهَ يُوسُفُ أنْ يُعَبِّرَ لَهُمَا لِمَا عَلِمَ فِيْهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ عَلَى أحَدِهِمْ، فَأعْرَضَ عَنْ سُؤَالِهِمَا وَأخَذ فِي غَيْرِهِ) و﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ؛ أي لا يأتيكُما طعامٌ تُطعمَانِهِ وتأكلانهِ إلاّ نبَّأتُكما بتفسيرهِ ولَونهِ أيَّ طعام أكلتمُوهُ، قالاَ له: هذا مِن فعلِ الكَهَنةِ، قال: ما أنا بكاهنٍ وإنما: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ ﴾ ؛ أي شَريعةَ آبائي، ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ وباقِي الآيةِ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٥٣).

(٣) القائل هو الضحاك؛ لما سبق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ يوسـف عليه السلام رأى أهـلَ السِّجن وبـين أيدِيـهم أصنـامٌ يعبُدونَها، فدعَاهم إلى الإسلامِ وألزَمَهم الحجَّةَ، فقالَ لَهم: أربـابٌ متفرِّقـون شـتَّى لا تضرُّ ولا تنفعُ خيرٌ أمِ اللهُ الواحد القهَّارُ الذي لا ثانِي له ؟

ثم بيَّن عجـزَ الأصنـامِ وضعفَـها فقـال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ آلِهة من غيرِ أن يكون لتلـكَ التسميةِ حقيقـةٌ، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ أي من حجَّة وبرهان، ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ أي ما القضاءُ والأمر والنَّهيُ إلا للهِ، ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ . قوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ ؛ أي الذي أدعُوكم إليه هو الدِّيـنُ القـائمُ الـذي يرضـاهُ لا عِوَجَ فيه، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ ؛ معنى الآيـةِ: أمـا أحدُكمـا وهـو السَّـاقي، فيَسقِي سيِّدَهُ يعني الملِك خمراً، وأما العناقيدُ الثلاثة التي رَآها فإنَّها ثلاثةُ أيام يبقَـى في السجنِ، ثم يخرجهُ الملكُ ويعود في ما كان عليه، وأما الآخرُ فيُصلَـبُ والسِّـلالُ الـتي رَآها فإنَّها ثلاثةُ أيَّام يبقى في السجنِ، ثم يخرجهُ الملك في اليومِ الرابع فيَصلِبـهُ فتـأكلُ الطيرُ من رأسهِ.

فقال الخبَّازُ: إنِّي لَمْ أرَ شيئاً، فقـال لَـهما يوسـفُ: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي فرَغَ من الأمرِ الذي سألتُما عليه فهو كائنٌ، رأيتُمـا أو لَـم ترَيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي قالَ يوسفُ للذي عَلِمَ أنه ناجٍ منهما، وهو صاحبُ الشَّراب: اذكُرني عندَ سـيِّدِكَ الملِك أنِّي مظلومٌ، عَدَا عليَّ إخوَتِي فباعُوني وأنا حرٌّ، وحُبستُ في السجنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي أنسـى الشيطانُ السَّاقي أنْ يذكُرَ يوسف عندَ الملكِ؛ أي شَغَلَهُ عن ذلك بما كان يدعوهُ إليه من اشتغالهِ برُكوب سَوْأتِهِ وخدمتهِ للملك. وَقِيلَ: معناهُ أنسَى الشيطانُ يوسـف ذِكْـرَ ربـهِ حتـى

التمسَ من النَّاجي منهما أن يذكُرَهُ عند ربه، وكان مِن حقّه أن يتوكَّل على اللهِ في ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ والبِضْعُ مابين الثَّلاث إلى التسعِ.

وفي الخبر: أنه يبقَى في السجن بعد هذا القول سبعَ سنين. وعن الحسن: عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [رَحِمَ اللهُ أخِي يُوسُفَ لَوْ أنَّهُ ذكَرَ رَبَّهُ، وَلَمْ يَسْتَغِثْ بالْمَلِكِ لَمْ يَلْبَثْ فِي السِّجْنِ مَا لَبثَ] قال: ثُمَّ بَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ: (نَحْنُ إذا نَزَلَ بنَا أمْرٌ فزِعْنَا إلَى النَّاسِ)(١).

وقالَ مالكُ بن دينار: (لَمَّا قَالَ يُوسُفُ لِلسَّاقِي: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبكَ، قِيْلَ لَهُ: يَا يُوسُفُ اتَّخَذْتَ مِنْ دُونِي وَكِيلاً، لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ، فَبَكَى يُوسُفُ وَقَالَ: يَا رَب أنْسَى قَلْبِي كَثْرَةُ الْبَلْوَى)(٢).

ويُحكى: أنَّ جبريل عليه السلام دخلَ على يُوسف السجنَ، فلمَّا رآهُ يوسف عَرَفَهُ وقال: يا أخَا المنذِرين، ما لِي أراكَ بين الخاطِئين؟ فقالَ له جبريلُ: ربُّكَ يُقرِؤُكَ السلامَ ويقول لكَ: ما استَحييتَ منِّي إذِ استشفعتَ بالآدميِّين! فوَعِزَّتِي لألبِثَنَّكَ في السجنِ بضعَ سنين، قال يوسفُ: أهو عنِّي في ذلك راضٍ ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبَالِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾؛ رُوي أن يوسفَ مَرِضَ في السجن، فأمرَ اللهُ جبريلَ أن يَعُودَهُ، فعاده فعرفَهُ لكثرةِ اختلافه إلى آبائهِ، فقال له جبريلُ: يا طاهرَ بن الطاهر، ربُّ العزَّة يقولُ لكَ: مَن حبَّبَكَ إلى أبيكَ من بين إخوتِكَ ؟ قالَ: هو، قال: فمَن أنقذكَ من أيدِي إخوتِكَ ؟ قالَ: هو، قال: فمَن سهَّلَ لكَ السَّيارةَ في الأرضِ القِفْرِ حتى أخرَجوكَ من قعر البئرِ ؟ قال: هو.

ثم نَشَرَ جبريلُ جناحه، وأشارَ إلى الأرضِ فانفرَجَت، قال: يا يوسفُ انظر ما ترَى ؟ قال: أرَى هو، ثم أشارَ إلى الأرضِ ثانية فانفرَجت كلها حتى نظرَ يوسفُ إلى

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٧٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٧٦).

الصخرةِ التي عليها الأرضُون، فقال جبريلُ: ما ترَى؟ قال: صخرةٌ عليها دُرَّةٌ، قال: فما ترَى في فمِ الدُّرَّةِ؟ قال: أرَى طعاماً، قال ربُّ العزة يقول لكَ: أنا أذكُرُ هذه الدرَّة في هذا الموضعِ ثم أنساكَ على وجهِ الأرض؟ أما استحيَيتَ مني حتى تقولَ لعبدِ مَلِكٍ اذكُرني عندَ ربك، ولم تقُل يا رب، فعندَ ذلك قال يوسفُ: يا رب فاسألُك بمَنِّكَ القديمِ، وفضلِكَ العميمِ إلاّ غفرتَ لي، قال: يا يوسفُ أغفِرُ لكَ وأخرِجُكَ من السجنِ، ثم كان من رُؤيا الملكِ ما كان.

ومعنى الآيةِ: أن الملِكَ واسمه زيَّان بن الوليدِ رأى في النومِ سبعَ بقَراتٍ سِمَانٍ خرجنَ من نَهرٍ من أنْهار مصرَ، فخرجَ من بعدِهنَّ سبعُ بقَراتٍ عِجَافٍ، فابتلعَ العجافُ السِّمانَ فدخلن في بُطونِهنَّ ولم يزد[1] منهنَّ شيئاً، فعَجِبَ منهُنَّ، ورأى سبعَ سُنبلات خُضْرٍ وسبعَ سُنبلات أخَرَ يابساتٍ، الْتَوتِ اليابساتُ على الْخُضْرِ فقَلَبن خُضرَتَهُنَّ ولم يسير عليهن شيءٌ منهن.

فأرسلَ الملِكُ في هذه الرُّؤيا إلى السَّحَرةِ والكَهَنة، فجمَعَهم ثم قصَّ عليهم ذلك وقال لهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي قالتِ الكهنةُ والسَّحرة: هذه الرُّؤيا أباطيلُ الأحلامِ كاذبَةٌ، وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ المختلفة بعالِمين، ليس لها عندَنا تأويلٌ.

قولُهُ تعالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ قال صاحبُ الشَّراب الذي نَجا من السِّجنِ والقتل وتذكَّر بعد سِنين، ويقالُ: هذا بعدَ انقراضِ أمَّة، والأمَّة في اللغة هي المدَّة الكثيرةُ كما أنَّها في الجماعةِ الجماعةُ الكثيرة. ومَن قرأ (بَعْدَ أَمَّةٍ) فمعناهُ: بعدَ نسيانٍ.

وقولهُ تعالى: (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ) قولُ صاحب الشَّراب لَمَّا عجزَ الكهنةُ عن تأويل رُؤيا الملكِ، جاءَ ووقفَ بين يديه فخاطبَهُ بلفظِ الجماعة كما يخاطَبُ الملكُ، وقال: أنا أخبرُكم بتعبيرِ هذه الرُّؤيا، فأرسِلُون إلى السِّجن. ثم قال: إنَّما كنتُ عصَيتُ فحبَستَني

---

(١) في المخطوط: (ولم يسير منهن) وهو تصحيف.

أنا وخبَّازُكَ، فرَأينا فيها رُؤْيا فقصَصْنَاها على رجُلٍ في السجنِ عـالِمٍ صـالح صـادق، فأخبَرَنا بها فكان كما أخبرَ، فأرسِلُون إليه. فأرسلوهُ فدخلَ السجنَ وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ ؛ وحذفَ كلمةَ النداءِ اختصاراً، والصِّدِّيقُ: الذي يَجري على عاداتهِ في الصِّدق والتصديق بالحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ ؛ خرَجْـنَ مـن نـهر بيـتٍ تبعَهُنَّ ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ ﴾ ؛ بقراتٍ، ﴿ عِجَافٌ ﴾ ؛ هالِكات مـن الهزال، و في ﴿ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ ؛ التَوَيـنَ علـى الْخُضْـر وغلَبْـنَ خُضرَتَهن. قولهُ تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي لإنْ أرجعَ بتأويلِ ذلك إلى الملِك والناسُ يعلمونَهُ.

فقال له يوسفُ: أما سبعُ بقراتٍ سِمَانٍ فـهي سـبعُ سـنين خَصْبَـةٍ، وأمـا سـبعُ بقرات عِجَافٍ فهي السُّنون السَّبع الْجَدْبَةِ، وأما سبعُ سُنبلات يابسـاتٍ فـهو القحـطُ والغَلاءُ في السِّنين الجدبَة، ثم عَلَّمَهُ يوسفُ عليه السلام كيف يصنَعون، كما قَالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ ؛ أي على ما هو عادتُكم في الزراعةِ، وَقِيْلَ: معنى قوله (دَأباً) بجِدٍّ واجتهادٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي فما حصَدتُـم مـن الـزَّرعِ، فـاتركوهُ في سُـنبُلِهِ ولا تدرسـوهُ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ مِـن ذلك في كلِّ سَنة، وإنما أمَرَهم بهذا؛ لأن الحنطةَ إذا كانت في سُنبلها كـانت أبقَـى منـها اذا دُرِسَتْ، فإنَّها إذا دُرست تآكَلَت، وفَسَدت بمُضِيِّ المدَّة عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ ؛ أي قَحْطَةٌ ضيِّقةٌ على الناس، تأكلون فيها ما ادَّخَرتُم من زُروعِ السِّنين الخصـبَة، ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ إلاَّ شيئاً قليلاً تُحصِنُونَهُ في موضعٍ من المواضـعِ، ونسبَ الأكلَ إلى السِّنين القحطِ على التوسُّع؛ لأن الأكلَ كان يقعُ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ هذا خبرٌ من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رُؤيا الملِك، ولكنه من علمِ الغيب الذي آتاهُ الله إياه، كما قال قتادةُ: (زَادَهُ اللهُ عِلْماً سَنَةً لَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهَا).

والمعنى: أنَّ يوسف عليه السلام قالَ له: ثم يأتِي من بعدِ هذه السنين الأربعَةَ عشرةً، سنةٌ فيها يغاثُ الناس. يجوز أن يكون هذا من الغَوْثِ؛ أي يُغِيثُ اللهَ في تلك السَّنة عبادَهُ فتزكُوا فيها زرُوعَهم وفَواكههم وأعنَابُهم. ويجوز أن يكون من الغَيْثِ وهو المطرُ؛ أي آتاهُم اللهُ بالأمطار والخصب في تلك السَّنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) قرأ أهلُ الكوفة إلاَّ عَاصِماً بالتَّاء؛ لأن الكلامَ كلَّه خطابٌ، وقرأ الباقون بالياءِ ردَّهُ إلى الناس، قال أكثرُ المفسِّرين: يَعْصِرُونَ العِنَبَ خَمراً، والزيتونَ زَيْتاً، والسمسُمَ دُهناً، وهنا أراد يعصِرون الأعنابَ والأثمارَ والحبوب من كثرةِ الغيثِ والخير. وَقِيْلَ: معناهُ: يَنْجُونَ من البلاءِ والشدَّة، والعُصْرَةُ النجاةُ والملجأُ، قال الشاعر[١]:

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ

ومَن قرأ (يُعْصَرُونَ) بضمِّ الياء ونصب الصاد، فمعناهُ يُعْصَرُونَ من قولهِ ﴿وَأنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾[٢].

فلمَّا رجعَ الرسولُ إليه وأخبرَهُ بمقالتِه، قالَ الملِكُ: ائتُونِي بهِ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ؛ قال له: إن الملِكَ يدعُوكَ، ﴿قَالَ﴾ ؛ له يوسفُ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ؛ سيِّدِكَ الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ ؛ حتى يسألَ، ﴿مَا بَالُ﴾ ، عن شأن، ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ؛ أكُنَّ صادقاتٍ على يُوسُفَ أم كاذباتٍ عليه، وليعلمَ صحَّةَ بَراءَتي، وأنِّي مظلومٌ بالحبس، وأبَى أن يخرُجَ مع الرسول، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ صَبْرِ أخِي يُوسُفَ وَكَرَمِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أنَا الَّذِي دُعِيتُ إلَى الْخُرُوجِ لَبَادَرْتُهُمْ إلَى الْبَابِ، وَلَكِنَّهُ أحَبَّ أنْ يَكُونَ لَهُ الْعُذْرُ][٣].

---

(١) أبو زبيد الطائي: حرملة بن المنذر الطائي، من المعمِّرين أدرك الإسلام، واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات قومه طيء، اعتزل علي ومعاوية مع صديقه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، توفي في الرقة (٤١هـ).

(٢) النبأ / ١٤ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٨٣٣) بأسانيد عديدة عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث (١٤٨٣٤) عن عكرمة مرسلاً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١١٦٨٥). وهو في المسند: ج ٢ ص٣٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ؛ فيه إضمارٌ، تقديرُ الكلامِ: فرجعَ الرسولُ إلى الملِك فأعلمَهُ بذلكَ، فأرسلَ الملكُ إلى النسوةِ فأحضرَهنَّ، ثم قالَ لهن: (مَا خَطْبُكُنَّ) أي ما شأنكن إذ طلبتُنَّ يوسف عن نفسهِ، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ؛ هذا جوابُ النسوةِ للملك بكلمة التَّنْزيهِ، نزَّهنَ يوسفَ عن ما اتُّهِمَ بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ؛ أي من قبيحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ؛ أي تَبيَّنَ وظهرَ الحقُّ ليوسفَ، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ؛ أي دعوتهُ إلى نفسي، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ؛ في قولهِ إنه لَم يُراوِدْني.

قال ابنُ عبَّاس: (فَرَجَعَ صَاحِبُ الشَّرَابِ إلَى يُوسُفَ فَأخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ يُوسُفُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ، الَّذِي فَعَلْتُ مِنْ رَدِّي رَسُولَ الْمَلِكِ إلَيْهِ فِي شَأْنِ النِّسْوَةِ) ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيزُ، ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ في زوجتهِ في حال غَيبَتهِ عنّي.

قال أهلُ الوعظ: فقال جبريلُ: بل ولاَ هَمَمْتَ بها، فقال يوسفُ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ ؛ فإن صحَّت هذه الروايةُ كان المعنى: وما أُبرّئُ نفسي من الْهَمِّ؛ أي ما أزكِّيها، وتزكيةُ النفسِ مما يُذمُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ ؛ أي بالقبيحِ، وذلكَ لكثرةِ ما تَشتَهيهِ وتسارعُ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ ؛ أي إلا ما عَصَمني ربي بلُطفِه، و(ما) بمعنى (من)،كقولهِ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾(١)، وفي هذا دليلٌ أنَّ أحداً لا يمتنعُ من المعصيةِ إلا بعصمةِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ أي غفورٌ لذنوب المذنبين، رحيمٌ بهم بعد التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ ؛ أي قالَ الملكُ: ائتوني بيوسُفَ أجعلْهُ خَالصاً لنفسِي أرجعُ إليه في تدبيرِ مملكَتِي، وأعملُ على إشارته، فلما جاءَهُ الرسولُ قال: أجِب الملكَ، قال: الآنَ.

---

(١) النساء/ ٣ .

فخرجَ يوسفُ، ﴿ فَلَمَّا ﴾ ، دخلَ على الملكِ، ﴿ كَلَّمَهُۥ ﴾ ، قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَأعوذ بكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ غَيْرِهِ، ثم سَلَّمَ عليه يوسف بالعربيَّة، فقالَ له: وما هذا اللسانُ؟ قال: لسانُ عَمِّي إسماعيل، ثم دعَا له بالعبرانيَّة، فقال لـه: وما هذا اللسانُ ؟ قال: لسانُ آبائي. فأعجِبَ الملكُ ما رأى منه.

وكان يوسفُ يومئذٍ ابنُ ثلاثين سَنة، فلما رأى الملك حَداثَةَ سِنِّهِ قال لِمَن عندَهُ: إنَّ هذا عَلِمَ تأويلَ رُؤيَايَ، ولَم تَعْلَمْهُ السحرةُ ولا الكهنة، ثم أجلسَهُ وقال له: إنِّي أحبُّ أن أسمعَ تأويلَ رُؤيَايَ شِفَاهاً منك.

قال: أيُّها الملكُ، رأيتَ سبعَ بقراتٍ سِمَان حِسَان كشفَ لكَ عنهُنَّ النيلُ، خرجنَ عليكَ من شاطئهِ، فبينما أنتَ تنظرُ إليهن، ويُعجِبُكَ حُسْنُهُنَّ إذ نَضَبَ النيلُ وغَارَ ماؤهُ، فخرجَ من حَمْأَتِهِ وَوَحَلِهِ سبعُ بقراتٍ عِجَافٍ شُعْثٍ غير مقلصات البُطون، ليس لهن ضُروعٌ ولهن أضراسٌ وأنياب وأكُفٌّ كَأكُفِّ الكلاب، فاختطفن بالسِّمان فافترسُوهنَّ افتراسَ السَّبُعِ، فأكلنَ لُحومَهن ومزَّقنَ جُلودَهن ومَشْمَشْنَ مُخَّهُنَّ وحطَّمن عِظَامَهُنَّ.

فبَينا أنتَ تتعجَّبُ إذ بسبعِ سنبلات خُضْرٍ وسبع أخر سُود في منبتٍ واحد وأصولُهن في الماءِ، إذ هبَّت ريحٌ فجعلت اليابساتِ السودِ على الْخُضْرِ المثمِرات، فأشعلَت فيهن النارَ فأحرقتهن، فهذا ما رأيتَ من الرُّؤيا. فقال الملكُ: واللهِ إن هذه الرؤيا وإنْ كانت عَجَباً، فإن الذي سمعتُ منك أعجَبُ، فما ترى فيها؟ فقال تأويلُها كذا وكذا كما قد تقدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، أي قالَ له الملكُ: إنَّك اليومَ لدينا مُتَمَكِّنٌ من فعلِ ما تريدُ، نافذُ القولِ والأمرِ، قد ظهرت أمَانتُكَ، وظهرَ كَذِبُ النساءِ عليكَ، ولَم تظهرْ منكَ خيانةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي قال يوسفُ: اجعَلنِي على خزائنِ أرضِكَ، واجعَلْ تدبيرَها إلَيَّ، وأرادَ بذلك الخزائنَ التي يُجمع فيها طعامُ الأرضِ وأموالُها التي كان مصيرُها إلى الملكِ، وكانت أرضُ مصر أربعين فَرسخاً في أربعين فرسخاً. وإنما قال يوسف ذلك لصلاحِ الْخَلْقِ؛

لأن الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ بُعِثُوا لإقامةِ العدلِ ووضعِ الأشياء مواضِعَها، فعَلِمَ يوسف أنه لا أحدَ أقْوَمُ بذلك منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي حافظٌ للخزائنِ، عالِمٌ بوَضعِها مواضعها، وَقِيْلَ: لجميعِ الْسُنِ الغرباء الذين يأتونك، فإنه كان يتكلَّمُ بالعربيِّ والعبرانِي والسريانِي والقِبْطي.

وقيل عالِمٌ بساعات حاجاتِ الناس، وذلك أنْ أمَرَ الخبَّازين أن يجعلوا غداءَ الملكِ نصفَ النهار، فمَن ثَمَّ جعلَ الملوكُ غداءَهم نصفَ النهار، فلما كانت الليلةُ التي وقعَ فيها الجوعُ أوَّل السنين الْجَدْبَةِ، أمَرَ الخبَّازين أن يجعلُوا غَدَاءَهُ مع عشَائهِ ففعلوا، فوقَعَ الجوعُ في نصفِ الليل، فهتفَ الملكُ: يا يوسفُ الجوعَ الجوعَ، فقرَّب إليه طعامَهُ. وفي الآيةِ دليلٌ على أنه يجوزُ للإنسان أن يمدحَ نفسه بالأفضلِ عند مَن لا يعرفُهُ، وأنَّ المرادَ بقولهِ تعالى: (فَلاَ تُزَكُّوا أنفُسَكُمْ)(١) النهيُ من تزكيةِ النفس للفَخْرِ والسُّمعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ ؛ أي كما برَّأنا سَاحَتَهُ وخلَّصناهُ من الحبس، كذلك مكَّنا له في أرضِ مصر (يَتَبَوَّأُ مِنْهَا) أي يَنْزِلُ بها حيثُ يشاء، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ .

ورُوي أن الملكَ تَوَّجَهُ وأعطاهُ سَيْفَهُ ووضعَ له سَريراً من ذهبٍ مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوتِ، ثم أمرَ بأن يجلسَ عليه، فجلسَ ولَزِمَ الملكُ بيته وفوَّضَ إليه كلَّ أمُورهِ، وذلَّت له سائرُ الملوكِ، فلَطَفَ يوسفُ بالناسِ وأقامَ فيهم العدلَ وأخذ يدعوهم إلى الإسلامِ، فأحبَّهُ الناسُ كلهم وآمَنَ كثيرٌ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ على إحسانِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي ولَثوابُ الآخرةِ خيرٌ من ثواب الدُّنيا للذين آمَنُوا بالله وكتُبهِ، ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ، الكفرَ والفواحشَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ وهم عشرةٌ، جاؤُا من بعدِ أبيهم في سِنِيِّ القحطِ لطلب الطعام كما يجيءُ غيرهم، فدخَلُوا عليه

(١) النجم / ٣٢ .

وكلَّموهُ بالعبرانية، وعليه ثيابُ حرير وطَوْقُ ذهَبٍ، وهو جالسٌ على سرير مُلكهِ، ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ ؛ أنَّهم إخوتَه، ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ، وكانوا لا يعرفونَهُ لطُولِ العهدِ؛ لأنَّهم كانوا رَأوْهُ صَغيراً، ولم يظنُّوا أنه يصيرُ مَلِكاً، فأمَارَهُمْ وأحسنَ إليهم، وفاوضَهم في الحديثِ حتى حدَّثوهُ بحديث أبيهم، وقالوا: إنَّ لنا أباً شَيخاً كبيراً وكُنا اثني عشرَ، فهلكَ واحدٌ منَّا في الغنَمِ ووجدنا قميصَهُ وعليه دمٌ فأتينا به أبانا، وله أخٌ وهو آثرُ إلى أبينا منَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ﴾ ؛ لهم: ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ؛ أي لَمَّا أعطاهم الْمِيرَةَ وكالَ لهم كَيلَهم، قال لَهم: (ائْتُونِي بأَخٍ لَكُمْ مِنْ أبيكُمْ) ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾ ؛ أعطِي الناسَ حُقوقَهم على التمام، ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ للأمور منازلَها، ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ مرَّة أخرى.

قوله: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ ؛ أي قالوا: سَنَطْلُبُهُ من أبيه، ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ، أن سنجِيء به، وخافَ يوسفُ أن لا يكون عند أبيهم من الرِّزقِ ما يرجِعُون به إليه مرَّة أخرى.

فأمَرَ أن يجعلَ دراهِمَهم في أوعيَتِهم من غير علمٍ لهم، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ ؛ أي قالَ يوسفُ لِخُدَّامِهِ من مماليكهِ: اجعلُوا دَراهِمَهم ودنانيرَهم التي جَاؤُا بها في رحالِهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾ ، لكي يعرفُوا هذه الكرامةَ مِنِّي. ويقال: كي يعرِفُوا أنَّها دَراهِمي، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ، فيرجِعُوها فيردُّوها عَلَيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ ؛ في المستقبلِ إن لم تُرسِلْ معنا بنيامين، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ ؛ لنا ولَهُ. ومن قرأ (يَكْتَلْ) بالياء أي يكتل أخونا، يأخذ لنفسه حِمْلاً، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ حتى نَرُدَّهُ عليكَ. ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ ﴾ ؛ يوسُفَ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ فضيَّعتموهُ وغيَّبتموهُ عني، ولئن أرسلتُ معكم بنيامين، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، أي فعلَى اللهِ أتوكَّلُ، فإنَّ حِفْظَ

اللهِ خيرٌ من حفظِكم. ومن قرأ (حَافِظاً) أي خيرُ حافظٍ، وكُـلاً نُصـب علـى التمييز، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ . قال كعبٌ: (لَمَّا قَالَ يَعْقُوبُ: واللهُ خَيْرٌ حَافِظاً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي لأَرُدَّنَّ عَلَيْكَ كِلاَهُمَا بَعْدَ مَا تَوَكَّلْتَ عَلَيَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي لما فتَحُوا أوعِيَتهم وجدوا دراهِمَـهم رُدَّتْ إليـهم، ﴿ قَـالُواْ ﴾ ؛ لأبيـهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ؛ أي ما نظلِمُ ولا نكذبُ في ما أخبرْناكَ به أنَّ مَلِكَ مصرَ أكرَمَنا والطفنا، وهذا إذا كان قولُه: (مَا نَبْغِي) من البغيِ، فأما إذا كان من الطلب، فمعنـاهُ الاسـتفهامُ دون الجحدِ، وموضع (مَا) نَصْبٌ تقديرهُ أيُّ شيءٍ نريدُ، وفي قراءةِ عائشـةَ عـن النـبيِّ ﷺ: [مَا نَبْغِي مَعْنَاهُ مَا نَطْلُبُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ؛ ابتداءُ كلام معناهُ: دراهمنـا وهي ثمنُ الطعامِ الذي اشتريناهُ بمصرَ رُدَّتْ إلينا، وقولهُ تعـالى: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ ؛ أي نَمْتَارُ لأهلنا، بقولهِ مَارَ فُلانٌ لأَهْلِهِ إذا حَمَلَ إليهم قُوتَهم من غيرِ بلدةٍ. ومَن قـرأ (نُميرُ) بضم النون، أي نجعلهم أصحابَ مِيرَةٍ، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ ؛ مِن أن يضيـعَ، ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ؛ إذا كان هُوَ معنا، وسُمي الْحِمْلُ كَيْلاً؛ لأنه يُكالُ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي هَيِّنٌ سريع لا حَبْسَ فيـه إنْ أرسَلتَهُ معَنا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لهـم يعقـوبُ: ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ ﴾ ؛ بنيـامين، ﴿ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ ؛ أي تُعطوني عَهْداً وثيقـاً، ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ ﴾ ؛ لتَرُدُّنَّهُ عليَّ، ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، يُنْزلُ بكُم أمِينُ السَّماءِ والأرض لا تَقْـدِرُون علـى دفـع ذلـك، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ ؛ أي لمـا حَلَفـوا، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم يعقوبُ: ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي شهيدٌ حفيظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (خَافَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ الْعَيْنَ لِجَمَالِـهِمْ وَقُوَّتِـهِمْ، وَكُلُّـهُمْ بَنُـو أبٍ

---

(١) في المحرر الوجيز: ص١٠٠٦؛ قال ابن عطية: ((قال المهدوي: وروتها عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ)).

وَاحِدٍ)[١]. ثم رجعَ إلى علمـهِ، ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ؛أي ما القضاءُ إلا للهِ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛إليهِ فوَّضـتُ أمـري وأمْرَكـم مـع التمسُّك بطاعتهِ والرضا بقضائهِ، ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

واختلفَ العلماءُ في أمرِ العَيْنِ، فقالَ بعضُهم: هي حَقٌّ، واستدلُّوا بما رُوي عـن النبيِّ ﷺ أنَّهُ عَوَّذَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَرَقَّى لَهُمَا مِنَ الْعَيْنِ[٢] وَقَـالَ [وَأُعِيذُكُمَـا باللهِ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ][٣]، وَقَالَ ﷺ: [وَالْعَيْنُ حَقٌّ][٤]. وقال بعضُهم: إنه يَمْتَدُّ من عينِ الناظر أجزاء، فتتصلُ[٥] بما يَستحسِنهُ فتؤثِّرُ فيه كتأثيرِ اللَّسْعِ من النار والسُّمِّ.

وأنكرَ بعضُ العلماءِ الإصابةَ بالعينِ؛ لأنه لا شُبهةَ في أنَّ الأمراضَ والأسقامَ لا تكون إلا مِن فعلِ اللهِ؛ لأن الإنسانَ لا يقدرُ على ذلكَ. وفي قولهِ: (وَمَا أُغْنِـي عَنكُـمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) بيانُ أنه لا ينفعُ حَذرٌ مِن قَدَرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ ؛ أي لَمَّا دخَلُوا مصرَ من أبوابٍ متفرِّقةٍ، وكان لمصرَ أربعةُ أبوابٍ، فدخَلُوها من أبوابها كلِّـها كمـا أمَرَهـم. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي مـا كـان يُغنِي يدفعُ عنهم شيئاً من قضاءِ الله، يعني: لو قَدَّرَ اللهُ أن تُصيبَهم العينُ لأصَابَتهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ ؛ وهـي دخولُـهم مصرَ من أبوابٍ متفرِّقة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ؛ أي إن يعقـوبَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٨٩٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص١١٣ عن أسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ عَنْـهَا، في ابني جعفر بن أبـي طـالب ﷺ: الحديـث (٣٧٥-٣٧٧). وأخرجـه مسـلم في الصحيـح: كتاب السلام: باب استحباب الرقية: الحديث (٦٠/ ٢١٩٨).

(٣) أصله عند البخاري في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٣٧١). وأخرجه أبـو داود في السنن: كتاب السنة: باب في القرآن: الحديث (٤٥٣٧).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب العين: باب الوضوء مـن العـين: ج ٢ ص٩٣٨. والإمـام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٨٦. والطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٦ ص٨٢: الحديـث (٥٥٨٠) وإسناده صحيح.

(٥) في المخطوط: (أمر بنصل) وهو تصحيف.

لَذُو يَقِينٍ ومعرفةٍ بالله وبأمر الدِّين لتَعليمِنَا إياهُ أن لا يصيبَ أحداً شيءٌ إلا بقضاءِ الله، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ؛ أي ضَمَّ أخاهُ بنيامين إلى نفسهِ، وَقِيْلَ: أذِنَ له بالدُّخول عليه، وجَلَسَ إخوتهُ بالباب، فلما دخلَ عليه قالَ: ما اسْمُكَ؟ قال: بنيَامِينَ، قال: مَا اسمُ أمِّكَ؟ قال: رَاحِيل، قال: فَهَلْ لَكَ والدٌ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: هل لكَ إخوةٌ من أبيكَ؟ قالَ: عشرةٌ، فقال: هَلْ لَكَ أخٌ من أمِّكَ؟ قال: كانَ لِي أخٌ من أمِّي هَلَكَ، قال: أحِبُّ أنْ أكون أخاكَ بدلَ أخِيكَ الهالِكَ؟ فقال: أيُّها الملِكُ ومَن يجدُ أخاً مثلكَ؟ لكن لَمْ يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ.

فخَنقَتْ يوسفُ العبرةُ، فبَكَى ثم وثبَ إليه فاعتنَقَهُ، و﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ ؛ وبكَى كلُّ واحدٍ منهما، ثم أعلَمَهُ يوسف أنه سَيحتَالُ في إحباسهِ عنده، ثم أذِنَ لإخوتهِ بعدَ ذلك في الدُّخولِ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لا تَحْزَنْ بما كانوا يعمَلون بي وبكَ مِن حَسدِنا، وصَرْفِ وجهِ أبينا عنَّا. فقد جمعَ اللهُ بيني وبينكَ، وأرجُو أن يجمعَ اللهَ بيننا وبين يعقوب، ثم أوفَى يوسفُ لإخوتهِ الكيلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ ؛ أي فلمَّا كَالَ لَهم، أمَرَ أصحابَهُ المختصِّين به أن يجعَلُوا الصاعَ في رَحْلِ أخيهِ بنيامين، وسُمِّيَ الصاعُ سقايةً؛ لأنه كان قبلَ ذلك مما يَستَقِي به الملِكُ الخمرَ وكان من ذهبٍ. وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ قَدَحاً مِنْ زُبُرْجَدٍ). وَقِيْلَ: كان من فضَّةٍ مُموَّهٍ بالذهَب، وكان الشُّربُ في مثلِ ذلك الإناء جائزاً في شَريعَتِهم، فلما كان في أيَّام القحطِ أمَرَ الملِكُ أن يُكالَ به الطعامُ للناسِ.

قِيلَ: فلمَّا قال يوسفُ لبنيامين: إنِّي أنا أخُوكَ، قال له: فإنِّي لا أفارقُكَ أبداً، قال يوسفُ: قد علمتُ اغتِمامَ وَالِدي لي، فأخافُ إنْ حبَستُكَ معي ازدادَ غَمُّهُ، ثم لا يُمكِنُني حَبْسُكَ إلاَّ بأنْ أشهِّرَكَ بأمرٍ فظيع، قال: لاَ أبالِي فافعَلْ ما شئتَ.

قال: فإنِّي أدُسُّ صَاعِي هذا في رَحلِكَ، ثم أنَـادِي عليـكَ بالسَّـرقة ليَتـهَيَّأَ لِـي حَبسُكَ معي، ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ، أي فلما رَحَلَـت إخـوةُ يوسـفَ نـادَى مُنَادٍ: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ وكـان النـداءُ علـى ظَـنٍّ مِـن هـؤلاءِ المُوَكَّلِين بالصاع أنَّهم كذلكَ.

ولم يكن هذا النداءُ بـأمرِ يُوسـف ولا يعلمـه؛ لأن الأنبيـاءَ عَلَيْـهِمُ السَّـلاَمُ لا يَأْمُرُونَ بالكذب، ومَن قالَ: إنَّ هذا النداءَ كان بأمرِ يُوسُفَ، فيحتملُ أنْ يكون معناهُ: إنَّكم لسَارِقُونَ يُوسُفَ على أبيهِ حين غيَّبتموهُ عنه. والعِيرُ اسـمٌ لقافلـةِ الْحَمِـيرِ دُون قافلةِ الإبلِ، ثم كثُرَ استعمالهُ في كلِّ قافلةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي قالَتْ إخوةُ يوسُفَ وَأقبَلُـوا علـى المنـادِي وأصحابـهِ: مـاذا تَطلبُـون أتنسِبُونا إلى السَّـرقَةِ، ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ ﴾ ؛ أي نطلُـبُ، ﴿ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ ﴾ ؛ والصُّـوَاعُ والصَّـاعُ واحـدٌ وهـو السِّقايَةُ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٍ ﴾ ؛ مـن الطَّعـامِ، ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي كَفِيلٌ، قالَ هذا القولَ المؤَذِّنُ، وقال لَهم أيضـاً: إنَّ الملِكَ قَدِ اتَّهمَنِي، وأخافُ عقوبتَهُ وسقوطَ مَنْزلَتِي عندَهُ إنْ لم أجدِ الصَّاعَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي حلَفُوا باللهِ وقالوا: لقد علِمتُم ما جِئْنَا لنُفسِـدَ في أرضِ مِصْـرَ بالسَّرقة مـن النـاسِ، ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ ما تَظُنُّونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي ما جزاءُ مَن سَرَقَ إنْ كنتم كَاذِبين، ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ السارقُ، ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ ﴾ أخِـذَ عَبداً لسَـرِقته، ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ ﴾ استِرقاقهُ، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي هكَذا جزاءُ السَّارقين في أرضِنا وهي سُنَّةُ يعقوبَ ، حكَمُوا على أنفسِهم بمـا كان يطلبُ يوسُفَ من احتباسِ أخيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ، أي فبدأ يوسفُ بتفتيـشِ أوعِيَتهم قبلَ وعـاءِ أخيـه، ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ ﴾ ؛ فلَمَّـا فَتَّـشَ وعـاءَ أخيهِ وجدَ الصَّاعَ، فلما رأى إخوةَ يوسُفَ ذلك، تحيَّرُوا ونَكَّسُوا رُؤوسَهـم، وقالـوا

لبنيامين: يَا ابْنَ المشؤومةِ وأخُو المشؤومِ! ما الذِي حَمَلَكَ على أن تسرُقَ صُواعَ الملكِ فتَفضَحَنا وتُزْري بأبيكَ يعقوبَ، فجعلَ يحلِفُ باللهِ ما سرقتهُ ولا عِلْمَ لِي بمن وضعَهُ.

فلم يقبَلُوا منهُ وقالوا له: فمَن وضعَهُ في متاعِكَ ؟ قال: الذِي وضعَ بضاعَتَكم في رحالِكم في المرَّة الأُولى، فقالُوا فيما بينهم: لعلَّ هذا الملكُ يريد بنَا أمراً، فبينما هُم في الخصومةِ إذ أقبلَ فتى يُوسف فأخذ برَقبَةِ بنيامينَ وذهبَ به إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ كذلك صَنَعنا ليوسُفَ حتى أخذ أخاهُ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ يوسُفَ كان مأذُوناً له من جهةِ الله في هذه الحيلةِ ليُضَاعِفَ الثوابَ ليعقوبَ على فَقدِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا كَانَ لِيَأْخُذ أخَاهُ فِي دِيـنِ الْمَلِكِ) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ماكان ليأخُذ أخاهُ في قضاءِ الملك، لأن من حُكم الملكِ في السَّارق أن يُضْرَبَ ويَغْرَمَ ضِعْفَي ما سَرَقَ، فلم يكن يوسفُ يتمكَّنُ من حبسِ أخيه عندَهُ في حُكم الملكِ لولا ما كادَ اللهُ له تلطُّفاً حتى وجدَ السبيلَ في ذلك، وهو ما جرَى عليه السنةُ إخوتِهِ أنَّ جزاءَ السارق الاسترقاقُ، فأمِرُوا به وكان ذلك مُراده، وهو معنى قولِهِ (إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ) وكانَ ذلك بمشيئةِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ؛ أي في العلمِ كما رفعنا درجةَ يوسف، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي فوقَ كلِّ عالِم عالِمٌ حتى ينتهي العلمُ إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ ﴾ ؛ لأبيهِ وأمِّه، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي قالَ إخوةُ يوسف: إنْ يسرقْ بنيامينُ سقايةَ الملكِ (فَقَدْ سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) يَعْنُونَ يوسف، وذلك أنَّ عمَّةَ يوسف كانت تُحِبُّهُ وهو صغيرٌ، وكان يعقوبُ لا يتركهُ عندَها، فاحتَالَتْ وجاءَتْ بمنْطقةِ أبيها إسحقَ فشَدَّتْها على وسط يوسُفَ تحتَ القميصِ، ثم قالت: فقد سَرَقَ مِنْطَقَةَ أبي فأنا آخذهُ بذلكَ. فهي التي أرادَ إخوتهُ بإضافتِهم السرقةَ إليه.

وعن مجاهدٍ: (أنَّ يُوسُفَ جَاءَهُ سَائِلٌ يَوْماً، فَسَرَقَ بَيْضَةً مِنَ الْبَيْتِ فَنَاوَلَهُ إيَّاهَا، فَعَيَّرُوهُ بذلِكَ). وَقِيْلَ: كان يُخبئُ الطعامَ من المائدةِ للفُقراء، وَقِيْلَ: جاءَ سائلٌ ولم يكن في المنْزل معه أحدٌ، فأعطاهُ جَدْياً من غيرِ أمرِ أبيه فهذه سَرقتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ ؛ أي أخَّرَ هذه الكلمةَ في نفسهِ، ولم يُظهِرْ لهم جَواباً، بل ﴿ قَالَ ﴾ ؛ في نفسهِ: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ؛ أي صُنعاً من يوسُف بما قدَّمتُم عليه من ظُلْمِ أخيكم وعُقوقِ أبيكُم، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ به يُوسُفَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ ؛ رُوي أنَّ يَهُودَا كان أشدَّ بني يعقوبَ غَضباً، وكان إذا غَضِبَ صاحَ فلا تسمَعُ صوتَهُ حَامِلٌ إلاَّ وضَعَتْ، وكان إذا غَضِبَ تقومُ كلُّ شعرةٍ من جسدهِ وتنتفخُ، فلا يسكنُ غضبهُ حتى يَمَسَّهُ واحدٌ من آلِ يعقوب.

فقال يَهُودا لبعضِ إخوَتهِ: انظرُوا كَمْ سُوقاً بمصْرَ؟ فنَظَروا فإذا هي عشرةٌ، فقالَ لإخوته: اكفوني مِن هذه الأسواقِ حتى أكفِيكُمْ من الملكِ، ثم قالَ: تباعَدُوا منِّي، فأمرَ يوسفُ ابناً له صَغيراً، فقال: اذهَبْ فمُسَّ ذلك الرجلُ، فدَنَا منه فمَسَّهُ فذهبَ غضبهُ، ثم هَمَّ أن يصيحَ ثانيةً، فقامَ إليه يوسفُ فرَكَضَهُ برجلهِ ليُريَهُ أنه شديدٌ، ودفعَهُ ثم أخذ بتَلاَبيبهِ فجَذبَهُ فوقعَ في الأرضِ. ثم قال: إنَّكم ترونَ مَعْشَرَ العبرانِّيين أنَّ أحداً ليس مِثلَكم في الشدَّة.

فقال يَهُودَا لإخوتهِ: هل مَسَّني أحدٌ من آلِ يعقوبَ؟ قالوا: لاَ، وذلَّ يهودا عند ذلكَ، وقال: يا أيُّها العزيزُ إنَّ له أباً شَيخاً كَبيراً في السنِّ، فذكَروا هذا على جهةِ الاستِرحَامِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: كبيرَ القَدْرِ لا يحسبن، أين مِثلهُ؟ فخُذْ أحدَنا مكانه عَبداً. وَقِيْلَ: وفي هذا دليلٌ أنه كان يجوزُ لإنسان أن يُرِقَّ نفسه لغيرهِ، وقد نُسِخَ هذا بشريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ إلى كلِّ مَن يأتيكَ وقد أوفَيتَ لنا الكيلَ، ورَدَدتَّ علينا بضَاعَتنا وقضَيتَ حاجَتنا، فإنْ رَدَدْتَّ معَنا أخانا كان أعظمَ مِنَّةٍ علينا مِن جميعِ ما سبقَ.

---

(١) هنا أدرج الناسخ عبارة: (وهنا كذا في تفسير عبدالصمد) وستأتي ترجمة عبدالصمد إن شاء الله وهو متأخر عن الإمام الطبراني.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يوسفُ: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وهذا نُصِبَ على المصدر؛ أي أعوذُ باللهِ، ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ ؛ أي أن آخذ بالسَّرقة، ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ؛ إذا فعَلنا ذلك كُنَّا ظَالمين، نحبسُ مَن لم نجدْ متاعَنا عندَهُ. يجوزُ أن يكون أرادَ إنَّا، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ، عندكم وفي حكمكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ ؛ أي لَمَّا يَئِسوا من يوسُفَ أن يَرُدَّ أخَاهم عليهم انفرَدُوا مُتناجِينَ فيما بينهم يتشاوَرُون كيفَ يرجِعون إلى أبيهم وماذا يقُولون له. والتَّنجِّي مصدرٌ يُعَبرُ بِهِ عن الواحدِ والجميعِ، وقد يُجْمَعُ النَّجِيُّ أنْجِيَةً، قال الشاعر(١):

إنِّي إذا مَا الْقَوْمُ صَارُواْ أنْجِيَهْ وَاخْتَلَفَتْ أعْنَاقُهُمْ الأَرْشِيَهْ
هُنَاكَ أَوْصِي وَلاَ يُوصَى بِيَهْ(٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قالَ لهم رُوبيل وهو أكبرُهم في السنِّ: ألَمْ تعلَمُوا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم عَهْداً من اللهِ لَتَرُدُّنَّهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ ؛ أي وتعلَمُون تفريطكم في يوسف، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرضَ مصرَ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في البَرَاحِ، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ ؛ في موتٍ، أو وصُولٍ إلى أخي فأرُدُّهُ إلى أبيهِ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ لا يحكمُ إلا بالحقِّ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج٩ ص٢٤١. واللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص١٧٨:

إنِّي إذا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أنْجِيَهْ وَاضْطَرَبَ الْقَوْمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَهْ
هُنَاكَ أَوْصِينِي وَلاَ تُوصِي بِيَهْ

والشاعر هو سُحيم بن وثيل اليربوعي يصفُ قوماً أتعبَهم السيرُ والسفر فرقدوا على ركابهم واضطربوا عليها، وشدَّ بعضهم على ناقتهِ حذارَ سُقوطه. والأرشية: هي الحبَالُ التي يُستَقى بها، والمراد أنه ثابتُ الجاشِ.

(٢) هكذا الشعر في المخطوط، وتختلفُ روايته عما في الجامع لأحكام القرآن.

ثُم قالَ لإخوتهِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ؛ صُوَاعَ الملكِ. وقرأ ابنُ عبَّاس (سُرِّقَ) بضـمِّ السـين وتشـديدِ الـراء، ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ؛ إخبارٌ عن ظاهر وجودِ الصَّاع في رَحْلِ بنيامين أنه هو الآخذُ لـه، ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي ما كُنَّا ندري باطنَ الأمرِ في السَّـرقة أنه سَرَقَ أو كُذِبَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ ؛ أي اسألْ مَن شِـئتَ مـن أهلِ القرية التي كُنَّا فيها وهي مصرَ، فإنَّ هذا أمرٌ شائع فيهم، يُخْـبرْكَ بـه مَـن سـألتَهُ. وسَمَّى مصرَ قريةً؛ لأن العربَ تُسمِّي الأمصارَ والمدائنَ قُرَى. وَقِيْلَ: أرادَ بالقريةِ قريةً من قُرَى مصرَ وهي التي ارتَحلُوا من مصرَ إليها.

قوله: ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ؛ أي واسألْ أهلَ القافلةِ التي رجَعنا منهم، وكان قد صَحِبَــهم قـومُ كنعـان. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي لصَادِقون فيما نقولُ لكَ. فقالَ لَهم يعقوبُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ؛ أي قالَ: إنَّ ابنِي لا يسرقُ، وإنَّما سهَّلَت لكم أنفسُكم أمراً إذا قُلتـم فيـه سَرَقَ، فـأمرِي صبرٌ جميل لا جَزَعَ فيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ؛ أي بيوسُفَ وبنيـامينَ وروبيل، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ ؛ بعبـادهِ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في تدبـيرِ أمرِ خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ؛ أي أعْـرَضَ عنـهم لشـدَّة الحـزن، ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ؛ أي أقْبِـلْ أيُّــها الأسَــفُ فقــد حــانَ وقتُــكَ، والأسَــفُ والحزنُ واحدٌ. وَقِيْلَ: الأسَـفُ أشـدُّ مـن الحـزن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ ، من شدَّة البُكاءِ وإلاّ فالحزنُ لا يُبَيِّضُ العينَ، والدمعُ ممـا لا يمكـن

الاحترازُ عنه كما قالَ ﷺ: [الْقَلْبُ يَحْزَنُ وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي مُمسِكٌ للحُزن يـترَدَّدُ حزنـهُ في جَوفهِ، وقال عطاءُ: (الْكَظِيمُ الْحَزِينُ)، وقال الضحَّاك: (كَمِيدٌ)، وقـال ابـنُ عبَّـاس: (مَـهْمُومٌ) قـال مقـاتلُ: (لَـمْ يُبْصِـرْ بعَيْنَيْـنِ سِـتَّ سِنِينَ حَتَّـى كَشَـفَهُ اللهُ بقَمِيـصِ يُوسُفَ)[2]، قِيْلَ: بلغَ من حُزنِ يعقوبَ حزنَ سَبعين ثكلَى[3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي قالَ أولادُ يعقـوبَ: واللهِ لا تـزالُ تذكـرُ يوسفَ حتى تكون دَنفاً[4] أو تَموت، والْحَرَضُ الذائِبُ البَالِي. وعن الحسنِ: (حَتَّـى تَكُونَ حُرُضاً) بضَمَّتَيْنِ، أرَادَ كَالأشْـنَانِ الْمَوْقُـوفِ. وقـال الربيـعُ: (الْحَـرْضُ يَـابسُ الْجِلْدِ عَلَى الْعَظْمِ). وَقِيْلَ: هو الضَّعيفُ الذي لا حِرَاكَ به.

وإنما أضمرَ (لاَ) في قولهِ (تَفْتَؤُ) لأنَّ العربَ تقولُ: واللهِ تدخلُ هذا الدارَ، تريدُ بذلك نفيَ الدخولِ، فإذا أرادَتْ للإثباتِ قالت: لَتَدْخُلُنَّ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي قـــالَ يعقوبُ: إنَّما أشْكُو غَمِّي وحُزْنِي إلى اللهِ. والْبَثُّ: هـو تفريـقُ الحـزنِ الـذي لا يكـادُ يصبرُ عنه صاحبهُ حتى يَبُثَّهُ.

ورُوي أنَّ رجُلاً قالَ ليعقوب عليه السلام: مَا الذي أذهبَ بصَرَكَ؟ قال: حُزْنِي علـى يوسُفَ، قال: فما الذي قَوَّسَ ظَهرَك ؟ قال: حُزني على أخيـهِ. فـأوحَى اللهُ إليـه: يـا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب قول النبي ﷺ [إنَّا بكَ لَمَحْزُونُونَ]: الحديث (١٣٠٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب رحمتـه صَلَّـى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ بالصبيـان: الحديث (٦٢/ ٢٣١٥).

(٢) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص١٦١ ذكره مختصراً.

(٣) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٠٥٥) عن عبيدالله بن أبي جعفر.

(٤) الدنف: الشيء البالي التالف. وفي إعراب القرآن: ج ٢ ص٢١٣؛ قـال النحـاس: (حَـرَضَ: إذا بَلِيَ وسَقِمَ). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٢٥١؛ قال القرطبي: (وأصل الْحَرَضِ: الفسادُ في الجسم أو العقلِ من الحزن أو العشق، أو الهرَم).

يعقوبُ أتَشْكُونِي؟ وعِزَّتِي لا أكشفُ ما بكَ حتى تَدعُوَنِي، فقال عند ذلك: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إِلَى اللهِ) فأوحَى اللهُ إليه: وعِزَّتِي وجَلالِي لو كانَا مَيِّتَينِ لأحيَيتُهما لكَ حتى تنظُرَ إليهما.

وَقِيْلَ: إنَّ رجُلاً دخلَ عليه فقالَ له: يا يعقوبُ ما لِي أراكَ قد انْهَشَمْتَ وَفَنَيْتَ؟ قال: هَشَّمَنِي وَأفْنَانِي ما ابتلانِي اللهُ به من هَمِّ يوسُفَ، فأوحَى اللهُ إليه: أتَشْكُونِي إلى خَلقِي؟ فقالَ: يا رب خطيئةٌ أخطأتُها فاغفِرْها لِي، فقال: قد غفرتُها لكَ، فكان بعدَ ذلك إذا سُئِلَ قال: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إِلَى اللهِ).

قال وهبُ بن منبه: (أوحَى اللهُ إلى يعقوبَ: أتدري لِمَ عاقبتُكَ وحبستُ عنك يوسف ثمانين سنةً؟ فقالَ: لاَ، قال: لأنَّكَ شويتَ وقتَّرْتَ على جارِكَ وأكلتَ ولم تُطعِمْهُ!)[1]. ويقالُ: إن سببَ ابتلاءِ يعقوب، أنه كان له بقرةٌ وكان لها عِجْلٌ، فذبحَ عِجلَها بين يديها وهي تخورُ، فلم يَرحَمْها يعقوبُ فأخذهُ الله به وابتلاهُ بفقدِ أعزِّ أولادهِ من وسيطِ الواحد!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي أعلمُ أن رُؤيا يوسف صادقةٌ وإنَّا سنسجدُ له. وَقِيْلَ: أعلمُ أن يوسف حيٌّ لم يَمُتْ؛ لأنه روِيَ أن مَلَكَ الموتِ دخلَ على يعقوبَ، فقال له يعقوبُ: هل قبضتَ روحَ ولَدي يوسف في الأرواحِ؟ قال: لاَ وستراهُ عاجلاً[2].

فعندَ ذلك قال يعقوبُ لأولادهِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ؛ أي اذهبُوا واستَخبِرُوا واطلبُوا يوسفَ وأخاهُ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: فالْتَمِسُوا يُوسُفَ وَأخَاهُ)، ﴿ وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي لا تقنطُوا من فَرَجِ اللهِ، ﴿ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ وسُئل ابنُ عبَّاس عن الفرقِ بين التَّحْسِيسِ وَالتَّجْسِيسِ، فقالَ: (التَّحسُّسُ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّجَسُّسُ فِي الشَّرِّ).

---

(١) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي). وهو في تفسير الكشف والبيان للثعلبي: ج ٥ ص٢٤٩.

(٢) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير عبد الصمد).

ورُوي أن يعقوبَ كتبَ كتاباً إلى عزيزِ مصــرَ: بسـمِ الله الرَّحمـنِ الرحيـم: مـن يعقوبَ بن اسحقَ بن إبراهيم إلى عزيز مصرَ، أمَا فإنَّا أهلُ بيتٍ موكَّل بنا البلاءُ، ابتلَى اللهُ جَدِّي بأن طُرِحَ في النار فجعلَها اللهُ عليه بَرْداً وسَـلاَماً، وابتَلَـى عمِّـي إسمـاعيلَ بالذبْحِ، ففداهُ الله بكَبْشٍ عظيمٍ، وابتلَى أبي بالعمَى، وابتُلِيتُ أنا بغَيْبَـةِ ابنِـي يوسُـفَ فذهبَ بصَري، وزعمتَ أنَّ ابني سَرَقَ، وما ولدتُ سَارقاً، فخَلِّ سبيلَ ابـني وإلا فـإن اللهَ يفعلُ ما يشاء.

ثم دفعَ الكتابَ إلى أولادهِ وقال لَهم: إذا دخلتُم عليه فقولوا: يَا أيُّا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأهْلَنَا الضُرُّ، فذلكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ؛ أي فلمَّا دخَلُوا في المرَّة الثالثةِ قالوا: يا أيُّها العزيزُ مسَّـنا وأهلَنـا الشـدَّةُ مـن القحـطِ، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ ؛ أي قليلةٍ كاسِدَة، والْمُزْجَاةُ: هي الشيءُ اليسير الذي يدافَعُ بهِ. روي أنَّهم جاؤا بمتاعِ الأعراب مثـل الأقـطِ والْجُبْـنِ والسَّـمْنِ والصـوفِ، وَقِيْلَ: جاؤا بدراهم رَديئةٍ لا تنفَقُ في الطعامِ، وقال الضحاك: (النِّعَالُ وَالأَدْمُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ؛ أي وفِّر لنا الكيل، كمـا كنت توفر في السنين الماضية، ولا تنظر الى قلة بضاعتنا في هذه السـنة، وتصـدق علينـا بنقصان السعر.

وقال سفيان بـن عيينـة: (سَـألُوا الصَّدَقَـةَ وَهُـمْ أنْبيَـاءُ، وَكَـانَتْ حَـلاَلاً لَـهُمْ، وَإنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَى النَّبيِّ ﷺ)(١)، وكره مجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصــدق علينا، فـان الصدقـة إنمـا هـي ممـن يبتغـي الثـواب، وقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي على صدقاتهم بأفضل منها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ رُوي أنَّهم لما دفعُوا الكتابَ إليـه وقـراهُ، ارعـدَ حتـى سـقطَ الكتابُ من يدهِ، ثم انتحبَ انْتِحَابَةً كادَ أن يتقطَّعَ منها قلبهُ، وقال لَهم عند ذلكَ: هل

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٠٩٤).

علمتُم ما فعلتم بيوسُفَ وأخيهِ، وقصَّ عليهم جميعَ ما عمِلوهُ به من إلقائِهم إياهُ في الْجُب، وبَيعِهم له وقولِهم: إنْ يَسرِقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبلُ، وفعلِهم بأخيهِ حتى صارَ ذليلاً فيما بينهم. وأرادَ بقولهِ (إذْ أنْتُمْ جَاهِلُونَ) جهالةَ الصِّبا، وَقِيْلَ: أرادَ إذ أنتم شبابٌ أحداث لا تعرفون أمُورَ الدين.

فلما قصَّ عليهم ذلك، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ ؛ بصبرنا على الشدَّة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ ؛ المعاصيَ، ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ ؛ على الشدائدِ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ﴾ ؛ أي ثوابَ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ ؛ أي فضَّلَكَ بما أنعمَ عليكَ، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ ؛ أي وقد كُنَّا عاصين للهِ في ما فعَلنا، وهذا يدلُّ على أنَّهم نَدِموا على ما فعلوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ؛ أي لا تَغْييرَ عليكم اليومَ؛ أي لا أذكرُ لكم ذنبَكم بعد هذا اليوم. وقال ابنُ عبَّاس: (لاَ لَوْمَ عَلَيْكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ ؛ بعبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ ؛ أي قالَ لَهم: اذهبوا بقميصي هذا فألقوهُ على وجهِ أبي يرجعُ، ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ ؛ كما كانَ، قال الضحَّاك: (كَانَ ذلِكَ الْقَمِيصُ مِنْ نَسْجِ الْجَنَّةِ). وقولهُ تعالى: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ ؛ رُوي أنَّهم كانوا نحو سَبعين إنساناً.

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ ؛ رُوي أنه لَمَّا خَرجت القافلةُ من العريش وهي قريةٌ بين مصرَ وكنعان، بينهم وبين يعقوب ثمانية أيَّام، ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ ، قال يعقوبُ لولدِ وَلَدِه، وكان أولادُه كلُّهم بمصرَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ . رُوي أن الريحَ حَملت رائحةَ يوسف إلى أبيهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ ، تُسَفِّهُوني في الرأيِ لقُلتُ إنه حيٌّ.

وقال الخليلُ: (الْفَنْدُ إنْكَارُ الْعَقْلِ مِنْ هَرَمٍ، يُقَالُ شَيْخٌ مُفْنِدٌ، وَلاَ يُقَالُ عَجُوزٌ مُفْنِدَةٌ؛ لأنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي شَبيبَتِهَا ذاتَ رَأيٍ فَتُفْنِدُ). وقال ابنُ عبَّاس: (تُفَنِّدُونِ

تُجهِّلُون)[١]، وعن مجاهد: (لَوْلاَ أنْ يَقُولُوا ذهَبَ عَقْلُكَ)[٢]، وقال الضحَّاك وابنُ جبير: (لَوْلاَ أنْ تُكَذِّبُون)، وَقِيْلَ: لولا أنْ تقولوا إنِّي شيخٌ خَرِفٌ، وقال أبو عُبيدة: (تُضَلِّلُون)، والفَنَدُ الْفَسَادُ، قال الشاعر[٣]:

يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أمْرِي بِمَرْدُودِ

وفي بعضِ الرِّوايات: أنَّ ذلك القميصَ كان من الجنَّة، وكان اللهُ ألبسَهُ إبراهيمَ حين أُلقي في النار فصارت عليه بَرْداً وسلاماً، ثم كساهُ إبراهيمُ اسحقَ وكساهُ يعقوبَ، وكان يعقوبُ أدرجَ ذلك القميصَ في قصبةٍ وعلَّقه على يوسف لما كان يخافُ عليه من العينِ. وأمرَهُ جبريلُ أن أرسِلْ إليه قميصكَ هذا فإن فيه ريحَ الجنَّة، لا يقعُ على مُبتلَى أو سَقيمٍ إلا عُوفِيَ، فلذلك أصابَ يعقوب ريحه من بعد ثمانيةِ أيَّام، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾؛ البشيرُ هو يَهُوذَا، وذلك أن يهوذَا قال ليوسفَ: أنا ذهبتُ بالقميصِ وهو ملطَّخٌ بالدمِ إليه، فأنا أذهبُ بالقميصِ إليه فأُخبرهُ بأنَّكَ حيٌّ وأفرِّحُهُ كما أحزنتهُ، فكان هو البشيرُ، فحملَ القميصَ وخرجَ حاسراً حافياً، وكان معه سبعةُ أرغفةٍ لم يشوَّقْ أكلَها حتى بلغَ كنعان، وكانت المسافةُ ثمانين فرسخاً، فلما أتاهُ ألقاه على وجههِ فارتدَّ بصيراً.

قال الضحَّاك: (رَجَعَ بَصَرُهُ بَعْدَ العَمي، وَقُوَّتُهُ بَعْدَ الضَّعْفِ، وَشَبَابُهُ بَعْدَ الْهَرَمِ، وَسُرُورُهُ بَعْدَ الْحُزْنِ)، ثم قال يعقوبُ للبشيرِ: على أيِّ دينٍ تركتَ يوسف؟ قال: على الإسلامِ، قال: الآنَ تَمَّتِ النعمةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي ألَمْ أقُلْ لكم إن يوسُفَ حيٌّ، وكنتم لا تعلمون ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥١١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥١٢٠).

(٣) هانئ بن شكيم العدوي، ينظر: جامع البيان: تفسير الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ ؛ أي ادعُ اللهَ أن يغفرَ لنا ذنُوبَنا، ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي مسيئين عاصِين لله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ ﴾ ؛ رُوي أنه قال لَهم يوسف: أدعُو لكم ربي ليلةَ الجمعة آخرَ السَّحَر، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ﴾ ؛ لعبادهِ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ لَهم، ويقال: إنَّهم التَمَسُوا منه أن يستغفرَ لهم على الدوامِ، وأن يجعلَهم في وِرْدِهِ في الدُّعاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ ؛ رُوي أن يوسف كان يبعثُ إلى يعقوبَ بمائتي راحلةٍ، وسألَهُ أن يأتيَهُ بأهلِهِ أجمعين، فتهيَّأ يعقوبُ للخروجِ، فلما دنَا من مصرَ، وكان يوسف قد خرجَ في أربعةِ آلاف من الجند، فلما رأى يعقوب الخيلَ قال: ما هذا ؟

قال: هو ابْنُكَ، فلما دنَا كلُّ واحد من صاحبهِ، ابتدأ يعقوبُ بالسلامِ فقال: السلامُ عليكَ يا مُذهِبَ الأحزانِ، ثم عانقَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ وبَكيَا. فقال يوسفُ: يا أبَتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهبَ بصَرُكَ ؟ قال: نعم، قال: يا أبَتِ حزنتَ عليَّ حتى انحنيتَ ؟ قال: نعم، قال: يا أبتِ أما علمتَ أن القيامةَ تجمَعُنا؟ قال: إنِّي خشيتُ أن يُسلَبَ دِينُكَ فلا نجتمعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْـهِ) أي ضمَّهُما إلى نفسهِ وأنزلَهما عندَهُ، قال عامَّةُ المفسِّرين: يعني أباهُ وخالتَهُ؛ لأن أمَّهُ كانت قد ماتتْ قبلَ ذلك، وكان موتُها نفاسها ببنيامين، ولأن بنيامين بلغةِ العبرانية ابنُ الوجيعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ من العدُوِّ والقحطِ والأسْواءِ كلِّها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ؛ أي رفعَهُما معه على سريرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ ؛ أي سجدَ له أبوهُ وخالته وإخوتهُ الأحدَ عشر سجودَ تحيَّةٍ وتشريف، وكان في ذلك الزمان يسجدُ الوضيعُ للشريفِ، وقد تقدَّمَ نَسْخُ هذا السجودِ في سورة البقرة، وعن عمرَ ﷺ: (أنَّهُ خَرَجَ إلَى بَعْضِ

الْقُرَى، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَئِيسُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَسَجَدَ لَهُ، فَقَالَ: مَا هَذَا ؟! قَالَ: شَيْءٌ نَصْنَعُهُ لِلأُمَرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ، فَقَالَ: اُسْجُدْ لِرَبِكَ الَّذِي خَلَقَكَ).

ويقالُ في معنى هذا: إنَّهم سَجَدوا شُكراً للهِ على ما أنعمَ اللهُ عليهم من اجتماعِهم على أيسَرِ الأحوال. ويجوزُ أن يكون معنى السجودُ الْمَيَلاَنُ والانحناءُ، عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَخَرُّوا للهِ سُجَّداً)، وقولهُ (لَهُ) كنايةٌ عن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي هذا السجودُ تصديقُ رُؤيَايَ التي رأيتُها من قبلُ، ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾ أي أحسنَ إليَّ، ﴿ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ ؛ هذا ثناءٌ منه على اللهِ تعالى بإنعامهِ عليه؛ إذ خَلَّصَهُ ونَجَّاهُ من العبوديَّة، ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ ، وجاءَ بأبيهِ وإخوتهِ من الباديةِ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ ؛ بالحسدِ، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي لطيفٌ في تدبيرِ عباده وبلُطفهِ جمعَ بيننا على أحسنِ الأحوال، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ؛ بمصالح عباده، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ﴾ في تدبيرِهم.

واختلَفُوا في المدَّة التي كانت بين رُؤيا يوسف وبين تصدِيقِها، قال سلمانُ رضي الله عنه: (أرْبَعُونَ سَنَةً)[1]، وقال ابنُ عبَّاس: (اثْنَان وَعُشْرُونَ سَنَةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ ؛ يعني مُلكَ مصرَ أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً، ﴿ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ ؛ أي تعبيرِ الرُّؤيا وتأويل كُتب الدين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ نُصِبَ على النداء؛ أي يا فاطرَ السماءِ والأرض مُنشِئُهما على غيرِ مثال، ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ ؛ أي تتولَّى حِفظِي وصيانتي، ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾ ؛ أي الطُفْ بي لُطفاً اثبتُ به على الإيمانِ إلى أن يلحقَني الموت، ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ ؛ يعني يلحقهُ بآبائه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٥١٧٣ و١٥١٧٥) بأسانيد عن سلمان الفارسي.

وأما ما كان من أمر زُليخا فإنه لما ماتَ العزيزُ وبَقِيت أرملةً، قالت: أنا مِن يوسف على رجاءٍ، وأمري كلَّ يوم إلى نقصٍ؛ وذلك بمَعصيَتي لآلهِ يوسف، فكيف لا أقومُ إلى هذا الصَّنم المشؤومِ فأجعلهُ جُذاذاً، والْحَقْ بيوسف وأسلِمُ على يدهِ؟ لعلَّ إلَهَهُ يرحَمُني ويقضي حاجَتي، فقامت وكسرت صنَمَها وجاءت إلى طريق يوسف، فوقفت له في يوم ركُوبهِ فأقبلَ مع الأعلامِ والراياتِ مكتوبات عليها: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أدْعُوا إلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلمَّا صارَ يوسف بحذاءِ زُليخا نادت: سُبحان من يعلي العبيد ويجعلَهم مُلوكاً بطاعتهِ، ويذِلُّ الموالِي ويجعلهم عبيداً بمعصيتهِ. فسَمِعَ ذلك يوسف فقال: علَيَّ بصاحبةِ هذا الكلام، فأُتِيَ بها إليه فقال: مَن أنتِ ؟ قالت: زُليخا أمَا تعرفُني؟! قال: لا، قالت: قد أنكرتَني؟ قال: أشدَّ الإنكار، قالت: أنا الذي راودتُك عن نفسك فاستعصمتَ بإلهِ السَّماء، فرفعَكَ ووضعَني؛ وأعزَّكَ وأذلَّني؛ وأغناكَ وأفقرَني، فعلمتُ أني في باطلٍ وغُرورٍ، فكسرتُ صنَمِي وجئتُكَ طائعةً مؤمنةً أقولُ: لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ، لِيَرْحَمَنِي، فوقعت رحمتُها في قلبهِ، فقالَ: سَلِي حاجتَكِ، قالت: أتفعلُ ؟ قال: نعم، قالت: لي ثلاثُ حوائجَ يا يوسف قد ذهبَ بصَري فادعُ اللهَ أن يرُدَّ عليَّ لأنظُرَ إلى جمال وجهك، فدعا اللهَ فردَّ عليها بصرَها فأقبلت تنظرُ إلى يوسف، ثم قالت: وادعُ اللهَ أن يرُدَّ علي حُسني وجَمالي، فدعَا اللهَ فردَّه عليها ذلك.

فلما نظرَ يوسفُ إليها نكَّسَ رأسه وقال: أما تسألِي الثالثةَ يا رأسَ الفتنةِ؟ قالت: تتزوَّجُ بي حلالاً؟ قال لها: قُومِي يا رأسَ الفتنةِ هذه حاجةٌ ليس في نفسي قضاؤُها، قالت: أما أنا فلا أقنطُ من رحمةِ الله، فنزل جبريلُ على يوسف وقال: إن اللهَ يأمرُكَ أن تتزوجَ بها، فجعلت تحمدُ اللهَ وتشكرهُ فتزوَّجَها، فلما دخلَ بها وجدَها عذراءَ، فولَدَت له وَلَدَين، وأقامَ يعقوبُ عند يوسف ثماني عشرةَ سنةً، ومات قبل يوسف بسنتين.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي ذكرتُ لكَ يا مُحَمَّد من قصَّة يوسف وإخوته من أخبار ما غابَ علمهُ عنكَ نوحيه إليك. قولهُ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ ؛ أي وما كنتَ عندهم إذ

عزَمُوا أمرَهم على إلقاءِ يوسف في الْجُب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ؛ به، وكان مَكرُهم إلقاءَهم إياه في البئرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ؛ أي وما أكثرُ الناسِ بمؤمنين بالقرآن والرسول ولو حرصتَ يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الإيمان وجهدتَ كلَّ الجهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ؛ أي وما تسألُهم يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الله من جُعْل في مالِهم فيصدُّهم ذلك عن الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ؛ أي ما القرآنُ إلا موعظةٌ للعالَمين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ؛ أي فكَم من آيةٍ دالَّة على وحدانيَّة اللهِ مما في السَّموات من الشمسِ والقمر والنجوم، وما في الأرضِ من الأشجار والجبال والنبات وغير ذلك من الحيوانات، يرَونها ويشاهدونها ثم لا يستدلُّون بذلك على أنَّ لها مُدبراً حكيماً عليماً قادراً لا يشبهُهُ شيء من المخلوقاتِ. ويقال: أرادَ بالآياتِ التي في الأرضِ آيات عادٍ وثمود وقومِ لوط وغيرهم، كان أهلُ مكة يَمُرُّونَ عليها في أسفارهم ولا يتَّعظون بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ ؛ أي ما يُصدِّقُ أكثرُهم بلسانِهم إلا وهم مُشركون به غيرَهُ؛ لأنَّهم يؤمنون من وجهٍ، كما قال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[(١)] ويُشركون من وجهٍ وهو عبادتُهم الأصنامَ، وقال الحسنُ: (الْمُرَادُ بهَذِهِ الآيَةِ أهْلُ الْكِتَاب مَعَهُمْ إيْمَانٌ مِنْ وَجْهٍ وَشِرْكٌ مِنْ وَجْهٍ، فَإنَّ مَعَ الْيَهُودِ إيْمَاناً بمُوسَى وَكُفْراً بمُحَمَّدٍ ﷺ).

قولُهُ: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي أفأمِنَ الكفارُ أن يغشاهم العذابُ من اللهِ، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ بنزول العذاب.

---

(١) الزخرف / ٨٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ ؛ أي هذه الدَّعوةُ دِيني، وإنما قالَ: (هَذِهِ) لأن السبيلَ يذكَّر ويُؤنَّث، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ؛ على معرفةٍ مِنّي بـالله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ؛ معناهُ: يدعُو إلى اللهِ، ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي وقُل: سبحانَ اللهِ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي لستُ معَهم على دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي وما أرسَلنا مِن قبلِكَ يا مُحَمَّدُ إلا رجَالاً منسُوبين إلى القُرى مثلكَ يُوحَى إليهم كما يوحَى إليكَ، قال الحسنُ: (لَمْ يُرْسِلِ اللهُ امْرَأةً وَلاَ رَسُولاً مِنْ أهْلِ الْبَادِيَةِ؛ وَذلِكَ لأنَّ أهْلَ الأَمْصَارِ يَكُونُونَ أثْبَتَ عُقُولاً مِنْ أهْلِ الْبَادِيَةِ، وَأشَدَّ أحْلاَماً مِنْهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ يعني أفلَم يسير أهلُ مكة في الأرض، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾ ؛ فيَرَوا آثارَ ديار، ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الكفَّار فيخافون ما ينْزِلُ بهم من عذاب الله وما نزلَ بأولئِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ يعني قولهُ (دَارُ الآخِرَةِ) الجنَّة (خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوا) الكفرَ والفواحشَ (أفَلاَ يَعْقِلُونَ) معناهُ: أفليسَ لهم ذهنُ الإنسانية أنَّ الآخرةَ الباقيةَ خيرٌ من الدنيا الفانيةِ، وأضافَ الدارَ إلى الآخرةِ على سبيلِ إضافة الشيء إلى نفسه كما يقالُ يومُ الجمُعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ ؛ أي حتى إذا يَئِسَ الرسلُ عن إجابة الأُمَم وأيقنـوا أن القـومَ، (قَـد كُذِبُـوا)؛ تكذيباً لا يرجعـون عنـه، ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾ ؛ بـإهلاكِ قومـهم، ومـن قـرأ (كُذِبُوا) بالتخفيف فمعناهُ: وظنَّ المرسَلُ إليهم أن الرُّسُلَ قد كذبُوهم في ما أوعَدُوهم من العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرَدُّ عذابُنا عن الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ؛ أي لقـد كان في قَصَصِ مَن تقدَّم من الأنبياءِ عبرةٌ لذوي العقول من النـاس. وَقِيْـلَ: إن قصـة يوسف وإخوته عبرةٌ لمن أرادَ أن يعتبرَ فيصبر على البلاءِ والْمِحَنِ، كما صبرَ يعقـوبُ

ويوسف حتى خَتَمَ اللهُ لهما بالْمُلْكِ والعُلُوِّ، والفرَجِ من الأحزان، ولا يَحْسُدُ أحداً كما حَسَدَ إخوة يوسف، فلم يُغْنِ عنهم كَيدُهم شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ أي ما كان القرآنُ حديثاً يُختلَقُ ولكن كان تَصديقاً للكُتب التي بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما، ومَن قرأ (تَصْدِيقُ) بالرفع فعلى إضمار هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي وبيانَ كلِّ شيءٍ يحتاجُ الناس إليه في دِينهم، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ ودلالةً ونجاةً من العذاب الأليم لقوم يصدِّقون بمُحَمَّدٍ والقرآنِ.

آخر تفسير سورة (**يوسف**) والحمد لله رب العالمين

آخر المجلد الثالث

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

فهرس المجلد الثالث

سورة الأنعام	
الآيات	الصفحة
١-٣٤	٥
٣٥-٧٠	٢٤
٧١-١١٣	٤٨
١١٤-١٦٥	٧٨

سورة الأعراف	
الآيات	الصفحة
١-٢٧	١١٥
٢٨-٥٠	١٣٢
٥١-٩٠	١٤٦
٩١-١٦٠	١٧٢
١٦١-٢٠٦	٢٠٥

سورة الأنفال	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٢٣٥
٢٩-٧٥	٢٥٤

سورة التوبة	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٢٨٣
٣١-٦٠	٣٠٦
٦١-٩٣	٣٢٩
٩٤-١٢٩	٣٤٩

سورة يونس	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٣٧١
٤٧-١٠٩	٣٩٤

سورة هود	
الآيات	الصفحة
١-٥٧	٤١٥
٥٧-١٢٣	٤٤١
سورة يوسف	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	٤٦٤
٥١-١١١	٤٩١